المنظمة العربية للترجمة

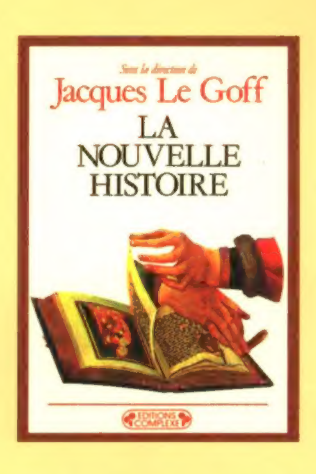
إشراف
جاك لوغوف

التاريخ الجديد

ترجمة وتقديم
د. محمد الطاهر المنصوري

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

التاريـخ الجديـد



- أصول المعرفة العلمية
- ثقافة علمية معاصرة
- فلسفة
- علوم إنسانية واجتماعية
- تقنيات وعلوم تطبيقية
- آداب وفنون
- لسانيات ومعاجم



المنظمة العربية للترجمة

يحتوي هذا الكتاب عشرَ مقالات أساسية تتناول بالدرس حقول «التاريخ الجديد» ومفاهيمه، واتجاهاته البحثية، والمراحل التي قطعها:

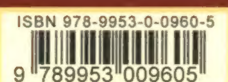
جاك لوغوف : التاريخ الجديد
ميشيل فوفيل : التاريخ والأمد الطويل
كريزيستوف بوميان: تاريخ البُنى
أندريه بورغيار : الأنثروبولوجيا التاريخية
فيليب أرياس : تاريخ الذهنيات
جان ـ ماري بيساز : تاريخ الثقافة المادية
جان لاكوتور : التاريخ الآني
غي بوا : الماركسية والتاريخ الجديد
جان كلود شميت : تاريخ الهامشيين
إفلين باتلاجين : تاريخ المتخيَّل

إنّ مجموع هذه المقالات الأساسية يُتيح للقارئ أن يعرف التاريخ «الجديد» وأن يفهمه، من خلال أفكاره الرئيسية، وأهدافه، ومجاله الفكري والعلمي، وأن يطّلع على إنجازاته.

- **جاك لوغوف**: ولد سنة 1924. من أبرز المؤرخين الفرنسيين، متخصص في العصر الوسيط. من مؤلفاته الشهيرة: *L'imaginaire médiéval* (1985), *Pour un autre Moyen-Age* (1977).

- **محمد الطاهر المنصوري**: أستاذ التاريخ بالجامعة التونسية. من مؤلفاته: **العلاقات بين مصر المماليك والإمبراطورية البيزنطية** (1992) **وقاموس المصطلحات البيزنطية** (2003) **وما بين الخمار والزنار أو قوانين اللباس في العالم الإسلامي الوسيط** (2007).

الثمن: 18 دولاراً
أو ما يعادلها


ISBN 978-9953-0-0960-5

المنظمة العربية للترجمة

إشـــراف

جـاك لـوغـوف

التاريـــخ الجديـــد

ترجمة وتقديم

د. محمد الطاهر المنصوري

مراجعة

د. عبد الحميد هنية

الفهرسة أثناء النشر - إعداد المنظمة العربية للترجمة

التاريخ الجديد/ إشراف جاك لوغوف؛ ترجمة محمد الطاهر المنصوري؛ مراجعة عبد الحميد هنية.

611 ص. - (علوم إنسانية واجتماعية)

ببليوغرافية: ص 545 - 585.

يشتمل على فهرس.

ISBN 978-9953-0-0960-5

1. فرنسا - تاريخ - العصر الحديث. 2. الجغرافيا التاريخية - فرنسا. 3. المؤرخون - فرنسا. أ. العنوان. ب. لوغوف، جاك (مشرف). ج. المنصوري، محمد الطاهر (مترجم). هـ. هنية، عبد الحميد (مُراجع). د. السلسلة.

944.08



المنظمة العربية للترجمة

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 5996 - 113
الحمراء - بيروت 2090 1103 - لبنان
هاتف: 753031 (9611) / فاكس: 753032 (9611)
e-mail: info@aot.org.lb - http://www.aot.org.lb

توزيع: **مركز دراسات الوحدة العربية**
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 6001 - 113
الحمراء - بيروت 2407 2034 - لبنان
تلفون: 750084 - 750085 - 750086 (9611)
برقياً: «مرعربي» - بيروت / فاكس: 750088 (9611)
e-mail: info@caus.org.lb - Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، تموز (يوليو) 2007

المحتويات



مقدمة المترجم

كتب ابن خلدون في عرض حديثه عن صناعة التاريخ: «إعلم أنه لما كانت حقيقة التأريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعة الأحوال...»[1]. ولعل مثل هذا القول يلخص إلى حد بعيد التصور الخلدوني للتاريخ ومن ورائه ما كان يمكن أن تكون عليه الكتابة التاريخية في البلاد العربية الإسلامية. ولكن ما نلحظه هو نبوغ مدرسة **الحوليات** ومن ورائها **التاريخ الجديد** - لوغوف لا يقر بأنه زعيم لمدرسة تاريخية ولا بوجود مدرسة تاريخية واضحة المعالم وإنما بوجود تجمع لمجموعة من الباحثين الذين يتقاسمون المطامح نفسها - في مجال جغرافي وحضاري مختلف عن البيئة التي أنجبت ابن خلدون. وهو ما يدفع إلى التساؤل عن فشل الكتابة التاريخية وفق التصور الخلدوني في العالم العربي الإسلامي، وهو تصور قريب من المنهج الذي سطّره رواد **التاريخ الجديد** في أوروبا في النصف الأول من القرن العشرين.

---

(1) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، [1988])، ص 35.

كما يجدر التساؤل عن مدى تأثير **التاريخ الجديد** اليوم في الكتابة التاريخية العربية، وكيف اقتحم بعض الجامعات العربية حتى أصبح البعض من أنصاره من المؤرخين العرب يدافعون عن مناهجه بشدة بعدما بدأ يعرف بعض الفتور في أوروبا. كل هذه التساؤلات تدفعنا إلى التعريف بالعمل موضوع الترجمة وبمدى تأثيره في الكتابة التاريخية العربية في عصرنا الحاضر.

الكتاب

ليس العمل المقدم إلى القارئ باللغة العربية كتاباً ألفه مؤلف واحد، وإنما هو عمل جماعي يشتمل على عشر مقالات ومقدمتين (مقدمة الطبعة الأولى الصادرة سنة 1978، ومقدمة الطبعة الثانية الصادرة سنة 1988، والتي اعتمدناها في هذه الترجمة).

تشير مقدمة الطبعة الأولى المترجمة ضمن هذا العمل إلى جملة من المقالات القصيرة التي وقع حذفها في الطبعة الثانية. وهو ما جعل المشرف على هذا العمل يستعمل عبارة «القاموس» عندما يتكلم على الكتاب، في طبعته الأولى، لأنها تشتمل على عدة تعريفات للعديد من المصطلحات التي شارك في كتابتها ما لا يقل عن 34 باحثاً، بالإضافة إلى المؤلفين العشرة الذين ترجمت مقالاتهم في هذا العمل. وهذه التعريفات التي كانت مدرجة في الطبعة الأولى ووقع التخلي عنها في الطبعات اللاحقة من الكتاب، تجعل من الحديث عنها في النص المترجم ـ والأمانة تقتضي أن نصوغ النص باللغة العربية من دون الإخلال بالنص الأصلي موضوع الترجمة ـ بعضاً من النشاز، وربما يريد القارئ أن يطّلع على الإشارات التي قام بها لوغوف (Le Goff) وقمنا بتعريبها، ولكنه لا يجدها. لذلك ارتأينا أن نشير إلى هذه المسألة في المقدمة حتى لا يتعب القارئ ولا يذم المترجم.

أما مقدمة الطبعة الثانية، فهي بمثابة الرد على أصداء الطبعة الأولى. توجد في هذه المقدمة محاولة لتقويم ما بلغه **التاريخ الجديد** من الانتشار والتأثير في الكتابة التاريخية في أوروبا، ولو أن فرنسا تظل هي المرآة العاكسة لهذا الصدى وهذا الانتشار. وعلاوة على انتشار أفكار الكتاب ممثلة في اتباع المناهج المسطرة فيه والمواضيع المتناولة أو المقترحة من خلال المقالات الرئيسية التي تمثله، فقد لقي رواجاً تجارياً مهماً تعكسه إعادة نشره في طبعة ثانية سنة 1988، ثم في طبعات لاحقة لعل آخرها طبعة دار كومبلكس للعام 2006.

تتميز المقالات التي يحتويها الكتاب بالغزارة في الأفكار ومحاولة أسلوبية أنيقة وجذابة، ترمي إلى الإيجاز البليغ، وتعتمد الترميز والاستعارة والجمل الاعتراضية. وتبدو النصوص على اختلاف مؤلفيها كما لو أنها صيغت بقلم واحد، وهو ما أعطى لهذا العمل ترابطاً في المحتوى وتناسقاً في الشكل.

وقد حاولنا قدر المستطاع الاحتفاظ بالصور المجازية التي استعملها لوغوف وغيره من محرري فصول الكتاب لأنها هي في حد ذاتها تعبّر عن أسلوب الكتابة وعن الذهنية التي يكتب بها المؤلفون والتي تصلح لأن تكون في حد ذاتها محوراً من محاور دراسة فن الكتابة التاريخية لدى «المؤرخين الجدد». لعل جاك لوغوف، وهو الذي يعتد بمستوى تكوين رواد المدرسة التاريخية التي عنها يدافع ومن أجلها يناضل، ولنشرها يخوض المعارك، يريد إثبات ذلك المستوى بحبر قلمه وأقلام زملائه المشاركين في تأليف الكتاب. لقد أراد رواد **التاريخ الجديد** أن يكون **التاريخ الجديد** إبداعاً في مستوى المناهج والأفكار والمواضيع، وإبداعاً أيضاً في مستوى الأسلوب. ولكن إن كان الأسلوب شيقاً لقارئ

يتقن اللغة الفرنسية، فهو مضن لمن رام ترجمة الكتاب.

أما بالنسبة إلى المحتوى، فلم ينظر أنصار **التاريخ الجديد**، وعلى رأسهم لوغوف، إلى خصومهم العلميين على أساس الحقد الشخصي، ولو أنه وقع في بعض الأحيان استعمال ألفاظ «عنيفة» دون أن تكون جارحة مثلما يبدو من خلال تقديم لوغوف **التاريخ الجديد** في طبعته الثانية. ولكن هناك اعتراف لكل واحد بدوره وفضله في عصره، إن كان له فضل من قريب أو من بعيد في تقدم **التاريخ الجديد**. إذ إنه يمكن القول بأن **التاريخ الجديد** ليس فقط منهجاً بحثياً، وإنما هو أيضاً منهج تربوي يسعى إلى الفصل بين أنواع العلاقات بين الناس؛ فالاختلاف اختلاف، والالتقاء التقاء، حتى ولو كان هناك في بعض الأحيان التقاء جزئي مع الخصوم العلميين. ولعل لوغوف في تقديمه الطبعة الثانية كان أكثر نقداً لهؤلاء الخصوم الذين نعتهم بـ «الذين يقتاتون من التاريخ، وبالتجار الذين يعرضون «حساء تاريخياً فاسداً وغثاً ونفعه قليل»»، فهو لم يستعمل مثل هذه العبارات لولا النقد، وربما الثلب الذي تعرّض له وتعرّض له **التاريخ الجديد** من أنصار التاريخ التقليدي وغيرهم. ولعل ذلك أيضاً كان على خلفية سياسية نظراً إلى قرب **التاريخ الجديد** من الماركسية، وهو ما كانت ولا تزال تحاربه الأطراف اليمينية في الجامعة وتقارعه في السياسة.

أدى **التاريخ الجديد** إلى اعتماد أنواع جديدة من المصادر (مثل دفاتر العدول والتاريخ الشفوي والتراث المادي) وسلط عليها الضوء من زوايا جديدة بنوعية التساؤلات المطروحة ونوعية القضايا المتناولة، فلم يعد تاريخ الأمة الذي يمثله تاريخ الجنرالات والشخصيات الذائعة الصيت هو الذي يهمّ المؤرخين، بل أقحم **التاريخ الجديد** كل المغيبين والهامشيين من خلال دراسة «المتروك» من المصادر والمغيّب من الفئات الاجتماعية: تاريخ المجانين، وتاريخ الرعاة، وتاريخ اللصوص والمومسات. وهي مواضيع كانت

توصف في الماضي بأنها «مواضيع خسيسة» (Sujets vils) مقابلة بالمواضيع النفيسة (Sujets nobles)، فمع **التاريخ الجديد** أصبح هناك اهتمام بالشرائح الاجتماعية الغائبة في أكثر الحالات من النصوص المصدرية، كالحوليات والسير والملاحم السيادية، حتى إنها أصبحت من أولوياته. لم تعد العناية بالمدينة من خلال أسوارها، ومن خلال قصورها وزخارفها فقط، بل دخل البحث بيوت الفقراء وعدد أثاثهم وتصور نمط عيشهم. كما أحدث **التاريخ الجديد** ثورة في مستوى الكتابة التاريخية على مستوى الأزمنة التاريخية. لقد حارب **التاريخ الجديد** الزمن القصير لينظر إلى التاريخ من خلال الأمد الطويل، فهو لم يعد مهتماً بالسلالات وبعصر الشخصيات، وإنما بتناول الظواهر الاجتماعية والذهنية منذ فترات انبلاجها، مروراً بفترات الأوج إلى أن تذوي، مع الملاحظة أن هذه الظواهر التي تزدهر وتبدو أنها انتهت، هي في الحقيقة ظواهر تتواصل بأشكال مختلفة وفي حلى متنوعة في مجملها أو على الأقل في البعض من خصائصها. لا يعني أن الظواهر التاريخية تنتهي بمجرد ذبولها. وهو ما أدى برواد **التاريخ الجديد** إلى أخذ مظاهر الثبوت والتحول بعين الاعتبار عند دراسة التاريخ. كما أن **التاريخ الجديد** بطرحه مثل هذه القضايا وصل إلى زعزعة بعض الثوابت الذهنية أو التاريخية، مثل مسألة التديّن في فرنسا، فهي مسألة كانت محسومة من وجهة نظر التاريخ التقليدي: فرنسا بلد مسيحي، وربما هو مسيحي بعمق. أدت بحوث المؤرخين الجدد إلى تعديل هذه النظرة والقول بأنه قبل الثورة الفرنسية كان هناك من ناحية تراجع للمسيحية، حتى وإن لم تتراجع في بعض الجهات، فهي ليست مسيحية كما يراها رجال الدين أو يتصورها رواد التاريخ التقليدي، بل هي في كثير من الأحيان مسيحية سطحية وملونة برواسب العهود الوثنية أو السابقة للمسيحية.

كما أن **التاريخ الجديد** لم يبن على فصل التاريخ عن بقية العلوم بشتى أنواعها، على قاعدة ما هو «صحيح» من العلوم وما هو «تقريبي» منها، وإنما على النظرة الشمولية التي تتناول الظاهرة من مختلف الجوانب، وتعتمد كل ما أمكن من الأساليب العلمية: رياضية وطبية وبيولوجية وجغرافية وغيرها. والظاهرة التاريخية من وجهة نظر **التاريخ الجديد** ليست منحصرة في حقل، ولا يمكن فهمها بما يكفي من الدقة لو اقتصر الباحث في ذلك على علم واحد. وهو ما أدى إلى النظرة الشمولية والكلية للتاريخ. ليس هناك تاريخ بالتاريخ فقط، بل هناك تاريخ بشتى أصناف العلوم الأخرى.

لقد بُني **التاريخ الجديد** على شاكلة المجتمع ذاته، مجتمع الباحث ومجتمع البحث: مادة وروحاً. وهو ما أدى بـ **التاريخ الجديد** إلى إقحام آليات جديدة، مثل التكميم المستمد من الاقتصاد الديمغرافي ليتجاوز المظاهر المادية حتى بلوغ روح المجتمعات التاريخية، كما أدى إلى طرح مسائل تبدو في نظر المؤرخ التقليدي الأوروبي، وربما في نظر البعض من المؤرخين العرب، بعيدة عن الحقل التاريخي الذي اعتاد عليه المؤرخ التقليدي وعوّد الناس عليه من خلال حصر التاريخ في الأحداث والوقائع والأبطال والانتصارات والهزائم، مثل تاريخ الموت وموقف الناس منه، جماعات وأفراداً. نحن نعرف في الحضارة العربية الإسلامية أنه «لإكرام الميْت يتمّ التعجيل بدفنه»، ولكننا قد لا نعرف ذلك من زاوية التاريخ: متى وقع هذا القرار، ولماذا، وفي أي إطار، وما هي الدوافع (الاجتماعية والنفسية والعقديَّة) التي تقف وراء ذلك؟ كل هذه المسائل نتركها للفقهاء كما لو أن المؤرخين لا حول لهم فيها ولا قوة. هل هناك علاقة بين هذه العجلة وحادثة السقيفة؟ هل هناك علاقة سياسية أصلية بمثل هذا الموقف؟ في مثل هذه المقدمة لسنا

مطالبين بالجواب بقدر ما نحن مجبرين على التساؤل.

كما طرح **التاريخ الجديد** مواضيع مختلفة تتعلق بصورة المرء لذاته، وبتصوره لنفسه ولمجاله، ومن هناك إدراكه الكون وتثبيته صورة الأنا وتصور الآخر.

كما أن **التاريخ الجديد** أعطى قيمة علمية لحقول كانت مجهولة أو متروكة، وجعل منها جزءاً من التاريخ إن لم تكن محركاً له، وهي مسألة الوعي واللاوعي، فالناس يصنعون التاريخ، ولكنهم لا يشعرون بذلك، مثلما عبّر عن ذلك كارل ماركس. وهي كل ما شمل المتخيل الاجتماعي. والإنسان يستحضر العالم الغيبي ويتصوره، وعليه يبني جملة من السلوكات الاجتماعية العامة والخاصة، حتى إنه في بعض الأحيان يصبح عالم الغيب جزءاً من عالم الأحياء، كالاعتقاد في تنقل أرواح الأموات بين الأحياء وقدرتها على التأثير في حاضر الناس، أو كمسألة التطهر من الذنوب بالاعتقاد في مطهرة الذنوب في الدنيا قبل الآخرة. ومن بين المواضيع التي وقع تقديمها ضمن كتاب **التاريخ الجديد** مسألة الهامشيين في التاريخ، وهو ما كتبه الباحث جان كلود شميت (Jean Claude Schmitt). وعلى أهمية المقال هناك بعض النقد الذي يمكن أن يوجّه إليه. ويهم خاصة مسألة التعامل الإقصائي الذي مارسته الكنيسة والمجتمع الأوروبي على من كان مختلفاً معهما في العقيدة. وقد خصّ الباحث وألحّ على معاملة اليهود بوصفهم مجموعة وقع تهميشها بالطرد والعسف والسلب وإلباس الغيار. وهذا الأمر لم يكن حكراً على اليهود والهراطقة والسحرة، وإنما شمل أيضاً، وببعض الحدة في بعض الحالات الجاليات العربية الإسلامية التي كانت تعيش في ظل الممالك الأوروبية المسيحية، وخاصة بعد سيطرة ملكي الأراغون وقشتالة على جزء كبير من الأندلس، وبعد إنهاء الحضور العربي

الإسلامي الرسمي بسقوط غرناطة سنة 1492[2]. كما لا يمكن أن نتناسى السياسة المزدوجة التي اتبعها ملوك صقلية النورمان تجاه الجاليات العربية الإسلامية واليهودية التي كانت تعيش في الجزيرة. وهي من الأمور التي وقع التعرض إليها منذ القرن التاسع عشر بالدرس، وأكثر من ذلك أن الباحث شميت قد اعتمد على بحث أوليس روبير[3] (Ulysse Robert) وهو الذي تناول بالدرس السياسة الإقصائية والعازلة التي مارستها السلط الدينية والسياسية في أوروبا العصر الوسيط على كل هذه الأصناف بما في ذلك على الجاليات المسلمة[4]. وهو ما لم «يتفطن» (ونضع «الفطنة» بين مزدوجين) إليه الباحث الكبير في مقاله

(2) Ulysse Robert, «Les Signes d'infamie au moyen âge: Juifs, sarrasins, hérétiques, lépreux, cagots et filles publiques,» *Mémoires de la société nationale des antiquaires de France*, t. 49 (1888), pp. 57-172; David Nirenberg, *Communities of Violence: Persecution of Minorities in the Middle Ages* (Princeton, NJ: Princeton University Press, [1996]), p. 110; «Muslims Suffered More than Jews from Accusation of Well Poisoning in 1321».

انظر بقية الفصل الرابع من المصدر نفسه، ص 93 - 124، انظر أيضاً: «Religious and Sexual Boundaries in Medieval Crown of Aragon,» in: Mark D. Meyerson and Edward D. English, eds., *Christians, Muslims, and Jews in Medieval and Early Modern Spain: Interaction and Cultural Change*, Notre Dame Conference in Medieval Studies; 8 (Notre Dame, Indiana: University of Notre Dame Press, 1999).

(3) Ulysse, «Les Signes d'infamie au moyen âge: Juifs, sarrasins, hérétiques, lépreux, cagots et filles publiques,» pp. 57-172.

(4) Mohammed Tahar Mansouri, «La Politique musulmane de Frédéric II,» *Mésogeios*, no. 1 (1998), pp. 143-156; Henri Bresc, *Arabes de langue, juifs de réligion: L'Evolution du judasme sicilien dans l'environnement latin, XIIe-XVe siècles* (Paris: Bouchène, 2001), et John Victor Tolan, *Les Sarrasins: L'islam dans l'imagination européenne au moyen âge*, collection historique, trad. de l'anglais par Pierre Emmanuel Dauzat (Paris: Aubier, 2003).

المضمن لكتاب **التاريخ الجديد** موضوع الترجمة.

وهذا يحملنا على الحديث عن الروح العامة للكتاب، فهو يتناول القضايا التاريخية التي تتعلق بأوروبا، وليس فيه مجال للحديث عن الشعوب الأخرى وعن الحضارات الأخرى حتى إننا يمكن أن نطلق عليه «التاريخ الجديد الأوروبي المركزي»، بل «الفرنسي المركزي»، على رغم قول لوغوف منذ البداية إنه لا يسعى مع زملائه إلى تركيز منهج تاريخي أوروبي. ولكن على الرغم من كل ما يمكن أن يوجّه من نقد إلى الكتاب، فهو عمل يستحق النظر ويستحق المماثلة والمقايسة والتطبيق خارج المجال التاريخي الأوروبي، لما يقدمه من طرح يهم الكتابة التاريخية، ونظراً إلى ما يقدمه من تساؤلات منهجية وبحثية لا يزال يلفها الغموض، ويحيط بها الصمت، وتحتضنها قداسة غير مقدسة.

وقد استفاد **التاريخ الجديد** من وجود مجلة **الحوليات**[5] التي أسست سنة 1929 في ستراسبورغ[6]، وقد كانت هذه المجلة تهدف إلى: توسيع مجال الاختصاصات التي كانت تفصل بين الباحثين وتجعل من المؤرخين يتجاهلون وجود علماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد، وفي بعض الأحيان يتجاهل المؤرخون بعضهم بعضاً وينحصر كل واحد في اختصاصه الضيق. وقد سعت مجلة **الحوليات**

---

(5) انظر فصل «الحوليات» في: Jacques Le Goff, Jacques Chartier et Jacques Revel, dirs., *La Nouvelle histoire*, les encyclopédies du savoir moderne. La Bibliothèque du CEPL (Paris: Retz, 1978), pp. 26-33.

(6) ذكر الأستاذ الهادي التيمومي في: **مفهوم التاريخ وتاريخ المفهوم في العالم الغربي من «النهضة» إلى «العولمة»** (صفاقس: دار محمد علي الحامي للنشر، 2003) من بين أعضاء هيئة التدريس في جامعة ستراسبورغ اسم الأستاذ شارل إدوار بيران، والصحيح هو شارل آدموند بيران (Charles- Edmond Perrin)، انظر ص 27 من: Le Goff, Chartier et Revel, *La Nouvelle histoire*.

إلى كسر الطوق السميك الذي يحجب الاختصاصات بعضها عن بعض بالتقريب بين هذه الاختصاصات، ليس ذلك عبر «المقالات النظرية والمنهجية» فحسب، ولكن بالممارسة الفعلية من خلال التحقيقات الجماعية، ومن خلال مراجعة الكتب المنشورة، ومن خلال إثارة النقاش عبر صفحات المجلة، وبتقاطع نتائج البحوث بعضها مع بعض. وقد عرفت **الحوليات** العديد من التسميات مرتبطة في ذلك بتغيّر الأوضاع العالمية، ولكن في الوقت نفسه بتطور داخلي في مناهجها، وفي المواضيع التي كانت تريد معالجتها، ولكن أيضاً نتيجة لتغيّر «قياداتها». وقد انعكست هذه التغييرات على تسمية المجلة[7].

وفي كل مرة تغيّر المجلة عنوانها يتغير محتواها ليشمل مجالات جديدة أو يعطي الأهمية لمجال من هذه المجالات. وفي كل الحالات كانت مجلة **الحوليات** ولا تزال، ولو بصورة أقل، منبراً للتجديد في حقل البحوث التاريخية. وقد استطاعت المجلة أن تتواصل نتيجة لعدة عوامل أهمها: وعي المؤرخين الفرنسيين بالدرجة الأولى بأهمية وجود المجلة وإيمانهم بضرورة دفع الكتابة التاريخية إلى الأمام للغوص في أعماق تاريخ المجتمعات ـ الغربية في الأساس ـ من دون استثناء. كما ساعد على هذه الديمومة وجود مؤسسة بحثية

---

(7) المصدر نفسه، ص 28. انظر: **حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي** (*Annales d'histoire économique et sociale*) (15 كانون الثاني/ يناير 1929 ـ 1939)؛ **حوليات التاريخ الاجتماعي** (*Annales d'histoire sociale*) (1939 ـ 1941)؛ **متفرقات في التاريخ الاجتماعي** (*Mélanges d'histoire sociale*) (1942 ـ 1944)؛ **حوليات التاريخ الاجتماعي** (*Annales d'histoire sociale*) (1945) (عددان وقع إهداؤهما إلى روح مارك بلوخ الذي أعدمه النازيون سنة 1944)؛ **حوليات، اقتصاديات، مجتمعات، حضارات** (*Annales, économies, sociétés, civilisations*) (1946 ـ 1993)؛ **حوليات. تاريخ. علوم اجتماعية** (*Annales. Histoire. Sciences sociales*) (1994 ـ . . . .).

ساندة، وهي المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، والتي أصبحت تعرف اليوم باسم «مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية». وليس أقل دلالة على ذلك من أن المشرفين على حظوظ المجلة هم من الباحثين المنتسبين إلى هذه المدرسة[8]. وفي كل هذه المراحل لعبت مجلة **الحوليات** ومدرستها دوراً ريادياً في تطوير الكتابة التاريخية الغربية مع «انفتاح» مقتر على بعض الباحثين من غير الأوروبيين.

ما يمكن قوله في شأن الكتاب هو أنه أسس لقراءة مختلفة عما كان سائداً في الكتابة التاريخية الغربية، وعما هو غالب اليوم على الكتابة التاريخية العربية.

تأثيرات الكتاب في العالم العربي

قد يفاجأ القارئ العربي لو قلنا له إن **التاريخ الجديد** محدود التأثير في الكتابة التاريخية العربية، وقد يثور عندما نقول له إن تأثيره كان أكثر في بلاد المغرب منه في بلاد المشرق، وقد يذهب بعد هذا أشواطاً بعيدة في التأوّل والتقوّل مما لا طاقة للكلام بتحمله ولا نية للمترجم في تضمينه تقسيماً تقليدياً استعمارياً يسعى إلى التفريق بين الشرق العربي والمغرب العربي وتفوق هذه الجهة تارة وتفوق الأخرى تارة أخرى، فالمترجم لا يشعر بتفوق هذه الجهة أو تلك، بل يراهما جسماً واحداً وإن افترقا إلى درجة التشتت.

إلا أن هذا التأثير في الكتابة المغاربية موجود وبدرجات متفاوتة

---

(8) André Burguière, Jocelyne Dakhlia, Marc Ferro, Jean-Yves Grenier, Jacques Le Goff, Emmanuel Le Roy Ladurie, André Orléan, Jacques Revel, Pierre-François Souyri, Laurent Thévenot, Lucette Valensi, Michael Werner.

بحسب البلدان والأفراد. وهذا التأثير ليس لأن بلاد المغرب سباقة في اعتماد ما هو جديد وما فيه منافع للناس، وإنما ذلك راجع خاصة في المغرب وتونس إلى طبيعة العلاقة الجامعية بالجامعات الفرنسية في هذين البلدين. قبل استقلال البلدين (سنة 1956)، سعى الاستعمار إلى تكوين نواتات جامعية تهدف إلى توفير ما تحتاجه المؤسسة الاستعمارية من الكوادر، وواصلت الدولة الفرنسية بعد الاستقلال السهر على حظوظ هذه المؤسسات الفكرية بعدما فقدت السيطرة السياسية على هذه البلدان. لقد خلقت نخباً متفاوتة الوعي بطبيعة العلاقة التي يجب أن تكون. ومنها من كان ولا يزال مديناً لـ «فرنسا الأم»، ومنها من وقف نداً لفرنسا الاستعمار. وفي هذه الحالة أو في تلك، سهّل تعلم اللغة الفرنسية (تعتبر اللغة عائقاً إذا جهلناها وجواز سفر إذا حذقناها) دخول التأثيرات المنهجية الفرنسية في مجالات شتى. بالإضافة إلى ذلك كانت النخب ـ لقد تقلص الأمر اليوم بفعل الموانع الفرنسية أكثر منه بقلة الرغبة في بلاد المغرب ـ قد تكونت في أغلبها في الجامعات الفرنسية، وهو من شأنه أن يساهم في التأثر بهذه المناهج، وهو أمر طبيعي.

وقد تجلى هذا التأثير في مستوى الكتابة التي تنحو إلى التنظير، ولعل من أبرزها **مفهوم التاريخ**[9] الذي كتبه عبد الله العروي. وهو عمل في جزأين قدم فيه الباحث بسطة عن الكتابة التاريخية من خلال المدارس الغربية، محاولاً تطعيم مقالاته باستشهادات من التراث العربي. وتبدو الكتابة التاريخية، كما تصورها الكاتب، من خلال هذا متناسقة مع مفاهيم المدارس الفرنسية في الأساس و**الحوليات**،

---

(9) عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ**، 2 ج (بيروت: المركز الثقافي العربي، 1992). ج 1: **الألفاظ والمذاهب**، ج 2: **المفاهيم والأصول**.

و**التاريخ الجديد** بصورة أدق. ولكن في الواقع، هناك انفصام بين الرغبة الظاهرة والوهاجة التي تقود الكتّاب في السعي إلى الكتابة على شاكلة **التاريخ الجديد**، وواقع الكتابة التاريخية العربية عموماً، فالكتابة التاريخية في العالم العربي لا تزال، متخلفة لو قارناها بما وصلت إليه الكتابة التاريخية الغربية في أواخر القرن التاسع عشر أو بداية القرن العشرين، باستثناء القليل النادر ـ وهو ما سنعود إليه لاحقاً ـ مثل ما قام به المؤرخ التونسي الهادي التيمومي عندما قدم الكتابة التاريخية الغربية لطلبة الجامعة التونسية. ويمكن اعتبار كتاب: **مفهوم التاريخ وتاريخ المفهوم** محاولة لتقريب صورة هذا التاريخ في بيئة ثقافية وذهنية مختلفة عن تلك التي نشأت فيها المدارس التاريخية الغربية.

ولكن هذا التأثير لم يكن دائماً فاعلاً في البحوث، فقد يقتصر ذلك على البحث الذي تم إنجازه في جامعة فرنسية وبلغة فرنسية ونوقش أمام لجنة فرنسية بالنسبة إلى خريجي الجامعات الفرنسية، ثم بعد ذلك ـ مع سياسة التعريب العشوائية التي لم ترافقها حركة ترجمة ـ أصبح الميل إلى الكتابة باللغة العربية، وهو إن كان من الأمور الضرورية، فيجب ألا يؤدي إلى الإخلال بالروح العلمية للكتابة التاريخية. إذ برزت من خلال هذه السياقات كتابات تُجاري، في أغلب الأحيان، ما هو مستساغ في الذهنية العامة، فتجنّب أغلب المؤرخين العرب، مغاربة ومشارقة على حد سواء، الخوض في بعض المواضيع التي تبدو حساسة. وانتشرت النظرة التقديسية للماضي، ما أدى إلى تحنيطه وجعله غير قابل في بعض الأحيان للانفتاح على المناهج الجديدة كتلك التي يقدمها **التاريخ الجديد**. وهو ما جعل مسألة تحديث الكتابة التاريخية من الأمور الصعبة كلما تعلق الأمر بالمسائل ذات الصلة بما وقع تقديسه. وتلقى هذه المسألة مقاومة شرسة وجاهلة في كل الحالات. وبقدر ما كان التاريخ العربي

الإسلامي سميكاً وغامضاً، كان المؤرخون في وطننا العربي يتظللون بصفحاته الناصعة، ويمرغون أقلامهم بالزبد الظاهر، ويقفون منه على الربى والنتوءات، ويحجمون عن الغوص في قداسة مصنوعة، ويخافون من الكلام فيستظلون بظله. ولا يزال العديد من المواضيع تنتظر الظرف السياسي المنفتح لتشرّع أبوابها. إلى يوم الناس هذا ما زلنا ننظر إلى أبطالنا التاريخيين نظرة إعجاب تقودها المصادر **أولاً**، ويدفع إليها الخوف من تحريك السواكن **ثانياً**. فلو أخذنا على سبيل المثال، ودائماً في إطار نظرة تقليدية ليست متحررة بما فيه الكفاية، علاقة العرب الفاتحين بالشعوب التي غلبت، وذلك بنزع طابع القداسة عن كلمة «فتح»، لقامت الدنيا وهاجت فوق الرؤوس عمائم لا تغطي علماً، وإنما تسعى لصون قداسة كان يمكن لها أن تصان بالعلم، وليس بعكسه.

إن الكل يتحدث مفاخراً بقول ابن خلدون بأن التاريخ عبرة، ولكن كيف يمكن الاعتبار من الماضي إذا توقفنا عند الإيجابي منه فقط؟ كيف يمكن أن ننظر إلى الأبطال التاريخيين من منظور القداسة فقط؟ مثلاً في بلاد المغرب العربي لا نرى في عقبة بن نافع الفهري إلا ذلك الرجل الذي فتح البلاد، وأرسى ركائز الدولة العربية الإسلامية في المغرب، وشيّد مدينة القيروان، ونرى فيه الرجل ذا الكرامات والخوارق. والحال أنه يجب أن ننظر إليه أيضاً على أساس الرجل الغازي، والذي فتك بالكثيرين من سكان البلاد من دون تروٍّ ومن دون عطف. يجب أن نرى فيه أيضاً الرجل الذي أهان أحد أبناء البلاد وواحداً من ساداتها، وهو كسيلة الأوروبي، على الرغم من أنه على ما يبدو كان رجلاً مسلماً بحسب بعض الروايات، لا لشيء إلا لأنه كان بربرياً. لماذا ما زلنا نتذكر فقط عصر هارون الرشيد، ولماذا لا نتذكر إلا صلاح الدين الأيوبي أو غيره؟ لا لشيء إلا لأنهم كانوا

أشخاصاً إيجابيين، ولكننا نتغافل عمداً في الوقت نفسه عن الفترات الحالكة من تاريخنا، ولا نحاول فهمها من الداخل، بل ما زلنا دائماً نحمّل مسؤولية ضعفنا التاريخي ووضعنا الراهن للأجنبي، ونعلل ذلك بالغزو وبالحروب الصليبية التي لا تزال متواصلة في الأذهان، وبالاستعمار وبالإمبريالية وغيرها من أشكال الهيمنة. ولئن كانت هذه المسائل مؤثرة، فهي لا تبرر دائماً الضعف الذي انتشر في البلاد العربية الإسلامية ولا يزال.

وليس أدل على ضعف الكتابة التاريخية، وربما غيرها، في الوطن العربي، من غياب النقد العلمي وغياب المجلات التي تراجع الكتابات أو تسمح بالمراجعات الجريئة، فسرعان ما تنقلب الأمور إلى قراءة مشخصة، حتى وإن لم تكن شخصية. أضف إلى ذلك سعي بعض الجامعيين في الوطن العربي إلى طمس الأحسن، والسعي إلى الاستشهاد بما لا علم فيه لأنه سلطوي المراتب. كما لا بد من الإشارة إلى تجاهل المؤرخين العرب بعضهم لبعض، وليست هناك شهادة أفضل يمكن أن يفاخر بها مؤرخ عربي من شهادة يقدمها فيه أحد الزملاء الفرنسيين أو الإنجليز أو غيرهم، فرأي المؤرخ العربي في ما يكتبه المؤرخ العربي «لا يساوي حتى شعيراً».

كما تساعد مسألة غياب الحريات في الأوسع من أرجاء الوطن العربي على الانكفاء والانكماش وتجنب «ما لا تحمد عقباه». كما أن المؤرخين في بعض البلدان تحولوا إلى كتّاب تاريخ رسميين، يكتبون من أجل السلطان وبفضله، ومن أجل دعمه وإرضائه، فهل يمكن في مثل هذه الحالات أن يكون التاريخ علماً؟!

كل هذه العناصر تساهم في تواصل التاريخ السلطاني بشكل أو بآخر، وتعطي للمؤرخ مكانة لا بالنسبة إلى الإبداع العلمي،

وإنما بالنسبة إلى الرضاء السلطاني.

وعلى المؤرخ أن يسعى إلى فهم الأمور من الداخل أيضاً من دون أن يلعب دور الواعظ الأخلاقي، بمعنى أنه توجد العديد من المواضيع التي لا تزال بكراً، ولكن البحث فيها يعتبر من المحظورات. هل حاولنا البحث في «العنصرية العربية الإسلامية» التي كانت سائدة في العصر الوسيط؟ إذ كلما طرحت مسألة العلاقة بين العرب والبربر خاصة ارتفعت أقلام مندّدة بذلك، واتهم كل من حاول معالجة الموضوع بجدية، بتحريك النعرات العرقية وضرب الوحدة الوطنية لهذا البلد أو ذاك، في حين أن المسألة تاريخية، ويمكن معالجتها على نار هادئة، كما يقال، والنظر إليها بما يكفي من البرود العاطفي من دون خوف لا على الأمة ولا على أبنائها من التشتت، ولكن هناك جملة من القيود التي يمكن أن نسميها أخلاقية، ومنها ما هو سياسي ومنها ما هو ديني. في نظري ما زلنا نفسر التاريخ العربي الإسلامي تفسيراً دينياً، وقراءتنا هذا التاريخ ليست قراءة تاريخية، وإنما هي قراءة إسلامية بحتة إلا في القليل النادر من الحالات مشرقاً ومغرباً. وهذا يعني أننا ما زلنا لا ننظر إلى التاريخ على أساس العلم، وإنما على أساس العاطفة. وهذا راجع إلى عدة أسباب، كمقاومة التجديد في الكتابة التاريخية من طرف من هم في أعلى الهرم الجامعي ويتحكمون في مساره بالمناقشات وبالانتداب، واتكاء أغلب الذين يشرفون على حظوظ البحث على السلطة السياسية، والاستقواء بالوزارات والإدارات العامة من أجل البقاء في قمة الهرم من ناحية، ومن أجل تصفية كل من «تسول له نفسه التمرد العلمي والمنهجي» بتحويل ما يمكن أن يكون معركة علمية إلى خلافات شخصية يكون أولى ضحاياها البحث العلمي.

إلا أن هذه القيود والمخاوف لم تمنع ممارسة بحث جريء،

سواء ما تعلق منه بالجوانب الدينية في مجتمع ينظر إلى حاضره في ماضيه، كالبحوث التي قام بها منذ أواخر الثلاثينات عبد الحي شعبان في ما يتعلق بالإسلام المبكر أو بالثورة العباسية[10]، أو عزيز سوريال عطية في ما يتعلق بالحروب الصليبية[11]. كما كتب باحثون قد شاخوا اليوم، ومنهم من قضى في مواضيع تبدو غريبة بالنسبة إلى المؤرخ العربي الإسلامي التقليدي، مثل موضوع الألوان في الحضارة العربية الإسلامية[12] الذي تناوله أحمد صالح العلي بالدرس، معتمداً كثيراً على السرد، ولكنه يظل رائداً، وهو صاحب العمل الرائع حول التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية في البصرة في القرن الأول[13].

وينتمي إلى الجيل نفسه تقريباً كل من محمد الطالبي[14] وهشام

---

(10) محمد عبد الحي شعبان، **الثورة العباسية**، ترجمة عبد المجيد القيسي ([أبو ظبي]: دار الدراسات الخليجية، [1977])، وقد نشر بالإنجليزية ثم ترجم إلى العربية: Muhammad Abd al Hayy Shaban, *The Abbasid Revolution* (Cambridge, [Eng.]: Cambridge University Press, 1970),

وكذلك كتاب: **التاريخ الإسلامي في تفسير جديد**، تعريب عبد المجيد القيسي ([د. م.]: دار الوفاق، [د. ت.]).

(11) Aziz Suryal Atiya, *Crusade, Commerce and Culture* (Bloomington: Indiana University Press; London: Oxford University Press, 1962).

(12) صالح أحمد العلي، «الألوان في الحضارة العربية في العهود الإسلامية الأولى،» **مجلة المجمع العلمي العراقي**: ع 26 (1975)، ص 71 ـ 107، وع 27 (1976)، ص 63 ـ 101.

(13) صالح أحمد العلي، **التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري** (بيروت: دار الطليعة، [1969]).

(14) محمد الطالبي: **الدولة الأغلبية، التاريخ السياسي، 184 ـ 296، 800 ـ 909** = *L'Emirate aghlabide histoire politique, 184-296, 800-909*، نقله إلى العربية المنجي الصيادي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985)، **ودراسات في تاريخ إفريقية في الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط** (تونس: منشورات الجامعة التونسية، 1982).

جعيط[15] وعبد الله العروي[16]، وهؤلاء تأثروا مباشرة بأطروحات التاريخ الجديد نظراً إلى تكوينهم في الجامعات الفرنسية، ونظراً إلى إتقانهم الجيد للغة الفرنسية وبها كتبوا أعمالهم الكبرى. وقد تأثر بـ **التاريخ الجديد** من مصر أحمد عبد الرازق صاحب العمل الجيد: **المرأة في العصر المملوكي**[17]. ولا يزال **التاريخ الجديد** يمارس تأثيراً واضحاً في أجيال متعاقبة بالدرجة الأولى في بلاد المغرب العربي كما بيّنا أسباب ذلك في البداية[18]. كما لا يفوتنا أن نلاحظ أن الكتابة التاريخية

---

(15) هشام جعيط، **الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر**، ترجمة خليل أحمد خليل (بيروت: دار الطليعة، 1992)،

Hichem Djait, *La Grande Grande discorde: Réligion et politique dans l'islam des origines*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1989),

وهشام جعيط، **الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية** (الكويت: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، 1986)،

Hichem Djait, *Al-Kūfa, naissance de la ville islamique*, islam d'hier et d'aujourd'hui; 29 (Paris: G. - P. Maisonneuve et Larose, 1986).

(16) عبد الله العروي: **أصول الوطنية المغربية** (1977)، **مجمل تاريخ المغرب** ([1984])، **مفهوم التاريخ** (1992)، وتآليف أخرى.

(17) Ahmad Abd ar-Raziq, *La Femme au temps des Mamlouks en Egypte*, textes arabes et études islamiques; t. 5 ([Le Caire]: Institut français d'archéologie orientale du Caire, 1973).

(18) نورد أسماء بعض الذين يشتغلون بالتاريخ، وهم من المتأثرين مباشرة بمناهج التاريخ الجديد ومقارباته ومواضيعه مع الاعتذار المسبق لكل الذين ينتمون إلى هذه المدرسة ولم أذكرهم إما لسهو أو لجهل: من المغرب الأقصى على سبيل الذكر لا الحصر: أعمال محمد قبلي وأحمد التوفيق وعبد الأحد السبتي ومحمد الشريف وحليمة فرحات وعبد المجيد القدوري ومحمد حبيدة وعبد الرحمن المدن وعبد الرحيم بنحادة وحسن حفيظي علوي. ونورد من الجزائر مجلة **إنسانيات** في وهران، ومن قسنطينة أعمال كل من فاطمة الزهرة قشي وكمال فيلالي. ومن تونس يمكن أن نذكر أعمال محمد الهادي الشريف وعبد الحميد هنية ومحمد ياسين الصيد والصادق بوبكر ولطفي عيسى وأحمد جدي وحياة عمامو وعبد الحميد الفهري ومبروك الباهي وعلية بوزيد وفتحي ليسير وعبد الواحد المكني، ويضم إليهم المترجم نفسه. ويمكن أن نشير على انفراد إلى الأستاذ الهادي التيمومي ذي النزعة الماركسية الذي تتطعم =

في البلاد العربية وفي بلاد المغرب العربي الأكثر تأثراً بـ **التاريخ الجديد**، قد حادت في أغلب الأحيان عن المنهج الأولي لهذه المدرسة. لقد تقوقعت الدراسات التاريخية في مجالات ضيقة، وفي فترات زمنية قصيرة لا تتماشى ومفهوم الأمد الطويل الذي ركز عليه **التاريخ الجديد** ودافعت عنه مدرسة **الحوليات**، بل كانت هناك دعوة من أجل البحث المجهري، وهو منهج وإن كان دقيقاً قد يصعب الوصول من خلاله إلى قوانين تاريخية عامة مثلما توصلت إليه **الحوليات** أو المدرسة الماركسية. وفي كل الحالات يمكن القول بأن الكتابة التاريخية في العالم العربي تشكو من عدة نقائص أهمها الجرأة والنقد والابتكار. إذ نلاحظ تكرار المواضيع بعضها لبعض إلى درجة السلخ، وفي بعض الأحيان إلى درجة الانتحال الموصوف.

وفي النهاية، لا يزال التاريخ العربي في حاجة إلى من يكتبه، وإلى من يغوص في أعماق المجتمعات العربية، وذلك بتجديد المساءلة وبتنويع المقاربات، وبالتخلي عن قدسية الوقائع وبطولية الشخوص التاريخيين.

مواصفات الترجمة

ارتأينا في الثبت التعريفي تعريف المصطلحات التي رأينا أنها أساسية، وسعينا كذلك إلى تعريف القارئ العربي ببعض الدقائق التي تتعلق بالتاريخ الأوروبي. مثلاً «Le Dimanche de Bouvines»، لو ترجمناه بـ «أحد بوفين»[19] لظل الأمر مبهماً بالنسبة إلى القارئ

= بالتاريخ الجديد، وإن يظل واحداً من القلائل الذين يكتبون التاريخ بحس ووعي ظاهرين. ومن التونسيين المهتمين بالتاريخ الغربي يمكن أن نذكر جسن العنابي وفيصل الغول وروضة قمارة والمرحوم محمد قريسة.

(19) انظر: التيمومي، **مفهوم التاريخ وتاريخ المفهوم في العالم الغربي من «النهضة» إلى «العولمة»**، ص 103.

العربي الذي لا يعرف لا بوفين ولا رمزية يوم الأحد في التراث الأوروبي الغربي المسيحي. والحال أن هذه التسمية التي أصبحت في ما بعد عنواناً لكتاب المؤرخ الفرنسي جورج دوبي[20] (G. Duby)، هي اسم لمعركة وقعت يوم الأحد 27 تموز/ يوليو 1214 في سهل بوفين بمنطقة الفلاندر في المنطقة الحدودية بين مملكة الكابيسيين الفرنسيين (Capétiens) والإمبراطورية الجرمانية، اقتتل فيها ملك فرنسا فيليب أوغست (Philippe Auguste) يعاضده فرسان مملكته والبعض من رعاياه من جهة، وفي الجهة المقابلة الإمبراطور والملك الألماني أوتون دي برنشفيك (Otton de Brunswick) ومعه كونت الفلاندر (Comte de Flandre) وكونت بولونيا (Comte de Boulogne) اللذان يدعمهما مادياً ملك إنجلترا جان الملقب «بلا أرض» (Jean Sans Terre). وتقدم النصوص الفرنسية والكنسية هذه المعركة على أنها وقعت رغماً عن إرادة ملك فرنسا الذي كان يتهرَّب منها بسبب عدم رغبته في «خرق السلم الربانية» التي كانت الكنيسة تفرضها. وتقول المصادر بأن الله قد منّ عليه بالنصر، فقد هرب الإمبراطور الألماني ووقع الكونتان المشاركان في الأسر. وكان لصدى هذه المعركة صبغة خاصة في العصر الوسيط، إذ بينت للملوك المسيحيين والأسياد الفيوداليين[21] أن من لا يحترم قرارات البابوية، ذاك هو

---

(20) Georges Duby, *Le Dimanche de Bouvines: 27 juillet 1214*, trente journées qui ont fait la France; 5 ([Paris]: Gallimard, 1973).

(21) عادة ما يترجم الباحثون العرب كلمة (Féodalité) بإقطاعية. وهي كلمة شائعة ومتداولة ولكنها لا تعكس حقيقة المفهوم الغربي الذي يعبر عن واقع اجتماعي واقتصادي وسياسي يتميز بانتشار الضيعات السيادية وضعف السلطة المركزية وفقدان التابعين للحرية الخاصة والعامة. كما يُلزم التابعين بجملة من الواجبات نحو السيد كواجب الطاعة والسخرة ودفع جملة من الضرائب مراراً في السنة الواحدة. وهو ما لا نجده في ظل نظام شبيه هو «النظام الإقطاعي» الذي عرفته عديد المجتمعات مثل المجتمعات العربية الإسلامية، سواء في =

مآله. وقد استغلت الكنسية نصر الملك الفرنسي المؤمن على الإمبراطور الجرماني المتمرد على البابوية لإخضاع أغلب ملوك أوروبا وأسيادها لسلطة روما. كما كان لهذه المعركة صداها في التاريخ المعاصر، فقد صادف تاريخ مائويتها سنة 1914 اندلاع الحرب العالمية الأولى، وهو ما رأى فيه الألمان فرصة للثأر، ورأى فيه الفرنسيون فرصة لتكرار النصر الوسيطي في الفترة المعاصرة.

لقد حاولنا تقريب الصورة الفرنسية من ذهن المواطن العربي، فمثلاً القول الفرنسي: «De la cave au grenier» لا يستقيم لو عربناه باعتماد المقابل اللفظي المباشر للكلمات مثلما هو موجود في بعض الكتابات «من الدهليز إلى الجرن». هذه الجملة تعبّر عن نمط عيش ونمط سكن بما في ذلك الطراز المعماري للبيوت، وهو طراز لا يزال قائماً فعلا في بعض الجهات، واصطلاحاً على الغالب في أوروبا. إنه يعبّر عن الثلاثية الوظيفية للبيت: مسكن ومخزن وبيت، عادة ما يكون فوق السطوح، للتخلص مما هو زائد على الحاجة أو ما لم يعد صالحاً للاستعمال، فشكل المنزل خارج أوروبا ليس بالضرورة هو نفسه في أوروبا، إذ يتشكل البيت الأوروبي التقليدي من ثلاثة مستويات:

ـ الدهليز، وهو مكان لخزن الضروريات والنفائس، مثل الخمر والجبن ولحم الخنزير المدخن أو المجفف، والخشب الصالح

= العصر الوسيط أو في العهد العثماني والذي يتمثل في مصدر معيشة يمكن أن يكون أرضاً ويمكن أن يكون مصدراً جبائياً (مثلما هو الشأن في عصر المماليك)، تمنحه الدولة المركزية القوية لقواد الجند وبعض الأفراد المتنفذين مقابل الخدمة العسكرية. وهو نظام لا يترتب عنه فقدان الحرية للمنوحين ولا يتوجب عليه ما يتوجّب على التابعين في النظام الفيودالي. لهذا فضّلنا استعمال فيودالية مقابل (Féodalité)، رغم استعمال «الإقطاعية» السائد.

للتدفئة وللطبخ والمؤونة بصفة عامة، أي ما هو ضروري وحياتي بالنسبة إلى أهل البيت.

ـ المستوى الأرضي، وهو المسكن بمعناه المدقق حيث تدور الحياة اليومية للعائلة من بيت ومطبخ وقاعة استقبال وغير ذلك من الفضاءات المستعملة بصورة مستمرة.

ـ بيت فوق السطوح، وهو عادة ما يكون غرفة شاسعة تمتد على كامل سطح المنزل، وهي فضاء متعدد الوظائف: الوظيفة **الأولى** هي عزل سطح المنزل عن التأثيرات الطبيعية، وأهمها الصقيع، والوظيفة **الثانية** هي إلقاء بما لا قيمة له فيها. وترجمة هذا المستوى بإقحام كلمة «غرينيي» (Grenier) في اللغة العربية بـ «الجرن»[22] لا يفيد المعنى، فهي كلمة بعيدة عن الذهنية العربية الإسلامية غير المطلعة بالضرورة على نمط العيش الأوروبي عموماً والوسيط منه بالخصوص، وتحتاج هي في حد ذاتها إلى تفسير قاموسي قد لا يظفر به القارئ بسهولة. هذا بالإضافة إلى احتوائها على معنى الصندوق الحجري المعدّ لدفن الأموات، وهو ما يترجم بالفرنسية بعبارة «Sarcophage». قد ورد في كتاب تاريخ يحيى الأنطاكي، وهو يتحدث عن الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني الذي توفي سنة 1025 ما يلي: «وقد كان أعد لنفسه جرناً من رخام فائق الحسن في كثرة تلونه، وتتسيب نقوشه ونصبه في كنيسة الأبستولين (Eglise des Apôtres) مع أجرنة الملوك السالفين. ولما انثنى رأيه في أن يدفن هناك فيه، بقي الجرن بحاله إلى أن دفن فيه أخوه قسطنطين»[23]. لذلك ارتأينا ترجمة كلمة «غرينيي» بـ «ما فوق السطوح»

(22) انظر: التيمومي، المصدر نفسه، ص 103.

(23) انظر تاريخ يحيى الأنطاكي، ضمن: Yehya ibn Sa'id Antaki, *Histoire de Yehya ibn Sa'id d'Antioche*, Patrologia orientalis; 47, 4, éd. crit. du texte arabe préparée par Ignace Kratchlovsky; trad. française annotée par Françoise Micheau et Gérard Troupeau (Turnbout (Belgique): Brepols, 1977), pp. 482-483.

لأنه هو أيضاً مجال مهمش في الحاضر الاجتماعي العربي المعاصر.

كما يمكن أن نشير إلى أن ترجمة بعض العناوين أو المصطلحات أو أسماء بعض المؤسسات التي قام بها البعض من زملائنا لم تكن دائماً موفقة. لذلك ارتأينا أن نقدم بعض هذه الاختلافات لمساسها مباشرة بالكتاب المترجم:

لقد وقعت ترجمة عنوان كتاب مابيون (Mabillon) الذي ورد في المؤلفات الفرنسية باللغة اللاتينية على النحو الآتي: *De re diplomatica libri* بعنوان بعيد عن معنى الكلمة وعن محتوى الكتاب، فقد تمت ترجمته بـ «في الدبلوماسية»[24]، والواقع أنه كتاب وثائقي ولا علاقة له بالدبلوماسية، إذ نشأ علم رديف للتاريخ هو علم العهود والوثائق (Diplomatique) نفسه انطلاقاً من الكلمة اليونانية («Diplôma») والتي تعني الوثيقة الرسمية. ومن هنا جاءت تسمية علم العهود والرسائل الرسمية والمراسيم السلطانية بـ «علم الوثائق الرسمية». ويقول أصحاب قواميس السير والتراجم عن مابيون ما يلي:

لقد ذكر صاحب **قاموس التراجم والتاريخ والجغرافيا**:

«*De re diplomatica libri*, VI, 1681, œuvre pleine d'une érudition variée et profonde sur tout ce qui est relatif à l'étude des chartes et des diplômes»[25] (يعدّ كتاب علم الوثائق كتاباً مبحراً في

(24) انظر: التيمومي، المصدر نفسه، ص 26.

(25) Charles Dezobry et Théodore Bachelet, *Dictionnaire général de biographie et d'histoire, (de mythologie, de géographie ancienne et moderne comparée, des antiquités et des institutions grecques romaines, françaises et étrangères)*, 2 vols., 10ème éd. entièrement refondue par M. E. Darsy (Paris: C. Delagrave, 1889), p. 1760.

العلم وعميقاً، خاصة في ما يتعلق بدراسة الوثائق الرسمية والمراسيم).

أما **القاموس التاريخي المعاصر** فيقول عنه ما يلي:

«Grand érudit, on lui doit en particulier *De re Diplomatica* (1681) qui fonda la diplomatique et dans lequel il expose, avec l'étude d'un grand nombre de cas, les règles selon lesquelles peut être établie l'authenticité des documents d'archives»[26] (يعد مابيون من المتبحرين في العلم، وقد ترك لنا كتاباً في علم الوثائق الذي أسس لعلم الوثائق، وقد طرح فيه القواعد التي تسمح بالتأكد من أصلية وثائق الأرشيف).

كما يمكن أن نضيف إليها كذلك تسمية «مدرسة علم الوثائق» (Ecole des chartes) التي أشير إليها على النحو الآتي: «تأسست في فرنسا عام 1821 مدرسة شارت»[27]. وقد يفهم من التسمية أن شارت هو اسم لمكان، والواقع أن المدرسة المقصودة هي «المدرسة الوطنية لعلم الوثائق» (Ecole nationale des chartes) الموجودة في باريس[28].

كما يمكن أن نشير إلى أن بعض الترجمات التي قد لا تتماشى في كل الحالات مع ما هو مقصود من خلال **التاريخ الجديد**. مثلاً، لقد ترجم الباحث الكبير الأستاذ عبد الله العروي العديد من مصطلحات **التاريخ الجديد** ضمن كتابه: **مفهوم التاريخ**، ووضعها في ثبت المصطلحات المرفق، ولكن قد لا نتفق معه في ما ذهب إليه.

---

(26) Dominique Vallaud, *Dictionnaire historique* ([Paris]: Fayard, 1995), p. 583.

(27) انظر: التيمومي، **مفهوم التاريخ وتاريخ المفهوم في العالم الغربي من «النهضة» إلى «العولمة»**، ص 42.

(28) توجد هذه المدرسة في باريس، وعنوانها هو 19 نهج السوربون 75005. وتفتح مباشرة على ساحة السوربون.

فمثلاً ترجمته «الأمد الطويل» (Longue durée) بـ «الإيقاع البطيء»[29] قد يجانب حقيقة المفهوم المقصود، فالأمد (Durée) يفيد الزمن، ولا يفيد الفعل، في حين أن كلمة «إيقاع» تعني «الفعل». والمقصود بمفهوم «الأمد الطويل» هو مسار الظاهرة التاريخية ضمن حيّز زمني طويل، مهما كان نوع إيقاعها سريعاً أم بطيئاً، وهو ما تناوله فرناند بروديل (Fernand Braudel) في مقاله الشهير المنشور سنة 1958[30]، وما حلله ميشيل فوفيل (Michel Vovelle) في مقاله الموجود ضمن كتاب: **التاريخ الجديد** موضوع الترجمة. المسألة تتعلق بزمن الفعل - مهما كانِ نوع الإيقاع - والذي يجب أن يكون طويلاً لأن ذلك يكشف عن إرهاصات بعيدة في الزمن تؤدي إلى حدوث الأفعال وردود الأفعال سواء في حاضر المجتمع المدروس أو في حاضر الباحث الدارس. مثلاً لو نظرنا إلى بعض الظواهر التاريخية في المجال العربي الإسلامي مثل «ظاهرة الخضوع للسلطان»، وهو خضوع دائم وبعيد الأمد يرجع إلى عصر الرسول (ﷺ)، ثم وقع التعاطي معه بأشكال مختلفة، فهل يمكن أن ندرس ظاهرة كهذه منذ حصول أغلب البلدان العربية على استقلالها الإداري؟ هل يمكن أن ننظر إلى هذه الظاهرة - وهي ظاهرة معيشة - كما لو أنها نتيجة من نتائج الاستعمار، أم هل يجب الرجوع بها إلى فترات ساحقة في القدم والبحث في ما هو ديني وعقدي واجتماعي وسياسي وثقافي وذهني، للتعرف على جذور الظاهرة وأسبابها وإيقاعها عبر الأمد

---

(29) التيمومي، المصدر نفسه، ص 420.

(30) Fernand Braudel: «Histoire et sciences sociales: La Longue durée,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, no. 4 (octobre-décembre 1958), pp. 725-753, repris dans: *Ecrits sur l'histoire*, science de l'histoire ([Paris]: Flammarion, [1969-]), pp. 41-83.

الطويل؟ هناك ظواهر عديدة تحتاج إلى النظر إليها عبر الأمد الطويل منذ نشأتها إلى نهايتها، إن كانت قد انتهت، أو تواصلها إذا كانت متواصلة.

في نهاية هذه المقدمة، أود أن أشكر كل الذين ساعدوا على انجاز العمل، وأولهم المنظمة العربية للترجمة للثقة التي منحتني وللمساعدة التي أولتني. كما أشكر كل الذين أبدوا لي رأياً أو اقتراحاً ساعدني على إنجاز هذه الترجمة. ونحن لا ندّعي أننا أصبنا دائماً، وكما يقول القدامى: «فمن قرأ هذا العمل ووجد به خطأ وأصلحه نال ثواب الدنيا وثواب الآخرة».

وأنا بصدد إنهاء ترجمة الكتاب بلغني نعي شيخ المؤرخين وكريمهم المغفور له الدكتور نقولا زياده، في اليوم الذي قصفت فيه قرية قانا، فإلى روحه وإلى روح أطفال قانا، أهدي هذا الجهد تقديراً واعترافاً للأستاذ «نقولا» وترحماً على أرواح الأبرياء.

تقديم الطبعة الثانية (1988)

جاك لوغوف

إن الكتاب الذي أقدمه اليوم للقراء هو طبعة جديدة للفصول الرئيسية من كتاب **التاريخ الجديد**. وهو تأليف جماعي كنت نشرته بالتعاون مع روجيه شارتييه (Roger Chartier) وجاك روفيل (Jacques Revel) منذ عشر سنوات وذلك في سنة 1978[1].

تحتوي هذه الطبعة الجديدة على عشرة فصول، تسعة منها تتناول بالدرس بعض المفاهيم المفاتيح من مفاهيم **التاريخ الجديد** (مثل الأمد الطويل والبنى والأنثروبولوجيا التاريخية والذهنيات والثقافة المادية والهامشيون والمتخيل)، كما تبيّن اتجاهات البحث التاريخي التي حدّد **التاريخ الجديد** موقعه منها (مثل التاريخ الآني والتاريخ الماركسي). كما يحتوي الكتاب على دراسة عاشرة قدمت من خلالها **التاريخ الجديد** والمراحل التي مر بها. شكلت هذه الفصول العشرة هيكل الكتاب الأصلي الذي احتوى إضافة إلى ذلك على مائة وأربع عشرة مقالة قصيرة ومتفاوتة في الحجم.

تتضمن هذه الطبعة الجديدة أساساً الدراسات العشر التي تعبّر

---

(1) ضمن سلسلة «دائرة معارف العلم الحديث» (Les Encyclopédies du savoir moderne)، نشر راتز [Retz].

بصورة جوهرية عن إشكالية الكتاب، وقد وقع التخلي عن الفصول القصيرة الأخرى. وأعتقد أن هذه الدراسات تسمح بالتعرف على هذا التاريخ الذي سميناه بـ «التاريخ الجديد»، وبتقدير مسيرته حق قدرها، وذلك في توجهاته الرئيسية، وفي أهدافه، وفي مجالاته الفكرية والعلمية، وتمكّن أيضاً من إدراك انجازاته.

وفي إطار هذه الطبعة الجديدة وقع تحيين بيبليوغرافيا كل المقالات، وقد أضفت إلى نصّي حول مفهوم «التاريخ الجديد» «بعض الملاحظات والهوامش التكميلية» التي يمكن اعتبارها تدقيقاً نظرياً وبيبليوغرافيا لبعض أهم الجوانب التي تطرّقت اليها في هذا النص.

كما أدرجتُ ضمن هذه الطبعة الثانية النص الذي كنت قدمت به النشرة الأولى سنة 1978، وذلك بالاتفاق مع الناشر أندريه فرساي (André Versailles) الذي أشكره بهذه المناسبة على قبوله احتضان هذا الكتاب ضمن منشورات «كومبلاكس» (Editions complexes)، التي يشرف عليها.

وإذا كان هذا النصّ يقدّم المقالات القصيرة التي وقع حذفها في هذه الطبعة، فهو مع ذلك يعطي فكرة أشمل على مشروع **التاريخ الجديد**، وهو ما دفعنا إلى إعادة نشره من دون تغيير، حتى يتمكن القراء من تفهم هذا المشروع ووضعه ضمن مساره التاريخي بعد مضي عشر سنوات على الطبعة الأولى.

لن أقوم في تقديم الطبعة الثانية بتقييم مفصّل لما بلغه **التاريخ الجديد** خلال هذه الفترة، ولا ما هو عليه اليوم، ولا ما يمكن أن يؤول إليه في المستقبل.

ولكن أودُّ أولاً أن أقول بأنني لم أكن «زعيماً لمدرسة تاريخية» سنة 1978، ولست كذلك اليوم، ولا أتكلم إلا باسمي الشخصي من

دون أن ألزم بكلامي غيري من المؤرخين الآخرين. لكن ذلك لا ينفي حقيقة علاقاتي مع مجلة **الحوليات**، وكذلك «المدرسة العليا للعلوم الاجتماعية» في باريس، فأنا مدين لهما بقسط وافر من تكويني، فقد جعلا مني شاهداً لإنجازاتهما ملتزماً بها، ولو أنني لم أسع سنة 1978، كما لا أسعى اليوم إلا إلى الإخبار عن **التاريخ الجديد** لا غير.

وإذا لم أقدم هنا تقييماً لوضع «التاريخ الجديد»، فذلك لا يعني أنه لم يتطور، فخلال العشر سنوات التي مضت تطورت البحوث التاريخية بنسق سريع، لا فقط في مستوى التاريخ الذي يتشكل في العالم، ولا في ما يعيشه الناس يوميّا، وإنما في ما ينشئه المؤرخون من دراسات تاريخية. واليوم يتحدث الناس كثيراً عن أزمة الكتابة التاريخية بصورة عامة، وعن أزمة مدرسة **الحوليات**، وعن وضعها الحالي بصورة أخص.

لكن تفحص ما آل إليه الأمر حديثاً، وكذلك الجدل الذي يسعى البعض لإثارته، يستدعي دراسة دقيقة ووقفة تأمل عميقة. لقد بدأت بعدُ مجلة **الحوليات** تقوم بهذا الفحص، وهي لن تتوانى عن الاستنارة برأي قرائها فحسب، بل كذلك إشراك مجموع المؤرخين على اختلاف مشاربهم، إذ سيقع القيام باستبيان خلال سنة 1989، وهو تاريخ ستينية المجلة، وستنشر نتائجه المجلة، وستبدي الهيئة المديرة رأيها حول ماضي هذه الأزمة وحاضرها وتقترح حلولاً للمستقبل.

وإذا كانت هناك أزمة، فيمكننا القول إنها نابعة بالنسبة إلى **التاريخ الجديد** من ظاهرتين عامتين:

أما الظاهرة **الأولى**، فهي تكمن في نجاح **التاريخ الجديد** في

حدّ ذاته. فقد بدا جلياً أن البحث في ميادين مختلفة قد فرض نفسه على الساحة العلمية مثلما هو الشأن بالنسبة إلى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، والتاريخ غير المتمحور على الذات الأوروبية المركزية، وتاريخ البنى، وتاريخ الأمد الطويل، وتاريخ الهامشيين، وتاريخ الجسد، والجنس، وخاصة تاريخ الذهنيات.

وككل إبداع جديد يحمل في طياته إمكانيات انتشاره، فقد واصل **التاريخ الجديد** اكتساح مجالات لا تزال بكراً، وعمّق في الوقت نفسه النظر في مجالات مدروسة، وقام بمقارنات أولية، وبتعميق أشكال التنوع والاختلاف. فلا عيب، ولا عار في أن يمر **التاريخ الجديد** من مرحلة الريادة إلى مرحلة الاستغلال والإنتاج. ويعاب على **التاريخ الجديد** اعتماده على الموروث، وعبارة «الوريث» ليست بالضرورة تحقيرية. لقد صادف أن ساهم الورثة بالقدر نفسه مع الإسكندر المقدوني في صنع العالم الهلنستي. لذلك يعدّ من السخافات أن يرى دائماً «الرقباء» أنفسهم في مؤرخي **الحوليات** أنهم ورثة للمؤسسين الأوائل، وغير أوفياء لهم في الوقت نفسه.

أما الظاهرة **الثانية**، والتي انعكست آثارها على **التاريخ الجديد**، فهي حتماً الأزمة التي تعيشها العلوم الاجتماعية، وهي أيضا أزمة قد تطول المفهوم الاجتماعي في حدّ ذاته. ويمكن أن نلامس بعضاً من بوادر ذلك: **أولاها** تجسم في أزمة التقدم ذاته التي لاحت منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية من خلال بعض الكتابات الاستشرافية، ككتاب جورج فريدمان (Georges Friedman) الذي جاء تحت عنوان: **أزمة التقدم**، وقد نشر سنة 1936. **وثانيتها** هو ما أطلق عليه تسرعاً: «موت الأيديولوجيات». وفي الواقع لم تؤثر أزمة الماركسية كثيراً في **التاريخ الجديد**. فحتى وإن رأى بعض المؤرخين الأساسيين في مدرسة **الحوليات**، مثل فرناند بروديل، أن ماركس هو أهم

المنظّرين للنماذج في مجال العلوم الاجتماعية عامة، والتاريخ بصورة خاصة، فإن الأرثوذكسية الماركسية بقيت بمنأى عن **التاريخ الجديد**. ومن الممكن أن يكون لتصور تاريخ شمولي أو كلي طابع أيديولوجي، كان شمله نقد الأيديولوجيات.

أعتقد أن التاريخ الحي، وخاصة **التاريخ الجديد**، لا يشكل كتلة واحدة، ولكن مجموعة (سديم أو سحابة من الكتل) محورها الأساسي هو مدرسة **الحوليات**، التي لم تتوقف ولا يجب أن تتوقف على الطموح إلى بلوغ تاريخ شمولي يبحث في تطور المجتمعات بحسب نماذج مجمّعة (Globalisants).

وإني لأعتقد أن ما حدث وما يحدث، وفي أحسن الحالات، هو أن المؤرخين المنتمين إلى هذا التيار، قد حافظوا على الهدف نفسه مع السعي لبلوغه بطرق أخرى، مثل القيام بدراسات مونوغرافية منمذجة. وهو ما يتجلى في انبعاث دراسات محلية وجهوية على هذا المنحى مثل: **مونتايو، قرية أكسيتانية من 1294 إلى 1324** (*Montaillou, un village occitan*) لإمانويل لو روا لادوري (Emmanuel Le Roy Ladurie)؛ **منطقة اللاسيوم في العصر الوسيط** (*Le Latium médiéval*) لبيار توبار (Pierre Toubert)؛ **منطقة الماكوناي** (*Le Mâconnais*) لجورج دوبي؛ **مدينة كان** (*Caen*) لجان كلود بيرو (Jean Claude Perrot)؛ **الطسكانيون خلال القرن الرابع عشر** (*Les Toscans du Quattrocento*)، لدافيد هارلهاي وكريستيان كلابيتش (David Herlihy et Christiane Klapisch)؛ **منطقة نورمنديا الشرقية في نهاية العصر الوسيط** (*La Normandie orientale de la fin du Moyen-Age*) لغي بوا (Guy Bois). كما تطورت عدة دراسات تهتم بمسألة التمثلات، مثل: **الصياد الأسود** (*Le Chasseur noir*) لبيار فيدال ناكيه (Pièrre Vidal - Naquet)؛ **مطهرة الذنوب** (*Le Purgatoire*)

لجاك لوغوف (Jacques Le Goff)؛ **الخوف** (*La Peur*) لجان دولومو (Jean Delumeau)؛ **الوخم والنرجس الأسلي** (*Le Miasme et la jonquille*) لآلان كوربان (Alain Corbin)؛ **والكتابة** (*L'Ecriture*) (*La Scrittura*) لأرماندو بارتوتشي (Armando Pertucci)[2].

وهنا أيضاً يعيب النقاد على مؤرخي **التاريخ الجديد** الشيء ونقيضه، فمن ذلك يعيبون عليهم من ناحية كونهم عاجزين عن التخلص من إرث **الحوليات**، ومن ناحية أخرى تنكرهم لهذا الإرث بالتخلي عن التاريخ الشمولي والاهتمام بـ «التاريخ الفتاتي».

وقد تضخم هذا النقد بفعل وسائل الإعلام، ويؤاخذ **التاريخ الجديد** على انسياقه وراء «الموضة»، لكنه كثيراً ما يجد نفسه منجرفاً رغماً عنه وراء الإشاعات السطحية والصاخبة وغير الثابتة التي تخترق عالم الإعلام الضيّق. ويروَّج في هذا المجال لخرافة تمكّن **التاريخ الجديد** من وسائل الإعلام واحتكاره شبه الكلي عملية تبسيط التاريخ عبر دور النشر والصحف ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية. إلا أن هذه الخرافة لا يمكن لها أن تصمد أمام دراسة جدية لسوق المادة التاريخية، إذ لا تزال مسألة تبسيط التاريخ وإشاعته بين الناس محتكرة بصورة كبيرةٍ من طرف التاريخ التقليدي أو حتى التاريخ على الطراز القديم. لقد أزاح **التاريخ الجديد** النقاب، عبر دراسات عالمة ودقيقة، عن مظاهر التعبير عن السلطة في مواطن لم يتفطن إليها التاريخ التقليدي، ولم يفكر حتى في وجودها (وذلك في الرموز وفي المتخيّل مثلاً)، وهو بذلك يكاد يكون مجبراً تقريباً، من خلال الإشكالية التي يطرحها على ممارسة الشفافية.

---

(2) العناوين المختصرة للكتب الواردة في هذه الفقرة ليست العناوين الحقيقية للكتب نفسها التي نجدها ضمن الجرائد البيبليوغرافية.

في الحقيقة، يسعى جلّ المؤرخين المنتمين إلى هذا النهج، والمدافعين عن تصور معين للتاريخ، للتعريف برؤيتهم هذه وإقناع عموم الناس بمنافع **التاريخ الجديد**، علاوة على المختصين، ذلك لأنهم يعدّون لتاريخ شامل يمكن استكشافه في جميع مكوّنات الحياة الاجتماعية والثقافية. ولكنهم في الوقت نفسه يرفضون أي شكل من أشكال الغطرسة والهيمنة في مختلف المستويات. إنهم لم يشكلوا مدرسة بالمعنى الحقيقي للكلمة، وإنما كوّنوا إطاراً حدوده ليست واضحة، لكنه متفتح، ويتميز بعقلية معينة، ويدافع عن توجّه، ويصبو إلى تثبيت منهج، وهو ما لا يسمح لهم بالتحول إلى مجموعة مؤثرة.

ولكي لا أتكلم إلا عن نفسي ـ نظراً إلى أن هذا الكلام لا يلزم إلا شخصي ـ فإنني أجتهد في التعريف بأبحاث **التاريخ الجديد** ومناهجه[3]، وأعرب عن تقديري للإعلاميين في وقتنا هذا الذين يساعدون على ذلك، بما في ذلك بالنقد. ولكنني أطلب منهم أن يقوموا بذلك عن دراية، أي بعد الاطلاع على هذه الأبحاث، وبتتبع تطور الكتابة التاريخية، وليس بالاعتماد على اللغط، وخاصة لغط الأجواء الباريسية التي تبدو كما لو أنها موضة (دراسة الموضة الفكرية، من الأمور الجدية، وهي جديرة بأن تكون موضوع بحث تاريخي طريف).

ملاحظة أولى تتعلق بتاريخ المجتمعات ـ وقد قلت ذلك، وهو

---

(3) أود أن أذكر بأنني خلال عشرين سنة كنت أنشّط حصة حول التاريخ تقدم كل يوم الاثنين من إذاعة «فرنسا الثقافية» (France culture)، بمعية كل من بيار سيبريو (Pierre Sipriot)، ودنيس ريشيه (Denis Richet)، وروجيه شارتييه (Roger Chartier)، وفيليب لوفيلان (Philippe Levillain)، ولم أحول في يوم ما هذه الحصة إلى منصة لـ **التاريخ الجديد**، حتى وإن قدمت بعض الكتب من خلال هذه الحصة لأنه لم يكن من السهل تقديمها في حصة أخرى تهتم بالتاريخ.

أمر لا يختلف فيه اثنان ـ إنه ينمو، والملاحظة نفسها تخص أيضاً مناهج الكتابة التاريخية. فلماذا يجب على التاريخ الجديد نفسه ألا يتغير؟ فالركود، وهو عكس التاريخ، لا يعبِّر عن الوفاء بقدر ما يعبِّر عن العجز. ويمكن لأصحاب النيات الطيبة أن يلاحظوا وفاء عميقاً لـ **التاريخ الجديد** في ظل التغيرات التي تشمل المواضيع المدروسة أو كيفية التطرق إليها.

ليسمح لي أن أتمنى أن يكون أولئك الذين ينسِّقون الحديث عن أزمة الكتابة التاريخية، خاصة إذا كانوا من أهل الاختصاص، ومن أهل الممارسة، أو إذا كانوا من أهل الإعلام، من المطلعين جيداً، إذ كيف يمكن أن نعطي أهمية لهؤلاء المتطببين الذين يكشفون عن **التاريخ الجديد** ليعلنوا بعد ذلك أنه مريض، أو كيف يمكن التعويل على أولئك الوعاظ الذين لم ينتجوا في حياتهم بحثاً تاريخياً، ولو مفرداً، ليساهموا به في بناء هذا الصرح الذي ما فتئ المؤرخون المحترفون، القدامى والمحدثون على حد السواء، يشيِّدونه بالاعتماد على ممارسة مناهج لا يمكن استنباطها في عشية وضحاها؟ فإذا كان التاريخ ممارسة دؤوبة لنظرة معينة، ولفكر نقدي معين، ولنوع من «الفعل»، فهو أيضاً جملة من التراكمات.

وقد يعيب عليّ بعض الناس، بلا شك، هذا الموقف، فإني، على رغم رفضي نوعاً من الفلسفة التاريخية، لست من كبار هواة التنظير أيضاً، بل العكس صحيح، إذ أعتقد أن الكتابة التاريخية هي صناعة لا بد لها من أن تستنبط أدواتها، أي عليها أن تنتج مناهجها وتطرحها للتفكير والمناقشة. وغالباً ما يقوم المؤرخون في بحوثهم، بالتنظير أو بالأيديولوجيا بصورة لاشعورية، وهو ما يستوجب الوعي بهذا التنظير الخفي والتوعية به أيضاً. ولكن من المؤسف أن ينتصب البعض قضاة لمحاكمة المنهج من دون سابقية تكوين في مجال

الإيبستيمولوجيا، ولو أنها علم يدرس، وينتحلون نقد المناهج التاريخية اختصاصاً، من دون أن يتمرسوا بعلم التاريخ.

لقد استرعت الطبعة الأولى لـ **التاريخ الجديد**، في سنة 1978، اهتماماً كبيراً من بين المؤرخين الباحثين، ومن بين مدرِّسي التاريخ الذين يمتلكون حساً نقدياً لمادة تدريسهم، ولكن ظروف العمل أقصتهم عن البحث، كما جلبت اهتمام جمهور عريض من المهتمين بالتاريخ وبتجدّد مناهجه. كما أثارت النقد أيضاً. وقد بدا هذا النقد معقولاً في بعض مآخذه على **التاريخ الجديد**، كإعطاء مكانة متواضعة للتاريخ السياسي أو التاريخ المعاصر ولو أنهما يطرحان مشاكل عويصة. في حين بدا لي البعض الآخر نقداً مغرضاً. لقد أسعدني هذا العداء في حدّ ذاته، ولو نسبياً، على رغم أن البعض فد تعرّضوا لـ **التاريخ الجديد** بالنقد بسوء نية وبلغوا في نقدهم درجة الثلب، وهي من الأمور التي يؤسف لها. ولكن هذا العداء قد أثبت أن **التاريخ الجديد** يتمتع بصحة جيدة ويزعج «أولئك الذين يقتاتون من التاريخ»، وأولئك التجار الذين يعرضون «حساء تاريخياً» لا يمكن لمستهلك، له قليل من الاطلاع ويتمتع بحد أدنى من التكوين، إلا أن يعلن أنه غثّ وفاسد ونفعه قليل.

وعلى عكس ما يراه البعض، من الذين يعتقدون، وأحياناً يقولون ويكتبون، عن سوء نية أو عن نية حسنة، أن **التاريخ الجديد** لم ينتصر بعد. وإذا نظرنا إلى ذلك من زاوية معينة فربما هو الأفضل ما دام يسمح بإبقاء باب نقاش الأفكار مفتوحاً. ولكنه من المؤسف أن نرى توجهات، هي في نظري أساسية في تصور **التاريخ الجديد**، لم تقتحم بعد مجال التاريخ مثل: التاريخ ـ المشكل، والتاريخ المتفتح على العلوم الاجتماعية الأخرى، والتاريخ الذي لا يغرق في السرد. ولن استسلم ما دام الرهان كبيراً. نعم، يظل لوسيان فافر

(Lucien Febvre) على حق، فـ «المعارك من أجل التاريخ» ما زالت متواصلة. مع ذلك، لقد آلمتني بعض الانتقادات، إذ وجد البعض في **التاريخ الجديد**، وعن حسن نية، لهجة انتصارية وشعوراً بالاكتفاء الذاتي وبذراً للتعصب، وكثيراً من العنف. وبالنسبة إلى هذه النقطة الأخيرة، أعتقد أننا لم نتجاوز حدود النضالية الضرورية التي سبق أن تحدثت عنها. وإن فهم الناس عكس ذلك، فإنني أعبِّر عن أسفي، لأنه لم يكن ذلك لا في نيّتي ولا في نيّة أصدقائي.

تبدو عبارة «التاريخ الجديد» في حد ذاتها مهينة لدى الكثيرين، لأنهم يعتقدون أن هذا التصنيف يتضمن إلغاء لـ «التاريخ كما كتبه السلف» وتعتيماً عليه. لا شك في أن هناك تجدّداً في الكتابة التاريخية في القرن العشرين، ولا ينحصر روّاد هذا التجديد في مجلة أو في جماعة أو في مؤرخين من جنسية دون غيرها. فقد استفاد رواد **التاريخ الجديد** من أسلافهم الذين كان بعضهم لامعاً وغير منتظر، وأنا مصرّ على التنويه بفضلهم. كما استفادوا من أسلاف أقل شهرة، علماء مبحرين أكانوا أم مؤرخين على اختلاف مشاربهم. إن هؤلاء، حتى وإن لم يكونوا بالضرورة مجدِّدين، فقد ساهموا بدورهم في استنباط المناهج والتقنيات، وفي تركيز أسس الكتابة التاريخية ونشر المصادر، وهي أعمال من دونها لا يكون هناك «تاريخ جديد». لقد مكَّنوا روّاد **التاريخ الجديد** من حذق السلَّم الموسيقي لكتابة ألحانهم. فما هو ذنبي إذا كان يجب أن نسمي الجديد جديداً؟ وفي ما يخصّني، لا أحتقر ما لا يستحق الاحتقار، إذ يمكنه أن يكون مساهمة مهمة في التاريخ بطريقة أخرى وفي إطار مختلف. وإني أعرف مؤرخين كباراً مع أنهم ليسوا من المجدّدين بالمرة. وكثيراً ما كنت أسمع من يقول لفرناند بروديل، وهو يؤكد على وجود «تاريخ جديد»، بأن التاريخ المقبول هو «التاريخ الجيّد».

كيف يمكن إذن مواصلة هذه المعركة التي أعتقدها ضرورية وصحّية، ما دامت تحترم الضوابط الفكرية والأخلاقية لهذه المعركة، والتي يجب أن تكون عادلة، فهي معركة فكرية؟

في هذا الحقل التاريخي الكبير الذي ساهم **التاريخ الجديد** في توسيع رقعته من دون أن يتغافل عن الحدود التي يجب ألا تكون حاجزاً فاصلاً بينه وبين العلوم الاجتماعية الأخرى، وإنما مناطق عبور وتبادل تتهيأ فيها أرضية ملائمة لتكامل حقيقي بين مختلف العلوم، ويمكن أن أشير على سبيل المثال إلى العودة الغامضة إلى مواضيع تاريخية قديمة مثل: عودة الاهتمام بالحدث التاريخي، وهو الأكثر بروزاً، والعودة إلى التاريخ السردي، وهو الأكثر إثارة للجدل، والعودة إلى تاريخ السير، وهو الأكثر وفاقاً في الظاهر، والعودة إلى التاريخ السياسي، وهو الأمر الأعظم.

وكثيراً ما كانت هذه العودة إلى المواضيع التاريخية القديمة غامضة، فإذا كان كل واحد من هذه المواضيع التاريخية مقبولاً ضمن مواضيع **التاريخ الجديد**، وإذا كان روّاد **التاريخ الجديد** أنفسهم قد أعطوا المثل بتناولها، فذلك لأن العودة إلى هذه الأنماط التاريخية (أو ما يشبه ذلك) كانت تتم في إطار إشكاليات عميقة التجديد. ولكن هذه العودة تبدو بمثابة الثأر بالنسبة إلى المؤرخين التقليديين أو التقليديين الجدد، الذين يشبهون في ذلك أولئك المهاجرين الذين جاؤوا بعد الثورة الفرنسية «من دون أن يتعلموا جديداً، ومن دون أن ينسوا قديماً». في هذه الجبهات يجب الحذر الشديد، ويجب صدّ جحافل هؤلاء المؤرخين، شيباً وشباباً، لأنهم ببساطة «مؤرخون رجعيون».

تبدو عودة الاهتمام بالحدث التاريخي أكثر إثارة، لأن ذلك يتنزّل في حقل كان يناضل ضده كل من لوسيان فافر ومارك بلوخ

(Marc Bloch). وكان الوقوف ضد التاريخ السردي السطحي، والسياسي منه خاصة، الذي لا يهتم بالأمد الطويل ولا بالهياكل، هو المستهدف الرئيسي للأعداد الأولى من مجلة **الحوليات**. وتعتبر عودة الاهتمام بالحدث التاريخي مرتبطة بجملة من التطورات التي أفسحت له المجال ليلج حقل التاريخ. **وأول** هذه التطورات هو صنع الحدث من طرف وسائل الإعلام، وجعله في وضع مميز في التاريخ المعاصر، وقد حلل بيار نورا (Pièrre Nora) هذه الظاهرة بصورة معمقة. **والثاني** هو إمكانية الانطلاق من الحدث واعتباره بمثابة ما طاف من جبل جليد عائم ودراسته كمؤشر عن البنى ومبلور لها. ولعل أرقى الدراسات في هذا الصدد هي دراسة جورج دوبي **معركة يوم الأحد في بوفين** (*Le Dimanche de Bouvines*). ويرى جاك روفيل أن «الحدث الذي يلعب في الوقت نفسه دور الذاكرة والخرافة في المتخيل الاجتماعي، يسمح باستقراء هذا المتخيل الاجتماعي ذاته. وهذا المتخيّل يلعب في الوقت نفسه دور الذاكرة والخرافة بالنسبة إلى هذا المجتمع. وقد أثارت العودة إلى التاريخ السردي جدلاً قوياً، وقد وجد هذا النهج في شخص لورنس ستون (Laurence Stone) بطلة من النوع الرفيع. ولكن يبدو أن سوء تفاهم قد حصل بين ستون وقرائها. أما في نظري، فيمكن اعتبار التاريخ السردي جثة يجب عدم النفخ فيها، وفي صورة إعادة الحياة لها يجب إعدامها مرة ثانية. وهذا التاريخ السردي يختفي وراء (ويخفي في الوقت نفسه) بعض التوجّهات الأيديولوجية، وبعض المناهج التي يجب الإفصاح عنها. يجب حصر التاريخ السردي في المناهج المدرسية، وفي عمليات تبسيط التاريخ لعموم الناس. وفي هذا المضمار وجب التذكير بالخطأ الكبير الذي ارتكبه بعض الموظفين، تحدوهم من دون شك نيات طيبة خاصة في فرنسا وبلجيكا خلال السبعينات وبداية الثمانينات، بالسعي إلى إقحام ما اعتقدوه «التاريخ

الجديد» في البرامج المدرسية. وفي الواقع، هذا التاريخ هو نتاج بحوث متقدّمة يصعب إقحامها بسرعة وعلى صورتها تلك في البرامج المدرسية. وفي كل الحالات نتمنى أن تصل روح هذا التاريخ إلى التعليم وإلى الكتب الموجّهة إلى العموم، وذلك بملاءمته مع مستوى مستهلكيه من غير المختصّين، ومن الذين لا يمتلكون ما يجب من الزّاد المعرفي لتفهّمه على حاله عند إنتاجه. كما حصل سوء فهم لمسألة التسلسل الزمني في إطار مسايرة تمثل الزمن كما يراه **التاريخ الجديد**، فوقع في بعض الأحيان تغييب، يكاد يكون كلياً، للتسلسل الزمني الذي يستحق التبسيط والتحيين، لأنه يبقى أساسياً لوضع الأحداث التاريخية في إطارها بالنسبة إلى المؤرخ نفسه، وبالنسبة إلى الشباب وعموم الناس.

أما العودة إلى تاريخ السير، فيبدو أنها لم تلاق معارضة كبيرة، على رغم أن سوق الكتاب التاريخي مكتظة بمؤلفات أغلبها سطحي وطرائفي، وفي بعض الأحيان قد تجاوزها الزمن. إن السير التاريخية الجديدة تنير تاريخ الأعلام من خلال إبراز البنى الاجتماعية التي أفرزتها، وتدرسهم من خلال الوظائف التي تقلدوها والأدوار التي أدّوها من دون الاقتصار على حصرهم في التفسيرات الاجتماعية.

أما العودة الأكثر أهمية هي تلك التي تخص التاريخ السياسي. هنا أيضاً، وإذا كانت مجلة **الحوليات** على صواب في مقاومة التاريخ السياسي السطحي الذي ينبني على قصر نظر للأحداث، أي بكتابة تاريخ سياسي بالمعنى السياسوي للكلمة، فإنه من الواجب أن نبني تاريخاً للشأن السياسي. والمقصود بالتاريخ السياسي هو تاريخ السلطة في جميع تجلياتها، ولو أنها ليست دائماً سياسية، وإنما تاريخ يأخذ بعين الاعتبار رمزية السلطة وتمثلها في المتخيل.

وفي هذا المضمار يعتبر مؤلف مارك بلوخ: **الملوك، صناع**

المعجزات (*Les Rois thaumaturges*) (1924)، ومؤلف إرنست كانتوروفيتز (Ernest Kantorowicz): **جسما الملك** (*King's Two Bodies*) (1957) من الأعمال الرائدة في مجال التاريخ السياسي المجدّد، والتي اقترحت أن نطلق عليها: الأنثروبولوجيا السياسية التاريخية. وهو ما يلحقها بالدراسات المثيلة التي يقوم بها علماء الاجتماع والإثنولوجيا[4]. وليسمح لي بإنهاء هذا التقديم بتفاؤل لا يخلو من النقد الذاتي البعيد كل البعد عن الرضا عن النفس. أعتقد أننا نشهد اليوم مفارقة:

- من ناحية يدور الحديث حول أزمة التاريخ، وهناك بالفعل أزمة، ولكنها أزمة تتعدى التاريخ لتشمل مجمل العلوم الاجتماعية. ويأتي تأثر **التاريخ الجديد** بهذه الأزمة، نتيجة لتعامله الكبير مع هذه العلوم. وشخصياً، لا أتصوّر الحل في انطواء التاريخ على نفسه للخروج من هذه الأزمة، وإنما في إعادة تحديد حقل البحوث الاجتماعية، وإعادة تحديد العلاقة بين التاريخ وهذه العلوم. وفي كل الحالات تحتاج هذه الوضعية إلى فحص مدقّق.

- ومن ناحية أخرى، لم يسبق أن بلغت البحوث التاريخية شأوها في الحيوية مثلما هي عليه اليوم، ولو أنها تبدو في بعض الحالات، وللوهلة الأولى، مشتّتة وغير منظمة. وهذا هو المهم في رأيي. كما نلاحظ أيضاً تزايد الرغبة المعرفية للتاريخ والحاجة الاجتماعية إليه.

---

(4) انظر: Georges Balandier, *Anthropologie politique*, le sociologue; 12, 3ème éd. (Paris: Presses universitaires de France, 1978),
ومقال: Georges Balandier, «Anthropologie politique,» dans: Jacques Le Goff, Jacques Chartier et Jacques Revel, dirs., *La Nouvelle histoire*, les encyclopédies du savoir moderne. La Bibliothèque du CEPL (Paris: Retz, 1978), pp. 62-64.

وما على المؤرخين إلا أن يواجهوا مسؤولياتهم. وعلى التاريخ الجديد، أكثر من أي وقت مضى، أن يبرّر اسمه من دون ضجيج، ومع الآخرين وحتى ضدهم، يجب المضي قدماً إلى الأمام.

البيبليوغرافيا

أعمال حديثة تتعلق بمجلة الحوليات والتاريخ الجديد:

Maurice Aymard, «The Annales and French Historiography (1929-1972),» *European Economic History*, vol. 1 (1972), pp. 491-511.

Fernand Braudel, *Une Leçon d'histoire de Fernand Braudel: Châteauvallon, Journées Fernand Braudel, 18, 19 et 20 octobre 1985* (Paris: Arthaud; Flammarion, 1986).

«Braudel dans tous ses états: La Vie quotidienne des sciences sociales sous l'empire de l'histoire,» *Espaces temps*, nos. 34/35 (1986).

André Burguière, «Histoire d'une histoire: La Naissance des annales,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 34, no. 6 (nov.-dec. 1979).

_____, «La Notion des mentalités chez Marc Bloch et Lucien Febvre: Deux conceptions, deux filiations,» *Revue de synthèse*, nos. 111-112 ([1983]).

Charles Olivier Carbonell et Georges Livet, dirs., *Au Berceau des annales: Le Milieu strasbourgeois, l'histoire en France au début du XXe siècle: Actes du colloque de Strasbourg, 11-13 octobre 1979*, recherches et documents/ société savante d'Alsace et des régions de l'est; 31. Publications de l'institut d'études politiques de Toulouse; 6, [organisé par l'université de Strasbourg et le groupe d'études historiographiques] (Toulouse: Presses de l'institut d'études politiques de Toulouse, [1983]).

Hervé Coutau-Bégarie, *Le Phénomène «nouvelle histoire»: Stratégie et idéologie des nouveaux historiens* (Paris: Economica, 1983).

François Dosse, *L'Histoire en miettes: Des «Annales» à la «nouvelle histoire»*, armillaire (Paris: La Découverte, 1987).

Georg G. Iggers, «Die 'Annales' und ihre kritiker. Probleme moderner franzôsischer Sozialgeschichte,» *Historiche Zeitschrift*, vol. 219, Heft 3 (1974), pp. 578-608.

Sabrine Jöckel, *«Nouvelle histoire» und Literaturwissenschaft*, Romanistik Neue Folge; 1 (Rheinfelden: Schâuble Verlag, 1985).

Pier Luigi Orsi, «La Storia della mentalità in Bloche e Febvre,» *Rivista di storica contemporanea*, vol. 12, no. 3 (1983), pp. 370-395.

Theodore K. Rabb et Robert I. Rotberg, eds., *The New History, the 1980's and beyond: Studies in Interdisciplinary History*, Contributors Peter H. Smith [et al.] (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1982).

Jacques Revel, «Histoire et sciences sociales: Les Paradigmes des annales,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 34, no. 6 (novembre-décembre 1979).

Traian Stoianovich, *French Historical Method: The Annales Paradigm*, with a Foreword by Fernand Braudel (Ithaca, NY; London: Cornell University Press, 1976).

أعمال تتعلق بالاتجاهات البحثية الجديدة، وهي بذلك قريبة من التاريخ الجديد:

Ralf Andreano, dir., *La Nouvelle histoire économique: Exposés de méthodologie = The New Economic History: Recent Papers on Methodology*, bibliothèque des histoires, traduit de l'anglais par Roger Gilles; dossier de la question par Jean Heffer ([Paris]: Gallimard, 1977).

«Archives orales: Une Autre histoire?,» Editorial, *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 35, no. 1 (1980).

Philippe Ariès, *Le Temps de l'histoire*, l'univers historique, préface de Roger Chartier (Paris: Editions du seuil, 1986).

_____ et Georges Duby, dirs., *Histoire de la vie privée*, l'univers historique, 5 vols. (Paris: Editions du seuil, 1985-1987).

André Burguière, dir., *Dictionnaire des sciences historiques* (Paris: Presses universitaires de France, 1986); notamment les articles: «Annales» (Ecole des), par A. Burguière; «Anthropologie historique» par A. Burguière; «Biographique»

(Histoire) par G. Chaussinand-Nogaret; «Fait historique» par O. Dumoulin; «Immédiate» (Histoire) par B. Paillard; «Intellectuelle» (Histoire) par R. Chartier; «Marxiste» (Histoire) par R. Paris; «Mémoire collective» par Ph. Joutard; «Politique» (Histoire) par P. Levêque; «Psychanalyse et histoire» par E. Roudinesco; «Quantitative» (Histoire) par F. Mendels; «Rurale» (Histoire) par J. Goy; «Sociale» (Histoire) par Y. Lequin; «Temps présent» par J. P. Azema; «Théories de l'histoire» par M. Crubellier, et «Urbaine» (Histoire) par O. Zunz.

Pierre Chaunu, *Histoire, science sociale: La Durée, l'espace et l'homme à l'époque moderne*. Paris: Société d'édition d'enseignement supérieur, 1974-; 2ème éd., regards sur les sciences humaines (Paris: Société d'édition d'enseignement supérieur, 1983).

_____, *Histoire quantitative, histoire sérielle*, cahiers des annales; 37 (Paris: Armand Colin, 1978).

François Furet, *L'Atelier de l'histoire*, science (Paris: Flammarion, 1982).

_____, *Histoire sociale, sensibilités collectives et mentalités: Mélanges Robert Mandrou* (Paris: Presses universitaires de France, 1985).

Georg G. Iggers, *Neue Geschichtswissenschaft. Vom Historismus zur historischen Sozialwissenschaft* (München: Deutscher Taschenbuch, 1978).

_____, «Introduction: The Transformation of Historical Studies in Historical Perspective,» dans: Georg G. Iggers et Harold T. Parker, eds., *International Handbook of Historical Studies: Contemporary Research and Theory* (London: Methuen, 1980), pp. 1-14.

Witold Kula, *Reflexiones sobre la hisoria* (Mexico: Ediciones de Cultura Popular, 1984).

«L'Acte historique et son sujet,» *Mit-Dit, Cahiers méridionaux de psychanalyse*, nos. 10-11 (1985).

Jacques Le Goff, *Intervista sulla storia*, Saggi tascabili Laterza, Curarto da Francesco Maiello (Roma; Bari: Laterza, 1982).

Mélanges René van Santbergen, cahiers de clio (Bruxelles: Centre de la pédagogie, de l'histoire et des sciences de l'homme, 1984).

August Nitschke, *Historische Verhaltensforschung: Analysen gesellschaftlicher Verhaltensweissen: ein Arbeitsbuch*, Uni-Taschenbücher; 1153 (Stuttgart: Ulmer, 1981).

Krzysztof Pomian, *L'Ordre du temps*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1984).

Paul Thomson, *The Voice of the Past: Oral History* (Oxford; New York: Oxford University Press, 1978).

Pierre Vilar, *Une Histoire en construction: Approche marxiste et problématiques conjoncturelles*, hautes études ([Paris]: Gallimard, 1982).

أعمال تقدم المشهد العام للكتابة التاريخية الحديثة والحالية:

Geoffry Barraclough, *Tendances actuelles de l'histoire = Main Trends in History*, champs (Paris: Flammarion, 1980).

Guy Bourdé et Hervé Martin, *Les Ecoles historiques*, points. Histoire; H67 (Paris: Editions du seuil, 1983).

Charles Olivier Carbonell, *L'Historiographie*, que sais-je?; 1966 (Paris: Presses universitaires de France, 1981).

Benedetto Croce, *La Philosophie comme histoire de la liberté: Contre le positivisme*, [traduit par Sophie Gherardi], textes choisis et présentés par Sergio Romano (Paris: Editions du seuil, 1983).

Gilbert Gadoffre, dir., *Certitudes et incertitudes de l'histoire: Trois colloques de l'institut collégial européen*, histoires; 0246-6120, avec les contributions de Philippe Ariès [et al.]; préface de Pierre Chaunu (Paris: Presses universitaires de France, 1987).

Jean Glénisson, «L'Historiographie française contemporaine: Tendances et réalisations,» dans: *Vingt cinq ans de recherche historique en France (1940-1965)*, 2 vols. (Paris: [s. n.], 1965), pp. IX-LXIV.

L'Histoire, analyses et réflexions sur...; 13-14, 2 vols. (Paris: Ellipses, 1980), vol. 1: *Les Philosophies de l'histoire*.

Pietro Rossi, ed., *La teoria della Storiografia oggi* (Milano: Il Saggiatore, 1983).

Georg Simmel, *Les Problèmes de la philosophie de l'histoire: Une Etude d'épistémologie = Die Probleme der Geschichtsphilosophie: Eine erkenntnistheoretische studie*, sociologie, introd. et trad. de l'allemand par Raymond Boudon (Paris: Presses

universitaires de France, 1984).
«Sous l'histoire la mémoire,» *Dialectiques*, numéro spécial, no. 30 (1980).
Lawrence Stone, *The Past and the Present* (Boston; London: Routledge and Kegan Paul, 1981).
Guy Thuillier et Jean Tulard, *La Méthode en histoire*, que sais-je?; 2323 (Paris: Presses universitaires de France, 1986).
Charles Tilly, «The Old New Social History and the New Old Social History,» *Review*: vol. 7, no. 3 (Winter 1984), pp. 363-406.

مجلات جديدة ومناهج حديثة في ميدان البحث التاريخي:
(التاريخ المذكور هو تاريخ أول صدور)

Storia della Storiografia (1981).
History and Technology, vol. 1, no. 1 (1983).
Pietro Redondi, ed., *Science: The Renaissance of a History: Proceedings of the International Conference Alexandre Koyré. Paris, collège de France, 10-14 June 1986* (London: Harwood Academic Publ., 1987), no. spécial de: *History and Technology*, numéro spécial hors série, vol. 4, nos. 1-4 (1987).
History and Anthropology, vol. 1, no. 1 (1984).
Food and Foodways, Explorations in the History and Culture of Human Nourishment (1986).
Histoire et mesure, vol. 1, no. 1 (1986).

مجلة وقع تجديدها:

Revue de synthèse (fondée en 1900 par Henri Berr), «Questions d'histoire intellectuelle,» *Revue de synthèse*, numéro spécial, quatrième série, nos. 1-2 (janvier-février 1986).

موجز بيليوغرافي يتعلق بالمواضيع المستعادة (1988)

الحدث:

Pierre Nora, «Le Retour de l'événement,» dans: Jacques le Goff et Pierre Nora (dirs.). *Faire de l'histoire*, bibliothèque des histoires; 17, 3 vols. ([Paris]: Gallimard, [1974]), vol. 1, pp. 210-230.

Jacques Revel, «Evénement,» dans: Jacques Le Goff, Jacques Chartier et Jacques Revel, dirs., *La Nouvelle histoire*, les encyclopédies du savoir moderne. La Bibliothèque du CEPL (Paris: Retz, 1978), pp. 166-167.

Georges Duby, *Le Dimanche de Bouvines: 27 juillet 1214*, trente journées qui ont fait la France; 5 ([Paris]: Gallimard, 1973).

التاريخ السردي:

Lawrence Stone, «The Revival of Narrative: Reflections on a New Old History,» *Past and Present*, no. 85 (Nov. 1979), pp. 3-24.

Eric John Hobsbawm, «The Revival of Narrative: Some Comments,» *Past and Present*, no. 86 (1980), pp. 3-8.

تاريخ السير:

Georges Duby, *Guillaume le Maréchal, ou, le meilleur chevalier du monde*, les inconnus de l'histoire ([Paris]: Fayard, 1984).

Problèmes et méthodes de la biographie: Actes du colloque, Sorbonne, 3-4 mai 1985, [organisé par l'association histoire au présent] (Paris: Publications de la Sorbonne: Histoire au présent, [1985]).

Bernard Guénée, *Entre l'église et l'état: Quatre vies de prélats français à la fin du moyen âge*, bibliothèque des histoires; ISSN 0768-0724 ([Paris]: Gallimard, 1987).

التاريخ السياسي:

Jacques Le Goff, «Is Politics Still Backbone of History?,» *Daedalus*, vol. 100 (Winter 1971), pp. 1-19. Texte français original «L'Histoire politique est-elle toujours l'épine dorsale de l'histoire?,» dans: *L'Imaginaire médiéval: Essais*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1985), pp. 333-349.

Marc Bloch, *Les Rois thaumaturges: Etudes sur le caractère surnaturel attribué à la puissance royale particulièrement en France et en Angleterre*, bibliothèque des histoires, préface de Jacques Le Goff, nouv. éd. ([Paris]: Gallimard, 1983).

François Furet, *Penser la révolution française*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1978).

R. Rémond, «Une Nouvelle histoire politique,» dans: *Des repères*

pour l'homme ([Paris]: Association des professeurs d'histoire et géographie, bibliothèque publique d'information, centre Georges Pompidou, 1982), pp. 43-45.

P. Levèque, «Politique,» (Histoire) dans: André Burguière, dir., *Dictionnaire des sciences historiques* (Paris: Presses universitaires de France, 1986), pp. 515-522.

Ralph E. Giesey, *Le Roi ne meurt jamais: Les Obsèques royales dans la France de la renaissance = The Royal Funeral Ceremony in Renaissance France*, nouvelle bibliothèque scientifique, trad. de l'anglais par Dominique Ebnöther; préf. de François Furet ([Paris]: Flammarion, 1987).

Georges Duby, *Le Moyen âge: De Hugues Capet à Jeanne d'Arc, 987-1460*, histoire de France Hachette ([Paris]: Hachette, 1987).

Emmanuel Le Roy Ladurie, *L'Etat royale: De Louis XI à Henri IV, 1460-1610*, histoire de France Hachette ([Paris]: Hachette, 1987).

تقديم الطبعة الأولى (1978)

«التاريخ الجديد»
على درب التقدّم، وهو علم في سنّ الطفولة

جاك لوغوف

إن **القاموس** الذي نقدمه اليوم هو قبل كل شيء أداة إعلام جيدة، ولم نشأ أن نعطي من خلاله صورة كاملة عن الوضعية الحالية للعلوم التاريخية. وهدفنا هو تعريف الجمهور العريض بأحدث توجّهات البحث التاريخي الذي بلغ درجة كبيرة من الأهمية حتى إنه أصبح هناك حديث عن **التاريخ الجديد**. وإلى جانب كونه علم طليعي ومجدّد، فلقد أعطى دفعاً جلياً لجزء كبير من إنتاج المعرفة التاريخية في ميادين البحث والنشر والتدريس. لقد وصفنا في الوقت نفسه مشاكل **التاريخ الجديد** وتعثره وانتصاراته، وحدّدنا التوجهات التي يمكن اتباعها. لذلك جاء هذا الكتاب إخبارياً ملتزماً في الوقت ذاته.

ولتفهّم جذور هذه الحركة التي تجدّد التاريخ منذ عقود من الزمن، والتي تسارع نسقها في العشرين سنة الأخيرة، أقترح على القارئ أن يطلع على مقال «التاريخ الجديد» الذي وضعته في هذا **القاموس**. إنه سيفهم هيكل هذا التيار التاريخي ومحتواه بصورة أفضل، وهو ما أتمناه، فهو لم يزعزع مجال التاريخ التقليدي

فحسب، وإنما كذلك مجال العلوم الإنسانية (أو الاجتماعية) الجديدة، وأيضاً وبلا ريب، كل الحقل المعرفي، ذلك لأن إعادة التفكير في الأحداث والأزمات بعلاقة مع إرهاصات التاريخ البطيئة، والاهتمام بعموم الناس وبالفئات الاجتماعية التي تمثل المحرك الأساسي للتاريخ، أكثر من الاهتمام بالشخصيات البارزة الأكثر صلفاً، وتفضيل تاريخ الواقع الملموس للحياة اليومية بمكوّناتها المادية والذهنية على الأخبار التافهة التي تملأ يومياً واجهات الصحف الزائلة؛ كل ذلك ليس فقط لأنه يجبر المؤرخ - وقارئه - على النظر في ما يكتبه عالم الاجتماع وعالم الإثنولوجيا وعالم الاقتصاد وعالم النفس، وإنما يؤدي أيضاً إلى تحوّل في مستوى الذاكرة الجماعية، كما يؤدي بمجموع العلوم والمعارف إلى إعادة التموقع ضمن صيرورة أخرى وبحسب تصورات أخرى للكون وتطوراته.

ومن المجالات التي يجب على **التاريخ الجديد** اقتحامها، مجال تبسيط المعارف التاريخية وإشاعتها بين الناس، وهو مشروع يسير في اتجاه سليم، لأن رواد **التاريخ الجديد** واعون بأهمية التاريخ في مشاغل الناس، ويسعون لتجويزه دائرة المختصين. ولعل النجاح الكبير والمذهل الذي لقيه كتاب لو روا لادوري[1] (Le Roy Ladurie) **مونتايو، قرية أكسيتانية من 1294 إلى 1324** هو أحسن دليل على ذلك. وهذا ليس بغريب عن **التاريخ الجديد**، فروّاده لهم القدرة على إعادة الحيوية إلى الماضي وتبليغه مثلما فعل القدامى عبر وسائل مناسبة، مثل فن الرواية وجمال الأسلوب.

---

(1) Emmanuel le Roy Ladurie, *Montaillou: Village occiton de 1294 à 1324*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1975).

وقد بيع منه 130000 نسخة ما بين تشرين الثاني (نوفمبر) 1975 ونيسان (أبريل) 1978.

أليس لتاريخ الفرد العادي دلالته ودراميته مثله مثل تاريخ العظماء؟ ألا يبدو أسقف مونتايو (Montaillou) في أهمية مازاران (Mazarin) أو تالايران (Talleyrand)؟ بل ربما نتمكن من خلال سيرته من سبر أعمق للتاريخ الإنساني. أليس لتاريخ اللباس وهيئة اللباس وطريقة الأكل جاذبية أكثر من تاريخ المعارك والاجتماعات الدولية والجدل البرلماني والحملات الانتخابية ـ التي لا تعدو أن تكون إلا زبداً للتاريخ، على حدّ تعبير بول فاليري (Paul Valéry) ـ والتي لا تستحق مكاناً في الذاكرة الجماعية إلا إذا كان لها دور في الكشف عن بنية المجتمعات أو في التأثير العميق فيها وفي تطورها؟ يبيّن **التاريخ الجديد** أن هذه «الأحداث العظام» ليست في غالب الأحيان إلا الغبار الدامي الذي تثيره الوقائع الحقيقية السابقة لها، وهي تلك التحولات التاريخية العميقة، إذ ليست الحرب العالمية الأولى (1914 ـ 1918) هي التي انبثقت عنها أوروبا، وإنما ذلك الغليان السابق لها، والذي يكنى بـ «الفترة الجميلة» هو الذي أفرزها.

تبدو وسائل الاتصال الحديثة ـ أي وسائل الإعلام كما يقال ـ مثل المذياع والتلفزة، وحتى الصور المتحركة، أكثر انفتاحاً على **التاريخ الجديد** من الصحافة (لنتذكر في هذا الصدد السلسلة التلفزية تحت عنوان: «المتوسط» التي أعدت بدفع من فرناند بروديل). أما الدوريات المعدة لتبسيط التاريخ، فإنها تنشر التاريخ المغلوط الذي يعتمد «الألغاز التاريخية»، أو تلك الخرافات التي تحوم حول الجوسسة والجوسسة المضادة (وهي في حدّ ذاتها مواضيع مهمة في مجال الخيال، أو فضائح الحياة الخاصة لـ «العظماء» إلى جانب التاريخ التقليدي الذي يعنى بدويّ المعارك وبالمناورات الدبلوماسية (ولو أنه يمكن أن نكتب التاريخ العسكري والتاريخ الدبلوماسي بحسب منهاج **التاريخ الجديد**)، فهذه الدوريات ليست الناطق

الرسمي لتاريخ الأمس أو ما قبله، وإنما هي بضاعة تعود إلى ما قبل التاريخ. يبدو أننا اليوم في عشية تغيير هذه الأوضاع(2). فـ **التاريخ الجديد**، وهو ليس بتاريخ إقصائي، لكنه مع ذلك لا يمكن له أن يضفي الشرعية على أي منتوج تاريخي، وخاصة التاريخ التقليدي الأعرج الذي يندسّ تحت أغطية علم الاجتماع وعلم السياسة وعلم الاقتصاد وعلم النفس، أو تحت أي غطاء آخر. وعلى هذا **التاريخ الجديد** أن يجتاز اليوم مرحلة ضرورية لا يعدم نفعها.

لقد نشرت سنة 1974 بمعية بيار نورا كتابا تحت عنوان استعرناه من كتابات لوسيان فافر وميشيل دو سارتو (Michel de Certeau): **صناعة التاريخ**، وهو إنتاج ثلة من خيرة المؤرخين الذين ساهم أغلبهم في إعداد هذا **القاموس**. ويتضمن كتاب **صناعة التاريخ**(3) مجموعة من التدقيقات والمواقف التي ساهمت، في اعتقادي، إلى حد كبير في التعريف بواقع **التاريخ الجديد** واهتماماته. إن هذا **القاموس** الذي يختلف في جوهره عن مؤلف **صناعة التاريخ** هو قبل كل شيء وسيلة عمل ومصدر إخبار، ولكنه على علاقة وطيدة بالأجزاء الثلاثة التي نشرت سنة 1974. وهو يطمح إلى أن يكون عملاً جديداً ومرحلة متقدمة للدفاع عن **التاريخ الجديد** وتبيان مضامينه، وخاصة أن هذا التاريخ بدأ اليوم يتحول إلى ظاهرة من أهم الظواهر التي تميز الحياة العلمية والفكرية، وكذلك الذهنية العامة

---

(2) منذ أيار (مايو) 1978 بدأت تصدر مجلة شهرية جيدة لتبسيط التاريخ، وهي مجلة *L'Histoire* (**التاريخ**) (الصادرة عن دار نشر Le seuil وLa Recherche) وهي من دون أن تكون ناطقة باسم التاريخ الجديد، فقد أولته مكانة هامة. كما ظهر العديد من المجلات من هذا النوع خاصة في البلدان الأوروبية. وفي فرنسا وفي مجال تاريخ الأديان بالمعنى الواسع، يمكن أن نشير إلى: *Notre histoire* (**تاريخنا**).

(3) Jacques Le Goff et Pierre Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, bibliothèque des histoires; 17, 3 vols. ([Paris]: Gallimard, [1974]).

للنصف الثاني من القرن العشرين، حتى إنه يمكن القول بأن ذهنية عامة بدأت تتركز في مجال العلوم التاريخية، وفي أذهان الناس («تاريخ الناس» هو أيضاً، في ماض غير بعيد برنامج تلفزي مجدد عرضته التلفزة الفرنسية من إعداد بيار دوماييت (Pièrre Dumayet)).

اختيارات «القاموس»

تتعلق كلمات هذا **القاموس** أساساً بالمصطلحات وأدوات التحليل وحقول البحث ومناهجه التي يعرّف بها **التاريخ الجديد.** ويجد فيه القارئ مصطلحات تقليدية، ولكنها في تحول في إطار **التاريخ الجديد**، مثل: الفن، وعلم الآثار، والتقنيات، والعلوم، والتاريخ الحضري، والتاريخ الريفي، إلخ... كما يجد فيه مصطلحات أصبحت تقليدية، ولكنها تبقى من المصطلحات الأساسية ضمن اهتمامات **التاريخ الجديد**، مثل: الديمغرافيا التاريخية، والتاريخ الاجتماعي، والتاريخ الاقتصادي، وما يحوم حوله من مصطلحات، مثل الظرفية، والتركيبة، والأسعار، والنمو، والتقدم، والأزمة، وغيرها من المصطلحات، كما توجد فيه مفاهيم مرتبطة مباشرة بـ **التاريخ الجديد**، مثل الحاسوب، والمثاقفة، والوسائل الذهنية، والجسد، والجنس، والأسطورة، والصورة، إلخ...

أما المقالات المرتبطة بالسير والتراجم، وهي قليلة، ولم تهتم إلا بالمؤرخين والعلماء الذين لهم قيمة خاصة من منظور **التاريخ الجديد**، مثل: هيرودوت (Hérodote)، أبي التاريخ، وأبي الإثنوغرافيا التاريخية أيضاً، ونذكر كذلك المؤرخين البارزين الأربعة خلال القرن التاسع عشر، وهم: توكفيل (Tocqueville)، وميشليه (Michelet)، وماركس (Marx)، وسومبار (Sombart). ونجد أيضاً بلا شك الآباء المؤسسين لـ **التاريخ الجديد**، مثل: مارك بلوخ،

ولوسيان فافر، وهنري بيران (Henri Pirènne)، ويوهان هويزنغا (Johan Huizinga). ونجد كذلك الفلاسفة وعلماء الاجتماع وعلماء الأنثروبولوجيا، مثل: هنري بار (Henri Berr) وإميل دوركايم (Emile Durkheim)، وماكس فيبر (Max Weber)، ومارسيل موص (Marcel Mauss). ومن بين الذين فارقونا حديثاً، نجد جان موفريه (Jean Meuvret) الذي ساهم بقدر كبير في تطوير مناهج التاريخ الاقتصادي، وإرفين بانوفسكي (Erwin Panofsky)، وبيار فرانكستيل (Pièrre Francastel) اللذين أدخلا تاريخ الفن ضمن حقول **التاريخ الجديد**. أما من بين الأحياء[4]، فلا نذكر إلا ثلاثة: فرناند بروديل، أبو الأمد الطويل، وإرنست لابروس (Ernest Labrousse)، رائد التاريخ الاقتصادي والاجتماعي الحديث، وجورج دوميزيل (Georges Dumézil)، وهو الذي منح المؤرخين النموذج الأيديولوجي للوظيفة الثلاثية الهند ـ الأوروبية في حقل التاريخ الديني، وفتح أمامهم مجال المقارنات. وكان من الممكن أن نضيف إلى هذه التراجم ترجمة كلود ليفي شتراوس (Claude Lévi-Strauss)، وهو صاحب النظرية البنيوية التي تربطها بالتاريخ علاقة غامضة. إنه وإن كان وراء بعض التوجّهات اللاتاريخية أو تتعارض مع التاريخ، فقد ترك لمؤرخي الأسطورة ومؤرخي النصوص منهجاً للتحاليل الثرية. كما كان من الممكن أخيراً أن نكتب سيرة ميشيل فوكو (Michel Foucault)، الذي لا يزال دوره في تجديد التاريخ لم يحظ بما يستحق من الاهتمام، لا من حيث المنهجية[5]، ولا

---

(4) توفي فرناند بروديل سنة 1985، وتوفي جورج دوميزيل سنة 1986.

(5) Michel Foucault, *Les Mots et les choses: Une Archéologie des sciences humaines*, bibliothèque des sciences humaines ([Paris]: Gallimard, [1966]).

توفي ميشال فوكو سنة 1984.

من حيث إنتاجه كمؤرخ[6].

المقالات الطويلة النفس

أودّ، قبل تقديم المقالات الطويلة النفس التي احتواها **القاموس**، والتي تعبّر عن التوجهات الأساسية لـ **التاريخ الجديد**، أن أؤكد على بعض الجوانب التي تتعلق بالوضع الحالي لهذا التاريخ، لأنها تبدو هامة في نظري. لقد عبّر رواد هذا التاريخ، وفي مقدمتهم مؤسسو مجلة **الحوليات** والتيار الذي رافقها ـ لوسيان فافر، ومارك بلوخ ـ عن الطموح إلى كتابة تاريخ «كلي» أو «شمولي». ويحتفظ **التاريخ الجديد** اليوم بذلك التصور للعلوم التاريخية الذي لا تختزل حياة المجتمعات، ولا يضع بين مختلف وجهات النظر في ما يتعلق بصيرورة البشر حواجز الاختصاصات الضيقة، مثل التاريخ السياسي والتاريخ الدبلوماسي والتاريخ العسكري والتاريخ الاقتصادي، وحتى التاريخ الاجتماعي والتاريخ الثقافي، على رغم اتساع مجاليهما. إلا أن مفهوم التاريخ الشمولي هذا يمكن أن يصاب بعدوى بعض المسبقات التقليدية والمثبطة للعزائم، مثل التأكيد على فكرة الترابط والتواصل، وهي من الأمور التي لا تتوافق مع ما يعترض المؤرخ من فترات ينعدم فيها التواصل. وهذه الفترات المتميزة بالقطيعة، كما أحسن التعبير عنها ميشيل فوكو، قد تؤدي إلى «التوظيف الأيديولوجي للتاريخ الذي من خلاله يسعى المؤرخون إلى إعطاء

---

(6) Michel Foucault: *Folie et déraison: Histoire de la folie à l'âge classique*, civilisations d'hier et d'aujourd'hui (Paris: Plon, [1961]); *Naissance de la clinique: Une Archéologie du regard médical*, galien; 1 (Paris: Presses universitaires de France, 1963); *Surveiller et punir: Naissance de la prison*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, [1975]), et *Histoire de la sexualité*, bibliothèque des histoires, 3 vols. (Paris: Gallimard, 1976-), vol. 1: *La Volonté de savoir*.

الإنسان ما لم يستطع تحقيقه طيلة ما يزيد على القرن (. . .). لقد هجر المؤرخون «قلعة التاريخ العتيقة» وحوَّلوا وجهتهم منذ زمن طويل نحو ميادين أخرى»[7]. وقد ختم فوكو كلامه قائلا: «لقد بدأ موضوع التاريخ الشمولي وإمكانية انجازه يتبدّد مفسحاً المجال لما يمكن أن نسميه التاريخ العام»[8].

في الحقيقة، لا أعتقد أن هناك تشتّتاً للبحوث التاريخية، كما يراه بيار نورا، حيث إن التاريخ أصبح منحصراً في ما يمكن أن نسميه: «التاريخ الفتات»، كما تحدث جورج فريدمان عن «العمل الفتات»، ذلك أن الكتابات التاريخية المتعددة تتموضع داخل حقل تاريخي لم يصل إلى أقصى ما يطمح إليه، وهو الشمولية. ولم تكن الطريقة المعتمدة للوصول إلى هذه الشمولية تتم عن طريق التوليف، وإنما عن طريق التطرق إلى المواضيع الشاملة التي يحدث على هامشها تفاعل عدة اختصاصات.

وعندما يقترح ناتان فاشتيل (Nathan Wachtel) النظر في «موقف الشعوب المغلوبة»[9]، فهو لا يعني أنه كتب تاريخاً شمولياً للعلاقات بين الإسبان والهنود الحمر في أمريكا الجنوبية ما بعد كريستوف كولومب (Christophe Colomb)، وإنما تناول تلك العلاقات من خلال دراسة الذهنية الهندية بالربط المتين بين نظرتي المؤرخ وعالم الأنثروبولوجيا.

---

(7) Michel Foucault, *L'Archéologie du savoir*, bibliothèque des sciences humaines (Paris: Gallimard, 1969), p. 24.

(8) المصدر نفسه، ص 17.

(9) انظر: Nathan Wachtel, *La Vision des vaincus: Les Indiens du Pérou devant la conquête espagnole, 1530-1570*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1971).

وعندما يشرح بيار توبار (Pièrre Toubert) «تركيبة منطقة اللاسيوم (Latium) الوسيط»[10]، فهو لا يكتب تاريخاً كلياً لمنطقة اللاسيوم ما بين القرنيين العاشر والثالث عشر، وإنما يكتب تاريخاً شمولياً لنشوء القرى السيادية المحصّنة (Incastellamento) معتمداً الإيكولوجيا والديمغرافيا والاقتصاد وعلم الاجتماع ضمن تمش تاريخي يخترق الحدود الفاصلة بين العلوم المختلفة. وإذا كان التاريخ الشمولي هو الهدف المرسوم، فإنجاز جوهره هو المؤمل. تكمن الريادة البحثية في مجال التاريخ اليوم[11] في ما أنجز حول منطقة بوفايزيس (Beauvaisis) وقرية مونتايو (Montaillou) والموت والخوف وتلقين الكتابة للفرنسيين وغير ذلك من المواضيع الشبيهة،

---

(10) انظر: Pierre Toubert, *Les Structures du Latium médiéval: Le Latium méridional et la Sabrine du IXe siècle à la fin du XIIe siècle*, bibliothèque des écoles françaises d'Athènes et de Rome; 221, préface d'Ottorino Bertolini (Rome: Ecole française de Rome, 1973);

اقترح ر. فوسييه (R. Fossier) من خلال: Robert Fossier, *Enfance de l'europe, Xe-XIIe siècles: Aspects économiques et sociaux*, nouvelle clio; 17, 2 vols, (Paris: Presses universitaires de France, 1982).

أن يعمم مفهوم القرى السيادية على مفهوم الانقسام إلى خلايا الذي يجعل من الفيودالية انغلاقاً للمجتمع في شكل وحدات وخلايا أهمها هي الضيعة السيادية.

(11) Pierre Goubert, *Cent mille provinciaux au XVIIe siècle, Beauvais et le beauvaisis de 1600 à 1730* (Paris: Flammarion, 1968); Emmanuel Le Roy Ladurie, *Montaillou: Village occiton de 1294 à 1324*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1975); Philippe Ariès, *L'Homme devant la mort*, l'univers historique (Paris: Editions du seuil, 1977); Jean Delumeau, *La Peur en occident, XIVe-XVIIIe siècles: Une Cité assiégée* (Paris: Fayard, 1978); François Furet et Jacques Ozouf, dirs., *Lire et écrire: L'Alphabétisation des Français de Calvin à Jules Ferry*, le sens commun, 2 vols. ([Paris]: Editions de minuit, 1977), et Jean Delumeau, *Le Péché et la peur: La Culpabilisation en occident, XIIIe-XVIIIe siècles* (Paris: Fayard, 1983).

وهي مواضيع التاريخ الإشكالي الذي يجبر المؤرخ على الخروج من قلعته العتيقة كما عبّر عن ذلك ميشيل فوكو.

تبدأ مواضيع المقالات الأساسية التي يتضمنها هذا الكتاب بالمفاهيم المركزية، وهذا من الأمور البديهية، مثل: «المدى الطويل» و«البنى»، حيث أبرز كل من ميشيل فوفيل (Michel Vovelle) وكريزيستوف بوميان (Krzysztof Pomian) المميزات العامة لهذه المصطلحات. وهي مصطلحات صالحة للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي، كما تصلح لتاريخ التمثلات وتاريخ الذهنيات متبعة التمشي المضاد للتاريخ السردي الذي أعلنته مجلة **الحوليات** منذ سنة 1929. ومثل هذه المصطلحات تسمح بتحديد موقع التاريخ ضمن الإشكاليات الكبرى للعلوم الإنسانية، فالأمد الطويل لا يعني الخروج من الزمن، لأن الهياكل التي يرصدها المؤرخون تفصح عن دوَل الأيام وصروفها.

ومن خلال هذا المنظور، نعرف أن التاريخ قد اقترن في السنوات الأخيرة بالأنثروبولوجيا، وهيأ لتطور حقل معرفي جديد في صلب التاريخ الجديد، وهو حقل «الأنثروبولوجيا التاريخية». وقد قدم هذا الحقل المعرفي الجديد أندريه بورغيار (André Burguière)، وهو مؤرخ حديث الاهتمام بالديمغرافيا التاريخية وتاريخ العائلات من ناحية، ومن ناحية أخرى مؤرخ إثنوغرافي للبريطانيين الفرنسيين في منطقة بلوزيفيت (Blozévet)[12].

---

(12) André Burguière, *Bretons de Plozévet*, bibliothèque d'ethnologie historique, préface de Robert Gessain ([Paris]: Flammarion, 1975), nouvelle édition, Champs, ISSN 0151-8089; 38 (Paris: Flammarion, 1978).

وقد وضّح عرضه في مقاله: «Anthropologie hiştorique,» dans: André Burguière, dir., *Dictionnaire des sciences historiques* (Paris: Presses universitaires de France, 1986).

وكأنه استجابة للنداء الصادر عن ميشليه في القرن الماضي من أجل تاريخ أكثر «روحانية» من ناحية، وأكثر «مادية» من ناحية ثانية، ظهر اتجاهان تاريخيان حققا نجاحات هامة في هذا المضمار: تمثل **أولهما** في تاريخ الذهنيات الصاعد على رغم ما فيه من بعض الغموض. وقد قام فيليب أرياس (Philippe Ariès)، وهو من كبار الرواد في هذا الحقل، بتسطير المسار الذي عرفه تاريخ الذهنيات. أما الاتجاه **الثاني**، فقد تجسم في تاريخ «الثقافة المادية» الذي جمع بين علم الآثار والإثنولوجيا والتاريخ. وقد انكب جان ماري بيساز (Jean-Marie Pesez) على التعريف به، وهو أول من أخرج المؤرخ الأثري من الفضاءات الشهيرة إلى الفضاءات البسيطة، أي من المدينة وقصورها إلى القرى وبيوتها، ومن التحف الفنية إلى المعاول والأشياء العادية التي يستعملها الناس في حياتهم اليومية.

يطرح التاريخ الآني جملة من المشاكل للمؤرخ بصورة عامة، ولمؤرخ **التاريخ الجديد** بصفة خاصة. ولم يقم بتعريفه كمؤرخ محترف، ولكن أوكلت مهمة ذلك إلى جان لاكوتور (Jean Lacouture)، وهو واحد من أبرز رجال الإعلام الذين يمكن أن نسميهم المؤرخين الحقيقيين للتاريخ الآني، وهم الذين يرون ضرورة إعادة النظر في أهمية دراسة الأحداث، تلك الأحداث التي تؤثر فيها وسائل الاتصال الحديثة، فتعيد صياغتها. ويتحدث هنا جان لاكوتور بثقافته الواسعة وتجربته الكبيرة عن «التاريخ الآني»، وهو الاسم الذي كان قد أعطاه لسلسلة من الكتب أشرف على نشرها منذ سنوات خلت[13].

---

(13) «L'Histoire immédiate» (التاريخ الآني) هي سلسلة أشرف عليها جان لاكوتور ضمن منشورات (Le Seuil).

أما النقاش النظري الوحيد والأكثر أهمية الذي أثاره **التاريخ الجديد**، فهو النقاش مع المؤرخين الماركسيين وبينهم، لذلك ارتأينا تقديم هذا النقاش المنير للسبل. فأوكل إلى غي بوا (Guy Bois) تقديم وجهة نظره فيه، وهو الذي أعدّ حديثاً أطروحة[14] فاصلة في تاريخ البحوث التاريخية الماركسية الجديدة ونموذجاً لها، وقد أثارا ردود فعل متناقضة هنا وهناك.

وفي النهاية، ارتأينا أنه من الضروري أن نسلط الضوء على مجالين من المجالات التي اهتم بها **التاريخ الجديد**: **الأول**، على الرغم من خصوصيته التي تبرز من البداية، لأنه يتعلق بـ «الهامشيين»، فقد احتل مكانة مركزية في حقل **التاريخ الجديد**؛ **والثاني**، وهو لا يزال في بداياته، ولكنه يستمد مادته من تاريخ الأدب والتاريخ النفسي والأنثروبولوجيا الثقافية ويعيد التفكير فيها، ما يسمح لـ **التاريخ الجديد** بفتح جبهة جديدة ورائدة، حبلى بالوعود، وهي جبهة «تاريخ المتخيّل».

إن جان كلود شميت (Jean-Claude Schmitt) هو واحد من المؤرخين الشبان الذي فرض نفسه في مجال تحليل مواقف الثقافة الرسمية أو المهيمنة أمام السلوكيات المارقة (المتشبهات بالراهبات وأشباه الرهبان شبه الهراطقة[15] في العصر الوسيط) وموقفها من

---

(14) Guy Bois, *Crise du féodalisme: Economie rurale et démographique en Normandie orientale du début du 14e siècle au milieu du 16e siècle*, cahiers de la fondation nationale des sciences politiques; 202 (Paris: Presses de la fondation nationale des sciences politiques, 1976).

(15) Jean Claude Schmitt, *Mort d'une hérésie: L'Eglise et les clercs face aux béguines et aux béghards du Rhin supérieur du XIVe au XVe siècle*, préface de Jacques Le Goff (Paris; La Haye; New York: Mouton; Ecoles des hautes études en sciences sociales, 1978).

الثقافة الشعبية، وهو الذي قام بتقديم دور الهامشيين ومكانتهم في التاريخ.

وقامت إفلين باتلاجين (Evelyne Patlagean)، وهي المطلعة بعمق على الأدب المنقبي البيزنطي، والتي اكتسبت معرفة دقيقة بسبر أغوار «المتخيّل»، بضبط مجاله وتسليط الضوء على الإشكاليات المطروحة على هذا العلم الجديد، وبيّنت موقعه من التاريخ المعيش وما يجب انجازه وكتابته في المستقبل.

وسيكتشف القارئ في النهاية أن مؤلفي هذا **القاموس**، وإن تحدُوهم وغيرهم من المؤرخين، وهم كثر، رغبة في تطوير الكتابة التاريخية ودفعها في اتجاهات جديدة، ليس لهم الانتماءات الأيديولوجية نفسها. فـ **التاريخ الجديد**، حقيقة إذا كان يفترض تفكيراً نظرياً، لا ينتمي إلى أي أرثوذكسية أيديولوجية. فهو بالعكس، يلحّ على ثراء المناهج المختلفة، وعلى تنوع التفسيرات متجاوزاً وحدة الإشكاليات[16].

إن **التاريخ الجديد** يريد أن يكون تاريخاً كتب بحرية لأناس أحرار أو يطمحون إلى الحرية وفي خدمة المجتمعات. كما ينخرط **التاريخ الجديد** في المدى الطويل بعيداً عن الموضات وعن «الجديد» الزائف الذي تفرضه الظروف. وأريد أن أنهي بشيء من التفاؤل والتواضع في الوقت نفسه بأن أفسح المجال لمارك بلوخ الذي كتب: «إن التاريخ ليس فقط علم يتقدم، إنما هو أيضاً علم في سن الطفولة».

---

(16) لست متفقاً مثلاً مع ميشيل فوفيل في ما يسميه بـ «التغير الفجئي» والذي لم ألاحظه في التاريخ ولا يختلط بالنسبة إلّي مع الحدث الذي يظل (أو يعود) تساؤلاً مطروحاً على التاريخ.

قـراءات

يمكن للقارئ الراغب في توسيع معرفته بـ التاريخ الجديد أن يطالع أعمال ذات صبغة منهجية وتنظيرية تصبّ في توجّهات التاريخ الجديد:

François Simiand, «Méthode historique et science sociale,» *Revue de synthèse historique* (1903), repris dans: *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 15, no. 1 (1960), pp. 83-119.

Henri Berr, *La Synthèse en histoire: Essai critique et théorique*, [bibliothèque de philosophie contemporaine] (Paris: F. Alcan, 1911), nouv. éd. rév. et mise à jour, l'évolution de l'hummanité, synthèse collective. Série complémentaire (Paris: Albin Michel, 1953).

Marc Bloch, *Apologie pour l'histoire, ou, métier d'historien*, cahiers des annales; 3 (Paris: Armand Colin, 1949).

Lucien Febvre, *Combats pour l'histoire*, collection économies, sociétés, civilisations (Paris: Armand Colin, 1953).

Michel Foucault, *Les Mots et les choses: Une Archéologie des sciences humaines*, bibliothèque des sciences humaines ([Paris]: Gallimard, [1966]).

Fernand Braudel, *Ecrits sur l'histoire*, science de l'histoire ([Paris]: Flammarion, [1969-]).

Georges Duby, *Des Sociétés médiévales: Leçon inaugurale au collège de France prononcée le 4 décembre 1970* ([Paris]: Gallimard, [1971]).

François Furet et Jacques Le Goff, «L'Homme sauvage et l'homme quotidien,» dans: *Méthologie de l'histoire et des sciences humaines*, mélanges en l'honneur de Fernand Braudel ([Toulouse]: Privat, [1973]), pp. 227-244.

Emmanuel Le Roy Ladurie, *Le Territoire de l'historien*, bibliothèque des histoires, 2 vols. ([Paris]: Gallimard, [1973-1978]).

Jacques Le Goff et Pierre Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, bibliothèque des histoires; 17, 3 vols. ([Paris]: Gallimard, [1974]).

أعمال تسمح بتحديد موقع التاريخ الجديد ضمن مجموع الإنتاج التاريخي منذ خمسين عاماً:

Aujourd'hui l'histoire: Enquête de la «nouvelle critique», [1968-1973], avec la collaboration de Jacques Berque [et al.]; [préface par A. Casanova et F. Hincker] (Paris: Editions sociales, 1974),

انظر أيضاً المؤلف الجماعي: *Ethnologie et histoire: Forces productives et problèmes de transition*, [hommage à Charles Parain]; avec la collaboration de Maurice Agulhon [et al.] (Paris: Editions sociales, 1975).

Jean Ehrad et Guy Palmade, *L'Histoire*, collection U. Série «lettres françaises» (Paris: Armand Colin, [1964]).

Jean Glénisson, *Vingt cinq ans de recherche historique en France (1940-1965)*, 2 vols. (Paris: [s. n.], 1965).

New Trends in History (Colloque de Princeton, Etats-Unis, 1968).

Martin Ballard, ed., *New Movements in the Study and Teaching of History* (London: Maurice Temple Smith, 1970).

Felix Gilbert and Stephen R. Graubard, eds., *Historical Studies Today* (New York: W. W. Norton, [1972]).

Luciano Allegra et Angelo Torre, *La nascità della storia sociale in Francia: Dalla Comune alle Annales*, Studi - Fondazione Luigi Einaudi; 22 (Torino: Fondazione Luigi Einaudi, 1977).

يمكن أن نخصص مكانة متميزة لكتابين لهما أهمية خاصة:

Jean Chesneaux, *Du Passé faisons table?: A Propos de l'histoire et des historiens*, petite collection Maspero; 164 (Paris: F. Maspero, 1976).

يعترض المؤلف، عن حق، في هذا الكتاب عن رفض التاريخ من طرف البعض باسم أيديولوجيا فوضوية تضع الماضي ضمن وسائل السلطة لدى الطبقات المهيمنة، كما يؤكد على ضرورة طرح المشاكل من خلال معرفة الماضي، ولكنه يدعو إلى ممارسة ثورية للتاريخ، وهو ما يؤدي إلى تدمير أي منحى علمي للتاريخ، ويخلط

بين التاريخ المعيش والتاريخ المفكّر فيه، ويربط علاقات غامضة في الواقع بين المؤرخين والشعوب الثائرة، لأن تخلي المؤرخ عن وظيفته قد يؤدي إلى أسوأ توظيف أيديولوجي للتاريخ. ولكن يبقى له الفضل في طرح مسألة العلاقة بين الإنتاج التاريخي والمجتمع الذي ينتج فيه.

Paul Veyne, *Comment on écrit l'histoire: Essai d'épistémologie,* l'univers historique (Paris: Editions du seuil, 1971).

كتاب مزعج لثقافة مثبطة ولامع بذكائه وبالعبارات التي تمنح لمؤلفه مكانة متميزة وتعبر عن علاقات معقدة مع **التاريخ الجديد.** فإذا كان رفض الدغمائيات (الماركسية منها خاصة) والحتميات البسيطة والدفاع عن تاريخ يبتلع علم الاجتماع والأنثروبولوجيا يذهب في الاتجاهات العميقة نفسها لـ **التاريخ الجديد**، فإنه على العكس من ذلك يلمح السعي إلى الاعتماد على مفهوم المؤامرات الغامض والميل المبالغ فيه على التفسير من النوع النفسي، والاستعمال المحبَّذ للمفاهيم واللغة الفلسفية وهاجس الخوف مما هو اقتصادي في حد ذاته إلى خطاب من النوع التقليدي. ولكن هذا الكتاب فرض بول فاين (Paul Veyne) بوصفه واحداً من الإيبستيميين النادرين في مجال التاريخ.

قراءات إضافية (1988):

دقّق بول فاين مفهومه للتاريخ القريب من **الحوليات** ومن التاريخ ـ المشكل، ولكنه موجّه مثل مفهوم فرنسوا فوريه (François Furet) نحو تاريخ تنظيري في كتاب: *L'Inventaire des différences: Leçon inaugurable au collège de France* (Paris: Editions du seuil, 1976).

خلال العشر سنوات الماضية مارس عالم الاجتماع الألماني نوربير إلياس (Norbert Elias) الذي ولد سنة 1897، تأثيراً كبيراً على المؤرخين الفرنسيين القريبين من **التاريخ الجديد** من خلال كتابه الذي كتبه بالألمانية سنة 1939 ولم يترجم إلى الفرنسية إلا سنة 1973 تحت عنوان: *La Civilisation des mœurs = Uden Prozess der Zivilisation*, archives des sciences sociales, [traduit de la 2ème éd. allemande par Pierre Kamnitzer] ([Paris]: Calmann-Lévy, [1973]).

انظر: Roger Chartier, «Norbert Elias, interprète de l'histoire occidentale,» *Le Début* (octobre 1980), et André Bruguière, «Elias» dans: André Burguière, dir., *Dictionnaire des sciences historiques* (Paris: Presses universitaires de France, 1986), pp. 239-242.

أطلقت مجموعة من المؤرخين الشبان الإيطاليين منذ عشر سنوات تصوراً لـ «تاريخ مجهري» قريب من الأنثروبولوجيا، كما هو الشأن بالنسبة إلى **التاريخ الجديد**، وهو تاريخ يهتم «بمواضيع الحياة الخاصة بما هو شخصي، وبما هو معيش، وهي المواضيع نفسها التي تدافع عنها بشدة الحركة النسوية». وذلك ليس من باب الصدفة «لأن النساء يمثلن المجموعة التي دفعت أعلى الضرائب ليتطور تاريخ الرجال»، ومن أهم مواضيعها هو «المفرد الطبيعي». إنه التاريخ المصغَّر. وقد أخذت هذا الاستشهاد من مقال: Carlo Ginzburg et Carlo Poni, «La Micro-histoire,» *Le Débat*, no. 17 (décembre 1981), pp. 133-136.

وهي ترجمة جزئية للمقال الصادر باللغة الايطالية: «Religioni

delle classi populari,» *Quaderni storici*, vol. 14, no. 40 (1979), pp. 181-190.

وهي مجلة فتية تستكشف سبلاً جديدة للبحث التاريخي شأنها في ذلك شأن **الحوليات** و**التاريخ الجديد**.

التـــاريـــخ الـجـــديـد

جاك لوغوف[*]

نشهد منذ عشرين سنة تقريباً تجديداً في المجال العلمي، وهذا لا يعني فقط أن نسق تطور العلوم قد ازدادت سرعته، فالإشارة إلى ذلك أصبحت في يومنا هذا من الأمور التافهة، وإنما أن تقسيم المعرفة أصبح يسير على نسق سريع. لقد تطور التفكير قي المسائل الإيبستيمية طولاً وعرضاً، وليس أدل على أهمية ذلك إلا موضة عبارة «إيبستيمولوجيا» (أي البحث النقدي في مبادئ العلوم وفي أصولها المنطقية). وهذا التحول مسّ بدرجة أساسية مجموعة من

(*) ولد جاك لوغوف سنة 1924، وهو خريج دار المعلمين العليا، ومبرز في التاريخ، وقد درس في باريس وبراغ وأكسفورد (معهد لنكولن) وفي روما (عضو في المدرسة الفرنسية في روما). شغل مساعداً للتعليم العالي في جامعة ليل (Lille) (1954 ـ 1959) وملحق بحوث في المركز الوطني للبحث العلمي (C. N. R. S.) (1959 ـ 1960)، ثم أستاذاً مساعداً للتعليم العالي، ثم مدير بحث في القسم السادس للمدرسة التطبيقية للدراسات العليا (منذ 1962)، والتي أصبحت في ما بعد تسمى «مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية» والتي شغل خطة رئيس لها (1972 ـ 1977). وهو عضو في المجلس الوطني للبحث العلمي، وعضو في لجنة الأعمال التاريخية، ومدير بالإشتراك لمجلة: *Annales économies, sociétés, civilisations*.

العلوم التي يعتبر الاعتراف بطابعها العلمي من المسائل الجديدة في حدّ ذاتها: العلوم الإنسانية أو علوم الإنسان، كما يقال تلقائياً في فرنسا، تماشياً مع المصطلحات السائدة في الأوساط الجامعية منذ سنة 1957 (كالحديث عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية) أو بحسب التقليد الأنجلوسكسوني الذي يستعمل مصطلح «العلوم الاجتماعية».

وفي هذا الإطار، شكلت ثلاثة مظاهر علامة بارزة في ظهور حقل معرفي جديد:

الأول هو التأكيد على علمية بعض حقول البحث. وهي إما علوم جديدة أو أنها برزت منذ عقود، ولكنها كانت تتخطى عتبة التبسيط الجامعي. من ذلك نذكر: علم الاجتماع، والديمغرافيا، والإناسة أو الأنثروبولوجيا (التي حلت محل علم السلالة أو الإثنولوجيا)، وعلم الأخلاق أو الإثيولوجيا، وعلم البيئة أو الإيكولوجيا، وعلم الأعراض أو السيميولوجيا، وعلم استشراف المستقبل.

والمظهر **الثاني** هو التجديد الذي شمل العلوم التقليدية، إما على مستوى إشكاليات البحث أو على مستوى التعليم، أو شملهما معاً، وعادة ما يتمثل هذا التحول في إسناد نعت «الجديد» أو «الحديث» إلى هذه العلوم، مثل: الألسنية الجديدة، والتاريخ الاقتصادي الجديد، ولعل أحسن مثال على هذه التحوّلات إطلاق صفة الحديثة على الرياضيات على رغم أنها خارج حقل العلوم الإنسانية.

أما المظهر **الثالث،** فهو يتمثل في تداخل الاختصاصات الذي تجسم في نشوء علوم مركبة تجمع بين علمين في التسمية نفسها، فيها الوصف والموصوف، مثل التاريخ الاجتماعي، والديمغرافيا التاريخية، والأنثروبولوجيا التاريخية. كما أدت إلى خلق تسميات هجينة، مثل علم النفس اللغوي، والإثنو - تاريخ، إلى غير ذلك من التسميات.

وقد أدى هذا التمازج بين الاختصاصات إلى نشوء علوم تتجاوز الحدود التقليدية بين علوم الإنسان وعلوم الطبيعة أو علوم الحياة، من ذلك نذكر: الرياضيات الاجتماعية، وعلم النفس الفيزيولوجي، وطب النفس الإثني، والبيولوجيا الاجتماعية.

الموقع المتميّز للتاريخ

يحتل التاريخ موقعاً متميزاً في هذا الحقل المتجدّد للعلوم. هناك «تاريخ جديد»، وأول رواده هنري بار الذي استعمل هذه التسمية منذ سنة 1930[1]. وهذا الموقع المتميز يدين فيه التاريخ لخاصيتين أساسيتين: تتمثل **الأولى** في تجدّده الكامل، وتتمثل **الثانية** في تجذره في صلب تقاليد قديمة وصلبة. لقد تم تحديث علوم كثيرة في بعض أجزائها، من دون أن تعرف تغييراً كلياً، فالجغرافيا هي أول العلوم الإنسانية التي تجددت بفضل تطور الجغرافيا البشرية.

وكان فيدال دو لا بلاش (Vidal de la Blache) وجان برونهس (Jean Brunhes) (1869 ـ 1930) وألبير دومنجون (Albert Demangeon) (1872 ـ 1940) وجول صهيون (Jules Sion) (1878 ـ 1940) من الذين أسسوا لجغرافيا كعلم الإنسان أو كعلم السكان، كما يفعل اليوم **التاريخ الجديد**. إن تأثير هؤلاء الجغرافيين في رواد **التاريخ الجديد**، مثل لوسيان فافر ومارك بلوخ وفرناند بروديل الذي كان يشرف على ندوة في القسم السادس لـ «المدرسة التطبيقية للدراسات العليا»

---

(1) Henri Berr, *Revue de synthèse historique*: t. 50, [1937], p. 19.

حيث يحيل نعت «الجديد» على «حركة التاريخ الجديد» التي انطلقت سنة 1912 في الولايات المتحدة، وخاصة إلى هـ. أ. بارنس (H. E. Barnes) الذي نشر سنة 1919 علم **النفس والتاريخ** (*Psychology and History*) وقدم لحركة التاريخ الجديد والعلوم الاجتماعية (The New History and the Social Sciences) (1925).

تحمل عنوان: «التاريخ الجغرافي» منذ تأسيسها سنة 1947، فلهذا السبب وجب ذكر هذه السابقة في هذا الإطار.

لم يتوان لوسيان فافر عن التأكيد على هذا التحالف بين الجغرافيا البشرية و**التاريخ الجديد** عندما كتب النصوص التأبينية لكل من جول صهيون وألبير دومنجون[2]، فقد ذكّر بمقولة جول صهيون الذي يطالب الجغرافي بـ «أن يكون عارفا بحرفية المؤرخ، وعليه أن يفكر كمؤرخ وجغرافي في الوقت نفسه». كما قال في ذكرى مارك بلوخ: «مثل الكثيرين منا، من الذين سبقوه أو الذين عاصروه، قد أثرت فيه بعمق هذه الجغرافيا البشرية التي تبوأها عالم فحل وماهر مثل فيدال دو لا بلاش في مرتبة العلم الملهم»[3]. وقد فتح لوسيان فافر من خلال كتاب: **الأرض وتطور الإنسانية، مقدمة جغرافية للتاريخ**[4] البحث في الوقت ذاته عن الزمان والمكان، وهو ما أنجزه موريس لومبار (Maurice Lombard) في ما يتعلق بتاريخ العالم الإسلامي[5].

---

(2) Lucien Febvre, «Deux amis géographes: Jules Sion, Albert Demangeon,» *Annales d'histoire sociale*, vol. 3 (1941), repris dans: *Combats pour l'histoire*, collection économies, sociétés, civilisations (Paris: Armand Colin, 1953).

(3) Lucien Febvre, *Souvenirs d'une grande histoire: Marc Bloch et Strasbourg, mémorial des années 1939-1945* (Strasbourg: Faculté des lettres, [s. d.]), repris dans: *Combats pour l'histoire*.

(4) Lucien Febvre, *La Terre et l'évolution humaine: Introduction géographique à l'histoire*, avec le concours de Lionel Bataillon (Paris: Albin Michel, 1922).

(5) Maurice Lombard, *L'Islam dans sa première grandeur: (VIIIe-XIe siècle)*, nouvelle bibliothèque scientifique (Paris: Flammarion, 1971), première partie: «Les Terrains de l'islam, espaces et réseaux».

وقد ترتب على ذلك إيلاء **التاريخ الجديد** أهمية كبيرة لعلم الخرائط، فهو ينتج ويستعمل الخرائط لا مجرد وسائل للاستدلال والإيضاح، وإنما خرائط للبحث والتفسير تبررها الرغبة في إبراز الأمد الطويل في ما يتعلق بتطورات في المجال والتكميم (المجسم في تحديد المواقع)، كما تبررها الفرضيات التوضيحية المستلهمة من تناسق بعض الظواهر ذات المجالات المتداخلة أو غير المتطابقة. وهنا تكون مساءلة التاريخ لجغرافيا مجردة من الحتمية. لقد ظل مارك بلوخ يبيّن من خلال كتاب: **الخصائص المميزة للتاريخ الريفي الفرنسي**[6]، دور التاريخ في نحت المشهد الطبيعي وأنظمة الزراعة، فالمزارع المغروسة بالأشجار والمسيّجة ليست من إنتاج التربة، وإنما من إبداع الإنسان.

كل شكل من أشكال «التاريخ الجديد» هو محاولة لإنشاء تاريخ كلي

إن التاريخ لم يكتف بفتح آفاق ومجالات جديدة هنا أو هناك. فواحد مثل بيار غوبار (Pierre Goubert) فتح لـ **التاريخ الجديد** باب الديمغرافيا التاريخية بالقيام بجرد للسجلات الكنسية من تسجيل تواريخ الولادة حتى تسجيل تواريخ الوفيات الخاصة بجميع الأفراد والعائلات في منطقة محددة طيلة قرن من الزمن[7]. وواحد مثل ناتان فاشتيل قد مطّط هذا التاريخ الذي لا ينحصر حجمه داخل حدود،

---

(6) March Bloch, *Les Caractères originaux de l'histoire rurale française* (Oslo: H. Aschehoug; Leipzig: O. Harrassowitz; Paris: Les Belles lettres; London: Williams and Norgate; Cambridge: Harvard University Press), 1931.

(7) Pierre Goubert: *Beauvais et le beauvaisis de 1600 à 1730: Contribution à l'histoire sociale de la France du XVIIe siècle*, Démographie et sociétés; 3 ([Paris] S. E. V. P. E. N., 1960), réédité sous le titre: *Cent mille provinciaux au XVIIe siècle, Beauvais et le beauvaisis de 1600 à 1730* (Paris: Flammarion, 1968).

ليصل به إلى التاريخ الإثني، من خلال كتابه: **نظرة المغلوبين**[8] الذي يعدّ نموذجاً وقمة ما وصل إليه **التاريخ الجديد**. لكن التاريخ لا يمكن أن يقف عند هذه المكاسب، فهو يتأكد بوصفه تاريخاً شمولياً وبوصفه تاريخاً كلياً، ويطالب بتغيير جذري لكامل مجالات التاريخ. زد على ذلك أن كل الأعمال الرائدة في أي قسم من أقسام التاريخ الجديد، تؤكد بشكل أو بآخر، هذا الطموح بغضّ النظر عن الاختصاصات المختلفة. وهذه الأعمال هي: **منطقة بوفايزيس** لغوبار، و**نظرة المغلوبين** لفاشتيل، وهي من أحسن الأمثلة، **فهي** كتب تاريخ كلي وقعت فيها دراسة كل ما هو خاص بالمجتمع المدروس وتقديمه. وفي هذا الإطار، يعتبر مؤلّف لو روا لادوري: **مونتايو، قرية أكسيتانية من 1294 إلى 1324**[9]، عملاً رائعاً في ميدان الأنثروبولوجيا التاريخية، وهو يعبّر عن الرغبة في كليانية **التاريخ الجديد** التي تعبّر عنها الأنثروبولوجيا التاريخية أحسن تعبير بوصفها بديلاً متمططاً للتاريخ. إن كل شكل من أشكال **التاريخ الجديد**، أو أي شكل يريد أن يكون كذلك، وينضوي تحت أي راية من راياته ظاهرياً في جزء من أجزائه أو قسم من أقسامه، سواء كان ذلك في التاريخ السوسيولوجي لبول فاين[10] أو في تاريخ الطب ـ النفسي لآلان بزنسون[11] (Alain Besançon)، فهو محاولة في التاريخ الكلي

---

(8) Nathan Wachtel, *La Vision des vaincus: Les Indiens du Péru devant la conquête espagnole, 1530-1570*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1971).

(9) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Montaillou: Village occiton de 1294 à 1324*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1975).

(10) Paul Veyne, *Le Pain et le cirque: Sociologie d'un pluralisme politique*, l'univers historique (Paris: Editions du seuil, 1976).

(11) Alain Besançon, *Le Tsarévitch immolé, la symbolique de la roi dans la culture russe*, recherches en sciences humaines; 23 (Paris: Plon, 1967).

بوصفه فرضية لتفسير تاريخ المجتمعات الإغريقية والرومانية في العصور القديمة، أو لتفسير تاريخ روسيا في القرن التاسع عشر أو حتى القرن العشرين.

لقد سبق للوسيان فافر في عرض حديثه عن عنوان مجلة: **حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي** التي أسست سنة 1929، القول بأن هاتين الصفتين، وخاصة صفة «الاجتماعي»، كانتا من اختياره واختيار مارك بلوخ، نظراً إلى شساعة المدلول واحتوائه لكل التاريخ: «فقد كنا متأكدين بأن صفة «الاجتماعي» خاصة، هي واحدة من هذه الصفات التي قوّلت الكثير عبر الزمن، حتى إنها أصبحت تقريباً عبارة جوفاء (...)، لقد كنا متفقين بأن عبارة فضفاضة كعبارة «الاجتماعي» هي عبارة تبدو كما لو أن القدر التاريخي قد وضعها بقرار اسمي لتكون علامة مميزة لمجلة تطمح إلى أن تكون مفتوحة... فليس هناك تاريخ اقتصادي، وآخر اجتماعي، وإنما التاريخ في وحدته لا غير. إن التاريخ، تعريفاً، هو التاريخ الاجتماعي بأكمله»[12].

وسع «التاريخ الجديد» حقل الوثيقة التاريخية

إن الميزة الثانية لـ **التاريخ الجديد** هو التجذر في تقاليد قديمة وصلبة. لقد نشأ **التاريخ الجديد** في إطار ثورة على التاريخ الوضعي الذي كان سمة القرن التاسع عشر، وتوضحه بعض الكتابات المنهجية التي ظهرت حوالى سنة 1900[13]. لكن بعض المكتسبات

(12) Febvre Marc Bloch, «Vivre l'histoire,» conférence aux élèves de l'école normale supérieure en 1941, publiée dans: Febvre, *Combats pour l'histoire*, pp. 19-20.

(13) Charles Seignobos: *Méthode historique appliquée aux sciences sociales*, bibliothèque générale des sciences sociales; 12, 2ème éd. revue et corr. (Paris: F. Alcan, 1909), et Charles Victor Langlois et Charles Seignobos, *Introduction aux études historiques* (Paris: Hachette, 1898).

المنهجية التي أنتجها التاريخ الوضعي بقيت مقبولة. إن مارك بلوخ هو الذي كتب، مع شيء من المبالغة، حول دون مابيون (Don Mabillon)، أب التاريخ المتبحر الذي سيهيمن على الدراسات التاريخية في أثناء القرن التاسع عشر مع مدرسة علم الوثائق التي ستظل قلعة التاريخ التقليدي في القرن العشرين: «إن سنة 1681، سنة نشر كتاب: **في علم الوثائق** (*De re Diplomatica*) تعتبر حدثاً هاماً في تاريخ الفكر البشري، فقد تأسس فيها بشكل نهائي علم نقد الوثائق»[14]. لقد وسع **التاريخ الجديد** أفق الوثيقة التاريخية، بالحلول محل كتابات لنغلوا (Langlois) وساينيوبوس (Seignobos) المعتمدة بصورة رئيسية على النصّ المكتوب، فهو تاريخ يعتمد على وثائق عديدة ومتنوعة: منها المكتوبة بجميع أجناسها إلى جانب الوثائق التصويرية ونتائج البحوث الأثرية والروايات الشفوية وغيرها من الوثائق.

إن سلسلة من الأرقام، أو رسم بياني لتطور الأسعار، أو صورة، أو فيلم، أو ـ إذا أردنا أن نوغل في القدم ـ لقاح النباتات المتحجر، أو معول أو نذر؛ كل هذه الأشياء تعتبر من الوثائق الأولية بالنسبة إلى **التاريخ الجديد**[15]. إلا أن مناهج نقد هذه الوثائق الجديدة لم تتجاوز ما وضعته المعرفة الواسعة لمؤرخي القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. وفي السنوات الأخيرة صدر الكتاب

---

(14) Marc Bloch, *Apologie pour l'histoire, ou, métier d'histoiren*, cahiers des annales; 3, 5ème édition (Paris, Armand Colin, 1964), p. 36.

(15) في ما يتعلق بالتاريخ بلا نصوص أو بالتاريخ ما بعد النصوص يجب درس لوسيان فافر (Febvre) الإفتتاحي بمعهد فرنسا: Febvre, *Combats pour l'histoire*, pp. 3-17, et André Leroi-Gourhan, «Les Voies de l'histoire avant l'écriture,» dans: Jacques Le Goff et Pierre Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, bibliothèque des histoires; 17, 3 vols. ([Paris]: Gallimard, [1974]), vol. 1.

الجماعي: **التاريخ ومناهجه** الذي أشرف عليه شارل سامارانⁿ

(Charles Samaran)، وهو واحد من أبرز العلماء الذين كوّنتهم «مدرسة علم الوثائق»، وقد تزاوجت في هذا الكتاب من دون تصادم مقالات حول مناهج التاريخ التقليدي ومقاربات لبعض التوجّهات الجديدة للتاريخ[17].

إن التاريخ يعيش اليوم «ثورة وثائقية» تربطها بـ **التاريخ الجديد** علاقة غامضة سأبينها لاحقاً. يجب أن يكون هناك تصور جديد للوثيقة ونقدها، وقد بدأت ترتسم خطوطه العريضة، كما حاولت القيام به في موسوعة **إينودي** (*Einaudi*) (الإيطالية)[18].

والتاريخ يتمتع اليوم بهذه المكاسب المنهجية وبقاعدته الجامعية، ما جعله أفضل من بقية العلوم الإنسانية، إذ لم تستطع كل الإنسانيات أن تحقق تجدّدها، والعلوم الجديدة تجد صعوبة في تحقيق ذاتها، ذلك أن للتاريخ مختصين يتمتعون بزاد معرفي صلب، وبتكوين، حتى وإن كان محدود التأثر بـ **التاريخ الجديد** ولا يشجع على الذكاء (مثل التبريز)، يمكّن من أرضية مؤسسية صلبة، ويستطيع بالاعتماد على تجربته الطويلة أن يتجه نحو مجالات جديدة مع وجود ضمان حمايته من الخلف إن سمح التعبير.

لقد طلب عالم الإثنولوجيا الإنجليزي الكبير إيفنس بريتشارد (Evans Pritchard) في محاضرته الشهيرة في مانشستر سنة 1961 من

---

(16) Charles Samaran, ed., *L'Histoire et ses méthodes*, encyclopédie de la pléiade; 11 [Paris: Gallimard, 1961].

(17) مثال الزمن التاريخي عند ج. بوجوان: G. Beaujouan; *Histoire des mentalités*, par G. Duby,

وكذلك مساهمات ج. سادول (G. Sadoul) حول الصورة والسينما.

(18) Jacques Le Goff, «Documento/ monumento,» dans: *Enciclopedia Einaudi* (Torino: Einaudi, [1977-1984]), t. IV, 1978.

علماء الأنثروبولوجيا أن ينسجوا على منوال المؤرخين لما لهؤلاء من خبرة في نقد الوثائق وفي تحسس الزمن والتغيرات[19].

ميلاد التاريخ الجديد: مدرسة «الحوليات»

لقد كان لـ **التاريخ الجديد** تقاليد خاصة به، وهي التقاليد التي أرساها مؤسسو مجلة: **حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي**. عندما بعث لوسيان فافر ومارك بلوخ مجلة: **الحوليات** في ستراسبورغ سنة 1929، وهي إحياء مع بعض التعديل لمشروع قديم للوسيان فافر يهدف إلى تأسيس مجلة عالمية للتاريخ الاقتصادي، كانت دوافعهما متعددة.

أولها هو إخراج التاريخ من بؤرة العادات القديمة، وخاصة تحريره من انغلاقه على ذاته، وهو ما عبّر عنه لوسيان فافر سنة 1932 بـ «إسقاط الجدران العازلة التي تجاوزها الزمن، وأكداس المسبقات التي تعود إلى عصر بابل من الملل والأخطاء في التصور والتفهم»[20].

ثانيها هو الرغبة في التأكيد على اتجاهين مجدّدين مضمنين في صفتين لعنوان المجلة: التاريخ «الاقتصادي» و«الاجتماعي»، فبالصفة الأولى «الاقتصادي» كان القصد هو دفع البحث التاريخي في مجال

---

(19) Edward Evans-Pritchard, *Anthropology and History: A Lecture Delivered in the University of Manchester with the Support of the Simon Fund for the Social Sciences* (Manchester [Eng.]: University Press, [1961]).

الترجمة الفرنسية: «Anthropologie et Histoire,» dans: *Les Anthropologues face à l'histoire et à la religion = Essays in Social Anthropology*, sociologie d'aujourd'hui, traduction de l'anglais par Anne et Claude Rivière (Paris: Presses universitaires de France, 1974).

(20) Febvre, *Combats pour l'histoire*, p. 343.

يكاد يكون مغيباً كلياً من طرف التاريخ التقليدي، في حين تقدم فيه الإنجليز والألمان شوطاً كبيراً أمام الفرنسيين، ولا غرابة في أن تتزايد أهمية الإنجليز والألمان اليوم في حياة الأمم باطراد. فليس من باب الصدفة أن تنشأ مجلة: **الحوليات** سنة 1929، وهي سنة اندلاع الأزمة العالمية الكبرى. وكان المؤرخ هنري بيران، الذي كان لا يزال على قيد الحياة آنذاك، مصدر إعجاب لوسيان فافر ومارك بلوخ، حتى إن لوسيان فافر كان يعتزم اقتراحه مديراً للمجلة العالمية. وفي سنة 1940 أهدى له مارك بلوخ في ذكراه مشروعاً بعنوان: «تاريخ المجتمع الفرنسي في سياق الحضارة الأوروبية»، لكن سرعان ما وقع التخلي عنه في ما بعد.

وبفعله هذا، تبيّن أن مارك بلوخ كان يتحرك في الحقيقة تحت تأثير تتساوى فيه الظروف العامة في تلك الفترة وإعجابه بهنري بيران. لقد كتب هذا الأخير بالفعل كتاباً بعنوان: **تاريخ أوروبا**[21] عندما كان أسيراً في أثناء حرب 1914 ـ 1918، في حين كان مارك بلوخ يشعر بالملل في أثناء هذه الحرب الغريبة. كيف لا يمكن التفكير في فرناند بروديل (لإدارة المجلة)، وهو الذي سيعدّ كتاب: **المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليب الثاني**[22] ما بين 1940 و1944، وهو في أحد السجون الألمانية؟ فلم يجد مؤسسا **الحوليات** في «المجلة الثلاثية للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي» الألمانية التأكيد على الجانب الاقتصادي فحسب، ولكن أيضاً التأكيد على الجانب الاجتماعي،

---

(21) Henri Pirenne, *Histoire de l'europe: Des Invasions au XVIe siècle*, [préface de Jacques Pirenne], 5ème édition (Paris: F. Alcan; Bruxelles: Nouvelle société d'éditions, 1936).

(22) Fernand Braudel, *La Méditérranée et le monde méditérranéen à l'époque de Philippe II*, 2 vols., 3ème éd. (Paris: Armand Colin, 1976).

هذا الجانب الاجتماعي الذي أغراهما بطابعه الفضفاض الذي يسمح بالحديث في كل شيء، لأن الهدف هو تحطيم الجدران العازلة والقضاء على الفرقة التي تقصي التاريخ عن العلوم الشبيهة، وخاصة علم الاجتماع. وقد وجد مارك بلوخ ولوسيان فافر، تحت مظلة «الاجتماعي»، الإلهام اللامحدود الذي عرفاه مع **مجلة التوليف التاريخي** (*Revue de synthèse historique*)، ومع مديرها وصديقهما هنري بار الذي نشر سنة 1921 **التاريخ التقليدي والتوليف التاريخي**[23]، كما وجدا هذا الإلهام في منهج التاريخ المقارن، معجبين في هذا المجال بالطريقة التي تكلم بها هنري بيران في محاضرته التي افتتح بها المؤتمر الدولي الخامس للعلوم التاريخية يوم 9 نيسان/ أبريل 1923، حول «المنهج المقارن في التاريخ». وكما كتب مارك بلوخ في كتابه: **تمجيد التاريخ أو صناعة المؤرخ**: «إن التاريخ الحقيقي الوحيد، الذي لا يمكن أن يكتب إلا بالتعاون، هو التاريخ الكوني»[24].

مقاومة التاريخ السياسي

ما هي طبيعة الصراع الذي خاضته مجلة **الحوليات**[25] ما بين 1924 و1939؟

لقد كان الصراع أولاً ضد التاريخ السياسي، وهو أشد ما يكره لوسيان فافر ومارك بلوخ، خاصة في شكله الدبلوماسي المقيت الذي

---

(23) Henri Berr, *L'Histoire traditionnelle et la synthèse historique*, bibliothèque de philosophie contemporaine (Paris: F. Alcan, 1921).

(24) Bloch, *Apologie pour l'histoire, ou, métier d'histoiren.*

(25) يشرف أ. بورغيار (A. Burguière) وف. فوريه (F. Furet) على بحث مدعوم بندوة تقع في مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية مخصصة لتاريخ **الحوليات**.

جسمه **موجز السياسة الخارجية** لإميل بورجوا (Emile Bourgeois) (1892). إن هذا التاريخ السياسي كان في الوقت نفسه تاريخ وقائع وتاريخ أحداث، فهو عبارة عن واجهة يتخفى وراءها الدور الحقيقي للتاريخ الذي تدور أحداثه في الكواليس وفي البنى الخفية التي يتوجب الكشف عنها وتحليلها وتفسيرها.

تساءل لوسيان فافر سنة 1931 في مقال عنوانه: «تاريخ أم سياسة؟» نشره في مجلة **التوليف التاريخي** التي واصل التعاون معها بالموازاة مع نشاطه في مجلة **الحوليات**، عن قيمة «التاريخ الدبلوماسي لأوروبا»، وهو عنوان لكتاب صدر آنذاك. وقد اعترض في مقاله المذكور على البحث عن «الأسباب العميقة والحقيقية والمتنوعة» لـ «التحركات الجماهيرية الكبيرة»، في أمزجة «المشاهير» ونفسياتهم ونزواتهم، أو «في تلاعب الدبلوماسيات المتنافسة». إن الأسباب الحقيقية «منها ما هو جغرافي، ومنها ما هو اقتصادي، ومنها ما هو اجتماعي، ومنها ما هو فكري وديني ونفساني أيضاً»[26]. وبعد مرور 15 سنة، يعيد لوسيان فافر الكرة عند تقديمه كتاباً آخر عنوانه: **السلم المسلحة** (*La Paix armé*) (1871 ـ 1914) في مجلة **الحوليات**، برده على جملة شدّت انتباهه: «يسعى أتباع المادية التاريخية دائماً لإعطاء نصيب الأسد للدوافع الاقتصادية في الصراعات الدولية على حساب الدوافع السياسية والأخلاقية». وبحماسه المعهود علق على هذه الجملة: «برب السماء، ماذا تفعل «المادية التاريخية» هنا؟ (...) العالم هو عالم. بربكم قولوا لنا: لم يكن وضع ما قبل حرب 1914 شبيهاً بما آلت إليه الأوضاع ما بين 1920 و1940. كما لم يكن وضع ما بين 1871 و1914 كما كان عليه الحال ما بين 1848 و1870. لماذا؟ هل كانت أسباب ذلك سياسية أو

---

(26) Febvre, *Combats pour l'histoire*, p. 63.

أخلاقية؟ لا لم يكن كذلك، بل كان كل ذلك لأسباب اقتصادية، وهو أمر يفقأ العيون بوضوحه»[27].

وفي إلماحه في الدراسة نفسها إلى كتاب مارك بلوخ الذي نشر بعد وفاته تحت عنوان: **الهزيمة العجيبة** (*L'Etrange défaite*)، قام لوسيان فافر بالتشخيص التالي: «لقد كانت هزيمة فرنسا قبل كل شيء هزيمة للذكاء ولقوة الشخصية». ويمكن حصر مواقف مجلة **الحوليات** ونشاطها بثرائها وبمحدوديتها في هذه الاستشهادات. هناك رفض للتاريخ السطحي والتبسيطي الذي يتوقف عند سطح الأحداث، معتمداً على السبب المفرد. ولكن في نظري يمكن أن نضيف إلى ذلك ضعف التحليل الانتقائي الذي يمكن أن يتيه في «تعدد الدوافع» من دون أن يقدر على التفريق بين الدافع والسبب.

ويظل الأساسي هو ذاك النداء من أجل تاريخ معمق وكلي. يجب قبل كل شيء تحطيم هذا التاريخ الفقير المتحنط، وهو تاريخ مزيّف متخف تحت قشرة مضللة.

نقد فكرة الحدث التاريخي

وكان هذا هو الوقت نفسه الذي تعهدت فيه مجلة **الحوليات** بنقد فكرة الحدث التاريخي نقداً بلا هوادة فيه، إذ ليس هناك واقع تاريخي جاهز ينكشف تلقائياً للمؤرخ .إن المؤرخ، كأي رجل علم، على حد تعبير مارك بلوخ، يجب أن يحدِّد «اختياراته» «أمام واقع شاسع وغامض». وهذا الاختيار لا يعني بالطبع لا إجحافاً، ولا مجرد جمع، وإنما يعني تركيباً علمياً للوثيقة بما يسمح بإعادة رسم الماضي وتفسيره. لقد أخذ لوسيان فافر في درسه الافتتاحي في معهد

---

(27) المصدر نفسه، ص 68 ـ 69.

فرنسا (Collège de France) سنة 1933 مثالاً على ذلك: «من أين يؤخذ الحدث في حدِّ ذاته، تلك الذرة التي يزعم أن منها يتكون التاريخ؟ هل اغتيال هنري الرابع (Henri IV) من طرف رفاياك (Ravaillac) حدث تاريخي؟ لنقم بفحصه وتفكيكه في مختلف مكوّناته، المادي منها والروحاني، فستكون النتيجة مزيجاً من القوانين العامة والظروف الخاصة بالزمان والمكان، والظروف المحيطة بكل فرد، معلوم أو مجهول، ممن شاركوا في هذه المأساة: كم سنرى واقعاً معقداً ومتداخلاً يتحلل ويتفكك، فهل منح كل ذلك للمؤرخ؟ قطعاً لا. هل هو نتيجة لعمل دؤوب قام به المؤرخ؟ إنه نتاج خلق وتركيب يعتمد الفرضيات والحدس، وعمل دقيق وشغوف[28]».

مجلة: «الحوليات. اقتصاديات. مجتمعات. حضارات»

تواصل نشاط **الحوليات** وكل المؤرخين الذين يحومون حولها بعد الحرب العالمية الثانية، وعرف قفزة أعطت دفعاً جديداً لتقدم التاريخ (الجديد). وأصبحت المجلة، بعدما غيرت اسمها مراراً عديدة بسبب ظروف الحرب، ونتيجة الاحتلال الألماني، تحمل بداية من سنة 1946، اسم: **حوليات. اقتصاديات. مجتمعات. حضارات** (*Annales. Economie. Sociétés. Civilisations*) مسجلة بذلك أفقاً أرحب. وقد وردت هذه التسمية في صيغة الجمع: «الناس وليس الإنسان»، وهي صيغة تجريدية كما كان يردِّد لوسيان فافر ومارك بلوخ دائماً. وبرز، إلى جانب «الاقتصاديات» و«المجتمعات» التي تحيل على صفات مجلة **الحوليات** القديمة مصطلح «حضارات»، وهو مصطلح يحبذه كل من لوسيان فافر ومارك بلوخ - الذي وإن قتله الألمان رمياً بالرصاص سنة 1944، سيظل ذكره في الأذهان -

---

(28) المصدر نفسه، ص 7.

لاتساع مدلوله وشموله لما هو مادي وما هو روحي. وقد برر مارك بلوخ بصفة مسبقة صيغة الجمع: «حضارات» من خلال وصيته المنهجية التي تذكر بغيزو (Guizot) قائلاً: «لقد اكتشفنا أن في كل المجتمعات مهما اختلفت، يوجد ارتباط وتأثر متبادل بين البنية السياسية والاجتماعية والاقتصاد والمعتقدات وأبسط التعابير الذهنية وأكثرها تعقداً»[29].

مدرسة «الحوليات» وتصور توينبي (Toynbee)

أستسمح القارئ تدقيقاً موجزاً يتعلق بكلمة «حضارة» وباستعمالها من لدن أساتذة الحوليات. لقد أعجبتهما الكلمة، وقد سبق أن رأينا ذلك. ولكنهما لم يخفيا مخاطرها. لذلك أكدا على ضرورة التمايز من تصور أرنولد توينبي[30] الذي عدّد 21 حضارة منذ بدء الخليقة. وتمر هذه الحضارات في تصوره بمراحل ثلاث متعاقبة: النشوء، والنضج، والأفول، كل ذلك بحسب قانون «التحدي والاستجابة»، والقدرة على ردّ الفعل ضد المنشطات الخارجية والداخلية. إن الحضارة في فكر توينبي عبارة وفكر فضفاضين فيهما

---

(29) Bloch, *Apologie pour l'histoire, ou, métier d'histoiren*, p. 96.

(30) Arnold Toynbee: *A Study of History*, 6 vols. (London: Oxford University Press, 1934-1939), traduction en français abrégée en 6 premiers volumes; *L'Histoire: Un Essai d'interprétation*, bibliothèque des idées, abrégé par D. C. Somervell des volumes I à VI de «A History of Study»; [index par V. M. Boulter]; traduit de l'anglais par Elizabeth Julia (Paris: Gallimard, 1951); traduction française de la version abrégée définitive par Arnold Toynbee et Jane Caplan, *A Study of History* (London: Oxford University Press; Thames and Hudson, 1972), et *L'Histoire = A Study of History*, avec la collaboration de Jane Caplan; préface de Raymond Aron; [traduit par Jacques Potin, Pierre Buisseret et une équipe de collaborateurs sous la direction de Hervé Douxchamps] (Paris; Bruxelles: Elsevier Séquoia, 1978).

دمج متعسف لـ «المجتمع» (وبالطبع ليس كل المجتمعات، لأن توينبي أحصى 650 مجتمعاً بدائياً لم ترق جميعها إلى رتبة «الحضارة») و«الحضارة»، وهو يستعمل في ذلك منهج المقارنة بطريقة فجّة وغير مضبوطة، مبنية على كثير من المغالطات التاريخية، ويلجأ في التعبير عن ذلك إلى الاستعارات المجازية، وإلى فكر «حيوتي» (Vitaliste) يعود تاريخه إلى «الأمس، أو إلى ما قبله»، فهو تقسيم اعتباطي للحضارات إلى «حضارات معدودة». ولأنهي، يمكن أن نوجّه له ملاحظتين أساسيتين: إنه يقدم من ناحية مشهداً يستعرض فيه الحضارات في شكل لوحات تمثيلية عاطفية مثيرة، ومن ناحية أخرى يقدم فلسفة للتاريخ من دون أن يكون التاريخ فيها علمياً. وقد ختم لوسيان فافر، بتقديم صورة فيها بعض التجريح، تظهر بأنه يمكن اختزال التاريخ، بحسب توينبي، في جواب شيخ عالم عن سؤال شاه يحتضر ويريد أن يعرف كل التاريخ في اللحظة الأخيرة من حياته، وهو: «مولاي، الناس يولدون ويحبون ويموتون»[31].

إن أطلت في هذا الجدل، فلأن ذلك يسمح بتحديد موقع بعض الإضافات الأساسية التي جاء بها **التاريخ الجديد**. وأعتقد أن كل المؤرخين الذين ينتسبون إلى **التاريخ الجديد** يتفقون، ولو بفوارق دقيقة، مع لوسيان فافر. إن التاريخ على نهج توينبي، على رغم جاذبيته، وعلى رغم اتساع نظرته، وعلى رغم رغبته في تناول التاريخ بصورة كلية، هو مسوّدة تاريخ كتبت في أغلبها بالاعتماد على مصادر غير أصلية بفلسفة سطحية. فهذا التاريخ ليس التاريخ الذي نريده.

---

(31) Article paru en 1936 dans: *Revue de métaphysique et de morale*, et repris dans: Febvre, *Combats pour l'histoire*, pp. 110-143.

تاريخ إشكالي من دون أن يكون آلياً

هذه هي إذن **الحوليات** بعنوان جديد تحت إشراف لوسيان فافر وحده. وأصبحت رغبة **الحوليات** في الإيضاح قوية أكثر من أي وقت مضى، بطرح المشاكل التاريخية: «كتابة تاريخ إشكالي وليس تاريخاً آلياً»[32]. وأكثر من أي وقت مضى، يجب طرح مشاكل تاريخ الزمن الحاضر حتى نتمكن من فهم «عصر يمر بمرحلة عدم استقرار نهائية» والعيش فيه. ويبدو ذلك من خلال تصور مجلة **الحوليات** التي كان تصورها الأولي تصوراً عالمياً، ولكنها ظلت غربية وأوروبية في الأساس على رغم الرغبة في الانفتاح على العالم كله، وخاصة في اتجاه ما سيسمى بالعالم الثالث، ضد كل نظرة قائمة على الذاتية المركزية الأوروبية.

نشر المؤسسان في بداية هذه المرحلة كتابين «برمجيين» (Programmatiques) بعدما نشرا رائعتيهما في بداية الحرب العالمية الثانية: نشر مارك بلوخ كتاب: **المجتمع الفيودالي**[33]، وهو نموذج للتاريخ الإشكالي، فيه التوليف والمقارنات المعقولة، وهو منفتح «على طرق البحث والتفكير» التي تساعد على تجاوز التاريخ الحقوقي للمؤسسات نحو التاريخ الاجتماعي للطبقات وتاريخ النفوذ والسلطات. ونشر لوسيان فافر كتاب: **مشكلة اللاإعتقاد في القرن السادس عشر: اعتقادات رابليه** (Rabelais)، وهو كتاب وجد فيه لوسيان فافر[34] عمق التاريخ «في قلب الديني في أثناء القرن السادس

(32) «Face au vent,» manifeste des «annales nouvelles,» *Annales économies, sociétés, civilisations* (1946), repris dans: Febvre, *Combats pour l'histoire*, p. 42.

(33) Marc Bloch, *La Société féodale*, l'évolution de l'humanité. Synthèse collective; 8 (Paris: Albin Michel, 1968).

(34) Lucien Febvre, *Le Problème de l'incroyance au XVIe siècle: La Réligion* =

عشر»، والأمد الطويل للأفكار والعواطف والمعتقدات، وهو ما يحطم الموقف المغلوط والقائل بأن رابليه مفكر حرّ.

وترك مارك بلوخ بعد وفاته كتاباً بعنوان: **تمجيد التاريخ أو صناعة المؤرخ**[35]، فنشر غير مكتمل ومن دون مراجعة، ولكنه قام بالتعريف بـ **التاريخ الجديد** خارج فرنسا، منذ أن ترجم بسرعة إلى اللغة الانجليزية (مانشستر ونيويورك، 1954)، إلى ترجمته إلى لغات أوروبا الشرقية، وخاصة منها اللغة الروسية (موسكو، 1973). وليس هذا الكتاب في رأي لوسيان فافر «كتاباً في المنهجية التاريخية»، أو «خواطر فلسفية مغلوطة حول التاريخ»، وإنما قراءة نقدية لحالات تميزت بسوء ممارسة التاريخ وبسقامة التفكير فيه». ولن أعلق سوى على نقطتين تجلبان الاهتمام، وهما من خصائص **التاريخ الجديد**:

ـ **أولاهما** رفض التشبث بـ «أصنام الماضي»، وكما يقول مثل عربي: «الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم»[*].

ـ **ثانيتهما** التنبه لعلاقة الحاضر بالماضي، أي تفهم الحاضر بالاعتماد على الماضي، ولكن أيضاً تفهم الماضي بالاعتماد على الحاضر، وهو ما يتطلب منهجاً «حذراً في الربط بينهما بشكل ارتدادي»[36].

---

de Rabelais, l'évolution de l'humanité, synthèse collective; 53 (Paris: Albin Michel, = 1942), éd. revue (Paris: Albin Michel, 1947).

(35) Bloch, *Apologie pour l'histoire, ou, métier d'histoiren.*

(*) قول منسوب إلى عمر بن الخطاب، انظر: أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، **كتاب عيون الأخبار** (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1925 ـ 1930)، مج 2، ص 1 [طبائع الناس] (المترجم).

(36) انظر ص 44 ـ 45 من هذا الكتاب.

معارك من أجل تاريخ جديد

بعد سنوات من ذلك، جمع لوسيان فافر نصيباً محترماً من مقالاته المنهجية في كتاب: **معارك من أجل التاريخ**[37]، حيث نجد المبادئ الأولى لـ **التاريخ الجديد** التي قدمت منها كثيراً من المقتطفات المعبّرة، وكذلك المقالات التي تضمنت المعارك ضد التاريخ السياسي والدبلوماسي، والتاريخ ـ اللوحة، والتاريخ المبسّط، والتاريخ الفلسفي الذي يسميه لوسيان فافر «شبه التاريخ» المعتمد على سرد الأحداث من دون التوقف عندها، ومن دون إثارة الإشكاليات منغمساً في اجترار النصوص. وهو يشبه ما نعبّر عنه اليوم في مجال السياسة بـ «السياسة السياسوية».

إنها على العكس من ذلك معارك من أجل «تاريخ موجّه» ـ ولعل عبارة «موجّه» لا تستساغ اليوم، ولكنها تعني تاريخاً مكتوباً بالاعتماد على التحقيقات الجماعية، والتي تمثل مستقبل التاريخ. وقد كانت **الحوليات** قدوة ببعثها بحوثاً جماعية حول المسح العقاري (Cadastre)، والتقسيمات الفلاحية (Parcellaires)، والتقنيات الزراعية، وانعكاس كل ذلك على حياة الناس، وعلى حياة النبلاء وغيرهم. وقد كان هذا التوجّه ثرياً، فاتبعه مركز البحوث التاريخية بداية من سنة 1948 في إطار القسم السادس للمدرسة التطبيقية للدراسات العليا، وقد شجع عليه بالنسبة إلينا في فرنسا المركز الوطني للبحث العلمي. ثم بدا هذا التوجه شيئاً فشيئاً منذ 1968 يقتحم بعض أقسام التاريخ في الجامعة.

وبعد ذلك، بدأ النظر إلى العلوم المجاورة مع الأمل في إيجاد حوار بين «إخوان يجهل بعضهم بعضاً»، إلا أن ذلك لم يكلل إلا

(37) Febvre, *Combats pour l'histoire.*

بالخيبة، ففشل الألسنية[38] التي كان يمكن أن تساعد المؤرخين بـ «الاستقراء الثابت والقوي، ولو أنه قصير النظر، لكنه مبني على تجربة لا يمكن دحضها، على اكتشاف بعض الزوايا التاريخية التي تعوزها النصوص»[39]. كما أن علم النفس[40] أظهر على ما يبدو عجزاً في التحاور مع المؤرخين الذين عليهم «أن يوفروا لعلماء النفس صورة تاريخية مناسبة عن الأوضاع النفسية في التاريخ»[41]، وكل هذه العلوم المنطوية على ذاتها بسبب انعدام مختصين لهم أفق واسع وإشكاليات، قد حرمت مؤرخي **التاريخ الجديد** من إشباع طموحهم من مجالات أساسية مثل: الآداب والفلسفة والفن والعلوم.

القسم السادس للمدرسة التطبيقية للدراسات العليا

كان أهم ما حدث غداة الحرب العالمية الثانية في فضاء **الحوليات** هو **أولاً** تأسيس القسم السادس للمدرسة العليا للعلوم التطبيقية، **وثانياً** تجديد الهيئة المديرة لـ **الحوليات** حول لوسيان فافر.

كان أول حدث، هو تحقيق مشروع رائد، قياساً بعلاقة مع ما هو موجود، يتمثل في تأسيس فيكتور دوروي (Victor Duruy) بجانب السوربون العريقة، تدريساً متعارضاً مع الدرس العام الذي

---

(38) Antoine Meillet, *Introduction à l'étude comparative des langues indoeuropéennes*, Alabama Linguistic and Philosophical Series; 3, préf. de George C. Buck (Alabama: University of Atlanta Press, [1964]).

(39) المصدر نفسه، ص 163.

(40) Charles Blondel, *Introduction à la psychologie collective*, collection Armand Colin; 102 (Paris: Armand Colin, 1928), et Henri Wallon, *Principes de psychologie appliquée*, collection Armand Colin (section de philosophie); 127 (Paris: Armand Colin, 1930).

(41) المصدر نفسه، ص 219.

كان يلقيه إلى حدّ ذلك التاريخ في هذه الجامعة، ومبنياً على البحث، وعلى الممارسة البحثية المتبحرة أو التجريبية، متأثراً في ذلك بطريقة الحلقة الدراسية على النمط الألماني، وكان ذلك في إطار المدرسة التطبيقية للدراسات العليا التي يرجع تاريخ إنشائها إلى سنة 1868، والتي ينصّ قانونها الأساسي على وجود قسم سادس فيها خاص بالدراسات الاقتصادية والاجتماعية. وهو ما تمكن بفضله لوسيان فافر من اقتلاع تأسيس القسم السادس من حكومات ما بعد الحرب العالمية الثانية. وكانت برامج هذا القسم المتعدد الاختصاصات والمنفتح على العالم بأسره مرتكزاً على البحث والتحقيقات الجماعية، وهو في الوقت نفسه برنامج مجلة **الحوليات** حيث يؤدي التاريخ دوراً إلهامياً ودافعاً.

ويعتبر هذا الحدث أساسياً بالنسبة إلى **التاريخ الجديد** الذي أصبح منذ ذلك الحين ينتشر عبر التدريس والنقاش إلى جانب اختصاصات أخرى، قريبة منه، ليتحول إلى مؤسسة قائمة الذات. وقد وجد هذا التوغل في الهياكل والممارسات الجامعية مقاومة متعددة الجوانب. وعندما ترأس فرناند بروديل لجنة التبريز ما بين 1950 و1955 لم يستطع أن يقحم روح **التاريخ الجديد** بأكملها.

نحو تاريخ آخر . . . مع فرناند بروديل

استجاب لنداءات لوسيان فافر جورج فريدمان الذي سيصبح أبا علم الاجتماع الجديد في فرنسا، وهو علم اجتماع مشبع بالتاريخ يحدّد التايلورية (Taylorisme) في مسار تطور العمل الصناعي، فبيّن الحاضر بكثافة تقاليده وتغيراته[42] وأساطيره

(42) Georges Friedmann, *La Crise du progrès: Esquisse d'histoire des idées, 1895-1935*, 2ème éd (Paris: Gallimard, [1936]).

الأيديولوجية[43]. كما استجاب لهذا النداء مؤرخان شابان هما فرناند بروديل وشارل مورازيه (Charles Morazé) اللذان أعادا إلى مجلة **الحوليات** تحمسها لهذا التاريخ الذي يتكاشف فيه الماضي والحاضر.

وسريعا أعطى فرناند بروديل **التاريخ الجديد** رائعته: **المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليب الثاني**[44]، فقدمه لوسيان فافر الذي «اكتشف» فرناند بروديل، في مقال حمل عنواناً معبراً: «نحو تاريخ آخر: المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليب الثاني» (شخصيتان متفاوتتي القيمة، والثاني لا يفوق الأول، وهو أمر جديد في حدّ ذاته). لقد جاءتنا أطروحة فرناند بروديل في الأمس بقراءة جديدة يمكن اعتبارها بمنحى آخر قراءة ثورية. وقد وضع مخططات السياسة الإسبانية بالمدلول الأوسع لكلمة «سياسة» في إطارها التاريخي والجغرافي الطبيعي. في فصل **أول**، بدأ بدراسة القوى المترسبة المؤثرة في الإرادة الإنسانية، والضاغطة عليها من دون أن تكون هذه الإرادة واعية بذلك لتوجهها في اتجاه وضده، وهو تحليل غير مسبوق لما تمثله هذه القوى المترسبة المؤثرة من قوة موجّهة ومقننة ومثبطة ومعرقلة، أو محمسة ودافعة للقوى الإنسانية، والتي نسميها ابتذالا بكلمة واحدة: «المتوسط».

وفي الفصل **الثاني** اهتم بالقوى الخاصة، وهي قوى جماعية غير محدّدة الهوية متميزة بنوع من الثبات، ولكنها مؤرخة، وواضح

---

(43) Georges Friedmann, *De La Sainte Russie à l'U. R. S. S. six cartes hors texte*, problèmes et documents, préface de Francis Jourdain, 5ème éd. (Paris: Gallimard, [1938]).

(44) Braudel, *La Méditérranée et le monde méditérranéen à l'époque de Philippe II*.

أنها هي الفاعلة في القرن السادس عشر، وفي النصف الثاني منه تدقيقاً، أي في فسحة الزمن الذي تمتد عليه فترة حكم فيليب الثاني، ملك إسبانيا.

أما في الفصل **الثالث**، فقد تناول الأحداث، فجاءت هذه الأحداث عبارة عن موج متلاطم ومتداخل وفي حالة غليان. وهي أحداث متلاحمة بفعل القوى المترسبة التي درسها في الفصل الأول، متأثرة وموجّهة بفعل القوى الثابتة التي عدّدها الفصل الثاني، ولكن الصدف تؤدي فيها دوراً، وتطرّز فوق شبكة الأحداث المتتالية أروع التحولات وأقلها توقعاً[45].

توفي لوسيان فافر سنة 1956، فأصبح فرناند بروديل الملهم الرئيسي لمجلة **الحوليات**، وذلك بمساعدة روبير ماندرو (Robert Mandrou) في مرحلة أولى، ثم مارك فارو (Marc Ferro) في ما بعد **الحوليات**. ونشر في المجلة سنة 1958 المقال الذي سيرسم بعمق المرحلة الحالية لـ **التاريخ الجديد**، والذي جاء تحت عنوان: «التاريخ والعلوم الاجتماعية: الأمد الطويل»[46]. وفي سنة 1969، سلم فرناند بروديل، وشارل مورازيه، وجورج فريدمان مجلة **الحوليات** إلى فريق جديد مكوَّن من: أندريه بورغيار، ومارك فارو، وجاك لوغوف، وإمانويل لو روا لادوري، وجاك روفيل.

آباء «التاريخ الجديد»

لكن قبل أن نحاول تعريف **التاريخ الجديد** اليوم، يجب أن نذكّر بالأصول العريقة والمجيدة التي تحدّر منها. إنه ينتسب إلى ما

(45) Lucien Febvre, «Vers une autre histoire,» *Revue de métaphysique et de morale* (1949).

(46) *Annales économies, sociétés, civilisations* (1958), pp. 725-753.

أبعد من «مدرسة **الحوليات**» إذ يحق له أن يكون سليل البعض من أكبر الأسماء في علم التاريخ منذ القرن الثامن عشر.

فولتير ومشروع «التاريخ الجديد»

كتب فولتير سنة 1744 في مؤلفه تحت عنوان: «تأملات جديدة حول التاريخ» ما يلي: «قد يحدث قريباً للكتابة التاريخية ما حدث للفيزياء. لقد أدت الاكتشافات الجديدة إلى التخلي عن الأنظمة القديمة. ويمكن أن نتعرف على الجنس البشري من خلال هذه الجزئيات الهامة التي تعتمد عليها الفلسفة الطبيعية اليوم (...). إنه من المستحسن أن توجد أرشيفات لكل شيء حتى يتسنى استعمالها كلما دعت الحاجة إلى ذلك، فأنا أنظر اليوم إلى المجلدات الضخمة وكأنها قواميس. ولكن بعد مطالعة ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف وصف لوقائع حربية، وبعد التمعن في محتوى مئات المؤلفات، وجدتني غير مطلع أكثر من ذي قبل. فأنا لا أعرف الفرنسيين والمسلمين من خلال معركة شارل مارتال (Charles Martel) أكثر مما أعرف المغول والأتراك من خلال انتصار تيمورلنك على بيازيد. أودّ أن أتعرف على قوى بلد ما قبل الحرب لأتبيّن ما ساهمت به هذه الحرب في تزايدها أو في نقصانها. هل كانت إسبانيا قبل احتلال العالم الجديد أكثر ثراء من اليوم؟ هل كان عدد سكانها في عهد شارل الخامس أكثر مما هو عليه في عهد فيليب الرابع؟ لماذا كان عدد سكان مدينة أمستردام لا يتعدى 20 ألف نسمة منذ 200 سنة؟ ولماذا يبلغ عدد سكانها اليوم 240 ألفاً؟ وكيف يمكن أن نعرف ذلك بصورة إيجابية؟ بكم يفوق عدد سكان إنجلترا اليوم عدد سكانها في عهد هنري الثامن؟ وهل صحيح ما يروى في الرسائل الفارسية أن عدد سكان الأرض قد تقلص قياساً بما كان عليه منذ ألفي سنة؟. (...) هذه هي بعض المواضيع التي تستجيب لحب الاطلاع عند الناس عندما يريدون

النظر في كتب التاريخ بوصفهم مواطنين وبوصفهم فلاسفة. لن يكتفي الإنسان بمثل هذه المعطيات، بل سيبحث في العيب الأساسي والفضائل السائدة لأي أمة من الأمم، ويتساءل عن سبب قوتها أو ضعفها في البحر؟ وكيف وإلى أي مدى استطاعت أن تحقق تزايداً في ثرواتها منذ قرن من الزمن؟ إن سجلات الصادرات يمكن أن تنبئ بذلك. ويريد المرء أن يعرف كيف نشأت الفنون والصناعات، ويتابع انتقالها من وإلى هذا البلد أو ذاك. وفي النهاية، تشكل التحولات التي تمر بها عادات الناس وتقاليدهم، والتي تعرفها أيضاً القوانين، موضوعه الكبير. بذلك يمكن أن نعرف تاريخ البشر أحسن من معرفة جزء ضئيل من التاريخ الذي يتمحور حول حياة الملوك والبلاطات. وبكل أسف أطالع **حوليات فرنسا**، فألاحظ أن مؤرخينا يصمتون عن كل هذه الجزئيات، ولا أحد منهم كان شعاره: «أنا إنسان، وكل ما هو إنساني ليس بغريب عني»[47].

إن التاريخ إذن في نظر فولتير هو التاريخ الاقتصادي والديمغرافي، وتاريخ التقنيات، وتاريخ العادات، وليس فقط التاريخ السياسي والعسكري والدبلوماسي. وهو أيضاً تاريخ الناس، كل الناس، وليس فقط تاريخ الملوك والعظماء. إنه تاريخ البنى، وليس فقط تاريخ الأحداث. إنه تاريخ الحراك يهتم بالتطورات والتغيرات، وليس تاريخ الثبات يقدم على غرار اللوحة. إنه تاريخ تفسيري، وليس تاريخاً سردياً وصفياً ودغمائياً. وفي النهاية، إنه التاريخ الكلي... هذا المشروع لـ **التاريخ الجديد** الذي نيّف على القرنين من

---

(47) «Je Suis homme et rien de ce qui est humain ne m'est étranger,» (Térence, *Heautontimoroumenos*, I, 1).

ورد نص فولتير ضمن: Jean Ehrard et Guy Palmade, *L'Histoire*, collection U. série «lettres françaises» (Paris: Armand Colin, [1964]), pp. 161-163.

الزمن، قد تعهده كل من شاتوبريان (Chateaubriand) وغيزو خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر.

بيان حقيقي لشاتوبريان

يعتبر تقديم **بحوث تاريخية** لشاتوبريان سنة 1831 بمثابة بيان حقيقي لـ **التاريخ الجديد**:

«تضمحل المجتمعات القديمة وتولد على أنقاضها مجتمعات جديدة بقوانينها وطبائعها وأعرافها وعاداتها ومواقفها، وحتى مبادئها، فهي كلها جديدة. لقد وقعت ثورة كبرى، وثورة كبرى تتهيأ، فما على فرنسا إلا إعادة النظر في حولياتها لجعلها مواكبة لتطورات العقل».

«لم يعتن أصحاب حوليات الفترة القديمة في رواياتهم للتاريخ بمختلف فروع الإدارة، فأهملوا إدراج العلوم والفنون والتربية العمومية ضمن حقل التاريخ. لقد بدت سانت كليو (Saint Clio)، إلهة التاريخ، تمشي مجردة من الوزر الذي تجره اليوم وراءها. وكثيراً ما كان المؤرخ كالمسافر الذي يروي مشاهداته. أما اليوم، فالتاريخ عبارة عن موسوعة يجب أن ندخل فيها كل شيء من علم الفلك إلى الكيمياء، ومن الفنون المالية إلى التقنيات الصناعية، ومن معرفة الفنان والنحات والمهندس المعماري إلى عالم الاقتصاد، ومن دراسة القوانين الكنسية والمدنية والجنائية إلى القوانين السياسية».

«إن المؤرخ اليوم، وإن أراد استعراض وقائع حدث يتعلق بالأخلاق والانفعالات الناتجة منها، تعترضه ضريبة الملح[48] (Gabelle)، وتستوقفه ضريبة أخرى، وتهجم عليه الحرب والملاحة

(48) ضريبة الملح في فرنسا في عهد النظام القديم.

والتجارة، فيتساءل عن: كيفية صنع الأسلحة في ذلك الوقت؟ من أين يجلب الخشب للبناء؟ ما هو سعر الرطل من الفلفل؟ وكل ذلك يضيع إذا ما لم يتفطن المؤرخ إلى أن السنة تبدأ من عيد الفصح، ولم يؤرخ أحداثه ببداية السنة الميلادية (أي اليوم الأول من شهر كانون الثاني/ يناير)[49]. كيف يمكن أن نثق بمؤرخ إذا أخطأ في صفحة أراد الاستشهاد بها أو أعطى طبعة مغلوطة للمصدر المستعمل؟ وسيظل المجتمع مجهولاً لو نجهل لون أعلى جوارب الملك (Haut-de-chausse) وسعر المارك الفضي[50]».

«والمؤرخ يجب ألا يعرف ما يدور في وطنه فحسب، بل وجب عليه أيضاً الاطلاع على ما يحدث في البلاد المجاورة، وفي كل هذه الحالات يجب أن تكون فكرة فلسفية حاضرة في ذهنه وتقوده في بحثه. تلك هي مساوئ التاريخ الحديث: إن كثرتها ربما تحرمنا من أن يكون لنا مؤرخون بحجم توسيديد (Thucydide) وتيت ـ لايف (Tite-Live) وتاسيت (Tacite)، ولكننا لا نستطيع تجنب هذه المساوئ، فنحن مجبرون على الخضوع لها»[51].

هذا هو أيضاً التاريخ الكلي الذي يجمع الاقتصادي والفني والأنثروبولوجي في مقدمة اهتماماته. إنه تاريخ الأسعار، وتاريخ الاقتصاد السياسي (وليس التاريخ السياسي). وهو أيضاً تاريخ فلسفي، بمعنى تاريخ إشكالي تفسيري. إنه في النهاية تاريخ مستعد

---

(49) في فرنسا مثلاً تبدأ السنة في عيد الفصح إلى أن صدر مرسوم الملك شارل التاسع الذي حدد بداية السنة في 1 كانون الثاني/ يناير 1564.

(50) وحدة وزن للمعادن الثمينة في فرنسا القديمة. يزن المارك في باريس 244,7529 غرام. وكانت السلطة الملكية تحدد أسعار العملة وتغيرها بحسب الظروف، وذلك بضبط قيمة بعض العملات الصرفية (الجنيه، الفلس...) بالنسبة الى الذهب أو الفضة بوزن معين.

(51) ورد هذا النص ضمن: Ehrard et Palmade, *L'Histoire*, pp. 189-190.

لتجاوز المحسنات البديعية، وتجاوز صورة المؤرخ الأديب الفنان الذي يضحِّي بالدقة العلمية من أجل جمالية الأسلوب. ما يسميه شاتوبريان بـ «التاريخ الحديث»، هو ما نعنيه اليوم بـ «التاريخ الجديد». وهي تسمية كان يمكن أن تزدهر لو لم يقم الإنسانيون (Humanistes) في القرن السادس عشر بتحقيب التاريخ إلى تاريخ قديم، وتاريخ وسيط، وتاريخ حديث، وتكريس هذا التقسيم في التعليم الجامعي، ووضعوا حدّاً لتسمية شاتوبريان، خوفاً من سوء الفهم. ولكن «التاريخ الحديث» الذي يتحدث عنه شاتوبريان سنة 1831، هو نفسه تاريخنا الجديد.

غيزو والحضارة بوصفها اهتماماً من اهتمامات التاريخ

لقد وضع غيزو سنة 1828، سنوات قبل شاتوبريان، في الحصة الأولى لدرسه في التاريخ الحديث: «تاريخ الحضارة في أوروبا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية إلى الثورة الفرنسية»، الحضارة في قلب اهتمامات التاريخ: «كثر الحديث منذ مدة وبمعقولية عن ضرورة حصر التاريخ في سرد الأحداث، وعن ضرورة الرواية، وهي من الأمور الطبيعية. ولكن هناك كثير من الأحداث المختلفة التي تستحق الذكر أكثر مما نتصوره من أول وهلة: هناك أحداث مادية ملموسة، مثل المعارك والحروب، والمواقف الرسمية للحكام، وهناك أفعال أخلاقية متخفية، ولكنها لا تقل واقعية عن الأولى، وهناك أحداث فردية تحمل أسماء معلومة، هناك أحداث عامة بلا اسم، ولا يمكن اقترانها بتاريخ مضبوط كما لا يمكن حصرها في حدود دقيقة، وهي في الوقت نفسه أحداث كغيرها من الأحداث التاريخية التي لا يمكن إقصاؤها من مجال التاريخ إذا أردناه مكتملاً (...). ألا يبدو حضرات السادة أن الحدث الحضاري، هو الحدث الحقيقي، وهو الحدث العام والنهائي الذي تصبّ فيه كل الأحداث الأخرى وتنصهر

فيه؟ لنأخذ كل الأحداث التي يتكون منها تاريخ أي شعب من الشعوب والتي نعتبرها مكوِّناً من مكوّنات حياته، فلنأخذ مؤسساته وتجارته وصناعته وحروبه وكل الجزئيات التي يتكون منها نظام حكمه: عندما نريد تناول هذه الأحداث بصورة إجمالية، وفي مستوى العلاقات التي بينها، وعندما نريد أن نقوّمها وأن نحكم عليها، فعماذا نسائلها؟ نسائلها عن الدور الحضاري الذي ساهمت به، وعن نصيب كل جزئية في ذلك، وعن التأثيرات التي أتتها (. . .). أتساءل أيها السادة، قبل الخوض في المسائل التاريخية، ما هو الحدث الهام والعميق والثمين الذي يمكن اعتباره عصارة ماضي أي شعب، وأبرز تجليات حياته؟ (. . .) منذ أزمنة بعيدة ولدى العديد من الشعوب تستعمل عبارة «حضارة» استعمالات مختلفة قد يتسع وقد يضيق معناها، وعلى رغم ذلك يمكن أن نفهم تقريبياً المعنى المقصود من ذلك. لذلك يجب أن ندرس معنى هذا المصطلح في صورته العامة وفي بعديه الإنساني والشعبي»[52].

حقيقة، إن غيزو رجل عصره، فهو لسان حال «البورجوازية الغازية» على حد تعبير شارل مورازيه[53]. فقد كان غيزو يرى في مفهوم «الحضارة» فكرة التقدم، إذ يكتب أن «فكرة التقدم والنمو تبدو لي أنها الفكرة المركزية التي تتضمنها عبارة حضارة».

يخال إلينا أننا نستمع إلى لوسيان فافر وهو يقدم في الأسبوع العالمي الأول للتوليف سنة 1930 دراسته المشهورة «الحضارة: مسار

---

(52) المصدر نفسه، ص 203 ـ 207.

(53) Charles Morazé, *Les Bourgeois conquérants: XIXe siècle*, destins du monde, [préface par Fernand Braudel] (Paris: Armand Colin, 1957), rééd. coll. «historiques»; 21-22 (Bruxelles: Complexe; [Paris]: Diffusion presses universitaires de France, 1985).

كلمة ومجموعة أفكار». وقد برّر لوسيان فافر العنوان الفرعي الجديد لمجلة **الحوليات**: «اقتصاديات، مجتمعات، حضارات»[54] بصيغة الجمع، كما أكد ذلك مارك بلوخ في كتابه: **تمجيد التاريخ.**

ولكن الرائدين الرئيسيين لـ **التاريخ الجديد** هما بلا شك: ميشليه، وعالم الاقتصاد الفرنسي فرنسوا سيميان (François Simiand).

ميشليه المبشر بـ «التاريخ الجديد»

لم يكن ميشليه مبشراً بـ **التاريخ الجديد** فقط في تأليفه، بل كان أكثر وضوحا من خلال تقديمه تاريخ فرنسا سنة 1869[55]. لم يكن لفرنسا تاريخ، وإنما حوليات. وقد درسها رجال بارزون، خاصة من الناحية السياسية. لكن لم يغص أي منهم في دقائق تطوراتها المختلفة (الدينية والاقتصادية والفنية وغيرها...). ولا أحد منهم جال بنظره في وحدة عناصرها الطبيعية والجغرافية الحيّة التي تكوّنها. لقد كنت الأول الذي رأى لها روحاً ونظر إليها بوصفها كائناً بشرياً... وقد كان أكثر تعقيداً وأكثر رهبة مشكلي التاريخي الذي أردت من خلاله بعث الحياة فيها برمتها، ليس في المستوى السطحي، وإنما في مستوى مكوّناتها الداخلية العميقة. خلاصة القول، إن التاريخ كما أراه ـ وإن أراه في هؤلاء الرجال البارزين الذين يمثلونه (وكثير منهم هم محل إعجاب) ـ يظل ضعيفاً في مستوى منهجيه: إنه تاريخ قليل العناية بالجوانب المادية، يأخذ في حسبانه الأجناس، ولكن لا يأخذ بعين الاعتبار الأرض والمناخ والمواد الغذائية، وكثير من الظروف الطبيعية والفيزيولوجية. وهو أيضاً تاريخ قليل الاهتمام بالجوانب

---

(54) Febvre, *Combats pour l'histoire*, pp. 34-37.

(55) ذكر في: Ehrard et Palmade, *L'Histoire*, pp. 261-265.

الروحية، فهو إن اهتم بالقوانين وبالقرارات السياسية، يهمل الأفكار والعادات، ولا يعير الاهتمام للتحولات الكبرى، الداخلية والبطيئة، ولا للروح الوطنية».

مرة أخرى نلاحظ كيف أن هناك رفضاً للتاريخ السياسي أساسا، ونزوعاً نحو تاريخ كلي وعميق. وفي النهاية، هو نداء من أجل توجهين في كتابة **التاريخ الجديد**: تاريخ يعتني أكثر بالجوانب المادية، وهو تبشير بتاريخ الثقافة المادية التي تعنى بالمناخ[56]، وبالأغذية[57]، وبالظروف الطبيعية[58]. وهو نداء من أجل تاريخ أكثر روحانية[59]، أي تاريخ للطبائع (مع التذكير بما كتبه فولتير (**بحوث في الطبائع**))، وهو تبشير بالتاريخ الأنثروبولوجي وعودة إلى مفهوم «الطبائع» السليم[60].

---

(56) انظر: Emmanuel Le Roy Ladurie, *Histoire du climat depuis l'an mil*, nouvelle bibliothèque scientifique (Paris: Flammarion, 1967).

(57) Jean Jacques Hémardinquer, ed., *Pour une histoire de l'alimentation: Recueil de travaux*, cahiers des annales; 28 (Paris: Armand Colin, 1970); Louis Stouff, *Ravitaillement et alimentation en Provence aux XIVe et XVe siècles*, civilisations et sociétés; 20 (Paris; La Haye: Mouton, 1970), et Jean Paul Aron, *Essai sur la sensibilité alimentaire à Paris au XIXe siècle*, cahiers des annales; 25 (Paris: Armand Colin, 1967).

(58) Jacques Revel et J. - P. Peter, «Le Corps, l'homme malade et son histoire,» dans: Le Goff et Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, vol. 3, et Emmanuel Le Roy Ladurie, *Le Territoire de l'histoiren*, bibliothèque des histoires, 2 vols. ([Paris]: Gallimard, [1973-1978]).

(59) Jacques Le Goff, «Les Mentalités, une histoire ambigüe,» dans: Le Goff et Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, vol. 3.

(60) Norbert Elias, *Über den Prozess der Zivilisation: soziogenetische und psychogenetische Untersuchungen*, 2 vols. (Basel: Haus zum Falken, 1939); الترجمة الفرنسية: Norbert Elias, *La Civilisation des mœurs = Über den Prozess der Zivilisation*, archives des sciences sociales, [traduit de la 2ème éd. allemande par Pierre Kamnitzer] ([Paris]: Calmann-Lévy, [1973]), t. I.

سيميان هو عالم اقتصاد وقف ضد عبادة أصنام المؤرخين

قد يفاجأ الناس بوجود اسم فرنسوا سيميان في مثل هذا الكتاب، لأن سيميان (1873 ـ 1935) لم يكن مؤرخاً، وإنما عالم اقتصاد واجتماع، ولأن شهرته ظلت محتشمة، ولم تبلغ ما بلغته شهرة المؤرخين الذين ذكرتهم، في حين أن له العديد من المؤلفات التي يمكن أن تثبت صلته بـ **التاريخ الجديد**. وعندما أتحدث عن سيميان، فأنا لا أقصد عالم الاقتصاد الذي أثرى نظرية الدورات (Cycles)، وإشكالية مجلة **التوليف التاريخي**، وألهم **الحوليات**، بقدر ما أنا اقصد مؤلف المقال خالد الذكر حول «المنهجية التاريخية والعلم الاجتماعي». وكما قال بايكون (Bacon) بصورة مجازية، فإن سيميان «ينبذ عبادة ثلاثة أصنام لدى قبيلة المؤرخين:

ـ «الصنم السياسي»، وهو المهيمن على الدراسات أو هو الاهتمام الدائم للتاريخ السياسي وتاريخ الأحداث السياسية والحروب وغيرها، والذي يعطي للأحداث أهمية مبالغ فيها.

ـ «الصنم الفردي»، والذي اعتاد على تصور التاريخ بوصفه تاريخاً للأفراد، وليس بوصفه دراسةً للأحداث، وهي عادة تقوم على إعطاء الدور المحوري للفرد، وتنسق حوله الأحداث عوضاً عن محورتها حول مؤسسة أو ظاهرة اجتماعية أو لتحديد علاقة ما.

ـ «الصنم التاريخي»، وهي عادة الإغراق في البحث عن الأصول والتوغل في أبحاث خصوصية، عوضاً عن دراسة ما هو طبيعي وفهمه أولاً، وذلك بالبحث عنه والتقصي لتحديد موقعه في المجتمع، وفي الإطار الزمني الذي يعيش فيه...»[61].

---

(61) François Simiand, «Méthode historique et science sociale,» *Revue de synthèse historique* (1903), republié dans: *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 15, no. 1 (1960).

لقد كانت إزاحة التاريخ السياسي الهدف الرئيسي لـ **الحوليات**، ولا تزال الهاجس الأكبر لـ **التاريخ الجديد**، أو كما سأقوله في ما سيأتي، أن تحل كتابة تاريخ جديد للسياسي، أو تاريخ لتصور جديد لما هو سياسي، محل النظرة القديمة للتاريخ السياسي.

إن التخلص من تاريخ العظام المشاهير هي مهمة تسير في اتجاه صحيح، على رغم أن تاريخ هذه الظواهر الزائفة لا يزال متواصلاً ضمن انتاجات التاريخ الموازي والتاريخ المغلوط، وكذلك على رغم أن **التاريخ الجديد** عليه أن يعيد طرح مسألة هؤلاء العظماء، وأن يمنح صفة علمية جديدة لتاريخ السير. ونقصد هنا كتاب: **لوثر** (Luther) للوسيان فافر[62]، وخصوصاً كتاب: **فريديريك الثاني** لإرنست كانتوروفيتز[63] (Ernest Kantorowicz) وكتاب: **لويس الرابع عشر وعشرين مليون فرنسي** لبيار غوبار[64] (Pièrre Goubert). وتجب في الأخير مراجعة العادات التاريخية للمؤرخين، وهي من أكبر مهام **التاريخ الجديد**، وهي مراجعة لا تزال محتشمة، وسأعود إلى إثارة هذه المسألة في ما بعد. ما يريد تحقيقه فرنسوا سيميان هو ربما أكثر من معالجة مجردة للزمن، فهو يعتبر أن **التاريخ الجديد** عليه أن يأخذ مأخذ الجد مسألة تعدد الأزمنة التاريخية، وأن يحدد القواعد الدقيقة للأمد الطويل.

---

(62) Lucien Febvre, *Martin Luther: Un Destin*, christianisme; 27 (Paris: Reider, 1928).

(63) Ernst Kantorowitz, *Kaiser Friedrich der Zweite*, [With «Erganzungsband», 2 vols. (Berlin: [G. Bondi], 1927-1931).

(64) Pierre Goubert, *Louis XIV et vingt millions de français*, l'histoire sans frontières ([Paris]: Fayard, [1966]).

تاريخ فرنسي؟

يبدو **التاريخ الجديد** كما لو أنه تاريخ فرنسي أساساً، وهو في نصيب منه كذلك، إذ لا توجد دراسات معمقة لهذه المسألة على رغم الملاحظات الهامة لكل من لوسيانو أليغرا (Luciano Allegra) وأنجلو طوري[65] (Angelo Torre). وفي كل الحالات، يمكن أن نقدم افتراضين يمكن أن يتكاملا، بل يندمجا أيضاً. لقد أدى التاريخ في فرنسا منذ القرن التاسع عشر، إن لم يكن ذلك منذ أواخر القرن السابع عشر، دوراً مهيمناً ومجمعاً ورائداً في حقل العلوم التي ستسمى لاحقاً علوماً إنسانية أو اجتماعية. وقد رأينا بعضاً من الأسماء الكبيرة التي عبَّرت عن هذا الدور وساهمت في إرسائه. وفي الوقت الذي خرجت فيه العلوم الاجتماعية الحديثة في البلاد الأنجلوسكسونية من رحم علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا، أدى التاريخ في فرنسا دور الريادة، كما نرى ذلك مثلا في ظروف تأسيس برنامج القسم السادس للمدرسة التطبيقية للدراسات العليا منذ سنة 1947. وباستثناء إنجلترا، حيث عطل نسبياً التطور المبكر للعلوم الاقتصادية والاقتصاد السياسي والتأثير الأمريكي بروز علم التاريخ، فإن فرنسا هي البلد الوحيد من ضمن البلدان الكبيرة الحديثة التي لها تقاليد في البحث التاريخي، وهي تقاليد قديمة ومتواصلة، وهي في ارتباط في الوقت ذاته بمركز النفوذ السياسي والأيديولوجي وبالتطور الاجتماعي (كتاريخ النبلاء، وتاريخ البورجوازية)، وكذلك بالتشكل المبكر للشعور الوطني ما بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر.

---

(65) Luciano Allegra et Angelo Torre, *La nascità della storia sociale in Francia: Dalla Comune alle Annales*, Studi - Fondazione Luigi Einaudi; 22 (Torino: Fondazione Luigi Einaudi, 1977).

لقد بيّنت جملة من الدراسات التي أشرف على انجازها حديثاً برنار غايني (Bernard Guéné)، حيوية هذه الكتابة التاريخية الفرنسية وأهميتها منذ العصور الوسطى[66].

من ناحية أخرى، لقد تجنبت الكتابة التاريخية في فرنسا عموماً الوقوع تحت تأثيرات كان لها دور سلبي في ألمانيا وإيطاليا وفي البلدان الأنجلوسكسونية في تكبيل الكتابة التاريخية وتعقيمها، وبالخصوص تحويل وجهتها عن دراسة التاريخ اليومي والمحسوس، وهي المجالات التي يستمد منها **التاريخ الجديد** أحسن استلهامه. وأقصد بذلك الفلسفة، وتحديداً فلسفة التاريخ والقوانين. لقد أدى هذان العلمان إلى إنتاج تاريخ قانوني بعيد عن الواقع، مطعّم بإلابحار العلمي الوضعي ليعطي، بحسب عبارة مارك بلوخ، مؤرخين مثلهم مثل «هؤلاء الفلاحين الذين يحرثون سجلات الكنائس». ولم تقع الكتابة التاريخية الفرنسية تحت هيمنة واحد مثل فيكو (Vico) (مهما كان إعجاب ميشليه به)، ولا واحد مثل هيغل (Hegel) ولا كارلايل (Carlyle)، ولا في الزمن قريب منا واحد مثل شبنغلر (Spengler) أو كروتسي (Croce) أو توينبي. وبلا شك، ساهم ابتعاد المؤرخين الفرنسيين عن فلسفة التاريخ في تقليص تأثيرها في تدريس تان (Taine) للتاريخ في القرن التاسع عشر أو رايمون أرون (Raymond Aron) في أيامنا هذه.

لا يعني كل هذا أن ينغلق **التاريخ الجديد** بصورة مضحكة في التاريخ الوطني. وإنما هو تاريخ فيه إحساس بالاختلافات، وهو أينما

---

(66) Bernard Guénée, dir., *Le Métier d'histoiren au moyen âge: Etudes sur l'historiographie médiévale*, publications de la Sorbonne. Série études; 13 (Paris: Université de Paris I Panthéon-Sorbonne, centre de recherche sur l'histoire de l'occident médiéval, 1977).

تطور، وبدأنا نشعر أنه يتطور، يجب أن يتطور بحسب الأنساق الموجودة. كما يجب ألا ننسى الدور الذي أداه غير الفرنسيين في نشأة **التاريخ الجديد**، مثل هنري بيران وهويزنغا حتى لا نتوقف عند ماركس فقط.

التاريخ الجديد خارج فرنسا

تجاوز **التاريخ الجديد** حدود فرنسا، ويتم انجازه بطريقة لامعة ورائدة. بالنسبة إلى الدوريات يمكن أن نذكِّر بالدور النموذجي الذي أدته **المجلة الثلاثية للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي** في نشوء **مجلة حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي**[67]. وتمثل اليوم المجلة البريطانية: **الماضي والحاضر** (بداية من سنة 1952) **التاريخ الجديد** مثلها مثل مجلة **الحوليات**: **اقتصاديات، مجتمعات، حضارات**. وساهمت **الدراسات المقارنة في علم الاجتماع والتاريخ** الأنجلو ـ أمريكية منذ سنة 1957 في تجدد التاريخ الاجتماعي بالمعنى الواسع للكلمة. وتبدو إيطاليا، بمعية بريطانيا، منفتحة بصورة خاصة على **التاريخ الجديد**، ويشهد على ذلك نشاط العديد من ناشريهما. وسأذكر عرضياً، ولو أن الأمثلة عديدة، المركز الأولي الذي تحتله في مجال الإثنو ـ تاريخ الأمريكية ناتالي زيمون دافيس (Natalie Zemon Davis)، والإيطالي كارلو غينزبورغ (Carlo Ginzburg)، والمدرسة التاريخية البولونية اللامعة التي أنجبت، على سبيل المثال، واحداً من ألمع المؤرخين المجددين لتاريخ الهامشيين، وهو برونيسلاف غيريميك[68] (Bronislav Geremek). وقد جدّد ويتولد

---

(67) *Revue trimestrielle d'histoire sociale et économique*, depuis 1903.

(68) Bronislaw Geremek, *Les Marginaux parisiens aux XIVe et XVe siècles* = *Ludzie marginesu w średniowiecznym Paryzū, XIV-XV wiek*, révoltes et protestations.

كولا (Witold Kula) النماذج الماركسية في مجال التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وذلك بعمله الضخم في التاريخ الاقتصادي، وأيضاً وربما بصورة أخصّ باستنباطه نموذجاً جديداً للفيودالية[69]، وهو ما أثار اهتمام المؤرخين في الغرب، وكذلك بكتاب رائد هو: **المكاييل والناس**[70]، وقد بيّن من خلاله أن تاريخ الصراع الاجتماعي كان يدور في كثير من الأحيان حول وسائل الحياة اليومية.

«التاريخ الجديد» اليوم

لقد تم تعريف **التاريخ الجديد** في كتاب: **صناعة التاريخ**[71] بإبراز مجموعة من الإشكاليات والمناهج الجديدة، ساهمت في تجديد مجالات تقليدية كان التاريخ يعتني بها (نجد أهمها في مقالات هذا **القاموس**، مثل: الديمغرافيا التاريخية، والتاريخ الديني، والتاريخ الاجتماعي إلى آخره..). كما تم التعريف أيضاً بـ **التاريخ الجديد** بإبراز مواضيع جديدة في حقل التاريخ بعدما كانت هذه عادة من اهتمامات الأنثروبولوجيا (نجد هنا بعض الأمثلة لذلك في المقالات التي خصت: الأسطورة، والتغذية، والجسد، والمآثر، والصورة، والكتاب، والجنس). وأعرّف **التاريخ الجديد** في الوقت نفسه بالتطورات الجديدة التي شهدتها هذه التوجهات منذ خمسين سنة وبمشاريع غير مسبوقة. وسأحاول توضيح ما هو المطلوب أمام

Collection l'histoire vivante; 0335-3249, traduit du polonais par Daniel Beauvois = ([Paris]: Flammarion, 1976).

(69) Witold Kula, *Théorie économique du système féodal: Pour un modèle de l'économie polonaise, 16e-18e siècles = Teoria ekonomiczna ustroju feudalnego*, civilisations et sociétés; 15, traduit du polonais; préface de Fernand Braudel. éd. revue et augmentée (Paris; La Haye: Mouton, 1970).

(70) باللغة البولونية والترجمة الفرنسية بصدد الانجاز.

(71) Le Goff et Nora, dirs., *Faire de l'histoire*.

تيارات أخرى أو حالات الجمود التي تعتري الكتابة التاريخية.

الأمد الطويل

لقد كان الأمد الطويل من أثرى الآفاق التي رسمها **التاريخ الجديد**، فالتاريخ يمر سريعاً، ولكن القوى العميقة التي تصنع التاريخ لا يمكن استكشافها واستكشاف تأثيرها إلا عبر الزمن الطويل. إن النظام الاقتصادي والاجتماعي يتغير ببطء. وقد فهم ذلك ماركس الذي حدّد أنظمة ضاربة في القدم، واعتبرها تركيبات أساسية للتاريخ، معتمداً في ذلك على مفهوم نمط الإنتاج، وعلى نظرية المرور من العبودية إلى الفيودالية، ثم من الفيودالية إلى الرأسمالية. ويمكن تعريف ذلك بطرق أخرى باختيار الطبائع أو العقليات بوصفها مقياساً للتاريخ، أو بتحديد فترات من خلال التقنيات أو من خلال الطاقة المعتمد عليها (أي الاعتماد بشكل مكثف تباعاً على الطاقة البشرية، ثم الطاقة الحيوانية، ثم المحرك الآلي)، وكذلك من خلال المواقف من بعض الظواهر أو من المشاكل الأساسية التي تعترض الإنسان (ففي مجال العمل مثلاً يمكن أن نتساءل: متى حصل المرور من فكرة العمل الخسيس إلى فكرة العمل التقدمي، أو بالنسبة إلى الموت متى حصل المرور من موت محتوم بصورة كلية إلى موت متحكم فيه بصورة جزئية؟). لا يمكن لتاريخ الأمد القصير أن يصل إلى استبيان الثابت والمتحول في التاريخ، فالتاريخ السياسي الذي ينبني على تعاقب السلالات الحاكمة والحكومات لا يستطيع إدراك الحياة في عمقها: إن ازدياد قامة البشر في ارتباط بالثورات الغذائية وتطور الطب، وتغير العلاقة مع الفضاء نتيجة لتطور وسائل النقل، وتطور المعارف نتيجة لبروز وسائل اتصال جديدة، كالطباعة، والتلغراف، والهاتف، والصحف، والمذياع، والتلفزة، كل ذلك لم يكن مرتبطاً بالتغييرات السياسية، ولا بالأحداث التي تتصدر واجهات الصحف.

لذلك يجب أن ندرس ما يتغير ببطء، وما نطلق عليه منذ عقود تسمية «البنى» من دون الانجذاب نحو بعض مغريات **التاريخ الجديد**. لقد انبهر البعض من كبار المؤرخين اليوم بأهمية الثابت التاريخي، فأكدوا على ذلك وعن قصد بهدف التوضيح باستعمال عبارات تشكل بعض الخطورة، مثل: «التاريخ شبه الساكن» (بروديل) أو «التاريخ الذي لا يتحرك» (إمانويل لو روا لادوري). وفي الواقع، فإن التاريخ يتحرك، وعلى **التاريخ الجديد** أن يبذل أكثر جهد لتوضيح هذه التحولات.

الإنسان المتوحش والإنسان الأليف

لقد أعطت نظرية الأمد الطويل الفرصة لتقارب التاريخ مع العلوم الإنسانية التي تدرس المجتمعات «شبه الساكنة» ـ «الإثنولوجيا» أو كما اعتدنا اليوم قوله بسهولة: «الأنثربولوجيا». وهو ما أدى إلى تزايد الاهتمام بمستوى الطبائع، أو ما يسميه مارسيل موص تقنيات الجسد[72]، ككيفية الأكل، وكيفية اللباس، وكيفية السكن، إلخ... وهو مشروع دراسة الإنسان المتوحش والإنسان الآهل الذي حاولت تحديده مع فرنسوا فوريه[73]. لذلك وجب تطوير منهجية

(72) Marcel Mauss, «Les Techniques du corps,» *Journal de psychologie*, vol. 32, nos. 3-4 (mars-avril 1936), repris dans: Marcel Mauss, *Sociologie et anthropologie*, bibliothèque de sociologie contemporaine, précédé d'une introduction à l'oeuvre de Marcel Mauss par Claude Lévi-Strauss (Paris: Presses universitaires de France, 1950), pp. 363-386.

(73) François Furet, «L'Histoire et l'homme sauvage,» et Jacques Le Goff, «L'Historien et l'homme quotidien,» dans: *L'Historien entre l'ethnologue et le futurologue: Actes du séminaire international organisé sous les auspices de l'association internationale pour la liberté de la culture, la fondation Giovanni Agnelli et la fondation Giorgio Cini, Venise, 2-8 avril 1971*, le savoir historique; 4 (Paris; La Haye: Mouton, [1972]), pp. 213-237 et pp. 238-250; version revue dans: =

خاصة بكتابة التاريخ من خلال نصوص ظلت متروكة إلى اليوم ـ كنصوص أدبية ووثائق أرشيفية تهتم بالواقع اليومي البسيط ـ وهي «النصوص الإثنية»[74].

ولكن لا يعني أن التقارب بين المؤرخين وعلماء الأنثروبولوجيا لا يمر ببعض المشاكل. فالأنثروبولوجيا تطورت في العقود الأخيرة خارج المجال الأوروبي، وتركت المجال فسيحاً داخل المجتمعات المتقدمة للفولكلور ـ وهو جامع لكثير من المعطيات التي لم تستغل أو وقع استغلالها بطريقة سيئة ـ كما لو أنه إثنولوجيا الفقير. و**التاريخ الجديد** يشعر بالتصاقه مع الفولكلور بهذا الواقع، في حين لم تهتم به الأنثروبولوجيا. لقد اهتم **التاريخ الجديد** من ناحية أخرى بإثنولوجيا الاختلاف، في حين ـ وليس فقط تحت تأثير البنيوية ـ اهتمت الأنثروبولوجيا بالإنسان، وهو ما لا يروق لـ **التاريخ الجديد**. إن فكر الشعوب المتوحشة يهم **التاريخ الجديد** أكثر مما يهمه الفكر المتوحش ـ وذلك على رغم أهمية العمل الضخم الذي قام به كلود ليفي ـ شتراوس لجيل بأكمله من مؤرخي الأساطير.

التاريخ والعلوم الإنسانية الأخرى

يجب ألا يحجب هذا الحوار المتميز بين الأنثروبولوجيا والتاريخ جهد **التاريخ الجديد** من أجل إرساء الحوار مع العلوم الإنسانية الأخرى. لقد أثرت مدرسة علم الاجتماع الفرنسية التي يقودها دوركايم في مجلة **الحوليات** في بدايتها، فلم يسمح وجود

Méthologie de l'histoire et des sciences humaines, mélanges en l'honneur de = Fernand Braudel ([Toulouse]: Privat, [1973]), pp. 227-244.

(74) يهتم فريق بحث تحت إشراف فيليب جوتار (Philippe Joutard) وميشيل فوفيل (Michel Vovelle) بجمع هذه النصوص ودراستها في جامعة البروفانس (Provence).

جورج فريدمان ولا علاقات فرناند بروديل بجورج غيرفيتش (Georges Gurvitch) بمواصلة حوار بنّاء. ولم يجد **التاريخ الجديد** سهولة في التحاور مع علم اجتماع يتأرجح بين الخطاب الدغمائي الفلسفي المجرد والمنهجية التجريبية التي تعتمد الاستجوابات التي لا تستند دائماً إلى طرح إشكاليات صلبة. ومن ناحيتهم، لم يكن علماء الاجتماع في راحة أمام الأهداف التوسعية للتاريخ[75] الذي لا يرون فيه كثيراً من التجريد، وإنما خزاناً من النماذج والتجارب.

كما أن الحوار مع العلوم الاقتصادية ليس بالأمر الهين. صحيح أن تطور التاريخ الاقتصادي وحضوره الضروري في صلب **التاريخ الجديد** قد حافظا على جسور ممدودة بين العلمين، إلا أن التقنية المتزايدة لعلم الاقتصاد، ودكتاتورية الاقتصاد الرياضي، وميول علماء الاقتصاد إلى دراسة الآماد القصيرة والمتوسطة، أدت كلها إلى انفصام بين توجهات العلمين. ولكن تعاون واحد من أمثال سيرج كريستوف كولم (Serge Christophe Kolm) مع **الحوليات** يؤكد تطوراً في هذه العلاقات[76]. كما ساهمت في تدعيم هذا التطور في العلاقات أعمال مؤرخ كبير من «مدرسة **التاريخ الجديد**»، بحجم جورج دوبي، والذي انطلق من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ليوسع آفاقه بدمج أنظمة التمثلات[77].

---

(75) انظر، حول مشكل معين، وهو مشكل تعدد الأزمنة الاجتماعية في العمل المميز لغيرفيتش: Georges Gurvitch, *La Multiplicité de temps sociaux*, les cours de Sorbonne (Paris: Centre de documentation universitaire, 1958), p. 38.

(76) انظر أيضاً: Jean Lhomme, *Economie et histoire*, travaux de droit, d'économie, de sociologie et de sciences politiques; 55 (Genève: Droz, 1967).

(77) انظر: Georges Duby, «Histoire sociale et idéologie des sociétés,» dans: Le Goff et Nora, dirs., *Faire de l'histoire*.

أدت الأزمة الحالية لعلم الجغرافيا إلى فتور في العلاقات بين التاريخ والجغرافيا، وقد رأينا الدور الأساسي الذي أدته الجغرافيا في فكر مارك بلوخ ولوسيان فافر وفرناند بروديل و**الحوليات** إلى عهد قريب.

يمكن أن نأمل في عودة الحرارة إلى العلاقات بين التاريخ والجغرافيا مع بوادر تطور في علم الجغرافيا يظهر من خلال إشكاليات جديدة تتعلق بالمجال، وإدماج أفضل لعنصر الديمومة ـ معنى ذلك إدماج التاريخ ـ عند دراسة الظواهر المجالية.

أما في مستوى العلاقات مع الألسنية وعلم النفس، فلا تزال العلاقات باردة، إذ أدّى تطور علم النفس في اتصاله الوثيق بعلم الاجتماع أكثر من التاريخ، وتطور علم النفس العلمي المرتبط أكثر بعلوم الطبيعة منه بعلوم الإنسان، إلى تواصل التجاهل بين التاريخ وعلم النفس، هذا إذا لم يؤد إلى تعميقه. وزاد الهوّة عمقاً بين العلمين تحول تاريخ علم النفس الجماعي إلى مفهوم «الذهنيات»، وهو مفهوم قليل الفائدة بالنسبة إلى علم النفس. وكذلك الألسنية الحديثة بتوجهاتها البنيوية لم تقترب من **التاريخ الجديد** على رغم اهتمام المؤرخين بأعمال إميل بانفنيست (Emile Benvéniste) أو بأعمال السيميائيين والسيميولوجيين الذين احتلوا مكاناً متميزاً داخل القسم السادس من المدرسة التطبيقية للدراسات العليا التي أصبحت منذ سنة 1975 مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية.

يبقى أن نشير إلى ثلاثة تطورات هامة، ولكن نتائجها ما زالت محدودة:

ـ **التطور الأول**، ويهم حقل العلوم الإنسانية ذاتها، وهو الاهتمام بالطب النفسي. وقد ترتب عن ذلك بروز تاريخ الطب ـ

النفسي، وهو أكثر تطوراً في البلاد الإنجلوسكسونية مما هو عليه الحال في فرنسا، وإن وجدت بعض المسالك المستحدثة والواعدة التي فتحها كل من ميشيل دو سارتو وآلان بزنسون[78]. ولكن هذه الدراسات قد توقفت نسبياً نتيجة لصعوبة انتقال علم النفس الطبي، علمياً، من الاهتمام بالفرد إلى الاهتمام بالمجموعة، واحتراز المؤرخين على آراء يونغ (Jung) على رغم أنها مهيأة لتلتقي مع اهتمامات المؤرخين أو بعضهم على الأقل، مثل: ألفونس ديبرون[79] (Alphonse Dupront) ولويجي أوريجيما[80] (Luigi Aurigemma).

ـ **التطور الثاني**، وهو التقاء علم التاريخ مع العلوم الصحيحة، وخصوصاً مع الرياضيات. لقد ولد علم الرياضيات الاجتماعي، وكانت أهميته واضحة بالنسبة إلى علم الاجتماع وعلم النفس والألسنية والجغرافيا، لكنها ليست كذلك بالنسبة إلى التاريخ.

ـ **التطور الثالث**، وهو التمشي الواعد للتقليل من الحواجز، إن لم نقل إلغاءها، بين العلوم الإنسانية وأولها التاريخ، وعلوم الحياة، إذ تبدو بعض التوجهات الإيجابية في هذا المضمار من خلال رغبة المؤرخين في بناء تاريخ كلي للإنسان بجسده وبمكوناته الفيزيولوجية ضمن أمد اجتماعي، وحرص بعض كبار علماء البيولوجيا على جعل

---

(78) Alain Besançon, *L'Histoire psychanalytique: Une Anthologie, recueil de textes présentés et commentés*, le savoir historique; 7 (Paris; La Haye: Mouton, [1974]).

(79) Alphonse Dupront, «Problèmes et méthodes d'une histoire de la psychologie collective,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 16 (1961).

(80) Luigi Aurigemma, *Le Signe zodiacal du scorpion dans les traditions occidentales: De L'Antiquité gréco-latine à la renaissance*, civilisations et sociétés; 54 (Paris; La Haye: Mouton, 1976).

تاريخ علمهم أداة بحث انطلاقاً لا من الخارج وإنما من الداخل[81]، وحرصهم على توسيع دائرة البحث لتشمل محيط الإنسان باعتماد التاريخ والجغرافيا والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والديمغرافيا مع علم البيولوجيا الأصلي[82]. ولا يتوقع من كل هذا إلا الخير[83]. ويبقى هنا دور **التاريخ الجديد** محدداً.

تاريخ «الذهنيات»

أسس لوسيان فافر ومارك بلوخ، نتيجة لاهتمامهما بالنفسيات الجماعية وبالظواهر الروحية في التاريخ، المقاربات لتاريخ جديد، هو تاريخ «الذهنيات». وقد استكشف لوسيان فافر خاصيتين فقط من هذا الحقل الجديد، ولكنهما على غاية من الأهمية، هما مفهوم «الآلة الذهنية» ومفهوم «الإحساس»[84]. لقد وجّه لوسيان فافر المؤرخ الإيطالي الشاب ألبرتو تنينتي (Alberto Tenenti) نحو موضوع «الإحساس أمام الموت». وفتح هذا المؤرخ بعمله: **الحياة والموت من خلال الفن في القرن الخامس عشر**[85]، المجال أمام موضوع

---

(81) François Jacob, *La Logique du vivant: Une Histoire de l'hérédité*, bibliothèque des sciences humaines ([Paris]: Gallimard, [1970]).

(82) Jacques Ruffié, *De La Biologie à la culture*, nouvelle bibliothèque scientifique (Paris: Flammarion, 1976).

(83) انظر المؤلف الجماعي الذي نشره مركز روايومون (Royaumon): *L'Unité de l'homme: Invariants biologiques et universeaux culturels: Essais et discussions*, présentés et commentés par Edgar Morin et Massimo Piattelli-Palmarini (Paris: Editions du seuil, [1974]).

(84) Lucien Febvre, «Manifeste des annales nouvelles,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 1 (1946).

(85) Alberto Tenenti, *La Vie et la mort à travers l'art du XVe siècle* (Paris: Armand Colin, 1952).

سيتبين ثراءه، وسيكون حافزاً لأعمال أساسية مثل أعمال ميشيل فوفيل[86] وفيليب أرياس[87] وبيار شونو[88] (Pièrre Chaunu).

وقد حاول بعد وفاة لوسيان فافر كثير من المؤرخين الذين اقتدوا به القيام ببحوث في «تاريخ الذهنيات» وتحديد مفهوم «تاريخ الذهنيات الجديد»، من أمثال: جورج دوبي[89]، وروبير ماندرو[90] (Robert Mandrou) وجاك لوغوف[91]. وبيّن فيليب أرياس وروجيه شارتييه في هذا **القاموس** الأهمية الأساسية لهذا الحقل بالنسبة إلى **التاريخ الجديد** الحديث العهد. لذلك سأكتفي هنا بالتذكير بأن مفهوم «الذهنيات»، وهو مفهوم فضفاض وغامض، ومحيّر في بعض الأحيان كغيره من المفاهيم الفضفاضة الأخرى، هو المفهوم الذي أحدث أكثر من غيره حركية كبيرة في مجال التاريخ الحديث، وخلق التوازن المنشود أمام التاريخ الاقتصادي. لقد أعطت الذهنيات متنفساً للتاريخ.

---

(86) Michel Vovelle: *Piété baroque et déchristianisation en Provence au XVIIIe siècle: Attitudes devant la mort d'après les clauses des testaments*, civilisations et mentalités ([Paris]: Plon, 1973), et *Mourir autrefois: Attitudes collectives devant la mort aux XVIIe-XVIIIe siècles*, collection archives; 53 ([Paris]: Gallimard; Julliard, 1974).

(87) Philippe Ariès, *L'Homme devant la mort*, l'univers historique (Paris: Editions du seuil, 1977).

(88) Pierre Chaunu, *La Mort à Paris: XVIe, XVIIe et XVIIIe siècles* (Paris: Fayard, 1978).

(89) Georges Duby, «Histoire des mentalités,» dans: Charles Samaran, ed., *L'Histoire et ses méthodes*, encyclopédie de la pléiade; 11 ([Paris: Gallimard, 1961]).

(90) Robert Mandrou, «L'Histoire des mentalités,» dans: *Encyclopaedia universalis* (Paris: Encyclopaedia universalis France, 1968), vol. 8.

(91) Jacques Le Goff, «Les Mentalités, une histoire ambigüe,» dans: Le Goff et Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, vol. 3.

التاريخ الكمي والثورة الوثائقية

تعامل المؤرخ الاقتصادي مع الأرقام، واعتمد الإحصائيات مبكراً، ولكن منذ عشرين سنة تقريباً التفت كل المؤرخين الذين بدأوا يقومون بعمليات حسابية إلى الحاسوب. ونتج من ذلك حدوث ثورة من نتائجها: التاريخ الكمي. حتى إن إمانويل لو روا لادوري استنبط مازحاً صفة مبالغ فيها، وهي أن المؤرخ سيكون مستقبلاً مبرمج حاسوب أو لا يكون.

الرغبة في الاهتمام بكل الناس

أتت هذه الثورة من امتداد حقل التاريخ الكمي لكل ما يمكن عدّه، خاصة امتداده إلى التاريخ الديمغرافي والتاريخ الثقافي. لقد تم رصد العائلات والمجنّدين والإنتاج الأدبي في جذاذات مثقوبة لمعالجتها بالحاسوب. ويعتبر فرنسوا فوريه[92] وبيار شونو من رواد **التاريخ الجديد**، ويختص الثاني بكونه مبدع التاريخ الكمي[93]، الذي يشمل، على غرار جداول الأسعار بالنسبة إلى التاريخ الاقتصادي، جداول لكل ما يمكن عدّه على أمد بعيد، وقد بيّنا بامتياز ما يمكن أن يقدمه التاريخ الكمي باعتماده على جملة من المعطيات الصلبة والمرقمة لـ **التاريخ الجديد** وللتاريخ أساساً، وبيّنا كذلك محدودية هذا المنهج. وكان مارك بلوخ قد بيّن مخاطر «التشاؤم من العدد» .

ويظل **التاريخ الجديد** في أغلبه تاريخاً تحليلياً نوعياً؛ وإن

---

(92) انظر: François Furet, «Le Quantitatif en histoire,» dans: Le Goff et Nora, dirs., Ibid.

(93) انظر: Pierre Chaunu, «Un Nouveau champs pour l'histoire sérielle, le quantitatif au troisième niveau,» dans: *Méthologie de l'histoire et des sciences humaines*, t. II.

خصوبة التاريخ الكمي تبقى رهينة جودة مشروع المؤرخ، وإن العمل الأساسي للمؤرخ يبدأ عندما يعطي الحاسوب نتائج عمله. لذلك يجب الحذر، وخاصة أن التاريخ الكمي يندرج ضمن ثورة وثائقية حقيقية كان قد سلط عليها الضوء جان غلينيسون (Jean Glénisson)، من دون أن ننسى أن هذه الثورة الوثائقية ليست واضحة بما فيه الكفاية، وهي ليست عديمة المخاطر[94]، فالوثيقة الأساسية والوحدة الخبرية هي اليوم المعطى، وليست الحدث التاريخي. والمدوّنة تتألف من تلك المعطيات التي يتطلبها عمل الحاسوب. إن أحسن المصادر هي تلك التي توفر مجموعة من المعطيات الكثيفة، وأحسن مثال لها هي دفاتر المقاطعات الكنسية. ويأتي هذا الزخم الوثائقي من رغبة المؤرخ في الاهتمام بكل الناس من دون استثناء. ولكن المؤرخ الجديد يجب ألا يطلب من الحاسوب أكثر مما يمكن أن يعطي بمطالبته بعد ما لا يمكن عدّه نظراً إلى نوعية الوثائق أو لنوعية الظاهرة موضوع البحث، كما يجب عليه ألا يهمل ما هو غير قابل للتكميم أو ينتظر من الحاسوب أن «يكتب التاريخ» ويحقق بذلك الحلم القديم للمؤرخ الوضعي الذي ينتظر متفرجاً الإنتاج «الموضوعي» للتاريخ بواسطة الوثائق.

التاريخ والزمن الراهن

كان لوسيان فافر ومارك بلوخ منبهرين بالحاضر، وذلك على رغم كونهما مختصين، الأول في القرن السادس عشر، والثاني في التاريخ الوسيط. كان مارك بلوخ يعتبر امتداد الحقل التاريخي إلى معرفة الزمن الراهن جرأة ضرورية. ونسبة المقالات التي تتعلق بالزمن

---

(94) انظر: Jacques Le Goff, «Documento/ Monumento,» dans: *Enciclopedia Einaudi*, t. IV.

الراهن على صفحات مجلة **حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي** هي كبيرة، وذلك على رغم أن أهم المكتسبات التي حصلت في **التاريخ الجديد** هي تلك التي خصت التاريخ الوسيط والتاريخ الحديث. طبعاً، توجد بعض الحالات الفريدة، سواء كانت فردية أو جماعية، خصت فترات تاريخية أخرى. وفي مجال التاريخ القديم - حيث إن التاريخ التقليدي المرتبط بالإنسانيات الكلاسيكية وبالإبحار العلمي التقليدي هو أيضاً لا يزال مؤثرا بقوة، وحيث إنه، على الرغم من تطور علم الآثار، لا يزال الوصول إلى معرفة الواقع اليومي للإنسان من الأمور المستصعبة، وحيث ضعف إمكانية اعتماد التاريخ الكمي، ما عدا في مجال الآثار - يمكن القول بأن مجموعة المؤرخين الفرنسيين الذين يبحثون في الأساطير اليونانية القديمة[95]، يعطون الدليل الواضح على تقدم **التاريخ الجديد**. ويمكن أن نذكر في مجال التاريخ المعاصر البحث النموذجي لموريس أغولون (Maurice Agulhon) الذي استنبط مفهوماً جديداً هو مفهوم: «الاجتماعوية»[96].

إلا أن اقتحام **التاريخ الجديد** مجال التاريخ المعاصر لا يزال محدوداً، ويشهد على ذلك ضعف حضور الفترة المعاصرة في مجلة **الحوليات** خلال السنوات الأخيرة. ولا يزال سحر التاريخ السردي والتاريخ السياسي كبيراً لدى مؤرخي هذه الحقبة. ويمكن القول بأن التاريخ الراهن ينجز بطريقة أحسن مما ينجزه المؤرخون المحترفون، من طرف علماء الاجتماع وعلماء السياسة وبعض الصحافيين البارزين. لقد تخلّت أني كريجيل (Annie Krigel)، وهي مؤرخة دقيقة وكاملة للظاهرة الشيوعية، عن صفتها كمؤرخة لتتقلد صفة

---

(95) M. Détienne, N. Loraux, J. - P. Vernant, P. Vidal Naquet.

(96) Maurice Agulhon, *Pénitents et francs-maçons de l'ancienne Provence*, l'histoire sans frontières (Paris: Fayard, 1968).

عالمة اجتماع. ولكن، وعلى رغم المحاولات الناجحة التي قام بها كل من جاك جوليار (Jacques Julliard) وبيار نورا وجاك أوزوف (Jacques Ozouf)، فلا يزال اقتحام **التاريخ الجديد** مجال التاريخ المعاصر من المهمات الأكيدة، في حين أن إمكانية القيام بأبحاث في التاريخ الكلي جلية، و«عودة الحدث»، كما حللها بيار نورا بذكاء، وهيمنة الأيديولوجيات التي تعتبر صيداً ثميناً لـ **التاريخ الجديد**، تمثل كلها حقلاً ثرياً للمؤرخ الجديد لإنجاز بحوث نموذجية.

جواب عن تساؤلاتنا

هناك ما هو أكثر. يجب على **التاريخ الجديد** أن يجيب على الأقل عن البعض من تساؤلات عصرنا. لقد صرّح لوسيان فافر منذ سنة 1946 مؤكداً: «إن صناعة التاريخ، معنى وأينما استطاع التاريخ، وهو الوحيد القادر على ذلك، تمكننا من العيش في ظل مشاعر مختلفة عن مشاعر الخوف في عالم يميزه عدم الاستقرار النهائي». وأزيد توضيحاً: «أينما استطاع التاريخ الجديد لأنه الأقدر». فهل هناك أفضل من **التاريخ الجديد** للإجابة عن تساؤلات الإنسان، الإنسان العادي، وتوفير ما يبحث عنه من المعلومات في عصر تتبدل فيه الذاكرة الجماعية ويتسارع فيه نسق الأحداث التاريخية، وحيث يرغب المرء في الفرار من أزمة يتم الماضي ومن الانبتات، ويبحث الناس بحماس عن هويتهم بتجميع الموروث وحفظه، وتكوين بنوك معلومات للماضي كما للحاضر، ويسعى الإنسان الخائف إلى التحكم في التاريخ خوفاً من أن يتجاوزه؟ ولأن هذا التاريخ يحضن الإنسان على مر العصور، وينيره حول الثوابت والمتغيرات، ويحقق له التوازن بين ما هو مادي وما هو روحي، وبين ما هو اقتصادي وما هو ذهني، فهو يمنحه الاختيار ولا يفرضه عليه. لقد أوكلت دائماً للتاريخ مهمة تأدية أكبر الأدوار الاجتماعية بمدلولها الواسع: في

عصرنا حيث يبدو هذا الدور ضرورياً أكثر من أي وقت مضى، يمكن لـ **التاريخ الجديد** أن يضطلع بهذه المهمة لو توفرت له الوسائل التي يحتاج اليها للبحث والنشر والتعليم في مختلف المستويات التعليمية.

التاريخ الجديد والماركسية

لم تعترض التجديد الكلي للتاريخ، الذي يمثله **التاريخ الجديد**، مشاكل جوهرية إلا مع الماركسية. ولا يعني ذلك وجود تضاد بين **التاريخ الجديد** والماركسية، وإنما الظروف التي تطور فيها **التاريخ الجديد** في فترة كان المؤرخون ينتسبون فيها بصراحة إلى الماركسية، ويمارسون تاريخاً ـ وإن كان هذا التاريخ يصارع الأسس الأيديولوجية للتاريخ الوضعي، فهو مع ذلك يتكيف مع مناهجه ـ حتّم على المؤرخين الجدد توضيح العلاقات بين **التاريخ الجديد** والماركسية. لقد بيّن بيار فيلار[97] (Pierre Vilar)، وهو الذي حرر مقالي «الماركسية» و«الأمة» في هذا **القاموس** أنه يمكن أن يكون المؤرخ تلميذاً لماركس ولوسيان فافر في الوقت نفسه. ويقدم غي بوا في هذا الكتاب رأيه كمؤرخ ماركسي اليوم. وتبيّن المنشورات الحديثة تطور موقف المؤرخين الماركسيين من هذه المسألة[98]. وسأكتفي بتبيان نقاط الالتقاء بين الماركسية **والتاريخ**

---

(97) Pierre Vilar, *La Catalogne dans l'Espagne moderne: Recherches sur les fondements économiques des structures nationales*, bibliothèque générale de l'école pratique des hautes études; 6ème section, 3 vols. (Paris: S. E. V. P. E. N., 1962), édition abrégée, science (Paris: Flammarion, 1977).

(98) خاصة التحقيق الذي قام به: *Aujourd'hui l'histoire: Enquête de la «nouvelle critique», (1968-1973)*, avec la collaboration de Jacques Berque [et al.]; [préface par A. Casanova et F. Hincker] (Paris: Editions sociales, 1974).

انظر أيضاً المؤلف الجماعي: *Ethnologie et histoire: Forces productives et* =

الجديد، وما يمكن أن يكون فيه اختلاف بينهما.

الماركسية نظرية للأمد الطويل

يعدّ ماركس، ومن العديد من الزوايا، واحداً من أقطاب **التاريخ الجديد** بطابعه الإشكالي والمتعدد الاختصاصات والمترسخ في الأمد الطويل والنظرة الشمولية. والتحقيب المبني على العبودية والفيودالية والرأسمالية الذي نادى به ماركس والماركسية، حتى وإن لم يكن مقبولاً على شكله هذا، فهو يعدّ نظرية للأمد الطويل. وحتى وإن بدت مفاهيم البنى التحتية والبنى الفوقية عاجزة على تصوير العلاقات المعقدة بين مختلف مستويات الواقع التاريخي، فهي تعتمد على فكرة البنية التي تعتبر توجّهاً جوهريا في **التاريخ الجديد**. وقد تلقى فكرة تقديم دور الجماهير في صنع التاريخ صدى لدى المؤرخ المهتم بالإنسان العادي ذي الموقع الاجتماعي الواضح. ولكن الأولوية الفجّة للعوامل الاقتصادية في تفسير التاريخ والنزوع إلى رصد الذهنيات في مستوى البنى الفوقية، في حين أن الذهنيات وإن لم يكن موقعها جوهرياً في مستوى السببية، فهي تحتل المركز في التاريخ الحديث، وكذلك الاعتقاد في تاريخ خطي يسير بحسب نموذج واحد للتطور، في حين أن **التاريخ الجديد** يؤكد على اختلافات التجارب التاريخية، وعلى ضرورة تعدد المقاربات؛ فكل هذه المشاكل تبيّن أن **التاريخ الجديد** قد ينظر إليه من وجهة النظر الماركسية الرسمية على أنه تحدّ. لذلك يجب على مؤرخي **التاريخ الجديد**، ماركسيين أو غير ماركسيين، تعميق هذه المكافحة. وهذه لمن مهام التاريخ في يومنا الحاضر.

---

problèmes de transition, [hommage à Charles Parain]; avec la collaboration de = Maurice Agulhon [et al.] (Paris: Editions sociales, 1975).

تقليد «مدرسة الحوليات» والجيل الجديد من المؤرخين

أعتقد أنه ليس من المفيد أن أعيد القول بأن **التاريخ الجديد** قد اشتد عوده على يدي فريق **الحوليات** وحول المجلة التي يصدرها. لا يمكن القول في الأمس ولا اليوم بأن بعض المؤرخين البارزين، والذين لا تربطهم علاقة بـ **الحوليات**، وربما لا يشعرون بالتعاطف معها، ليس لهم مكان الصدارة في **التاريخ الجديد**. أشير هنا بصورة خاصة إلى لويس شوفالييه (Louis Chevalier) الذي جدد تاريخ البنى الاجتماعية والتاريخ الاجتماعي بحسب تصور **التاريخ الجديد** بالمزاوجة بين التاريخ والديمغرافيا من خلال كتابه: **الطبقات الكادحة والطبقات الخطيرة في باريس خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر**[99].

ولكن يجب تحديد، ولو بعجالة، موقع **التاريخ الجديد** كما أراه اليوم، بالنسبة إلى التوجهات الكبرى لـ **حوليات** لوسيان فافر ومارك بلوخ، لتحسس المسافة التي قطعت، وكما توجّه به لوسيان فافر إلى المؤرخين الشبان من خلال تقديمه كتاب: **معارك من أجل التاريخ**[100].

الأنثروبولوجيا مخاطب متميز

لقد ربحت معارك هامة. واكتسب التاريخ الاقتصادي والاجتماعي حق الوجود وأصبح أساسياً. وتطور منهج التحقيقات وتطورت الأعمال الجماعية. وأصبح الانفتاح على العلوم الإنسانية

---

(99) Louis Chevalier, *Classes labourieuses et classes dangereuses à Paris pendant la première moitié du XIXe siècle*, civilisations et mentalités ([Paris]: Plon, [1958]).

(100) Febvre, *Combats pour l'histoire*.

الأخرى مطروحاً، على رغم بعض الصعوبات وخيبات الأمل. وأصبحت من القناعات التي يؤمن بها كثير من المؤرخين ضرورة الحفاظ على نظرة جديدة، والبحث عن إشكاليات جديدة وعن ميادين يكون فيها البحث التاريخي في الطليعة. ويبقى تحقيق تاريخ كلي ينجز بحسب إشكاليات معينة، وفي إطار التعاون الدولي من الأهداف المنشودة.

ولكن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في شكله الذي مارسته **الحوليات** في فترتها الأولى لم يعد اليوم من أولويات **التاريخ الجديد**، إذ أصبحت الأنثروبولوجيا المخاطب المتميز لـ **التاريخ الجديد**، بعدما كان حضورها محتشماً في تلك الفترة أمام الاقتصاد وعلم الاجتماع والجغرافيا. لم يعد الخوف من التاريخ السياسي من الهواجس، لأن مفهوم السياسة قد تبدل، والإشكاليات التي تتعلق بالسلطة قد فرضت نفسها على **التاريخ الجديد**[101]. وكذلك الحدث التاريخي قد بدا يعاد له الاعتبار على أسس جديدة، كما بيّن ذلك بيار نورا[102]. إن تاريخ العقليات والتمثلات الذي وضعت **الحوليات** خطوطه العريضة في فترتها الأولى أصبح من أهم نقاط القوة. أما التاريخ الكمي فهو من المستحدثات.

ما ينتظر «التاريخ الجديد» من الأعمال

يبدو لي أن التطورات المرتقبة والضرورية لـ **التاريخ الجديد** تنحصر في ثلاث نقاط:

---

(101) Jacques Le Goff, «Is Politics Still Backbone of History?,» in: Felix Gilbert and Stephen R. Graubard, eds., *Historical Studies Today* (New York: W. W. Norton, [1972]), pp. 335-337.

(102) Pierre Nora, «Le Retour de l'évènement,» dans: Le Goff et Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, vol. 1.

التأسيس لإبحار علمي جديد

لقد فرض التاريخ التقليدي نفسه، وخلف إرثاً ثميناً بفضل مناهجه وتقنياته. و**التاريخ الجديد** لم يزامن تجديد الإشكاليات بتجديد تقنيات الإبحار العلمي. وهذه المهمة يجب أن تشتمل على:

أ ـ **تصور جديد للوثيقة** يرافقه منهج جديد لنقد هذه الوثيقة. إن الوثيقة ليست بريئة، وهذا ليس ناتجاً فقط من اختيارات المؤرخ الذي يتحكم فيه عصره وبيئته جزئياً، فهي نتاج واع أو لا واع لمجتمعات الماضي التي ترغب في الوقت ذاته في فرض صورة هذا الماضي، أكثر من رغبتها في «قول الحقيقة». إن النقد التقليدي للنصوص الموضوعة يبقى غير مجد، وحتى مارك بلوخ لم يتجاوز ذلك في كتابه: **تمجيد التاريخ**. يجب تفكيك بنية الوثيقة للتعرف على ظروف إنتاجها، فمن كانت له القدرة في مجتمعات الماضي على تقديم الشهادات، والتي تحولت اليوم، بصورة إرادية أو لاإرادية، إلى وثائق تاريخية؟ يجب البحث عن ذلك من خلال «الوثيقة/ المعلم» كما اقترحها ميشيل فوكو في **حفريات المعرفة**(103). كما تجب الإحاطة بنقائص الوثيقة وصمت التاريخ وتفسير ذلك، وفي الوقت نفسه تركيز التاريخ على ما هو مليء بالأخبار كما على ما هو خلو منها.

ب ـ **إعادة النظر في مفهوم الزمن**، المادة الأساسية للتاريخ. هنا أيضاً يجب البحث عمن كان يتحكم في الزمن وفي قياسه، وفي استعماله. يجب تحطيم فكرة الزمن الواحد المتجانس والخطّي. يجب استنباط مفاهيم عملية لأزمنة متعددة لمجتمع تاريخي، على شاكلة الأزمنة الاجتماعية المتعددة التي حدّدها م. هالفاكس (M.

(103) Michel Foucault, *L'Archéologie du savoir*, bibliothèque des sciences humaines (Paris: Gallimard, 1969).

Halbwachs) وجورج غيرفيتش[104]. يجب إنشاء تسلسل زمني علمي جديد يحدّد تاريخ الظواهر بحسب مدة فاعليتها، وليس بزمن حدوثها. وهذا يصح للظواهر المادية والروحانية في الوقت ذاته. فكما يوجد تأريخ لمصادر الطاقة (الطاقة البشرية، والطاقة الحيوانية، والبخار، والكهرباء، والنفط . . . إلخ) يوجد تأريخ للمعتقدات (ظاهرة الاعتقاد في التطهر من الذنوب في الدنيا قبل الآخرة في المجتمعات المسيحية بدأت في نهاية القرن الثاني عشر، وانتهت كلياً مع مجمع الفاتيكان الثاني).

ج ـ **تعديل المناهج المجدية للمقارنة** التي لا تسمح إلا بمقارنة الأشباه. مثالاً على ذلك مسألة الفيودالية، إذ يجب تجنب تعريف واسع يضع تسميات على واقع متباعد في الزمان والمكان، ولا ينبثق عن أنظمة تاريخية متشابهة ـ فالفيوداليات الأفريقية المزعومة ليس لها في الواقع وجه شبه مع الفيودالية الأوروبية ما بين القرن التاسع والقرن العاشر (فهذه نفسها يجب النظر إليها في مراحلها المختلفة) ـ كما يجب عدم الاقتصار على مفهوم ضيق لا يسمح إلا بمقارنة الفيودالية الأوروبية بالفيودالية اليابانية.

التقدم نحو تاريخ كلي والمتخيّل

يجب أن يتم ذلك بالأخذ بعين الاعتبار كل الوثائق التي تركتها

---

(104) Maurice Halbwachs, *Les Cadres sociaux de la mémoire*, travaux de l'année sociologique (Paris: F. Alcan, 1925); Gurvitch, *La Multiplicité de temps sociaux*, et Jacques Le Goff, «Au moyen âge: Temps de l'église et temps du marchand,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 15, no. 3 (mai-juin 1960), repris dans: Jacques Le Goff, *Pour un autre moyen âge: Temps, travail et culture en occident: 18 essais*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, [1977]).

المجتمعات: يجب إدماج النص الأدبي والأثر الفني[105] في تفسير التاريخ من دون أن يقع التغافل، لا عن خصوصية مثل هذه الوثائق، ولا عن الأهداف الإنسانية من وراء إنتاجهما. وهذا يسمح بالقول إن بعداً جوهرياً لا يزال منقوصاً في جزء كبير من البحث التاريخي، وهو «المتخيل»، هذا الحلم الذي لو توصلنا إلى فك روابطه المعقّدة ببقية الواقع التاريخي لأدخلنا في أعماق المجتمعات. وفي هذا المضمار يجب أن توثق علاقات متميزة مع مركز دراسات المتخيل في مدينة شامبيري (Chambéry) حول جيلبار دوران (Gilbert Durand) المختص بالتاريخ الأدبي والألسنية. ولإنجاز مثل ذلك يجب على المؤرخ أن يختار مواضيع بحث تكون كما سميتها أنا وبيار توبار «البنى المجمعة»[106]. لقد ذكرنا «القرى السيادية»، وهو شكل طريف للسكن الريفي، تكوّن ما بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر[107]، كما ذكرنا مفهومي «العمل»، و«الحرب»[108] (انظر فيليب كونتامين Philippe

---

(105) انظر بالخصوص: Georges Duby: *Saint Bernard: L'Art cistercien*, les grands bâtisseurs; 1 (Paris: Arts et métiers graphiques, 1976), ou *Le Temps des cathédrales: L'Art et la société, 980-1420*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1976).

(106) Pierre Toubert et Jacques Le Goff, «Une Histoire totale du moyen âge est-elle possible?,» dans: *Actes du 100e congrès national des sociétés savantes, Paris, 1975, section de philosophie et d'histoire jusqu'à 1610*, [publié par le] secrétariat d'état aux universités, comités des travaux historiques et scientifiques (Paris: Bibliothèque nationale, 1977), t. I, pp. 37-38.

(107) Pierre Toubert, *Les Structures du latium médiéval: Le Latium méridional et la Sabrine du IXe siècle à la fin du XIIe siècle*, bibliothèque des écoles françaises d'Athènes et de Rome; 221, préface d'Ottorino Bertolini (Rome: Ecole française de Rome, 1973).

(108) Philippe Contamine, *Guerre, état et société à la fin du moyen âge:* =

Contamine): الهروب من الريف[109]، الهامشية[110]، إلخ...

الاهتمام بالأفكار والنظريات

عندما افتتح لوسيان فافر درسه في معهد فرنسا سنة 1933، كان يتمنى أن يقال عنه: «كان له اهتمام بالأفكار وبالنظريات؛ الأفكار، لأن العلوم لا تتقدم إلا بقوة الفكر الخلاقة والطريفة؛ والنظريات، لأننا نعرف جيداً أنها لا تستطيع، لا سبر أغوار التعقيدات اللامتناهية للظواهر الطبيعية، ولا عقباتها المتلاحقة، وإنما في رغبتها النهمة في توسيع أفق الفكر الإنساني تتخطى العلوم هذه العقبات الواحدة تلو الأخرى»[111].

حاول **التاريخ الجديد** إلى هذا الحدّ، تجنب خطرين: أن يكون تعميمياً من ناحية، وأن يكون تجريبياً من ناحية أخرى، كما هو الشأن عند المدرسة الوضعية (التي تعتقد أنها موضوعية لأنها لا تعتمد على نظرية، ولكنها كانت في الغالب من دون أفكار). ولكن يجب أن نعترف، أنه على رغم تصريحات لوسيان فافر التي تؤكد على تعدد المقاربات، فإن مؤرخي **التاريخ الجديد** لم يهملوا منها التنظير. وهذا التنظير ليس تنظيراً دغمائياً، وإنما هو شرح لنظريات ضمنية، كثيراً ما يتخذها المؤرخ أرضية لبحثه من دون أن يصرح

Etudes sur les armées des rois de France, 1337-1494, civilisations et sociétés (Paris; = La Haye: Mouton, [1972]).

(109) Wilhelm Abel, *Die Wüstungen des ausgehenden Mittelalters*, Quellen und Forschungen zur Agrargeschichte; Bd. 1 (Jena: G. Fischer, 1943), 3. neubearb. Aufl. (Stuttgart: G. Verlag, 1976).

(110) Geremek, *Les Marginaux parisiens aux XIVe et XVe siècles = Ludzie marginesu w średniowiecznym Paryzu, XIV-XV wiek*.

(111) Febvre, *Combats pour l'histoire*, p. 17.

بذلك، شأنه في ذلك شأن كل العلماء، في حين من الأجدر به أن يكون واعياً وشاعراً بواجب التصريح بها لغيره. وما أتمناه هو أن المؤرخ إذا بقي بعيداً عن أنظمة التفسير المتحجرة، فعليه أن يعترف بوجود أنظمة تاريخية عليه أن يهتم بتحليل بناها وتغيراتها.

مستقبل التاريخ

يمكن أن نتساءل في النهاية عن مصير التاريخ غداً أو بعد غد. لقد تساءل مارك بلوخ كغيره التساؤل نفسه: «لا يوجد إذن إلا علم الإنسان في الزمن، وهو بلا شك في حاجة دائمة إلى الربط بين دراسة الأموات ودراسة الأحياء. بماذا يمكن أن نسميه؟ (. . .) يبدو لي أن التسمية القديمة «التاريخ» هي الأكثر تفهماً والأقل إقصاء، والأكثر اشتحاناً بذكريات مؤثرة لمجهود عريق»(112).

ومن دون أن ندخل عالم الغيب، يمكن أن نتصور ثلاث فرضيات:

ـ إما أن يواصل التاريخ انبثاثه في بقية العلوم الإنسانية الأخرى، ويبتلعها ليكون «مداً تاريخياً»، بوصفه علماً شمولياً لدراسة الإنسان، أي دراسة الإنسانية في الزمن.

ـ وإما أن يقع الالتحام بين العلوم الإنسانية الثلاثة المتقاربة: التاريخ والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع. وأمام هذه الفرضية، قد يسمي بول فاين هذا العلم الجديد بـ «التاريخ السوسيولوجي» وإن أحبذ تسميته بـ «الأنثروبولوجيا التاريخية».

ـ وإما أن يفقد التاريخ حدوده ويتوقف عن مغازلة العلوم

---

(112) March Bloch, dans: Febvre, *Combats pour l'histoire*, p. 15.

الإنسانية الأخرى، فيتمترس في حقل جديد ويقوم بقطيعة إيبستيمولوجية جديدة. وأعتقد أن ميشيل فوفيل، كما تحدث في هذا الكتاب، سيبحث عن معناه في جدلية الأمد القصير والأمد الطويل.

وكل ما يمكن تمنيه في كل الحالات هو أن تستطيع العلوم التاريخية تجنب إغراءات الفلسفة التاريخية، وتتخلى عن جاذبية حروف التفخيم (Majuscules)، وتحدد مجالها أكثر بالنسبة إلى التاريخ الذي عاشه الناس. ويجب أن تتواصل التطورات الهامة لتاريخ التاريخ وتساعد على ذلك.

ملاحظات تكميلية (1988)

مثلت بلورة التصورات الجديدة للمجال والزمن وعلاقاتهما بالتاريخ وموقعهما في تجديد المنهجية التاريخية محور بحوث المركز الدولي في بلترام لتاريخ المجال والزمان (Centro Internazionale A. Beltrame di Storia dello Spazio e del Tempo) الموجود في بروجين (Brugine) في منطقة بادو (Prode Padoue) والذي يصدر نشرية خاصة (*Bollettino*) منذ 1983.

لقد أدى علم الخرائط الذي تم توسيعه في اتجاه منظومة لتمثيل المجال إلى أعمال منهجية هامة وتطبيقية ساعدت **التاريخ الجديد** على التعبير عن نفسه من خلال الرسوم. وهذا التجديد هو من انجاز جاك برتان وتلاميذه.

Jacques Bertin, *La Graphique et le traitement graphique de l'information*, nouvelle bibliothèque scientifique, avec la collaboration de Serge Bonon [et al.] (Paris: Flammarion, 1977).

Serge Bonin, «Graphique,» dans: André Burguière, dir., *Dictionnaire des sciences historiques* (Paris: Presses universitaires de France, 1986), pp. 306-311.

نموذج لعمل أنجز وفق روح علم الخرائط الجديد:

Serge Bonin et Claude Langlois, dirs., *Atlas de la révolution française*, librairie du bicentenaire de la révolution française, 11 vols. (Paris: Editions de l'école des hautes études en sciences sociales, 1987), vol. 1: *Routes et communications*, direction scientifique Guy Arbellot et Bernard Lepetit; conception graphique Jacques Bertrand.

من أجل تاريخ شمولي للزمن والأزمنة:

Krzysztof Pomian, *L'Ordre du temps*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1984).

تشهد الأجزاء الثلاثة (التي تعد مقدمة **لتاريخ فرنسا** والذي بقي للأسف غير مكتمل) التي نشرت بعد وفاة صاحبها فرناند بروديل (توفي في ديسمبر 1985)؛ على التجذر العميق الذي يعتبر خطأً تقليدياً للتاريخ الجديد بفرنسا.

Fernand Braudel, *L'Identité de la France*, 2 vols. (Paris: Arthaud; Flammarion, 1986), vol. 1: *Espace et histoire*, vol. 2: *Les Hommes et les choses*.

حول علاقات **التاريخ الجديد** بالأدب:

Sabrine Jöckel, *«Nouvelle histoire» und Literaturwissenschaft*, Romanistik Neue Folge; 1 (Rheinfelden: Schâuble Verlag, 1985).

Sur les rapports de l'histoire et des sciences, outre l'article ancien, mais toujours essentiel de:

Krzysztof Pomian, «L'Histoire de la science et l'histoire de l'histoire,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 30, no. 5 (septembre-octobre 1975), pp. 935-952.

ما صدر أخيراً:

Pietro Redondi, ed., *Science: The Renaissance of a History: Proceedings of the International Conference Alexandre Koyré. Paris, collège de France, 10-14 June 1986* (London: Harwood Academic Publ., 1987), numéro spécial hors série de: *History*

and Technology, vol. 4, nos. 1-4 (1987). A la direction des «*Annales E. S. C.*», à André Burguière, Marc Ferro, Jacques Le Goff, Emmanuel Le Roy Ladurie et Jacques Revel, sont venus se joindre Lucette Valensi et Bernard Lepetit.

حول موقع مفاهيم غيزو التاريخية ضمن أفكاره وعمله، انظر:

Pierre Rosanvallon, *Le Moment Guizot*, bibliothèque des sciences humaines ([Paris]: Gallimard, 1985).

حول ميشليه وموقع المرأة في التاريخ، انظر:

Thérèse Moreau, *Le Sang de l'histoire: Michelet, l'histoire et l'idée de la femme au XIXe siècle*, nouvelle bibliothèque scientifique (Paris: Flammarion, 1982).

من بين المواضيع التي أصبحت موضة بفعل **التاريخ الجديد**، أعطي الجسد والجنس دراسات قيّمة منها:

Alain Corbin, *Le Miasme et la jonquille: L'Odorat et l'imaginaire social XVIIIe-XIXe siècles*, collection historique (Paris: Aubier Montaigne, 1982).

Marie-Christine Pouchelle, *Corps et chirurgie à l'apogée du moyen âge: Savoir et imaginaire du corps chez Henri de Mondeville, chirurgien de Philippe Le Bell*, nouvelle bibliothèque scientifique (Paris: Flammarion, 1983).

Aline Rousselle, *Porneia: De La Maîtrise du corps à la privation sensorielle, IIe-IVe siècles de l'ère chrétienne*, les chemins de l'histoire (Paris: Presses universitaires de France, 1983).

Odile Arnold, *Le Corps et l'âme: La Vie des réligieuses au XIXe siècle*, l'univers historique, préface de Jean-Pierre Peter (Paris: Editions du seuil, 1984).

Georges Vigarello, *Le Propre et le sale: L'Hygiène du corps depuis le moyen âge*, l'univers historique (Paris: Editions du seuil, 1985).

Danielle Jacquart et Claude Thomasset, *Sexualité et savoir médical au moyen âge*, les chemins de l'histoire (Paris: Presses universitaires de France, 1985).

Giulia Sissa, *Le Corps virginal: La Virginité feminine en Grèce ancienne*, études de psychologie et de philosophie; 22, préface

de Nicole Loraux; dessins de François Lissarrague (Paris: Vrin, 1987).

يمكن أن نشير في مجال تبسيط التاريخ إلى المقالات التي نشرت في العددين الخاصين لمجلة **التاريخ** (*L'Histoire*):

Georges Duby, ed., «L'Amour et la sexualité,» *L'Histoire*, numéro spécial, no. 63 (janvier 1984).

Jacques Le Goff et Jean Charles Sournia, eds., *Les Maladies ont une histoire* (Paris: L'Histoire; Editions du seuil, 1985).

لقد ألهم تصور مجدد لتاريخ الأمراض الكتاب الكبير لميركو د. غرميك:

Mirko D. Grmek, *Les Maladies à l'aube de la civilisation occidentale: Recherches sur la réalité pathologique dans le monde grec préhistorique, archaïque et classique*, médecine et sociétés (Paris: Payot, 1983).

ترجم العمل المتميز لإرنست كانتوروفيتز (E. Kantorowicz) إلى الفرنسية سنة 1987: Ernst Kantorowitz, *L'Empereur Frédéric II*, bibliothèque des histoires (Paris: Gallimard, 1987).

تعددت الدراسات المتعلقة بالحركات، نذكر منها العدد الخاص لمجلة *Gestures*:

Jean Claude Schmitt, «Gestures,» *History and Anthropology*, vol. 1, no. 1 (nov. 1984).

حول تغيرات مواقف الإنسان من الصورة بوصفها وثيقة تاريخية، انظر:

Roger Chartier, «Image,» dans: André Burguière, dir., *Dictionnaire des sciences historiques* (Paris: Presses universitaires de France, 1986), pp. 345-347, et *Image et histoire: Actes du colloque Paris-Censier, mai 1986*, collection histoire au présent, [organisé par l'association histoire au présent] (Paris: Publisud, 1987).

أثمر تاريخ الذهنيات كثيراً، وهو واحد من نجاحات **التاريخ الجديد** الذي انطلق من مفهوم وقع الإفراط في استعماله أحياناً. ويمكن أن نشير من الناحية المنهجية إلى مجموع المقالات المهداة إلى واحد من رواد «تاريخ الذهنيات»، وهو روبير ماندرو الذي قضى سنة 1985:

Histoire sociale, sensibilités collectives et mentalités: Mélanges Robert Mandrou (Paris: Presses universitaires de France, 1985),

انظر بالخصوص شهادة جورج دوبي: Georges Duby, «La Rencontre avec Robert Mandrou et l'élaboration de la notion d'histoire des mentalités,» pp. 33-35.

وقد بيّن ميشيل فوفيل كيف يمكن أن يكون مؤرخ متأثر بالماركسية **والتاريخ الجديد**، «مؤرخاً للذهنيات بشرط أن يقوم ببعض التمييز، وأن يثبت تاريخ الذهنيات بقوة في التاريخ الاجتماعي:

Michel Vovelle. *Idéologie et mentalités*, fondations (Paris: F. Maspero, 1982), et *Iconographie et histoire des mentalités* (Paris: Centre national de la recherche scientifique, 1979).

حول تاريخ السلوكيات المرتبط بتاريخ الذهنيات، انظر: أوغست نيتشكي (A. Nitschke) الذي عنوان الفصل الأول من كتابه: «أنماط السلوك الناتجة من ذهنية الجماعة»، انظر:

August Nitschke, *Historische Verhaltensforschung: Analysen gesellschaftlicher Verhaltensweissen: ein Arbeitsbuch*, Uni-Taschenbücher; 1153 (Stuttgart: Ulmer, 1981).

بالنسبة إلى تاريخ الهامشيين يمكن أن نضيف علاوة على الملحق البيليوغرافي لجان كلود شميت الكتاب الكبير الذي صدر حديثاً لبرونيسلاف غيريميك:

Bronislav Geremek, *La Potence ou la pitié: L'Europe et les pauvres du moyen âge à nos jours*, bibliothèque des histoires, trad. du [ms.] polonaise par Joanna Arnold-Moricet ([Paris]: Gallimard, 1987).

Bronislav Baczko, *Lumières de l'utopie*, critique de la politique (Paris: Payot, 1978), (avec une réflexion méthodologique sur «imaginaire» et «utopique»).

Gilbert Dagron, *Constantinople imaginaire: Etudes sur le recueil des Patria*, bibliothèque byzantine. Etudes; 8 (Paris: Presses universitaires de France, 1984).

Jacques Le Goff, *L'Imaginaire médiéval: Essais*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1985).

مع مقدمة منهجية حول مفهوم المتخيل في اتجاه مقال أ. باتلاجين نفسه الذي أعيد نشره ضمن هذا الكتاب).

Serge Gruzinski, *La Colonisation de l'imaginaire: Sociétés indigènes et occidentalisation dans le Mexique espagnol, XVIe-XVIIIe siècles*, bibliothèque de l'histoire ([Paris]: Gallimard, 1988).

حول ازدهار كتابة التاريخ عبر التاريخ والتي تأخذ بعين الاعتبار لا فقط ما كتبه المؤرخون بالمعنى الدقيق، وإنما كل ما يعبّر عن مظاهر الذاكرة الجماعية، يمكن أن نحتفظ بالعناوين التالية:

François Hartog, *Le Miroir d'Hérodote: Essai sur la représentation de l'autre*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1980).

Guiseppe Galasso, *L'Italia come problema storiografico*, storia d'Italia (Torino: UTET, [1981]).

Colette Beaune, *Naissance de la nation France*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1985).

من الممكن أن يكون المشروع الكبير الذي هو في طور الإنجاز، والذي بعثه وأشرف عليه بيار نورا. Pierre Nora, dir., *Les Lieux de mémoire*, bibliothèque illustrée des histoires, 3 vols. (Paris: Gallimard, 1986), vol. 1: *La République*, vol. 2: *La Nation*, vol. 3: *Les France* (à paraître),

فاصلاً في تاريخ الكتابة التاريخية الفرنسية، فهو يعبّر عن توارد مختلف تيارات الكتابة التاريخية الفرنسية المعاصرة ضمن إشكالية مستوحاة من **التاريخ الجديد**.

أهم مقالات جاك لوغوف الصادرة ضمن *L'Enciclopedia Einaudi* de 1977 à 1982 فقد وقع جمعها في: Jacques Le Goff: *Storia e memoria* (Torino: Einaudi, 1986)

ونشرها بالفرنسية في كتاب: *Histoire et mémoire*, coll. «Folio». Histoire; 20 ([Paris]: Gallimard, 1988).

التاريخ والأمد الطويل

ميشيل فوفيل(*)

عندما كتب فرناند بروديل سنة 1958 مقاله الشهير حول «الأمد الطويل»، كان ذلك في تقليد مجلة **الحوليات** عبارة عن بيان أو إعلان مبادئ. لم تكن هناك مراجع متوفرة في هذا المجال، وإذا كان كاتب المقال قد اعتمد على تجربته الخاصة من خلال كتابه: **المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني**[1] الذي يعدّ برهنة نموذجية على تتبّع مظاهر التواصل في الزمان والمكان، وإذا نظرنا إلى مارك بلوخ بعمله: **الخصائص المميزة للتاريخ الريفي الفرنسي**[2] أو إلى إرنست لابروس في كتابه: **لمحة عن تطور الأجور والأسعار**

(*) ولد ميشيل فوفيل سنة 1933، وهو مبرز في التاريخ. أستاذ كرسي تاريخ الثورة الفرنسية بالسوربون، جامعة باريس الأولى. مدير مركز تاريخ الثورة. وهو مختص في التاريخ الاجتماعي وتاريخ الذهنيات في القرن الثامن عشر وفي عصر الثورة الفرنسية. وقد نشر العديد من الكتب والمقالات.

(1) Fernand Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, 2 vols., 3ème éd. (Paris: Armand Colin, 1976).

(2) Ernest Labrousse, *Esquisse du movement des prix et des revenus en France au XVIIIe siècle*, collection scientifique d'économie politique; III, 2 vols., préface de Henri Sée et de Roger Picard (Paris: Dalloz, 1933).

في باريس في القرن الثامن عشر، فإن الدراسات الجيدة لم تكن تتجاوز أصابع اليد الواحدة، ولو أن عمل بيار شونو: **إشبيلية والمحيط الأطلسي ما بين 1504 و 1650**[(3)]، كان بصدد النشر. وفي السنوات اللاحقة مباشرة تزايد عدد المونوغرافيات التي انخرطت في الأمد الطويل لقرن من الزمن أو أكثر ـ وليسمح لي أن أضم إليها كتاب: **البوفيزيس** لبيار غوبار (1960)، و**منطقة البروفانس** تأليف ر. بايهريل (R. Baehrel) وأ. باراتييه (A. Baratier) (1961) ـ قبل أن يتضاعف عددها في ما بعد، وقبل أن يصبح مفهوم الزمن الطويل نهماً، إذ غطى عند إ. لو روا لادوري أربعة قرون من الحياة الاجتماعية الشاملة لفلاحي منطقة اللانغدوك (Languedoc) (من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر).

ليس من باب التساهل أن ننطلق من محاولة بروديل للتساؤل بعد عشرين سنة عن مآل الزمن الطويل، الذي كان يعدّ سبقاً في الستينات، منتصراً تارة وعادياً تارة أخرى، ومعترضاً عليه في بعض الأحيان، كما هو الشأن اليوم (1978). ولن نوفي القول حقه عندما نقول بأن بروديل كان يصارع على جبهتين: داخل التاريخ وخارجه، ويقرع الحديد على ثلاث أو أربع جبهات أخرى على الأقل، ففي الحقل التاريخي كان يثبت منهجه بالاعتماد على ماض قريب، يبدو بالنسبة إلينا بعيداً، فهو يخص التاريخ التاريخاني أو تاريخ الأحداث، وهو الذي كان قد بدّده الزعماء الأوائل لـ **الحوليات**، وكان أيضاً «يحقر من شأن الحدث المتفجر، والخبر المدوّي. . .الذي يسدّ

(3) Pierre Chaunu et Huguette Chaunu, *Séville et l'atlantique, 1504-1650*, école pratique des hautes études. 6. section. Centre de recherches historiques. Ports, routes, traffics; 6, 8 vols., préface de Lucien Febvre (Paris: Armand Colin; S. E. V. P. E. M., 1955-1959).

دخانه المفرط ضمائر المعاصرين..». هذا الحدث الذي أصبح في آخر مراحل تحوله بالنسبة إلى بروديل «الزمن القصير»، وهو «أكثر الأزمنة تقلباً ومغالطة»، هيمن على التاريخ السياسي طيلة المائة سنة الماضية. ولكن الانتصارات الجديدة التي حققها التاريخ الاقتصادي، والتي سجلها بروديل بارتياح مشوب بالريبة، لا تعني نهاية تاريخ الحدث. فهناك توجس، من خلال «عرض الظرفيات والدورات وفي أزمة النصف قرن» كما يراها كوندراتياف[4] (Kondratieff) مخافة بروز تاريخ حدثي جديد يكون فيه «تاريخ اقتصادي محزن ومنحصر في المدى القصير»، وربما بطريقة ملتوية «تقع العودة إلى تاريخ سياسي محزن من النوع القديم»، كما عبّر عن ذلك إرنست لابروس في عبارته الشهيرة: «ثلاث أزمات، ثلاث ثورات»[5].

تساعد هذه المراجع على وضع مقال بروديل في ظرفية محددة من تاريخ كتابة التاريخ، وليس محرماً أن ننظر إليها الآن، كما فعل بيار فيلار، كأنها نوع من «الممازحة»، إلا أن هذا الفتح المعروض اليوم له أبعاد تجاوزت الشهادة ويمكن تأريخه: فقد وضع بروديل توجهاً مستقبلياً للتاريخ بتحديد مشروعه بالنسبة إلى العلوم الإنسانية الأخرى، وهي علوم توسعية وتبدو منتصرة، فإن ركّز بروديل على إمكانية التواصل القوي مع الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا، بعدما تمت

---

(4) كوندراتياف عالم اقتصاد أمريكي من أصل روسي، ولد سنة 1892، نشر سنة 1925 كتاباً بعنوان: *Business Economics*، وفيه بيّن أن اقتصاد البلدان الصناعية في القرن التاسع عشر عرف دورات بين 15 و50 سنة. انظر: Gaston Imbert, *Des Mouvements de langue durée Kondratieff*, bibliothèque de la faculté de droit et des sciences économiques d'Aix-en-Provence (Aix-en-Provence: La Pensée universitaire, 1959).

(5) Ernest Labrousse, «1848-1830-1870. Comment naissent les révolutions,» dans: *Actes du congrès historique du centenaire de la révolution de 1848* (Paris: Presses universitaires de France, 1948).

إزالة عقبات سوء الفهم الظرفية، كان بلا رحمة بالنسبة إلى مفهوم الزمن القصير الذي يعتمده عالم الاجتماع. وقد برزت من خلال البرنامج الذي وضعه للتاريخ المستقبلي جملة المفاهيم ـ المفاتيح ـ التي سنراها تعود اليوم بمثابة شعارات:

أولها مفهوم «البنية» الذي بدأ يفرض نفسه، والذي أصبح فيليب أرياس بطله في عمله تحت عنوان: **زمن التاريخ**[6] **ثانيها** مفهوم «النموذج»، المستعار من الرياضيات الكيفية، والذي يستعمل بعد في علوم إنسانية أخرى... والعديد من الوسائل الأخرى التي وقع تقديمها بمزيج من الجرأة والاحتراز، لمحاولة تناول ظاهرة الزمن أو الأزمنة الخاصة بالتاريخ. وليس ذلك في الأساطير التي تبدو وكأنها خارج الزمن، ولا في المعطيات البسيطة للسلوك الإنساني، وإنما في الأمد المتوسط الطول لتاريخ اجتماعي يمكن تعريفه على أنه سلوك لاواع، كما كتب ماركس: «الناس يصنعون التاريخ، ولكنهم يجهلون أنهم يصنعونه». إن التاريخ اللاواعي بالنسبة إلى بروديل هو تدقيقاً ذلك التاريخ الذي يقع في الأمد الطويل، والذي يتخفى وراء نتوءات الأحداث السهلة القراءة، والتي يمكن تنظيمها في بنى متتابعة تنتشر فيها عناصر تكميلية لأي منظومة كانت. إنه تاريخ اقتصادي ـ اجتماعي، ولكنه أكثر من تاريخ للحركات والانقطاعات الذي لا يزال يحظى إلى حدّ ذلك الوقت بالتميز، وإنما هو تاريخ «الحضارات الاقتصادية» في ثوابتها، وهي عبارة عن «غطاء من التاريخ البطيء» يتحرك في شبه جمود لـ «زمن بطيء». إضافة إلى **ذلك** ـ وربما بصورة أخص ـ تاريخ ثقافي أو تاريخ الذهنيات، وهو يعتبر بمثابة

---

(6) Philippe Ariès, *Le Temps de l'histoire* (Monaco: Editions du rocher, 1954).

الحقل المميز لدراسات تنخرط في الزمن الطويل، لأنه تاريخ محمول (أو مصمم) على أن يكون تاريخ «جماديات» و«سجون طويلة الأمد». وهو موضوع يلتقي فيه كل من ف. بروديل و أ. لابروس. وقد دعا هذا الأخير المؤرخين، في افتتاح ندوة التاريخ الاجتماعي في سان كلو سنة 1965، إلى سبر «المستوى الثالث»، أي تاريخ الذهنيات الذي ينظر إليه بوصفه تاريخ «مقاومة التغيير»(7).

الأداة التي تظل استثنائية

إضافة إلى هذا المزيج من المجازفات المقصودة، والمبادرات الحذرة، يجب ألا يصاب إعلان فرناند بروديل بالهرم، فليظل على الأقل وسيلة استثنائية لتقييم الطريق الذي سلكه منذ ذلك الحين. واليوم زال بعض الغموض وتمت تصفية بعض المشاكل. وقد تم الغزو البنيوي، ولا يزال التاريخ مع ذلك على قيد الحياة، لأن المؤرخين من دون سابق إضمار، ومن دون تنسيق مسبق، انخرطوا بصفة مكثفة في المسالك التي فتحها بروديل. وظل التاريخ الطويل المدى، كما يمكن وصفه من خلال اهتماماته بعد عشرين سنة، وفياً للنموذج الذي وقع رسمه، حتى وإن أدى نشاطه إلى نتائج لم تكن متوقعة.

ودخلت المعارك التي وقع التطرق اليها آنذاك طي الماضي، وكي لا نعود إلى ذلك مرة أخرى يمكن القول بأن التاريخ السردي قد مات اليوم، وهذا واقع لا رجعة فيه. هل اندثر «الحدث» الذي أخرجه بروديل من الحقل التاريخي؟ إن الجواب عن هذا التساؤل

---

(7) *L'Histoire sociale. Sources et méthodes. Colloque de l'école normale supérieure de Saint-Cloud, 15-16 mai 1965* (Paris: Presses universitaires de France, 1967).

يكون بـ: «نعم»، و«لا». إن «نعم»، إذا اعتبرنا إلى أي حدّ فقد حدث هام، كحدث الثورة الفرنسية، مصداقيته على الأقل بالنسبة إلى الكتابة التاريخية الفرنسية، فهو اليوم نموذج لـ «فظاظة محزنة». و«لا»، لأن الأحداث، من غير شك، لها عمر طويل. ولكي أقدم شخصياً شاهداً ظرفيا وحدثياً، أكتفي بالقول إن موجة صغيرة كأحداث أيار/ مايو 1968 في فرنسا، كانت كافية لإعادة التوهج للانغماس في الزمن القصير، ولم يكن ذلك استجابة لموضة اللحظة فقط... ولكن هذا ليس السبب الوحيد.

وإذا بدت بعض المواضيع التي أثيرت على جبهات الصراع منذ عشرين سنة خلت مفضوضة اليوم، فإن بعض تكهنات الأمس، أصبحت ربما هي أيضاً في عداد الماضي. فانطلاقاً، ولو جزئياً من الجغرافيا ـ التاريخ، أراد فرناند بروديل، كغيره من زعماء **الحوليات** الأوائل، أن يغرس العودة إلى الزمن الطويل، وهو ما يترجم مرحلة تبادل مثمر بين التاريخ والجغرافيا.

وللأسف، إذا كان التاريخ كما قلناه بصفة قطعية، في صحة جيدة، فلا يمكن أن نقول الشيء نفسه بالنسبة إلى الجغرافيا، فقد لاحظ بيار شونو، وهو المؤهل أكثر من غيره في هذا المجال، كيف تقلص التجذر الكبير في وحدات إثنية أو جغرافية كبيرة، مثل البحر الأبيض المتوسط أو المحيط الأطلسي، إلى أحجام تتناسب وأحجام المونوغرافيات الجهوية[8]، فالتحقيقات التي تمتد على مدى طويل لا تستوجب وضعها في أطر شاسعة. كما أن المتوسط يلاصق قرية مونتايو التي درسها إ. لو روا لادوري، ولم يتم حصر عنوان هذا

---

(8) Pierre Chaunu, «L'Histoire géographique,» *Revue de l'enseignement supérieur*, nos. 44-45 (1969), pp. 66-77.

العمل عند نشره في أكسيتانيا (occitanie) إلا نتيجة لولع الناشرين، وعلى رغم ذلك لا يفقد العمل دوره التوضيحي. ومع بعض الفوارق وغيرها، لا يمكن أن ننكر أن ما وقع الإعلان عليه قد وقع احترامه بصورة إجمالية، وهو في حد ذاته أمر إيجابي، لأنه في هذا المستوى من التقييم، وهو مستوى وصفي، يمكن التكهن بانتصار الزمن الطويل.

انتصار الزمن الطويل: تغيير الحقل التاريخي

لا شك في أن هذا الانتصار هو نتيجة لأسباب عديدة وسأحاول تلخيصها بحسب اتجاهين: تغيير الحقل التاريخي أولاً، وتغيّر المناهج والتقنيات ثانياً، وهما عنصران في ارتباط وثيق.

ماذا يعني تغيير الحقل التاريخي؟ أتذكر اليوم، بعد عشر سنوات، أي في سنة 1970، حواراً دار بيني وبين إمانويل لو روا لادوري، وكنت آنذاك أنهي بحثي حول: **التقوى الناشزة وتراجع المسيحية في منطقة البروفانس في القرن الثامن عشر**[9]، وكنا نتحدث عن هذا المستوى الثالث الذي أسميه بطريقة كلاسيكية «البنى الفوقية الأيديولوجية»، وعن التيار الذي دفع جزءاً من مدرسة التاريخ الاجتماعي الفرنسية، كما كنا نسمي ذلك «من الدهليز إلى ما فوق السطوح»، أي من الاقتصاد إلى الذهنيات . وكان إ. لو روا لادوري يؤكد لي أنه يكتفي في ما يخصه بـ «الدهليز». فهل يتذكّر ذلك اليوم، وقد بيّن عمله حول «مونتايو» قدرته الفائقة على تحكمه في الصرح بأكمله، من الدهليز إلى فوق السطوح، أي من بنية مزدرع إلى أعقد

(9) Michel Vovelle, *Piété baroque et déchristianisation en Provence au XVIIIe siècle: Attitudes devant la mort d'après les clauses des testaments*, points. Histoire; 34 (Paris: Editions du seuil, 1978).

أشكال الذهنية الجماعية القروية؟

من الدهليز إلى ما فوق السطوح

من الدهليز إلى ما فوق السطوح، قد يكون هذا الموضوع مقترحاً سريعاً من منظور انتصارات الزمن الطويل. لقد تغيّر زمن الدراسات التاريخية تلك التي يمكن أن ننعتها ببساطة بـ «الكلاسيكية»: إن التاريخ السياسي نفسه قد تخلى في أكثر من موقع عن الارتباط بالأحداث ليطرح مشاكل لا يمكن أن نتصور دراستها إلا من خلال الديمومة (خاصة ديمومة)، من ذلك وفي الأساس مشكل الدولة، فهي بيّنة «مجمعة» لا تتوافق مع الواقع الأكاديمي الذي عالجه تاريخ المؤسسات القديم، هذا التاريخ الذي يصنف المؤسسات بوصفها أشياءً جامدة، كل بحسب الصنف الذي ينتمي إليه.

إن التبدل ملموس أكثر في التاريخ الديني الذي يتعرض بصورة متزايدة لضغط ـ أو لاهتمام ـ علم الاجتماع وتاريخ الذهنيات في الوقت نفسه: لم نعد نرى أطروحات جامعية تحمل عنوان: «القرار البابوي الموحّد في الوحدات الكنسية في كذا...»، وإنما نرى اليوم اهتماماً بتاريخ المعتقدات الشعبية، في إطار الأمد الطويل، في الموروث الإحيائي ما قبل المسيحي والذي لا يزال يؤدي دوره في التديّن في الفترة ما بين العصر الوسيط والفترة الحديثة التي اصطبغ فيها التديّن الشعبي بالمسيحية منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر إلى انتصار حركة الاسترجاع الكاثوليكي في العهد الكلاسيكي. وبعد أن حصل اعتقاد في مسيحية فرنسا قبل الثورة الفرنسية، نتساءل اليوم، مع جان دولومو (Jean Delumeau) الذي أعاد طرح سؤال كان قد طرحه غ. لو برا (G. Le Bras): هل كان فعلاً، في يوم من الأيام، جزء كبير من أرياف فرنسا معتنقاً للمسيحية بشكل معمق؟ لا

يمكن التوصل إلى معرفة كل ما كان باطناً إلا بتوسيع دائرة البحث في حيّز زمني يمتد على قرون.

مثال التاريخ الاقتصادي

يعدّ التاريخ الاقتصادي الذي ظل المحرك الرئيسي لمناهج البحث من دون كلل، وهو الوحيد الذي يعبّر بأوضح السبل عن التحولات العميقة في هذا المنحى. لقد اكتسب التاريخ الاقتصادي الاعتراف به بوصفه تاريخ الحركة والظرفية. وتمكنت المدرسة الفرنسية من ف. سيميان إلى أ. لابروس من كسب الاعتراف بحقيقة، أصبحت اليوم مسألة عادية، وهي تزامن الأزمنة الثلاثة بالنسبة إلى عالم الاقتصاد:

ـ الزمن القصير ذو الدورة العشرية التي تكوّن ذروتها الأزمة التي تمتد على سنة أو حتى على موسم.

ـ الزمن المتوسط.

ـ الزمن الطويل الذي وقع اختصاره في الفترة الممتدة ما بين العصور الوسطى إلى يومنا هذا، وهو زمن الحركة على المدى الطويل الذي يمتد على قرون، أي المرحلتين التقليديتين (أ) و(ب) اللتين أتى بهما ف. سيميان.

وقد وجدت جدلية أزمنة التاريخ الاقتصادي كمالها واكتمالها مع تاريخ الأسعار الذي سمح به استغلال الجداول الكبرى ـ لوائح الأسعار اليومية[10] الخاصة بالحبوب أو المصنوعات ـ وهو ما يمثل بداية الانتصارات الكبرى للتاريخ الكمي الذي ما زال لم يتميز بعد

(10) لوائح أسبوعية رسمية فيها أسعار البضائع المعروضة للبيع في الأسواق العمومية.

عن التاريخ الجداولي. ولو شئنا أن نختزل المسافة، مع ما يترتب على ذلك من التحريفات التي لا بد منها، فمن السهل أن نذكّر بالتغييرات المشخصة التي حصلت منذ عشرين سنة، والتي حولت المنحى العام: نوع من الاقتصاد العدّي على شاكلة التاريخ الاقتصادي الجديد الأنجلوسكسوني. لقد انفصل الاقتصاد العدّي عن التاريخ الاقتصادي، على مستوى توجهاته، ليشق طريقاً خاصة به، مواصلاً بذلك تخميناته حول الظرفية حتى الزمن الحاضر.

وفي الحقل التاريخي، ومن دون التنكر للتقنيات المستنبطة، خرج التاريخ الاقتصادي من مسألة تاريخ الأسعار الذي يعطي أهمية لمسألة القطيعة، والحوادث الظرفية والأزمة، وذلك بالالتفات، قدر الإمكان، نحو تاريخ الإنتاج وتاريخ النمو. وهو بذلك يتنزل في أمد أكثر اتساعاً، على الأقل نظراً إلى توفر معطيات مرقمة كثيفة، وأقل تدقيقاً، وفي كثير من الأحيان متقطعة، تعمق المرور من التحقيقات التي تريد أن تكون كمية إلى تاريخ جداولي[11]. ولم يقع هذا المنعطف من دون ألم ومن دون عضّ على النواجذ.

وإذا كنا اليوم نذكر على سبيل المزاح باحثي الأمس الصبورين الذين شقوا في مطابقة منحنيات خصوبة النساء، المحددة بتواريخ الولادات المتأخرة بتسعة شهور، مع منحنيات منتوج الحبوب بالنسبة إلى سنوات الحصاد، فيجب أن نذكّر أيضاً بالثمن وبالصعوبات التي اعترضت سبيل أحدث الأفكار، مثل فكرة تعويض تاريخ الأسعار

---

(11) حول تقنيات وميكانزمات التاريخ الاقتصادي، علاوة على المقالات الموجودة في هذا القاموس، انظر: Marcel Gillet, *Technique de l'histoire économique: Exécution et commentaire de graphiques* (Paris: Centre de documentation universitaire, 1962), et Jean Bouvier, *Initiation au vocabulaire et aux mécanismes économiques contemporaines (XIXe-XXe siècles)*, regards sur l'histoire; 7 (Paris: S. E. D. E. S., 1969).

بتاريخ الإنتاج والنمو، التي قدمها ر. بايهريل[12] بنوع من العنف. واليوم قد قضي الأمر، وقبلت هذه الأفكار الجديدة، ومع بعض البعد، فترت المعارضات. وأحسن مثال اليوم على هذه الدراسات النموذجية التي تعكس التمشي الجديد للبحوث والتي تنخرط إرادياً في الزمن الطويل، والتي من خلالها يمكن أن نواكب تطور حياة المزدرع عبر قرون من الزمن حيث تختلط الجغرافيا التاريخية على الطريقة البروديلية، وحركة الناس واستقرارهم، وعلاقاتهم الاجتماعية وإنتاجهم، هي دراسة أ. لو روا لادوري: **فلاحو اللانغدوك**. لقد رجع لو روا لادوري ببحثه إلى قلب العصر الوسيط، على مستوى منعطف القرن الرابع عشر، في منطقة لا يزال اقتصادها فلاحياً. هذا التمشي مزدوج التجذر يفسر ولو بصورة فجّة، وفي مستوى تقييم الاقتصاد الفلاحي لهذه المنطقة على مدى طويل جداً، بروز عالم «شبه جامد».

إلا أن المونوغرافيا الدقيقة والنموذجية كما أصبحت عليه اليوم في الشكل الجديد للمنهج الكلي للعالم القروي الضيق، يمكن أن تكون هي أيضاً برهنة على ذلك. ويمكن قول الشيء نفسه عن كتاب لو روا لا ديري حول قرية مونتايو، وهي تجربة تجديدية أخرى للمؤلف نفسه: قرية «أكسيتانية» وقع تشريحها في العمق خلال العشريات الأولى من القرن الرابع عشر ميلادي في ضوء الوثائق المتميزة لزيارات رئيس محكمة التفتيش الكنسية. ولا يمكن من خلال هذه الدراسة أن ندافع عن هذا القديس الذي لم يعد سوى ومضة خاطفة في الزمن.

(12) René Baehrel, *Une Croissance: La Basse-Provence fin XVIe siècle - 1789, essai d'économie historique statistique*, démographie et sociétés ([Paris]: S. E. V. P. E. N., 1961).

كما يمكن من خلال المنظور نفسه أن نتطلع إلى «القرية الثابتة» التي اكتشفها ج. بوشار في منطقة سولونيا (Sologne) (ليست اليوم من النوادر) وفككها عبر جمود هياكلها العتيقة في الفترة الكلاسيكية[13].

في هذا الاقتصاد الذي علمنا أ. لابروس تسميته بـ «الأسلوب القديم» الذي ما زال متواصلاً من دون تغيير يذكر حتى منتصف القرن الثامن عشر، نفهم كيف يولد «التاريخ الجامد» على مر أربعة قرون على الأقل (بين القرن الرابع عشر والقرن الثامن عشر)، مثلما عبَّر عنه أ. لو روا لادوري بتهكم[14]. وهو نموذج لا يقتصر على الحقل الاقتصادي فحسب، وإنما يشمل مختلف المستويات الأخرى لتاريخ شمولي لبنية شمولية.

سكن في حجم الإنسان: تاريخ التطورات البطيئة جداً

قبل الخوض في هذا الجانب الذي يحتاج إلى اهتمام خاص يجب بلا شك أن نولي أهمية لهذه الحظائر المفتوحة في التاريخ المادي للإنسان، أو لظروفه الحياتية، إذ تلتصق العناية الواجبة بالجوانب الثابتة من الحضارة المادية بالتاريخ الاقتصادي الكلاسيكي. وكي لا نكثر من الأمثلة، نذكر مثال السكن والبيت الذي تقصاه بيار شونو وفريقه في ثوابته عبر زمن طويل جداً، سواء في منطقة

---

(13) Gérard Bouchard, *Le Village immobile: Sennely en Sologne au XVIIIe siècle*, civilisations et mentalités ([Paris]: Plon, [1972]).

(14) Emmanuel Le Roy Ladurie, «L'Histoire immobile,» leçon inaugurale au collège de France, 30 novembre 1973, dans: Emmanuel Le Roy Ladurie, *Le Territoire de l'historien*, bibliothèque des histoires, 2 vols. ([Paris]: Gallimard, [1973-1978]), vol. 1.

نُورمنديا أو في باريس[15]. إن هذا التاريخ ليس تاريخ لانعدام الحركة: لقد بيّن لنا المختصون في التاريخ الوسيط من بولونيا إلى إنجلترا أو إيطاليا تتبع مراحل السيطرة على المزدرع ومراحل تلاشيها عبر الأمد الطويل، وكذلك الحياة الطويلة للسكن الريفي كما يبدو ذلك من خلال علم آثار القرى المهجورة[16].

ويمكن أن يتحول تاريخ التطورات الشديدة البطء للحضارات المادية إلى تاريخ مجموعة بشرية من خلال خصائصها البيولوجية والأنثروبولوجية. وهنا أيضاً لا مفر للو روا لادوري من أن يكون مثالاً بدراسته الأنثروبولوجية حول المجنّدين من خلال دفاتر التجنيد في القرن الرابع عشر[17]. ولكن هذه الأساليب المعقدة (كدراسة أصناف الدم في بعض الحالات المميزة) تتطلب التأسيس لهذا التاريخ المتناقض، الإنساني أحياناً، والفالت من سيطرة الإنسان الإرادية في الوقت نفسه، على الأقل في هذا المستوى الأولي من التمشي.

ليست هناك ضرورة للتوقف على هذا الدرب: إن التواريخ

---

(15) *Le Bâtiment: Enquête d'histoire économique XVIe-XIXe siècles,* industrie et artisanat; 6 (Paris; La Haye: Mouton, 1971-).

(16) *Villages désertés et histoire économique, XIe-XVIIIe siècle*, les hommes et la terre; 11 (Paris: S. E. V. P. E. N., 1965).

(17) Jean Paul Aron, Paul Dumont et Emmanuel Le Roy Ladurie, *L'Anthropologie du conscrit français d'après les comptes numériques et sommaires du recrutement de l'armée (1819-1826), présentation cartographique*, civilisations et sociétés (Paris; La Haye: Mouton, 1972), et Emmanuel Le Roy Ladurie, Paul Dumont et Michel Demont, «Anthropologie de la jeunesse masculine en France au niveau d'une cartographie cantonale (1819-1830),» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 31, no. 4 (1976), repris dans: Emmanuel Le Roy Ladurie, *Le Territoire de l'histoiren*, bibliothèque des histoires, 2 vols. ([Paris]: Gallimard, [1973-1978]), vol. 2.

اللاإنسانية، أي تواريخ الأحداث الطبيعية البيولوجية أو الجيولوجية، هي اليوم من المكتسبات الهامة خلال المدة الأخيرة، حتى وإن سبقتها تواريخ أخرى: إن تاريخ الأمراض في نشوئها وتراجعها وفي انقراضها وفي تبدلها، ولكن أيضاً في علاقاتها بالمحيط الطبيعي، يعدّ اليوم من بين الاتجاهات البحثية التي هي في طور التكوّن. لقد بدأ الحديث عن تاريخ الزلازل، وخاصة عن تاريخ المناخ، وذلك بفضل إ. لو روا لادوري أيضاً الذي لخص هذا التاريخ منذ عام ألف ميلادي من خلال آثار متنوعة كتاريخ الإذن بجني العنب، وتقدم أو تراجع الجلاميد الجليدية، أو عقد الأشجار. لقد أصبح تاريخ المناخ علماً قائماً بذاته، وليس علماً رديفاً أو من الغرائب الهامشية، حتى وإن كان لا يكشف بصورة حقيقية عن الأسرار البعيدة لحركات الرخاء أو الشدة الفلاحية عبر أمد طويل[18]. ومع هذا العلم برز زمن جديد، وإن لم يكن زمن الإنسان، فهذا لا يعني أن الإنسان ليس له أي تأثير في هذه الظروف الطبيعية والبيولوجية التي يواجهها. ومنذ ثورة باستور دخل التاريخ الطبيعي المتعلق بالأمراض في الجزء الأوفر منه تحت سيطرة الإنسان. ولكن تبقى بعض الأنساق الخاصة التي تبرز خارج الزمن الإنساني على رغم أنها تساهم في تشكله.

من الحركة الاجتماعية إلى البنى الاجتماعية

تعتبر دراسة البنى والنظم الاجتماعية عبر أمد طويل، كما تقرأ من خلال الدراسات نفسها التي يقوم بها المؤرخون، أحد أهم المكتسبات في حقل التاريخ الاجتماعي في العشريات الأخيرة. وهذا لا يقتضي القيام بمفاضلة أو اختيار يغلب توجّهاً دون غيره في مستوى الجدلية الجوهرية بين مقاربة البنى ومقاربة الديناميكية

---

(18) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Histoire du climat depuis l'an mil*, nouvelle bibliothèque scientifique (Paris: Flammarion, 1967).

الاجتماعية. بدأ التاريخ الاجتماعي الحالي كتاريخ لـ «الحركة الاجتماعية»، وأساساً الحركة العمالية التي تبدو اليوم عبارة متقادمة. ثم وقع المرور بعد ذلك، بطريقة تراجعية بدت من خلال بعض الدراسات الرائدة[19] من تاريخ الحركة العمالية التي ازدهرت في القرنين التاسع عشر والعشرين إلى اكتشاف ثورات مجتمعات ما قبل الثورة الصناعية، كثورات الفلاحين، والانفعالات التي قد يسميها البعض بصورة معبّرة «هيجاناً».

وفي هذا الميدان الذي يبدو فيه الالتزام الأيديولوجي من المسلّمات، يكون التصادم بين قراءات مختلفة أكثر حدة للتعبير عما يمكن أن أسميه، إن سمح لي بذلك: «أشكال الصراع الطبقي في مجتمع ما قبل الرأسمالية». ويشهد على هذا التصادم، الجدل الذي قام بين ر. مونييه (R. Mousnier) و ب. بورشناف (B. Porchnev) حول تأويل الانتفاضات الشعبية في فرنسا في النصف الأول من القرن السابع عشر[20]. كان الإغراء قوياً بالنسبة إلى الكثيرين لجعل

---

(19) Eric Hobsbawm, *Primitive Rebels: Studies in Archaic Forms of Social Movements in the 19th and 20th Centuries* (Manchester: Manchester University Press, 1959),

الترجمة الفرنسية: Eric Hobsbawm, *Les Primitifs de la révolte dans l'europe moderne = Primitive Rebels*, l'histoire sans frontières, traduit de l'anglais par Reginald Laars (Paris: Fayard, 1966).

(20) Boris Porchnev: *Narodnye vosstani voia Franntsii pered Frondo* ([s. l.: s. n.], 1948);

الترجمة الفرنسية: *Les Soulèvements populaires en France de 1623 à 1648*, école pratique des hautes études. Centre de recherches historiques. Oeuvres étrangères; 4, traduit par Mme Ranieta et Robert Mandrou (Paris: S. E. V. P. E. N., 1963), trad. abrégée: *Les Soulèvements populaires en France au XVIIIe siècle*, science (Paris: Flammarion, 1972), et Roland Mousnier, *Fureurs paysannes: Les Paysans dans les révoltes du XVIIe siècle (France, Russie, Chine)* (Paris: Calmann-Lévy, 1967).

هذه الانفجارات الشعبية التي لا مستقبل لها من الثوابت في إطار مجتمع يغلب عليه الجمود. ومن هذا المنطلق، رأى البعض أن هذه الانفجارات الشعبية تعكس في المستوى الاجتماعي إرهاصات أزمة من النمط القديم، وأنها حاملة لأيديولوجية ماضوية في الأساس، وهي تواصل بين أوضاع فرنسا في عصر الرابطة الفيودالية وأوضاعها زمن الثورة الفرنسية[21].

على درب تاريخ الذهنيات

من زاوية هذه القراءة ينمحي تاريخ الديناميكية الاجتماعية في مستوى الجماهير على الأقل على رغم أهميتها في بعض الأعمال (انظر هنا أيضاً: **فلاحو اللانغدوك**)، ليفسح المجال أمام قراءة البنى. إنها في الحقيقة بنى طويلة الأمد تلك التي حللها المؤرخون الذين سايروا المشروع الذي قدمه إرنست لابروس سنة 1955 في مؤتمر العلوم التاريخية في روما تحت عنوان: «المسالك الجديدة لدراسة البورجوازيات الغربية». إن تاريخ البنى لم يكن «مستحدثاً»، فقد كان حقيقة حية في العالم الريفي. وهو يرتكز على تقاليد قوية تعود إلى العصر البطولي للوتشيسكي (Loutchisky) حوالى سنة 1900، وتأكد في ثلاثينات القرن العشرين مع دراسة ج. لوفافر بعنوان **فلاحو الشمال في زمن الثورة الفرنسية**، ثم تواصل من دون انقطاع بتعدد المونوغرافيات (من روبنيل[22] (Roupnel) إلى سان جاكوب (Saint

(21) François Furet et Denis Richet, *La Révolution*, collection les grandes heures de l'histoire de France; 1-2, 2 vols. ([Paris]: Hachette, [1965-1966]).

(22) Gaston Roupnel, *La Ville et la campagne au XVIIe siècle: Etude sur les populations du pays dijonnais* (Paris: Editions Ernest Leroux, 1922), bibliothèque générale de l'école pratique des hautes études; 6. section, nouvelle édition (Paris: Armand Colin, 1955).

Jacob) حول منطقة بورغونيا (Bourgogne))، إلى الأعمال التوليفية الكبرى والحديثة التي جدّدت أسلوب ممارسة هذا التمرين مع بيار غوبار وموريس أغولون[23]. وقد أعطت الثورة اللبروسية (Révolution labroussienne) في الستينات نتائجها في مجال المجتمعات الحضرية التي ظلت متروكة إلى حد ما نظراً إلى تعقدها. ولكي نتجنب تعداد الأمثلة، على رغم ما في ذلك من الإجحاف، فيكفي أن نشير إلى أهمية تلك اللوحات الكبيرة حول الواقع الحضري التي تمتد على قرن أو أكثر، ونشير أيضاً إلى شكل مدينة ليون في القرن الثامن عشر كما صورها م. غاردين[24] (M. Garden)، أو شكل مدينة أميان في القرن السابع عشر كما رسمها ب. دايون[25] (P. Deyon).

إن تاريخ البنى الاجتماعية، حضرية أكانت أم ريفية، هو تاريخ جديد للأمد الطويل، وإلى زمن قريب، هو تاريخ الثوابت التي تتحدى عجلة التاريخ الرسمي. ولكن يبدو لي أن من أهم التحولات الحديثة التي أدت مباشرة إلى دفع التاريخ الاجتماعي الجديد نحو الزمن الطويل هو الطريق الذي حملها شيئاً فشيئاً بصورة جلية نحو تاريخ الذهنيات.

---

(23) Pierre Goubert: *Beauvais et le beauvaisis de 1600 à 1730: Contribution à l'histoire sociale de la France du XVIIe siècle*, démographie et sociétés; 3 ([Paris] S. E. V. P. E. N., 1960), éd. abrégée, et *Cent mille provinciaux au XVIIe siècle, Beauvais et le beauvaisis de 1600 à 1730* (Paris: Flammarion, 1968), et Maurice Agulhon, *Vie sociale en Provence intérieure au lendemain de la révolution*, bibliothèque d'histoire révolutionnaire. 3e série; 12 (Paris: Société des études robespierristes, 1970).

(24) Maurice Garden, *Lyon et les lyonnais au XVIIIe siècle*, bibliothèque de la faculté des lettres de Lyon; 18 (Paris: Les Belles lettres, 1970).

(25) Pierre Deyon, *Amiens, capitale provinciale: Etude sur la société urbaine au 17e siècle*, civilisations et sociétés (Paris; La Haye: Mouton, 1967).

تاريخ الذهنيات هو الحقل المميز للأمد الطويل

بوصفي مؤرخاً للذهنيات، ومتحملاً لمسؤولياتي، فأنا واحد من أولئك الذين يمثل لهم هذا الحقل، ومن دون أن يكون ذلك في تعارض مع التاريخ الاجتماعي، الجزء الدقيق والبارز من المستوى الذي تعبّر فيه الانتماءات عن ذاتها في جملة من المواقف والتمثلات الجماعية. ولكن في الحقيقة اعتبر هذا «المستوى الثالث»، بناء على جملة من الفرضيات القوية، على أنه «سجن الأمد الطويل»، على حد تعبير بروديل، أو فضاء للثبات كما سماه أ. لابروس، ومنه وقع التساؤل حول القوى المتحكمة في عدم تطور الذهنيات. ويبدو للوهلة الأولى أن مثل هذه المغامرات لا يمكن إلا أن تدرس من خلال الفترات المكثفة على مدى قرون من الزمن حيث تكون منبثة. ويبدو أن صنفاً من الدراسات التاريخية تناسى أن أول عمل رائد في هذا المجال، وفي فترة ما قبل تاريخ الذهنيات، هو بحث: **الخوف الكبير** لجورج لوفافر. وهو عبارة عن بحث دقيق يشبه البحث البوليسي لإعادة تصوير موجة من الهلع التي اجتاحت أرياف فرنسا، وبطريقة غير مباشرة أدت إلى سقوط النظام القديم الزراعي في أقل من ثلاثة أسابيع. وفي الحقيقة لا بد من القول بأن تاريخ الثقافات وتاريخ المواقف الجماعية قد عرفا أروع مكتسباتهما في زمن المجتمع التقليدي الطويل خلال النظام القديم. وقد بيّن روبير ماندرو من خلال مدوّنة تمتد على فترة طويلة من الزمن، وتتألف من سلسلة الكراسات الزرقاء ـ التي تكرر بالطريقة نفسها طيلة قرون من الزمن ـ والمحفوظة في مكتبة تروي (Troyes)، الملامح الكبرى للثقافة الشعبية في فرنسا خلال القرن الثامن عشر... وفي جزئه الأوفر[26].

(26) Robert Mandrou, *De La Culture populaire aux 17e et 18e siècles: La Bibliothèque bleue de Troyes*, 2ème éd. nouv. éd. rev. et corrigée ([Paris]: Stock, 1975).

وقد عرفت مغامرة هذا الأدب الإخباري الذي امتد من فجر العصور الحديثة إلى تاريخ القضاء عليه في منتصف القرن التاسع عشر، النسق نفسه مع بعض التغييرات الطفيفة. وفي هذا المستوى من تاريخ الذهنيات، أي تاريخ الثقافات، لا يمكن التهرب من بعض التساؤلات المبدئية، كالتساؤل ولو بصورة مبسطة عن الزمن المزدوج: زمن الثقافات الشعبية، وهي مجال ثبات للتقاليد، وزمن ثقافة «النخب» كما يقال، وهي مركز الإبداعات والخروج عن المألوف. إن الثقافة الشعبية، والثقافة النخبوية، هما مجال لجدلية كبرى وموضوع تساؤلات في الوقت الراهن.

إن المسألة ليست بالبساطة التي يمكن تصورها. ولتوضيح **سجون المدى الطويل** التي ينحبس فيها الذهن الجماعي، اعتمد ف. بروديل منذ عشرين سنة خلت على البرهنة الواضحة التي قدمها لوسيان فافر في بحثه الموسوم: **ديانة رابليه: مشكلة اللااعتقاد في القرن السادس عشر** الذي يقدم صورة البنى المجمعة ذاتها، وهي نظرة إلى الكون تتمفصل فيها كل مستوياته، تسمح بتنقية القراءات اللاتاريخية التي عرفها التاريخ الوضعي. لقد أجاب لوسيان فافر عن رأي أبيل لوفران (Abel Lefranc) بالقول: لا، لم يكن رابليه المفكر الحر الذي تحلم به، في عالم تتشكل فيه الحياة الجماعية على وقع الدين[27]. هل يمكن اليوم مواصلة الدفاع عن هذه القراءة الكلية (نحجم على القول بأنها كليانية) لبنية ذهنية، في حين أن محاولة لوسيان فافر نفسها تتنزل في سياق تاريخي معين؟ من الذي اكتشف رابليه، الناطق الرسمي باسم ثقافة شعبية لا تزال على قيد الحياة من

(27) Lucien Febvre, *Le Problème de l'incroyance au XVIe siècle: La Réligion de Rabelais* (Paris: Albin Michel, 1962).

خلال أعمال م. باختين[28] (M. Bakhtin)، وكذلك من خلال محاولات ك. غينزبورغ[29] (C. Ginsburg) أو ن. دافيس[30] (N. Davis). لقد صور هؤلاء القرن السادس عشر قرناً تخترقه التوترات والصراعات والتناقضات، وفيه تبادل جدلي لا يزال موجوداً اليوم. وهو ليس تبادلاً في اتجاه واحد بين ثقافة شعبية وثقافة نخبوية، لا يقبل من دون تحفظات البنية المفقرة كما رآها لوسيان فافر، فهو لم ير إلا جانباً واحداً من هذه الأوضاع.

تاريخ التطورات التي لا يراها الناس

إذا انتقلنا من التاريخ، ومن الفكر الواضح، أو من الثقافات، إلى الحظائر الجديدة لتاريخ الذهنيات التي تنشط في مجال المواقف والسلوكات أو ما يسميه البعض بـ «اللاوعي الجمعي» (مثل فيليب أرياس)، فإن الزمن الطويل يفرض نفسه بلا منازع.

هنا لا توجد أية قلاقل أو أية قطيعة، ولا حتى أحداث بالمفهوم التقليدي للمعنى، في تاريخ العائلة، وفي تاريخ الحب، وفي تاريخ الأزواج، وفي تاريخ تربية الأطفال، وفي تاريخ الاجتماعوية الجماعية أو في تاريخ الموت؛ وهي كلها من دون

---

(28) Mikhail Mikhailovich Bakhtin, *L'Oeuvre de François Rabelais et la culture populaire du moyen âge et sous la renaissance*, bibliothèque des idées, traduit du russe par Andrée Robel (Paris: Gallimard, 1970).

(29) Carlo Ginsburg: *I Benandanti: Recerche sulla stregoneria e sui culti agrari tra Cinquecento e Seicento*, biblioteca di cultura storica; 89 (Torino: G. Einaudi, 1966), et *Il formaggio e i vermi: Il cosmo di un mugnaio del' 500*, Einaudi paperbacks; 65 (Torino: G. Einaudi, 1976).

(30) Natalie Zemon Davis, *Society and Culture in Early Modern France: Eight Essays* (Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1975).

ترتيب الحظائر الجديدة المفتوحة. وهو ما يؤكده فيليب أرياس بقوة، وهو واحد من مكتشفي هذا التاريخ، سواء في ما يتعلق بالطفل والعائلة أو بالموت، وهو أن هذا التاريخ يهتم بهذه التطورات السرية عبر أمد بالغ الطول، وهي تطورات لاواعية لأن الناس يعيشونها، وبها لا يشعرون. والصورة التي يقدمها لنا فيليب أرياس، خاصة من خلال عمله الأخير: **تاريخ الموت**، ليست صورة لتاريخ لا يتحرك (ولو أنه ترك مكاناً لتاريخ أسي، خارج الزمن قد يكون من غير شك تاريخ المجتمعات التقليدية)، وإنما هي صورة تكشف عن أدوار هامة من التاريخ، تتمثل في تعاقب بنى مختلفة أو أنماط سلوكية. إنها بنى، وإن تعاقبت، تظل في تداخل وتشابك كتشابك القراميد فوق السطوح: من الموت المألوف، أي الموت غير الخاضع للزمن مثل موت إيفان إليتش (Ivan Illich) أو موت رولان الشجاع (Roland le Preux) إلى الوعي بفضيحة الموت الفردي، من العصور الوسطى إلى الفترة الكلاسيكية، إلى الانتقال إلى موت الآخر - وهو الشيء المحبب - في الفترة الرومانسية؛ كل ذلك في انتظار الموت المحظور في الفترة المعاصرة. يتم المرور من بنية إلى أخرى عبر أطوار كبيرة من التاريخ، تتغلب فيها تحولات غير محسوسة على ما يشاهده المرء (من ذلك مأتم نهاية العصور الوسطى، فهل نعتبره ظاهرة عارضة؟) أو على المنعطفات الظاهرة للعيان (مثل منعرج نهاية القرن الثامن عشر)[31].

لم تكن إعادة التركيب هذه التي اقترحها أرياس انطلاقاً من دراسته المواقف أمام الموت أو أمام الطفل، معزولة، فهي في الحقيقة من أهم المحاولات الشاملة والجذابة في الوقت الحاضر،

(31) Philippe Ariès, *L'Homme devant la mort*, l'univers historique (Paris: Editions du seuil, 1977).

ومن بين هذه المحاولات نذكر على سبيل المثال أعمال المؤرخين الذين اختصوا بتاريخ العائلة، وهي من البحوث العزيزة في الوقت الحاضر (أليست العائلة والطفل أو الموت هي وجوه متعددة لمغامرة واحدة؟). إن هؤلاء المؤرخين يحدثوننا أيضاً عن هذا الأنموذج من الأمد الطويل، وهو «الأنموذج الأوروبي» (European Pattern) الذي يبدو أنه تمركز في أوروبا الغربية منذ نهاية القرن السادس عشر ليغطي كامل الفترة الكلاسيكية حتى نهاية القرن الثامن عشر. وهذا الأنموذج من التاريخ العائلي يتميز بنشوء العائلة النووية وبالزواج المتأخر الذي يعدّ نوعاً من المالثوسية العفوية قبل مالثوس (Malthus).

هل يسمح تاريخ كهذا بحدوث «ثورات»؟ فالنقاش الطويل الذي دار حول أصول منع الحمل في القرن الثامن عشر، والذي أثير من جديد على أثر ظهور مفهوم «الثورة الجنسية» (Sexual Revolution) الذي حدّده أ. شورتر (E. Shorter)، ولم يكن متفقاً عليه في ذلك التاريخ، يحملنا على صياغة مشكل يستحق إعادة النظر.

سأكون محجوجاً إذا ما أعلنت الحرب على تاريخ الحركات البطيئة للذهنيات الجماعية: ألم أساهم، بصورة متواضعة، في الدعوة لها بالتزامي بمتابعة التحولات التي عرفها تمثل الآخرة وبروز صور تخص مطهرة الذنوب خلال القرن الخامس عشر ونهاية هذه الظاهرة في بداية القرن العشرين من خلال مصدر أيكونوغرافي متميز تمثله مذابح التوبة المعدة لتطهير الأرواح في الجنوب الفرنسي؟ وهذه المغامرة لا يمكن لها أن تتم إلا عبر فسحة زمنية من المدى بالغ الطول[32]. هذا النوع من البحوث لا يعدّ اليوم معزولاً، ولكنه

(32) Gaby Vovelle et Michel Vovelle, *Vision de la mort et de l'au-delà en Provence d'après les autels des âmes du purgatoire, XVe-XXe siècles*, cahiers des annales; 29 (Paris: Armand Colin, 1970).

يستوجب التساؤل حول الانتصار الحالي للزمن الطويل، من منظور آخر. فقد جعلنا من ذلك نتيجة تمثلت إلى هذا الحين في اتساع حقل البحوث واستكشاف مجالات أخرى تكون فيها المقاييس التقليدية لقياس الزمن التاريخي غير ملائمة. ولكي يكون هذا التفسير جوهرياً، فهو يحتاج إلى تعميق أكثر.

التفسير التقني: تصوّر جديد للمصادر

ألا يمكن اعتبار هذا التغيير في مفهوم الزمن، أو أزمنة التاريخ في كل الحالات، إلا نتاجاً لتغير في مفهوم المصدر التاريخي؟ ومن دون أن يكون التذكير بأن كل حقبة تاريخية تعتمد على المصادر التي تستجيب لحاجاتها، ضرورياً، فإنه لا يمكن مع ذلك أن نمرّ على هذه المسألة من دون فحص، لأن ذلك يسمح في كل الحالات، وبعد مسح لجميع الفترات التاريخية، بأن نقدر بصورة تأليفية موقع التغيير.

يمكننا القول بصورة مبسطة إن نشوء تاريخ المدى الطويل كان نتيجة لاكتشاف مصادر جديدة وتجريبها، وكان أيضاً ضريبة المصاعب التي يلقاها كل باحث رام استكشاف حقول جديدة للبحث يخيّم عليها صمت المصادر، فيجبر على اعتماد تسلسل زمني يمسح فترة طويلة من الزمن: توجد فكرتان متأكدتان: **الأولى** متفائلة، **والثانية** أقل تفاؤلاً، وهما متناقضتان في الظاهر فقط.

صحيح أننا نمتلك اليوم بالنسبة إلى المسلك الأول سلاسل مصدرية تخص فترة طويلة المدى لم نكن نحلم بها إلى عهد قريب. وحتى وإن سئمنا، فإننا نظل معجبين بمنحنى تطور الولادات غير الشرعية في إنجلترا الذي قدمه ب. لاسلات (P. Laslett) لفترة تمتد على أكثر من أربعة قرون، أي من 1550 إلى يومنا الحاضر. ويعدّ

ذلك مؤشراً على تطور المواقف العائلية(33) لا يمكن النظر إليه بعين السخرية. ومثل هذه المنحنيات كثيرة، ومن دون ذكرها بانتظام، مثل منحنيات التقلبات المناخية أو المنحنيات التي أصبحت مألوفة أكثر من غيرها، وهي المنحنيات الديمغرافية، أو منحنيات الأسعار والمنتجات، كل ذلك يضعنا أمام كمّ متنوع من المنحنيات التي تعنى بجوانب مختلفة من المغامرة الإنسانية.

كان السبب الذي ترجع إليه هذه الثورة يكمن من دون شك في ظهور مصادر جديدة تعنى باليومي في حياة الناس، وبما هو عادي، وبما يمسّ حياة الجموع المجهولة، بصورة متواصلة. لقد كانت لوائح أسعار الحبوب وجداول الحالة المدنية القديمة - المتعلقة بالتعميد والزواج والدفن - أول المصادر التي وقع استغلالها، وهي التي أعطت المبادئ، وكذلك فلسفة التاريخ الجداولي كما هو اليوم. إلا أن الغوص في أعماق الماضي الذي تسمح به لا يزال رهيناً لبعض العوائق التقنية: وذلك ما عدا بعض الاستثناءات، إذ يبقى القرن السادس عشر حداً فاصلاً قد لا يمكن تجاوزه في أغلب الميادين، ويمثل القرن الثامن عشر حداً آخر، تمر من خلاله الحداثة بالتدرج، فانطلاقاً من الثلث الأول من هذا القرن تصبح الدفاتر الكنسية، في عمومها محل ثقة في كل الجهات، وانطلاقاً من الثلث الأول للقرن التاسع عشر سيعمم التمشي الإحصائي في كل الميادين على اختلاف طبيعتها. ومن خلال هذه المصادر وقع نوع من التعقيد من ناحية، والتبسيط من ناحية أخرى.

---

(33) Peter Laslett, *Un Monde que nous avons perdu, famille communauté et structure sociale dans l'Angleterre préindustrielle*, nouvelle bibliothèque scientifique, traduit de l'anglais par Christophe Campos (Paris: Flammarion, 1969).

لقد اكتشفت الجبهات الرائدة للتاريخ الاجتماعي سلاسل وثائقية جديدة تمتد على مدى بالغ الطول. ومن هنا يمكن القول بأن تثمين وثائق العدول لما توفره من معطيات ـ عقود مختلفة، ومن بينها عقود الأكرية، والوصايا، وجرائد المخلفات ـ هو من الإجراءات التي لا يمكن أن تحصل إلا بعد وقوعها. وهي من الوثائق التي ساهمت في إلغاء الحدود التقليدية: ما بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر، أو على الأقل القرن الرابع عشر، حيث عرفت هذه الممارسات الاجتماعية بداية انتشارها إلى نهاية القرن الثامن عشر، ولم لا...؟ إلى الفترة المعاصرة. لقد وفرت نصوص الوصايا، على سبيل المثال، أرضية شكلية ومتناسقة لدراسة السلوكات الاجتماعية والذهنية أمام الموت. ونتيجة لذلك اندحرت حواجز سوء الفهم العنيدة بين المؤرخ المختص في التاريخ الحديث ونظيره المختص في التاريخ الوسيط: يخيل لهما، وربما أكثر من التخيل بلا شك، أنهما يعالجان الموضوع نفسه.

لم تعد الوثيقة المكتوبة الوثيقة التاريخية الوحيدة

يعتبر اكتشاف مصادر مكتوبة جديدة قابلة للتنظيم في شكل جداول تمتد على مدى بالغ الطول، نتيجة لإعطاء قيمة لمجموعات من الوثائق المتراكمة وغير المنسوبة إلى أشخاص معينين، والتي كانت في الماضي لا تمثل شيئاً، أمراً أساسياً ولكنه محدود. ويمكن أن نقدم العديد من الأمثلة على ذلك: يمكن للوثيقة الجبائية أن تعوض في بعض الأحيان السجلات المدنية إلى منتصف العصر الوسيط (من تعداد البيوت إلى عملية المسح العقاري كما نلاحظ ذلك في منطقة البروفانس أو إيطاليا)، كما تسمح وثائق الأرشيف القضائية «العادية»، لائكية أكانت أم كنسية، بتتبع، بصورة تراجعية، تطور جدلية القمع والمعارضة. ولكن محدودية هذه الوثائق موجودة

ونعرفها جيداً، إذ يتوقف التثمين الكبير للوثيقة التي كانت في الأمس محتقرة عندما لا توجد وثيقة مكتوبة. ولكن التواصل مضمون من خلال هذه المصادر المختلفة التي تفرض نوعيتها قراءة معمقة: تفقد الوثيقة المكتوبة امتيازاتها في الوقت الذي يحتل فيه علم الآثار الصدارة، وكذلك الوثيقة المصورة، وحتى التحقيق الشفوي في إطار الإثنولوجيا التاريخية. وتنخرط أغلب الحظائر الحالية، من الحضارة المادية إلى مختلف ميادين الثقافة أو الذهنيات الشعبية، في محاولة عنيدة لتخطي عقبة صمت الوثائق باعتماد طرق كانت تعتبر في الأمس ملتوية. وتشكل حفريات البيوت أو المساكن مدخلاً إلى دراسة الحضارة المادية، وتشكل سلاسل الرسوم مدخلاً إلى دراسة تاريخ الذهنيات. كما يعدّ جرد الأثاث الديني داخل الكنيسة أو أية مؤسسة دينية وتحليله، من العصر الوسيط إلى الفترة الحديثة والمعاصرة، رصيداً [وثائقياً] يسمح بتحليل تطور الأوجه المتعاقبة للمعتقدات الشعبية.

جرد النذر، مصدر غني بالمعلومات

من دون أن نكثر من الأمثلة يمكن أن نختار لو شئنا مثال النذر التي هي الآن محل جرد في كامل التراب الفرنسي وغيره[34]. توجد سلسلة تمتد على مدى طويل في جنوب فرنسا، أقدمها يعود إلى القرن السادس عشر، وأحدثها من مصنوعات اليوم، وهي توجد حيث لم تستطع قطعة الرخام النذرية غير المنسوبة أن تحل محل التقنيات التقليدية. هذا المصدر ثري بالمعلومات وفقير في الوقت نفسه: إنه ثري بتعدد استعمالاته الافتراضية ـ وذلك بدءًا من تاريخ الحضارة المادية أو اللباس إلى تاريخ الأمراض والموت، إلى

(34) أعمال ومنشورات برنار كوزان (Bernard Cousin) قيد النشر.

المواقف العائلية، إلى المشاعر الدينية التي يمكن تحسسها من خلال الخوارق الحاصلة أو الكرامات المتحصل عليها. ولكن هذا النوع من الوثائق فقير أيضاً، فكثيراً ما يصعب تحديد تاريخه إلا ضمن حقب طويلة من الزمن، حيث يسجل حضوره البطيء في إطار مدى طويل تبدو فيه التمثلات وكأنها لا تتغير.

يعطي هذا النوع من الوثائق امتيازاً لمسألة التواصل، ويسجل في الحين ذاته ولو بتأخر مظاهر التجدد، وهو الشيء نفسه بالنسبة إلى التصور الشعبي الذي يعيد بشيء من التأخير، طيلة الفترة الكلاسيكية وحتى طيلة القرن التاسع عشر، صورة القديس الثابتة من خلال الزخرف الوسيطي في أثناء القرن الخامس عشر. ويبدو الزمن رتيباً هادئاً لم يعرف الهزات المفاجئة، وهذا ما يبدو لنا على الأقل من خلال أغلب هذه السلاسل. وليس ذلك نتيجة لعدم دقتها فقط أو لعدم الوضوح عندما يقع تحويلها من رسوم إلى نصوص، ولكنها انعكاس مباشر لهذه التطورات البطيئة التي تنخرط في زمن هو موضوعياً زمن بطيء، فيكون ثبات الأشياء في الحضارة التقليدية - مثل حضارة البيت أو حضارة الأثاث - صدى يؤكد الثبات الذي توحي به تمثلات الصور الأيكونوغرافية.

وما هو صالح للوثيقة الحاملة لرسوم يكون صالحاً من باب أولى للوثيقة الشفوية. ويعتبر زمناً خاصاً ذلك الزمن الذي أبرزه فيليب جوتار(35) (Philippe Joutard) وغيره، من خلال التحقيقات المباشرة على شاكلة علماء الإثنولوجيا، لاستعادة مكوّنات الذاكرة الجماعية حول موضوع ما من المواضيع: عند جوتار يتعلق الأمر بذكريات

(35) Philippe Joutard, *La Légende des Camisards: Une Sensibilité au passé*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1977).

المصادمات في حرب الكاميزار (Camisards). إنها ذاكرة مفقرة ومبدعة في الوقت نفسه، فهي تدمج في الذكريات نفسها أحداثاً مختلفة، ويمكن أن تثري في الوقت ذاته ذكريات لفترات متعاقبة من الرضا، وذلك باتصالها بالوثائق المكتوبة. إلا أن التحقيق الشفوي يمكن أن يضع المؤرخ في علاقة بزمن المختص في الفولكلور أو الإثنوغرافيا، ويجعله لا ينظر إلى هذا الزمن كما لو أنه زمن مشوّش لا علاقة له ببحثه، وإنما يعطيه صبغة تاريخية ويحدّده بأكثر ما يمكن من الدقة ما بقي منه في وضع لازمني مقلق في هذا المدى الأساسي لفهم الحضارات التقليدية.

ونبقى، بعد هذه القراءات للزمن الذي يفرضه تنوع المصادر، تحت وطأة انطباع غامض. وهو أكثر من أن يكون ناجماً عن الصعوبات التقنية لتحديد تواريخ دقيقة، ويبدو لنا أننا تمكنا من تحديد أنساق كأنها تنفس مختلف للجموع التي صنعت التاريخ، وفي جزء كبير لما صنع حياتها. ونفهم أكثر كيف كان جزء من الكتابة التاريخية الفرنسية، انطلاقاً من بيار شونو وفرناند بروديل، يرغب في استبدال عبارة «التاريخ الكمي»، ربما لأنه يلتصق أكثر بالاقتصاد، بعبارة أكثر مرونة، هي عبارة «التاريخ الجداولي»، لما تسمح به من إمكانية التنظيم في الزمن لصور متتابعة انطلاقاً من مؤشر واحد: جداول تهم نظرة العائلات لمطالب الإعفاء من مصاريف الإعلانات المتعلقة بمواسم الجني، أو للمواقف من الكرامات كما تعبر عنها النذر، أو لتمثل الآخرة من خلال الزخارف التي تزين مذابح التوبة، أو للمواقف من ملاحم المقاومة، أو من القمع من خلال الإجراءات القضائية. إنه هدف يطمح إلى الانفتاح على مواضيع أخرى من تاريخ الذهنيات، ويسمح بتتبع تطورها عبر المدى الطويل، من دون أن يتخلى عن مسألة «التكميم».

فهل يعني من خلال هذه الاجتهادات الجديدة أن هناك قراءة جديدة لأزمنة التاريخ بصدد البروز؟

أزمنة المدى الطويل

لتعيير هذه العملية في إعادة النظر في أزمنة التاريخ، من الأفضل أن ننطلق من الدافع التقليدي المتمثل في الزمن القصير للحدث السياسي أو الحدث المعركة: 1610 أو 1815. فهذا أمر معقول، ولكن هل من الثابت أن لا أحد يرغب في ذلك؟

إنه لا يعني إلا قشرة طفيفة وسطحية من تاريخ الناس: إن التاريخ الحقيقي مثل الحياة الحقيقية يوجد بعيداً. ليكن الأمر كذلك.

لقد كان أكبر الفضل للتاريخ الاقتصادي أن أقحم تراتب مستويات ثلاثة - زمن الأزمات القصير، الزمن المتوسط ما بين الدورات، والحركة الطويلة ذات المدى الطويل - متجاوزاً بذلك التتالي الفقير للأحداث التاريخية وأسبابها الخطية. إنه تراتب عملي في الحقل الاقتصادي، ولكن السؤال الذي اقترحه بروديل منذ عشرين سنة خلت هو التالي: هل يمكن نقل هذا النموذج لتداخل الأزمنة إلى حقول تاريخية أخرى بدءاً بالتاريخ الاجتماعي؟ لكن السؤال لم يلق جواباً واضحاً، أو بالأحرى يبدو هذا النموذج الميكانيكي، على الأقل بصورة فعلية، لممارسي التواريخ البطيئة، غير ذي جدوى.

تعانق أزمنة التاريخ المختلفة

يبدو أننا انطلقنا على درب تعدد الأزمنة في انتظار تعانق الأزمنة التاريخية الذي تحدث عنه ألتوسير: زمن التاريخ الاقتصادي، وزمن التاريخ الاجتماعي، وزمن تاريخ البنى الذهنية، وهي أزمنة متفاوتة السرعة.

عندما تحدث إ. لابروس عن تاريخ الصَمود أمام التغييرات، والذي يجب اكتشافه في حقل الذهنيات، كان يرمز بصورة غير مباشرة، مع المحافظة على (مدى) مدّ وحيد متزايد السكون، إلى هذه الأنساق المختلفة بدءاً من الدفق الأولي، وهو الدفق المادي أو تحت ـ البنيوي، إلى البنى الاجتماعية المحافظة، لينتهي إلى سجون الذهني الطويل المدى.

لم تعد هذه القراءة التي ترجع بنا إلى جدلية البنى التحتية والبنى الفوقية الماركسية متماشية مع العصر في إطار كتابة تاريخية مهيمنة يؤدي فيها السقوط في «الماركسية المبسطة» إلى السخرية، كما يقول أصدقاؤنا الأمريكيون.

وفي مثل هذه الحال يستحسن تفضيل العودة ـ من دون الإعلان عن ذلك بصورة دائمة ـ إلى قراءة أقل سذاجة تعتمد الجدلية بين زمن الجماهير الشعبية ـ زمن ثابت أو يكاد ـ وزمن «النخب»، وهو زمن حركي ومتغيّر وخلاق، وهو زمن بمثابة القشرة التي لا شك في أنها سطحية، ولكنها قشرة طيبة، كقشرة الخبز الذي يتخمر، وكالتاريخ الذي يتحرك.

يمكن القول بأن قسماً كبيراً من مدرسة **الحوليات** يعكس في فرنسا الآن هذا التوجه أو على الأقل هذا التقسيم للأدوار: إن البعض (مثل ف. فوريه، ود. ريشيه) يهتم بزمن النخب المتحرك، والبعض الآخر (مثل أ. لو روا لادوري) يهتم بالأزمنة الثابتة للتاريخ الإثنوغرافي.

ولكن القول بأن الأزمنة هي متعددة فقط يعدّ تقصيراً، لأنها أزمنة متداخلة، وهو شكل آخر لهذا التعانق الذي نتحدث عنه. فلننظر في بحث فيليب أرياس الذي جاء تحت عنوان: **تاريخ الموت**، حيث تتراتب في حقل واحد ديمومات مختلفة كما قلنا، مثل قراميد السقف:

الزمن الثابت، زمن «خارج الزمن»، للموت المحتوم كما ورث عن المجتمعات القديمة، وهو زمن لم يولِّ، كيف لا؟ فهو زمن يمكن أن يبرز من خلال أية تجربة يومية.

ولكن المواقف الأخرى المتجذرة مثل الوعي الأناني بـ «موت الأنا» أو تعويض ذلك بموت المحبوب (موتك أنت)، في انتظار المحرّمات الحديثة حول الموت، فهي تتداخل كلها بحسب المقاييس الجغرافية والعقدية والاجتماعية. . . والفردية.

تتشكل في غمار هذه القراءات فكرة استقلال أزمنة التاريخ[36] «السمفوني»، حيث تنصهر هذه الأنساق بعد تفكيك رموزها في كل متجانس أو تتنافر بحكم اختلافها، فربما تكون تلك هي «الظرفية» وقد أعيدت صياغتها في لغة تتجاوز المجال الاقتصادي الضّيق بصورة ثابتة.

هل اللاوعي الجماعي المستقل محرك للتاريخ؟

هل ما زال هذا الأمل موجوداً بالنسبة إلى أغلب مؤرّخينا الحاليين؟ قد يعتقد البعض أنني أقوم بإشهار لفيليب أرياس الذي يلامس بحثه حقل بحوثي، وهو جدير من دون شك بالاهتمام نظراً إلى حداثة التمشي الذي اتبعه وتمثيليته.

قطعاً، إن تاريخاً ضمن مدى طويل أساسي، شأنه في ذلك شأن المواقف الجماعية أمام الموت، يتحرك بالنسبة إليه في استقلالية حقيقية: استقلالية بالنسبة إلى ضغوطات الديمغرافيا، وبالنسبة إلى البنى، مثل التمثلات الاجتماعية، وحتى بالنسبة إلى الصياغات الأيديولوجية ـ دينية أو فلسفية ـ وهو الأغرب. من خلال استقلالية «اللاوعي الجماعي» الذي تدفعه جدلية ذاتية، تتبع فيليب أرياس

(36) لقد أعلن بروديل عن ذلك في مقاله المرجعي مع مواصلة الحلم بالتاريخ.

انزلاقات المدى الطويل التي تعطي للظاهرة حياتها الخاصة.

هل أن فيليب أرياس هو حالة قصوى وطريفة؟ لا اعتقد ذلك. لقد كان له الفضل الكبير في التعبير بوضوح عما لم يعبّر عنه في كثير من الحالات في مجالات أخرى. وليس من العسير اليوم أن نجد في هذا الحقل الذي هو اليوم موضوع بحث من طرف مؤرخي العائلة، قراءة قريبة بأي شكل من الأشكال من قراءة فيليب أرياس. حتى الإثنولوجيا التاريخية مثلها مثل تاريخ الحضارة المادية، يجدان صعوبة في إقحام نفس تاريخي لديمومتهما، تحدوهما الرغبة في القول بوجود زمن بالغ الطول، ولكنه زمن خاص.

وها نحن نرى أين بلغت هذه المسيرة التي نلخصها في مجالين متصلين: **الأول** ويعني التاريخ، وفي هذه الحالة التاريخ الثابت، **والثاني** يتعلق بإعادة النظر في مفهوم التغيّرات والتحوّلات المفاجئة في التاريخ، وفي كلمة واحدة «فكرة الثورة».

إن الأفق الأول (حتى لا نقول الخطر الأول)، لم يتغافل عنه فرناند بروديل، وهو يكتب في الحقيقة في فترة تميّزت بقوة ضغط تقدم العلوم الإنسانية، والأفضل أن نترك لبيار فيلار الذي عايش تلك المرحلة ليذكر بدعابته المحتشمة تلك النقاشات الداخلية: «لقد كان بروديل يريد أن يغرى. هذه التجديدات تدفع في اتجاهه، وهو اتجاه الصمود أمام التغيّرات، لكنه يحب مهنته. والمؤرخ يحب الزمن الطويل، ومن دون زمن تماماً ليس له إلا الفناء»[37].

لقد أنقذ بروديل من هذا الإغراء بفعل انعكاسي يكاد يكون

---

(37) Pierre Vilar, «Histoire marxiste, histoire en construction,» dans: Jacques Le Goff et Pierre Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, bibliothèque des histoires; 17, 3 vols. ([Paris]: Gallimard, [1974]), vol. I, p. 195.

أخلاقياً، حتى لا نقول حرفياً، فهل تخلَّص نهائياً من فكرة الزمن الثابت التي عبّر عنها بقلمه؟ يبدو أن ذلك لم يحصل، باعتبار ما جاء به أ. لو روا لادوري في خطابه البرنامجي الذي قدمه بمناسبة دخوله معهد فرنسا سنة 1975، والذي عنونه: «التاريخ الجامد». لا نقول مؤرّخ اللانغدوك أكثر أو خلاف ما أراد أن يقول: إن تاريخه ليس تاريخاً جامداً بصورة نهائية. هناك فترات طويلة تميزت بانعدام الحركة: من القرن الرابع عشر تقريبا إلى بداية القرن الثامن عشر، أي حوالى 1720 من دون شك، ولكن بعد ذلك تتغير الأشياء والمؤشرات على ذلك ـ كالتحكم في الأرض، والسكن، والإنتاج، والديمغرافيا، والوسائل والآليات الذهنية ـ تقفز وتتحرك من غير شك.

ثم على امتداد هذه الفترات الطويلة جداً، والتي تكاد تنعدم فيها الحركة، يوجد كثير من التموجات البطيئة في أغلب الأحيان، والمرتعشة في بعضها الآخر بصورة متوسطة سواء في ما يخص الحراك البشري أو اتساع حجم العائلة أو اشتعال الانتفاضات الشعبية.

وفي ما تبقى، إذا كان لو روا لادوري قد اعتمد بهذه الصورة مفهوم «البنية» البروديلي (Structure braudélienne) «التي تعتبر بلا شك تركيباً وهندسة، بل أكثر من ذلك واقعاً لم يؤثر فيه الزمن كثيراً، ونقله ببطء»، وهو توافق ينقذ حركة التاريخ في آخر لحظة، فهو لم يعد أبداً سيّداً لهذه اللعبة التي بلغ فيها غيره شوطاً أبعد.

لقد تساءل بروديل، انطلاقاً من التفكير الإثنوغرافي، حول وجود ثوابت تاريخية للسمات البسيطة للسلوك التي تتواصل ضمن مدى بالغ الطول (انظر على سبيل المثال مسألة انتهاك المحارم) حتى تضيع خارج دائرة الزمن بصورة واقعية أو في مسألة الجذور البعيدة أو ما شابهها؟

وقد يجازف بصورة فيها استفزاز بخلق مصطلحات جديدة قصد التعبير عن معطيات مثل «غوستام» (Gustèmes) و«ميتام» (Mythèmes). بالنسبة إلى عبارة «ميتام» التي تفيد تلك الوحدات الأسطورية الصغرى، يمكن لنا تحسس وجودها وحتى اكتشاف أنها اعترضتنا عندما نفسح الطريق أمام واحد من علمائنا المختصين في الأنثروبولوجيا التاريخية ليرشدنا مثل كلود غنيوبار (Claude Gaignebert) في محاولته حول «الكرنفال»[38]: إن «الميتام» هي تلك البنى الانقلابية أو النتائج الخفية للاحتفالات الشعبية منذ ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا، تعيد استعمال الوثنيات الفلاحية، أو على الأقل تلك الديانة القديمة السابقة للمسيحية، لفائدة النهج الصفائي نفسه للحركة، أو تعيد اكتشاف صور ومواقف قديمة قدم العالم.

يحملنا الضجيج وحفلات المجانين وأعياد المحبين ورقصات المضحكين الزائلة، في شطحاتها إلى الجذور، وربما أبعد من ذلك، كما قال رابليه.

هل تمكّن الزمن من أن يوصل هذه الملاحم وهذه الأساطير المفتتة التي يحتفظ بها إلى خطاب المختصين في الفولكلور - ولكن في أي حالة؟ - من المفاتيح البالغة السرية لفهم السلوكيات أو البنى الشكلية المفرغة من أي معنى، ومن أي محتوى واقعي؟ لنترك خرفان بانورج (Panurge) المعاصرين يقتتلون من أجل فك رموز هذه الكلمات أو تلك الملاحم الجامدة كما لوأنها ترجع إلى العهد الجليدي: فلنحولها لصالحنا بالمناسبة. وإذا ما توصلوا في نهاية

---

(38) Claude Gaignebet et Marie-Claude Florentin, *Le Carnaval: Essais de mythologie populaire*, le regard de l'histoire, préf. de Claude Mettra (Paris: Payot, 1974).

المطاف، كما توصل بانورج، إلى اكتشاف منفذ، فليكن ذلك مباركاً عليهم.

رفض الحدث

إن التكملة، وخاصة الوجه الآخر لهذا الغوص في البحث عن الأصول أو الثوابت، وقد قلنا ذلك، هو ليس فقط اتهام للحدث الأحمق والشرير، وإنما أيضاً للتغييرات المفاجئة ولكل «التحولات» الساخنة (وهي عبارة لم يستسغها بروديل). إن من الصعب الخروج من هذه البنى الشديدة الانغلاق وغير المنظمة: هذا **التاريخ الجديد** يمكن أن تعوقه الحركة كما أعاق بطؤها الآخر. وإذا كان من المسلمات أن فكرة «أزمة» و «ثورة» تحيل على قراءة آلية للسببية التاريخية (لم تكن هذه القراءة الآلية قراءة لابروس الذي لاحظ بعفوية فيها مراوغة أنه إذا كانت هناك أزمات عشرية لا يعني ذلك وقوع ثورات عشرية)، فقد أصبحت هناك رغبة بالنسبة إلى كتابة تاريخية لا تفرق بين الماركسية الضحلة والماركسية في حدّ ذاتها أن تلقي بصورة نهائية بالمولود، الثقيل المتمثل في الثورة، مع ماء الغسيل.

لقد تساءلنا في وقت ما من خلال بعض المداخلات التي ألقيت في أثناء ملتقى وقع أخيراً حول جذور الثورة الفرنسية[39]: هل وجدت هذه الثورة فعلاً؟ الثورة؟ إنها أسطورة، وفي القراءة التقليدية التي تعتبرها انكساراً كبيراً في التاريخ الحديث، تقسم المسارات الوطنية الفرنسية إلى مرحلتين، وهي «إرث أيديولوجي» بحسب تعبير ف. فوريه. لتقرأ في هذا الصدد كتابات ف. فوريه ود. ريشيه

---

(39) وقع هذا الملتقي في مدينة غوتنغن (Göttingen) سنة 1974.

وتلامذتهما الذين طوّروا قراءات جديدة للفعل الثوري، فتشكل ثورة الأنوار الحقيقية، وتكوّن «نخبة» متناسقة تجمع ما بين النبلاء والبورجوازيين في إطار حداثة جنينية البدء قد وقعت حقيقة قبل سنة 1789. أما الحدث في حد ذاته، فكل ما فعله هو أنه كدّر مسار هذه الآفاق التي يحملها التاريخ، وجعلها تأخذ اتجاهاً كما كان يجب أن يحدث من خلال منظور الجماهير الشعبية ذات النظرة الماضوية، والحاملة لأيديولوجيا وقع تجاوزها. لقد انعطفت نتيجة لذلك مسارات المجتمع الفرنسي، إذ لا ننسى أن صغار الفلاحين الفرنسيين عرفوا متنفساً لمدة قرن من الزمن. ومن خلالها كان ظهور الحدث، أو قل انحشار الزمن القصير، وهو وإن لم يكن تافهاً، فإنه يخرج عن الخط المستقيم للتاريخ كما كان يجب أن يكون. وهذا هو معنى القراءة التي تبرز الثورة الفرنسية على أنها انزلاق في مسار التاريخ، وهي القراءة التي يقترحها ف. فوريه ود. ريشيه، والتي أثارت الجدل قبل خمس عشرة سنة.

يجب ألا ننفخ على النار: هناك أمثلة أخرى عديدة، وهي ليست أقل إثارة للجدل ولا أقل ريبة. وإذا أردنا أن نضرب في الأعماق، فلننظر إلى انقطاع مثل الذي يمثله الطاعون الأسود سنة 1348. ومن المتفق عليه من خلال القراءة التقليدية أن الطاعون الأسود قطع العصر الوسيط إلى فترتين، فهو تصاعدي في فترة أولى، ثم تنازلي في فترة ثانية إلى منتصف القرن الخامس عشر. وفي النهاية، هناك دراسة تاريخية ليست بالقديمة، وهي من الناحية المنهجية متقدمة جداً، وهي أعطت قيمة لهذه القطيعة الحدث ـ الجرح: لقد بيّن ميلار مايس (Millard Meiss) بدقة، من خلال تحليله الفن الفلورنتي والسياني (Art florentin et siennois) في منتصف القرن الرابع عشر، وجود آثار هذا الجرح في الذهن

الجماعي[40]. وانطلاقاً من هذا التاريخ، ومن دون أن ندخل في الجزئيات، نعرف بصورة عامة أنه وقع الحط في بعض الكتابات التاريخية من قيمة الطاعون الأسود كحدث فاصل في التاريخ الوسيط. إن المنعرج الحقيقي قد أرجع أحياناً إلى قبل 1315، وحتى إلى نهاية القرن الثالث عشر. وبحسب هذه الكتابات التاريخية ليس الطاعون الأسود هو الذي أثر في الديمغرافيا، وإنما تعدد الطواعين المتقاربة في الزمن التي جاءت بعد ذلك التاريخ. وفي إيطاليا، وفي بعض الأحيان في غيرها من البلدان، نشطت الحياة الديمغرافية، ولا وجود لمنخفض ديمغرافي كبير في أواخر العصر الوسيط ... وبكثير من التدقيق والتنسيب، لم يعد الطاعون الأسود موجوداً، إذ يبدو وكأنه اختفى عند فيليب أرياس الذي لا يقبل بوجود هذه الانقطاعات الفجئية عبر نموذج طويل المدى، ويحاول كيفما استطاع - وفي نظري لم ينجح في ذلك (انظر: **هويزنغا والموضوع المأتمي**، ثم **الإنسان أمام الموت**)[41] - تحميل انعدام لياقة المأتمي لانهيار العصر الوسيط. أليس من الجدير أن نحدّد جدلية جديدة بين الزمن القصير والزمن الطويل في التاريخ عوضاً عن إعادة اكتشاف الحدث؟

جدلية جديدة للزمن القصير والزمن الطويل

من المفروض إذن أن نلاحظ أن مسالك الاكتشافات التاريخية

---

(40) Millard Meiss, *Painting in Florence and Siena after the Black Death: The Arts, Religion and Society in the Mid-Fourteenth Century* (New York: Harper and Row, 1964).

(41) Philippe Ariès, «Huizinga et les thèmes macabres,» dans: *Johan Huizinga, 1877-1972. Papers Delivered to the Johan Huizinga Conference, Groningen 11-15 December 1972*, Edited by W. R. H. Koops, E. H. Kossmann and Gees van der Plaat (The Hague: Nijhof, 1973), pp. 104-115, et Philippe Ariès, *L'Homme devant la mort*, l'univers historique (Paris: Editions du seuil, 1977).

لا تمر بمسالك الزمن الطويل فقط. وبالموازاة لذلك، يبرز بإلحاح تساؤل حول التغيير الذي يحدث بصورة مفاجئة ومتدرجة. وعندما نحاول في هذا المجال أيضاً أن نرصد المحطات التاريخية في شكل جداول، يكون من المناسب أن ننطلق من الدور الجديد المنسوب إلى الحدث الذي يتراءى في أكثر من مكان.

عندما ضمن م. كروبلييه (M. Crubellier) سنة 1965 في برنامج «ملتقى التاريخ الاجتماعي» الذي عقد في سان كلو تمجيداً للحدث، وبالغ في ذلك، قد يقال إن ذلك ليس إلا مرافعة دفاعية عن قضية خاسرة[42]. وعندما أعلن بيار نورا، عشر سنوات بعد ذلك في كتاب: **صناعة التاريخ** عن «عودة الحدث»، فهو ليسجل، بوصفه مؤرخاً للعصر الحاضر، عنف الحدث المحدّد وتستره الذي يفرض نفسه من دون مناقشة، ويزداد ضخامة من خلال المبالغة التي تضفيها عليه وسائل الإعلام، ولكنه تجسيداً للفكرة ـ القوة التي تتحول إلى واقع مادي عندما تجتاح الجماهير بحسب الفكرة الشهيرة لماركس[43].

قد تظل إعادة الاعتبار للحدث، وقد قام بها بيار نورا، حتى وإن بدت مقنعة، غامضة من بعض وجهات النظر. فإذا أخذت بصورة سطحية ضمن قراءة موجزة يمكن أن نرى فيها موقفاً من المواقف المختلفة حول الموضوع القديم المتعلق بتسارع التاريخ. ويكفي أن نحدد نقطة الانطلاق في فترة معاصرة لنرى الحركية والحالات العصبية تبرز في شكل أحداث، وهي التي كانت فترات

(42) *L'Histoire sociale. Sources et méthodes. Colloque de l'école normale supérieure de Saint-Cloud, 15-16 mai 1965*, pp. 35 sq.

(43) Jacques Le Goff et Pierre Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, bibliothèque des histoires; 17, 3 vols. ([Paris]: Gallimard, [1974]), vol. 1, pp. 210-228.

طويلة من الثبات أو التطورات البطيئة في ما سبق.

وفي هذا المستوى يمكن أن يحدث تقارب بين مؤرخ التاريخ الجامد (أ. لو روا لادوري: بدأ التاريخ يتحرك حوالى سنة 1720 بعد مرور أربعة قرون من التذبذب حول مستوى يكاد يكون قاراً) وبين الإثنوغرافي. أما بالنسبة إلى فارانياك (Varagnac)، كما هو بالنسبة إلى المختصين في الفولكلور، فتهتز بنى المجتمعات التقليدية التي تكاد تكون كتلة جامدة في تاريخ قريب هو سنة 1870 أو 1914 - 1918، ولا يهم متى بدأ ذلك، لأنها تواريخ مرجعية يتأكد معها انهيار نظام ضارب في القدم.

تحقيق في فرنسا الغربية

أعتقد أنه يجب تجاوز هذه المرحلة على رغم أنها مرحلة هامة: لأنه يمكننا أن نلاحظ أن الحدث (أو لتجنب أي لبس التحول الفجئي) هو أبعد من أن يكون من مميزات الفترة المعاصرة، فهناك عدة بحوث أنجزت طيلة العشرين سنة الماضية تمحورت حول جدلية الزمن القصير والزمن الطويل وحول تحركات الحدث والمدى الطويل.

للتعبير عن مختلف الإجراءات التي من خلالها أنجز هذا التاريخ الإشكالي، تفرض بعض الأمثلة نفسها بحثاً عن أجوبة لتساؤلات من خلال تحقيقات تراجعية. لقد كانت أطروحة بول بوا (Paul Bois): **الفلاحون في غرب فرنسا** عبارة عن مراوحة بين البنية والحدث، مروراً بالمدى الطويل. وكان المرور من الحدث إلى المدى الطويل باتباع مسالك التاريخ التراجعي، وهو ما نجده أيضاً في المنهج الذي اتبعه م. أغولون، كما نجده في أبحاثي سواء ما تعلق منها بالموت أو بالاحتفال.

نشر بحث بول بوا[44] سنة 1960، وهو الذي ما فتئت أهميته المنهجية تتأكد منذ ذلك التاريخ. لقد فتح مسالك جديدة وقدم برهنة تكاد تكون نموذجية. انطلق ب. بوا، بطريقة تقليدية في ظاهرها، من إحدى المقاطعات في فرنسا الغربية، وهي مقاطعة السارت (Sarthe) في نهاية القرن التاسع عشر. لم تكن الحالة التي وجدها بكراً، فهي تعكس من خلال الأفكار المسلمة التي رسمتها «لوحة فرنسا الغربية» من تأليف أ. سيغفريد[45] (A. Siegfried) ملامح الزمن القصير لعالم الاجتماع، والذي هو في الوقت نفسه زمن بالغ الطول. يجب أن نفهم أن المقصود هو واقع البنى التي تعتبر إرثاً طويل المدى، بل ربما هي حتمية لا زمن لها: المزارع المسيّجة، والسكن المشتت، والهيمنة المزدوجة لقصر السيد الفيودالي والكنيسة... لقد تجلى للمؤلف بسرعة، ومن خلال التحقيق، أن هذا التاريخ لم يكن ثابتاً إلا في ظاهره.

هناك حدّ فاصل يقسم الفلاحين إلى مجموعتين: ملكيون أو ثائرون باسم الملك في الغرب، وجمهوريون في الشرق. ولا يسمح الحد الفاصل الذي ذكر آنفاً ـ والمتمثل في مزارع مسيّجة، ورجل الدين وسيدنا ـ بأي تفسير معقول على أرض الواقع. لقد بحث المؤلف عن هذا الحد الفاصل في التاريخ، راجعاً إلى الوراء حتى وصل إلى الحدث المدقق الذي وقعت فيه القطيعة، أي إلى زمن الثورة الفرنسية. وقد تبيّن أن مجموعتين فلاحيتين مختلفتين من حيث

---

(44) Paul Bois, *Paysans de l'ouest: Des Structures économiques et sociales aux options politiques depuis l'époque révolutionnaire, dans la Sarthe*, science ([Paris]: Flammarion, [1971]).

(45) André Siegfried, *Tableau politique de la France de l'ouest sous la troisième république* (Paris: Armand Colin, 1913).

البنية، وخاصة من حيث الديناميكية، ومن حيث العدوانية، قد ثبتتا بصورة نهائية اختياراتهما الجماعية.

نشعر حتى من خلال هذا التلخيص الشديد الاقتضاب، إلى أي مدى يحمل هذا التجريب النموذجي في طياته رسالة ثرية وغامضة في الوقت نفسه. إنه من ناحية يبرر التحقيق الطويل المدى والغوص في الماضي السحيق الذي منه تنطلق خصائص سلوك لا يزال متواصلاً في حالة ثبات حقيقية إلى يومنا هذا، على رغم اندثار الظروف الأولى لنشأته. وهو ما يمكن أن يعتبر حجة من الحجم الثقيل تضاف إلى ملف «ثبات البنى الذهنية».

ولكن عكس ذلك أو تكملةً له، يستعيد الزمن القصير كل أهميته، فهو زمن الجرح الأصلي وزمن القطيعة التي وقعت إبان الثورة، والتي من خلالها تشكلت، ولفترة طويلة من الزمن، مجموعة ثائرة باسم الملك ومجموعة أخرى يعقوبية (Jacobine)، تفصل بينهما حدود تخلدها خرائطنا الانتخابية إلى يومنا هذا. هل هو زمن قصير أم زمن طويل؟ فهذا التحكيم الذي لم يكن باتفاق برجوازي، يضع كل واحد في مكانه، إذ يكشف على الأقل شكلاً من أشكال المدى البالغ الطول: وهو مدى الحتميات اللازمنية، ليبرز ما يمكن أن نسميه، كما سماه ب. فيلار (P. Vilar) بالزمن «المتوسط الطول». وهذه التسمية، وإن لم تكن جميلة، فهي تعبِّر تقريباً أحسن من غيرها على ذلك المدى الذي يحتاج اليه حتماً المؤرخ لكي يشتغل في إطاره بارتياح .

من الحدث إلى المدى الطويل

قد يحتاج ب. بوا إلى تقديم الجواب عن أحد الأسئلة التي أثارها بحثه، وهو الكيفية التي انتقلت بواسطتها المواقف، كي لا

نقول الرسالة. نتعرف من خلال بحثه على نقطة الوصول، ونعود إلى نقطة البدء، ولكن بينهما يوجد مشكل آخر، وهو عمل الذاكرة الجماعية، واعية أكانت أم لم تكن، فعندما بدأ فيليب جوتار تتبع تناسخ ذاكرة متجذرة ـ حول حدث آخر له وقعه بما أنه يتعلق بحرب الكاميزار في منطقة السيفان[46] (Les Cévennes) ـ من خلال الأثر المكتوب ومن خلال التحقيق الشفوي المباشر اليوم، فهو يتناول إذا شئنا الإشكالية نفسها من جهة أخرى، وذلك بقلب المعطيات وإجراءات التحليل، وهو يعرف من أين يبدأ. ولكن هنا نعيد محاولة التخفيف، في إطار الديمومة، من وزن حدث عبّر عن منعطف جوهري. كان بول بوا قد انطلق من بنية، فوجد الحدث من دون أن يكون هناك تناقض في المنهج، في حين انطلق غيره من الحدث ليعيد اكتشاف البنية.

يبدو أن موريس أغولون، في مجمل أبحاثه التي تتمحور حول منطقة البروفانس (La Provence) الشرقية، قد انطلق من حدث محدود في الزمن، وهو انتفاضة منطقة البروفانس سنة 1851 للدفاع عن الجمهورية، أو إذا شئنا من البروز غير المنتظر لهذه المنطقة من الجنوب الفرنسي الـ «حمراء اللون» ـ وستظل كذلك بصورة دائمة إلى يومنا هذا ـ بوصفها نقيضاً لجنوب «أبيض اللون» خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر .

من خلال التحقيق الاجتماعي المعمّق في مجتمعات القرى المتحضرة، وتيسيراً للأمر، لن نحتفظ إلا ببعض المظاهر، ومنها تمكّن أغولون من دخول بعض «البيوتات» ـ وهي جمعيات سرية

---

(46) Philippe Joutard, *La Légende des Camisards: Une Sensibilité au passé*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1977).

تناضل من أجل الجمهورية ـ ذات البنى الاجتماعوية التي بحث عنها في ظل النظام القديم، مروراً بالنوادي الثورية في عهد الجمهورية الأولى، ليكتشف في القرن الثامن عشر كثافة الأشكال الجمعياتية الرجالية التي لم تكن طرق التوابين إلا تعبيراً صارخاً عنها.

ولكن هذه البنية الشكلية القارة تخفي في الحقيقة حراكاً واقعياً، بما أن المؤلف في بحثه الرئيسي حول: **التوابين والبنائين الأحرار** (Pénitents et Francs-Maçons) قد برهن عن كيفية هجرة النخب البروفانسية لطرق «التوابين» في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، لتجد نفسها في الجمعيات الماسونية الأكثر ملاءمة لطموحاتها الجديدة. وفي هذا المضمار تأكد بصورة استثنائية ثراء جدلية الزمن القصير والزمن الطويل، وذلك من خلال غوص ارتدادي في المدى المتوسط الطول لتكشف عن تطور بطيء، ويمكن أن يكمن عنصر الثبات هنا في «الاجتماعوية» (Sociabilité)، وهو الجانب الذي منحه المؤلف في الوقت ذاته أهميته ومحدوديته بوصفه ركيزةً شكلية لتاريخ متحرك[47].

ولم يكن الإجراء الذي طبقته لتحليل ظاهرة تراجع الاعتقاد في المسيحية من العصر الكلاسيكي إلى الثورة الفرنسية ينطلق من منطلقات مختلفة. إن الحدث الأصلي والدقيق تمثل في الاشتعال الفرجوي الذي عرفته الحركة المنفرة في المسيحية خلال السنة الثانية من تاريخ الثورة الفرنسية والتي وقع تحليلها ورسم أبرز مظاهرها

---

(47) Maurice Agulhon: *Vie sociale en Provence intérieure au lendemain de la révolution*, bibliothèque d'histoire révolutionnaire. 3e série; 12 (Paris: Société des études robespierristes, 1970), et *Pénitents et francs-maçons de l'ancienne Provence*, l'histoire sans frontières (Paris: Fayard, 1968).

على خرائط في الربع الجنوب ـ شرقي لفرنسا. وهو ليس نموذجاً للحدث «المأساوي» فقط، وإنما الفضائحي، إلى درجة أن كل الكتابات التاريخية أرادت أن تتجاهل هذا النشاز التاريخي. وبما أني لم أجد في حتميات الزمن الثوري القصير ـ كالسياسة العامة والمبادرات المحلية لممثلي الجمعيات الدينية أو النوادي ـ التفسير الكافي لخريطة متدرجة ومهيكلة، التجأت إلى تتبع نظام الممارسة الدينية والتديّن «المنفر»، وذلك في مراحله المتتالية (في أوجه، وفي تفككه، وأخيراً في انهياره) طيلة الزمن الذي يمثله قرن النور في معناه الواسع، وذلك من خلال مؤشر ثمين وثري تجسّم في آلاف الوصايا التي خلفها البروفانسيون. وقد اعتمدت في الإطار الزمني نفسه على حدث هو بمثابة المنعرج الذي أثر حوالى سنة 1750 في الحساسية الجماعية عبر السلوكيات أمام الموت[48].

كان النموذج الذي وقع تجريبه في منطقة البروفانس نموذجاً عملياً، ولكن ينقصه التأكيد من خلال مقارنته بجهات أخرى، وهو ما تم مع: **الموت في باريس** ثمرة بحوث بيار شونو وفريقه[49]. ثم بالنظر إلى نظام الأبهة الباروكية في أوجها ـ حوالى سنة 1680 ـ لم نستطع سوى تتبع المنحنى النازل منه، في حين كان التحقيق الخاص بباريس قد ذهب أبعد من ذلك، وبيّن كيف نشأ هذا النظام من منتصف القرن السادس عشر إلى منتصف القرن السابع عشر. وقد

---

(48) Michel Vovelle: *Piété baroque et déchristianisation en Provence au XVIIIe siècle: Attitudes devant la mort d'après les clauses des testaments*, points. Histoire; 34 (Paris: Editions du seuil, 1978), et *Réligion et révolution: La Déchristianisation de l'an II*, le temps et les hommes ([Paris]: Hachette, 1976).

(49) Pierre Chaunu, *La Mort à Paris: XVIe, XVIIe et XVIIIe siècles* (Paris: Fayard, 1978).

فقدت فكرة البنية في ذلك، كما استعملها ميدانياً المؤرخون الاجتماعيون ومؤرخو الذهنيات، صلابتها وكل جمودها، من خلال التعبير عن التقاء جملة من خطوط تنتظم بلا شك في نظام متجانس، ولكن في إطار توازن غير ثابت، ومن خلال نفس هو نفس التاريخ.

هل توجد تحولات في التاريخ؟

أخاف أن أبدو وكأنني منساق، من خلال بحوثي، نحو التساهل بتطوير تدليل آخر على هذا الإجراء الجدلي الذي يجمع بين الزمن القصير والزمن الطويل. في كل الحالات، كانت الرغبة نفسها هي التي أدت إلى تحليل: **تحولات الاحتفال في منطقة البروفانس من 1750 إلى 1820**[(50)]، وذلك بالتعبير بوضوح عن وجود لقاء بين نظام احتفالي متعارف عليه، وهو احتفال شعبي وفير وحي و«فولكلوري»، قبل ميلاد كلمة «فولكلور»، من ناحية، والاحتفال الثوري والوطني والمدني، وهو احتفال يستجيب لترميز آخر، من ناحية ثانية. هل وجد بين هذين الاحتفالين تلاقح أو تعايش أو تنافر؟

النتيجة نسبية: الاحتفال الثوري يعطي الفرصة، خاصة على المستوى المحلي، لموروث احتفالي قديم ومكبوت كما يعبِّر عن ذلك الاحتفال الكرنفالي الذي يهيمن على الحفلات المقنعة في السنة الثانية من تاريخ الثورة الفرنسية. استنتاجي لا يتعارض أبداً مع استنتاج منى أوزوف (Mona Ozouf) في كتابها: **الاحتفال الثوري**[(51)]: تشهد الطقوس الثورية، وهي ملتقى الماضي والمستقبل،

---

(50) Michel Vovelle, *Les Métamorphoses de la fête en Provence de 1750 à 1820*, bibliothèque d'éthnologie historique, avec la collaboration de Mireille Meyer et Danielle Rua ([Paris]: Flammarion; Aubier, 1976).

(51) Mona Ozouf, *La Fête révolutionnaire, 1789-1799*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1976).

بروز مقدس جديد وتجربته. وهو المقدس الذي سيسيطر على أشكال التديّن المدني والوطني في أثناء القرن التاسع عشر.

ولا نستطيع، في هذه المرحلة من البرهنة، تحاشي الاعتراض غير القطعي الذي توقعه ف. بروديل في مقاله المرجعي: لنقل بالتحول المفاجئ، أو بالحدث الانفجاري، ولكن هل هو خلاق فعلاً؟ ألم يكن ف. بروديل هنا بهذا الاعتراض مكتفياً بالحكم على نتيجة تطور ثابت ذي أمد طويل، وإن لزم الأمر بصورة مبالغة؟

إن محاولة كمحاولة منى أوزوف حول مسألة دقيقة تجيب بصورة جزئية عن هذا التساؤل. هل هناك، بصورة ظاهرية، ظاهرة أكثر غرابة، «من دون ماض» و«من دون مستقبل»، مثل الكائن العلوي الذي تذكره الأغاني، كالاحتفال الثوري؟ ولكن هذا الاحتفال نجده حاملاً لمستقبل، فهو تعبير مميز ومكثف عن خطاب أيديولوجي. ومن وراء الحدث المحرك أو ببساطة الحدث الصدى، هل توجد للتوّ إبداعية آنية؟

وأتذكر صدى النقاش الذي تجاوز المجال الأكاديمي الذي وضعني وجهاً لوجه مع أ. سوبول (A. Soboul) عندما قدمت النتائج الأولى لمقاربتي ذات الأمد الطويل حول التراجع الاعتقادي للمسيحية في القرن الثامن عشر. لقد عارضني مؤرخ اليعقوبية بأمثلة الخلق الآني للتدين الثوري: نساء وطنيات قديسات وشهداء الحرية وخفقات قلب مارا (Marat)، وكل هذه التظاهرات التي، حتى وإن لم يكن لها من غد، تبدو أكثر قيمة من عجائب اللحظة. من كان على صواب؟ لا أحد كان مخطئاً بكل تأكيد.

وخاتمةً مؤقتة حول هذه المسألة الجوهرية المتعلقة بجدلية الزمن القصير والأمد الطويل، فليسمح لي قبل أن أغلق الباب حول اهتماماتي المعهودة أن أثير موضوعاً قديماً، هو تاريخ الموت. إنه

أحسن تمرين، إذا كان يمكن الحديث عن تمرين لتاريخ الأمد الطويل. إن الموت، ومن دون دعابة سلبية، كان من الثوابت المثالية. وأعتقد أنني ألامس واحدة من الصعوبات الجوهرية للمشكل عندما أغضب (بودّ طبعاً، وليصفح عني المؤلف) لاكتشاف هذه الفترات الزمنية الطويلة من دون صدام ومن دون أحداث تذكر عند فيليب أرياس، كما يمكن القول في السياق نفسه إن المأتمي في نهاية العصر الوسيط قد وقع حجبه، ولن نقشعر أمام المشاهد الباروكية ما بين 1580 و1630، ولا نقشعر أكثر أمام عودة الأفكار السوداء والشعر البكائي عشية عصر الأنوار. أما عن المنعطف التراجيدي لما نسميه مجازا «الفترة الجميلة»، كتب المؤلف ذات يوم أن المأتمي في تلك الفترة كان من الأشياء التي جلبت فضول بعض الفنانين البلجيكيين والألمان. . . فضول في عصر الرمزيين والمتدهورين مثل: هويسمان (Huysmans)، مونش (Munch)، إيبسن (Ibsen)، دانونزيو (D'Annunzio)، أو توماس مان (Thomas Mann). . . وفي ما يخصني، أجدني مندهشاً أمام أهمية هذه الأزمات الكبرى للحساسية الجماعية التي لم تعد مجرد فضول أدبي، وإنما توقع بحدة، وإلى أقصى حدّ، مراحل تاريخ لحساسية ليست من الجمود في شيء.

وليس الموت في هذا المضمار إلا مثالاً، أو جزءاً من كل، ففي عمل توليفي حديث: **حساسية ما قبل الثورة**، طرحت سؤالاً بسيطاً في ظاهره هو: ما الذي حدث حوالى سنة 1750؟ وهو سؤال قديم (قد يقول البعض إن التاريخ الأدبي قد أجاب عنه منذ زمن بعيد)، ولكنه متجدد بالنسبة إلى كل المقاربات الحديثة للتاريخ الجداولي. لننظر إلى عدد المنحنيات ذات التنوع المفرح: ولادات غير شرعية، وحمل قبل الزواج، وجنح، وحركية المكتبات، ومطالب أدعية أو سيامة.

لقد تغيّرت النظرة إلى العالم في فرنسا في سنوات 1760 لدى جميع الناس، وليس لدى النخبة فقط. وكما كان الأمر في دروس السماع عندما كنا في سن الطفولة، يرتسم إيقاع الأزمات بالمعنى الواسع بعقده وتجويفاته. وهذه الأزمات ليست نتيجة للتسارع المعاصر للتاريخ، كما أنها ليست رغوة سطحية لتاريخ ثابت في مجمله.

يبدو لي أنه يجب إعادة تعريف جدلية الزمن القصير والزمن الطويل: وهو تمرين ليست فيه أسرار بالنسبة إلى المؤرخ الاقتصادي أو (عالم الديمغرافيا)، إلا أنه على الباحث في حقول التاريخ الاجتماعي والذهنيات أن يواجهه. ولكن واحداً من أسباب هذا الانسداد ـ المؤقت بلا شك ـ ألا تكون تلك الصعوبة في التوصل إلى تناسق الأزمنة بين مختلف حقول البحث؟

جوهر المشكل: تناسق الأزمنة

في الحقيقة، أعتقد أن مسألة جدلية الزمن القصير والزمن الطويل ستبدو في وقت قريب مسألة تجاوزها الزمن، ومحددة تاريخياً بلا شك. وستكون مؤرخة مثل التطوع اليعقوبي تقريباً، ومما لا شك فيه، مثل «تحريفية» عصرنا التي تسعى بطريقة سحرية إلى اقتلاع الصورة «المتقادمة» (أو «الإرث الأيديولوجي» بحسب ف. فوريه للثورة). ولكن لن تكون هناك تسوية بورجوازية، وإنما تجاوز جدلي. في ما عدا ذلك، إذا بدا هذا الحوار في المستقبل القريب بوصفه تمريناً أسلوبياً، فسيكون على الأقل، قياساً بالأمثلة التي تعرضنا إليها، مثيراً ومساهماً في تطوير شكل آخر من التساؤلات.

سيكون أمراً صعباً، على ما يبدو لي، أن يحصل اتفاق حول ما أسميه بنوع من السهولة «تناسق» الأزمنة، أو إن شئنا «تعانق الأزمنة»

على حدّ تعبير ألتوسير. أشعر مثل بيار فيلار بتأثير ملاحظة ألتوسير التي تبدو مصوغة ببساطة، ولكنها عميقة الدقة في ما يتعلق بتخلف تفكير المؤرخين «التجريبيين». لقد كتب في هذا الصدد ما يلي: «لقد بدأ المؤرخون يطرحون تساؤلات، ولكنهم يقتصرون على ملاحظة وجود أزمنة طويلة، وأخرى متوسطة الطول، وأخرى قصيرة، ويلاحظون التداخل بينها كما لو أن ذلك هو نتاج التقاء هذه الأزمنة، وليس نتاجاً للكل الذي يسيّرها: نمط الإنتاج»[52].

إن حذر المؤرخين، وهو حذر بلا مبرر، وخاصة أولئك الذين ينسبون أنفسهم إلى الماركسية، متأت بلا شك، في ظل الانفجار الحالي وفي كل الاتجاهات لعلم التاريخ (**من الدهليز إلى ما فوق السطوح**)، من وضعهم في أغلب الأحيان في سجن (الأمد الطويل) الذي تسميه الماركسية المبسطة التي تربط فيها جدلية ميكانيكية بين البنية التحتية والبنى الفوقية الأيديولوجية بصورة آلية.

هذه القراءة التي يسهل دحضها بقدر ما يتعقد الزمن التاريخي بفعل اكتشاف حقول جديدة، قد تكون تيسّرت بتخوف المؤرخين الماركسيين، إلى فترة قريبة، من تناول ذلك «المستوى الثالث» لتفسير التاريخ المخصص للمؤرخين «الأكثر دراية».

نثمّن في ذلك الظرف للكتابة التاريخية تبصّر إرنست لابروس سنة 1965، عندما دعا المؤرخين إلى تناول المستوى الثالث الذي اعتدنا على تسميته بـ «تاريخ الذهنيات» في البحث. في تلك المرحلة التي لا توجد تقريباً إلا أطروحة بول بوا (**فلاحو الغرب الفرنسي**) التي تطرح تجربة تناول البنى الاقتصادية والاجتماعية بربطها بالمواقف

---

(52) Vilar, «Histoire marxiste, histoire en construction,» dans: Le Goff et Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, vol. I, p. 187.

الجماعية بصورة شاملة وجدليتها في الزمن، لم يكن لابروس، من غير شك، قادراً على تحديد هذه العلاقة مثل تاريخ «مقاومة التغيير» أو «حالات الجمود». وهذا ما قد يبدو اليوم قراءة فقيرة جداً للمبادلات التي تتنزل في إطار ما يمكن أن نسميه، مثل ألتوسير، ميزة «الكل المحدد» لنمط الإنتاج.

الأمد الطويل يتحمل خصوصية التاريخ

وهنا أيضاً يذكّرنا بيار فيلار كيف وضع ماركس ـ وهو أقل تعصّباً مما يقوله عنه البعض ـ المؤرخين أمام مسؤولياتهم عندما عرّف نمط الإنتاج «بوصفه إضاءةً عامة وأثيراً خاصاً يحدد الوزن الخاص لكل أشكال الوجود التي تنبثق عنه». وهو ما يترك داخل هذا «الكل المحدّد» هامشاً حقيقياً للتعرف على الروابط المعقّدة التي تربط مختلف المستويات بصورة تراتبية، مع فرض واجب الدقة والإبداع[53].

توجد إغراءات كثيرة بالنسبة إلى الكتابة التاريخية التي ترفض شروط المنهجية الماركسية، فإذا لم نبحث عن الحل الكوني بإيجاد خيط آخر رابطاً للتاريخ (مثلاً في مناجم البيرو أو في شعاع الشمس)، تكون السهولة في اعتماد فكرة الزمن الطويل الذي يغرق في تاريخ جامد، أو في إثنوغرافيا تبتعد شيئاً فشيئاً عن التاريخ، وقد تكون مبنية على تعدد (أو خصوصية) الأزمنة، وبذلك يذهب كل تاريخ في الاتجاه الذي يريد: إنه مركب المجانين. إن فيليب أرياس يدفع بتطور المواقف أمام الموت على حشية منفوخة، بحسب الديناميكية الخاصة للاوعي جماعي، ولم يتسنّ تعريفه بطريقة أخرى.

---

(53) المصدر نفسه، ص 203.

ليطمئن الجميع. لا أريد تعويض مركب المجانين بوصفه «انغلاقاً كبيراً» لهذا الفيض في إطار فقير. لذلك أعتقد أن بيار شونو (ليغفر لي اتخاذه مثالاً معكوساً) عندما يقدم فرضية تطور المواقف أمام الموت عبر أمد طويل على أنها «تعويض عن الرغبة في الحياة»، فهو يحصر في بعد ديمغرافي صرف ظاهرة أكثر تعقيداً تجمع بين الثبات والخلق الإعجابي.

إن الحل في نظري بالنسبة إلى هذا الزخم من الأزمنة التاريخية، وجداول الآماد الطويلة المعروضة علينا، يكون بالربط والمقارنة والترتيب. . . بهذا الثمن، لن يكون الأمد الطويل، هذه الثمرة الموضوعية للتقدم المنهجي، مجرد غشاء أو حجاب أو استقالة، وإنما وسيلة لتأكيد سيطرة قوية على زمن التاريخ.

ليس هناك ما يدعو إلى التشاؤم في ما تبقى: وكما قلت ذلك آنفا، فمنذ مقال فرناند بروديل وقع الغزو البنيوي، والتاريخ لم يمت أبداً.

بقدر ما أحدث هذا المقال تخوفاً من التبعية لبقية علوم الإنسان الأخرى، أفسح المجال لاطمئنان حقيقي. إن الوعي بهذا الأمد الطويل الذي لا يزال غير مسيطر عليه، والذي حاولنا تحليل جوانبه الغامضة، ليس بغريب عن المسك بالحقل التاريخي في خصوصياته.

تــــاريــــخ الــبُـــنـــى

كريزيستوف بوميان(*)

إذا كان يجب أن نؤرخ لميلاد البنيوية، فإن ذلك يكون سنة 1916، من دون شك بعد أن نشر تلامذة فرديناند دو سوسير كتاب أستاذهم: **دروس حول الألسنية العامة**. وقد نتج على أثر ذلك تطور نشاط حلقات الألسنية في ما بين الحربين في براغ (Prague)، وكوبنهاغن (Copenhague)، تحت تأثير أعمال تروبيتسكوي (Trubetzkoy) وجاكوبسن (Jakobson) من ناحية، وأعمال هايلمسلاف (Hjelmslev) من ناحية أخرى.

ثم بعد ذلك اقتحمت البنيوية تاريخ الأديان من خلال أبحاث جورج دوميزيل (Georges Dumézil)، ولكنها لم تدخل عالم

(*) ولد كريزيستوف بوميان سنة 1934، وزاول تعليمه في جامعة فرصوفيا، ثم درس فيها (في بولونيا). ومنذ 1973 اشتغل خطة مدير بحث في المركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا. ومن بين أبحاثه الأخيرة: Krzysztof Pomian: *Pologne, défi à l'impossible?: De La Révolte de Poznan à solidarité*, collection «enjeux internationaux», préface de Jean Kulakowski (Paris: Editions ouvrières, 1982); *L'Ordre du temps*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1984), et *Collectionneurs, amateurs et curieux: Paris, Venise XVIe-XVIIIe siècle*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1987).

الأنثروبولوجيا إلا بصورة متأخرة بسبب الحرب، وذلك بعد نشر كتاب كلود ليفي شتراوس: **البنى الأساسية للقرابة** سنة 1949. إلا أن النقاشات حول هذا التيار الجديد، وحول دوره، لم تتطور إلا في أواخر الخمسينات بعد أن نشر المؤلف نفسه كتاب: **الأنثروبولوجيا البنيوية** سنة 1958.

عند ذلك بدأ التساؤل حول معنى مصطلح «البنية» واستعمالاته، وحول علاقة المقاربة البنيوية بالمقاربة الجينية[1]، وكذلك حول صلاحية التاريخ. وجاء فصل «الأنثروبولوجيا البنيوية» المخصص لهذه المسألة في إطار مناقشة أفكار جان بول سارتر لينفي على التاريخ حقه تعريف ذاته بوصفه علماً اجتماعياً.

لقد ردَّ فرناند بروديل حول هذه المسألة في بحثه: **التاريخ والعلوم الاجتماعية: المدى الطويل**، مبيّناً أن التاريخ بمنأى عن الانغلاق في دراسة الأحداث، وهو ليس قادراً على إبراز البنى فقط، بل من مهامه الأولى الاعتناء بها. كما قام بروديل شيئاً فشيئاً بتدقيق المعنى الذي يحمله المؤرخون لعبارة «بنية»:

«يقصد الباحثون في المجال الاجتماعي بعبارة «بنية» تنظيماً واتساقاً للعلاقات الأكثر ثباتاً بين الواقع والجموع الاجتماعية. أما بالنسبة إلينا، نحن معشر المؤرخين، فالبنية تعتبر تركيباً وهندسة، بل أكثر من ذلك هي واقع يؤثر فيه الزمن بصعوبة ويطيل في عمره كثيراً، وعندئذ تصبح بعض البنى التي تعمّر طويلاً أسساً ثابتة لأجيال

---

(1) Roger Bastide, ed., *Sens et usage du terme structure dans les sciences humaines et sociales*. Paris; La Haye: Mouton, [1963]), et Maurice de Gandillac, Lucien Goldmann [et] Jean Piaget, dirs., *Entretiens sur les notions de genèse et de structure*, congrès et colloques, 9 (Paris: Mouton, 1965).

متعاقبة بلا حصر، تملأ التاريخ وتعطل مسيرته؛ إذن فهي تتحكم فيه، في حين تبدو بعض البنى الأخرى مهيأة أكثر من غيرها للتفتت. ولكنها جميعها دعامة لحركة التاريخ ومعوّق لها.

إنها معوّق: لأنها تتثبت (كأنها مجموعات بالمعنى الرياضي)، ولا يمكن للإنسان بتجاربه أن يتحرر منها أبداً. لنتصور الصعوبات التي تعوق تحطيم بعض الأطر الجغرافية أو بعض الأوضاع البيولوجية أو محدودية الإنتاجية أو غيرها من الضغوطات الروحية: إن الأطر الذهنية هي أيضاً سجون لمدى طويل»[2].

دراسة نموذجية: بُنى منطقة اللاسيوم في العصر الوسيط

تبدو اليوم النقاشات التي كانت قائمة منذ عشرين سنة من المواضيع التي تجاوزها الزمن. لم يعد التاريخ البنيوي من الآمال أو الفرضيات، فهو ليس في حاجة لإثبات شرعيته، بل ربما يثبتها كل يوم مع صدور عمل جديد ينتسب إليه ويقدم إضافات هامة لمعرفتنا بالماضي.

لذلك إذا أردنا معرفة التاريخ البنيوي يجب ألا ننطلق من الشعارات المرفوعة، وإنما من الأعمال ذاتها. وقد اخترنا من هذه الأعمال أحدثها: **بنى منطقة اللاسيوم في العصر الوسيط**[3].

---

(2) Fernand Braudel: «Histoire et sciences sociales: La Longue durée,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, no. 4 (octobre-décembre 1958), pp. 725-753, repris dans: *Ecrits sur l'histoire*, science de l'histoire ([Paris]: Flammarion, [1969-]), pp. 41-83.

(3) Pierre Toubert, *Les Structures du Latium médiéval: Le Latium méridional et la Sabrine du IXe siècle à la fin du XIIe siècle*, bibliothèque des écoles françaises d'Athènes et de Rome; 221, préface d'Ottorino Bertolini (Rome: Ecole française de Rome, 1973), p. 199.

لم يكن مثل هذا العنوان ممكناً خلال الثلاثين أو حتى العشرين سنة الماضية. وهو إلى اليوم يثير التساؤل، فكلمة «بنية» في عناوين كتب التاريخ عادة ما تكون مشفوعة بنعت يحدّد معناها.

أما في مثل هذا العنوان، فليس هناك ما يفيد التحديد. إن كتاب بيار توبار يطرح نفسه بوصفه دراسة لجملة من البنى في منطقة معلومة: اللاسيوم الجنوبي ومنطقة السابين[4] (Sabine)، في فترة زمنية محددة، من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر. وتعدّ هذه الدراسة نموذجاً جيداً للتاريخ البنيوي مثل الذي ينجز اليوم، وهو ما يسمح لنا بتوضيح ذلك بصورة فعلية.

وبعد ذلك سيكون من الممكن أن نتتبع المسار الذي جعل المؤرخين يتخلون عن الحدث لفائدة البنى. وسنقدم في ما بعد المشاكل الحالية للتاريخ البنيوي والتوجّهات الجديدة التي قد تصبح مهيمنة في مستقبل قريب.

لقد قال مارك بلوخ: «لا يمكن أن نبحث عن أصل الشيء الذي لا نعرفه بوضوح»، بمعنى أنه لا يمكن الحديث عن تاريخ البنية الزراعية لمنطقة اللاسيوم قبل أن نصف مكوناتها، لأنها هي العماد الأساسي لكتاب بيار توبار، علينا أن ننظر إليها من قريب.

إننا نكتشف بمقارنة القرى المنبثة في منطقة اللاسيوم الجنوبية ومنطقة السابين جملة من الثوابت، وذلك بغض النظر عن التغيّرات المحلية. ففي كل القرى تتكثف المساكن في مواقع مرتفعة، وتتشتت المساحات المزروعة. ونكتشف أينما ذهبنا تنظيماً دائرياً للمساحات

(4) منطقة اللاسيوم هي المنطقة المحيطة بمدينة روما. والسابين، هي بلاد السابين القدامى، وتوجد في الجزء الشرقي من اللاسيوم وتحتوي بداية السلسلة الجبلية «الابروز» (Les Abruzzes) وتسمى اليوم مقاطعة رياتي (Rieti).

المزروعة. وقريباً من المناطق السكنية توجد المساحات ذات الزراعات المعاشية المتعددة، وتتبعها في بعض الأحيان الزراعات المختصة حيث تقع المراوحة بين الحبوب الشتوية والخضروات المكملة ومساحات القنب. ثم بعد ذلك نجد حقول القمح، وعلى تخوم المساحات المزروعة وغير المزروعة توجد المراعي.

أما حقول الكروم، فهي توجد بعيداً عن المناطق السكنية، وتتمدد عبر المسالك الرومانية القديمة، وتتصعد على السفوح المحجّرة، وتحتل المساحات المنخفضة والرطبة. وتوافق هذه الأنواع من المزدرعات طرقاً متنوعة من الاستغلال:

- استغلال مكثف يتعلق بالزراعات المعاشية «المتنوعة»، «وهو مجال الأدوات التقليدية وطرق الاستغلال التي تعتمد على الجمع بين الجهد البشري والسماد الضروري لإحياء التربة الخاضعة بلا هوادة إلى دورات زراعية مجهدة».
- استغلال شاسع يعتمد التناوب الزراعي بترك مساحات غير مستغلة لفترات غير محددة، ويشمل مجال الحبوب.

ويبدو واضحاً من خلال تنظيم المجال المستغل أن كل استغلالية قروية لا يمكن إلا أن تتكون من قطع أرض مشتتة. كما يبدو جلياً أن شبكة المسالك شديدة الكثافة. وأخيراً يبدو واضحاً «أن استغلال الأرض وتوزيع المزدرعات يفترض سكنا متجمعاً». ويكفي أن يتغيّر أحد عناصر هذه المجموعة، لتفقد البقية أسباب وجودها. فنحن أمام بنية.

عنصر ثابت طيلة قرون من الزمن

ولكن البنية بالنسبة إلى المؤرخ ليست مجموعة متماسكة العناصر، إذ يكفي أن يتغير أحدها لتتغير بقية العناصر. إن مثل هذه المجموعة لا تعني المؤرخ إلا إذا استجابت لجملة من الشروط

الأخرى. وعلى هذه المجموعة أن تتماسك لفترة متعددة القرون، أي يجب أن تكون ظاهرة تمتد على أمد طويل.

إن البنية الزراعية التي يصفها بيار توبار بدأت تظهر في القرن العاشر، وتواصلت في ما بعد إلى فترة طويلة من الزمن. وشكلت عنصراً ثابتاً وإطاراً مستقراً تمارس فيه مجموعة فلاحية أنشطتها طيلة فترة تفوق الخمسة قرون.

إن استقرار هذا الإطار هو الذي يصبغ على أنشطته طابع الرتابة والتكرار، إذ يمارس الناس على مر السنين النشاط نفسه، فهم يزرعون بالطريقة نفسها في الحقول نفسها التي لم تتغير ملامحها. يموت الأفراد وتنقرض العائلات، ولكن تظل المجموعة التي تتكون من البيت في القرية والضيعة المقسمة إلى قطع مشتتة مهيأة لاحتضان سكان جدد لتفرض عليهم نمط عيش مطابقاً لنمط عيش السلف.

إن البنية لا تفرض فقط طابعاً تكرارياً لأنشطة الأفراد والمجموعات، وإنما تحدد أيضاً حدود التزايد الديمغرافي، وارتفاع الإنتاج الفلاحي، أي تتحكم في تقلبات الظرفيات، وهي بذلك تقحم عمليات تكرارية في مجال أوسع. إنها إذن تنسج بهذه الصورة شبكة من المعوقات بحيث تناسب قوتها صلابة البنية.

«لقد برزت صلابة البنية الزراعية في منطقة اللاسيوم بوضوح مع أزمات القرن الرابع عشر. وساعد التحسن الديمغرافي في الشمال الشرائح المهيمنة على تطوير بعض الأنماط الاجتماعية الجديدة للاستغلال المباشر بإعادة ملاءمة للمزدرعات وأساليب الاستغلال، وحتى بإعادة تقسيم الضيعات حول منازل متباعدة، خاصة بالسكن الثانوي، كما هو الشأن في نظام «الخماسة» (Mezzadria) في منطقة طوسكانيا. إلا أن مثل ذلك لم يحدث في منطقة اللاسيوم، حيث لم يستطع السكان المشتتون في العصر الوسيط المتأخر فك الحصار عن السكن المجمع، أو تغيير هياكل الضيعات القروية. وقد أدى فشل

إعادة ترتيب الاقتصاد القروي، والانجذاب الواضح للرساميل السيادية و«البورجوازية» نحو الاستثمار الرعوي، إلى تجذر منطقة اللاسيوم في التخلف الجنوبي بداية من عصر النهضة».

إننا نرى كيف أن وصف البنية يؤدي إلى تاريخها. ومن خلال تاريخ يمكن أن نسميه: تاريخاً داخلياً، وبسبب استقرار البنية نفسها، يتميز هذا التاريخ ببطء كبير وبثبات يكاد يكون كلياً.

ولكن لا نجد في كتاب بيار توبار هذا التاريخ فقط، بل نجد فيه أيضاً تاريخاً لبنى أخرى ذات تطور سريع، ولو أن لكل واحدة نسقها الخاص، لأن كل واحدة تشكل حالة تتحكم فيها عوامل أخرى. ولكن نقطة البداية لكل هذه التواريخ هو ظهور البنية الزراعية التي وصفناها آنفا والتهييئات التي نتجت منها في مستوى البنى الاقتصادية (المعدة للمعاش أو المبادلات) ومستوى البنى التأطيرية (أي البنى العائلية والدينية والعمومية).

محدد الضغوطات النفسية

كانت تسمية «قلعة» أو عبارة «برج» تطلقان على كل مركز سكني مجمّع ومحصن دائم في منطقة اللاسيوم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

ومنها اشتقت تسمية «القرى المحصنة» التي أطلقت على مسار تكوّن البنية الزراعية التي تقسم المجال إلى خلايا معقدة تكون فيها كل واحدة محاطة بمزدرعات دائرية الشكل. «إن تمركز السكن بحسب كل قلعة، وهو من مميزات القرن العاشر، وفي واقع الأمر دليل على المضي إلى الأمام وليس على الانكماش»، أصبح ممكنا بفعل النمو الديمغرافي السابق. وتأخذ دراسة السكن المحصّن بعين الاعتبار مظهرين لهذا الإجراء، فهو في الوقت نفسه مظهر من مظاهر

النمو المتمثل في تعدد الأبراج، وفي الانتقال النوعي من بنية زراعية إلى أخرى. والسمة الغالبة على ذلك إلى حدود القرن العاشر هي استغلال الأرض بحسب الضيعات السيادية مع اعتماد زراعة مزدوجة داخل الضيعات المستغلة والمشتتة. وهذا يعني أن البنية داخل القرى المحصنة تتميز بسكن مشتت وبضيعات فلاحية متجمعة حوله. لذلك تبدو القرى المحصنة في القرن العاشر كأنها شرخ عميق في أشكال التعمير، وفي مستوى البنية الزراعية نفسها، وكأنها «ثورة حقيقية».

محدد التراتبية الاجتماعية

يتمثل ظهور البنية الجديدة في انتشار جملة من الحصون وجب تأريخها ورسمها على خريطة لتحديد نسق النمو وتوضيح مواطن نجاحه وفشله. إنها سلسلة من الإحداثات التي تكرر الواحدة فيها الأخرى إلى أن وقع تقسيم المنطقة إلى خلايا محصّنة، ولكنها في الوقت نفسه عبارة عن تحول متزامن في العلاقات بين الفلاحين والأسياد. وهؤلاء الأسياد هم المحرك الأساسي للسكن المحصن والمستفيدين منه، من دون إثقال كاهل جموع الفلاحين بالمستحقات الواجبة. وبذلك تبدو الصورة أقل حلكة مما هي عليه في مناطق أخرى. ولكن لا يمكن حصر العلاقات بين الفلاحين والأسياد في مستواها الاقتصادي فقط. «إن القرية بحوزتها المغلقة، وببنى مزدرعاتها الصلبة، وبسكنها المجمع، توفر للطبقة السيادية قاعدة ثابتة وأكثر ملاءمة للحصول على أرباح مناسبة متأتية من المؤسسات العمومية، ومن جباية المؤسسات الدينية. وتضاف إلى القسر الاقتصادي أنواع أخرى من القسر زجت بالمجتمع الريفي في شبكة من التبعيات العائلية والدينية والقانونية»، وذلك على رغم أن تداول العملة ووجود الطرقات والمدن يجعل الهروب من هذه العلاقات أو تحقيق الرقي الاجتماعي أمرين ممكنين. ولكن إذا كانت الحركية

كبيرة بين القرى، «في مستوى الجهة (...)، فإن ما يلفت انتباه الملاحظ هو الاستقرار العام».

لا يمكننا أن نتابع التحاليل الدقيقة والحصيفة التي طبقها بيار توبار على بقية البنى الأخرى لمجتمع اللاسيوم. لذلك سنكتفي بالخاتمة العامة للكتاب لذكر النتائج الخاصة بالسكن المحصّن والتي لم نوردها آنفا: «لقد بدا لنا وزن الحواجز الاجتماعية والنفسية أثقل من الإتاوات التي يستخلصها الأسياد من المستغلين للضيعات السيادية. لقد عرف الفلاحون من خلال تجمعهم في القرى المحصّنة أشكالاً جديدة من التبعية. فإذا كانت العائلة في بنيتها الأساسية مبنية على الزواج، فالقانون المدني الروماني والقانون الكنسي قد وحّدا جهودهما ليكون اللاتكيون في تنظيم زواجي أكثر لحمة. كما خلق تجمع الرجال في سكن محصّن أشكالاً خاصة من الخضوع تتطلب مراعاة الجوار وأخذ الموقف العام بعين الاعتبار. ولم تكن الولادات غير الشرعية مقبولة من طرف الضمير الجمعي، في حين كان تقلص الزواج دافعاً لارتفاع عدد العزّاب الذين يعيشون حياة مقيتة وهامشية. لنكرر أن السكن المحصّن كان إيذاناً بنهاية فترة الريادة. إن الحواجز التي تفصل بين الحيازات القروية التي ترتبت عنه، ساهمت في تشكيل المجتمع القروي في منطقة اللاسيوم في شكل عالم لا يهيمن عليه الأسياد فقط، وإنما يهيمن عليه من الداخل كبار السن والمتزوجون. وقد توّج هذا البناء الاجتماعي في النصف الأول من القرن الحادي عشر بانتصار الكنائس الخاصة وباستحواذ أسياد القصور على مؤسسات القضاء»[5].

---

(5) كل الاستشهادات السابقة مأخوذة من كتاب: Toubert, *Les Structures du Latium médiéval: Le Latium méridional et la Sabrine du IXe siècle à la fin du XIIe siècle.*

تاريخ مجموعة سكانية في مجملها

يساعد هذا التصفح السريع لكتاب بيار توبار بتقديم جواب أولي حول مسألة الخصائص المميزة للتاريخ البنيوي. إنه أساساً تاريخ لمجموعة سكانية بصورة إجمالية. لقد تكلمنا خاصة عن الفلاحين الذين يمثلون في كل الحالات الأغلبية الساحقة لهؤلاء السكان، ولكن الكتاب خصص حيّزاً هاماً للأسياد ولسكان المدن ولرجال الدين. وقد تعرّض الكتاب لكل الفئات التي كانت تعيش في منطقة اللاسيوم. كما خصّص الشيء نفسه لمظاهر الحياة اليومية بقدر ما تسمح به المصادر: كالعمل والمبادلات والعائلة والممارسة الدينية وعلاقات الهيمنة في مختلف أشكالها. ووقع تفكيك الحياة اليومية للمجتمع في شكل مجموعة من البنى متماسكة كلها عبر مدى طويل، ولو أنها تتطور كل منها بحسب نسقها الخاص. إن وجود هذه البنى هو الذي فرض على الحياة اليومية طابع الانتظام والتكرار والتوقع. وهي التي تحبسها أيضاً في حدود يستحيل منطقياً التحرر منها. ولكن قد يحدث أن يكون التجديد متماشياً مع مصالح مجموعة تمتلك النفوذ، فيتمكن من الانتشار ويغيّر بنية موجودة بتعويضها ببنية جديدة. إن مثل هذه الثورة، وهي ثورة بالفعل، تنعكس على بقية البنى وتدخل عليها تغييرات متفاوتة العمق. بلغة أخرى، يقدم كتاب بيار توبار بأكمله تاريخ ثورة من هذا القبيل. في مرحلة أولى، هيمن الأسياد من خلال السكن المحصّن وفقدوا منه جزءاً هاماً بعد 1054، عندما قامت الدولة البابوية باسترجاع نفوذها في منطقة اللاسيوم. وهذا هو الطابع غير المنتظر للبحث التاريخي كما قام به بيار توبار: إنه تاريخ البنى، ولكنه في الوقت نفسه تاريخ ثورة.

الظرفية والبنية

إن التحولات التي عرفتها ممارسة المؤرخين للتاريخ في النصف

الأخير من هذا القرن (أي القرن العشرين) أصبحت ممكنة بفعل تغيير الأسئلة التي قادت البحوث، وبفعل تغيّر النظرة إلى المصادر في الوقت نفسه. لقد كانت الأسئلة القديمة تتمثل في تقديم السؤال التالي: ما الذي حدث في هذه الفترة أو تلك، أو في هذا المكان أو ذاك؟ وكان المقصود ما هو الجديد وغير المسبوق وغير المتوقع؟ ثم يأتي البحث في ما بعد عن الأسباب الواضحة، وهي في حدّ ذاتها يجب أن تكون مفردة، وإلا لما كانت تفسر الأحداث التي ترتبت عليها. نرى مباشرة أن هذا التساؤل، البسيط في حد ذاته، يوجّه المؤرخين إلى وجهة الأحداث التي تكون بطبيعتها خارقة للعادة، والتي تبتعد في الأساس عن الأفعال الروتينية نتيجة لهذه الأسباب. لهذا ألا يقال إن الفترات السعيدة ليس لها تاريخ، فلا يحدث فيها شيء، وليس هناك ما يلفت النظر العابر فوق غمامة الأحداث المتكررة؟

البحث عن التاريخ «الصحيح»

يعدً هذا الموقف من مخلفات النخبوية الدائمة التي لا تزال حية بصورة لاواعية حتى في أذهان أولئك الذين أعلنوا تحررهم منها. ويمكن أن نعبِّر عن عدم الاكتراث بالملوك أو بالعظماء، وعن الاقتناع بأن التاريخ الحق هو تاريخ الشعوب، ولكن لا يمكن أن نتخلص من فكرة الشعب الملك الذي نحتفل بأمجاده وتحوله إلى بطل ملحمي.

ويأتي هذا الموقف أيضاً نتيجة للثقة اللاواعية التي تمنح للأضواء التي تسلطها الروايات التاريخية على الماضي، حيث يصف أصحابها الأحداث بصورة خاصة، ويعطونها أهمية تتناسب والطبيعة الخوارقية لهذه الأحداث. صحيح أن النقد قد مكّن المؤرخين من

الشك في هذه الروايات، وبالتالي تمحيصها، ولكنهم لا يزالون في تبعية لهذه الروايات، هذا إذا لم يتبنوها لحسابهم.

يتماثل موقف المؤرخين مع موقف الجماعيين، فكلهم يجمعون ما كان نادراً ومثيراً ويتركون ما هو عادي ومعتاد ومستعمل.

ويتجلى هذا الموقف عندما يريد المؤرخ بلوغ معرفة الماضي، فيتحول قسراً إلى جماع يلهث وراء كل ما هو جميل، وغني وغير معتاد، فعلم الآثار يهمل شهادات الحياة اليومية لعامة الناس.

بمثل هذا الأسلوب لا يمكن أن تكون للتاريخ روابط مع العلوم الاجتماعية التي بدأت منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر تكتسب أهمية وشهرة مع علم الاجتماع وعلم الاقتصاد والجغرافيا. ويطالب لنفسه بمكانة العلم، وهي وضعية يحتاج اليها للاحتفاظ بموقعه على الأقل داخل المؤسسة الجامعية.

لقد كان التناقض بين ممارسة التاريخ والشعارات المرفوعة في حدود نهاية القرن التاسع عشر أمراً واحداً، إذ حاول البعض حلّ هذا الإشكال بالتخلي نهائياً عن أي طموح للعلمية والاحتفاظ بكلية ملهمة للمؤرخ. واجتهد البعض الآخر في إعطاء التاريخ مرتبة خاصة تهدف إلى مصالحة الامتياز الذي يتمتع به في نظرهم الحدث التاريخي المفرد مع نوع من العلمية. من خلال منظور هؤلاء كان التاريخ علماً ذهنياً، أي كان موضوعه كل ما لا يتكرر، وبذلك كان علماً خاصاً بنوعية مواضيعه، متعارضاً مع بقية العلوم الأخرى ـ علوم القوانين التي تبحث عن إيجاد قوانين من خلال دراسة التكرار.

وكانت البقية تنادي بتاريخ على أنه علم اجتماعي قائم بذاته، مطالبة بإعادة النظر في غير ذلك، ومخضعة الكتابة التاريخية التي تعتمد الأحداث إلى هجومات عنيفة.

معركة إيبستيمية طويلة

لقد دامت المعركة طويلاً، ولا يمكن أن نعيد هنا كل مراحلها. يكفي أن نذكّر فقط بالمقال الشهير الذي كتبه فرنسوا سيميان: «المنهجية التاريخية والعلوم الاجتماعية»[6]، الذي كان عنوانه وحده برنامجاً، ونذكّر كذلك بتأسيس حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي سنة 1929 من طرف مارك بلوخ ولوسيان فافر.

لقد بدت في فرنسا، قبل هذا التاريخ، المظاهر الأولى للقطع مع التقاليد، لا فقط في مستوى المشاريع، وإنما أيضاً في مستوى الممارسة المهنية للمؤرخ. لقد ناقش لوسيان فافر أطروحته في السوربون سنة 1911 حول: «فيليب الثاني ومنطقة الفرانش كونتاي»، ومن البداهي أن نرى فيها المنتوج الأول لـ **التاريخ الجديد**. وهذا لا يعني أنها تشيح بوجهها عن الأحداث، وإنما تضمّنها أبعاداً جديدة، فالأحداث هي عوارض لازدواجية يمكن أن نقول عنها اليوم إنها من خصائص بنية مجتمع «الفرانش كونتاي» في القرن السادس عشر.

«المنافسة بين عائلات الراي (Rye) ولابوم (La Baume) وبونفالو (Bonvalot) وبيرينو (Perrenot) من أجل السيطرة على الأسقفية، قضية كيكلاي (Quiclet) ومبارزة بلا هوادة بين سيمون رونار (Simon Renard) وأنطوان بيرينو (Antoine Perrenot)، وصخب فئة من النبلاء في حالة خوف وهياج. وقد تزايد ذلك في منتصف القرن أو في منعطفه نتيجة لاستقالة موظف أو حلول موظف جديد أو لتوقيع معاهدة سلم أدخلت في ظروف الحياة تغييراً وحرجاً

---

(6) François Simiand, «Méthode historique et science sociale,» *Revue de synthèse historique* (1903), repris dans: *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 15, no. 1 (1960).

جديدين، فلم يبد لنا أن هذه الأحداث يمكن أن تفسر فقط بأحداث ظرفية، أو بعدم تجانس الأهواء الفردية أو بظروف أخلاقية ونفسية، بل على العكس من ذلك ظننا ـ وكل التاريخ الداخلي للمنطقة منذ قرن من الزمن يبدو أنه يحملنا نحو استنتاج ذلك ـ أن كل هذه الأحداث السياسية وهذه المشاحنات بين الأفراد تستمد وجودها من قلق اجتماعي وصراع اقتصادي تعيشه المنطقة»[7].

نلاحظ أن الأحداث لا تهم لوسيان فافر لأنها منسجمة في ما بينها، فقد كان معترضاً بوضوح على مثل هذه المقاربة بتحييد كل التفسيرات التي تعتبر من المكملات الضرورية. إن الأحداث تهمه بوصفها عناصر ضمن مجموعة، وعناصر تسمح بإزاحة النقاب عن التقلبات الظرفية التي تشهدها العلاقات بين طبقتين اجتماعيتين استمر الصراع بينهما طيلة الفترة موضوع البحث.

«البنية» و«الظرفية»: هذان المصطلحان اللذان نستعملهما اليوم تجاوزا الزمن. ولكنهما لا يحرفان فكر لوسيان فافر الذي خصّ «الوسط الجغرافي»، بحسب التعبير الشائع في عصره، والمؤسسات السياسية، بالباب **الأول** من عمله، وخصص الباب **الثاني** لدراسة الصراع بين طبقة النبلاء والبورجوازية، كما لو أنه كان يدرك أن كل هذه الظواهر هي من الظواهر الطويلة الأمد في حين أن بقية الظواهر التي درسها في ما بعد هي من ظواهر الأمد القصير. لقد كان التعارض بينهما جلياً، لا تنقصه إلا العبارات التي تدل عليه.

---

(7) Lucien Febvre, *Philippe II et la Franche-Comté: Etude d'histoire politique, réligieuse et sociale* (Paris: H. Champion, [1911]), réédition: science de l'histoire; 24 (Paris: Flammarion, 1970).

نظرة التاريخ الجديدة

دفعت الاستمارة الجديدة التي كان يعدّها المؤرخون، والتي ما فتئت تتغير إلى اليوم، إلى الاهتمام بدرجة أولى بكل ما يتكرر، وبكل ما هو حولي، وكذلك بما هو ثابت أو يكاد يكون كذلك في فسحة طويلة من الزمن. وبذلك تنتقل النظرة مما هو استثنائي إلى ما هو منتظم، ومما هو خارق للعادة إلى ما هو معتاد، من الأحداث المفردة إلى الأحداث التي تبرز بكثافة. ونفهم أن انتقال النظرة برز في غير اكتراث وباختلاف، بحسب الحالات بالنسبة إلى التاريخ السياسي، الذي تصطف فيه الأحداث الواحدة تلو الأخرى كحبات السبحة، رغبة في دفع التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وخاصة تاريخ الأسعار الذي أصبح مجالاً دقيقاً ما بين الحربين، ليس لأنه كان بحكم طبيعته مهيأ لممارسة التاريخ فقط.

كل ذلك في هذا المجال أو غيره هو رهينة للاختيارات التي نقوم بها داخل المصادر الافتراضية، وكذلك باعتماد التقنيات المتوفرة. إذا أردنا أن نكتب تاريخاً للأسعار يهدف إلى إعادة تركيب أحداث معينة، يجب أن نختار دفاتر الحسابات التي تسمح بالتعرف على العمليات التجارية كما وقعت بالفعل بين متدخلين معلومين، وفي أطر مكانية وزمنية واضحة، أي بكل ما في هذه العمليات من خصوصيات مميزة. أما إذا أردنا أن نتجه إلى تاريخ الظواهر التي تتكرر، فعلينا أن نعتمد لوائح الأسعار كمصادر لذلك[8]، لأنها الوحيدة التي تسمح، بعد التأكد منها وتنظيمها، بالعثور على معدلات تمثيلية لمجموع العمليات التجارية خلال أشهر السنة، في حين أنه لا يمكن الحصول من خلال دفاتر الحسابات إلا على بعض

(8) لوائح الأسعار، هي الأسعار الرسمية للبضائع المعروضة في الأسواق العامة.

الومضات من هذا التاريخ[9].

تاريخ جديد ووثائق جديدة

يمكن أن نعتمد التمشي نفسه بالنسبة إلى التقنيات التي بواسطتها يمكن استخراج المعلومات التي نبحث عنها في المصادر قصد تأويلها. ويعتبر هنري هاوزر (Henri Hauser) من أكبر المدافعين عن استعمال دفاتر الحسابات، وفي الوقت نفسه، وهو أمر منطقي، من الناقدين لمسألة المعدلات حتى ولو كانت ممثلة، ومعنى ذلك أنه يعترض على المنهج الإحصائي في تطبيقه على المعطيات التي تتعلق بالنظام القديم.

«لقد كان العرضي في الزمان والمكان هو الذي يهيمن على الحياة الاقتصادية في الفترة السابقة لتعميم الحضارة الصناعية، فلم يكن الإنسان يعيش من المعدلات، وإنما من الخبز الحقيقي الذي يباع بهذا الثمن أو ذاك، وذلك بوزن معين، وفي لحظة معينة»[10]. وعلى عكس ذلك، نجد عند لابروس أن الأولوية التي يعطيها للوائح الأسعار كانت مرتبطة بتبرير استعمال الإحصائيات: «ما يشدّ المؤرخ الاقتصادي هو تكرار الظواهر، وهذا لا يعني أن التكرار هو الذي يهمه. ولكن على عكس بعض علماء الاقتصاد، فهو لا يتجاهل ما هو مفرد، إلا أنه على عكس بعض المؤرخين، ومن بين اللامعين منهم، فهو لا يتجاهل ما هو عام أيضاً. وعلى الرغم من أنه لا

---

(9) Ernest Labrousse, *La Crise de l'économie française à la fin de l'ancien régime et au début de la révolution* (Paris: Presses universitaires de France, 1943), pp. 12-13.

(10) Henri Hauser, *Recherches et documents sur l'histoire des prix en France de 1500 à 1800* (Paris: Les Presses modernes, 1936), p. 72.

يوجد، من حسن الحظ، ما يفرض عليه مثل هذا الاختيار، إذا كان من اللازم عليه أن يختار ما بين المتكرر والمصادف، ضمن هذا المجال الواسع للمؤرخين حيث كل شيء لا يزال في طور البناء، فلنقلها بلا فخر: سنختار المتكرر»، لأن «كل ما له أهمية يتكرر في التاريخ الاقتصادي، على عكس ما يمكن أن نلاحظه في جوانب أخرى من التاريخ»[11] لهذه الأسباب يبدو التاريخ الاقتصادي متميزاً بتنقل النظرة من الخارق للعادة إلى الشيء المعتاد، ومن الأفعال الفردية إلى تلك التي تبرز بكثافة.

لابروس والتاريخ الاقتصادي

أليس من اللافت للانتباه أن يكون التاريخ الاقتصادي هو الذي يقحم تراتب الظواهر التي تتنامى بحسب أنساق مختلفة، والتي تقطع مع الزمن المسطح والخطي الذي يميز التاريخ الوقائعي. مثلاً كان لابروس يميز دائماً بين ثلاثة أنواع من الحركات التاريخية: حركة ذات أمد طويل، وتموجات دورية، وتقلبات موسمية. في مثال أسعار الحبوب، تكون الحركة ذات المدى الطويل فترة ارتفاع للأسعار، وهي ظاهرة عالمية، بدأت في فرنسا ما بين 1732 و1735 وتواصلت إلى سنة 1817. وتنقسم الفترة الممتدة ما بين 1726 و1790 بدورها إلى «أربع فترات دورية أو ما بين دورية»:

- **الأولى** هي فترة انخفاض كبير للأسعار، ويمكن تحديدها بسهولة ما بين 1726 و1741.

- و**الثانية** بدأ يتأكد فيها ارتفاع الأسعار، وهي تساوي الأولى بحساب السنين، أي ست عشرة سنة، تمتد ما بين 1742 و1757.

---

(11) Labrousse, Ibid., pp. 170-171.

ـ أما **الثالثة** فـهي الأكثر عنفاً والأقصر مدى، إذ بعد خمس أو ست سنوات من انخفاض الأسعار، حصل تزايد في ارتفاع الأسعار وصل إلى الأزمة الكبرى سنة 1770. ولـم تدم هذه الفترة إلا ثلاث عشرة سنة.

ثم بعد ذلك حدثت **جملة من الدورات** تدعمت فيها الأسعار في وضعية مرتفعة، ثم بدأت ترتفع من جديد. وهذه الفترة تمتد على تسع عشرة سنة من 1771 إلى 1789»[12].

استكشاف الآليات التحتية

يعود الكتاب الأول للابروس إلى سنة 1932. ومنذ ذلك التاريخ أصبح الطريق مفتوحاً للانخراط في بحوث تتناول الآليات التحتية للتغيّرات الظرفية لتفسير الأسباب التي تحدثها. فهذه الاهتمامات هي التي يستجيب لها نموذج الأزمة الاقتصادية من النمط القديم التي قدم لها لابروس في كتابه الثاني: **أزمة الاقتصاد الفرنسي في أواخر النظام القديم وبداية الثورة** (1943)، إلا أن لابروس لم يطبق نموذجه على الحركات القرنية. لم يكن ذلك ممكنا في ذلك الوقت على الأقل بطريقة دقيقة، وبالاعتماد على المعطيات الإحصائية. وفي الحقيقة، إذا كانت حركة الأسعار معروفة بصورة جيدة منذ القرن السادس عشر، حتى وإن كانت المعطيات المتعلقة بذلك وطريقة تأويلها محل نقاش، فإن المعطيات المتعلقة بتقلبات الإنتاج الفلاحي وعدد السكان على مدى طويل لم تكن متوفرة، هذا من دون أن نتحدث عن الريع أو الأجور. ولا يتعلق الأمر فقط بتوفر المعطيات أو عدم توفرها،

(12) Ernest Labrousse, *Esquisse du movement des prix et des revenus en France au XVIIIe siècle*, collection scientifique d'économie politique; III, 2 vols., préface de Henri Sée et de Roger Picard (Paris: Dalloz, 1933), p. 147.

وإنما كان يجب أولاً القيام بما يجب في مستوى الفرضيات النظرية لعمل المؤرخ، أي في مستوى التساؤلات. كان يجب أن يتحول نظر المؤرخ بعيداً عن الظرفية، أي بعيداً عن التموجات الدورية في اتجاه الخطوط القرنية العامة لدمجها بدورها في تطور أكثر بطئاً. بتعبير آخر، كان يجب الوصول إلى قناعة بأنه من حق المؤرخ ومن واجبه أن لا يهتم فقط بكل ما هو متحرك، ولكن عليه أيضاً أن يهتم بكل ما هو ثابت، أو ما يبدو كذلك، خلال فترات يمكن أن تكون طويلة.

بروديل والتاريخ الشمولي

يبيّن كتاب: **المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني**، الذي شرع فرناند بروديل في إعداده في العشرينات، وأتم تحريره خلال الحرب العالمية الثانية، ونشره سنة 1949، طريقة ثانية مختلفة عن طريقة لابروس للتعبير من خلال بحث تاريخي عن منهج يضع مسألة التكرار في قلب اهتماماته. في هذه المرة، لم يكن فكر سيميان هو الذي يهيمن على البحث، وإنما فكر لوسيان فافر، لأن التاريخ البروديلي لم يكن تاريخاً اقتصادياً واجتماعياً فقط، وإنما هو تاريخ شمولي يتمحور حول تغيّرات الأسعار والمداخيل في بلد محدد وفي زمن مضبوط. إنه تاريخ اقتصادي واجتماعي، وهو أيضاً جغرافي، وديمغرافي، وثقافي، وسياسي، وعسكري. لذلك لم يكن التكرار الذي اهتم به التاريخ البروديلي مرتبطاً بالأقصى والأدنى من هذا المنحنى أو ذاك. ولكن هذا لا يعني أنه أغفل ذلك.

لقد أخرج بروديل مسألة التكرار في التاريخ من الحقل الذي كانت محبوسة فيه. وبذلك لم تعد هذه المسألة مجالاً خاصاً يتعايش مع التاريخ التقليدي الذي لا يهتم إلا بالأحداث، وإنما غزت كل

شيء أو تكاد. لقد أصبحت مسألة أساسية وضرورية لكل بحث تاريخي لم يقتصر على حيز مجالي صغير أو فسحة زمنية محدودة، وإنما امتد على حيز هام من المجال وعلى حقبة طويلة من الزمن.

ويعتبر الاعتماد على تحليل الوسط الجغرافي في حدّ ذاته نتيجة مباشرة للقيمة التي يوليها بروديل لـ «تواريخ تتكرر بالآلاف»[13]، لأن الوسط الطبيعي بالنسبة إليه ليس إلا مجموعة من المشاكل، ومن التحديات التي وجب على الإنسان رفعها، بل رفعها بالفعل، ولكنه لم يعطها الأجوبة المناسبة، ولم يحقق توازنات ثابتة. من هنا جاءت التموجات والتكرار والدورات، فهي مشاكل المناطق الجبلية التي، «وإن وجدت فيها بعض مصادر العيش بصورة متنوعة ومتعددة، فهي ليست دائماً وفيرة»، حتى إن الفائض البشري بالنسبة إلى الإمكانيات المتوفرة يضطر إلى الهجرة نحو السهول.

وهي أيضاً مشاكل تطرحها الحياة في هذه السهول بما أنها ما زالت لم تخضع كلياً للإنسان، فكلما تراخى الجهد البشري فيها عادت إلى وضعها السابق المتصحّر والهمجي.

إن هؤلاء السكان تتهددهم الملاريا وبعض المخاطر الأخرى كتلك التي يمثلها شبه الرحل المنتجعين بقطعانهم، والذين يبحثون لهم عن مكان ليس من السهل توفيره في الفترات الهادئة، ولا يمكن حصر هؤلاء في حدود معقولة. وبالتقاء هاتين المشكلتين، يضاف مشكل ثالث، وهو المتمثل في التعايش بين الجبل والسهل. «من يروم تفهّم الحياة المتوسطية، عليه أن ينظر إليها من خلال هذا التناقض، لأنه الوحيد الذي يعطيها معناها التاريخي والإنساني».

(13) Fernand Braudel, *La Méditérranée et le monde méditérranéen à l'époque de Philippe II* (Paris: Armand Colin, 1949), p. 173.

وتؤدي استحالة تجاوز هذه المصاعب بصورة نهائية إلى تعاقب جملة من المراحل التي يعيش على وقعها تاريخ العلاقات بين القوتين المتناقضتين والمتكاملتين في الوقت نفسه، واللتين تصنعان «تاريخاً دورياً».

تاريخ متجذر في دراسة الوسط الطبيعي

ويمكن قول الشيء نفسه بالنسبة إلى البحر، لأنه ليس فضاء سائلاً ومتجانساً وغير قابل للتجزئة. فهو ليس كذلك، على الأقل بالنسبة إلى أولئك الذين يعيشون على ضفافه وفوق جزره، ويمارسون فيه الصيد ويتعاطون من خلاله التجارة، وربما حتى القرصنة. توجد مجموعة من التناقضات التي تحدد المشاكل التي يجب على هؤلاء حلها، منها ما هو ناتج من الاختلافات العديدة بين البحر الداخلي والبحر العباب، فأوجد ذلك اتجاهين متباينين: الانزواء في الحوض المجاور أو الإبحار في الأعماق البعيدة. ومنها تلك المشاكل التي هي نتيجة لتعمّم الاختلافات السابقة في مستوى البحر المتوسط بكامله، والتي هي بدورها نتاج تقسيم المتوسط نفسه إلى حوضين: الحوض الشرقي، والحوض الغربي؛ فهذان الحوضان هما حوضان متصلان مرتبطان في ما بينهما، ولكنهما ينزعان نحو انغلاق كل واحد على ذاته. وفي الواقع «هذان المتوسطان اللذان يسيطر عليهما العداء، هما في الواقع مختلفين طبيعياً واقتصادياً وثقافياً، حتى إن كليهما يمثل مجالا تاريخياً منفرداً».

يمكن أن نقول تبسيطاً لفكرة بروديل إن وجود هذا التناقض الكبير بين الشرق والغرب هو الذي يتحكم في حياة البحر الداخلي في القرن السادس عشر، ويترجم عن ذاته في الوقت نفسه بالنزاعات المسلحة وبوجود تيارات التبادل.

وحدة العالم المتوسطي

يتجلى التناقض داخل اليابسة وداخل البحر، ولكن أيضاً بين اليابسة والبحر. وتؤدي المنافسة بين المسالك البرية والمسالك البحرية دورها في ذلك. إن المشاكل التي تطرحها علاقات المدن المتوسطية بشركائها المنبثين في القارة الأوروبية إلى حدود بحر قزوين في الشرق وبحر البلطيق في الشمال، ليست نفسها تلك التي يجب حلها على مستوى العلاقات الداخلية. بإيجاز، يوجد تناقض بين المتوسط وأوروبا. ولكن يوجد تناقض آخر بين المتوسط والصحراء أو السباسب، وبين المستقرين والرحّل. «إنها اقتصاديات وحضارات ومجتمعات وأنماط عيش تتصادم».

تلك هي التناقضات المجالية التي لن أذكر منها إلا بعض العيّنات التي تحدد وحدة المتوسط كما رآها بروديل: وحدة طبيعية ووحدة بشرية. وتوجد أيضاً وحدة مناخية ليست أقل تناقضاً مما سبق. «إن مناخ البحر، بفصليه العنيفين وشديدي التميز، يجعل الجسم المتوسطي يعيش مرحلتين شديدتي الاختلاف تحدثان بصورة منتظمة في كل سنة، كما لو أن كل المتوسطيين يتداولون على مشاتيهم ومصايفهم بالتوالي».

في النهاية، وبحرق المراحل، نصل إلى التناقض الذي يشمل كل التناقضات الداخلية للعالم المتوسطي، ليضعها في الخانة نفسها وجهاً لوجه مع عالمين جديدين برزا بصورة مفاجئة في القرن السادس عشر: عالم المحيط الأطلسي، وعالم المحيط الهندي.

عالم بلا حدود

نرى الآن من خلال بعض هذه الأمثلة التمشي الذي اتبعه بروديل في هذا الفصل الأول من عمله، وهو الفصل الأكثر طرافة

والأكثر أهمية من كتابه. لم يكتف بتعداد التناقضات التي اكتشفها والمشاكل المترتبة عنها. لقد نظمها بحسب تراتبية تنطلق من المحلي إلى الشمولي ليركب بنية شجرية وسلسلة من المفترقات المتداخلة في ما بينها، فيبرز المتوسط بذلك في شكل جبهات نزاع في مستويات مختلفة، تتمحور حولها قوات متنازعة ومتكاملة في الوقت نفسه، تطمح كل واحدة منها إلى إرساء توازن دائم لصالحها.

وهذا ما أدى إلى الصراعات، ولكن أدى أيضاً إلى المبادلات وإلى التباعد والاقتراب في الوقت نفسه، وبصورة موجزة أدى كل ذلك إلى حركات دائرية حيناً عندما لا تستطيع أية قوة فرض هيمنتها، وخطية حيناً آخر عندما تستطيع إحدى القوى المتنازعة القضاء على الأخرى أو إضعافها.

نفهم عندئذ لماذا لم تكن للعالم البروديلي حدود واضحة، لا في الزمن ولا في المجال، فكيف يمكن أن تكون له حدود؟ إن بعض الظواهر تتكرر في الزمن منذ فترات ضاربة في القدم، وجب توضيحها وإبراز الثابت منها واكتشاف عنصر البنية فيها. أما في المجال، فإن علاقات المتوسط مع جهات أخرى وفضاءات أخرى، تمتد بلا حدود: تصل إلى السودان من حيث يستجلب الذهب، وتصل إلى الشمال وإلى الشرق حتى بحر قزوين، ولم لا آسيا الوسطى وحتى بلاد الصين. وبإيجاز، فإن الحدود الزمنية والمجالية لا يمكن لها إلا أن تكون غير واضحة، وليست هي التي تعطي لموضوع بروديل خصائصه إلا عندما تتمطط أو تتقلص بفعل ديناميكيتها الخاصة.

الدورات التي ما فتئت تتكرر

يعدّ اكتشاف البعد الجديد للتاريخ، التاريخ البنيوي البطيء،

والذي «يكاد يكون ثابتاً»، والذي تتكرر أحداثه بإلحاح، ودوراته التي ما فتئت تعاد، من أهم إضافات «المتوسط» للفكر التاريخي ولممارسة البحث التاريخي في عصرنا. ولكن هذه الإضافات ليست كل ما في هذا الكتاب.

إن القسم الثاني وقع تخصيصه لمسألة الظرفية أو بصورة أدق لمسألة الظرفيات: الاقتصادية والثقافية والسياسية والاجتماعية والعسكرية. ولنر من خلال بعض الأمثلة كيف تمفصلت هذه التواريخ التي دارت أحداثها في زمن قصير، وبصورة أسرع مما قدمناه، مع التغيّرات البطيئة للبنى نفسها.

لنأخذ مثلاً التناقض بين المتوسط والمحيط الأطلسي، فقد كان هذا التناقض افتراضياً في نهاية القرن الخامس عشر، ولكن مع مطلع القرن الموالي بدا المحيط الأطلسي يكتسب التفوق شيئاً فشيئاً. ويمكن تتبع هذا الصراع بين مسلكين، وبين جهتين: واحدة تحاول الاحتفاظ لها بمصدر الثروة، والثانية تحاول الاستحواذ عليه، وذلك من خلال تجارة البهارات، وخاصة تجارة الفلفل. ونصل إلى الاستنتاج التالي: «يجب البحث عن التاريخ الدقيق لبداية التدهور النهائي لتجارة الشرق الأقصى مع المتوسط قبل سنة 1600. إن الانتصار الذي حققه المسلك العابر للمحيط، وهو انتصار محتوم، لكنه لم يتحقق في لحظة واحدة، إذ دام الصراع بين المسلكين المتنافسين طيلة قرن من الزمن مع وجود بعض الهزّات تارة، وبعض الانتعاش تارة أخرى بالنسبة إلى كل منهما، كل ذلك ممثلاً في تعاقب الأزمات وتحسن الأوضاع». إنها تقريباً النتيجة نفسها التي أفرزتها دراسة تتعلق بتجارة القمح التي أصبحت بداية من سنة 1500 تحت هيمنة الواردات القادمة من الشمال.

لنأخذ مثالاً آخر، وهو مسألة نشوء الإمبراطوريات المرتبط

بالنمو الاقتصادي خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فنجد إمبراطوريتين متنافستين من أجل السيطرة على المتوسط: الإمبراطورية العثمانية، والإمبراطورية الإسبانية. كيف لا نرى أنهما تنخرطان كل واحدة في مجموعة من البنى المسبقة، فالأولى تعتمد على الحوض الشرقي للمتوسط في الوقت الذي تهيمن فيه الثانية على حوضه الغربي؟ إلا أنه مع تبني صراع موجود منذ عدة قرون، قامت كل منهما بتطويره، لأنهما غير مرتبطتين بصورة قسرية بالبحر الداخلي فقط.

إن العثمانيين اتجهوا أيضاً نحو المحيط الهندي، والإسبان نحو المحيط الأطلسي ونحو الشمال، حتى إن التصادم الكبير بينهما في معركة ليبانت (Lépante) لم يكن بالنسبة إلى الإسبان إلا انتصاراً مفرداً، لأنه كان يهدف إلى إعادة توازن يهدده التقدم العثماني.

الحدث التاريخي، والظرفية والبنية

بذكر هذه المعركة، نمر إلى الجانب الثالث من الثلاثية البروديلية: الأحداث التاريخية. لن أتوقف عند هذا الجانب إلا لذكر مأخذ على كتاب بروديل وقع تكراره كثيراً حول الفصل المخصص لهذا الجانب، وهو أن فصل الأحداث التاريخية من الكتاب لا يتماشى مع الفصلين الآخرين.

يعتبر هذا المأخذ وجيهاً نتيجة لعدة اعتبارات، فمهما أخذ الحدث التاريخي في وحدته، فهو لا يسمح بأي تفسير، لأنه حدث وقع ولا يمكن إلا تسجيله. إن معركة ليبانت التي دارت يوم 7 تشرين الأول/أكتوبر 1571 هي حدث فريد لعدة اعتبارات. ولكنها في الوقت نفسه تمثل واحدة من سلسلة من المعارك التي تواجه فيها الإسبان والأتراك. وهذه السلسلة من المعارك يمكن أن تفسر جيداً

بتواصل بعض المعوقات البنيوية، وبوجود شكلين من أشكال الاقتصاد، وبوجود مجتمعين وحضارتين وسياستين توسعيتين كان لا بد لهما من التصادم. وهو ما فعلتاه مرات عديدة، ولم تتصادما حيثما كانا، وإنما في خطوط التماس بين حوضي البحر المتوسط في مستوى «حدودهما التقريبية»[14]. لذلك نتجت هذه الأحداث مما هو ظرفي وما هو هيكلي، فهي تعبّر عن انخرام التوازن وإعادة بنائه.

البنى والظرفيات والأحداث، تلك هي ثلاثية بروديل لتقسيم الزمن التاريخي، وكما نراه، فهي لا تتطابق مع تقسيمات لابروس. إن التغيّرات الموسمية مرتبطة بالبنية لأن تكررها من سنة إلى سنة يمثل خاصية من الخصائص الدائمة للاقتصاد القديم، وللمجتمعات القديمة، وكذلك الحضارات القديمة، في حين تندرج الحركات التي تمتد على قرون من الزمن والتذبذبات الدورية في إطار الظرفيات. أما ما هو وقائعي، وهو انسجام بين ما قدمه بروديل وما قدمه لابروس، فهو مدفوع إلى الهوامش أو ربما حتى إلى عدم الاكتراث. وفي الواقع تركزت اهتمامات المؤرخين من خلال التوجهات البحثية منذ الأربعينات على دراسة التناقض بين البنية والظرفية.

إن البنية، بل لنقل البنى، لأن البنية في لغة المؤرخين لا توجد بصيغة المفرد، وإنما بصيغة الجمع، هي من الظواهر الجغرافية والإيكولوجية والتقنية والاقتصادية والسياسية والنفسية، التي تظل ثابتة لفترة طويلة من الزمن، وحتى وإن تغيّرت فإنها تتغيّر ببطء. أما الظرفية، فهي تمثل جملة من التغيّرات ذات الأبعاد المتباينة التي تبرز في هذا الإطار من دون أن تكون متساوية الأهمية. وبلغة أخرى،

---

(14) الاستشهادات مأخوذة من كتاب: Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II.*

تمثل البنية بصورة خفية جملة من المعوقات والحدود والحواجز التي تمنع مختلف المتغيّرات التي تمثل الظرفية من تجاوز حدّ معين. وتتميز التغيّرات البنيوية المتمثلة في جملة من التجديدات التي تسمح بتجاوز المعوقات القديمة بجملة من التحولات النوعية التي تتسم بالتواصل والقطيعة في الوقت نفسه.

يبدو زمن البنية زمناً بطيئاً يكاد لا يتحرك، حتى إنه يمكن القول بأن داخل كل بنية يوجد زمن متوقف. ولكن عندما نقارن البنى المتعاقبة، فعندها نلاحظ التغيّرات التي لا رجعة فيها: التبدلات التي تغيّر أنـواع البنى من بنية إلى أخرى.

يعدّ كتاب بروديل في حدّ ذاته نموذجاً أثر في الأسس النظرية للتاريخ، وفتح توجهات جديدة في مجال البحث. وقد اعترف بذلك لوسيان فافر مباشرة عندما كتب: «لنقل بصوت عال: بماذا يعدّ هذا الكتاب كتاباً متميزاً؟ هذا العمل الكامل لمؤرخ متمرس بمهنته الجميلة، يضيف إلى ذلك شيئاً آخر، إنه إنجاز محترف. إنه ثورة في طريقة تصور الكتابة التاريخية. إنه انقلاب في تقاليدنا العتيقة. إنه تغيّر تاريخي ذو عمق كبير»[15]. بعد مرور تسع سنوات على صدور كتاب **المتوسط**، عاود بروديل في المقال السابق الذكر النظر في إشكالية العلاقات بين التاريخ والعلوم الاجتماعية التي تحدثنا عن أهميتها سابقاً، فقد وضع في أول اهتماماته البحث في ظاهرة الأمد البعيد، أي مسألة البنى، وهو بذلك أتم التبرير النظري للتاريخ البنيوي.

---

(15) Lucien Febvre, «La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II,» (1950), repris dans: *Pour une histoire à part entière*, bibliothèque générale de l'école pratique des hautes études. 6e section ([Paris]: S. E. V. P. E. N., 1962), p. 168.

خصائص التاريخ البنيوي

لنعد الآن إلى ممارسة البحث التاريخي خلال الثلاثين سنة الماضية، والتي لم ندرس منها إلى حد الآن إلا نموذجاً واحداً لإبراز الخطوط المميزة، وتوضيح المشاكل التي تطرحها.

إنه تاريخ للناس عامة

على عكس التاريخ التقليدي، وهو تاريخ النخبة بصورة لاواعية حتى عند أولئك الذين يسعون إلى دراسة «الجماهير الشعبية»، فالتاريخ البنيوي هو تاريخ الناس عامة؛ تاريخ الناس وليس تاريخ العامة، لأنه لا يقصي أولئك الذين يحظون بمواقع متميزة في صلب السلطة والعلم والثروة. ولكن يجب فقط وضعهم في الموقع المناسب، موقع أقليات محدودة تتمعّش من ظروف استثنائية.

يؤدي اهتمام التاريخ البنيوي بالناس، بسكان جهة أو مدينة، بجميع عناصر مجتمع ما، كما يبدو ذلك من خلال كتاب: **فلاحو اللانغدوك**، ولو أن العنوان يوحي بعكس ذلك، إلى قيام المؤرخين بتحويل قضايا الديمغرافيا التي ليست لها في نظر التاريخ التقليدي سوى أهمية هامشية، إلى مركز اهتماماتهم.

لقد برزت العلاقة بين اكتشاف الأمد الطويل وأهمية الديمغرافيا التاريخية من خلال العمل الرائد لفيليب أرياس: «لا تستفرغ العلاقات التي توجد بين فترتين متتاليتين الالتحام الكلي لكل واحدة منها بالتاريخ العام، فهي في بعض الأحيان تبسط سببيات سطحية. هل يمكن أن نفهم اللغة الفرنسية اليوم من دون الرجوع إلى الأثر الذي تركته الحضارة الرومانية الإغريقية، ومن دون أن نعود إلى أقدم من ذلك، إلى تقاليدنا الفلاحية القديمة؟ لقد بيّن مارك بلوخ من خلال أعماله حول المجتمع الفيودالي، بوضوح: «كيف وضع

الانتشار غير المتوازن للسلوكيات الفيودالية، منذ العصر الوسيط، أسس الجغرافيا السياسية والنفسية لأوروبا الحديثة. لا يمكن أن نفهم النازية الألمانية في دقائقها فقط من خلال تذكير بسيط بتطورات القرن التاسع عشر، بل يجب المضي إلى ما هو أبعد في الزمن. يجب أن نبحر في الماضي بأكمله ونتجاوز مختلف طبقاته من دون أن يكون قصوه منهكاً لتجدد أواصر تضامننا»[16].

لقد كتبت هذه الكلمات سنة 1946. ولكن انتعاش الديمغرافيا التاريخية كان متأخراً، وسيحدث تحت التأثير الثلاثي لأعمال لويس هنري والمعهد الوطني للدراسات الديمغرافية (I. N. E. D.) اللذين وضعا التقنيات التي سيستغلها المؤرخون في ما بعد، إلى جانب أعمال لابروس صاحب نموذج الأزمة الاقتصادية من النوع القديم الذي يدفع إلى دراسة التغيّرات السكانية، وأعمال بروديل للأسباب التي ذكرناها أعلاه.

ويبرز وضع السكان بصورة إجمالية وبمختلف خصائصهم المتنوعة في قلب الاهتمامات من خلال البحوث، ومن خلال شكل الدراسات التي تنشر نتائجها. فهي في الغالب دراسات مونوغرافية تهتم بجهة أو بمدينة من خلال فترة زمنية طويلة تمتد عامة على عدة قرون يقع فيها الاختيار على فسحة زمنية محدودة ودراستها بدقة. لقد رأينا مثالاً لتلك المقاربة من خلال تحليل كتاب بيار توبار، ويمكن أيضاً أن ندلل على ذلك بالرجوع إلى كتاب: **بوفاي ومنطقتها من 1600 إلى 1730** لبيار غوبار، والى كتاب: **فلاحو اللانغدوك** لإمانويل لو روا

(16) Philippe Ariès, *L'Histoire des populations françaises et de leurs attitudes devant la vie depuis le XVIIIe siècle* (Paris: SELF, 1948); (Paris: Editions du seuil, [1971]), p. 14.

لادوري، وإلى أعمال موريس غاردين وكلود بارو المهتمة بمدينة ليون ومنطقتها في القرن الثامن عشر، وكذلك كان (Caen) في الفترة نفسها[17]، وليست هذه العناوين إلا جزءاً ضئيلاً من قائمة تطول أكثر.

إنها القطيعة نفسها مع تاريخ نخبوي سجين داخل زمن قصير، تؤدي إلى إهمال الظواهر الاستثنائية أو تلك التي لا تعني إلا أقلية صغيرة، وتفضل الاهتمام بما هو عادي ومتكرر وحاضر في الحياة اليومية، فهي تهتم بالإنسان العادي وهو ما يعني على الأقل أعداداً هامة من مجموعة من السكان. وقد نتج من ذلك بروز أعمال ليست بالمونوغرافية المهتمة بجهة أو بمدينة، وإنما دراسات تعنى بظواهر تاريخية عامة، أو أقل ما يقال عنها إنها كونية. وهو ما يعني أن هذه الظواهر كيفما تبدو بأي شكل من الأشكال في أي مجتمع إنساني، تجعلنا مضطرين إلى تتبعها في مجال محدد، وفي فترة زمنية مضبوطة حتى ولو كانت طويلة الأمد، وذلك لأسباب عملية.

وهو ما نجده في أعمال جان موفريه (Jean Meuvret) حول مشكلة الأقوات في عهد لويس الرابع عشر، وأعمال جان نوال بيرابان (Jean-Noël Biraban) حول تاريخ الطاعون، وأعمال فيليب أرياس وجان لويس فلندران حول الجنس، وميشيل فوفيل وفيليب أرياس حول الموت، ومن خلال مجموعة من الأعمال التي هي بصدد الانجاز وتهتم بالمحيط والتغييرات التي تحدث فيه بفعل

---

(17) Pierre Goubert, *Beauvais et le beauvaisis de 1600 à 1730: Contribution à l'histoire sociale de la France du XVIIe siècle*, démographie et sociétés; 3 ([Paris] S. E. V. P. E. N., 1960); Maurice Garden, *Lyon et les lyonnais au XVIIIe siècle*, bibliothèque de la faculté des lettres de Lyon; 18 (Paris: Les Belles lettres, 1970), et Jean Claude Perrot, *Genèse d'une ville moderne: Caen au XVIIIe siècle*, civilisations et sociétés; 44 (Paris; La Haye: Mouton, 1975).

الأنشطة البشرية. وليست هذه الأعمال المذكورة إلا عيِّنات لا غير.

إنه تاريخ نفسي

إن تناول هذه المواضيع الجديدة بالدرس ـ مواضيع جديدة لأنها في الماضي لم تكن تجلب إلا اهتمام المبحرين في العلوم، في حين أنها اليوم تحتل مكانة مركزية ـ ليست في الواقع إلا دراسة لسكان منطقة أو لمجموعات من السكان يقع تناولهم هذه المرة من خلال زاوية معينة. وهي نظرة مرتبطة بالديمغرافيا التاريخية التي وإن فتحت الباب للمؤرخين على المعطيات الكمية المتعلقة بالزواج والولادات والوفيات وغيرها، فهي تمكّن من وصف الهياكل الديمغرافية التي تتنامى من خلالها المجموعات السكانية، وتمكّن أيضاً من التعرّف على ردود فعل هؤلاء السكان تجاه أوضاعهم، وتزيح النقاب عن سلوكياتهم الخفية والخاصة جداً. وبذلك تصبح الديمغرافيا وسيلة ضرورية لمعرفة النفسية التاريخية. وقد برز الترابط بينهما من خلال عنوان كتاب جان لوبران (Jean Lebrun)، وقد بيّنه منذ ثلاثين سنة فيليب أرياس: «لقد برزت لنا تغيّرات الولادات وطول الأعمار وتوزع الكثافات وتحركات السكان في تعاقبها عبر الزمن، كظواهر قابلة للتفصيل تعبّر عن تغيّرات أكثر عمقاً وأكثر استتاراً في مستوى ذهنية الناس، وفي مستوى نظرة الإنسان إلى ذاته، فالإحصائيات الديمغرافية تنيرنا عن كيفية عيش الناس، وعن تصورهم لذواتهم ولأجسادهم، وتخبرنا عن حياتهم العائلية، أي عن موقفهم من الحياة»[18].

وبالتالي، فإنه يمكن الوصول إلى دراسة البنى النفسية ودراسة

(18) Ariès, *L'Histoire des populations françaises et de leurs attitudes devant la vie depuis le XVIIIe siècle*, p. 15.

الأطر الذهنية التي تتحكم في سلوك الأفراد بواسطة الإحصائيات. وهو ما تهتم به من ناحيتها أيضاً باستعمال المناهج الخاصة بها أنثروبولوجيا تاريخية ما زالت في مرحلة تشكل، فأبحاثها تهتم بترتيب الزمن وكيفية التفكير فيه ومعايشته، وتهتم أيضاً بالعادات الشعبية (مثل الاحتفالات الصاخبة) والأعياد والسير الملحمية والذاكرة الجماعية إلى غير ذلك من المواضيع.

وسواء كانت البحوث في شكل مونوغرافيات جهوية أو في شكل دراسة نسميها اعتباطاً ظاهرة تاريخية عامة، فالتاريخ البنيوي يحطم المنظومة التقليدية لترتيب الفعل التاريخي إلى فعل اقتصادي واجتماعي وسياسي وثقافي إلخ... لنأخذ مثلاً كيف كان الناس يقيسون الزمن، وكيف كانوا يعيشونه، وكيف كانوا ينظمون أنشطتهم، وكيف كانوا يحدّدون أوقات عملهم وأوقات الراحة. وفي عرض حديثه عن التجديد الذي طرأ في هذا الموضوع في القرن الرابع عشر لاحظ لوغوف: «كانت التقنيات الجديدة إلى حدود عصر هويغنز (Huygens) هشة وعزيزة وغير منتظمة. لقد كان للزمن الجديد كثير من الضياع، والساعة الحضرية كثيراً ما كانت معطبة، وهي أكثر من أداة تستعمل في الحياة اليومية، إذ كانت أعجوبة وأداة زينة ولعبة تفتخر بامتلاكها المدينة. إنها من أدوات تجميل الفضاء الحضري تستعمل للمظهر أكثر منها للضرورة. أكثر من ذلك، لقد احتكرت القوى العليا الزمن الجديد الذي ولد من حاجة البورجوازية صاحبة المشاريع والحريصة أمام الأزمة إلى احتساب زمن العمل بأكثر دقة لأنه مصدر ربحها. إن الزمن وسيلة هيمنة، وهو في الوقت نفسه أداة تسلية بالنسبة إلى الأسياد والأمراء، ولكنه أيضاً رمز من رموز النفوذ. كما يمكن أن يكون أكثر من ذلك إذا كان في إطار حضري وفي عاصمة من العواصم، فهو مظهر من مظاهر حسن التسيير: لقد أمر

شارل الخامس في سنة 1370 أن يقع تعديل كل نواقيس باريس على ساعة القصر الملكي التي تدق كل ساعة وكل ربع ساعة. وبذلك أصبح الزمن الجديد زمن الدولة. وتحكم الملك، الذي قرأ أرسطو، في الزمن المعقلن. وعلى رغم كل الشوائب وكل المحدوديات التي شملت هذه التغييرات، كانت زعزعة الأطر الزمنية التي عرفها القرن الرابع عشر، زعزعة لما هو ذهني وما هو روحي في الوقت نفسه»[19].

إنه تاريخ أنثروبولوجي

نلاحظ أن إشكالية الزمن لا يمكن أن تنحصر بصورة مسبقة في حقل معيّن، لأنها تتموضع في نقاط التقاطع بين ما هو اقتصادي وسياسي، وبين ما هو اجتماعي وما هو ذهني. وبوصفه موضوعاً يتناوله المؤرخون بالدرس، يعدّ الزمن ظاهرة اجتماعية كلية، وهذه العبارة هي استعارة للمصطلح الجديد الذي أقحمه مارسيل موص في علم الأنثروبولوجيا. إنه يتميز بجملة من الخصائص التي تتمفصل بأشكال مختلفة بحسب المجتمعات وبحسب الفترات الزمنية. وهذه التمفصلات وتغيراتها هي التي نرفع عنها الحجاب عندما ندرس تاريخها.

ويمكن أن تعطي أغلب الظواهر التي يهتم بها المؤرخون اليوم نتائج مماثلة، وخاصة أن حياة السكان في جهة أو في مدينة ما يدرسها المؤرخون بصورة تكاد تكون دائمة، بوصفها ظاهرة اجتماعية

(19) Jacques Le Goff: «Le Temps du travail dans la crise du XIVe siècle: Du Temps médiéval au temps moderne,» *Le Moyen-âge*, vol. 64 (1963), repris dans: *Pour un autre moyen âge: Temps, travail et culture en occident: 18 essais*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, [1977]), pp. 75-76.

كلية، على رغم أن مؤلفي المونوغرافيات يفضلون عادة جوانب معينة إما لأنها تهمّهم في المقام الأول أو لأنها أكثر وضوحاً.

ومهما كانت المقاربات، ومهما كانت المناهج الأيديولوجية التي يتبعها المؤرخون، فالتاريخ البنيوي يرفض الحتميات الأحادية والمبسطة التي تبدأ بتقسيم الواقع المدروس إلى وحدات، وتنتهي بالبحث عن الأسباب التي يمكن «أن تفسر في آخر المطاف» أنشطة الأفراد وتطور المجتمعات. إنه يستعيض عنها بجملة من التشابكات الشديدة التعقيد، وحيث لا يمكن أن يكون أي سبب معزولاً عن البقية وممثلاً لمعطى مستقل، فإن تطوره يكون متحكماً في البقية.

لا تبدو المقاربتان اللتان وصفناهما متعارضتين، بل متكاملتين. المقاربة **الأولى** كما رأيناها، تهتم بمجتمع ما لتبرز بنيته وتحللها، ثم نتساءل في ما بعد عن نشوئها، أو عن حيادها البطيء عن حالتها الأصلية، ونحاول إيضاح التغيّرات الظرفية التي تحدثها كما نحاول تبيان تشابك الهياكل التي تعمل على تقوية البعض منها أو إضعاف البعض الآخر. أما المقاربة **الثانية**، فهي تتركز بدرجة أولى على الظواهر ذات البنى المختلفة، والتي ندرس من خلالها مختلف الخصائص التي تساهم في إبراز الروابط التي بينها. تعتني المقاربة **الأولى** بكل ما هو ثابت أو كل ما لا تحدث فيه إلا تغييرات طفيفة عبر تموجات لا يمكنها أن تتجاوز بعض الحدود، وعندما تتجاوزها يمكن القول إن البنى قد تغيّرت. أما **الثانية**، فهي تقوم بمقارنة الحالات المتعاقبة لظاهرة واحدة عبر فترة زمنية طويلة قد تمتد على طول عمر الظاهرة (كما هو الحال في تاريخ الطاعون في أوروبا) أو تتناولها منذ فترات سحيقة على عصرنا الحالي (يمكن أن نأخذ مثال تاريخ الموت في الغرب). يتأكد هذا التكامل بين المقاربتين في العديد من الدراسات التي نجحت في المزاوجة بينهما بصورة

متناسقة، على رغم أنهما تتجهان كل واحدة في اتجاه مختلف. تنفتح المقاربة **الثانية** على الأقل على زمن بالغ الطول، أطول من زمن البنية، في حين تعيد المقاربة **الأولى** معنى لدراسة الزمن القصير والسريع، ولكنها تتناوله من وجهة مختلفة عن تلك التي كانت من خصائص التاريخ الوقائعي.

إنه تاريخ بيولوجي

بالاهتمام بظواهر كالتغذية والجنس ومواقف الإنسان من الجسد ومن الموت والأمراض، فإننا ندرس في الواقع ردود فعل الإنسان أمام الضغوط الطبيعية. وبذلك يبدأ التاريخ بوضع بعض الروابط مع البيولوجيا، ويمكن أن نتكهن أنها ستكون أكثر أهمية في المستقبل، لأن ما تقدمه البيولوجيا للتاريخ هو نتائج أبحاثها، وهي مصدر هام وغني بالمعلومات التي أهملها المؤرخون إلى اليوم نظراً إلى عدم قدرتهم على تناول الجسد بالدرس[20].

وبدراسة فصائل الدم وأنواعها «يمكن أن نعرف الفرد من خلال هذه الفصيلة (وهي مجموعة الجينات التي يمتلكها)، ويمكن أن نعرف مجموعة بشرية بسلسلة الجينات المتكررة عندها. وهو ما يسمح بتحديد المكوّنات الجينية لمجموعات بشرية مختلفة، ومتابعة تطوراتها، وتبيّن أهمية المبادلات ونوعيتها، ومنها نخلص إلى مسائل الاختلاط العرقي بين المجموعات المتقاربة والتعرف على حركات الهجرة وترتيب المجموعات البشرية بحسب «تقاربها الجيني»[21]. كما تسمح نوعية فصائل الدم وفق شروط معينة بمعرفة امتداد التاريخ إلى

---

(20) أنا مدين بهذه الفكرة للسيد روجيرو رومانو (Ruggiero Romano).

(21) Jacques Ruffié, *De La Biologie à la culture*, nouvelle bibliothèque scientifique (Paris: Flammarion, 1976), p. 387.

فترات لا نملك حولها في الوقت الحاضر سوى بعض الإشارات المشتتة التي تبوح بها بقايا العظام والآلات القديمة. إنها تسمح خاصة بإعطاء معنى تاريخياً لفترات طويلة جداً من خلال اكتشاف معطيات ذات أهمية كبيرة للتاريخ، مثل تكوّن المجموعات الزنجية الذي يبدو أنه حدث منذ حوالى 120000 سنة، وانفصال المجموعات المنغولية والقوقازية الذي يبدو أنه حصل منذ حوالى 55000 سنة[22]. ونأمل أن تضيف البيولوجيا والأنثروبولوجيا الفيزيولوجية أكثر من ذلك، فهي تمنح حقيقة إمكانية إدماج الجسد في الدراسات التاريخية كما دمجت فيها الجغرافيا من قبل الوسط الطبيعي. ويبقى التاريخ البيولوجي الحقيقي مطمحاً. والمواد الضرورية لمثل هذه الدراسات تتجمع شيئاً فشيئاً، وقد تسمح في يوم من الأيام بإنجاز ذلك.

من خلال ما أنجز من البحوث مثل بحوث أندريه لوروا ـ غورهان (André Leroi- Gourhan) وجاك روفييه، وبحوث الإيثولوجيين والمختصين في علم الاجتماع البيولوجي، وكذلك المؤرخين، يمكن أن نفترض أن هذا التاريخ سيكون معنياً بفترات بالغة الطول، أي بعشرات الآلاف من السنين إذا ما اتخذنا نقطة انطلاقها الفترة التي بدأ فيها تطور الثقافة ينوب نهائياً عن التطور البيولوجي، أو بملايين السنين إذا أخذنا بعين الاعتبار الإرث الذي تلقاه الإنسان الأول من أسلافه.

البنية والثورة

لقد توضح الخط المميز للتاريخ البنيوي من خلال ما سبق ذكره، فهو يفرق بين المواضيع التي يطرحها على نفسه من خلال

---

(22) المصدر نفسه، ص 398.

نمط وجودها في الزمن، ويعطيها قيمة تزداد كلما كانت ديمومتها أكثر استمراراً في الزمن. ولكنه في الوقت نفسه، وفي تناقض ظاهري، يؤدي هذا الاهتمام بالتطورات البطيئة إلى إعطاء التطورات السريعة نسبياً معنى جديداً. ويجب أن نفهم أن هذه السرعة هي تلك التي تحدث في زمن أقصر جداً من زمن تطور الهياكل. في الحقيقة، لم نتحدث بقدر كبير عن الثورات في التاريخ إلا منذ الإشاحة بالدراسات عن الأحداث. ويبدو أن الأمور تسير كما لو أن كلمتيْ «البنية» و«الثورة» لهما وشائج حميمية، وكما لو أن بروز الأولى كان يجب أن يؤدي حتماً إلى بروز الثانية إن عاجلاً أو آجلاً من دون أن يكون العكس صحيحاً.

هكذا، وبعد أن قدم وصفاً لبنية السكن في منطقة اللاسيوم ما بين القرنين التاسع والثاني عشر، تساءل بيار توبار عن كيفية تكونها؟، وأجاب عن ذلك بدراسة تاريخ السكن المحصّن الذي وصفه بأنه «ثورة». كذلك تساءل إلى أي مدى يمكن أن تؤدي دراسة بنية ديمغرافية من النوع القديم إلى الإقرار بأنه في بداية القرن الثامن عشر حدثت في فرنسا «ثورة ديمغرافية»؟. ويدور الحديث أيضاً عن ثورة فلاحية، وثورة صناعية، وثورة علمية، من دون نسيان الثورات السياسية، وبسهولة يمكن أن تطول هذه القائمة التي تبدأ بالثورة النيوليتيكية.

طريقة جديدة للتفكير في مفهوم «الثورة»

لم تكن العلاقة بين البنية والثورة علاقة صدفة، ففي الواقع تعدّ كل ثورة انقلاباً يؤدي إلى بروز بنية جديدة. وإذا ما أخذنا كلمة «الثورة» بهذا المعنى، فهي تفقد هالتها الأيديولوجية. إنها لن تعني مستقبلا تغيراً شاملا للمجتمع، أو تجديداً عاماً يترك جانباً كل التاريخ

السابق كأن ليس له معنى، أو كسنة صفر منها ينشأ عالم مختلف جذرياً عمّا كان. إن الثورة ليست من هذا المنظور تحولاً، فإذا لم تكن عنيفة وفرجوية، أو على الأقل مأساوية، فهي في كثير من الأحيان ثورة هادئة غير محسوس بها من طرف الذين يصنعونها، مثل الثورة الفلاحية أو الثورة الديمغرافية. إنها ليست دائماً سريعة، إذ يحدث أن تتمطط على قرون عديدة من الزمن. وقد بيّن فرنسوا فوريه وجاك أوزوف إلى أي مدى يمكن لبنية ثقافية تتميز بمحدودية القراءة والكتابة أن تعوض بثقافة أخرى تتميز بانتشار الكتابة والقراءة خلال الصيرورة التي امتدت في فرنسا حوالى ثلاثمائة سنة[23]. وهكذا مرة أخرى يعدّ الانتقال من زمن يمر على وقع الدورات الطبيعية، وهو زمن جماعي، إلى زمن تحتسبه الآلات، وهو زمن فردي، قد حدث خلال فترة طويلة جداً تبدأ في القرن الرابع عشر لتنتهي أمام أعيننا اليوم مع انتشار الساعة اليدوية في الأرياف[24]. وفي كل من الحالين نحن أمام ثورات لأن الإطار الزمني لنشاط الإنسان قد تغيّر.

إنه لمن الخطأ أن نعتبر دخول مثل هذه الثورات في التاريخ البنيوي نوعاً من أنواع الثأر الذي يقوم به الحدث بعد وفاته. إن العكس هو الذي حدث، فالحدث بالمعنى التقليدي للكلمة قد وقع إجلاؤه عن آخر مكامنه. ولم يعد التفكير في الثورة على أساس أنها سلسلة من الأحداث المفردة، بل هي ذبذبة من الإبداع، تبدأ من

---

(23) François Furet et Jacques Ozouf, dirs., *Lire et écrire: L'Alphabétisation des français de Calvin à Jules Ferry*, le sens commun, 2 vols. ([Paris]: Editions de minuit, 1977-).

(24) انظر: Guy Thuillier, *Pour une histoire du quotidien au XIXe siècle en Nivernaîs*, civilisations et sociétés; 55, préface de Paul Leuilliot (Paris; La Haye: Mouton, 1977), pp. 205 et suiv.

نقطة انطلاق لتنتشر في شكل حركات تكرارية متعددة: إن الناس تعلموا القراءة والكتابة الواحد تلو الآخر، والساعة اليدوية قد تضاعف استعمالها في القرية تلو القرية وفي البلدة تلو البلدة.

وهذه السلسلة من التكرار هي الهامة من وجهة نظر التاريخ البنيوي، وليس مجرد وقوع بعض تلك الأحداث الصاخبة والمعزولة أو المفردة، فالمشاكل التي يطرحها وجود الثورات في التاريخ تبدو شديدة الاختلاف مع تلك التي تحمس لها أجدادنا.

إن المهم أولاً هو نقطة الانطلاق، أو أرضية التجديد التي منها انطلق كل من حاول إنجاز شيء ما في مجتمع ما أو في مختلف الأماكن، هي التي لم يتم تحقيقها بعد. وهذا ليس بعلم النفس الفردي، ولو أن الخصائص النفسية هامة، وإنما هو علم الاجتماع التاريخي: متى يمكن أن يكون التجديد ممكناً في مجتمع من المجتمعات؟ ما هو التجديد الحلال الذي يمكن له أن ينتشر؟ ما هي المجموعات التي يمكن أن تكون متقبلة للتجديد قبل غيرها، وما هي دوافعها في ذلك؟ كيف يمكن للتجديد أن ينتشر؟ ما هي المقاومة التي قد تعترضه، وكيف يمكن أن تطرأ عليه بعض التغييرات في أثناء مسيرته؟

تبيّن هذه المجموعة من الأسئلة بوضوح أنه لدراسة الثورات بمعنى التجديد لا بد من الاعتماد على «النخب»، وهذه الكلمة وضعت بين مزدوجين لأنها تعني هنا الأقليات المجددة، وليس المجموعات المحظوظة. يجب الاعتماد على «النخب»، ولكن أيضاً على النشاطات التي أهملها المؤرخون خلال الثلاثين السنة الماضية، لأنها جزء من التاريخ الوقائعي. إن أهمية أبحاث كأبحاث فرنسوا فوريه وجاك أوزوف، وقد سبق ذكرهما، تكمن خاصة في إبرازها كيف أن الظاهرة لا تجلب إلا اهتمام عدد محدود من الناس في

بداياتها، ثم تنتشر داخل مجموعة سكانية بأكملها وتندمج في صلب الحياة اليومية وتغيّر مختلف خصائصها.

وفي التوجه نفسه تنخرط أبحاث هنري جان مارتان[25] وآخرون كثر من المهتمين بتاريخ الكتاب. وفي تاريخ التجديد نفسه يبحث كل المهتمين بتاريخ الأوساط الفكرية، ويمكن أن نذكر مثالاً على ذلك كتاب دانيال روش المخصص لأكاديميات الجهات في القرن الثامن عشر. كما يمكن أن نفترض أن إعادة اكتشاف الثورات من خلال التاريخ البنيوي تؤدي إن آجلاً أو عاجلاً إلى إعطاء نفس جديد للبحوث حول العلوم والتقنيات والآداب والفنون.

التقسيم الثلاثي الجديد للتاريخ

البنى، والظرفيات، والأحداث: من خلال هذا التقسيم الثلاثي للزمن التاريخي، يطرح العنصر الأخير مشكلاً. من السهل تحديد زمن البنى، على أنه الأمد الطويل وشبه الثابت، والشيء نفسه بالنسبة إلى زمن الظرفيات، فهي تلك التموجات الدائرية. أما بالنسبة إلى الحدث، فإن موقعه ظل غامضاً، فهو من مخلفات التاريخ التقليدي، ولحسن الحظ لم يكن دائماً ثقيلاً في واقع الممارسة، لأنه يمكن التغافل عنه. وقد بدأت اليوم النظرة إلى مفهوم الزمن التاريخي تتغير، فإلى جانب الأمد الطويل والتغيرات الدورية برز زمن التجديد، وهو زمن غير قابل للتراجع وتطور من المحلي إلى الكلي، وطبيعته تتطور كلما تجسد في بنية جديدة. ومن جملة الأفعال التي كانت إلى هذا الوقت محسوبة على الأحداث، جزء فقط من الظرفيات: وهي كل ما كان متكرراً حتى ولو لم يكن محدداً زمنياً، ولا يغير البنى التي

(25) انظر: H. J. Martin, *Livre, pouvoirs et société à Paris au 17e siècle, (1598-1701)*, histoire et civilisation du livre; 3, 2 vols. (Genève: Droz, 1969).

ينتج منها، مثل المعارك بين الأتراك والغربيين منذ القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر. إلا أن أغلبية الأحداث هي في واقع الأمر أمور جديدة، بعضها لم يكن له تأثير، وبعضها الآخر يمثل جزءاً من ثورة، وهي تنطلق ببطء لتنتهي بتكوين بنية جديدة، مثل الحركات الدينية التي نشأت في القرن الخامس عشر وآلت إلى حركة الإصلاح الديني.

البنى، والظرفيات، والثورات، تلك هي العناصر التي تمثل التقسيم الجديد لزمن التاريخ. وفي هذا الإطار يمكن طرح الإشكاليات الجديدة التي سيوفر البحث عن حلول لها كثيراً من العمل للمؤرخين في السنوات القادمة.

الأنثروبولوجيا التاريخية

أندريه بورغيار(*)

«مجبر بالأحداث العظام التي عليه أن يرويها، على سماع كل ما لا يتاح له سماعه مع شيء من الأهمية، فالمؤرخ لا يقبل فوق «الركح» إلا الملوك والوزراء وجنرالات الجيش، وكل تلك الشخصيات البارزة التي أدت إلى ازدهار الدولة ونكساتها بما لها من عبقرية، وما ارتكبته من أخطاء، وبكل ما بذلته من جهد أو قامت به من مناورات. إلا أن البورجوازي في مدينته، والمزارع في ضيعته، والنبيل في قصره، أي الفرنسي منهمكاً في أعماله، وفي لذّاته، ما بين أهله وأطفاله، هذا هو الذي لم يستطع تصويره». ليس لوسيان فافر هو الذي يعبّر هكذا عن نقائص المؤرخ، وإنما لوغران دوسي

(*) ولد سنة 1938. مدير أبحاث في مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية. وهو عضو في الهيئة المديرة لمجلة: .Annales E. S. C. وهو مختص في تاريخ العائلة، وقد اشترك في الإشراف على نشر: André Burguière [et al.], dirs., *Histoire de la famille*, 2 vols. (Paris: Armand Colin, 1986),

وهو مختص أيضاً بتاريخ العلوم الاجتماعية، وقد نشر **قاموس العلوم التاريخية**: André Burguière, dir., *Dictionnaire des sciences historiques* (Paris: Presses universitaires de France, 1986),

ونشر بالإضافة إلى ذلك العديد من المقالات في مجلات فرنسية وأجنبية.

(Legrand D'Aussy)، وهو معاصر مغمور لعصر الأنوار، في مقدمة كتابه: **تاريخ الحياة الخاصة في فرنسا** (ثلاثة أجزاء) الذي نشره سنة 1782. هذه الأسطر القليلة تشير بجلاء إلى ما تغافل عنه التاريخ الوقائعي، وهو الحقل الذي اهتمت به البحوث التاريخية حديثاً. لذا نقول إننا لا نشهد منذ نشأة مدرسة **الحوليات** ميلاد التاريخ الأنثروبولوجي، وإنما إعادة انبعاثه من جديد.

تاريخ مفهوم

إن مشروع لوغران دوسي معبّر من هذه الزاوية: لم ينجز من التاريخ الاجتماعي لعادات الفرنسيين، وهو ما كان يهدف إليه ـ والأسطر السابقة دالة على ذلك ـ إلا الجانب الأول: **تاريخ التغذية** (في ثلاثة أجزاء) وهو عمل موثق ومعاصر، يتناول فيه تاريخ المواد الغذائية والتقنيات والعادات الغذائية في الوقت نفسه.

اتبع المؤلف تخطيطاً معتمداً على محاور متجانسة مشيراً بذلك إلى مقاربة بنيوية أكثر منها وقائعية. وبالنسبة إليه، لا يعبّر تاريخ العادات عن نفسه بتواتر الظواهر والأحداث المثيرة، وإنما يعبّر عن نفسه من خلال مزيج قار من السلوكيات الموروثة (أي من الثوابت) وظواهر التأقلم أو التجديد.

الرواد

لقد كان هذا النوع من المواضيع في عصر لوغران دوسي في طور الانقراض من حقل البحوث التاريخية، أو على الأقل كان في مرحلة تقهقر إلى الوراء. لقد تخلى الإبحار العالم الذي يمثله خاصة البندكتيون (Bénédictins) والبولنديون[1] (Bollandistes) منذ أواخر

(1) جمعية تتكون في أغلبها من اليسوعيين الذين كانوا منذ القرن السابع عشر يدرسون حياة آباء الكنيسة التي يسمونها «الأفعال المقدسة».

القرن السابع عشر عن تحليل المصادر الكتابية لفائدة تحقيق المصادر العمومية. وشجعت الإدارة الملكية هذا التوجه في البحث العلمي الخاص بتاريخ الدولة وسهلته.

إنه زواج دائم: تجمع الدولة وثائق الأرشيف العمومي الذي يوفر للمؤرخين وسائل بحث وضعي (بحث يعتمد المصادر)، فيركّز المؤرخون جهودهم على تاريخ الأحداث ودواليب الحياة العامة. وتقوم الحركة الفلسفية في النهاية في معظمها على تطوير نظرة مثالية وسياسية للمجتمع: الإنسان حيوان اجتماعي تتقرر حاجاته بضرورة توفر الحرية والعدالة والعقلانية. وعلى تاريخ المجتمعات أن ينحصر في تاريخ الحياة العامة (التاريخ السياسي، وتاريخ الدولة، وتاريخ مختلف المؤسسات) وتاريخ العناصر الثقافية (الفن والآداب) بما أن الإنسان لا يحصل على بعده الاجتماعي إلا من خلال الحياة العامة.

لقد كان التصور وراء **روح القوانين**، و**الخطاب حول عظمة الرومان وسقوطهم**، وكذلك **قرن لويس الرابع عشر**، وأعمال **الموسوعة**، وفي ما بعد أعمال كل من مابلي[2] (Mably) وكوندرسيه[3] (Condorcet)، في حين يمثل روسو حالة فريدة. وإذا كان فكره التاريخي الأساسي ـ الذي برز من خلال «العقد الاجتماعي» ـ ينطبق على الجو السياسي، فهو يعتبر المجتمع نتاجاً بائساً للتاريخ، وليس جوهراً له. كما أنه يفترض تاريخاً لبدء الإنسانية، وهو تاريخ ما قبل اجتماعي، ويفترض إمكانية تاريخ أنثروبولوجي. ولكن كما هو الشأن بالنسبة إلى بوفون (Buffon) لا يمكن تلمس هذا التاريخ الأنثروبولوجي إلا عند الشعوب التي ليس

(2) Gabriel Bonnot de Mably (1709-1785).

(3) M. J. de Caritat, marquis de Condorcet (1743-1794).

لها تاريخ، أي الشعوب المتوحشة.

إذا كان لهذه الشعوب التي لا تملك كتابة، ولا تملك معالم (تعني هذه العبارة في القرن الثامن عشر كل شاهد على الماضي) تاريخ، وإذا كان يمكن لهذا التاريخ أن يعطي معنى لحضارتهم، فإن ذلك يكون من خلال كيفية لباسهم وكيفية أكلهم، ومن خلال تنظيم الحياة العائلية، ومن خلال العلاقات بين الجنسين، ومن خلال المعتقدات والطقوس التي يجب اكتشافها. إن العادات هنا مشحونة بالتاريخ لأنها تعوض المؤسسات.

وفي ظل عصر الأنوار، وفي أواخر القرن الثامن عشر، سلط بعض الرحالة وبعض الأطباء المبحرين في العلم، وكذلك بعض الموظفين الإداريين، الضوء على المجتمعات التاريخية، وخاصة على مجتمعاتهم ذاتها. ولمثل هذا التيار ينتمي لوغران دوسي.

ازدهر التاريخ في عهد الثورة الفرنسية وفي ظل الإمبراطورية عبر نشاط مكتب إحصاء شابتال (Chaptal) وفرنسوا دي نوشاطو (François de Neufchâteau). وكان من بين المحاولات التي قام بها هذا المكتب انجاز جرد لأساليب العيش في فرنسا. ولكن بدفعه الاهتمام بالرواسب القديمة وبالغيبيات، نزعت عنه الأكاديمية السلتية (Académie celtique) أي إمكانية للتأثير في مسار توجه البحوث التاريخية. وتواصل من خلال هذا التيار ـ الذي هو نتاج ثانوي لعصر الأنوار ـ تقليد قديم جداً يمثله أحسن تمثيل العديد من المؤلفات التي ظهرت في القرن الثامن عشر، وتحمل في عناوينها عبارة «لوحة تاريخية» أو «التاريخ الطبيعي» لهذه المنطقة أو لتلك الأمة. ويعتبر تحديد هوية مجتمع ما أو جهة ما من خلال هذا التقليد كما لو أنه إعادة تركيب لتاريخها ولنمط عيشها.

مثل هذا الاهتمام قديم قدم التاريخ، فكثيراً ما نتناسى أن هيرودوت (Hérodote) أب التاريخ، قد عبّر عن الحاجة إلى وصف عادات الليديين (Lydiens) والفرس والمساجات (Massagètes) أو المصريين القدامى ليفسر الصراع الذي كان يعيشه الإغريق مع الشعوب البربرية، وذلك من خلال «البحث» الذي قام به «حتى لا يمحو الزمن أعمال الإنسان». إن ما يحتفظ به المؤرخ من الماضي هو ما يتناسب بدقة مع ما يريد فهمه أو تبريره بالنسبة إلى المجتمع الذي يحيط به. لذا مثلت دراسة أشكال الحياة اليومية جزءاً من الفكر التاريخي ما دام اهتمامه الرئيسي كان إعادة بناء مسار الحضارات وتطورها. ولكنها ستصبح ثانوية عندما جندت الدول ـ الأمم الناشئة الذاكرة الجماعية لتبرير هيمنتها الحاضرة على مجال ترابي، ولتبرير طريقة تنظيمها للمجتمع، بالاعتماد على الماضي.

التاريخ الوضعي وتاريخ الوقائع

في واقع الأمر، تعايشت في فرنسا مدرستان تاريخيتان إلى بداية عهد الجمهورية الثالثة:

الأولى، هي سردية قريبة من النخب الحاكمة، ومن الجدل السياسي، ووريثة للرواة القدامى، ومهتمة بالبحث في تكوّن المؤسسات أو الصراعات.

أما **الثانية**، فهي أكثر تحليلية، وهي وريثة لفلسفة الأنوار، وتهتم بوصف العادات والسلوكيات الاجتماعية. وإذا كانت الأولى قد نجحت عشية الحرب العالمية الأولى (1914) في إجبار الثانية على اقتحام مسالك التجريب والهواية المظلمة، فلأنها نجحت أكثر من منافستها في الحصول على صفة علمية. وكان ازدهار العلوم الاجتماعية، وهي علوم حديثة، مثل علم الاجتماع، يدفع التاريخ

إلى إعادة بناء هويته انطلاقاً من حقل أقل اتساعاً، وهو ما يعني أنه يجب أن يتقوقع في ما هو سياسي ومؤسسي. وكان المطمح العلموي الذي كان سائداً في الأوساط الفكرية يدفع بالتاريخ نحو تأسيس منهج صارم على شاكلة العلوم التجريبية، إلا أن العنصر القاعدي للواقع الملحوظ الذي يعادل الخلايا بالنسبة إلى علم البيولوجيا، أو الذرة بالنسبة إلى عالم الفيزياء، هو الفعل التاريخي، أي الحدث الذي يحدث في الحياة العامة.

ولم يكن هذا الانعطاف الوضعي مستقلاً تماماً عن الضغط السياسي الذي كان يمارس على المعرفة التاريخية، فالوضعية السائدة كانت تمجّد العمل المصدري أكثر من غيره وتنظر إليه على أنه مقارعة ضرورية مع المعطيات التجريبية للمعرفة التاريخية، فضلاً عن أن الدولة كانت تبذل في الوقت نفسه مجهوداً كبيراً لجمع الوثائق وتنظيمها في مراكز الأرشيف العمومي.

واستجابة للشروط العلموية التي وضعها لنفسه، أصبح البحث التاريخي يميل إلى الخلط بين الذاكرة الاجتماعية والذاكرة القومية، والخلط بين الذاكرة القومية وذاكرة الدولة. فكل ظاهرة لا تطفو على سطح الحياة العامة يمكن للمؤرخ تجاهلها، ليس لأنها لا تتطابق مع عمل واع وإرادي فحسب، وإنما لأنها تعتبر خارجة عن حركة التاريخ.

حالة ميشليه في القرن التاسع عشر

يجب عدم تبسيط مسار الكتابة التاريخية في القرن التاسع عشر بصورة مبالغة، ولا عدم الاكتراث بالتأثير الرومانسي، خاصة الذي كان وراء مشاريع الكتابة التاريخية الكبرى التي بلغت ذروتها مع أعمال ميشليه. لقد دفعه مشروعه من أجل «بعث كامل للماضي»،

إلى أن يصف ظروف وجود الغموض، وذلك بقطع النظر عن وصف أشكال ممارسة النفوذ وملابساتها. فعندما يبيّن تأثير موضة غذائية، مثل شرب القهوة، على حساسية النخب وسلوكها في المجتمع الفرنسي في القرن الثامن عشر، أو عندما يصف المناخ التراجيدي لقرن لويس الرابع عشر الذي تسيطر عليه الأزمات الغذائية والبؤس الشعبي، فإنه يعتمد الإثنولوجيا أساساً ليتناول الواقع التاريخي بالدرس.

ولا غرابة في أن يقع رفضه من طرف التاريخ الوضعي، ويتم تبنيه على عكس ذلك من طرف لوسيان فافر، واعتباره له بوصفه رائداً لتاريخ الأحاسيس والذهنيات. إن الأهمية التي يوليها لحدسه (المصادر لا تسمح إلا بأعراض واقع يمكن إعادة بنائه) ولقدرته على تقمص الشخوص للوصول إلى رؤى وأحاسيس فترة ما ـ وهي المقاربة التي سيسلكها علماء الإثنوغرافيا ـ لا يمكن إلا أن لا تروق لتيار يسعى إلى تركيز المعرفة التاريخية على معالجة موضوعية وعلمية للواقع.

ولكنه، وبالدرجة الأولى، بشعبويته شبه الصوفية، وبالدور الأساسي الذي يعطيه للحركات الجماعية الكبرى وشبه اللاواعية، وبنزوعه نحو التقليل من دور العظماء ومن دور المؤسسات، وجد ميشليه نفسه مرفوضاً من طرف المدرسة الوضعية، وعلى العكس من ذلك أغرى مؤسسي مدرسة **الحوليات**.

مدرسة «الحوليات»

تبرز من خلال اختزال مجال البحث التاريخي وحصره في تاريخ الحياة العامة، نظرة مختزلة ومركزية لا لمصير التاريخ فقط، وإنما أيضاً لمصير المجتمع نفسه. لقد نشأت مدرسة **الحوليات** ضد هذا التصوّر، وكما فعل الفنانون الانطباعيون الذين دعوا الفنانين إلى

ترك مراسمهم وتصوير الطبيعة بـ «صورة مباشرة»، حرّض مؤسسو **الحوليات** المؤرخين على الخروج من المكاتب الوزارية والغرف البرلمانية من أجل ملاحظة المجموعات الاجتماعية والبنى الاقتصادية بـ «صورة مباشرة»، وبإيجاز، السعي من أجل تناول تاريخ المجتمعات في أغوار أعماقه.

وقد كان تلقي هذا النداء أكثر وضوحاً من طرف مؤرخي الفترات البعيدة جداً. ولم يكن تردد المختصين في التاريخ المعاصر نتيجة للمواقف السياسية المحافظة بالدرجة الأولى: كثيرون من بين هؤلاء (بدءاً بسينيوبوس[4] (Seignobos) العدو الرسمي لـ **الحوليات**) يفصحون عن مواقف يسارية، وينزعون في ممارستهم للبحث التاريخي إلى تثمين الحركات الثورية. ولكن خلف ذلك يختفي تصور تراتبي للمصير التاريخي الذي تجسمه القيادات - من رجال الحكم وزعماء الثورات - والمؤسسات (مؤسسة الدولة، والبرلمان، والأحزاب السياسية، إلخ...). لا يمكن لمثل هذا التصور أن يعطي بعداً تاريخياً إلا لما يضفي الشرعية على أصحاب السلطة وعلى نظرتهم إلى المجتمع.

كما أن موقف **الحوليات** كان يكرس بعضاً من الشعوبية: مفاده ضرورة إعطاء مكانة أفضل لتاريخ ضعاف الحال إلى جانب تاريخ الأقوياء، فالمزارع المغمور الذي يطور طريقة إحياء الأرض في نظام مبني على السير الملحمية الموروثة، وفي فضاء يبدو كما لو أنه لا يتحرك، هو فاعل تاريخي له القيمة نفسها لجنرال ربح معركة. ولكن

---

(4) ش. سينيوبوس مؤرخ وضعي، مؤلف كتب في المنهجية: Charles Seignobos: *Méthode historique appliquée aux sciences sociales*, bibliothèque générale des sciences sociales (Paris: F. Alcan, 1901), et avec Charles Victor Langlois, *Introduction aux études historiques* (Paris: Hachette, 1898).

أعمق من ذلك، تتبني مدرسة **الحوليات** على تصور متعدد الأبعاد للواقع الاجتماعي، فلكل بعد أو لكل مستوى في الوقت نفسه إمكانية رسم مساره التاريخي الخاص، وإيجاد طريقة للتمفصل مع البقية لخلق حركية اجتماعية. ولم يكن تاريخ الحياة اليومية بالنسبة إلى مؤسسي **الحوليات** سوى مدخل لتناول التاريخ الاقتصادي والاجتماعي. هل تطلق على نفسها اليوم أنثروبولوجيا تاريخية من أجل الرغبة في تلميع صورتها؟ لو أردنا أن نعرّفها من خلال اهتماماتها، أي من خلال دراستها التاريخ العادي على عكس الخارق للعادة أو الحدث، قد نجد أنفسنا في النقطة نفسها. وإذا كان هذا البحث قد وقع تصوره وصفاً لإطار الحياة في فترة ما، فسنجد أنفسنا منساقين أكثر إلى دراسة تقليدية لتواريخ الحياة اليومية. ومن عملية التجميع الضخمة التي قام بها أ. فرانكلين[5] (A. Franklin) التي جاءت تحت عنوان: **الحياة الخاصة في الماضي: التقاليد، والموضة، والعادات، عند أهل باريس من القرن الثاني عشر إلى القرن الثامن عشر**، والمنشورة في القرن الماضي، إلى بعض أجزاء المجموعة الأكثر حداثة، والتي عنوانها: **تاريخ الحياة اليومية**، يتواصل الإبحار العلمي السعيد والبسيط نفسه الذي يتصور أشكال الحياة اليومية بوصفها زينة للتاريخ الكبير الذي يصنعه التصادم بين رغبة الحكام والمؤسسات.

مجال التاريخ الأنثروبولوجي

إذا كانت دراسة التاريخ العادي تتطلب تحليل التوازنات

(5) Alfred Franklin, *La Vie privée d'autrefois: Arts et métiers, modes, moeurs, usages des parisiens du XIIe au XVIIIe siècle d'après des documents originaux ou inédits*, 23 vols. (Paris: E. Plon, Nourrit et cie, 1887-1901).

الاقتصادية والاجتماعية الكبرى التي تتحكم في القرارات أو في الصراعات السياسية، فهي ليست سوى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي. إن تعريفاً آخر يعتمد على نوعية المصادر التي يعتمد عليها هذا القسم من التاريخ لا يمكن أن تكون أكثر ملاءمة. لا يصبح تاريخ الحياة اليومية تاريخاً أنثروبولوجياً بالمرور من المصادر الإخبارية والخارجية إلى المصادر الجداولية. إنها تؤدي ببساطة إلى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي. وهو ما يأمل في تحقيقه مؤسسو **الحوليات** بتوصيتهم باستعمال لوائح الأسعار ووثائق «لزمة العشر» لدراسة تطورات الإنتاج الفلاحي، وباستعمال وثائق العدول لدراسة فوارق الثروة وتطور الملكيات العائلية، وباستعمال دفاتر الأسقفيات (سلف السجلات المدنية المعاصرة) لإعادة تركيب الحركة الديمغرافية. ولكن طالما أن هذه المصادر تسجل معطيات خاماً من دون أن تعبّر عن أي موقف، ولا تقدم أي صورة مبنية للواقع، فهي تستدعي المؤرخ إلى تكوين مجموعات باعتماد التحليل الإحصائي مثلاً، والذي من شأنه أن يمكّن من التعرف على توجّه التطور ومنطقه.

إن مثل هذه المقاربة يمكن أن تنجلي عن تفكير أنثروبولوجي، فمثل عالم الإثنوغرافيا الذي يستعمل المسافة التي تفصله بين ثقافته الخاصة وثقافة المجال الذي يدرسه ليتمكن من التخلص من تصنيفاته المسبقة، ويبني النظام المنطقي للمجتمع الذي يدرسه، يمكن للمؤرخ أن يستغل الطابع التجزيئي، وليس المبني، لهذه المصادر الخام ليجد وراء الواقع البارز الآليات والمنطق اللذين يفسران ظرفية ما ـ أي ما نسميه فترة تاريخية ـ أو تطوراً ما.

ويمكن تطبيق المقاربة نفسها على المصادر النوعية أو الأدبية طالما تؤدي إلى الاهتمام بصورة كلية إلى ما يخفيه أو لا يكترث به

الخطاب السائد في المجتمع .كتب مارك بلوخ في مقدمة **الملوك صناع المعجزات**: «إنني أخشى أن الذين ساررتهم بنواياي اعتبروني أكثر من مرة ضحية لرغبة في الاطلاع غريبة وربما ليست ذات قيمة»... «حب الاطلاع عبر المسالك الملتوية». هكذا وصف صديق إنجليزي مشروعه. فإذا كان **الملوك صناع المعجزات** كتاب نموذجي للأنثروبولوجيا التاريخية[6]، فهو كذلك ليس للموضوع المدروس، وإنما لطريقة مارك بلوخ في تناول المشكل، بفنه الخاص، باتباع المسالك الملتوية للوصول مباشرة إلى نظام التمثل الغابر.

لا توجد السلطة دائماً حيثما تعلن عن نفسها

ليس أكثر كلاسيكية ولا أكثر اجتراراً من دراسة المؤسسة الملكية الفرنسية والإنجليزية، ولكن المختصين، بما في ذلك أولئك الذين اهتموا بنظرية الحكم المطلق والملكية المعتمدة على القانون الإلهي، قد غضّوا النظر عن الجوانب المراسمية ـ عادة بعد التتويج ـ التي يمارس خلالها الملك سلطة إشفائية: فهي موروثات طقوسية لا تعطيها الروايات، حتى المتأخرة منها، إلا قيمة طرائفية فولكلورية تقريباً. ولكن هذه الغرابة التي ستظل عالقة بالمراسم الملكية الفرنسية والإنجليزية إلى العصر الصناعي لا تميزها فقط عن أغلب بقية الأنظمة الملكية الأوروبية، ولكنها تكشف عن البعد السحري لصورة الملكية كما ظلت حية في التمثلات الجماعية. يقول مارك بلوخ: «إن كل هذا الفولكلور يخبرنا حول كثير من النقاط أكثر من أي رسالة

(6) Marc Bloch, *Les Rois thaumaturges: Etudes sur le caractère surnaturel attribué à la puissance royale particulièrement en France et en Angleterre* (Paris: Armand Colin, 1961).

مذهبية». وفي الوقت نفسه، يقع تسطير المسلك المؤدي من دراسة الفولكلور إلى أنثروبولوجيا تاريخية حقيقية. لقد بقي الفولكلور لفترة طويلة من الزمن متروكاً لهواة العجيب والغيبي، وهو مشحون بالمعاني بالنسبة إلى المؤرخ بسبب هامشيته. إن قيمته محدودة المعنى ظاهرياً في صلب اللعبة الاجتماعية، وهو دليل على المعنى الهام الذي تضمنه ولا يزال يحتفظ به. ومن خصوصيات السلطة أنها لا توجد دائماً بدقة حيثما تعلن عن نفسها، لذلك كثيراً ما يعطي تاريخ المؤسسات صورة عن اللقاءات الفاشلة. إنه من العبثي قطعاً أن تكون هناك رغبة في توضيح أن الوظيفة الأساسية لملك فرنسا أو لملك إنجلترا هي أنه ساحر شاف للأمراض. ولكن الإصرار على التذكير بهذه الوظيفة الأصلية أو الأسطورية في المراسم دليل على أن لها معنى تواصل إلى الفترة الحديثة، فهي تؤسس بصورة رمزية وتجسيدية الطابع المقدس (بمعنى شرعي) للنفوذ الملكي الذي تكتفي بتأكيده المؤسسات ورجال القانون.

تسير الأمور كما لو أن كل مجتمع يحتاج إلى تغييب شفافيته لتأكيد وجوده، ويحتاج أيضاً إلى تضليل المسالك لنفسه وللعالم الخارجي في الوقت ذاته. إن عالم الأنثروبولوجيا متعوّد منذ زمن طويل على مبدإ الإبهام هذا الذي يميز كل واقع اجتماعي. إنه يعرف دائماً أنه لفهم مجتمع ما عليه مجانبة ما يعلنه المجتمع عن نفسه. أما المؤرخون، فيجدون صعوبة في الابتعاد عن الأسطورة الرسمية التي ساهموا في بعض الأحيان في بنائها وفي تبليغها.

إن دراسة تاريخ طقس مرتبط بالمؤسسة الملكية، أو دراسة تقنية زراعية مثل المحراث، وممارسة التناوب الزراعي، أو تتبع تطور استهلاك اللحم أو استعمال أسلوب من أساليب الطبخ، أو محاولة تأريخ ظهور ممارسة منع الحمل وتفسيره في فرنسا في ظل النظام

القديم؛ كل هذه المواضيع لا يمكن أن تكون من اهتمامات فرع آخر من فروع التاريخ، كتاريخ المؤسسات، أو تاريخ التقنيات، أو التاريخ الاقتصادي، أو التاريخ الديمغرافي. إن الأنثروبولوجيا التاريخية ليس لها حقل خاص بها، فهي تتطابق مع مقاربة تربط دائماً بين التطور المعتبر وصداه الاجتماعي، وما ترتب عنه من السلوكيات أو تأثيره فيها.

مقاربة الأنثروبولوجيا التاريخية

يتناول كل من الكتاب العتيق الذي ألفه أ. فرنكلين تحت عنوان: **الحياة الخاصة في الماضي**، وكتاب فرناند بروديل: **الحياة المادية والرأسمالية**[7]، الموضوع نفسه: السكن واللباس والتغذية إلخ. . . في فرنسا (بالنسبة إلى الأول)، وفي عالم ما قبل الصناعة (بالنسبة إلى الثاني). لم يقدم لنا أ. فرنكلين إلا سجلاً تاريخياً للحياة اليومية، في حين كتب بروديل كتاباً في الأنثروبولوجيا التاريخية، فلم يكتف بتعداد الأشياء التي تؤثث الجو اليومي للناس، ولكن بيّن كيف تصنع التوازنات الاقتصادية الكبرى ومسالك المبادلات مسار الحياة البيولوجية والاجتماعية وتغيرها، كما بيّن كيف تقوم السلوكيات بدمج بضاعة مستوردة حديثاً من قارات أخرى أو من عادات طبقة اجتماعية أخرى في أذواق الناس وفي سلوكهم المتكرر يومياً وتحويلها من شيء جديد إلى عادة مألوفة.

ولتحديث التسمية القديمة «تاريخ العادات» يمكن أن نعرّف الأنثروبولوجيا التاريخية بوصفها تاريخاً للعادات: عادات فيزيولوجية وحركية وغذائية وعاطفية وعادات ذهنية. ولكن أي العادات لا يمكن

---

(7) Fernand Braudel, *Vie matérielle et capitalisme* (Paris: Armand Colin, 1967).

اعتبارها عادات ذهنية؟. «يمكن أن نحدّد للتاريخ وللاقتصاد مهمة دراسة ميزان القوى، كما يمكن أن نحدد للأنثروبولوجيا مهمة دراسة العلاقات بالسلطة»، كما كتب مارك أوجي[8] (Marc Augé) في بحث حول إثنولوجيا السلطة. إن ما يختص بالأنثروبولوجيا هو دراسة الظواهر التي من خلالها يفصح المجتمع والثقافة عن نفسيهما، وهي ليست الظواهر غير المعبّرة، وإنما المعبّر عنها، أي تلك الظواهر التي وقع هضمها واستبطانها من طرف المجتمع. ولن ننهي هنا هذا التعريف، فلعل الأنثروبولوجيا تمتد على حقبة زمنية أكثر من أن تشمل فرعاً من فروع البحث التاريخي، فهي اليوم تجذب إليها المناهج الجديدة والإشكاليات الجديدة، كما كان الأمر في الخمسينات بالنسبة إلى التاريخ الاقتصادي. وإذا نظرنا إلى محتوى مجلة **الحوليات** خلال الثلاثين سنة الماضية، فهو يعكس بوضوح كبير هذا الانتقال النظري. وعوضاً عن تقديم لوحة عن المكتسبات الحديثة للأنثروبولوجيا التاريخية، وهي لا يمكن أن تكون ضافية حتى ولو أردنا أن نكتفي بكتابات المؤرخين الفرنسيين، نودّ أن نشير إلى بعض مواطن التراكم النموذجي للبحوث ولكتابة التاريخ.

تاريخ التغذية

كان الهدف الرئيسي للبحوث الأولى التي نشرت تحت هذا العنوان في مجلة **الحوليات** في أواخر الخمسينات، والتي جمعها أخيراً ج. ج. هيماردينكوار (J. J. Hemardinquer) تحت عنوان: **من أجل تاريخ التغذية**[9]، هو إعادة تركيب تاريخ الاستهلاك: من ذلك

(8) Marc Augé, *Pouvoirs de vie, pouvoirs de mort: Introduction à une anthropologie de la repression*, science (Paris: Flammarion, 1977).

(9) Jean Jacques Hémardinquer, ed., *Pour une histoire de l'alimentation: Recueil de travaux*, cahiers des annales; 28 (Paris: Armand Colin, 1970).

الحصة الغذائية التي تعطى للبحارة، أو التي تقدّم إلى أفراد فئة دينية، أو للمرضى في المستشفيات، فهي وثائق تدل على الكم والنوعية الغذائية، وأخيراً عقود التأجير (مثل تلك التي درسها إمانويل لو روا لادوري بالنسبة إلى منطقة اللانغدوك)[10] التي يلتزم المشغّل بموجبها تقديم حصة غذائية للعامل اليومي أو المعين. إنها تسطر على المدى الطويل منحنى متبايناً للاستهلاك الشعبي الذي يعدّ مرآة عاكسة للتغيرات الاقتصادية والديمغرافية: ارتفاع حصة اللحم خلال القرن الخامس عشر وفي بداية القرن السادس عشر في فترة «الرجل القليل» وتوفر الغذاء، ثم يبدأ الانخفاض التدريجي إلى الغياب الكلي للحم من النظام الغذائي للفئات الشعبية منذ منتصف القرن السادس عشر إلى منتصف القرن الثامن عشر. لقد أدى الضغط الديمغرافي وجمود الإنتاج الفلاحي إلى استصلاح عام للأرض ترتب عليه اتساع المساحات المبذورة وتقلص قطعان الماشية، فانهارت أجور العاملين في القطاع الفلاحي وافتقر النظام الغذائي لغالبية الناس بصورة متوازية.

التغذية ظاهرة ثقافية واقتصادية

بصورة بسيطة، شديدة البساطة تقريباً، يخضع النظام الغذائي إلى «مقص مالثوس»، أي إلى التغيّرات المتعارضة للوزن الديمغرافي وللإمكانيات الغذائية المتوفرة.

ولكن تبرز عبر تطور محكوم مباشرة بتغيرات التوازنات الاقتصادية والاجتماعية، مظاهر المقاومة أو المسالك المضللة، مثل المسار الغريب الذي اتبعته الذرة المجلوبة من أمريكا منذ الرحلات

---

(10) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Les Paysans du Languedoc*, science de l'histoire (Paris: Flammarion, 1969).

الأولى، وكيف استقبلها المستهلك الإسباني ببعض من العزوف. ثم برزت بصورة سريعة، محددة مجالياً في فرنسا، في الوقت الذي انتشرت فيه في بلاد البلقان. وستعود بعد قرن من الزمن إلى فرنسا تحت اسم «القمح التركي»، وتنصهر في النظام الفلاحي الفقير لمنطقة الجنوب الشرقي، وتنقذ السكان من المجاعات الدورية. والشيء نفسه يمكن قوله بالنسبة إلى الزيتون الذي صعد إلى الشمال في القرن السادس عشر، لينتشر في منطقة اللانغدوك والبروفانس معوضاً الشحوم الحيوانية التي هجرت موائد الفئات الفقيرة.

ومن تناقضات التأريخ والمبادلات الثقافية أن يتبنى الإسبان بصورة عامة زيت الزيتون بوصفه ميزةً غذائية ظلت لفترة طويلة من الزمن رمزاً للطبخ الإسباني، في الوقت الذي قاموا فيه بطرد المسلمين ومطاردة المعتنقين الجدد للمسيحية من بين هؤلاء. وكتب مارك بلوخ في مقال لـ **الموسوعة الفرنسية**: «إن تاريخ التغذية في الجملة هو مثل آلة التسجيل التي تكتب فيها بصورة متأخرة كل التقلبات الاقتصادية نتيجة للمقاومة النفسية»[11]. إن أي غذاء جديد حتى وإن استطاع الصمود تحت ضغط الحاجة أو تحت تأثير المجاعة، فهو لا يقدر على التجذر في المنطقة إذا لم يكن يستسيغه الذوق العام، فلم تكن الجهات الفرنسية التي كانت فيها حالة التربة مهيأة أكثر من غيرها لتقبل زراعة البطاطا هي التي جذرت هذه الزراعة قبل غيرها مثلاً، وإنما في المناطق (الليموزان (Limousin) والأوفارن (Auvergne)) التي كانت فيها البطاطا معوضاً للتغذية الأساسية التقليدية كثمار القسطل. وهذا ما يفسر التواصل الغريب

(11) Marc Bloch, «L'Alimentation de l'ancienne France,» dans: *L'Encyclopédie française*.

للأذواق والتباين الجهوي في العادات الغذائية في فرنسا المعاصرة كما تبيّنه خريطة الشحوم ورصيد فن الطبخ التي وضعها لوسيان فافر من خلال أحد بحوثه: بعض الاختيارات التي نجد فيها آثار الهجرات النباتية، مثل صعود غراسة الزيتون نحو الشمال، وبعض الأنظمة الزراعية القديمة مثل استعمال الصحي ـ الحلو في بعض جهات الغرب الفرنسي التي أصبحت عشبية ومنتجة للحليب، أو بعض الحدود الثقافية الفاصلة كما هو الشأن بين جنوب منطقة الجورا (Jura) التي تستهلك الزيت وشمالها الذي يستهلك الزبدة.

ألا يمكن تفسير اختلاف العادات الغذائية وتواصلها وقلة تأثرها بتحولات الوسط الاقتصادي بالوفاء للنماذج المألوفة؟ إن الاختيارات الغذائية هي الركيزة الأولى للهوية الثقافية، ولكنها في الوقت نفسه نتيجة للتمايز الاجتماعي. من مميزات الأعمال الحديثة حول تاريخ التغذية، خاصة تلك التي اهتمت بالبحث في الحياة المادية الذي أطلقته **الحوليات**، هي أنها لم تستعمل إلا المصادر ذات الملامح الاجتماعية الواضحة: إن دخول استعمال القهوة والتبغ أو الكحول المقطرة، ليس لها معنى بالنسبة إلى المؤرخ ما دام لا يملك وسائل تحديد آثارها في المجتمع أو رحلتها الاجتماعية بوصفها مواداً حديثة الاستعمال.

التغذية مؤشر بارز لمستوى المعيشة

لا تمثل الإمكانيات الغذائية المتوفرة في محلة عينة من الإنتاج الفلاحي والمبادلات موزعة بصورة لامتكافئة مثلها مثل بقية المواد الأخرى بحسب الاختلافات الاجتماعية فقط، وإنما يمكن أن نؤكد أنه إلى حدود العصر الصناعي مثلت التغذية مؤشراً بارزاً على مستوى المعيشة، فالذوق يمكن أن يعبّر بجلاء عن الفروق الاجتماعية سواء بالمبالغة (رمز الهيمنة) أو بعدم استهلاك بعض المواد (رمز التبعية).

إن الميل الكبير إلى الأطعمة المتبَّلة كان إلى حدود القرن الثامن عشر من مميزات الطبخ الأرستقراطي. وعلى العكس، كان موقع الزبدة مهماً في حياة فلاحي منطقة بروطانيا (Bretagne) حتى بداية القرن العشرين، إذ كان مصدراً أساسياً إن لم يكن وحيداً للحصول على ما يمكن من مال بالنسبة إلى الفلاحين الصغار، وقد أصبح محتكراً، وغاب عن المواد الاستهلاكية هناك. ويشهد على هذه الوضعية الفولكلور المتعلق بالساحرات سارقات الزبدة. ولا تترجم العادات الغذائية التمايز الاجتماعي فقط، ولكن تعبّر أيضاً عن التصادم الاجتماعي، كما يشهد على ذلك تاريخ الخبز، ففي فرنسا في ظل النظام القديم كانت كل فئة اجتماعية تستهلك نوعاً خاصاً من الخبز، حتى إن أوليفييه دو سير (Olivier de Serres) كان يربط بين أنواع الخبز بالمراتب الاجتماعية الثلاث. لقد صرح مالوان (Maloin) سنة 1766: «لقد تركنا الخبز الأسود لعامة الشعب حتى لا يتعود على الرخاء». لقد كانت الفئات الشعبية تستهلك الخبز المكرر (Pain bis) أو الخبز المكوّن من الشعير والشيلم (Pain brode)، وهو أكثر الخبز سواداً وأكثره قيمة غذائية. وتستهلك الفئات العليا الخبز الأبيض (Pain de chapitre) المكوّن من طحين القمح اللين والذي غربل جيداً (ما يعادل اليوم خبز المخابز العصرية) أو خبز القمح الجيد (Pain Gonesse) (وهو ما يعادل خبز الاستهلاك اليومي في عصرنا). وترمز تلك الجملة المثيرة، والأكيد أنها منحولة لماري أنطوانيت (Marie Antoinette): «إذا لم يكن لهم خبز، فليأكلوا فطائر الحلوى»، إلى القيمة الاجتماعية المتصلة في ظل النظام القديم باستهلاك الخبز. وقد كان لها بالإضافة إلى ذلك طابع تنبؤي، لأن الثورة أعلنت الفطائر للجميع. وبصورة أدق، فرضت شروطاً مضبوطة لمواد إعداد الخبز، ووجهت سكان المدن إلى استهلاك الخبز الأبيض. وهو ما يعدّ في الوقت نفسه مكسباً اجتماعياً وتراجعاً

غذائياً، لأن هذا الخبز هو خبز رقيق، ولكنه فقير بالحريرات، وكان بالنسبة إلى الأغنياء عنصراً من عناصر التغذية، فأصبح مكوّناً أساسيا بالنسبة إلى الاستهلاك الشعبي في المدن الكبرى. وقد اتبعت البطاطا مساراً معاكساً، إذ كانت ممتهنة من طرف الأرستقراطية إلى حدود الثورة الفرنسية، ولكنها عرفت «صعوداً اجتماعياً» على حد تعبير مارك بلوخ.

وقد بيّن جان بول آرون من خلال العديد من المؤلفات المخصصة للميول الغذائية في القرن التاسع عشر كيف أصبحت المائدة مكاناً متميزاً لاستثمار الثقافة البورجوازية(12). وبعد أن تحصل فن الطبخ على موقع متميز على الموائد الأرستقراطية وتأثر بالذوق الإيطالي المعقلن الذي فرض تعاقب الأطعمة بالتدرج من المالح إلى الحلو، انتشر في عهد الثورة عبر المطاعم الفخمة التي فتحها قدماء طباخي الأسر النبيلة، وأصبح في أثناء القرن التاسع عشر فرصة للاجتماعوية الرجالية التي وضعت فيها البورجوازية حاجتها إلى اللهو والاستهلاك البذخ، وأكدت في وجه الفقر الغذائي للبروليتاريا الحضرية موقعها الاجتماعي بالاستهلاك المتأنق والمبالغ فيه، فكان تعارض التاريخ الاقتصادي والتاريخ الاجتماعي وتاريخ النظم الثقافية عبر تطور المواقف الغذائية. وكانت المهمة الدقيقة للأنثروبولوجيا التاريخية هي التعريف بهذه التقاطعات.

تاريخ الجسد

تعني الأنثروبولوجيا إلى فترة حديثة في فرنسا (هو المعنى الذي

---

(12) Jean Paul Aron: *Essai sur la sensibilité alimentaire à Paris au XIXe siècle*, cahiers des annales; 25 (Paris: Armand Colin, 1967), et *Le Mangeur du XIXe siècle* (Paris: R. Laffont, [1973]).

كان لها في القرن الثامن عشر) دراسة الخصائص الفيزيولوجية لمختلف الشعوب وتطورها. وهي تضم اليوم مجال الإثنولوجيا نتيجة للعدوى الانجلوسكسونية.

وبفعل روح المعارضة الخاص بالمؤرخين، تأخر هؤلاء في الاهتمام بالميدان الأول للأنثروبولوجيا، فتعطلت أبحاثهم بطرح سؤال أولي: هل يمكن اعتبار الجسد موضوعاً تاريخياً؟ هل يمكن تحديد أشكال من التغيير أكثر تعقيداً بفعل الوسط التاريخي والثقافي بين تطور الأجناس والدورة البيولوجية؟ هل يمكن اعتبار الخصائص الفيزيولوجية للسكان كشكل من أشكال التغيير الاجتماعي؟

بيّنت الأبحاث التي قام بها الدكتور سوتير (Sutter) انطلاقاً من مقاييس المترشحين لمدرسة البوليتكنيك منذ القرن التاسع عشر، والدراسات التي نشرها إمانويل لو روا لادوري بمعية مجموعة بحث في مركز الأبحاث التاريخية انطلاقاً من ملفات المجندين، تزايداً منتظماً لقامة الفرنسي المتوسط منذ قرن من الزمن[13]. هذا الازدياد الحاصل، خاصة بفعل تناقص عدد الناس قصيري القامة، يبدو أنه مرتبط بالازدهار الاقتصادي وتطور ظروف العيش: تبدو القامة المتوسطة للرجال أكثر طولاً منذ القرن التاسع عشر في فرنسا الشمالية والشرقية، أي في المناطق الفرنسية الأكثر تقدماً. وهي تزداد بالتوازي مع المستوى الاجتماعي ومستوى التعليم. ويمكن أن يكون النظام الغذائي في سن الطفولة، وسن المراهقة، ولكن أيضاً كل العناصر المرتبطة بنمط العيش الذي عرفه الإنسان في سنوات النمو ـ

---

(13) Jean Paul Aron, Paul Dumont et Emmanuel Le Roy Ladurie, *L'Anthropologie du conscrit français d'après les comptes numériques et sommaires du recrutement de l'armée (1819-1826), présentation cartographique*, civilisations et sociétés (Paris; La Haye: Mouton, 1972).

بما في ذلك تربيته ـ قد ساهما في دعم نموه الجسماني وتنشيطه. ويؤكد التطابق بين الإحصائيات تطوراً متزامناً بين ارتفاع القامة ورفاهية الحياة، وربما يؤكد ذلك بسهولة، فهل يمكن التوفيق بين التوجّه الحالي لعلم البيولوجيا الذي ينفي أي تأثير للوسط على انتقال الخصائص الوراثية وتفسيرات المؤرخ التي تحمِّل الوسط الاجتماعي والاقتصادي مسؤولية التغييرات الحاصلة في الخصائص الفيزيولوجية للسكان؟

أي علاقة بين تاريخ الأمراض والأزمات الاقتصادية ـ الاجتماعية؟

تدعو الدراسات الحديثة حول الأمراض والأوبئة إلى الاحتراز من التأويلات البيولوجية الصرفة كأنها تأويلات اقتصادية ـ اجتماعية، فمثلاً حول الموت الكبير الذي عرفته أوروبا ما قبل الصناعية، بيّن المؤرخون ـ الديمغرافيون (خاصة موفريه[14] وغوبار[15] وبايهريل[16]، وهذا الأخير تميز بطرح مختلف) علاقة متينة في هذه الأزمات بين التهاب أسعار الحبوب والارتفاع المفاجئ للوفيات.

تبيّن روزنامة هذه الوفيات التي تعرف بداية ارتفاعها مع الأشهر الأخيرة الفاصلة بين حصادين (أي فترة نهاية محصول العام المنصرم وبداية جني محصول العام الموالي)، العلاقة السببية بين ارتفاع

---

(14) Jean Meuvret, «Récoltes et populations,» *Population*, vol. 1 (1946).

(15) Pierre Goubert: *Beauvais et le beauvaisis de 1600 à 1730: Contribution à l'histoire sociale de la France du XVIIe siècle*, démographie et sociétés; 3 ([Paris] S. E. V. P. E. N., 1960), réédité sous le titre: *Cent mille provinciaux au XVIIe siècle, Beauvais et le beauvaisis de 1600 à 1730* (Paris: Flammarion, 1968).

(16) René Baehrel, *Une Croissance: La Basse-Provence fin XVIe siècle - 1789, essai d'économie historique statistique*, démographie et sociétés ([Paris]: S. E. V. P. E. N., 1961).

الأسعار الناتجة من محصول قليل ونضوب المخزون بسرعة، الأمر الذي يعرِّض أكثر الناس فقراً إلى المجاعة في الأشهر الأخيرة من السنة الزراعية وارتفاع الوفيات.

وتنشط الوفيات بسبب المجاعة وتتواصل نتيجة الأوبئة التي تنقض على الناس الذين يصيبهم الهزال، كما كانت تبيّن في ذلك الوقت الوثائق العديدة (مثلاً مراسلات المشرفين على الأديرة)، ومنحنيات الوفيات التي تندفع في بعض الأحيان نحو الارتفاع طيلة أشهر الصيف. إن الظواهر الوبائية التي تبدو ـ على الأقل في القرن السابع عشر ـ مندمجة كلياً مع النسق الدوري لأزمات الحبوب لا تستطيع إلا تضخيم المصائب الاجتماعية ـ الاقتصادية، فلا يصبح المحيط الجرثومي أكثر شراسة وفتكاً إلا في الفترات التي يكون فيها الناس قد أصابهم الهزال بسبب سوء التغذية، ولم تعد لهم القدرة على المقاومة. وفي الواقع يظل السبب الرئيسي لهذه الأزمات هو عدم استقرار المناخ، ولكن المسؤولية التاريخية تبقى للمجتمع الذي يبني مصيره البيولوجي من خلال تناقضاته ومحدودية نظامه الاقتصادي.

لقد بدا هذا الشكل مطمئناً للمركزية الأنثروبية للمؤرخ حتى وقعت محاولة تعميمه على مختلف أشكال الأوبئة. ولكن إذا كان صحيحاً مثلا أن الطاعون انفجر ـ مثل الانفجار النووي ـ في أوروبا في فترة رزوحها تحت عبء ديمغرافي، وبالتالي كانت البلاد في وضعية هشاشة بيولوجية، وإذا كان صحيحا أيضاً أن الطاعون لم ينقرض في فرنسا (آخر وباء هو طاعون مرسيليا المأساوي سنة 1720) إلا بعدما تخلصت هذه الأخيرة من المجاعات الدورية الكبرى (الأخيرة هي تلك التي تلت شتاء 1709 الرهيب)، فكم من وباء انتشر من دون أن يكون هناك محصول زراعي ضعيف؟، إذ يمكن

أن نلاحظ بالنسبة إلى فرنسا أنه في الوقت الذي بدت فيه أنها قد تغلبت على الطاعون، فقد ظلت تتعرض لهجمات الجدري الدورية ولهجمات الرحضاء طيلة القرن الثامن عشر، والكوليرا في قلب القرن التاسع عشر.

تاريخ طبيعي للأمراض

عرض أخيراً م. د. غرميك فرضية تاريخ مستقل، أو تاريخ بيولوجي صرف، للأمراض المعدية[17]، اي أنه في حالة تفشي أي مرض بعنف في فترة من فترات التاريخ ثم ضعف بعد ذلك، لا يعني أن الناس استطاعوا التغلب عليه، وإنما حدث ذلك نتيجة لحلول جرثومة أخرى محله. إن الجراثيم المتسببة في جميع أنواع الأمراض لا تنتقل بصورة دائمة وفي كل العصور في مختلف أنحاء الكون.

لقد استطاع إ. لو روا لادوري أن يبيّن أن التوحّد البيولوجي للعالم هو ظاهرة متأخرة حدثت في فترة متأخرة جداً بعد اكتشاف أمريكا بمدة طويلة[18]. وفي الواقع لم تجابه مجتمعاتنا كل التهديدات الجرثومية في الوقت نفسه، وإنما جابهت مجموعات من الأمراض: أنظمة من الأمراض التي تتطور بحسب آليات عدم التوافق. لا يمكن لجرثومة جديدة أن تنصهر في نظام إلا بعد أن تطرد المرض التي

(17) Mirko Drazen Grmek, «Préliminaires d'une étude historique des maladies,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 24, no. 6 (nov.-déc. 1969).

(18) Emmanuel Le Roy Ladurie: «L'Unification microbienne du monde (XIVe-XVIIe siècles),» *Revue Suisse d'histoire*, vol. 23 (1973), et *Le Territoire de l'histoiren*, bibliothèque des histoires, 2 vols. ([Paris]: Gallimard, [1973-1978]), vol. 2.

تكون له ترياقاً. وبذلك يمكن القول إنه لا يوجد توافق بين الجذام والسل، وهو ما يفسّر انتشار الداء الثاني في الفترة المعاصرة، وهو ما يوافق انقراض الداء الأول من أوروبا. كما أنه يوجد، بحسب م. د. غرميك، تناقض بين جرثومة الطاعون وجرثومة السل المغلوط، وإن كانتا من الفصيلة نفسها.

وكما يوجد تاريخ طبيعي للمناخ، يعدّ من العبث نفي وجود إمكانية تاريخ طبيعي للأوبئة. إن الطاعون الكبير لسنة 1348 ـ لنعيد المثال نفسه ـ نتج على الأقل من تغير في نوعية الفئران وتغير في نوعية سكان أوروبا: لقد وفرت هجرة الفأر الأسود للطاعون الأرضية التي بإضافتها إلى كثافة السكان أدت دور الخزان ودور الناقل الدائمين للوباء، فلا يكفي إغراق الظواهر في إطار اجتماعي ـ اقتصادي لمنحها بعداً تاريخياً. وإذا تبيّن أنها تخضع لآليات فيزيولوجية لا يملك الوضع الاجتماعي أي تحكم حقيقي فيها، فليس هناك أي موجب لإخفاء هذه الاستقلالية.

ولكن إعادة تركيب ظاهرة وبائية هي أيضاً تحليل للطريقة التي هضم بها تنظيم مجتمع ما ونماذجه الثقافية عوائق الوسط الطبيعي وجابهها، وهي أيضاً إبراز للرهان الاجتماعي وأشكال العلاقات بالجسم التي تعبّر عنها كل فترة تاريخية من خلال السلوكيات البيولوجية. والمهمة الخاصة للأنثروبولوجيا التاريخية في هذا الميدان هي إبراز في الوقت نفسه لنقاط التمفصل بين العوائق الطبيعية وآلياتها، والمعايير الاجتماعية الثقافية. لقد تمكننا مثلا من ملاحظة أن التصرفات الهستيرية، بالمعنى النفساني للكلمة، أي تلك التي كان يعالجها شاركو (Charcot) في القسم الذي يشرف عليه في مستشفى السلبتريار (Salpetrière) في بداية القرن قد تخلصت منها مجتمعاتنا الصناعية، إلا في مستوى هوامشها الأكثر قدماً، حيث كانت لها بقايا

ما زالت محل ممارسة طقسية: مثل شطحات طارنت (Tarentulés) في منطقة البويي (Pouilles) التي درسها عالم الإثنوغرافيا الإيطالي دي مارتينو[19] (De Martino).

يطابق هذا الانقراض بلا شك تحولاً في أشكال التعبير عن العواطف وبالخصوص التعبير الجسدي، ففي نظام اقتصادي تعطى قيمة للتنظيم والادخار والمردود، حيث تكون التصرفات مدفوعة إلى انضباط كبير أو بالأحرى إلى أحسن بنية للجسم، وإلى البحث عن الامتثالية والحياد لضمان تناسق ومرونة النسيج الاجتماعي، في حين بقيت حية لدى الفلاحين ولدى الفئات الشعبية الحضرية، في ظل النظام القديم في فرنسا، وهو نظام مدفوع بالمثُل الدينية الزاهدة والقمعية، مظاهر اللجوء إلى لغة جسدية، وإلى التعبير بالجسد عن الغرائز المكبوتة للترويح عن النفس في حالات القلق أو الصراع.

لقد حلل إمانويل لو روا لادوري بعمق هذه الظاهرة عند الكاميزار (Les Camisards) باتباع الكتابات الأولى لفرويد، ويمكن انجاز دراسة مماثلة لظواهر أخرى من الصرع مثل شطحات «التشنجيين» (Convulsionnaires) في مقبرة سان ميدار (Saint Médard) بوصفها تناسخاً للجنسينية الشعبية الباريسية.

سلوك ونظام المجتمع

عرض نوربير إلياس[20] في كتاب نموذجي فرضية عامة حول تطور أنماط السلوك، وخاصة علاقات المرء بالجسد في الحضارة

(19) Ernesto de Martino, *La Terre du remords = La Terra del rimorso*, bibliothèque des sciences humaines, traduit de l'italien par Claude Poncet ([Paris]: Gallimard, 1966).

(20) ولد نوربير إلياس (N. Elias) في ألمانيا سنة 1897 ودرس في إنجلترا.

الأوروبية[21]. ويبدو أنه منذ القرن السادس عشر فرضت صيرورة حضارية على الفئات الحاكمة أولاً، ثم على باقي المجتمع بصورة تدريجية، وبواسطة قنوات نماذج التربية (خاصة من خلال العديد من رسائل تهذيب الأطفال)، مواقف الحياء والانضباط الذاتي بخصوص الوظائف الفيزيولوجية والحذر من الاتصالات الجسدية. قد يكون إخفاء الأجساد وإبعادها في إطار السلوك الفردي تعبيراً عن ضغط النظام، أي النظام المؤدي إلى الحداثة، والذي تمارسه الدول البيروقراطية التي تكوّنت حديثاً، على المجتمع. ويندرج ضمن هذه الحركة الشمولية المنبثة واللاواعية لإعادة تشكيل الجسد الاجتماعي، الفصل بين الفئات العمرية، وإقصاء المنحرفين، وسجن الفقراء والمجانين، وتدهور أشكال التضامن المحلي.

تواصل اليوم بعض الدراسات في فترة متقدمة (أي في العصر الوسيط) هذا التاريخ المعقَّد لاجتماعية الجسد، مثل المجانبة المعهودة كالتفلي الذي يعدّ طقساً من طقوس الاجتماعوية المنتشرة في مختلف الفئات الاجتماعية في القرن الثالث عشر (كما نراه من خلال **مونتايو**، والذي كان خاصاً بالفئات الشعبية في بداية القرن السادس عشر، ليصبح من الرواسب غير اللائقة والمنبوذة في الأوساط الفلاحية في القرن الثامن عشر، أو أي إشارة باليد للتعبير عن الخضوع أو عن الشتم، والتي ظلت في تواصل عجيب من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين ضمن سجل سيميائية الجسد.

يجب أن يؤدي البحث الذي بدأه جاك لوغوف حول تاريخ

(21) Norbert Elias, *La Civilisation des mœurs = Über den Prozess der Zivilisation*, archives des sciences sociales, [traduit de la 2ème éd. allemande par Pierre Kamnitzer] ([Paris]: Calmann-Lévy, [1973]).

الحركة إلى إبراز آليات التجعد والانحناء والمنافسة أو التقليد التي تميز التاريخ الاجتماعي للجسد، وذلك عبر تطور أساليب المحافظة على الجسد وتقنيات استعماله ولغته.

تاريخ السلوك الجنسي

لا يوجد موضوع أفضل من تاريخ السلوك الجنسي للتعبير عن صعوبة تحديد حقل الأنثروبولوجيا التاريخية والمواضيع الخاصة بها. ولا يوجد مبحث آخر ينتظر من هذا النوع من المقاربة بقدر ما تنتظره دراسة تاريخ السلوك الجنسي: كيف يمكن إدراج الممارسة الجنسية في حقل المؤرخ؟ هل يمكن إدماجها بوصفها ممارسة؟ تسمح المصادر الديمغرافية والقضائية بوجود مادة منها يمكن إعادة تركيب تطور السلوك الجنسي: يمكّن التسجيل الآلي للولادات في سجلات الخورنيات، بداية من منتصف القرن السابع عشر في فرنسا، من وضع منحنى للولادات غير الشرعية والحمل قبل الزواج إلى أواخر النظام القديم، ويمكّن من تتبع تغيرات الممارسة الجنسية خارج أطر الزواج سواء في حدود خورنية أو جهة أو مدينة.

هناك تدقيق نسبي: طرح ج. ل. فلندران[22] (J. L. Flandrin) فرضية في الواقع يصعب التأكد منها بواسطة مصادر مباشرة باستثناء الأحكام البارعة التي يقوم بها فقهاء الأخلاق في القرن السابع عشر، وتتمثل هذه الفرضية في وجود سلوكين جنسيين حتى في فترات تزمت النظام القديم: يوجد سلوك داخل علاقة الزواج يخشى التحريم المسلط على ممارسة منع الحمل، وتوجد ممارسة جنسية

---

(22) Jean Louis Flandrin, «Contraception, mariage et relations amoureuses dans l'occident chrétien,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 24, no. 6 (1969).

خارج رابطة الزواج (قبل أو خارج هذه الرابطة) تستعمل موانع الحمل. وقد أدت أحكام فقهاء الأخلاق مثل سانشاز (Sanchez) الذي يعطي خطورة كبيرة لذنب أونان (Onan) (أي ممارسة منع الحمل) إذا ما ارتكب داخل علاقة الزواج، إلى تشجيع هذا التمايز بين الحالتين بصورة غير مباشرة. وحتى ولو وضعنا بين قوسين إمكانية وجود سلوك خاص بالممارسة الجنسية خارج روابط الزواج، فمن الواضح أن تسجيل الولادات غير الشرعية كان دائماً أقل من تسجيل الولادات الشرعية، بسبب الإجهاض وقتل الأطفال عند الولادة، وخاصة الوضع في السرية وخلط الأنساب في حالات الزنا، بحيث لا يمكن حصر جزء هام من هذه الولادات في كل فترة، مهما كانت يقظة العدالة أو المجتمع كبيرة.

تسمح بعض الدراسات مثل تلك التي قام بها ج. ديبو[(23)] (J. Depauw) بالنسبة إلى مدينة نانت (Nantes) من خلال وثائق التصريح بالحمل، بالقيام بمقاربة أكثر تحديداً للظاهرة، وتمكّن من تحليل أكثر دقة: إننا شهدنا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ازدهار الممارسة الجنسية خارج الروابط الزوجية، كما يبدو ذلك من خلال ما تعكسه الدفاتر الخورنية من ارتفاع في تسجيل نسبة الوفيات غير الشرعية، ومن المناسب أن نلاحظ التوجّهات الجديدة لهذه اللاشرعية التي تعبّر عن جو جديد من العواطف والأخلاق. وهذه الولادات لم تعد دائماً نتيجة للتسري بالخدم أو نتيجة للمغامرات العاطفية التي تقع على هامش اللياقة الاجتماعية، والتي ليس لها أي إمكانية لتؤول إلى زواج، بل إنها توافق شيئاً فشيئاً علاقات بين

---

(23) Jacques Depauw, «Amour illégitime et société à Nantes au XVIIIe siècle,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 27, nos. 4-5 (juillet-octobre 1972).

شركاء من الوسط الاجتماعي نفسه، والتي قد تؤول في نهاية المطاف إلى علاقة زوجية.

تحولات السلوكيات الجنسية في آخر القرن الثامن عشر

يجب ألا نستهين بمنحنيات الديمغرافيا، فإذا كانت الولادات غير الشرعية لا تسمح بالتعبير عن ذاتها إلا من خلال توجّهات غير ثابتة، فالتطور الموازي لنسبة اللاشرعية ونسبة الحمل قبل الزواج يأخذ أبعاداً أخرى.

ولكن كل المنحنيات المتأتية من المونوغرافيات، سواء المتعلقة بالأسقفيات الريفية أو الحضرية في مختلف جهات فرنسا في ظل النظام القديم والتي نمتلكها، تكاد تبيّن، مع بعض الفروق بين الضيعات أو السواحل النورمانية التي تبدو أكثر انفتاحاً، والحوض الباريسي الأكثر امتثالية، أن النسب المئوية للولادات غير الشرعية والحمل قبل الزواج ضعيفة جداً خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، ولكنها تسجل جميعها تقريباً بداية من منتصف القرن الثامن عشر ارتفاعاً متوازياً للولادات غير الشرعية وللحبل قبل الزواج. وهذا دليل على التحول الواضح في السلوكيات الأخلاقية والجنسية.

ولكن كيف يمكن أن نؤول هذا التطور، فهل هو شاهد على ميلاد أخلاقية جنسية جديدة أو حساسية جديدة، أو هو مجرد انحلال للضغوط التي تلت عملية التوحيد الزهدي الذي أراده الإصلاح الكاثوليكي وحققه؟ إن عدم توفر الدفاتر الخورنية، بل نقص معلوماتها بالنسبة إلى القرن السادس عشر والنصف الأول للقرن السابع عشر، لا تسمح بمواصلة البحث إلى أبعد من ذلك. وتسمح بعض المصادر الأخرى التي يصعب تكميمها، مثل المصادر القاضية

(الملكية والدينية أو البلدية) أو الشهادات، بإدراك الجو الأخلاقي السائد وأسلوب التصرف الموجود. وتقدم دراسات ج. روسيو[24] (J. Rossiaud) حول الانحراف الجنسي في مدن منطقة الرون (Rhône) في القرنين الخامس عشر والسادس عشر خاصة، صورة عن مجتمع تحرري في ما يتعلق بالجنس المراهق والذكوري: لم تكن الدعارة المنتشرة كثيراً منبوذة، وإنما منظمة في مؤسسات عمومية تعدّ من أرقى أماكن الاجتماعوية الذكورية، وهي خاضعة لرقابة أو لتسيير السلط البلدية. وعادة ما يكثر فيها الاغتصاب من دون ردع صارم.

ولا يمكن أن لا نعير اهتماماً للأسلوب الإباحي الذي تتناول به النصوص مسألة الجنس. كانت النغولة عاهة بسيطة وكثيرة الانتشار. كل ذلك يعبِّر عن نوع من التحرر الأخلاقي الذي يعمّ المجتمع. ويعدّ غلق المواخير بصورة تدريجية في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وبروز تشريعات أكثر ردعاً للولادات غير الشرعية، من علامات التصلب الأخلاقي والانطواء الإجباري على الجنس ضمن الروابط الزوجية. إن الممارسات في الواقع ليست لها قيمة إلا بالنسبة إلى القانون الذي يوحي بها. ولكن إلى أي مدى كانت الممارسات رهينة الأدب الديني الكثيف الذي من واجبه تحديد الأخلاق الزوجية، وتوضيح ما هي الممارسات الجنسية المسموح بها والممارسات المحظورة؟

لقد بيّن ميشيل فوكو أخيراً في عمل جيد حول تاريخ الجنس إلى أي مدى قامت الحضارة الغربية بحصر الجنس وحل مشاكله من

---

(24) Jacques Rossiaud, «Prostitution, jeunesse et société dans les villes du sud-est au XVe siècle,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 31, no. 2 (1976).

خلال خطاب لا ينتهي[25]. لنتفق جيداً أنها لم تقم فقط بوأد الممارسات تحت جملة من الشروح الدينية والقانونية والطبية والسياسية، ولكنها جعلت من ضرورة الحديث عنها، أي بتجنب الحديث عن الجنس أو بالتلميح إليه، شكلاً من أشكال اللذة وطريقة من طرق ممارسة الجنس. وهذا لا يعني أن كل الخطابات حول الجنس يتصل بعضها ببعض. لا شيء يثبت مثلاً أن النقاشات بين رجال الدين المهتمين بالأخلاق المتشددين في القرن السابع عشر، أو حتى الأبجديات الدينية الخاصة بالزواج التي كان يتعلمها صغار رجال الدين، كان لها أي صدى لدى جموع السكان غير المتعلمين.

منع الحمل هو ممارسة قديمة

إنه لمن الوهم أن نريد تفسير تغيّر السلوك الجنسي بتحول في الذهنيات الدينية. لنأخذ مثال ظهور السلوك المالثوسي: كان فيليب أرياس أول من وضح من خلال كتابه: **تاريخ السكان الفرنسيين ومواقفهم أمام الحياة** هذا التحول الهام في مستوى السلوك الديمغرافي الذي يؤرخ بدايته في أواخر القرن الثامن عشر[26]. وتبيّن الدراسات الدقيقة الأولى حول تطور الخصوبة الشرعية حدوث قطيعة في مستوى عهد الثورة الفرنسية، حتى إن بعض المؤرخين لم يتوانوا عن جعل قانون «التحكم في الولادات» الفرنسي من نتائج الثورة. وقد يكون تراجع الشعور الديني في أواخر القرن الثامن عشر أدى بالأزواج إلى الانعتاق من المحظورات الكنسية ضد ممارسة منع

---

(25) Michel Foucault, *La Volonté de savoir*, bibliothèque des histoires (Paris: Gallimard, 1976).

(26) Philippe Ariès, *L'Histoire des populations françaises et de leurs attitudes devant la vie depuis le XVIIIe siècle*, coll. «points» (Paris: Editions du seuil, 1948; 1971).

الحمل. كما قد تكون الثورة الفرنسية، وخاصة عملية التجنيد التي أبعدت الشبان عن مناطقهم الأصلية، قد ساهمت كثيراً في انتشار تقنيات منع الحمل غير السحرية، مثل «العزل» الذي كانت تندّد به الكنيسة بصورة خاصة. ويجبرنا اليوم تطور أبحاث الديمغرافيا التاريخية إلى الذهاب بعيداً في التاريخ بانتشار ممارسات منع الحمل. لقد برزت هذه الأخيرة في منطقة الحوض الباريسي في العشريتين الأخيرتين من القرن الثامن عشر عند الفلاحين، ومن غير شك منذ منتصف القرن في الأوساط الحضرية. لقد كان لويس هنري يعتقد أنه قادر على تبيان الدور الرائد للفئات الحاكمة في هذا الميدان: إن الأرستقراطية[27] (ورسائل مدام دو سيفينيي (Madame de Sévigné) إلى ابنتها تشهد على ذلك صراحة) أو بورجوازية جنيف كانتا تمارسان تحديد الولادات منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر[28]. ولكن دراسة حديثة قام بها أ. بيرينو[29] (A. Perrenoud) جاءت لتبيّن في ما يخص مدينة جنيف أن الظاهرة قد مست جميع الفئات في تلك الفترة. وأخيراً يبدو من خلال نسب الخصوبة الشرعية التي توفرها وثائق بعض الأسقفيات الريفية لجنوب غربي فرنسا أن ممارسة منع الحمل بصورة خفية كانت موجودة منذ القرن السابع عشر. ويرى فيليب أرياس أن التحريم الكنسي قد أدى خلال فترة

---

(27) Louis Henry et C. Lévy, «Ducs et pairs sous l'ancien régime: Caractéristiques démographiques d'une caste,» *Population*, vol. 15 (1960).

(28) Louis Henry, *Anciennes familles genevoises: Etude démographique: XVIe-XXe siècle*, [préface par Alfred Sauvy] (Paris: Presses universitaires de France, 1956).

(29) Alfred Perrenoud, «Malthusianisme et protestantime: Un Monde démographique wébérien,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 29, no. 4 (juillet-août 1974).

طويلة من الزمن إلى عدم إمكانية التفكير في منع الحمل. وباستبطان هذا التحريم تناسى الناس الأساليب الجافية التي كانت معروفة ومعمولاً بها في العصور القديمة. لذلك يعدّ ظهور هذه الممارسات تحولاً ثقافياً لا رجعة فيه. ولكن يبدو أنه يجب تقويض هذه الفرضية نفسها، فمنذ نهاية العصر الوسيط إلى بداية القرن السابع عشر يلمّح العديد من المؤلفات الدينية إلى وجود، وحتى إلى انتشار، مثل هذه الممارسات من أجل التنديد بها. إذن ليس ممنوعاً أن نفكر كما توحي به بعض المنحنيات الديمغرافية (بالنسبة إلى إيطاليا وإنجلترا وغيرهما) أن تحديد النسل قد يكون انقرض بصورة وقتية في نهاية القرن السابع عشر من بعض الجهات تحت تأثير الدعاية الدينية وقمعها، ليعود إلى الظهور في النصف الثاني من القرن الثامن عشر عندما ارتخى ضغط الكنيسة على الناس.

ولكن، هل أدت الكنيسة نفسها دوراً حاسماً في تحول السلوكيات؟ تخبرنا وثيقة مهمة، ولو أنها متأخرة، وهي رسالة أرسلها الأب بوفيي (Mgr. Bouvier)، أسقف المانس (Le Mans) سنة 1849 إلى مجمع التوبة الرسولي المقدس يطلب تحديد الكنيسة لموقفها من مسألة تحديد النسل، أنه في هذه الأبرشية التي أصبح سكانها مالثوسيين، أصبح المؤمنون منزعجين من مساءلتهم إبان طقس الاعترافات حول ممارستهم تحديد النسل، فليس تراجع المسيحية هو الذي دعم انتشار تحديد النسل، بل العكس صحيح، إذ إن تبني السلوك المالثوسي هو الذي أدى في بعض الحالات إلى أزمة ضمير وأبعد الكنيسة عن بعض الفئات الاجتماعية.

تأثير محدود للتحاريم الدينية على انتشار تحديد النسل

بيّنت الدراسات العديدة التي قام بها علماء الديمغرافيا وعلماء الاجتماع حول إدخال قانون «تحديد النسل» عند بعض شعوب العالم

الثالث، أن التحريم الديني يؤثر أقل من البنية العائلية، أو من العلاقات العاطفية، أو من التواصل بين الأزواج. لقد تبنى السكان السود المسيحيين في بورتو ريكو «تحديد النسل» بسهولة أكبر من سكان الهند الذين لا تحرم أيديولوجيتهم الدينية ممارسة منع الحمل. أما في ما يخص أوروبا، وبصورة خاصة فرنسا، فقد تشبثنا كثيراً بربط ظهور ممارسة منع الحمل بالمواقف الدينية أكثر من ربطها بالمواقف العائلية. لقد وجدت قبل المالثوسية في مستوى الجنس لدى مجتمع النظام القديم مالثوسية في مستوى الزواج: الزواج المتأخر، خاصة بالنسبة إلى الفتيات هو الذي ساهم، منذ القرن السابع عشر، في تخفيض زمن الخصوبة بالنسبة إلى الأزواج. إن تأخر الزواج (والحفاظ على نسبة هامة من العزوبية)، والعودة إلى منع الحمل، وبروز تصور جديد للطفولة، وتصور جديد للحساسية الزوجية؛ كل هذه العناصر كوّنت نظاماً ثقافياً انتقالياً دفعه التنظيم الاقتصادي (بالادخار المالي) والاجتماعي (بتقوية العائلة النووية) وأطال في عمره[30].

تاريخ الخلية العائلية

يعبّر الاهتمام بتاريخ بالعائلة، وبالحساسية العائلية منذ الخمس عشرة سنة الأخيرة، عن الحاجة نفسها لتحليل مجموع السلوكيات البيولوجية والتشكيلات الاجتماعية والتمثلات الذهنية التي أوحت بها. ويمثل عالم النسب، وهو القطب المميز للأنثروبولوجيا التاريخية، بصورة خاصة، التمفصل بين التناسل البيولوجي وإعادة الإنتاج الاجتماعي. وقد بيّن حديثاً جورج دوبي[31] بالنسبة إلى منطقة ماكوني

(30) André Burguière, «De Malthus à Weber: Le Mariage tardif et l'esprit d'entreprise,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, no. 27 (1972).

(31) Georges Duby, *La Société aux XIe et XIIe siècles dans la région* =

(Mâconnais) في العصر الوسيط المتقدم، وإمانويل لو روا لادوري[32] بالنسبة إلى منطقة اللانغدوك في القرن الخامس عشر، كيف أدى انهيار الدولة وانحلال النسيج الاجتماعي إلى تنشيط علاقات النسب وتقويتها: تكوّن سلالات قوية من الأرستقراطية في منطقة ماكوني، وتجمع عائلات موسعة في نوع من «المؤاخاة»، وفي بعض الأحيان إثبات بالعدول لأنساب منتحلة في منطقة اللانغدوك. ويبدو أن الرابطة العائلية أدت دور الملاذ في فرنسا العصر الوسيط، وبصورة أعم في مجتمع النظام القديم الذي عمدت فيه مؤسسة الدولة إلى تقليم كل أشكال التضامن المحلي أو تحت ـ الاجتماعي. كلما أدى المنخفض الديمغرافي إلى تجمع الثروة، ولم توفر الدولة ما يكفي من الحماية، استعادت العائلة حقوقها وأصبحت قلعة، وابتلع عالم النسب الحياة الاجتماعية.

تواصل بنى الأنساب في المجتمعات التاريخية

ملاذ أو تنظيم تحتي؟ بيّن مارك بلوخ في بعض الصفحات الرائعة من كتاب: **المجتمع الفيودالي** التي خصّ بها موضوع «الروابط الدموية»، كيف رتب النظام الفيودالي مسألة العلاقات الاجتماعية وانتقال السلطة، بحسب نموذج العلاقات الجسدية[33]. وفي مونتايو في نهاية القرن الثالث عشر، بعيداً عن أجهزة الدولة، وأقل بعداً عن

---

maconnaise, bibliothèque générale de l'école pratique des hautes études, 6. section = (Paris, Armand Colin, 1953).

(32) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Les Paysans du Languedoc*, science de l'histoire (Paris: Flammarion, 1969).

(33) Marc Bloch, *La Société féodale: La Formation des liens de dépendance*, l'évolution de l'humanité. Synthèse collective; 34, [avant-propos de Henri Berr. 2e mille] (Paris: Albin Michel, 1939), 2ème partie, livre 1.

الأجهزة الدينية، لم تكن للفلاحين الأكسيتانيين القدرة على تصور رباط اجتماعي لا تشرّعه ولا تجسده رابطة جسدية. إنهم ينتمون إلى بيت هو بمثابة الجسم الدائم للنسب، ويسعون عبر الزواج والكفالة إلى توسيع العصبية العائلية[34]. وتكشف الدراسات العديدة التي أنجزت حول العائلة بعد الكتب الرائدة لنوربير إلياس[35] وفيليب أرياس[36]، أنه إذا كانت الدولة في فرنسا منذ القرن السادس عشر تسعى تدريجياً لتعويض العائلة في مختلف وظائفها القانونية والاجتماعية، فهي تواصل طيلة عصر النظام القديم، بالاعتماد على العصبية العائلية، التأثير في السلوك الاقتصادي والعاطفي والأخلاقي والديني للناس.

يمكن إذن أن نتساءل حول فرنسا النظام القديم، فيما إذا كانت من وراء المؤسسات الرسمية و«البنى الأساسية للنسب» تواصل تنظيم المجتمع كما كانت تقوم به «المجتمعات التي ليست لها دولة». وفي ما يتعلق بالزواج، فالقواعد الواضحة هي الممنوعات الشرعية: تبيّن دراسة الأدب والممارسات القانونية للكنيسة من خلال أرشيف المحاكم الأسقفية (وهو ما قام به جان ماري غويس[37] (Jean-Marie Gouesse)

---

(34) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Montaillou: Village occiton de 1294 à 1324*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1975).

(35) Elias, *La Civilisation des mœurs = Über den Prozess der Zivilisation.*

(36) Philippe Ariès, *L'Enfant et la vie familiale sous l'ancien régime*, civilisations d'hier et d'aujourd'hui (Paris: Plon, [1960]), rééditions: l'univers historique, [nouv. éd.] (Paris: Editions du seuil, [1973]), et points. Série histoire; 20, [édition abrégée] (Paris: Editions du seuil, 1975).

(37) Jean Marie Gouesse, «Parenté, famille et mariage en Normandie aux XVIIe et XVIIIe siècles: Présentation d'une source et d'une enquête,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 27 (1972).

بالنسبة إلى منطقة نورمنديا وما قمت به شخصياً[38] بالنسبة إلى وسط الحوض الباريسي، وما يقوم به الآن آخرون منذ سنوات) نمطاً للترتيب غير بعيد عن الترتيبات التي عرفها كلود ليفي شتراوس بالنسبة إلى بعض المجتمعات البدائية. إن تحليل أشكال المصاهرات الذي قمت به مثلاً بالنسبة إلى خورنية في جهة باريس في القرن الثامن عشر، حيث تتواصل نسبة قرابة مرتفعة جداً، يبيّن أيضاً بعيداً عن الاستراتيجيات الاجتماعية التي تهدف إلى حماية الثروة والحفاظ على المرتبة الاجتماعية أو تدعيمها، إجراءات لـ «تكرار المصاهرات»، وهو ما وصفته نفسه بصورة خاصة مارتين سيغالان[39] (Martine Segalen) وفرنسوا زوناباند[40] (Françoise Zonabend) بالنسبة إلى المجموعات الريفية في فرنسا المعاصرة، فبعد أن كنا نعتقد لفترة طويلة أن التنظيم الاجتماعي في مجتمعاتنا المعقدة والتاريخية هو الذي يحدّد المصاهرات، نكتشف اليوم من خلال بعض المونوغرافيات المحددة أن بعض مفاهيم الأنثروبولوجيا البنيوية الخاصة بالنسب يمكن أن تطبق عليها.

آفاق الأنثروبولوجيا التاريخية

تواصل الأنثروبولوجيا اليوم أبحاثها الأكثر ثراء في مجال الذهنيات. لقد كان مفهوم الذهنية الذي أدخله لوسيان فافر[41] في

(38) André Burguière, «Endogamia e communita contadine sulla pratica matrimoniale a Romainville nel XVIIIe secolo,» *Quaderni storici* (sep. - dec. 1976).

(39) Martine Segalen, *Nuptialité et alliance: Le Choix du conjoint dans une commune de l'Eure*, mémoires d'anthropologie française; 1 (Paris: Maisonneuve et Larose, 1972).

(40) Yvonne Verdier, Tina Jolas et Françoise Zonabend, «Parler famille,» *L'Homme*, vol. 10, no. 3 (1970).

(41) Lucien Febvre, «Folklore et folkloriste: Notes critiques,» *Annales d'histoire sociale*, vol. 1 (1939).

عالم المؤرخين غامضاً بما فيه الكفاية، ومنفتحاً بما فيه الكفاية أيضاً، ليهضم مساهمة العلوم الأخرى. ويكمن الخطر في حصره في إطار نفساني لا يتماشى مع العصر، أو في إطار تاريخ للأفكار كثيراً ما يكون مهيأ لاستنتاج الآليات الذهنية لفترة ما من العقائد والإنجازات الفكرية التي أنتجتها.

وهنا أيضاً غزت الأنثروبولوجيا التاريخ من الأسفل، أي من خلال العبارات البسيطة والأقل صياغة للحياة الفكرية، مثل المعتقدات الشعبية والطقوس المؤثرة في الحياة اليومية أو المتشبثة بالحياة الدينية، وكذلك الثقافات ذات الحضور القليل أو المستترة، وبصورة موجزة فهي المعبّر عنها بالفولكلور. وفي تعليقه على كتاب لأندريه فارانياك (André Varagnac)، يعرّف لوسيان فافر الفولكلور على أنه مجموع المعتقدات الجماعية التي ليست لها عقيدة، والممارسات الجماعية التي ليست لها نظرية، ويتساءل: «هل يسهل رسم حد فاصل بين «المستنتج» و«المقبول كما هو» من دون استنتاجات؟ ويواصل أيضاً متسائلاً: «ألا يمكن أن يضع موضع الشك تكوّن مفاهيمنا العلمية، والعلاقات التاريخية بين السحري والرياضي، والحلول التدريجي للعلاقات المنطقية والكمية محل التأثيرات الكيفية واللاعقلانية؟»، فالسلوكيات الأقل برهنة لمجتمع ما، مثل الاعتناء بالجسد، وكيفية اللباس، وتنظيم العمل، وروزنامة الأعمال اليومية، تعكس نظاماً لتمثل العالم يربطها في العمق بالصياغات الفكرية الأكثر إعداداً، مثل القانون والمفاهيم الدينية والفكر الفلسفي أو العلمي. إن اكتشاف هذا الرابط بجرد للمعاني، ووصف التصنيفات التي تنظم الخطاب الأسطوري، وكذلك تحديد رمزية الحركات، تلك هي المحاور التي اهتمت بها البحوث الرائدة حول مجتمع العصر الوسيط التي قام بها جاك لوغوف حول تمثل

الزمن[42] والعمل[43] والفولكلور الديني[44]، أو التحاليل التي قام بها جورج دوبي[45] حول معنى الهدية والإنفاق التفاخري في مجتمع العصر الوسيط المتقدم. ويصف كتاب إيف كاستان (Yves Castan): **النزاهة والعلاقات الاجتماعية في منطقة اللانغدوك**[46] من خلال الأرشيف القضائي الذي لا تحتاج قيمته إلى برهنة بالنسبة إلى الأنثروبولوجيا، مدى تأثير مفهوم الشرف بوصفه قيمة تبادلية واتصال في فرنسا الجنوبية خلال القرن الثامن عشر. وقد بيّنت لنا محاولات التحليل البنيوي التي قام بها ج. لوغوف وإ. لو روا لادوري حول موضوع مايلوزين[47] أو حول المحارب في الغابة التي قام بها ج. لوغوف وب. فيدال ناكيه[48] (P. Vidal Naquet) أنه يمكن من خلال

---

(42) Jacques Le Goff: «Au Moyen âge: Temps de l'église et temps du marchand,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 15, no. 3 (mai-juin 1960), repris dans: *Pour un autre moyen âge: Temps, travail et culture en occident: 18 essais*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, [1977]).

(43) Jacques Le Goff: «Le Temps du travail dans la crise du XIVe siècle: Du Temps médiéval au temps moderne,» *Le Moyen-âge*, vol. 64 (1963), repris dans: *Pour un autre moyen âge: Temps, travail et culture en occident: 18 essais*.

(44) Jacques Le Goff, «Culture cléricale et traditions folkloriques dans la civilisation mérovingienne,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 22 (1967).

(45) Georges Duby, *Guerriers et paysans: VII-XIIe siècle, premier essor de l'économie européenne*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, [1973]).

(46) Yves Castan, *Honnêteté et relations sociales en Langhedoc, 1715-1780*, civilisations et mentalités (Paris: Plon, [1974]).

(47) Jacques Le Goff et Emmanuel Le Roy Ladurie, «Mélusine maternelle et défricheuse,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 26 (1971).

(48) Jacques Le Goff et Pierre Vidal-Naquet, «Lévi-Strauss en Brocéliande: Esquisse pour une analyse d'un roman courtois (Yvain de Chétien de Troyes),» *Critique*, no. 325 (juin 1974).

تحليل نظم التمثل، لا فقط ربط مختلف مستويات التعبير في فترة ما في ما بينها وتحديد نمطها، وإنما أيضاً اكتشاف **داخل سجون المدى الطويل** خيط الزمن والتحول البطيء الذي يؤثر في حركة التاريخ.

المؤرخ يبرز آليات التطور

نكتشف قريباً منا وعلى عتبة المجتمع الصناعي عالماً غريباً هو عالم فرنسا النظام القديم. وتبرز لنا غرابتها لأنها عوضاً عن تفسير كيفية انهيار النظام القديم أو كيفية إعداده للمستقبل، حاول المؤرخون اليوم أن يفهموا كيف تواصل، وكيف تزايد، وكيف لا يزال حياً في خلايا المجتمع الحالي. تمثل من هذه الناحية أعمال موريس أغولون[49] حول اندماج الثقافة السياسية في المجتمع الجنوبي، أكثر الجهود اكتمالاً لتحليل السياسة بحسب قواعد الأنثروبولوجيا والوصف لمختلف قضايا النشوء أو التحول الفجئي الذي أدى إلى تكوّن فرنسا المعاصرة.

ليست السياسة مجرد خزان لأفكار برامجية أنتجتها «النخب الواعية» والأحزاب التي ولدت من رحم الأزمة الثورية، وقد انتشر تدريجياً داخل كامل الجسم الاجتماعي بفعل قدرته على الإقناع والتعبئة. قد تكون السياسة اضطرت إلى أن تكوّن شيئاً آخر مختلفاً عن ذاتها ـ قد نغرى بقول إنها أصبحت أكثر من ذاتها ـ من أجل إشباع الحياة الاجتماعية، فهي ليست فقط مشروعاً لتناسق السلطة، ولكن أيضاً طريقة في التواصل مع الآخرين، وطريقة لفهم العالم. قد

---

(49) بشكل خاص في: Maurice Agulhon: *Pénitents et francs-maçons de l'ancienne Provence*, l'histoire sans frontières (Paris: Fayard, 1968), et *La République au village: Les Populations du Var de la révolution à la seconde république*, civilisations et mentalités ([Paris]: Plon, [1970]).

تكون تبنّت الأشكال التقليدية لحياة العلاقات، وخاصة تلك «الاجتماعوية» التي يتأكد من خلالها، كما يقول م. أغولون، التمايز الثقافي لفرنسا الجنوبية. ومن خلال دراسته حالات من «الأرلايزيان» إلى «فرق الاستعراض»، يضع الباحث مشروعاً لتحليل «المظاهر الشكلية للحياة السياسية وآلياتها».

لقد اتبع كل من منى أوزوف[50] وميشيل فوفيل[51] أخيراً المقاربة نفسها، فأشارا إلى الأشكال الرمزية والممارسات الطقسية التي استقر فيها الخطاب الأيديولوجي ليصنع السلوك السياسي لفرنسا الحالية. وبصورة أشمل، يمكّن رصيد المعلومات الإحصائية، الذي تكوّن منذ الثورة الفرنسية، المؤرخين من وسائل الاقتراب التدريجي من الزمن الحاضر من خلال تتبع مظاهر المقاومة والانتقال لكل المكوّنات الأنثروبولوجية لفرنسا. وتهدف الأبحاث التي قام بها جاك أوزوف وفرنسوا فوريه[52] (François Furet) حول «تعلم القراءة والكتابة في فرنسا المعاصرة»، وتلك التي يواصلانها الآن حول «ظاهرة الأحمر والأبيض»، أي حول نظام الثنائية الحزبية التي تتحكم في الخريطة الانتخابية الفرنسية، إلى إبراز بقاء أنماط ثقافية قديمة محصورة (بحسب الجهات والطبقات الاجتماعية وغيرها) تحت غطاء التجانس الظاهري لوحدتنا الوطنية. تحاول هذه الأبحاث قبل كل

---

(50) Mona Ozouf, *La Fête révolutionnaire, 1789-1799*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1976).

(51) Michel Vovelle, *Les Métamorphoses de la fête en Provence de 1750 à 1820*, bibliothèque d'éthnologie historique, avec la collaboration de Mireille Meyer et Danielle Rua ([Paris]: Flammarion; aubier, 1976).

(52) François Furet et Jacques Ozouf, dirs., *Lire et écrire: L'Alphabétisation des français de Calvin à Jules Ferry*, le sens commun, 2 vols. ([Paris]: Editions de minuit, 1977-).

شيء أن لا تشير إلى التطور نفسه في بداهيته الخطّية، ولكن إلى آليات التطور، والأشكال التي يجب على التغيير تبنّيها ليكون مقبولاً.

نحن ننتمي إلى روح العصر، ومن كثرة ملاحظة حركة التاريخ، يحدث أن ننسى أننا نمثل جزءاً منها. هناك ظرفية المعرفة التاريخية، وهناك تاريخ للظرفية. إنه علم لم يقع تنظيره كثيراً مطبق في مبادئه على تحليل التغيير، فالتاريخ محكوم ربما أكثر من غيره من العلوم الأخرى بأن يكون محل تغيير.

وإذا كانت الأنثروبولوجيا تمارس اليوم تأثيراً على مؤرخي المجتمعات الأوروبية، فهؤلاء يميلون إلى رفض أي تصور خطي للتطور التاريخي، وذلك لأن فترات التوقف ومراحل التوازن، وحتى مراحل التراجع التي بيّنوها بالنسبة إلى مجتمعات النظام القديم تناقض مفهوم التقدم. ولكن أيضاً لأن مفهوم التقدم وروحانية التطور يشك فيهما حولنا المجتمع الذي من أجله نسائل الماضي. إن الأنثروبولوجيا هي إذن ألم عابر بالنسبة إلى المؤرخ، بل إنها توافق بالنسبة إلينا الحاجة إلى إعادة اكتشاف مختلف مسالك التغيير، وجردها وفهم آلياتها والتأكيد على تعدّدها.

تاريخ الذهنيات

فيليب أرياس(*)

كان لوسيان فافر يروي حكاية أوردها هنا انطلاقاً من الذاكرة من دون التثبت من النصّ، لأنها كما بقيت في ذكرياتي، ولا يهمّ إن بقيت محرَّفة ومبسّطة، فقد بدت لي دائماً أنها تطبيق ساطع لمسألة الذهنية العويصة.

... في الصباح الباكر غادر فرنسوا الأول فراش عشيقته للعودة متخفياً إلى قصره. لقد مرَّ أمام كنيسة في الوقت الذي تقرع فيه النواقيس إيذاناً بوقت الصلاة، فأثر فيه ذلك، فدخل لحضور القداس والصلاة في خشوع.

يفاجأ الإنسان اليوم بالجمع بين الحب الآثم والتقوى الصادقة، فله في ذلك اختيار أحد تأويلين:

(*) 1914 ـ 1984. تابع بحوثه على هامش سيرة وظيفية غير جامعية. لقد انطلق من التاريخ الديمغرافي (تاريخ السكان في فرنسا ومواقفهم أمام الحياة ـ 1948) ليهتم بالظواهر الوسيطة بين البيولوجي والذهني (العائلة، والموت) وبنتائجها الثقافية (التربية، والزمن التاريخي، والتدين الشعبي). وقد انتخب مدير بحث في مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية سنة 1978.

التأويل الأول أثار صوت ناقوس المعبد الرغبة في نفس الملك للتكفير عن ذنبه، فتوقف للصلاة طلباً للمغفرة. لا يمكن أن يكون موقفه خال من النفاق، فهو المذنب ليلاً التائب فجراً. إنه يتصرف كإنسان اليوم، على الأقل مثل الإنسان العادي الذي له بعض العقلانية من دون أن يكون قرأ دوستويفسكي (Dostoïevski) أو يرتاب من فرويد، مثل القاضي أو عضو المحاكم الشعبية. إنه مقتنع بأن التناسق الأخلاقي طبيعي وضروري. وإذا غابت الأخلاق لدى البعض، فهؤلاء هم أناس غير عاديين ومنبوذون من المجتمع. وهذه القاعدة هي قيمة ثابتة في مستوى معيّن من العمق والتعميم، لأن الطبيعة البشرية لا تتغير. إن مثل هذا التأويل هو تأويل المؤرخ الكلاسيكي، المندفع نحو الإقرار باستمرار المشاعر نفسها، بالنسبة إلى كل فترة وفي كل الثقافات، على الأقل المتحضرة، وبصورة أدق الحضارة المسيحية.

وعلى عكس ذلك يكون التأويل **الآخر**، وهو تأويل مؤرخ الذهنيات. لقد كان الملك صادقاً ببساطة وبعفوية في تقواه كما هو صادق في حبّه، وهو ما زال لم يشعر بتناقض هذين الشعورين. إنه يدخل الكنيسة كما يندسّ في فراش عشيقته بالجموح البريء نفسه. ولا تكدر صدق صلاته روائح القبة الكريهة. أما ساعة التوبة فستأتي في ما بعد.

أما اليوم، فلا يسمح الرأي الجماعي بوجود أحاسيس متناقضة في الوقت نفسه. وعلى رغم العديد من الجهود لجعلها مقبولة، وذلك بسبر أعماق النفوس، فالفكر ينفر منها في النهاية حتى ولو تظاهر بأخذها بعين الاعتبار. وعلى العكس، تبدو هذه الظاهرة طبيعية في الماضي. وهذا لا يعني اختلافاً بين مسيحية حساسة ومتشائمة، ومسيحية متشدّدة أخلاقيا. إن الاختلاف عميق والإصلاحات الدينية

في القرنين السادس عشر والسابع عشر ليست هي السبب في ذلك، وإن كانت من دون شك تعبيراً عن هذا الاختلاف.

هناك مثال آخر أعطاه لوسيان فافر للتعبير عن تطابق بين بعض المواقف التي أصبحت في ما بعد غير متطابقة. وهو مثال مارغريت دو نافار (Marguerite de Navarre)، أخت فرنسوا الأول، والتي استطاعت أن تكتب **مرآة النفس المخطئة**، وهو ديوان في الأذكار بعدما كتبت **الإبتاميرون**، وهو مجموعة من القصص الفاحشة. عاداتنا لا تسمح أبدا بهذا الخلط الساذج والصادق النية. لقد كانت بعض الأشياء ممكنة ومقبولة في فترة معينة وفي ثقافة معينة، ولكنها لم تعد كذلك في فترة أخرى وفي ثقافة أخرى. وإذا كنا لا نستطيع اليوم أن نتصرف بالبساطة نفسها والطبيعية نفسها، وضمن ظروف مماثلة مثل أميرتنا في القرن السادس عشر، يدل ذلك بالتأكيد على تغيّر في الذهنيات حصل بيننا وبينهما، فليس لأننا لا نؤمن بالقيم نفسها، وإنما لأن ردود الفعل الأساسية ليست هي نفسها.

هذا هو ما نعنيه تقريباً منذ لوسيان فافر بـ «المواقف الذهنية».

نشأة تاريخ الذهنيات وتطوره

رواد تاريخ آخر

يستحسن أن نقدم هنا فكرة الذهنية بالانطلاق من أمثلة مأخوذة من أعمال لوسيان فافر. وفي الواقع، إن تاريخ الذهنيات ليس تاريخاً جديداً، فقد ولد غداة الحرب العالمية الأولى عند بعض المؤرخين، مثل الفرنسييْن لوسيان فافر ومارك بلوخ والبلجيكي هنري بيران، وعند بعض الجغرافيين مثل أ. دومنجون، وعند بعض علماء الاجتماع، مثل ل. ليفي برول وهالبواكس وغيرهما. وهذه المجموعة

هي التي أوحت منذ 1929 بـ **حوليات** التاريخ الاقتصادي والاجتماعي الشهيرة. نقول عادة «مدرسة **الحوليات**»، غير أن مجموعة **الحوليات** كانت أحسن تنظيم، وأكثر نضالية، وهي ليست الوحيدة. يجب أن نضيف إليها بعض الشخصيات المستقلة والمنفردة التي كان لها الدور الريادي نفسه مثل المؤرخ الهولندي الشهير هويزنغا وبعض الكتّاب الذين ظلوا مغمورين لفترة طويلة من الزمن، مثل الألماني نوربير إلياس صاحب الكتابات المجددة التي نشرت سنة 1939، والذين حجبتهم عواصف الزمن حتى وقع اكتشافهم اليوم من جديد[1]، أو بعض الكتّاب الهامشيين، أقصد أن علاقة أعمالهم بتاريخ الذهنيات لم تبرز في إبانها، مثل ماريو براتز (Mario Praz)، مؤرخ الآداب الملعونة والنوع المرضي منها. وقد نشر كتابه الرئيسي بالإيطالية في العشرينات، وترجم إلى الفرنسية سنة 1977، وهو محاولة متميزة تهدف إلى رسم حدود التبادل بين التعبير الأدبي والمتخيل الجماعي[2].

كل هؤلاء الكتّاب سواء انتموا إلى **الحوليات** أو كانوا غرباء عنها أو هامشيين بالنسبة إليها، يقرّون للتاريخ بحقل آخر غير الحقل الذي كان محصوراً فيه من قبل، وهو تاريخ الأفعال الواعية والإرادية والموجهة في اتجاه القرار السياسي ونشر الأفكار وسلوك الناس وسير الأحداث.

---

(1) ولد نوربير إلياس (N. Elias) في مدينة بريسلو (Breslau) سنة 1897، فر من ألمانيا النازية سنة 1930. أقام في فرنسا قبل أن يستقر في بريطانيا العظمى حيث درّس في جامعة لايسستر، انظر: Norbert Elias: *La Civilisation des mœurs = Über den Prozess der Zivilisation* (Paris: Calmann-Lévy, 1976), et *La Société de cour – Die höfische Gesellschaft* (Paris: Calmann-Lévy, 1977).

(2) يجب أن نلاحظ إلى أي مدى لم تكن هذه الحركة باريسية، ولكنها لوتارنجية بالدرجة الأولى. وكان انتقالها إلى باريس متأخراً، وعرفت تحولاً في وجهتها بعد الحرب العالمية الثانية.

يعدّ حقل المتخيل والعاطفة واللعب، وكل ما هو مجاني، بالنسبة إلى هويزنغا بقيمة الاقتصاد نفسها، فهو يعبّر عن ذلك صراحة في **انحطاط العصر الوسيط** قائلاً: «يجب أن يهتم تاريخ الحضارات بالدرجة نفسها بالحلم وبالجمال وبالخيال الرومانسي، كما يهتم بعدد السكان وحجم الضرائب»، أي التاريخ الديمغرافي والاقتصادي. «إن الوهم في حدّ ذاته، والذي يعيشه المعاصرون، له قيمة أية حقيقة نفسها». إنها جمل يجيب عنها اليوم، مثل الصدى وخمسون سنة بعد ما قيلت، ج. لوغوف في تقديم كتاب بعنوان: **من أجل عصر وسيط آخر**[3]: «ضرورة توفير بعض العناصر الصلبة لدراسة المتخيل الاجتماعي».

هويزنغا الشهير، وم. براتز الذائع الصيت، ونوربير إلياس هذا المغمور، كل هؤلاء لم يكن ممكناً لهم تأسيس مدرسة واقتحام حواجز التاريخ التقليدي. ونجحت مجموعة ستراسبورغ الصغيرة.

الجيل الأول: حول لوسيان فافر ومارك بلوخ

لم يكن تاريخ الذهنيات في عصره، عصر الآباء المؤسسين إن أردنا القول، في الحقيقة، وكما عرفناه آنفاً، إلا وجهاً من تاريخ شاسع نسميه «التاريخ الاجتماعي» - أو كذلك التاريخ الاقتصادي والاجتماعي الذي نريده شمولياً - ولكن الشمولية كانت ممكنة آنذاك بالاقتصادي وفيه. إن هذا هو التاريخ الذي كان متعارضاً كلياً مع التاريخ السياسي الوقائعي. وهو دائماً ذلك «التاريخ الاجتماعي» كما هو معروف وممارس في إنجلترا والولايات المتحدة. يوجد إذن

---

(3) Jacques Le Goff, *Pour un autre moyen âge: Temps, travail et culture en occident: 18 essais*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, [1977]).

التاريخ التقليدي من جهة، والتاريخ الاجتماعي من جهة ثانية، وهو يضم في الوقت نفسه التاريخ الاقتصادي والتاريخ الثقافي الذي يسمى من الآن «تاريخ الذهنيات».

يهتم التاريخ التقليدي تقريباً بصورة خاصة بالأفراد، وبالفئات العليا من المجتمع، وبنخبه (الملوك ورجال الدولة وقواد الثورات) وبالوقائع (الحروب والثورات) وبالمؤسسات (السياسية والاقتصادية والدينية) التي تهيمن عليها النخب. وعلى عكس ذلك، يهتم التاريخ الاجتماعي بالكتل الاجتماعية التي بقيت على هامش السلطة وأولئك الذين يقاسونها. زد على ذلك، أن هذا التوجه لم يكن خاصاً بالبحث في الماضي. لقد حثّ أيضاً على إيجاد علوم جديدة للحاضر ناتجة من الاهتمام بما هو مهيمن عليه، وما أهملته النخب، وما هو مجهول وجماعي، والذي أصبحنا نرى شيئاً فشيئاً القوى الحقيقية كامنة فيه. نسمّي ذلك بالفرنسية «العلوم الإنسانية»: علم الاجتماع، وعلم النفس، والإثنولوجيا والأنثروبولوجيا. لقد انضم هؤلاء إلى الأخ الأكبر: الاقتصاد، الاقتصاد المتهارم. وتضع اللغة الإنجليزية كل هذه المصطلحات تحت اسم «العلوم الاجتماعية»، وهذا يوافق الفصل في فرنسا بين الاقتصاد الشيخ والعلوم الإنسانية الأصغر سناً، لفرعي التاريخ كما هما لـ **حوليات** الثلاثينيات التي تسمى: **حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي**. لقد كان هذان الفرعان منفصلين بوضوح، وقد رأينا بالنسبة إلى مارغريت دو نافار وفرنسوا الأول كيف كان العامل النفسي للذهنية مألوفا بالنسبة إلى لوسيان فافر. وقد نقول الشيء نفسه بالنسبة إلى مارك بلوخ ودراسته: **الملوك صناع المعجزات**.

غير أن فروع الذهنيات لم تكن مفصولة لدى جيل **الحوليات** الأول بما يكفي من الوضوح عن الاقتصاد أو الاجتماع ـ الاقتصادي.

إنهما وحدهما كانا يمثلان التاريخ الشمولي أو التاريخ الذي كنا نعتقد أنه كذلك.

نجد اليوم، بعد خمسين سنة من التاريخ الاقتصادي المختص والرياضي، صعوبة في أن نفهم كيف يمكن أن يكون هذا التاريخ وثيق الارتباط بالتاريخ النفسي، لأنهما اهتما كذلك بتاريخ الناس البسطاء وبما هو جماعي. إن الجوانب الاقتصادية (مثل الأسعار والأجور والضرائب والقروض والسوق) لها وقعها في الحياة اليومية لجميع الناس (كغلاء الأسعار والبؤس أو الاستثراء والمجاعات والأوبئة والوفيات). ونحن نكتشف أن كل ذلك قابل للملاحظة، وأن الجدول المتواصل للمعطيات المرقمة يسمح بقراءة للحياة اليومية بصورة غير هزلية. لذلك يمكن القول إنه يوجد رابط حميمي يقرّب بين التاريخ الاقتصادي والتاريخ النفسي.

كان التاريخ الاقتصادي منذ البداية محظوظاً لأنه كان أول تاريخ علمي جماعي. ونقابل التاريخ المتقطع للأفراد وللوقائع التي يتسببون في وجودها، والمؤسسات التي يتحكمون فيها، بتاريخ هو في الوقت نفسه تاريخ جماعي، وبغير انقطاع كتب من دون فجوات عبر الأمد الطويل، وهو تاريخ إنسانية مغمورة، ولكن يمكن لكل واحد منا أن يرى فيها نفسه.

الجيل الثاني

يبلغ اليوم عمر الآباء المؤسسين مائة سنة، متجاوزاً الآن الجيل الذي خلفهم بستين سنة. وقد اختار الجيل الثاني مساره داخل الإرث. ومن دون أن يقرّ بذلك دائماً، فقد حدّ من نشاط جزء كبير مما كان يتجاوز الاجتماعي عند م. بلوخ ولوسيان فافر، وذلك من ناحية المتخيل وعلم النفس الجماعي والثقافي. لقد تركت هذه الزاوية

من الذهنيات لبعض المغامرين (والبعض منهم مشكوك فيه).

حظوة متميزة للتاريخ الاقتصادي بعد 1945

على العكس من ذلك، كان التاريخ الاقتصادي محظوظاً، ولم يكن كل تاريخ اقتصادي كذلك. لقد حافظ المؤرخون الفرنسيون، في استماتة، على البعض من خصائص التاريخ الاقتصادي الأول: تاريخ جماعي له طموح إنسانوي، يمكّن من النفاذ إلى حياة عامة الناس، وجموع البسطاء، والمغمورين. وبقي لديهم عزوف عن تناول الاقتصاد بوصفه مجالاً خاصاً قابلاً للتحديد بحسب نماذج رياضية كما هو الشأن في الولايات المتحدة، حيث ينتمي التاريخ الاقتصادي في الجامعات إلى قسم الاقتصاد وليس إلى قسم التاريخ[4].

يفسّر اختيار هذا الجيل بالازدهار الهام الذي شهده الاقتصاد العالمي - والفرنسي - بعد الحرب العالمية الثانية. لقد كانت فرنسا تعيش في الثلاثينات بحسب نسق بطيء، ما أدى إلى تواصل البعض من عادات أواخر النظام القديم. بالإضافة إلى ذلك، كانت فرنسا تمثل مع إمبراطوريتها الاستعمارية عالماً متكاملاً ومغلقاً يوهم بالغرائبية والكونية، والحال أنه يبدو لنا اليوم بوصفه مقاطعة محمية لا يمكن للعواصف الكونية أن تصل إليها. بعد هزّات الحرب، كان هذا المجال مسدس الأضلاع (Hexagone) مفتوحاً على مصراعيه للتيارات العالمية، متقلباً بسبب الرخاء الاقتصادي وازدياد الاستهلاك وتزايد الحاجات، وكذلك بسبب التصنيع والتحضر المكثف.

---

(4) حول علاقة **الحوليات** بالاقتصاد، انظر: Robert Forster, «Achievements of the Annals School,» *The Journal of Economic History*, vol. 38, no. 1 (Mars 1978), pp. 58-76.

لقد سقطت أسوار صين الثلاثينات، وانبهر المثقفون الشبان بالقوى الاجتماعية/ الاقتصادية التي بدت لهم محركاً لهذا التقلب الذي لم يسمع له مثيلاً، وأغري المؤرخون ـ وهو أمر شرعي ـ بالبحث عن جذور (أو تأخر) التقدم التقني والاقتصادي من خلال نقلهم اهتمامات الحاضر الذي كانوا يعيشونه. وبدت لهم مسائل الذهنيات في الوقت نفسه غير هامة، فهي تبالغ في تصوير الجوانب العتيقة والمتخلفة للماضي والصعبة الإثبات، لأنها غير علمية ويصعب تحليلها رياضياً. غير أنه من تحولات التاريخ الاقتصادي، كما كان يتصور تقليدياً في فرنسا، عليه أن يعيد إدخال الظواهر الذهنية إلى الإشكالية الكبرى. إنه التاريخ الديمغرافي.

التاريخ الديمغرافي الجديد

لقد كانت المونوغرافيا الجهوية من أولى مقاربات التاريخ الاقتصادي، كما نراه في ما يأتي. والحال أن مؤلفي هذه المونوغرافيات قد وجدوا سريعاً مدفوعين إلى تخصيص النصيب الأوفر من بحوثهم لحركات السكان ودراسة العلاقات بين السكان والمعيش من قريب، أي المجاعات والأوبئة. وكما كتب ذلك جاك دوباكييه[5]: «لقد بدأت المغامرة سنة 1946 مع نشر مقال للمأسوف عليه ج. موفريه، في أول أعداد مجلة: **السكان**، تحت عنوان: «أزمات الغذاء والديمغرافيا في فرنسا النظام القديم»[6]. إن ج. موفريه

---

(5) Jacques Dupaquier, *Introduction à la démographie historique*, bibliothèque d'humanités contemporaines; 3 (Paris: Gamma, [1974]).

(6) *Population* هو عنوان مجلة المعهد الوطني للدراسات الديمغرافية (I. N. E. D.) الذي أسسه ألفريد سوفي (A. Sauvy) والذي كان نشر مقالاته التاريخية الكبرى التي ستصبح محطات تأريخية. وقد نشر مقال ج. موفريه وأعيد نشره: Jean Meuvret: «Les Crises de subsistances et la démographie de la France d'ancien régime,» *Population*, vol. 1, =

هو في الواقع شاهد نموذجي على هذا الجيل الثاني لـ **الحوليات**. ويمكن اعتبار مواصفاته هي المواصفات النوعية. إنه غير معروف من طرف الجمهور العريض المثقف لأنه لم ينشر قبل وفاته الكتاب الكبير الذي كان يفكر فيه ويكتبه، بل نشر بعد وفاته، وإنما نشر بعض المقالات المكثفة والحية التي تساوي المجلدات. وقد مارس، بمقالاته، وخاصة بنصائحه، تأثيراً كبيراً على المؤرخين الشبان من الفرنسيين والأجانب والذين هم اليوم أساتذة. والبحث الذي ذكره ج. دوباكييه آنفا من بحوثه، وهو الأكثر شهرة، قد خصص لبحث العلاقات ما بين المجاعات والأوبئة، والعلاقات ما بين الظرفية الاقتصادية والوفيات. زد على ذلك، أن ج. موفريه كان دائماً حريصاً على عدم عزل الظواهر الاجتماعية/ الاقتصادية والديمغرافية عن المحيط الثقافي.

في الفترة الممتدة ما بين 1944 و1956، كان ب. غوبار أحد تلامذة ج. موفريه يعدّ أطروحته الشهيرة: **بوفايزيس ومنطقتها ما بين 1600 و1730**(7). يعتبر الكتاب حقيقة «مساهمة في **التاريخ الاجتماعي** (أبرز ذلك) لفرنسا القرن السابع عشر»، ولكنه تحول في ما بعد إلى نموذج للتاريخ الديمغرافي. لقد كان له عقب كثير وخلق نوعية هي من أهم مساهمات هذا الجيل في الكتابة التاريخية في الخمسينات.

---

no. 4 (1946), et *Etudes d'histoire économique: Recueil d'articles*, cahiers des = annales; 32 (Paris: Armand Colin, 1971).

(7) Pierre Goubert: *Beauvais et le beauvaisis de 1600 à 1730: Contribution à l'histoire sociale de la France du XVIIe siècle*, démographie et sociétés; 3 ([Paris] S. E. V. P. E. N., 1960), éd. abrégée, et *Cent mille provinciaux au XVIIe siècle, Beauvais et le beauvaisis de 1600 à 1730* (Paris: Flammarion, 1968).

وكان على التاريخ الديمغرافي لا فقط إحياء جزء من ميراث الآباء المؤسسين الذي جمد، وإنما أيضاً إخراج التاريخ الجديد للذهنيات من الانطباعية الطريفة للتقاليد الأدبية وتمكينها من قاعدة إحصائية، وأخيراً عرضها على تأويل واسع النطاق لم يعد من الممكن تحاشيه.

الديمغرافيا تكشف عن الذهنيات

إنها مغامرة عشتها شخصيا. لقد كنت أنا أيضاً في الأربعينات مهتماً بالديمغرافيا ليس عن طريق الاقتصاد، ولكن لأنني كنت مندهشاً أمام الوضع الديمغرافي لفرنسا القرن العشرين مقارنة باختلافاتها مع ديمغرافيا النظام القديم. كيف يمكن أن نفسر تغيراً بهذا الحجم، وهو ما لم يحدث في إنجلترا في الفترة نفسها مثلاً؟

وبالطبع، منذ انطلاق بحثي، على عكس مؤرّخي الاقتصاد، كنت أقل اهتماماً بالديمغرافيا الصرفة، وبآلياتها أو بتأثيراتها السياسية والاجتماعية، من اهتمامي بالمواقف النفسية الخفية التي تبوح بها لمن يعرف قراءة إحصائياتها. كنت انطلق من المعطيات الديمغرافية، ولكن سرعان ما أتخلى عنها للمرور - وربما كان ذلك مبكراً - إلى الواقع الذي تحجبه. لم يكن أناس الماضي يحبّذون الحديث عن هذا الواقع الذهني أمام الحياة والسن والمرض والموت، ولم يكونوا في كثير من الأحيان واعين بذلك. لقد أظهرت جداول مرقمة في الأمد الطويل أنماطاً من السلوك لم يكن من السهل التعرف عليها بطريقة أخرى. وهكذا تبرز الذهنيات في نهاية تحليل الإحصائيات الديمغرافية. هذه التجربة ليس فيها ما هو طريف، بل لقد كانت مشتركة بين مختلف المؤرخين الديمغرافيين من هذا الجيل. ولم يكن ممكناً بالنسبة إليهم أن يبقوا ضمن الحدود الإحصائية لإعادة تركيب

صورة مجموعة من السكان في الماضي، فقد برزت من وراء أبحاثهم أسئلة جوهرية تستدعي تفسيرات نفسية وأنثروبولوجية كانت في الماضي من اختصاص الأطباء والوعاظ ورجال القانون، أو تبدو كما لو أنها تنتمي إلى عالم اللامكتوب، حيث لم يخطر على بال المؤرخين أن يتدخلوا ربما لاعتقادهم أن الظواهر التي تهتم بها الديمغرافيا كانت قريبة من الطبيعة ومن البيولوجيا. وهذا صحيح لأن المقاربات الأولى درست تأقلم السكان مع المعاش وحالة الاقتصاد بصورة خاصة، فتبيّن بسرعة أن هذا التأقلم لم يكن آلياً ولا آنياً، وأنه يوجد ما بين السلوك الديمغرافي ومستوى الإمكانيات ما يشبه النظام البصري الذي يغيّر الصورة الحقيقية: هو نظام الذهنيات. وهكذا انبعث تاريخ الذهنيات للمرة الثانية بفضل الديمغرافيا التاريخية.

جيل ثالث؟

قلبت عودة الذهنيات إلى البروز خلال الستينات الكتابة التاريخية الفرنسية رأساً على عقب. إنه حدث رئيسي. لقد تغيّرت فهارس المجلات الكبرى حتى المحافظة منها، وكذلك مواضيع بحوث الطلبة في مستوى الأستاذية وشهادة الدكتوراه. ونلاحظ خلال السبعينات تراجعاً للمواضيع الاجتماعية/ الاقتصادية، وعزوفاً نسبياً عن المواضيع الديمغرافية التي كانت موجودة في العشرية السابقة، وعلى عكس ذلك وقع غزو لمواضيع كانت في الماضي غير معروفة أو قليلة.

في سنة 1973، نشرت جمعية الديمغرافيا التاريخية عدداً خاصاً من المجلة التي تصدرها لموضوع: «الطفل والمجتمع». ونشرت **الحوليات** سنة 1972 عدداً خاصاً من 433 صفحة حول العائلة، ويمتد

إلى العدد الذي بعده بثلاث مقالات مهمة. كم يوجد من مقال حول الموت وممارسة الجنس والإجرام أو الانحراف والاجتماعوية وفئات الأعمار والضجيج والتقوى الشعبية؟ كان يتردد في الماضي على أرشيف دفاتر العدول المركزي[8] بعض المؤرخين المهتمين بالفن أو بمؤسسات الدولة الكبرى بحثاً عن بعض الأخبار، وعن بعض سير العظماء أو بعض مؤرخي الاجتماع الاقتصادي (للبحث على توزع الثروات). واليوم أصبحت وثائق الوصايا مصدراً لدراسة الذهنيات الدينية مع م. فوفيل وب. شونو وتلامذتهما. يبدو لي أن هذا التحول الكبير والحديث في الكتابة التاريخية قد غاب عن ملاحظ نبيه وحساس مثل ل. ستون. إن هذا الأخير يتحدث عن **الحوليات** في مقال نشر حديثاً[9]، كما لو أنها كتلة لم تتزحزح منذ عصر الآباء المؤسسين إلا بتأثير الزمن وبفعل الإرهاق الناتج من التكرار. لا، **الحوليات** اليوم ليست كما كانت في الماضي، فاليوم فقط يمكن أن نتحدث عن تاريخ للذهنيات بوصفه ظاهرة لها معنى في ثقافتنا المعاصرة. وهذا التاريخ يتجاوز دائرة المختصين الضيقة، فقد دخلت حقل الإعلام، وتباع في بعض الأحيان في أوساط الجمهور العريض الذي اكتسبته، ونسميها ببساطة: «التاريخ الجديد»، ترى ما هو سبب ذلك؟

التاريخ والعلوم الإنسانية الأخرى

قد يكون القارئ المتفطن فوجئ بأنني من خلال دراستي هذه

---

(8) يوجد أرشيف العدول المركزي في باريس ضمن الأرشيف الوطني، وهو مخزن لأرشيف عدول باريس.

(9) Lawrence Stone, dans: Delzell, Charles, ed., *The Feature of History: Essays in the Vanderbit University Centennial Symposium* (Nashville: Vanderbit University Press, 1977).

لنشوء «التاريخ الجديد»، قد تركت حيزاً ضيقاً لتأثير العلوم الإنسانية. في العادة نعتبر أن تأثيرها كان محدداً لما هو أفضل في البداية، وربما اليوم لما هو أسوأ، هذا إذا أحسنت تأويل مقال ل. ستون المذكور أعلاه.

من الأكيد أن علم الاجتماع والإثنولوجيا قد أثرا في لوسيان فافر، وربما أكثر في مارك بلوخ صاحب كتاب: **الملوك صنّاع المعجزات**، ولكن بقدر ما كانت هذه القراءات مثرية لثقافتهما العامة وموسعة لآفاق الفكر، بقدر ما أثارت حبهما للاطلاع. وبالفعل، كان المؤرخون، مثلهم مثل المثقفين عموماً في نهاية القرن التاسع عشر، لا يزالون مقتنعين بالتفوق الجذري لحضاراتنا المنبثقة عن الحضارة الإغريقية الرومانية وعن الديانة المسيحية، وبعبثية مقارنتها بالحضارات البدائية. لقد أسقطت قراءات الإثنوغرافيين على الأقل هذه الأفكار المسبقة، إلا أن تأثيرها لم يكن محدداً بما فيه الكفاية في عمل المؤرخ في فرنسا كما كان ذلك في الجامعات الأمريكية حيث لا يغامر المؤرخ «الاجتماعي» من دون مراجعة العلوم الاجتماعية الأخرى ليستمد منها نماذجه على قدر حجم ملف الوثائق التي بحوزته.

عندما غيرت **الحوليات** اسمها سنة 1946، لأنها أرادت أن تصبح مجلة للعلوم الاجتماعية بما في ذلك التاريخ، ويكون على رأسها المؤرخون[10]. إلا أن **الحوليات**، في الوقت الذي أعلنت فيه توسيع مجالها، أصبحت بالدرجة الأولى اقتصادية كما قيل ذلك من قبل.

---

(10) بعد أن غيرت عنوانها مراراً عديدة في أثناء الحرب، أصبحت **الحوليات** سنة 1946 تحمل عنوان: **الحوليات. اقتصاديات. مجتمعات. حضارات** (*Annales. Economie. Société. Civilisation* (*Annales E.S.C.*).

من الأكيد أنه يجب ألا ننسى أن الاقتصاد كان يبدو حينئذ مفتاح التاريخ، تاريخ اليوم من دون شك، ولم لا تاريخ الأمس أيضاً؟. إن التاريخ يزعم أنه القاسم المشترك لكل العلوم الاجتماعية أو الإنسانية التي يحتويها مشروع **الحوليات** الجديد.

في الواقع، باستثناء الحقل الاقتصادي، حيث ساهم مفكرو الأمس ومنظّرو اليوم في إلهام المؤرخين مبكراً، وحيث استطاع هؤلاء هضمهم بسرعة، كان هناك في 1950 تركيب لمقالات متعددة المشارب أكثر منه تبادلاً حقيقياً بين الاختصاصات.

وما يمكن ملاحظته من تداخل بين التاريخ وبعض العلوم الأخرى لا يفسّر أهمية التغيير الحالي في الكتابة التاريخية في فرنسا. إن هذا التغيير يتوافق في الواقع مع وصول أجيال جديدة من الباحثين. واليوم يوجد خط شبيه بخط الاستواء يفصل بين الباحثين القدامى والباحثين الشبان: إن خط الخمسين سنة من العمر قد سبقه بعض الرواد المتقدمين ببعض السنين.

نهاية الأنوار

كغيره من الأنشطة الفكرية التاريخية الأخرى لم يكن التاريخ بمنأى عن التأثيرات الثقافية الكبرى التي اكتسحت العالم الغربي. لقد أصبح الناس الذين كانت أعمارهم تتراوح بين 20 و35 سنة في أواخر الستينات ينظرون إلى العالم بعين مختلفة عن عين من سبقوهم، إذ تغيّر موقفهم من التقدم الاقتصادي ومزاياه، في حين كان مؤرخو الأجيال السابقة يميلون إلى البحث عن المظاهر التي كانت تهيأ للحداثة من خلال الماضي وإبرازها. وقد اعتبرت الحداثة بوصفها هدفاً أو نتيجةً لهذا التطور: تطور الأنوار. غير أننا ربما نشهد اليوم، في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين، نهاية الأنوار، أو على

الأقل نهاية الاعتقاد في التقدم العلمي والتقني الأصم وفي مزاياه المطلقة. إن المقصود هنا، ليس الاعتقاد في نهاية التقدم في حد ذاته، وإنما نهاية النظر إليه بوصفها ديناً، وبالتالي الاعتقاد فيه. ربما كان ذلك ردة فعل زائلة فقط أمام التصنيع السريع والمفاجئ. لكن مهما كان الأمر، فإن نقد التقدم قد أصبح موضوعاً له دلالته عن مواقف اليوم، خاصة لدى الشباب: لقد انتقل من يمين رجعي كان قد تخلى عنه إلى يسار أو يسراوية غير واضحة المعالم وغير مفهومة، ولكنها صلبة. وأعتقد جيداً (وهو افتراض) أنه توجد علاقة بين التلكؤ الجديد في الستينات والمتعلق بالنمو والتقدم والحداثة والرغبة التي أبداها المؤرخون الشبان في دراسة المجتمعات ما قبل الصناعية وذهنياتها. إن هؤلاء لا يعترفون للتاريخ بمعنى، أي لا يعترفون له باتجاه. ولم يعد هؤلاء يريدون جعل المجتمعات القديمة محطات ضمن تطور مبرمج إلى درجة الارتياب من التزامن والبحث المطلق عن التأثيرات الواقعة أو المحدثة. إن الثقافة التي يدرسونها وقع سحبها من التاريخ وتعييرها بالطريقة التي ينظر بها علماء الإثنولوجيا البنيويون إلى المجتمع الذي يختارونه.

ومن الأمور الغريبة أنه في الوقت الذي كان فيه المؤرخون يميلون إلى التزامن كانت العلوم الإنسانية تتخلى عنه في أكثر الحالات لتبحث لنفسها عن موقع في الزمن الطويل. لذلك بدأت الهوامش الفاصلة بين التاريخ والعلوم الإنسانية الأخرى تتآكل. إنه أمر أحدث مما نعتقد، فهو جاء بعد خمسين سنة من التكامل المعلن بين العلوم، لكنه تكامل لم يمارس.

هناك مثال معبّر يجب تقديمه للتدليل على هذا التردد في مستوى الحدود، هو مثال ميشيل فوكو، واحد من خيرة مؤرخينا، فهو في الواقع فيلسوف، ومر من الفلسفة إلى التاريخ من دون

المرور باستتابة علم النفس أو غيره من العلوم الإنسانية الأخرى (التي شكلت بمثابة الملجأ المؤقت) لفلاسفة جيله. كان في إمكانه، كغيره من علماء الميتافيزيقا أو اختصاصيي العلوم الإنسانية، أن يموقع بحوثه بحسب التزامن أو خارج الزمن، ويبني نظاماً مفاهيمياً خارج الزمن، أو في أمد معين، غريب عن التجربة اليومية. لقد أراد على العكس من ذلك، أن يكون بحثه تاريخاً، أي تاريخ السلط الحديثة عندما تداخلت مع المعارف منذ نهاية القرن السابع عشر واقتحمت المجتمع، كما يروي الدم الجسم.

وقد سمحت تجريبية المؤرخين لهذا الفيلسوف، الذي بقي حقيقة فيلسوفاً، بالابتعاد عن جامعة النظم (وربما نظم الفلاسفة؟) والتفطن للتنوع العجيب للاستراتيجيات الإنسانية والمعنى العميق لهذا التنوع. إنه ولد فيلسوفاً، ليظل فيلسوفاً، وأصبح مؤرخاً بأفكاره، لأسباب ليست بعيدة عن تلك التي تعطي اليوم لتاريخ الذهنيات شعبيته.

بدأنا إذن نفهم أن إنسان اليوم يطلب من نوع من التاريخ ما كان يطلبه من الميتافيزيقا على مر الزمن، وما لم يطلبه إلا بالأمس من العلوم الإنسانية: تاريخ يستعيد مواضيع فلسفية، ولكنه يضعها في سياق الزمن وبحسب التكرر العنيد للجهد البشري.

مفهوم الذهنية

بصورة عامة، وعلى الرغم من الجاذبيات الحديثة العهد للتزامن والاحتراز من «البعد الأحادي» (إدغار موران)، عبّر تاريخ الذهنيات عن اهتمام دائم لفهم جيد لمسألة المرور إلى الحداثة. وهذه بعض الأمثلة.

مثال الضريبة

وقعت استعارة المثال الأول من العمل الحديث العهد لواحد

من سادة هذا النوع من الدراسات، وهو ج. دوبي. لقد بحث هذا الأخير في المعنى الذي كان يعطيه المعاصرون في ذلك الوقت للجباية أو المبادلات التي نضعها اليوم في الحقل الاقتصادي[11].
عنوان الفصل معبّر: وهو «المواقف الذهنية»، وهو يتعلق بما نسميه الضرائب. إنه يقرّبه من الهبة كما يحللها مارسيل موص وعلماء الاجتماع في المجتمعات «البدائية». هذه «الهبات» كانت تقدم للحاكم الذي يرى فيه كل فرد الواسطة الطبيعية بين الشعب بأسره وقوى الغيب: إنه يضمن الرخاء للجميع ويعد بأرض خصبة ومحصول هام وبنهاية الطواعين. هكذا كان الأمر في العصر الوسيط المتقدم. ولكن في القرن الثاني عشر، على رغم التغييرات الحاصلة فقد بقي هذا النظام مختلفاً عن اقتصاد السوق الحديث والمعاصر: «يبدو الواقع الاقتصادي بالنسبة إلى هؤلاء، وبالنسبة إلى أسلافهم القدامى أمراً ثانوياً؛ إنه ظاهرة عرضية. إن البنى الحقيقية هي بنى روحية تنتمي إلى عالم ما فوق الطبيعة». لقد بني نظام تبادلي شاسع ومعقّد بين عالم ما قبل الموت وما بعده يصل عبر قناة الوصية إلى إعادة توزيع الثروات التي يمكن أن تبلغ درجة الإهدار، وهو ما يحيّر إنسان اليوم الذي لا يستطيع فهم ذلك من دون إعادة تركيب، بفعل كثرة الاغتراب، لمجموعة واضحة من عناصر الذهنية. وكان الميل للإنفاق غير الضروري والمحموم قاسماً مشتركاً بين الأغنياء والفقراء، ففي أيام الأعياد يبدّد هؤلاء بصورة بدائية مرابيحهم الهزيلة وثراء الأعيان. يقول ج. دوبي: «في هذا العالم الشديد الفقر لا يجهل العمال الأكثر حاجة أن الأعياد التي تهدف من خلال التحطيم الجماعي والسريع والمرح للثروات في إطار حرمان كوني، ترمي إلى

(11) Georges Duby, *Guerriers et paysans: VII-XIIe siècle, premier essor de l'économie européenne*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, [1973]).

بعث دوري للأخوة وتستجلب رحمة القوى الغيبية».

مثال الزمن

لكي يولد الاقتصاد الحديث، اقتصادنا، وظروفه: الاهتمام بالادخار والرغبة في تأجيل فرحة أصبحت من الآن معتدلة إلى المستقبل، واستثمار المرابيح والتراكم الرأسمالي، وأخيراً تقسيم العمل؛ على قوى الإنتاج أن تغيّر، قبل التكنولوجيا، المواقف الذهنية أمام الثروة والمتعة. في هذا الإطار، كان العصر الوسيط مشقوقاً بتغيّرات ذهنية. وقد حلل منه ج. لوغوف جانباً آخر في عمل بارز «زمن الكنيسة وزمن التجار»[12]. لقد قسمت زمن الكنيسة أصوات النواقيس التي تدعو الرهبان والقساوسة إلى جوقة القداس لأداء أذكار «التوقيت». ولا يزال بعد زمن غير متكافئ بحسب عاداتنا: إن التوقيت اليومي مقسم على الطريقة الرومانية لفترات تساوي تقريباً ثلاث ساعات، وتوقيت الليل مقسم بين الصلاة والراحة تتخلله صلاة الستار وصلاة السحر وتسابيح الفجر. إنها ساعات ثابتة تفرض نوعاً من الانتظام على الفلاح في عمله اليومي، على رغم أنها تمتد من دون تدقيق من شروق الشمس إلى غروبها. إن زمن الفلاح وزمن الراهب يتعايشان على رغم أنهما ما زالا لم يتطابقا بصورة كلية. وتغيّرت الأوضاع مع ما سمّاه ج. لوغوف «زمن التاجر» وهو «زمن للعمل أيضاً»، زمن عليه أن يستعير من الكنيسة ناقوسها، ناقوس العمل، ناقوس علّقه عمال مدينة أميان (Amiens) في برج المدينة، وكان يمكن لهم قرعه عندما يذهبون إلى العمل في

---

(12) Jacques Le Goff, «Temps de l'église et temps des marchands,» dans: *Pour un autre moyen âge: Temps, travail et culture en occident: 18 essais*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, [1977]).

أيام العمل، وعندما يتوقفون للأكل، وعندما يعودون إلى شغلهم بعد ذلك...».

ولكن حدث أمر مدهش ومثير، فليس هناك أكثر محافظة وأكثر صموداً من قياس الزمن. لقد كان زمن العمل نسخة من زمن الكنيسة، أي بحسب أوقات القداس الرباني. إنه يبدأ مع صلوات الصباح حوالى الساعة السادسة، وينتهي مع صلوات الزوال (None)، أي حوالى الساعة الثالثة بعد الزوال. وبذلك يكون قد انتهى النهار. كان ذلك يعني في روما إما زمن الذهاب إلى الساحة العامة أو زمن الذهاب إلى الحمام، وفي الجملة «النهار المتواصل». ولكن في القرن الثالث عشر أصبح هذا الزمن لا يستجيب لحاجيات التجار بوصفهم مشغلين ولا لحاجيات العمال من جهة، ومن جهة أخرى لم يكن هناك تفكير في إمكانية خلق زمن آخر أكثر ملاءمة (الزمن الذي فرضته في ما بعد شيئاً فشيئاً الساعة الميكانيكية). إذن وقع التصرّف في زمن الكنيسة بمكر ليستجيب لزمن العاملين بنوع من التراضي. لقد كتب ج. لوغوف: «لاحظنا أنه من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر، هناك عنصر من عناصر التوقيت اليومي يتطور: التاسعة أولاً، وهي تقابل ساعتنا الثانية والنصف بعد الزوال تتقدم ببطء لتستقر في حدود منتصف النهار (ومنها تسمية الإنجليز بمنتصف النهار: «نون» (Noon)). ويواصل جاك لوغوف قائلاً: «إن «التاسعة» هي فترة استراحة عامل البناء في المدينة الخاضع لنواقيس الزمن الكنسي. هنا يمكن أن نلاحظ نوعاً من الضغط ... بلغ بتحويل ساعة الزوال إلى خلق تقسيم هام لزمن العمل: نصف النهار الذي سيتأكد في القرن الرابع عشر». فها هو إذن بدأ يظهر وقتنا العصري المقسوم إلى نصفي يوم الصبح والمساء يفصل بينهما وقت الغداء الطويل الذي يجب عدم المساس به. إنه مثال دقيق في ظاهره فقط،

لكن كل ما له علاقة بعمليات التكرار العادية للوجود أصبح سمة مميزة للذهنية. وهو مثل مميز لكل ما نسميه ذهنية، والذي يبرز أكثر عندما تتغير هذه الذهنية كما حدث في العصر الوسيط الثاني.

مثال الماكر

إنه حول السحر، وفي مقال صادر في **الحوليات** سنة 1948 عبّر لوسيان فافر بأكثر قوة عن موقفه بوصفه مؤرخاً من مسألة اختلاف الذهنيات: «يجب أن تكون ذهنية الناس الأكثر تنويراً في نهاية القرن السادس عشر، وفي بداية القرن السابع عشر (القضاة) مختلفة في بنيتها العميقة وبصورة جذرية عن ذهنية الناس الأكثر تنويراً في عصرنا». إنه نوع من التعارض الواضح الذي دائماً أقبله شخصياً، ولكنه بحسب ما يبدو لي أنه قد يحرج اليوم مؤرخي الذهنيات الشبان. إن هؤلاء يميلون إلى تعويض التغيّرات الكبرى للمرور إلى الحداثة بتغييرات صغرى أكثر تعقيداً، وأكثر تناقضاً، وأكثر امتداداً في الزمن، وحيث إن المرور إلى الحداثة الذي أصبح مشكوكاً فيه من جهة أخرى تكون له حظوظ أكثر ليتحلل.

وفي كل الحالات كان تحليل النفسية التاريخية الذي قام به ر. ماندرو[13] ولا يزال، في أناقته المعتدلة، نموذجاً كلاسيكياً لدراسة الذهنيات (عبارة قلل من استعمالها مستعيضاً عنها بـ «البنية الذهنية» كلما لم يستطع تلافيها). ها هو المشكل كما طرحه: «في بداية القرن السابع عشر، كانت المحاكمات بتهمة السحر أهم النشاطات القضائية غير الدينية . . . هذه المؤسسة الضخمة التي يملأها أناس متعلمون

---

(13) Robert Mandrou, *Magistrats et sorciers en France au XVIIe siècle: Une Analyse de psychologie historique*, civilisations et mentalités ([Paris]: Plon, [1968]).

بما فيه الكفاية (ولكنهم ما زالوا لم «يتنوروا») تطارد عباد إبليس بلا هوادة (إلا بعض الاستثناءات)، وهم دعاة ضلالة مرعبة تضع خلاص الناس في خطر. وفي نهاية القرن تخلت البرلمانات عن هذه التهم، ولم يبق لهم إلا الاعتراف بالرعاة المسممين والمحتالين الذين يستغلون سذاجة الجمهور والمتظاهرات بالتقوى. كيف يمكن لفقه قضائي مرتكز بصلابة طيلة قرون من الممارسة المتواصلة أن يجد نفسه محل تساؤل ومرفوض، وفي النهاية يقع التخلي عنه في بضعة عقود؟ سؤال يستحق أن يطرح...، إنه كل «المحيط الذهني» للقضاة (وللمتهمين) الذي يوضع موضع شك بما أن جرائم إبليس اليومية وشركاءه تؤكد الوجود الشيطاني في العالم... من خلال هذه الإجراءات القضائية. إن كل تصوّرات السلطة على الطبيعة، وعلى بقية الناس، والتي يمارسها الإنسان والله والشيطان، تجد نفسها مورطة وفي النهاية مرفوضة. (...) في كلمة واحدة يمثل التخلي عن تبعات الناس من أجل جرائم السحر، انحلالاً لبنية ذهنية كانت مثلت جزءاً لا يجزأ من هذا التقسيم للعالم «طيلة قرون».

في نهاية تحليل هذا التحوّل الذي امتد على قرن من الزمن، والذي سنناقش تأريخه ومراحله، وليس معناه في شكله المكثف، نشهد انبثاق ما نسميه الحداثة: «وليس فقط التطور العلمي وحقيقة العلوم التي يفاخر بها القرن الثامن عشر، وليس فقط النقاشات الفكرية التي ساهم فيها الفلاسفة كل من ناحيته، ولكن «العديد من حالات الوعي» التي تضع أساليب الفكر موضع شك وتتحسس «البنى الذهنية» المتأصلة والمكوّنة من رؤى للكون موروثة عن ماض سحيق ومعترف بها من طرف بعض المجموعات، وربما من طرف «كل المجتمع» الشمولي. إن التحول الأساسي هو التالي: «توقف الله والشيطان عن التدخل يومياً في المسار الطبيعي للأشياء وفي الحياة العادية للناس».

وبعد التفكير، إن هذا ليس صحيحاً بالنسبة إلى الله، كما تثبت ذلك «صلوات الفرنسيين السرية اليوم» للأب سيرج بونيه[14] (Serge Bonnet)، ولكن ذلك صحيح بالنسبة إلى الماكر، وبالنسبة إلى الشر بصورة عامة. لقد بدآ يومئذ تقهقرهما، وهو تقهقر متواصل اليوم بفعل القضاء على الألم الجسماني والمرض والعذاب، وإلى حدّ ما على الموت.

مثال منع الحمل

سيكون مثالي الأخير مأخوذاً من التاريخ الديمغرافي. وهو يبيّن جيداً كيف بدأ التاريخ بتأويل المعطيات الاقتصادية أو الديمغرافية بطريقة مختلفة عن طريقة علماء الاقتصاد أو علماء الديمغرافيا، قبل أن يدخل قارات جديدة. إنه يجسّم المرور من التاريخ الديمغرافي الصرف إلى تاريخ الذهنيات التي تحدثنا عنها آنفاً. والمثل هو مثال منع الحمل.

نعرف أن المجتمعات التقليدية قد عرفت نظاماً ديمغرافياً كأسنان المنشار، حيث تتعاقب فترات الوفيات المرتفعة نتيجة للأوبئة والمجاعات، وفترات أخرى سريعة التعويض نتيجة لتواصل الولادات المرتفعة.

تؤدي بعض التعديلات دورها، مثل سنّ الزواج المتأخّر أو عقم النساء في فترة الإرضاع. . . هذا لا يمنع وجود عدد من حالات الحمل كان مرتفعاً ويهدّد صحة الأمّهات وحياتهن، والناس يعرفون ذلك، ويمكن أن تكون هناك رغبة في التقليل منه بطريقة أخرى غير الإجهاض، أي بالتعفف أو بقتل المواليد. غير أنه يبدو أن الأزواج

---

(14) Serge Bonnet, *Prières secrètes des français d'aujourd'hui*, épiphanie (Paris: Editions du cerf, 1976).

لم يحاولوا أبداً التحكم في الممارسة الجنسية وبصورة جدية، لمنع دورها الإنجابي. بلا شك، هناك أساليب كانت معروفة وتصفها دلائل الاعتراف وكتب التوبة وكتب الأخلاق. في الواقع، إنها لم تكن مستعملة. وبصورة مفاجئة أو تكاد، في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، على الأقل في فرنسا، انتشرت هذه الأساليب إلى درجة أنها غيّرت التطور العام للسكان، وهرمت: نرى بوضوح آثار بدايتها وانتشارها من خلال إحصائيات السكان.

وقد قدمت إجابتان حول هذه المسألة.

إن البعض (وأنا واحد منهم) يرى في ذلك تغيّراً في الذهنيات. وحتى ولو أنها لم تكن كثيرة الوضوح، فقد كانت ثنائية الممارسة الجنسية (الجماع) تتطلب قدرة على التصور وضبطاً للنفس لم يكونا «ممكنين» في المجتمع القديم، ولكنهما أصبحا ممكنين في القرن التاسع عشر.

أما البعض الآخر، فقد استغلوا على عكس ذلك التحريمات التي أصدرها رجال الدين ليستنتجوا أن الممارسة الوقائية من الحمل كانت مألوفة أكثر مما يتصورها الناس، وإن لم تكن منتشرة كثيراً، فذلك لأن الرقابة الكنسية الصارمة للأخلاق والخوف من العقاب وغياب الإشهار وقفت حاجزاً أمام انتشارها. لقد بدأت هذه الممارسة عندما بدأت الموانع الكنسية تتلاشى، إذ حررت الحركية المجالية، ودنيوت الأخلاق الضمائر وحلّت عقد اللسان.

في الحالة الأولى وقع التركيز على الذهنيات، وفي الحالة الثانية كان هناك ميل إلى البحث عن أسباب أخرى لهذا التغيير، وهي أسباب ليست خاصة، بل مشتركة مع ظواهر أخرى سياسية ودينية واجتماعية/ اقتصادية.

إن المؤرخين الذين أرادوا تبيان تواصل منع الحمل - حتى عندما كان قليل الاستعمال - يستشهدون بالأدبيات الدينية. وفي الواقع، إن النصوص غامضة، تندّد بممارسات مخالفة للطبيعة، والتي قد يرى فيها قارئ «بلاي بوي» (Play-boy) وفن الجنس الياباني ضروب التهييج الجنسي، الا أنها تبدو للمؤرخين الديمغرافيين كشكل من أشكال منع الحمل. إن التهييج الجنسي يكون عقيماً بلا شك، إلا في حالات عرضية، ولكن يجب أن نتفق على أن العقم ليس هو الهدف المنشود. إننا نرى إذن أنه من هذا النقاش الديمغرافي الأصل يتولد تاريخ الجنس الذي هو اليوم في مقدمة المكتشفات العلمية. وليس هناك شك في أنه لم يكن يوجد ما يراه اليوم ج. ل. فلندران ول. ستون وم. فوكو دون سلفه الديمغرافي.

مجال المؤرخ

تبيّن هذه الأمثلة كيف أحدث - أو تضمن - إدخال مفهوم «الذهنية» تمططاً عجيباً لـ «مجال المؤرخ»، كما عبّر عنه ب. نورا وإ. لو روا لادوري. وقد شمل هذا المجال، في واقع الأمر، منذ الستينات، كل ما يمكن للملاحظ الاجتماعي تحسسه من دون استثناء. لقد توسع حقل التاريخ ليتجاوز حدوده القديمة، وفي الوقت نفسه عاد إلى مجاله القديم الذي كنا نعتقد أنه تم مسحه بصورة جيدة: إن المؤرخ اليوم يعيد قراءة المصادر التي اعتمدها أسلافه، ولكن من زاوية جديدة ومن منظار جديد. كانت المواضيع التي وقع التعرض إليها هي المواضيع التي كان قد هيأها التاريخ الاقتصادي الديمغرافي، ومن ذلك: حياة العمل، والعائلة، وعمر الحياة، والتربية، والحياة الجنسية، والموت، وهي المواضيع التي توجد على هوامش البيولوجي، والذهني، والطبيعي، والثقافي. وتشكل اليوم المنشورات حول هذه المواضيع، والتي لم تكن ممكنة منذ خمسين

سنة خلت، مجموعة متناسقة ومكتبة شاسعة. إنه المجال الأول الذي اكتسبه تاريخ الذهنيات.

هناك مواضيع أخرى أقل ألفة تدفع البحث، من ذلك: التغيّرات البدنية (كالقامة ولون العيون وطريقة المشي وغيرها)، والتغذية (وهي من الخصائص الأساسية للثقافة)، والصحة والأمراض وطاعون الدكتور بيرابان (Biraban)، وأمراض النساء لـ أ. شورتر (E. Shorter)، والانحراف (كل مجتمع له علاقة معينة بالقضاء) من خلال بحوث نيكول كاستان (Nicole Castan) والاجتماعوية التقليدية، أو اجتماعوية القرن التاسع عشر، وهي ربما واحدة من المكتسبات الثرية لـ **التاريخ الجديد** مع أ. لو روا لادوري وإيف كاستان (Yves Castan) وم. أغولون وغيرهم.

إن المؤرخ يبحث عن مفاتيح الاستراتيجيات الجماعوية، وعن نظام القيم والتنظيمات الجماعية، أي أنه يبحث عن مختلف القنوات التي تكون ثقافة ريفية أو حضرية، شعبية أو نخبوية. ونلاحظ، ولو بصورة عرضية، الأهمية الحالية للمعطيات المتعلقة بالجنوب في كتابة تاريخية كانت تركّز على فرنسا الشمالية والشرقية، أي أنها كانت تركّز على فرنسا الناطقة بالأويل (Oïl) وتمارس الكتابة.

لنواصل هذا التعداد المنقوص بالأعياد وبتواصل الاجتماعوية ووهنها (م. فوفيل وإ. م. برسيه (Y. M. Bercé)) والمأثورات الشعبية، وبانقلاب الأحداث التاريخية الحديثة إلى أساطير (**الكاميزار وقدماء المحاربين**). ونهايةً مؤقتة لهذا التعداد، نذكر الدين الشعبي الذي احتل مكانة أساسية في الكتابة التاريخية من خلال العديد من الملتقيات والمنشورات في فرنسا (ج. دولومو) وفي إنجلترا (ك. توماس)، وفي إيطاليا (ك. غينزبورغ) وفي الولايات المتحدة الأمريكية (ن. ز. دافيس).

تاريخ يهتم بالخصوصيات الجهوية أكثر من الاهتمام بالفروق الاجتماعية

إن المواضيع التي ذكرتها كانت قد درست في أغلب الأحيان في إطار جغرافي محدد، أي في إطار تاريخ جهوي. وقد كان تاريخ الذهنيات الجديد منتبها إلى الخصوصيات الجهوية بالدرجة نفسها من اهتمامه بالفروق الاجتماعية. وهذه الخاصية هي خاصية مشتركة بين أجيال **الحوليات** الثلاثة، وكان ذلك نتيجة للتأثير العميق الذي مارسته على المؤرخين الفرنسيين أعمال الجغرافيين الكبار في بداية القرن العشرين والمتجمعين تحت اسم المؤسس (مدرسة فيدال دي لابلاش). كان هذا الأخير قد كتب التقديم الجغرافي لـ **تاريخ فرنسا** الضخم الذي أشرف عليه أ. لافيس.

هؤلاء الجغرافيون الذين كان يبلغ عمر الواحد منهم مائة سنة أو أكثر، كانوا في الحقيقة من الرواد الأوائل لـ «التاريخ الجديد» الذي أسسته **الحوليات**. وقد ساهم واحد منهم هو أ. دومنجون مع لوسيان فافر في إعداد كتاب: **نهر الراين** (*Le Rhin*).

وكانت أطروحات الجغرافيا حول الجهات، مثل: **جهة الفلاندر** لصاحبها ر. بلانشار (R. Blanchard)، **ومنطقة بيكاردي** (*La Picardie*) لدومنجون، النموذجيْن الأوليْن لتاريخ ثقافي جهوي.

كان التاريخ الجهوي في البداية عبارة عن تقسيم جهوي للتاريخ السياسي الوطني. وتعتمد الأحداث التاريخية التي دارت وقائعها في الجهات والمؤسسات الجهوية، السياسية منها والدينية، وسير الشخصيات التي ولدت في الجهات. لقد استعمل هؤلاء الجغرافيون في الوقت نفسه دراسة المجال الحالي ووثائق الأرشيف القديمة لإبراز **الخصائص المميزة**، ونستعير ما قاله مارك بلوخ في حديثه عن الجهة: الخصائص التي تعطي للجهة وحدتها. والجغرافي، وهو

إنسان الحاضر الذي يريد تفهمه، كان مدفوعاً إلى العودة إلى ماضي مؤرخي الوقائع، من بين زملائه، ولكنه ماض غير سياسي كان قد أهمله هؤلاء المؤرخون، وهو الماضي الذي يحبذ إبرازه مؤرخو المستقبل. لقد نشر دومنجون دليلاً لمخازن الأرشيف التي تهم الجغرافيين، وبذلك تكون الجغرافيا البشرية قد أثرت كثيراً في مؤرخي سنوات 1930 ـ 1940.

حدثت ظاهرة انتقال غريبة في ما بعد، فبداية من 1940 وحتى 1950 انزلق التاريخ الجهوي من الجغرافيا البشرية إلى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وبصورة أشمل نحو التاريخ الثقافي والأنثروبولوجي. وأعتقد أن الجغرافيا قد تألمت من هذا الانتقال الذي أفقرها. أما التاريخ، فقد ربح من ذلك الكثير، فأصبحت الجهة التي تخلت عنها الجغرافيا لفائدة التاريخ إطاراً ضرورياً لبحث مجدد من خلال أعمال أجيال **الحوليات** الثلاثة: **فرانش كومتاي** (*Franche Comté*) للوسيان فافر، **والخصائص المميزة** لمارك بلوخ، **والمتوسط** لبروديل، **ومنطقة البوفايزيس** (*Les Beauvaisis*) لبيار غوبار، والأطروحات الكبرى حول الولايات: **منطقة اللانغدوك** لإمانويل لو روا لادوري وإيف كاستان، والمونوغرافيات الجهوية حول ثورات الفلاحين في القرن السابع عشر وغيرها من الأعمال. ويمكن أن نزعم اليوم بلوغ التاريخ الكلي لجهة مندمجة في ثقافة أو شبه ثقافة، إذ أدت هذه المقاربة الجديدة في فرنسا إلى توفر سلسلة من تاريخ الجهات تحت عنوان: **عالم فرنسا** التي أشرف عليها ب. وولف[15]. وقد أرادت هذه السلسلة أن تكون تاريخاً للثقافات الجهوية، فهي تجمع منتوجاً ضخماً لكتابة تاريخية مجددة.

---

(15) «L'Univers de la France» collection dirigée par P. Wolff (Toulouse: Privat).

تفهم الاختلاف

تجمع بين هذه الأمثلة، التي يمكن أن نضيف إليها أمثلة أخرى، رؤيا اختلافات بين الذهنيات، بعضها يفترض أنه معروف، أو ببساطة أنه معروف، ويمكن اعتباره «شاهداً» يمكن الرجوع إليه، والبعض الآخر غامض ويطرح تساؤلات حول مجال مجهول يتعهد باكتشافه. ولكن الاكتشاف في هذا المضمار هو تفهّم اختلاف قبل كل شيء. إن وجود التفهم بين أناس من ثقافات مختلفة اليوم أمر نادر، وهو ما نعرفه جيداً في بلداننا من مصادمات عرقية مقنعة وملتوية.

والتفهم أمر صعب بين ثقافتين متباعدتين في الزمن، ولكنه يمكن أن يتولد عن اكتشاف بعض التشابه مع ذهنية الأنا المعاصرة المعروفة ببساطة في ذهنية الآخر؛ وهي حالات الاستمرار. ويمكن أن يتولد التفهم أيضاً من ملاحظة اختلافات جذرية. إن الاختلاف يصبح في هذه الحالة شرطاً للتمايز وتفهمه، وهو يفصل ثقافة الآخر عن ثقافتنا ويعطيها ميزتها. لهذا تبدو أي ثقافة أخرى بالنسبة إلى ثقافتنا المعاصرة ثقافة مغايرة لثقافتنا.

بالفعل، وبصورة عامة، تتعقد الإستراتيجيا، ويحل محل حاضرنا ماض مرجعي، أو ماض أصولي، ليحدّد المميزات الخاصة لماض هو الماضي الذي يجب أن نتعرّف عليه. إن المشهد إذن هو: الحاضر ثم ماض أول، ثم ماض يجب التعرف عليه، ثم عودة جدلية إلى الماضي الأول، والماضي الثاني، إلى الحاضر[16]. إن

---

(16) هذا مثال غير مباشر على المدى الطويل. قرأت في مقال لبول فاين (P. Veyne) حول «الحب في روما» أن المجتمع الروماني كان يلجأ إلى التبني بالتنافس مع البنوة الطبيعية. إن هذا الأمر يهمني في حد ذاته، ولكنه يجعلني أفكر في المواقف المختلفة لمجتمعات العصر الوسيط والعصور الحديثة التي كانت مهووسة بانعدام الخلف، ولكن التبني لم يكن معمولاً =

ذهنيتنا المعاصرة، التي نسميها الحداثة، هي التي يمكن اعتبارها سبباً في حب الاطلاع المؤرخي، وفي رؤية الاختلافات. إذاً، لن تكون هناك اختلافات من دون الوعي بالحداثة، ولن يكون هناك تاريخ ولا حتى عدم الاختلاف، بمعنى مسألة الاستمرارية، إذ لا يمكن رؤيتها.

لماذا تاريخ للذهنيات؟

تاريخ الذهنيات إذن هو تاريخ ذهنيات الماضي، وليس الذهنيات الحالية. ويمكن تفسير الإعجاب الذي يبدو أن هذا التاريخ يمارسه اليوم، وليس منذ زمن بعيد، ربما بحادث خطير تعرضت له ذهنيتنا اليوم.

كان إنسان العصور الكلاسيكية، وإنسان عصر الأنوار، وإنسان التقدم الصناعي، أي الإنسان الغربي، من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين، متأكداً من تفوّق ثقافته. إنه لم يكن ليقبل فكرة أنها لم تكن دائماً موجودة، حتى ولو أن فترات من الانحطاط قد قطعت هذا التواصل. إنها عادت من جديد مع عصر النهضة، فالكتابة التاريخية الوضعية في القرن التاسع عشر، وفي بداية القرن العشرين، تقرّ بوجود تفاوت تكنولوجي واقتصادي «وبعض التأخر» الناتج من قلة المعرفة ومن الانحطاط، ولكن من دون الإقرار بالاختلافات في مستوى الرؤى والحساسيات.

لقد ضعفت هذه الاعتقادات. وإنسان اليوم لم يعد مقتنعاً لا بتفوق الحداثة (وقد لاحظنا ذلك بعد)، ولا بتفوق الثقافة التي يبدو أنها هيأت للحداثة منذ اكتشاف الكتابة. إنه يرى ثقافات مختلفة، وفي

= به. وفي النهاية، يقفز تفكيري إلى مجتمعاتنا المعاصرة، حيث يسمح التبني للآباء بحرية كبيرة في الاختيار ويصبح شائعاً، ولكنه يصطدم ببعض المعوقات النفسية والقانونية.

الوقت نفسه مهمة، حيثما كان المؤرخ الكلاسيكي يرى حضارة وبربريات. إن هذا الأخير كان مندفعاً وراء البحث عن المتشابهات بالنسبة إلى مثل أعلى. أما اليوم وعلى العكس، فقد تفوّق البحث عن الاختلافات على البحث عن المتشابهات.

وهذا ما يفسر أن التحول في الكتابة التاريخية الذي وصفناه آنفا، وهي ذات أصول وسيطية وحديثة، قد ظلت لفترة من الزمن على عتبة التاريخ المعاصر: لقد كان هذا التاريخ المعاصر نتاجاً فكرياً للإنسان حول الزمن الذي يعيشه، وهو زمن يكثر فيه الشبيه ويقل المختلف. غير أن كثافة هذه الحقبة من التاريخ في تراجع: إن الفترة التي يبدو فيها الماضي مختلفاً عن زمني أنا تبدو قريبة أكثر فأكثر: وهو ثأر عجيب للتاريخية.

إننا نرى إذن أمام أعيننا كتلاً كاملة مما كنا نعتقد في الأمس أنه تاريخنا اليوم الذي ينفصل ليغوص في خضم الاختلافات أو يلتحق بكل المجتمعات التقليدية. لذلك فهي تخضع مستقبلاً إلى مناهج التمييز النفسي والإثنولوجي لتاريخ الذهنيات، ويساهم «تاريخ الذهنيات» هذا بدوره في الإسراع بتحول تلك الكتل إلى ماض. ومثالاً على تقويض التاريخ المعاصر بمقاربات «تاريخ الذهنيات» ما تقدمه أعمال م. أغولون الذي جعل من القرن التاسع عشر حضارة مفردة وتحولت بفعل تحاليله تقريباً إلى حضارة أجنبية، مثلها مثل حضارة النظام القديم بمظاهرها الاجتماعوية الخاصة مثل المقهى والنادي[17].

---

(17) Maurice Agulhon: *Pénitents et francs-maçons de l'ancienne Provence*, l'histoire sans frontières (Paris: Fayard, 1968), et *Le Cercle dans la France bourgeoise: 1810-1848, Etude d'une mutation de sociabilité*, cahiers des annales; 36 (Paris: Armand Colin; Ecoles des hautes études en sciences sociales, 1977).

بيّن ر. جيراردیه من جانبه ذهاب المؤرخ وإيابه بين عهدين متقاربين، ولكنهما يتباعدان. لقد بيّن كيف انتقلت الوطنية العسكرية الفرنسية في القرن التاسع عشر من اليسار إلى اليمين، كما كان الحرص في القرن العشرين على الخصوصيات العرقية قد انتقل من اليمين الاستعماري المميز للمحليين، مثل ليوتاي (Lyautey) أو ديلافينيات (Delavignette)، إلى اليسار الثوري ضد ـ الغربي مثل فانون[18]. يسمح تحليل هذا النقل للأفكار والحساسيات بطرح فترات من الحاضر وترقيقه حتى يصبح أكثر شفافية.

وهكذا قد يقترب منا الماضي، وهو زمن الاختلاف، ويصبح شيئاً فشيئاً من الصعب تجاهله، كما لم يعد من الممكن بالنسبة إلينا تجاهل الفن الزنجي والفن الهندي أو الفن ما قبل الكولومبي: إنه يحرق أصابعنا. تحاصرنا اختلافات كل العهود، ولكن تبقى اليوم نظرتنا الساذجة والآنية إلى حاضرنا هي ملاذنا الوحيد في الزمن. أليس التقارب الحديث بين الحاضر والماضي هو الباعث الحقيقي لتاريخ الذهنيات؟

لقد سمح تبني الحاضر بوصفه مرجعيةً ثابتة، على رغم معاني الاختلاف، وعلى رغم رفض التمايز الثقافي، بتوجيه التاريخ نحو تصور بسيط جداً لتثاقف رائع وممتد في الزمن، كان قد عوض منذ العصر الوسيط الثاني حداثتنا بصورة تدريجية، ولكن من دون توقف، بالثقافات التقليدية. لقد توصلنا إلى تفضيل الحداثة، كما ميّز التاريخ الكلاسيكي «الحضارة الغربية».

هناك طرق شتى للهروب من هذا الإغراء، منها تبديد مسألة

---

(18) Raoul Girardet, *L'Idée coloniale en France de 1871 à 1962*, mouvements d'idées (Paris: La Table ronde, [1972]).

النماذج الذهنية، أي رفض فكرة النماذج المتناسقة والمكثفة وتعويضها بكوكبة من العناصر الصغرى المحدودة الاستمرار، تجمع بينها لفترة من الزمن ظروف أسبابها متعددة ومستقلة عن بعضها (سياسية ودينية واقتصادية)، ومن دون أن تكون واحدة منها هي الغالبة، بل تنحل الواحدة في الأخرى في تغيّر دائم. وهو ما يشبه تقريباً طريقة ل. ستون، ويبدو لي أنها أصبحت منتشرة.

وهناك طريقة أخرى تتمثل في تجنب مسائل التأصيل التي جعلت من المؤرخين لفترة طويلة من الزمن كما لو أنهم بمثابة خبراء جينات أو مصنّفين (خاصة في تاريخ الفن). في هذه الحالة نستسلم لضغط الآنية كما بيّناه أعلاه. إنه يعزل المؤرخ كتلة من الماضي، كما يختار عالم الإثنولوجيا مجتمعاً متوحشاً، ويدرسه مبتعداً عن مسائل التأصيل والتعقيب. إنه التاريخ الإثنولوجي، ومثله الكلاسيكي الذي لا يزال شديد التأثر بالتغيير، وهو: **مونتايو، قرية أكسيتانية من 1294 إلى 1324** لإمانويل لو روا لادوري، إذ تبدو علاقته بالحداثة في بعض الأحيان منعدمة، ولكن هل هو كذلك حقيقة؟ ألا يبدو ذلك ترميزاً من المؤرخ ولو من دون وعي؟

دعوة اللاوعي الجماعي؟

يمكن أن نتساءل عن البحوث الحديثة في مجال المعتقدات الدينية الشعبية أو في مجال نشر تعلم القراءة والكتابة ما إذا كانت قد أبرزت مفاهيم قادرة على تذليل الصعوبات التي أثارتها علاقة الحاضر بالماضي؟ يبرز هذا المفهوم بالنسبة إلى تداخل العنصريْن الثقافيّين الأساسيْين اللذين ما فتئا يتعايشان في مجتمعاتنا منذ اختراع الكتابة. وبحسب التعبير القوي لفرنسوا فوريه وج. أوزوف، فإن ثقافاتنا هي «ثقافات هجينة» سواء كانت شفوية أو مكتوبة، وربما يعود نسق

تاريخهما إلى الحركة المثلية للشفاهي والكتابي والمراوحة بين ما كان يسميه المؤرخون «فترات التدهور» وفترات النهضة، وفترات التراجع والتقدم. إن تاريخ الذهنيات يتأثر بتوارد تياراته وتباعدها. وهو يسمح لنا حينئذٍ باكتشاف ما هو مترسب وخفي ولا واع في ثقافتنا اليوم، حيث تسيطر عقلانية الكتابة، من بقايا الثقافات الشفوية المكتوبة في شكل ترسبات مستترة أو في شكل أوهام وفراغات مفتوحة.

يفسّر نجاح علم النفس الطبي في النصف الأول من القرن العشرين بتسكينه حيرة الأفراد. وهو ما يجعل اليوم الاهتمام بـ «تاريخ الذهنيات» ظاهرة من القبيل نفسه، حيث يستعاض عن اللاوعي الفردي الذي يتحدث عنه فرويد أو يتنضد فوقه اللاوعي الجماعي الذي تشجعه الثقافات الشفوية وتكبته الثقافات المكتوبة.

ولكن ما هو اللاوعي الجماعي؟ من الأفضل ربما أن نقول ما لم تكن الجماعات واعية به، والجماعي هو مشترك المجتمع في فترة ما من تاريخه. إن غير الواعي هو ما كان غير مشعور به أو مشعوراً به بصورة منقوصة من طرف معاصريه لأنه جزء من الطبيعة، من أفكار مسبقة أو أفكار في الخيال، وأماكن مشتركة وأعراف متفق عليها، وقيم أخلاقية وانضباطات وممنوعات، ومقولات مقبولة مفروضة أو مرفوضة من العواطف، وجملة من التهيؤات.

إن المؤرخين يتحدثون عن «بنية ذهنية»، وعن «رؤية للكون» للتعبير عن الخطوط المتناسقة والدقيقة لكل ما هو نفساني وفرض نفسه على المعاصرين من دون أن يعلموا بذلك. وربما يشعر ناس اليوم بالحاجة إلى إبراز مشاعر الماضي الدفينة في ذاكرة جماعية عميقة ووضعها على سطح الضمير.

إنه بحث باطني للحكم المغمورة: إنها ليست حكماً أو حقائق

خارج الزمن، ولكنها حكم تجريبية كانت تنظم العلاقات العائلية للمجموعات البشرية مع كل فرد، ومع الطبيعة والحياة والموت والله وعالم الغيب.

تاريخ الثقافة المادية

جان ـ ماري بيساز(*)

في سنة 1919، خلال الحرب الأهلية، وقّع لينين (Lénine) قرار تأسيس أكاديمية التاريخ والثقافة المادية في الاتحاد السوفياتي. وقد برزت من خلال ذلك أهم الأحداث والمواصفات التي تعنى بمفهوم الثقافة المادية وارتباطها الواضح بالمادية التاريخية والأهمية التي يوليها الماركسيون لها، وبروزها في بلد اشتراكي وعلاقتها المميزة بالتاريخ. وإذا أضفنا إلى ذلك أن الأكاديمية الجديدة قد حافظت على مهام هيئة آثار النظام القيصري مشيرة إلى أن المنهج الأثري هو أحسن السبل للوصول إلى تاريخ الثقافة المادية، فإننا ننهي ملامح المفهوم والبحوث المترتبة عليه.

يعتبر حدث الولادة الذي يمثله قرار لينين حدثاً متأخراً نسبياً. ويجب ألا نعجب لذلك: إنه يفسّر بضرورة فترة نضج إيبستيمية

(*) ولد سنة 1929، مبرز في التاريخ ومدير أبحاث في مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية، ومدير مساعد لمركز التاريخ والآثار الوسيطية في جامعة ليون الثانية. وهو ينشط فريق «أنثروبولوجيا القرى الوسيطية» ضمن متحف الفنون والتقاليد الشعبية. وهو عالم آثار، أشرف على العديد من الحفريات التي اهتمت بالقرى الوسيطية في منطقة بورغونيا (Bourgogne) وصقلية وبلاد اليونان.

طويلة ضمن هذا التجديد الرائع للفكر العلمي الذي ميّز النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ليست هناك فكرة جديدة غريبة عن ظهور الوضعية والعلموية اللتين طبعتا تيار الأفكار المجدّدة في ذلك الوقت.

لقد وجب خاصة انفلاق غلّ الآداب الجميلة الضيّق الذي حصرت فيه الإنسانوية دراسة الإنسان: كان يجب أن توضع أسس العلوم الإنسانية وعلم الاجتماع، وأخيراً الإثنولوجيا، كل ذلك من دون أن ننسى علوم الإنسان الطبيعية التي يقترحها داروين. لقد كان عمله الحاسم: **أصول الأجناس** (*On the Origin of Species*) سنة 1859، ولم يكن كونت في ذلك التاريخ قد اقترح بعد مصطلح «علم الاجتماع»، في حين كان مصطلح «المجتمع العتيق» الذي أتى به مورغان مؤرخاً بسنة 1877.

لا يمكن تصور ازدهار العلوم الإنسانية في أواخر القرن التاسع عشر خارج نظرية التطور. وينتمي إلى هذا التيار نفسه علم آثار جديد يعتبر تطوره مديناً كثيراً للوعي بالثقافة المادية، وهو علم آثار يأخذ بعين الاعتبار أولاً المظاهر المادية للحضارات، وعليها يبني تعريف الثقافات في حد ذاتها وتطورها بوصفها علم آثار ما قبل التاريخ. وقد نشر كتاب: **إنسان ما قبل الطوفان** لبوشيه دو بيرث (Boucher de Perthes) سنة 1860.

ولكي تخرج الثقافة المادية من مفهومي «الثقافة» و«الحضارة» وجب أخيراً تصوير «نموذج» لتطور المجتمعات البشرية التي لا تعتمد إلا على البنى التحتية، كما وجب طرح نظرية للتاريخ تعتمد التحليل المادي وتقحم في تصوراته أحداث ملموسة وقابلة للقياس: أي المادية التاريخية. وقد نشر أول جزء من كتاب **رأس المال** (*Le Capital*) سنة 1867.

وكتاب **رأس المال** لا يستعمل عبارة «الثقافة المادية». ولكن

نجد من دون عناء عند ماركس دعوة إلى بناء تاريخ للظروف المادية لتطور المجتمعات. وكان ماركس قد تمنّى تاريخاً نقدياً للتقنيات، لأنه لا يفصل بين دراسة وسائل عمل الإنسان خلال صيرورة الإنتاج عن الإنتاج ذاته. وتنتمي العلاقات التي يربطها الإنسان مع الطبيعة إلى التحليل الماركسي كما هو الشأن بالنسبة إلى علاقات الإنسان بالإنسان. ولهذا كان على المؤرخين الماركسيين أن يتعرضوا حتماً للثقافة المادية وإبرازها من خلال بحوثهم للتأكد من متانة التحليل الماركسي عند تطبيقه في مختلف الحالات الماضية. وحتى وإن غابت جزئياً عن الماركسيين أو إن أفاضت عن الكتابة التاريخية الماركسية، فهذا لا يقلل من الدين المتخلد بالذمة تجاه المادية التاريخية.

ونتيجة لهذا الإرث، بقيت الثقافة المادية مرتبطة جوهرياً بالتاريخ. وإذا كان المفهوم الجديد مديناً لمختلف العلوم الإنسانية، فإنها وجدت ضمن التاريخ ـ وهنا لا نفصل عنه علم الآثار ـ أرضيتها المفضلة. تسير الأمور وكأن الثقافة المادية ليست هنا سوى أداة نظرية ضرورية وفاعلة، وهو ما قد يسمح بالاستغراب، لأنها ليست أقل أهمية بالنسبة إلى الإثنولوجيا. وقد يكون من المبالغة أن نؤكد أن الإثنولوجيا تجهل ذلك. إن الحقل الذي هو حقلها هو حقل تناولته الأنثروبولوجيا الثقافية الأنجلوسكسونية بإطناب، والمصطلح في حد ذاته قد برز في الإثنولوجيا كمركز الإثنولوجيا الفرنسية مثلاً.

كما لا يمكن أبداً أن نتجاهل البحوث التكنولوجية لأندريه لوروا ـ غورهان الذي تبدو أعماله كأنها أساسية في بناء تاريخ للثقافة المادية. وهذا له دلالته لأن أندريه لوروا ـ غورهان مختص بإثنولوجيا ما قبل التاريخ. ولكن يبقى أن الإثنولوجيا في فرنسا خاصة، منذ عهد مارسيل موص، وأكثر من ذلك تحت تأثير البنيوية، قد انخرطت في

دراسة ظواهر البنى الفوقية، وأولت عناية خاصة بالرمزيات، والتمثلات الذهنية، كالسحر، والهبة، والأساطير، والنسب. ووجدت الثقافة المادية نفسها في مرتبة الأعمال التهييئية ذات الطبيعة التحليلية والوصفية الصرفة للإثنوغرافيا. ولم تجد مكاناً في الأعمال التوليفية الإثنولوجية، إلا ربما في حالات استثنائية. إنها لم توجد بكثرة في توليفات المؤرخ، فهو لم يتعوّد بعد على فصل إعداد أطاريحه عن تحليل المواد التي تساعده على ذلك، ولا عن تفريق الأشكال التفسيرية للواقع المعيش الذي تعبّر فيه الثقافة المادية عن ذاتها.

ارتباط الثقافة المادية بالتاريخ وعلم الآثار

يعتبر هذا الحقل الجديد من ضمن اهتمامات الأثريين أكثر منه من ضمن اهتمامات المؤرخين. وهو ما تشهد به معاهد تاريخ الثقافة المادية في الاتحاد السوفياتي وبولونيا حيث يكثر علماء الآثار، من دون أن يكونوا وحدهم، وهم الذين يدفعون البحث إلى الأمام. لقد كانت العلاقة واضحة في البداية، وقد رأينا ذلك من خلال قرار لينين.

وإذا كان المؤرخون في الغرب يبنون العلم الجديد من خلال ممارسته، فالنقاشات التي أنتجها كان يهيمن عليها الأثريون، كما هو الشأن في إيطاليا مع أندريا كارانديني (Andrea Carandini) ودياغو مورينو (Diego Morino) وماسيمو كوايني[1] (Massimo Quaini).

وقد وضعت أول افتتاحية لـ **مجلة الآثار الوسيطية** الثقافة المادية في مقام العلم الأول الذي يجب أن يجمع حوله أعمال الأثريين المختصين في العصر الوسيط. وفي فرنسا، وإن لم توجد بعد كراس

(1) Andrea Carandini, *Archeologia e cultura materiale: lavori senza Gloria nell'anticità classica* (Bari: De Donato, [1975]), et Diego Moreno et Massimo Quaini, «Per una storia della cultura materiale,» *Quaderni storici*, vol. 31 (1976).

جامعية لتاريخ الثقافة المادية، فالإدارات الأولى للبحوث التي انتسبت إلى هذا المجال داخل المدرسة التطبيقية للدراسات العليا هي إدارات علم الآثار. ويفسّر نشاطها في هذا الحقل الجديد بسهولة بنوعية المصادر التي تعتمدها، كما أن المصادر التي من خلالها يتناول الأثريون المجتمعات القديمة هي مصادر مادية، بحيث إنه من خلال إعادة تركيب الماضي التي يقدمها الأثريون تكون المظاهر المادية للحضارات هي المتميزة بصورة طبيعية. إلا أننا يجب أن نتذكّر أن علم الآثار قد بحث طويلاً وبصورة أساسية في المخلفات الملموسة عن التمثلات الذهنية في أشكالها الدينية والفنية، وهو ما جعل علم الآثار لا يتوصل مباشرة إلى الثقافة المادية: لقد وجب أن يوجد مثال ما قبل التاريخ وتأثير تجديد العلوم الإنسانية.

ما هي الثقافة المادية؟

إذا كان لا بد من تعريف الثقافة المادية يجب في هذه الحالة الرجوع إلى الذين يستعملون هذا المفهوم وهذه العبارة أكثر من غيرهم: المؤرخون وعلماء الآثار. وسنرى أنهم لا يعطونها تعريفاً[2] أو على الأقل تعريفاً اسمياً يعبّر بإيجاز وبصورة مناسبة عن معنى هذه العبارة. إنهم يصرّون على استعمال المفهوم كما لو أن الكلمات التي نستعملها للتدليل عليها كافية لتعريفها من دون توضيح.

طبيعي أن النقاشات في بولونيا أو في إيطاليا حول الثقافة المادية قد انطلقت من مجهود للتعريف بها، ولكن يبدو أنها آلت في النهاية خاصة إلى تحديد حقل البحوث وتحديد مشروع دراسة الحياة المادية.

---

(2) R. Bucaille et Jean Marie Pesez, «Cultura materiale,» dans: *Enciclopedia Einaudi* (Torino: Einaudi, 1977-1984).

ليس من المؤكد أن فكرة الثقافة المادية واضحة: لقد عاب عليها الأثريون وقفة تعسفية في مسار حضارة كاملة. ولكن هذا حكم فاسد، لأنه لا أحد ينفي التواصل الثقافي والاجتماعي. إن المقصود بكل بساطة هو تدقيق أداة فكرية، فالتمشي الدائم للفكر هو تحديد حقول مختلفة ليتمكن بصورة أحسن من الوصول إلى الواقع.

إن مفهوم الثقافة المادية ليست له قيمة في حدّ ذاته، ولكنه يأخذ قيمة عندما يكون مفيداً.

ثقافة أو حضارة مادية؟

من دون أن تكون هناك رغبة في تقديم تعريف يراد له أن يكون حاسماً وعالمياً، يمكن أن نلاحظ ما تفترضه المادية مقترنة بالثقافة. إن الثقافة المادية لها علاقة بديهية بالمعوقات المادية التي تؤثر في حياة الإنسان، والتي يجد لها الإنسان حلولاً، فهذه الحلول هي الثقافة بالضبط. ولكن ليس كل الجواب هو المعني بالثقافة المادية. إن المادية تعني أنه في الوقت الذي تعبّر فيه الثقافة بطريقة مجردة، لا تكون الثقافة المادية هي المعنية. وهذا لا يشير فقط إلى حقل التمثلات الذهنية والقانون والتفكير الديني والفلسفي واللغة والفنون، ولكنه يشير أيضاً إلى البنى الاجتماعية/ الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية وعلاقات الإنتاج، وبصورة أشمل إلى علاقات الإنسان بالإنسان. إن الثقافة المادية مرتبطة بالبنى التحتية، ولكنها لا تغطيها، فهي لا تعبّر إلا من خلال ما هو محسوس، أي بالأشياء ومن خلالها. ولا يمكن أن يكون الإنسان غائباً في النهاية ما دامت هناك ثقافة، لذا فهي علاقة الإنسان بالشيء (والإنسان في حدّ ذاته ومن خلال جسده المادي هو موضوع مادي).

ربما يجب أن نثير سؤالاً لا بد له من أن يطرح، وهو: «ثقافة

أم حضارة مادية؟». يبدو أنه يمكن أن نتكلم بلا نهاية حول التدقيقات التي تفرّق بين العبارتين، وإن كان غير ثابت أنهما يعنيان دائماً مفاهيم مختلفة. يمكن أن نعتبر أن مفهوم «الحضارة» أكثر شمولية، والمصطلح يستند إلى مرجعية نظام من القيم، ويفرق بين المتحضرين و«البرابرة» والبدائيين. لهذه الأسباب نحبّذ عنه كلمة «ثقافة» التي يمكن أن تصاغ بسهولة في الجمع من دون أن يؤدي ذلك إلى تراتب. ويمكن أن نرى من خلال اللغة الفرنسية وفي اللغة المتداولة بين الناس أن «الثقافة» و«المادية» هما كلمتان متنافرتان، في حين أن اللغة الألمانية واللغة السلافية تستعملان كلمة «ثقافة» أينما استعملت الفرنسية كلمة «حضارة»، كما أن الكلمة المقصودة قد أتتنا من الشرق الأوروبي: إن الثقافة المادية تبدو مكرسة بالاستعمال وبأصل المفهوم. وفي النهاية، يستعمل علماء الأنثروبولوجيا وعلماء ما قبل التاريخ كلمة «ثقافة» بسهولة، عندما يريدون التعبير عن مجموع الأشياء التي تميّز مجتمعاً ما. وعلى كل حال، هناك حظوظ كبيرة في أن تكون هذه المسألة مشكلة مفتعلة، ما دمنا، كما هو واقع، نعطي المعنى نفسه للكلمتين، والمحتوى نفسه لحضارة مادية وثقافة مادية[3].

الثقافة المادية والتاريخ

من الظلم والخطأ أن نكتب أن التاريخ قد أراد تجاهل الثقافة المادية لفترة طويلة من الزمن، فمنذ القرن التاسع عشر لم نُكسِ أبداً (أو ليس دائماً) أبطال كورناي (Corneille) ولا أبطال شكسبير

---

(3) Marian Serejski, «Les Origines et le sort des mots: Civilisation et culture en Pologne,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 17, no. 6 (nov.-déc. 1962).

(Shakespeare) على طريقة معاصرينا. لذلك، وقع شيء ما، أو حدث نوع من الوعي الذي يتحمل مسؤوليته التاريخ. ويزداد الوعي حدة بالثقافة المادية التي تجعلنا نأسف لتعسف الأفلام الهوليودية التي تنتج حول العصور القديمة، فنشعر أنه ليس ببعض المساحيق نحوّل نجمة سينما أمريكية إلى معاصرة لقيصر.

فصل أهمله التاريخ

إذا كان التاريخ لم يتجاهل الثقافة المادية، فهو قد أولاها لفترة طويلة أهمية محدودة. لنتذكّر التعليم الذي تلقيناه في المدرسة الابتدائية أو في المعهد الثانوي، ففي الكتب المدرسية، ومن خلال ما يقدم فيها من دروس، تعرف فترات ما قبل التاريخ بما تركته من آلات حجرية في مرحلة أولى، ثم برونزية وحديدية في ما بعد. وبعد ذلك تصبح الإمبراطوريات عناوين للفصول المتبقية، إلا أننا نجد في كتبنا المدرسية بعض الصفحات المخصصة للحياة اليومية، وفيها تحتل الثقافة المادية مكانة ما.

إن هذا ما سمح لنا بالتعرف على نبذ تتعلق بالتقنيات الفلاحية الفرعونية، وبالسفن الحربية في سلامين (Salamine)، أو بلباس المواطن الروماني. وهذه الصفحات تتعلق أكثر بالعهود القديمة، وذلك ليس من باب الصدفة، ففي العهود القديمة نتعامل مع أزمنة ساحقة حتى إن المؤرخ يتناولها بطريقة قريبة من طريقة الإثنوغرافي في تناوله الشعوب الغريبة من خلال اللباس والتغذية والتقنيات، كما يتناولها من خلال المعتقدات والعادات. كما أن الحضارات القديمة ليست متيسّرة لنا إلا من الآثار، والآثار بطبيعتها تعتني بالجوانب المادية لحياة الناس أكثر منها بالأحداث والذهنيات.

وباستثناء الفصول المتعلقة بالعهود البعيدة في الزمن، تلحّ كتبنا

المدرسية عرضياً على ذكر الطواحين المائية، وأطواق الجر، ودفة سفينة النقل، واختراع غوتنبرغ (Gutenberg)، والطلاء الخزفي لبرنار باليسي (Bernard Palissy)، وقهوة مدام دو سيفينيي (Madame de Sévigné)، وحشيشة نيكو (Nicot)، ودرنة بارمنتييه (Parmentier)، وصولاً إلى الآلة البخارية التي جذبت وراءها قطاراً من التقدم التقني. في الجملة، إن الأحداث المادية لتاريخ الإنسان هي أحداث خيالية، فبرنار باليسي حسبما يبدو كان يتقن الإشهار لشخصه أكثر من إتقانه طلاء الخزف. ونعرف أيضاً أن بارمنتييه لم يدخل البطاطا إلى فرنسا، فقد اكتفى بالافتخار بأنه قد استخرج منها دقيقاً يمكن أن يخبز، ولكنه في الواقع فشل في ذلك.

دراسة متروكة للمبحرين في العلوم بالجهات

يعكس تدريس التاريخ، بنوع من التأخير كما هو الشأن دائماً، ما تتوصل إليه البحوث الجامعية والأوساط العالمة: من ذلك تاريخ لافيس (Lavisse)، وساينيوبوس (Seignobos)، ومجموعات غلوتز (Glotz) أو هالفين (Halphen)، وسانياك (Sagnac)، تلك البحوث التي تبني التاريخ الوقائعي. وكانت الثقافة المادية محشورة في باب أعاجيب البازار التاريخي التي تركت للمبحرين في العلوم بالجهات والهواة الذين ليست لهم مطامح. وعلى رغم ذلك ظلت الثقافة المادية تتقدم في الدرجات السفلى للعلوم. ويعرف الأثري الوسيطي أنه لا ينتظر الكثير من الكتب المدرسية والأطروحات التي حررت في النصف الأول من هذا القرن، حتى تلك التي حررت في الآثار الوسيطية ـ نذكر في هذا الباب كميل إنلارت (Camille Enlart) ـ فهو يعرف أنه في مجلات الجمعيات العالمة قد يجد بحوثاً لا يستهان بها، فهي الوحيدة التي تعنى بالخزف الوسيطي، والتي توجد ضمن هذا النوع من المنشورات.

ولكن يجب ألا ننسى علماء لهم بعض من الأهمية، فجلّهم ينتمي إلى الأجيال السابقة لفترة تعقيم التاريخ من طرف الجامعيين، وهم في كثير من الأحيان من الباحثين الذين ظلوا شديدي الالتصاق بالمصادر، وفي أغلبهم من المختصين في علم الوثائق أو أساتذة في مدرسة علم الوثائق: جول كيشرا (Jules Quicherat) مؤرخ اللباس (1875)، وليوبولد ديليل (Léopold Delisle) مؤرخ الفلاحة (1851)، وفيكتور غاي (Victor Gay) مؤلف قاموس أثري نادر للعصر الوسيط، وأيضا دواي دارك (Douët D'Arcq)، وجول فينو (Jules Finot)، وآل بروست (Les Prost). ولكن يحق أن نضع ميشليه في المرتبة الأولى، فقد كان مهتماً بظروف الناس، حتى إنه لم يتناس الحياة المادية، وفيوليه لو ـ دوك (Viollet-le-Duc) الذي طالما احتقرنا عمله بعنوان: **قاموس للأثاث الفرنسي**.

مدرسة «الحوليات»

لم نسجّل ما بين الحربين خارج «مدرسة **الحوليات**» إلا بعض الباحثين المتميّزين مثل الضابطيْن برتبة رائد: كينيدي (Quenedy) ولوفيفر دي نوات[4] (Lefebvre des Noettes). ولكن كل ذلك تغيّر مع «مدرسة **الحوليات**»: لقد وسعت كثيراً في حقل المؤرخ، وخاصة عندما أدخلت في اهتماماته الثقافة المادية. لقد تم اكتشاف المشهد الريفي مع مارك بلوخ، وبالتالي اكتشاف جموع الفلاحين الذين صنعوه، وفي الوقت نفسه تمّ الاهتمام بالتقنيات الوسيطية،

---

(4) Raymond Quenedey, *L'Habitation rouennaise: Etude d'histoire, de géographie et d'archéologie urbaines* (Rouen: Lestringant, 1926), et Lefebvre des Noettes, *L'Attelage: Le Cheval de selle à travers les âges: Contribution à l'histoire de l'esclavage*, préface de Jérôme Carcopino, 2 vols. (Paris: Picard, 1931).

مثل الطاحونة المائية والركاب والمحراث[5]. وإذا كان لوسيان فافر مؤرخاً للذهنيات بالدرجة الأولى، فقد كان متنبهاً إلى تقدم مختلف العلوم الإنسانية، وأدى اهتمامه بالإثنوغرافيا وبالجغرافيا إلى أخذ الثقافة المادية بعين الاعتبار. ويبدو من خلال **الأرض وتطور الإنسانية** كأنه مؤسس لتاريخ مرتبط بالأرض وبالوسط الطبيعي ومحيط الإنسان، وهو تاريخ قد أنجز بصورة رائعة من خلال أطروحة فرناند بروديل: **المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني**[6] (Philippe II).

عندما كان فرناند بروديل على رأس القسم السادس في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، بعث أو شجع على القيام ببحوث كان قد بدأها مارك بلوخ ولوسيان فافر (**الحياة المادية وردود الفعل البيولوجية: تاريخ التغذية وآثار قرية مهجورة**). وقبل كل شيء كان أول مؤلف لأول عمل توليفي كبير حول تاريخ الثقافة المادية: **الحضارة المادية والرأسمالية**[7]. لذلك سنسأل هذا العمل عن معنى الثقافة المادية، وكيف يمكن أن يكون تاريخها.

---

(5) Marc Bloch: *Les Caractères originaux de l'histoire rurale française* (Oslo: H. Aschehoug; Leipzig: O. Harrassowitz; Paris: Les Belles lettres; London: Williams and Norgate; Cambridge: Harvard University Press, 1931), et «Avènement et conquête du moulin à eau,» *Annales d'histoire économique et sociale*, vol. 7, no. 36 (1935).

(6) Fernand Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II* (Paris: Armand Colin, 1949).

(7) Fernand Braudel: *Civilisation matérielle et capitalisme, XVe-XVIIIe siècle*, destins du monde (Paris: Armand Colin, 1967-), publication reprise dans le tome 1 de: *Civilisation matérielle, économie et capitalisme, XVe-XVIIIe siècles* (Paris: Armand Colin, 1979-).

الكتل الصامتة تحتل الصدارة

لقد عاب الباحث الأثري الايطالي أندريا كارنديني على فرناند بروديل عدم تعريف المفهوم الذي يحتويه كتابه، أو على الأقل عاب عليه تعريفه بصورة مجازية وبصور أدبية. وهذا صحيح، وخاصة أن تعابير بقلم المؤرخ الفرنسي تحتاج إلى تعريف لأنها دقيقة وبأسلوب ليس له نظير.

ولكن يجب أن نتوقف مباشرة عند العنوان الذي يجمع ما بين الثقافة المادية والرأسمالية. يجب أن نفهم بالنسبة إلى مؤلف دراسة **الحضارة المادية والرأسمالية**، على الأقل بالنسبة إلى الفترة المحدّدة (من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر)، أنها غير منفصلة عن دراسة الرأسمالية، بل ربما تكون مقترنة بها. لقد كتب جاك لوغوف: «إن العمل الكبير الذي كتبه فرناند بروديل لم يجعل الحقل الجديد يغزو حقل التاريخ من دون ربطه بالظاهرة التاريخية الصرفة، وهي الرأسمالية»[8]. وبالنسبة إلى بروديل تبدو الحياة المادية في الواقع كما لو أنها في الطابق الأسفل لبناية يمثل الاقتصاد الطابق العلوي منها. وهنا يبدو كما لو أن هناك تصغيراً لحجم تاريخ الثقافة المادية التي نتساءل عنها. ولكن يجب أن نقبل بأن الحياة المادية ما تزال في احتشام على عتبة التاريخ، في الوقت الذي يحتل فيه التاريخ الاقتصادي قمة الهرم بعدما أزاح الحدث الوقائعي واحتل مكانه، أي المرتبة الأولى، في حين أن تاريخ الثقافة المادية لا يزال يبحث له عن موقع، فهو ما زال لم يبنِ مصطلحاته، ولم يطوّر كل اهتماماته.

(8) François Furet et Jacques Le Goff, «Histoire et éthnologie,» *Méthologie de l'histoire et des sciences humaines*, mélanges en l'honneur de Fernand Braudel ([Toulouse]: Privat, [1973]), t. II.

كما أن فرناند بروديل يؤكد في كتابه قيمة دراسة الحياة المادية، ويعلن بذلك عن غلبة تاريخ الكتل ويقلب الأشكال المعهودة بـ «إعطاء الأولوية لهذه الكتل نفسها من خلال وضعها في موقع الصدارة»، وبفسح المجال في عمله لـ «الحركات المتكررة وللتواريخ الصامتة للناس، وهي التي كما لو أنها كانت منسية، ولواقع طويل الأمد كان له بالغ الأثر وقد ظل صداه مكتوماً».

سنحتفظ من خلال هذه المقدمات بأن تاريخ الثقافة المادية هو تاريخ أغلب الناس، وأن الحياة المادية والحياة الاقتصادية هما في الوقت نفسه وثيقتيْ الارتباط ومنفصلتيْن بما يكفي من الوضوح. وبالنسبة إلى بروديل، تتكون حياة الأغلبية من الأشياء والآلات والحركات العادية للناس: إن هذه الحياة هي التي تعنيهم في يومهم، فهي تبتلع أفكارهم وأعمالهم. ومن جهة أخرى تقرّر ظروف الحياة الاقتصادية «ما بين الممكن والمستحيل».

المواضيع: الخبز والسكن واللباس

مرة أخرى يفتتح العدد كتاب فرناند بروديل: «عدد» الناس. «الحياة المادية هي الناس، والأشياء هي الأشياء والناس»، ويعني ذلك الناس أيضاً، وهو ما يجعل الديمغرافيا التاريخية جزءاً من تاريخ الثقافة المادية. ولكن منذ الحرب العالمية الثانية، تطورت الديمغرافيا التاريخية كثيراً إلى درجة أنها أصبحت علماً مستقلاً بذاته. ولكن في الحقيقة، نجد صعوبة في الفصل بين الحقلين: الجسد مع «تقنيات الجسد»، ومع الأمراض والممارسات العلاجية، إذ لا يمكن لها أن تخرج عن حقل الثقافة المادية. وتوجد على الأقل مبادلات دائمة مع الديمغرافيا التاريخية: تاريخ الثقافة المادية يعتمد على ما توفره الديمغرافيا التاريخية من معطيات، ويعطيها في الوقت نفسه ما يوفره من معطيات.

نجد أنفسنا مع «الخبز اليومي» أمام تقدم حقيقي لتاريخ الثقافة المادية. ومن غير شك أن المجاعات قد شدّت لفترة طويلة اهتمام المؤرخ، أقل من أسعار الحبوب وتجارتها اللذين غذيا دراسات الاقتصاديين، إلا أن الخبز اليومي يمثل شيئاً آخر بالنسبة إلى فرناند بروديل: نظام الحريرات، المائدة وآدابها ومكوّنات الطعام والكماليات وما هو عادي. وهذا لا يعني الخبز والخمر فقط، ولكن أيضاً موقع اللحم والسمك واستهلاك الشاي والقهوة، ومجالات استهلاك الخمر والجعة، وانتشار الكحول والتبغ. وتمنّى فرناند بروديل، عوضاً عن تاريخ الخبز والخمر، تاريخاً لـ «التمازج الغذائي على طريقة الترابط النباتي عند الجغرافيين».

أكثر من تاريخ التقنيات

في كتاب **الحضارة المادية والرأسمالية** احتل السكن واللباس مكاناً أقل مرتين من المساحة التي احتلتها التغذية، لأن البحوث في هذا المجال تطورت ببطء أكثر مرتبطة بمدى توفر الوثائق التي غالباً ما تكون هزلية، وكثيراً ما تهتم بالاستثناءات. ولولا التقدم الحديث الذي حققه علم الآثار، ولو أنه لا يزال محدوداً، لما تسنى لنا التعرّف على سكن الفلاح الوسيطي الذي يربأ المنمنم بنفسه، على ما يبدو، عن تصويره؛ وإلا سنظل على الاعتقاد بأنه يسكن في خصّ، وفي أحسن الحالات في كوخ من القش، وفي أسوإ الحالات في مغارة. وهو ما يعطي للبحوث الأثرية أهميتها في تاريخ الثقافة المادية. ولكن المؤلف وضع السكن واللباس تحت راية الكمالي والعادي.

ما يهمنا هنا هو الفرق بين بيت الفلاح ومنزل البورجوازي، بين حضارات ثرية وحضارات فقيرة. يضاف بذلك بعد اجتماعي وبعد فضائي إلى بعد الثقافة المادية التاريخي والزمني. وأخيراً ـ وبصورة

متأخرة عما كنا ننتظره ـ يأتي انتشار التقنيات. إنه انتشار وليس إحداثاً: وما يهم هنا أيضاً هو الكم والديمومة، وليس ما هو استثنائي، أي ليس الحدث. ولكن أكان يمكن أن نظن تقريباً أن تاريخ الثقافة المادية يتلبس بتاريخ التقنيات؟

وإذا كان فرناند بروديل قد قال: «إن كل شيء تقني»، فقد قال أيضاً: «إن التقنية لم تكن أبداً معزولة». الحياة المادية بناء مركب لا ينحصر في التقنية، إلا في حالة بسط مفهومها بصورة غير محدودة. إن الغائب في **الحضارة المادية والرأسمالية** هو الأرض. إن الأرض هي أكبر معين للناس الذين يغيّرون شكلها بعملهم بصورة مستمرة.

ولكن نحن متأكدين أن فرناند بروديل لم يسْهُ عن ذلك عن قصد: إن الأرض والبحر يشكلان محور أطروحته: **المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني**. وربما توفر بلدان المتوسط المثال الحيّ على الأثر الذي يمكن أن يتركه الإنسان في المشهد الطبيعي، فقد لا يتعرف اليونان والرومان على هذه السواحل ذات المنحدرات العارية التي اندثرت عنها الغابات، ولا على هذه الجنان والحدائق التي تنمو فيها نباتات لم تكن معهودة في العصور القديمة، وإن كانت تبدو لنا أنها متوسطية الأصول: الحمضيات والطماطم والخوخ والتين الشوكي.

ربما لم يقدم فرناند بروديل تعريفاً ضافياً للثقافة المادية. لقد فعل أحسن من ذلك: جعلها تنبثق من تحسس التاريخ وأنبتها حية في وجه النظريات العقيمة شامخة ومعقدة.

الثقافة المادية والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي

لقد تم أقدم تأقلم لمفهوم «الثقافة المادية» في أوروبا الاشتراكية، ومن هذه البلدان تلقينا أكبر نصيب منه، إلا أن تاريخ

الثقافة المادية لم يكن ليُقبل هناك من دون أن يثير بعض القضايا النظرية. لقد كان تأسيس معهد تاريخ الثقافة المادية في بولونيا فرصة لإثارة نقاش مهم نجد صداه منذ 1953 في **مجلة تاريخ الثقافة المادية**، وليس من العسير أن نلاحظ الصعوبات التي اصطدمت بها المدرسة الماركسية: إنها تتمثل في تحديد موقع الثقافة المادية من الأمر الاقتصادي/الاجتماعي.

وليس هناك أي سبب بالنسبة إلى التاريخ الشمولي الذي تسعى إليه «مدرسة **الحوليات**» لطرح التساؤلات نفسها. إن الماركسيين ينظرون إليه بازدراء معتبرينه تاريخاً تجريبياً، وحتى وإن اعترفوا له بوضع أسس منهجية متقدمة، فإنهم ينزعون عنه أي محتوى تنظيري. إنهم يعترفون لـ «مدرسة **الحوليات**» بالفضل في إخراج الثقافة المادية من العدم الذي تركها فيه التاريخ السياسي، ولكنهم حاولوا انتقاد **الحوليات** في إعطاء الثقافة المادية أكثر مما تستحق. ليس على التاريخ إعطاء الثقافة المادية أكثر مما تستحق بعدما كان قد احتقرها، ويبدو ذلك هو موضوع النقاش.

ولكن لنلاحظ أن التاريخ الشمولي لا يعطي الثقافة المادية مكانة هامشية، وإنما يضعها في موقع التبعية، يعني التبعية بالنسبة إلى التاريخ الاقتصادي: وهو ما نقرأه في كتاب فرناند بروديل.

ما هي أسباب هذا التوجه داخل تصور لتاريخ نقول عنه إنه تجريبي؟ ربما يكون ذلك كذلك، لأن الثقافة المادية ما تزال تجمع موادها ومن دون أن تكون بعد مهيأة للتنظير بسهولة. وفي الوقت الحاضر، يبدو التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وحده قادراً على بناء الماضي. ولكن الأولية التي منحت للعامل الاقتصادي لا يمكن أن تبرر، ولو كان ذلك بصورة غير معلنة، إلا بالرجوع إلى فكر يعتبر المادة منظمة بحسب نظرية: المادية التاريخية.

وإذا كان الماركسيون يتردّدون في إعطاء الثقافة المادية مكانتها، فذلك بسبب المادية التاريخية. إن النقاش الذي يدور في هذه الأوساط يعبّر في الوقت نفسه عن الانجذاب والنفور تجاه هذا الحقل البحثي الجديد. ولكلا الموقفين ما يبرره عندهم. يوجد موقع الثقافة المادية إلى جانب البنى التحتية، إذ لا يمكن أن تتجاهل المادية التاريخية ثقل العوامل المادية، وهي التي تبحث في البنى التحتية عن العوامل المحركة للتاريخ. ولكن يعتبر منح تاريخ الثقافة المادية موقعاً مستقلاً مجازفة تتمثل في تمكين موضوع البحث الذي يتناوله بالدرس القيمة نفسها التي يوليها للظواهر الاجتماعية، وما يمكن أن يكون أكثر خطورة هو القول بوجود أحداث تاريخية غير اجتماعية، وتفسير الظواهر الاجتماعية بظواهر خارجة عن نطاق الاجتماعي.

الظروف المادية ليست أسباباً

لقد تبيّن للمؤرخين الماركسيين أنه يمكن دراسة الثقافة المادية من دون إيجاد وساطة بين ما هو اجتماعي وما هو تاريخي، ومن دون تقديم تفسير مبني مثلاً على تطور المادة والطاقة. وهذا يعني أنه يجب أخذ الظروف المادية التي تتطور ضمنها العلاقات الاجتماعية بعين الاعتبار، وتبيّن وسائل الإنتاج من خلالها من دون إعطائها قيمة سببية. لنقل كما قال فرناند بروديل في موازنة «الممكن والمستحيل»: ليس البحث في «لماذا» و«كيف».

يتكون الحقل الجديد بالنسبة إلى ألكسندر غيزستور (Aleksander Gieysztor) من «وسائل الإنتاج، وفي الوقت نفسه من وسائل العمل والمواد المصنوعة والقوى المنتجة والمنتوجات المادية التي يستعملها الإنسان». في الجملة، وكما نرى ذلك، يتضمن هذا الرأي كل ما يتعلق بالإنتاج، وليس بالإنتاج نفسه. ويستعير ألكسندر

غيزستور من هنري دوناجفسكي تحليلاً له ميزة أنه حصر مكوّنات الثقافة المادية في أربعة عناصر:

1 ـ وسائل العمل (الإنسان والآلات).

2 ـ موضوع العمل (الثروات المادية والمواد الأولية).

3 ـ تجربة الإنسان خلال صيرورة الإنتاج (التقنيات).

4 ـ استعمال المنتوجات المادية (المستهلكون).

وميزة تحليل جيرزي كولتزيسكي (Jerzy Kulczyski) أنها أكثر بساطة ودقة في تأكيدها على ثلاثة مكوّنات، هي: الطبيعة، والإنسان، والمنتوج، ومن غير شك في علاقتهم بالإنتاج. وحقل تاريخ الثقافة المادية بالنسبة إلى كولتزيسكي هو:

1 ـ وسائل الإنتاج المأخوذة من «الطبيعة»، وكذلك أيضاً «الظروف الطبيعية» للحياة والتغييرات التي أدخلها الإنسان على «الوسط الطبيعي».

2 ـ قوى الإنتاج، أي وسائل العمل، الوسائل «البشرية» للإنتاج، و«الإنسان» نفسه بما له من خبرة وتنظيم في العمل.

3 ـ «المنتوجات» المادية التي تم التحصّل عليها بهذه الوسائل. وهذه القوى، أدوات الإنتاج والمنتوجات المعدة للاستهلاك، سواء.

إن مثل هذه التحاليل تحدّد بوضوح الموقع الذي يجب أن تحتله الثقافة المادية في البناء التاريخي. إنها تؤكد على أهمية دراستها بالنسبة إلى المؤرخ الماركسي. ونتوقع بعد ذلك أن نرى الثقافة المادية تتدخل في مختلف تصورات الصيرورة التاريخية التي تنتسب إلى الماركسية. ونلاحظ أن شيئاً من ذلك لم يحصل، إلا من خلال طابع بعض التقنيات ـ التي تمت معالجتها تحت عنوان الاقتصاد ـ

ومن خلال طابعها الديمغرافي. وهي لا تؤدي أي دور في **نظرية النظام الفيودالي الاقتصادية**[9] لويتولد كولا (والذي بذل جهداً كبيراً لتطوير تاريخ الثقافة المادية)، ولا أكثر من ذلك في نموذج نمط الإنتاج الفيودالي الذي تقترحه **أزمة النظام الفيودالي** كما يراها غي بوا[10]. ولا ننكر على المؤرخين الماركسيين دورهم في استكشاف الحقل الجديد، ولكن ذلك تمّ كما لو أنه بقي خارجاً بعض الشيء عن مشروعهم. ومن المتفق عليه مسبقاً أنه يجب البحث عن معاني الجوانب المادية داخل العلاقات الاجتماعية. ومن هذا المنطلق، وقع الاتفاق على أن الحدث الاقتصادي الاجتماعي يعبّر عن ملامح الثقافة المادية، وليس العكس. لذلك يصبح هذا الحقل بلا جاذبية بالنسبة إلى الذي لا يرى في التاريخ إلا بلورة لنظرية تطور المجتمعات.

الثقافة المادية وتاريخ التقنيات

يبدو أن التقنيات التي لا تنفصل عن العمل، وعن فعل الإنسان في المادة، تنتمي إلى حقل الثقافة المادية. ولكن يبدو أنه يمكن أن نحدّد في هذا المضمار موقفيْن متعارضيْن بشدة: **أحدهما** يقضي بإقصاء تاريخ التقنيات، **والآخر** يحصر تاريخ الثقافة المادية في تاريخ التقنيات. وفي الواقع أنه لم يتم التعبير عن أي من الموقفيْن بوضوح من طرف أحد، ولكنهما ضمنيان في بعض المواقف.

---

(9) Witold Kula, *Théorie économique du système féodal: Pour un modèle de l'économie polonaise, 16e-18e siècles = Teoria ekonomiczna ustroju feudalnego*, civilisations et sociétés; 15, traduit du polonais; préface de Fernand Braudel, éd. revue et augmentée (Paris; La Haye: Mouton, 1970).

(10) Guy Bois, *Crise du féodalisme: Economie rurale et démographique en Normandie orientale du début du 14e siècle au milieu du 16e siècle*, cahiers de la fondation nationale des sciences politiques; 202 (Paris: Presses de la fondation nationale des sciences politiques, 1976).

الموقف الأول: رفض تاريخ التقنيات

الموقف الأول هو موقف الرفض، ويبدو جلياً من خلال تخوفات بعض المؤرخين الماركسيين من التقنيات. وليس هناك ما يثير الاستغراب من هذا التخوف الذي يلتقي مع النقد الذي وجِّه إلى تاريخ الثقافة المادية الذي يراد له أن يكون مستقلاً. إن التكنولوجيا، إذا لم يقع التحكم فيها، يمكن لها أن تحيد باستمرار عن مسارها، ويمكن أن يعطى لها دور حتمي وسببي في الصيرورة التاريخية. لقد واكبت المجتمعات الفيودالية بعض التكنولوجيات، مثل تكنولوجيا الأسلحة، وأكثر من ذلك الخيالة الثقيلة التي تعتمد على زراعة الحنطة، وعلى اعتماد الحدادة والركاب. لقد وفر الجواد للأرستقراطية العسكرية تفوقاً حاسماً، وتطلب في الوقت نفسه تربية مناسبة، وطوّر مواقف نفسية مميزة. وهذا ما يتطلب امتلاك إمكانيات كبيرة توفر فائضاً هاماً معداً للعناية بالجواد وبالفارس الممحوض للتمرن وللفروسية والصيد والمبارزة. متى كان الجواد هو الذي يصنع الفارس؟ قد يكون ذلك، ولكن هل يصنع الفيودالي؟ إن قبول هذا الرأي، وفي هذا الشكل الكاريكاتوري، يؤول إلى السكوت عن ظروف أخرى، اقتصادية خاصة، هي من خصائص الفيودالية. ولكن الرغبة في ذلك موجودة، وقد خطى بعض المؤرخين المختصين في تقنيات الماضي الخطوة الفاصلة بين الاجتماعي والتقني.

ولكن، ومن دون تحيّز، يمكن طمأنة العقول. مرة أخرى، إن تاريخ الثقافة المادية يدرس الظروف بمعنى «الإطار المادي»، وهو ما لا يعني الأسباب بالضرورة. وليس من المؤكد أنها تكون «إمكانوية». ولكي تتوفر إمكانية ثورة اقتصادية لا بد من أن تكون التقنيات الضرورية جاهزة ومهيأة للتواصل، فهذا أمر بديهي. ولكن التطور التقني لا يخضع إلا لقوانين داخلية قد ينتج التقدم من خلالها تقدماً

آخر: إنه يستجيب أساساً لطلبات خارجة عنه تأتي من الاقتصاد وتعبّر عن حاجياته.

قد يكون هناك سبب آخر لردّ الفعل السلبي الذي يحدثه تاريخ التقنيات. ويمكن أن نتساءل: هل إذا لم يكن هناك اعتراف بالعجز، لا ترعب التقنية المؤرخ بالتخصص الدقيق الذي تستوجبه؟ بالنسبة إلى المثقف، ليس من السهل ولوج عالم الحرفيين والميكانيكيين، حتى وإن كان ذلك يعني العهد ما قبل الصناعي. ويعرف الأثريون هذه الصعوبات التي تعترضهم، حتى عندما يتجهون إلى حرفة مهما كانت بسيطة (في الظاهر)، مثل الخزّاف: ليس هناك إجماع حول التقنيات التي استطاعت أن تعطي هذه الخاصية أو تلك لوعاء ما، خاصة لونه أو طبيعة الطين الذي صنع منه. لقد كتبت كثير من الحماقات حول ريشة الرسم والألوان وتقنيات الرسم عند الرسامين المجدولين الذين تركوا بصماتهم في إبداعات الفن الصخري. كيف يمكن إذن للمؤرخ أن يقتحم ميادين شديدة التنوع، كالبناء، والنسيج، والفلاحة، والملاحة، والحدادة، والصاغة...؟ سؤال يستحق الطرح. قد يكون من السهل وغير النافع أن نقرّ بعجزنا. إنه من المؤكد أن العمل الدؤوب لا يسمح بتجاوز العقبة. إن العمل الجيد الذي قام به أندريه لوروا ـ غورهان في كتابه: **التطور والتقنيات**[11] يبدو من الصعب إعادة مثله. ثم ـ وليس ذلك تقليلاً من شأنه، وإنما تدقيق له ـ ألم يتوقف المختص الكبير في ما قبل التاريخ عند التقنيات البسيطة نسبياً في الحضارات التي تسمى تقليدية؟ إن التاريخ لا يتوقف عند عتبة الثورة الصناعية.

---

(11) André Leroi-Gourhan, *Evolution et techniques*, sciences d'aujourd'hui, 2 vols. (Paris: Albin Michel, [1943-1945]), vol. 1: *L'Homme et la matière*, 1943 et 1972, vol. 2: *Milieu et techniques* (Paris: Albin Michel, 1945; 1973).

أما الجواب، فهو شديد الوضوح: ما يعجز عنه الفرد تستطيع إنجازه المجموعة. إنها مسألة تخصص وعمل جماعي. ثم هل يترك تاريخ التقنيات، بسبب صعوباته، للتقنيين، كما ترك تاريخ الفلسفة للفلاسفة، أو تاريخ العلوم للمختصين فيها. سيكون التاريخ رابحاً إذا لم ينحصر في خطاب يجعله مقصوراً على رواية جافة.

الموقف الثاني: تنحصر الثقافة المادية في تاريخ التقنيات

يقضي الموقف الثاني بإعلان، كما فعل فرناند بروديل ـ ولكن مع بعض التدقيق والندم الذي نعرفه ـ «أن كل شيء هو تقني». وهذا أمر غير مقبول إلا في إطار توسيع غير محدود لمفهوم «التقنية». إن التقنيات ليست إلا مظهراً من مظاهر الفعل البشري في الثقافة المادية: أي تجربة الإنسان في العمل، فهو مكوِّن من مكوِّنات الثقافة المادية، وليس كلها. وقد يكون مؤسفاً، لأن ذلك يحرمنا من وسيلة مناسبة لتعريف الثقافات المادية من خلال مستوياتها التقنية. وبذلك يعدّ عمل أندريه لوروا ـ غورهان دليلاً ثميناً، ويعتبر معياراً ضرورياً لمقاييسنا، فبعنوانه: **التطور والتقنيات (الإنسان والمادة والوسط والتقنيات)**، وبمحتواه الذي اندمج فيه حقل الثقافة المادية إلى حدود الاستهلاك، يستحضر بقوة المواقف التي تستوجب ضم الحقل الجديد إلى حقل التقنيات، حتى ولو لم يكن ذلك ما قاله المؤلف علناً. ومن الطبيعي أن يكون عالم الأنثروبولوجيا، المتعوّد على تطور الآلات عبر الأزمنة ما قبل التاريخية، متحسساً أكثر للتطور التقني ويرى فيه علامة (إن لم نقل محركاً!!) للتطور الثقافي. وإذا كان مفهوم «التقدم» مقبولاً، يجب أن نقبل أن مجاله هو ميدان التقنيات. إن المختص في فترة ما قبل التاريخ يعرف أيضاً أنه منذ الإنسان الحكيم (L'Homo sapiens)، لم يتطور الإنسان البيولوجي بصورة ملموسة، أو أن تطوره كان بطيئاً بعيداً عن الملاحظة. إن القدرة

الجمجمية هي نفسها التي كانت لإنسان كرو ـ مانيون (Cro-Magnon)، وحتى طول الحياة (وليس أمل الحياة) في عصر الحجارة لم يكن أقل أهمية منه اليوم. وحده التجهيز الآلي للإنسان هو الذي تقدم، وقد أدى تطوره بالضرورة إلى تطور الثقافة المادية بأسرها. وهو ما يجعلنا نهتم بمفهوم «المستوى التقني»: إذا لم يكفِ هذا المفهوم لتمييز جملة من الخصائص الشاسعة التي تتجاوز التقنيات، فهو على الأقل يسمح بتعريف الثقافات المادية.

لقد عرف أندريه لوروا ـ غورهان كيف يبرز العلاقات التي تنشأ بين التقنيات: «لم نلاحظ أبداً أن الذي يملك المغزل يملك أيضاً الحركة الدائرية التعاقبية، وأن الذي يملك دولاب المغزل يملك الطاحونة ومخرطة الخزّاف». بمثل هذا الجمع نكون على درب البنى التي يجب على تاريخ الثقافة المادية إبرازها لتقديم تناسق في مواضيع بحثها. وتؤسس هذه العلاقات لتعريف المستويات التقنية التي يرى من ورائها أندريه لوروا ـ غورهان درجات التطور، وهي درجات مميزة بالسيطرة على تقنيات معبرة: الدرجة **الأولى** (الأكثر حداثة) مرتبطة بالصناعة، والدرجة **الثانية** مرتبطة بالجمع بين التقنيات الثلاث الكبرى: الفلاحة وتربية الماشية والتعدين، و**الثالثة** تتميز بامتلاك واحدة من هذه التقنيات. . . يمكن بلا شك أن نعترض على المعايير المعتمدة، ولكننا لا نستطيع تجاهل العمل الضخم التهييئي الذي يمثله إنتاج أندريه لوروا ـ غورهان. إنه عمل يستحق أكثر من الصمت الذي أحيط به من طرف المؤرخين، فربما لم يكونوا مهيئين لقبوله، ولم تكن الفترة سانحة لتاريخ يهتم بالثقافة المادية.

الثقافة المادية في كتب التاريخ

إن عملاً توليفياً، حتى وإن كان لقرون محدودة، مثل ذلك الذي قدمه كتاب فرناند بروديل الجميل، يعتمد حتماً على أعمال

جزئية عديدة. إنه يفترض تطوراً كافياً للبحث وازدهاره السريع بما أنه حقل جديد نسبياً.

ببليوغرافيا مشتّتة: بحوث مثمرة

تشمل ببليوغرافيا **تاريخ الثقافة المادية** بعض الكتب التي يتناول كل منها جانباً معيناً: **تاريخ المناخ منذ سنة ألف**، و**الناس والطاعون**، و**أطلس النباتات المعاشية**، و**الأكل في القرن التاسع عشر**، و**البيت في التاريخ**، و**اللباس**، و**صورة الإنسان**، من دون أن نتحدث عن المؤلفات التي اهتمت بتاريخ التقنيات، وهذه كتابات هي من أكثر الكتب تعبيراً وأحدث ما نشر[12]. ولكن يجب أن نعوّل أيضاً على كتب لها طابع أكثر عمومية وتهتم بالحياة المادية في فصل أو أكثر من فصولها، مثل تواريخ الحضارة، إذ يقدم كتاب: **حضارة الغرب الوسيط** لجاك لوغوف لوحة شاملة وقوية البناء عن الثقافة المادية للعصر الوسيط «الكلاسيكي» (من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر)[13]. والتاريخ الريفي الذي تعددت مشاريعه منذ مارك

(12) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Histoire du climat depuis l'an mil*, nouvelle bibliothèque scientifique (Paris: Flammarion, 1967); Jean Noël Biraben, *Les Hommes et la peste en France et dans les pays européens et méditerranéens*, civilisations et sociétés; 35-36, 2 vols. (Paris; La Haye: Mouton, 1975), vol. 1: *La Peste dans l'histoire*; Jean Jacques Hémardinquer, M. Keul et W. G. L. Randles, *Atlas des plantes vivrières* ([Paris: s. n., 1975]); Louis Henry, *Anciennes familles genevoises: Etude démographique: XVIe-XXe siècle*, [préface par Alfred Sauvy] (Paris: Presses universitaires de France, 1956); Jean Paul Aron, *Le Mangeur du XIXe siècle* (Paris: R. Laffont, [1973]); Simone Roux, *La Maison dans l'histoire*, l'aventure humaine (Paris: Albin Michel, 1976), et Yvonne Deslandres, *Le Costume, image de l'homme*, l'aventure humaine (Paris: Albin Michel, 1976).

(13) Jacques Le Goff, *La Civilisation de l'occident médiéval*, collection les grandes civilisations; 3 ([Paris]: Arthaud, 1964).

بلوخ لا يتوانى عن دمج الثقافة المادية عبر دراسة المجال والنباتات المزروعة، وآليات الفلاحة وتقنياتها، ولكن نقدّر أنها تعنى أكثر وبصورة أساسية بإبراز العلاقات الاجتماعية[14]. ويجب أن نعطي على عكس ذلك وضعاً مميزاً للكتب التي تحمل عنوان: **الحياة اليومية**، وهو عنوان لسلسلة قديمة لا تزال حيويتها ثابتة. إن مفهوم «الحياة اليومية» هو من أكثر المفاهيم غموضاً، وفي كل الحالات فهو شديد الغموض حتى يسمح للمؤلفين بأن يدخلوا في تخطيط أعمالهم جزءاً كبيراً من المعرفة التاريخية، ولكن يظل الحدث التاريخي في النهاية هو الغائب الوحيد.

استفادت هذه الكتابات في الوقت نفسه من تقدّم بحث لم يعد يعطي حظوة للحدث، وأصبح منفتحاً على الثقافة المادية. وتحسّن المنتوج كثيراً مع تقدم الزمن: تخلى عن الطرفة، ولم يعد يتغذى من المصادر الأدبية فقط. ويمكن أن نقيس المسافة المقطوعة بمقارنة كتاب: **الحياة اليومية في زمن جان دارك**، بالكتاب الأخير لفيليب كونتامين[15].

مكتسبات كثيرة

كان الاستقبال المدفوع بتيار الإيكولوجيا استقبالاً حاراً، ذاك

(14) Georges Duby, *L'Economie rurale et la vie des campagnes dans l'occident médiéval*, collection historique, 2 vols. (Paris: Editions montaigne, 1962); Georges Duby et Armand Wallon, dirs., *Histoire de la France rurale*, collection l'univers historique, 4 vols. ([Paris]: Editions du seuil, 1975), et Robert Fossier, *Paysans d'occident: XIe-XIVe siècles*, l'histoiren; 48 (Paris: Presses universitaires de France, 1984).

(15) Philippe Contamine, *La Vie quotidienne pendant la guerre de cent ans: France et Angleterre, XIVe siècle*, la vie quotidienne ([Paris]: Hachette, 1976).

الذي خصت به اليوم أعمال مثيرة وشرسة، نشرت في بعض الأحيان في السلسلة نفسها، وأعادت تركيب حياة الفلاحين في مختلف مظاهرها بما فيها المظاهر المادية[16]. هل ما زال ذلك يعني تاريخاً أم أنه إثنوغرافيا (أو ربما «إثنوغرافيا ذاتية»)؟ لا يهم ذلك بما أن المؤرخ إذا أراد الغوص في الحياة المادية عليه أن يتحول إلى إثنوغرافي، ويؤكد كتاب: **مونتايو، قرية أكسيتانية من 1294 إلى 1324** الذي ألفه إمانويل لو روا لادوري على وضوح إثنوغرافيا الماضي وشرعيتها[17]. هناك كتب وفصول كتب، وعلى الخصوص مقالات: وعدد هذه المقالات كثير في مجلة: **حوليات. اقتصاديات. مجتمعات. حضارة**، وهي مجمعة تحت عنوان: **الحياة المادية والسلوكيات البيولوجية**، أو هي ضمن أعداد خاصة وقع تخصيصها لـ **التاريخ البيولوجي والمجتمع** (آذار/ مارس ـ حزيران/ يونيو 1975)، و**أنثروبولوجيا فرنسا** (تموز/ يوليو ـ آب/ أغسطس 1976)، **والمناخ والتاريخ** (آذار/ مارس ـ نيسان/ أبريل 1977)، أو كذلك في: كراسات **الحوليات**[18]. هذه الدراسات، على كثرة عددها، قد لا تكون تاريخاً للثقافة المادية، وهو تاريخ لا يزال في حاجة إلى كتابة، ولا يزال متقطعاً في الزمان والمكان، ولم يحصل بعد على استقلاليته: المؤلفون الذين يتعرضون للنقد يعرّجون عليه بصورة

---

(16) Pierre Jakez Helias, *Le Cheval d'orgueil: Mémoires d'un breton du pays bigouden = March al Lorh*, terre humaine, traduit du Breton par l'auteur (Paris: Plon, 1975), et Henri Vincenot, *La Vie quotidienne des paysans bourguignons au temps de Lamartine*, la vie quotidienne ([Paris]: Hachette, 1976).

(17) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Montaillou: Village occiton de 1294 à 1324*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1975).

(18) Jean Jacques Hémardinquer, ed., *Pour une histoire de l'alimentation: Recueil de travaux*, cahiers des annales; 28 (Paris: Armand Colin, 1970).

عرضية، وبعضهم يعتبر أنه أقحم قسراً تحت راية أجنبية. ولكن، ومن خلال البيليوغرافيا المشتتة يمكن أن نلاحظ بعض الدراسات المتقدمة، وبعض الفرضيات المثمرة، وبعض الرصيد من النتائج[19].

تاريخ للأرض

إن مختلف قطاعات البحث لا تسير بالسرعة نفسها، فتاريخ الأرض ليس أوفرها حظاً على رغم أسبقيته، وعلى رغم التقاليد الجامعية في فرنسا، والتي جمعت بين التاريخ والجغرافيا. وربما كذلك أدى الوعي الذي يعدّ قديماً، بتأثير الوسط الطبيعي في المدرسة الفرنسية للجغرافيا البشرية، إلى نوع من انسداد الأفق: القدرية الجغرافية والحتمية البدائية التي تدينها اليوم معطيات التاريخ والإثنوغرافيا. ولم يكن المنزل[20] بمواده وبشكله، لا في الحاضر ولا في الماضي، في تبعية ضيقة للظروف المناخية أو الإمكانيات المحلية. لقد شيّد الناس مبانيهم بالخشب في إنجلترا في العصر الوسيط في مناطق تكثر فيها الحجارة قبل أن يكدوا في بناء منازل حجرية في مناطق تنعدم فيها مقاطع الحجارة. إن المنزل ليس فعلاً طبيعياً وكونياً بما أنه توجد شعوب تعيش في أصقاع باردة، وربما قاسية، مثل الأونا (Onas) في أرض النار (Terre de feu) أو

---

(19) لا بد لنا هنا أن نذكر بحوث معهد دراسات الثقافة المادية في العصر الوسيط بأكاديمية النمسا للعلوم (Institut für Mittelalterliche Realien Kunde Östterreichs) ومختلف الملتقيات التي ينشر أعمالها مثل: *Adelige Sachkultur des Spätmittelalters: Internationaler kongress, krems an der Donau, 22. bis 25. september 1980*, [mit Beiträgen von Roger Sablonier [et al.]] (Wien: Verl. der österreichischen Akademie der Wissenschaften, 1982).

(20) Amos Rapoport, *Pour une anthropologie de la maison = House Form and Culture*, aspects de l'urbanisme; 11, traduit par Anne M. Meistersheim et Maurin Schlumberger (Paris: Dunod, 1972).

الأبوريجين (Aborigènes) في تسمانيا (Tasmanie)، حيث يكتفون بستائر تقيهم من الرياح.

وكذلك تبيّن أن الإجلال القديم الذي كان يكنّه التاريخ للجغرافيا هو إجلال عقيم. ولم يؤد في كثير من الأحيان إلا إلى إنتاج تلك الفصول الأولية التي حدّدت في أحسن الحالات الإطار الطوبوغرافي لدراسة تاريخية يكون تأثير الوسط الطبيعي فيها غير متواصل. وضد هذا «التصور الجامد لعلاقات الإنسان بالوسط» الذي يحصر تدخّل الإنسان في حدود إمكانوية ضيقة، نتحدث اليوم عن حركية المجال. ونعوّض اليوم مفهوم «الوسط الطبيعي» الذي أصبح فعلاً أسطورة بمفهوم النظام البيئي الذي أنشأه الإنسان ببطء وطوّره، من ذلك: المجال الريفي حيث أحدث تعاقب توازنات مؤقتة، وليست دائماً مستمرة في الثبات، وحتميات متعددة اجتماعية/ تقنية وطبيعية على حد سواء[21].

تتناسق هذه النية بصورة متناقضة مع تاريخ للأرض بعيداً عن أية أهداف إنسانية: يهدف تاريخ المناخ الذي كتبه إمانويل لو روا لادوري إلى تحديد الوقائع من دون استباق لنتائجها على تاريخ الناس. لقد أبرزت، من خلال تواريخ جني العنب، وتحركات الجلاميد وغيرها من المعطيات غير المباشرة التي تحتويها أرشيفاتنا: **العصر الجلمودي الصغير** في أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر الذي أعلن عنه التدهور المناخي في أواخر العصور الوسطى بعد مرحلة ارتفاع الحرارة من القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر.

---

(21) G. Bertrand, «Pour une histoire écologique de la France rurale,» dans: Duby et Wallon, dirs., *Histoire de la France rurale*, vol. 1.

من الديمغرافيا إلى البيولوجيا

تقدّم تاريخ الإنسان الفيزيولوجي بخطى عملاقة، على الأقل في مستوى عدد السكان والولادات والوفيات: وهو حقل الديمغرافيا التاريخية التي هي في مرحلة التوليف على المستوى العالمي، والتي اكتسبت استقلاليتها العلمية، حتى إننا لا نجرؤ على ضمها ببساطة إلى الثقافة المادية خوفاً من الاتهام بالإمبريالية. لكن هل يمكن الحديث عن أنثروبولوجيا تاريخية تهتم بالمظاهر الجسدية وبالسلوكيات البيولوجية وبالأمراض؟

التاريخ يعتمد على الاختصاصات الطبية

لا يعتبر تاريخ الأمراض[22] من المكاسب الجديدة، فقد أثارت الأمراض دائماً اهتمام الأطباء الذين أعطوها في كثير من الأحيان طابعاً طرائفياً. أما اليوم، وهو يعتمد على وثائق كمية وعلى الإحصائيات، فهو يقدم لنا الجذام الذي كان موجوداً منذ العصر الوسيط المتقدم، وبدأ يتراجع في أواخر العصر الوسيط إلى أن ظل محصوراً إلى الأمس في بعض المجموعات الباقية. وهو يذكّرنا أن مرض السل كان فتاكاً في العهد الروماني، ويخبرنا أن الزهري كان موجوداً بلا شك في القارة الأورو ـ الآسيوية في شكل قبسي، حتى قبل اكتشاف أمريكا. وقد اهتم تاريخ الأمراض بالنقائص والأمراض الناتجة من سوء التغذية والمآسي الجسدية للفئات الفقيرة والمجتمعات الحضرية. كما أبرز خاصة جسامة ظاهرة «الطاعون» ونسقها ومسالكها في العصر الوسيط (في القرن السادس، ثم انطلاقاً من سنة 1348) والفترات الحديثة. ويصعب اليوم تصور كيف استطاع

---

(22) Mirko Drazen Grmek, «Préliminaires d'une étude historique des maladies.» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 24, no. 6 (nov.-déc. 1969).

التاريخ الوقائعي أن يتجاهل لفترة طويلة، وبصورة متعجرفة، حدثاً بحجم الوباء الكبير لسنة 1348، والذي كان بتكراره العشري قد أنقص عدد سكان الغرب الأوروبي بنسبة تتراوح ما بين الثلث والنصف.

ومرة أخرى، وبدفع من إمانويل لو روا لادوري[23]، رسمت الأنثروبولوجيا التاريخية، انطلاقاً من تحليل عواملي للأرشيف العسكري، خريطة عجيبة لفرنسا في بداية القرن التاسع يقسمها خط يمتد من سانت مالو (Saint Malo) إلى جنيف (Genève)، يفصل بين فرنسا ذات العيون والشعور الفاتحة والقامات الطويلة، وفرنسا ذات العيون والشعور الداكنة والقامات القصيرة. ولكن فرنسا قديماً كانت أكثر بياضاً من فرنسا اليوم، والتي يبدو أن العيون الداكنة هي الغالبة عليها. كما توجد في القرن التاسع عشر فرنسا أمراض سوس الأسنان (منطقة نورمنديا (Normandie) والحوض الباريسي)، وفرنسا اللغاديد الضخمة (المناطق الجبلية)، وفرنسا القرع (حوض السان والشمال والجنوب الغربي)، وفرنسا السلعيين (لواز (Oise) وكنتال (Cantal))، وأخرى للمصدورين... ووصل مبحث الدم مجتمعاً مع التاريخ إلى نتائج مذهلة شككت في تعمير أوروبا الجنوب/ غربية بعنصر كرو ـ مانيون (Cro-Magnon)، وجعلت الباسك أحسن من يمثل الإرث البيولوجي لشعوب النيوليتيك.

تغيرات التغذية

يتقدم تاريخ التغذية هو الآخر على رغم استعصاء المصادر التي

---

(23) Jean Paul Aron, Paul Dumont et Emmanuel Le Roy Ladurie, *L'Anthropologie du conscrit français d'après les comptes numériques et sommaires du recrutement de l'armée (1819-1826), présentation cartographique*, civilisations et sociétés (Paris; La Haye: Mouton, 1972).

تنحصر أخبارها في أغلب الأحيان في أوساط خاصة: طلبة المبيتات الداخلية والمرضى والحاصلين على معاش من البحرية أو من الجيش. ولكن هناك ملتقيات تجمع باطراد المؤرخين وعلماء الآثار والمختصين في التغذية لاقتحام مباحث الأنظمة الغذائية التي كان تمنّاها فرناند بروديل. كان هناك سعي لتعويض تاريخ الخبز والخمر[24] الذي كان أثبت فاعليته بتاريخ التوازنات الحرارية والغذائية، وكذلك تاريخ الذوق بما يحتويه من شحنات اجتماعية واقتصادية ونفسية. لقد بدأت بعض المسائل تفرض نفسها: غرب وسيطي وحديث مستهلك للقموح (يجب كتابة ذلك في صيغة الجمع بما أن العبارة تعني العديد من الحبوب، الحنطة والشعير، كما تعني أيضاً القمح الصلب والقمح اللين) بدأ يشهد شيئاً فشيئاً تراجع الشعير واندثار الذرة البيضاء، وفرض الشيلم نفسه، ولكنه لم يربح شيئاً على المستوى الغذائي. لقد كان يعاني باستمرار نقصاً في البروتينات الحيوانية التي لم يعوّضها استهلاك الأسماك، ونقص المواد اللبنية والخضروات «لحوم الفقراء» (م. أيمار (M. Aymard)). ويعدّ الخمر الذي هو في كل الحالات أعذب من ماء مشبوه مكملاً تنشيطياً، إذ يوفر استهلاكه الذي تزايد في الفترة الحديثة جملة من الحريرات بثمن زهيد. إلا أن بحوث لويس ستوف[25] (Louis Stouff) وبعض الباحثين الآخرين، أكدت وجود حدّ أقصى من الغذاء اللاحم في نهاية العصر الوسيط: استهلاك اللحم في مدينة كمدينة كاربانترا (Carpentras)، والشيء نفسه بالنسبة إلى مدن أخرى وجهات أخرى

(24) Roger Dion, *Histoire de la vigne et du vin en France: Des Origines au XIXe siècle* (Paris: [L'Auteur], 1959).

(25) Louis Stouff, *Ravitaillement et alimentation en Provence aux XIVe et XVe siècles*, civilisations et sociétés; 20 (Paris; La Haye: Mouton, 1970).

مثل صقلية، كان أكثر مما سيكون عليه حتى في القرن التاسع عشر. وهذا يعني حقيقة أنه لحم في بعض الأحيان محدود الجودة، ولكن الاختلاف واضح مع رتابة تركيبة الأطعمة في العصور الكلاسيكية وعصر الأنوار، حيث لا يوجد فيها اللحم إلا بصورة محدودة، إلى أن غاب كليا في بعض الأحيان كما هو الشأن عند فلاحي صقلية. إننا هنا بعيدون عن الرواية الهزلية أو عن التعارض البسيط، وهو تعارض معقول، ولكنه سطحي، بيّن بذخ الموائد الأميرية ومحدودية زاد الفقير. ولا نعدم الفائدة عندما نلاحظ، كما لاحظ فرناند بروديل التحول الكبير في الذوق الذي ميّز القرن الثامن عشر: تراجع التوابل التي لم تعد ضرورية كثيراً لتصبير اللحوم وجعلها مستساغة، وظهور الأطباق الحلوة، وكذلك لا نعدم الفائدة عندما نلاحظ أن العادات الغذائية الجديدة احتاجت إلى كامل القرن التاسع عشر حتى تستطيع الانتشار في الأرياف الفرنسية.

الميدان المفضل لعلم الآثار

يوفر المنزل فرصة للقاء بين المؤرخين والجغرافيين والإثنوغرافيين، إلا أن المؤرخ هو أقلهم راحة، فهو محكوم بوثائق تهتم بالبناءات المدهشة أو بالمعطيات الاقتصادية: القصر أو السكن البورجوازي أسهل عليه من ولوج مسكن الفلاح الذي صيغ بحسب قوالب جاهزة بريشة الفنان أو صاحب المنمنمات، هذا إذا لم يتجاهله أصلاً؛ يكون تدخل عالم الآثار أساسياً بالنسبة إلى العصر الوسيط، وبصورة أفضل بالنسبة إلى العصور القديمة. ولا تتغير الأمور في الفترة الحديثة، حيث ننتظر من نوع من الآثار «المعلمية» التي تعتمد دراسة المنازل القديمة، والتي لا تزال قائمة، معلومات أكثر مما ننتظره من الوثائق. ومن النادر أن تسجل الوثائق المكتوبة بواسطة مقاييس غير مضبوطة لقياسات المنازل، مثل « الذراع» أو «المجرى»، أو تخبرنا

عن تنظيم نشاط عمال البناء، أو تفصل لنا توزع المنازل العادية داخل مدينة كباريس في العصر الوسيط[26]. يمكن إذن أن نرسم ملامح تطور بناية في الغرب بصورة كبيرة من خلال المعطيات الأثرية بعدما فعلت ذلك سيمون رو (Simone Roux) وبيار شونو[27]: إن العصر الوسيط هو عصر الخشب، وهو ما يجب ألا يحجبه الإرث المكوّن من المعالم الحجرية التي تركتها لنا قرون العصر الوسيط. إن المنزل الذي تخلده الرسوم، حضرياً أكان أم ريفياً، هو منزل من خشب، ولكن مع وجود الفارق الكبير بين الخصّ، شبه الغار في العصر الوسيط المتقدم، والذي قدّ من الأعمدة وأغصان الأشجار واللبن، والمنزل الحضري في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وهو منزل بني من قرم الخشب القصير الذي يعبّر عن إبداع النجار، والذي جمعت فيه مجموعة من الطبقات الخشبية الصغيرة في تراصّ محكم قلّ ما يصيبها الاعوجاج. أما بيت الحجارة، رمز الرفاهة الاجتماعية وجزء من رأس المال، فقد انتشر في ما بعد، بداية من نهاية العصر الوسيط، ليتفوق

---

(26) *La Construction au moyen âge: Histoire et archéologie: Actes du congrès de la société des histoirens médiévistes de l'enseignement supérieur public, Besançon, 2-4 juin 1972*, annales littéraires de l'université de Besançon; 145 (Paris: Les Belles lettres, 1973); Jacques Lasfargues, dir., *Architectures de terre et de bois: L'Habitat privé des provinces occidentales du monde romain, antécédents et prolongements, protohistoire, moyen âge, et quelques expériences contemporaines: Actes du 2e congrès archéologique de Gaule méridionale, Lyon, 2-6 novembre 1983*, documents d'archéologie française; 2 (Paris: Editions de la maison de sciences de l'homme: Diffusion, CID, 1985), et Odette Chapelot et Paul Benot, eds., *Pierre et métal dans le bâtiment au moyen âge [colloque]*, recherches d'histoire et de sciences sociales; 11 (Paris: Editions de l'école des hautes études en sciences sociales, 1985).

(27) *Le Bâtiment: Enquête d'histoire économique XVIe-XIXe siècles*, industrie et artisanat; 6 (Paris; La Haye: Mouton, 1971-).

في القرن الثامن عشر، حتى ولو أنه لم ينتشر في مختلف الولايات، ولم ينتصر على جميع أنواع الفقر.

استطاع البيت الفلاحي من الخشب في مرحلة أولى، ثم من الحجارة في مرحلة ثانية، أن يطور مشروعاً سيصبح معلماً أثرياً، ثم شاهداً إثنوغرافيا، ففي ألمانيا انضافت إلى الغرفة الوحيدة التي كانت سائدة، كما لو أنه تقسيم خلوي، غرفة أخرى سيكون لها شأن، وستحتوي على مجمرة، في حين قسمت الغرفة الكبيرة التي يعيش فيها أهل البيت لتفضي إلى سقيفة، وإلى فصل ما بين بيت الأكل والمطبخ. وفي أوروبا الوسطى والدانوبية يمتد البيت المنقور ليلتحم بغرفة خارجية عبر سقيفة تؤدي دور المطبخ، لتفضي في النهاية إلى شكل البيت الفلاحي، البيت الكلاسيكي المثلث الوظائف.

لدراسة المنزل وأثاثه لا بد من مصادر مكتوبة

تبدو القرية أو المدينة في ما وراء المنزل، وداخل المنزل يوجد الأثاث. في هاتين الحالتين يكون الاعتماد على الآثار والوثائق المكتوبة ضرورياً، إذ لا يمكن الاستعاضة عن ضبط المخلف بعد الوفاة إذا ما كان الموروث من الأثاث الخشبي، وهو أثاث محدود في بيوت الفلاحين حتى الفترة الحديثة، ومن ذلك نجد: طاولة، وهي عبارة عن لوحة على محامل، ومجلس من خشب صالح لاستعمالات متنوعة، إذ هو خزانة وأريكة وسرير في الوقت نفسه. توجد بيبليوغرافيا ضخمة تتعلق بالقرية أو بالمدينة، ولكن ما هو منقوص هو الدراسات التي تعيد تركيب الفضاء الحضري أو الفضاء القروي[28] والتجهيزات الجماعية، كما توجد دراسات قليلة حول

---

(28) François J. Himly, *Atlas des villes médiévales d'Alsace* ([Strasbourg]: Fédération des sociétés d'histoire et d'archéologie d'Alsace, 1970).

المسالك والنقل، باستثناء ما هو متعلق بالمسالك النهرية الكبرى التي تتوفر حولها معلومات هامة تتعلق بالمدن التجارية في بحر الشمال أو في البحر المتوسط.

اللباس: مصدر هام

يقدم تاريخ اللباس أحسن مثال على الصعوبات التي تعترض دارس الثقافة المادية: تشتت المصادر بحسب الأوساط، ووجود تأثيرات متعددة المشارب تؤدي إلى تأويلات سريعة، وكذلك كثرة الأحداث التي لا تسمح بتبيّن الخطوط الكبرى. والمصادر في هذا الباب هي مصادر إيقونوغرافية، وهي كثيرة. حتى فترات ما قبل التاريخ ليست خالية من ذلك: تقدم الرسوم الجدارية على الأقل بعض الملامح البشرية.

ولكن، وعلى عكس ما يتعلق بالبيت، فإذا لم يكن لباس الإنسان العادي غائباً من الرسوم الزخرفية المتوفرة، فكثرة المعلومات حول لباس الأوساط الأرستقراطية قد تحوِّل وجهة المؤرخ نحو ما هو مفرد؛ حول تأثيرات الموضة مثلا. إن اللباس هو نقطة التقاء التأثيرات المتنوعة الناتجة من تقنيات النسيج (أكثر منها من تأثيرات الخياطة) ومن البنى الاجتماعية، ومن المبادلات، أي ما هو اقتصادي، ومن الضغوطات المادية التي تفرضها الوظيفة مثلاً (لباس العامل أو لباس الجندي)، ومن الاختلافات الجنسية التي نريد تأكيدها أو لا نريد، ومن الحالات النفسية والأيديولوجيات والسياسة (اللباس الثوري مثلاً). إن الخطر هنا هو التسرع في تحديد العامل المؤثر في مسألة التطور والتغيير من دون تأن، فحركية الأحداث غير المتوقعة تمنع بكل تأكيد من الانصياع لوظيفية يمكن أن يحدّدها أي عامل من العوامل. لقد وقع إلى حد الآن تمييز العامل الاجتماعي،

ومن الأكيد أن للباس دلالة اجتماعية، ولكن ذلك لا يعكس التغيّرات إلا في اتجاه واحد.

تعدّد الأسئلة ووجوب تعديل الأجوبة

تعدّ الموضة ظاهرة اجتماعية، ولكن هل من تفسير لماذا لم تكن كذلك في مختلف العصور وفي مختلف البقاع؟ يؤكد الباحثون أنها نشأت في القرن الرابع عشر قي الغرب الأوروبي، وليس غريباً أن نذكّر بظهور الحب في القرن الثاني عشر. ليكن الأمر كذلك. لنفترض ما يأتي: لماذا في هذا التاريخ بالذات؟ ولماذا كان يجب انتظار القرن الثامن عشر لتنتشر موضة المدن في الأرياف، وتستقر هنالك في شكل لباس جهوي؟

في النهاية، صنع تاريخ اللباس من جملة الأحداث التي يصعب من خلالها أن نتبيّن ما هو أساسي. هل هو الفارق بين لباس اللحاف واللباس المضبوط؟ في الغرب يعتبر الأول من مميزات العهود القديمة، في حين حقق الثاني ازدهاره في حدود القرن السادس عشر، ولكن بين هاتين المرحلتين جمع اللباس بين هذين الأسلوبين. هل هو الفارق بين اللباس الطويل واللباس القصير؟ دائماً، وبالاقتصار على الغرب، قد يكون الثاني عوض الأول في القرن الرابع عشر (مرة أخرى). في الواقع، يعني ذلك نشأة لباس يبرز الخصائص الجسمانية عند الرجل، ويؤكد على الفرق بين الرجل والمرأة، وهو أمر لا يقل أهمية. ويمكن أن نهتم أيضاً بالتمايز الذي وقع بصورة تدريجية بين اللباس الخارجي واللباس الداخلي، فقد يكون هذا الأخير ناتجاً من الطريقة القديمة في اللباس، أي انطلاقاً من ألبسة قديمة، مثل القميص أو السروال العريض عند الشعوب الجرمانية. ويمكن أن نؤكد أيضاً على توحد اللباس الرجالي أو

البورجوازي في القرن التاسع عشر، وهو لباس يخفي أشكال الجسد، ويكسي الرجال بأكثر الألوان قتامة وحزناً. وظهور الأجسام المنتفخة في القرن السادس عشر ليس بأقل أهمية، فقد أعطى مظهر المرأة لقرون عديدة أشكالاً اصطناعية. ولكن هل يعني هذا أموراً أساسية؟ ألم توجد أحداث أخرى؟ وكيف يمكن أن نقرر الاحتفاظ بأحداث ذات ديمومة مؤكدة، ولها بعض من الكونية؟: يتم ذلك باعتماد «الظرفية الطويلة» في غياب «المدى الطويل».

تطور التقنيات

إن أكثر فصول تاريخ الثقافة المادية وضوحاً في الوقت الحاضر هو فصل التقنيات[29]. صحيح أنه منبث في مختلف الفصول الأخرى، ولكن نعرف التقنيات الفلاحية أكثر من التقنيات الغذائية المرتبطة بها، ونعرف تقنيات النسيج أكثر من معرفتنا باللباس. ويمكن في الحقيقة أن يعتمد تاريخ التقنيات على العديد من المراكز المختصة، مثل مركز بحوث تاريخ العلوم والتقنيات (مركز ألكسندر كويراي)، ومركز توثيق تاريخ التقنيات، ومركز تاريخ التعدين. كما يعتمد على العديد من المتاحف أيضاً: متحف الحرف والفنون، وقصر الاكتشافات، ومتحف الحديد، وكثير من المتاحف المختصة الأخرى في الجهات، مثل متاحف مدينة روان (Rouen) وأفينيون (Avignon) الخاصين بالمصنوعات الحديدية، من دون الحديث عن أحدث متاحفنا الوطنية، أي متحف الفنون والتقاليد الشعبية، حيث تتجمع الثقافة المادية، ولو أن ذلك تم من دون منهج تاريخي.

---

(29) Maurice Dumas, *L'Histoire des techniques, son objet, ses limites, ses méthodes* (s. l.: s. n.], 1969).

لقد ظهرت بعض الكتب ذات المنحى الموسوعي[30]، وكذلك بعض الدراسات المحدودة، مثل الكتاب الرائع للين وايت الابن[31] (Lynn White Junior)، الذي أبرز في أعقاب مارك بلوخ التحولات التي أحدثها الركاب والطاحونة المائية والمحراث والعجلة في العصر الوسيط الغربي، وبعض التطورات الأخرى التي تربط بين التقنية والمجتمع[32].

وقد تراكمت جملة من المعطيات، ولكنها لم تنظّم بسهولة. أين يمكن تحديد المنعطفات الكبرى في تاريخ التقنيات؟ من غير شك ليست ممثلة في الاكتشافات في حدّ ذاتها. وإذا طبقنا النموذج البروديلي لأزمنة التاريخ الثلاثة[33] يكون الاكتشاف من ضمن الأحداث، وهو ضروري للتغيير، ولكنه غير كاف لإحداثه. قد يظل الاكتشاف في سبات لفترة طويلة من الزمن قبل أن يصبح له تأثير ما، فلا يهم إذا كانت الطاحونة المائية معروفة في العصور القديمة إذ لم تكن مستعملة بانتظام. ولكن هناك أيضاً بعض الاكتشافات الفاشلة، ولكن يجب البحث عنها: لقد بدأ الرومان الغاليين (Gallo-Les Romains) استنباط آلة حصاد غير مناسبة للاقتصاد الريفي، وسريعاً

---

(30) Maurice Dumas, éd., *Histoire générale des techniques*, préf. générale par Maurice Dumas, 5 vols. (Paris: Presses universitaires de France, 1962-1979), et Charles Joseph Singer [et al.], eds., *A History of Technology*, 8 vols. (Oxford: Clarendon Press, 1954-1984).

(31) Lynn White, *Technologie médiévale et transformations sociales*, civilisations et sociétés; 13, traduit de l'anglais par Maurice Lejeune (Paris; La Haye: Mouton et cie, 1969).

(32) Daniel Furia et Pierre Charles Serre, *Techniques et sociétés: Liaisons et évolutions*, collection U (Paris: Armand Colin, 1970).

(33) Fernand Braudel, «La Longue durée,» dans: *Ecrits sur l'histoire*, science de l'histoire ([Paris]: Flammarion, [1969-]).

ما وقع تناسيها. إن الاكتشاف إما أن يكون في وقته أو ينتظر ساعته المناسبة.

التردد في الحديث عن الثورات التقنية

من بين الأحداث الهامة التي أخذت أبعاداً متفاوتة في تحريك عالم التقنيات، هناك ما اعتبر من ضمن التحولات الكبرى بما أنه وقعت تسميتها بالثورات. إن هذه الفترات المسرعة يجب معرفتها لأن لها حظوظاً في جر الثقافة المادية بأسرها في أعقابها. ولكن إذا نظرنا إليها عن كثب لوجدناها متحللة. لقد فقد المختصون في ما قبل التاريخ ثقتهم الجميلة في ما يتعلق بـ «الثورة النيوليتيكية»: إن السيطرة على النباتات وتدجين الحيوانات والاستقرار وصناعة الفخار، كل هذه الأمور لم تعد تبدو كما لو أنها مترابطة بالضرورة. كما أننا لا نعرف بالضبط ما هو الدور الذي أدته التقنيات في الثورة الزراعية في العصر الوسيط: نحدد هذه الثورة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر عندما حدثت التغييرات الحاسمة، مثل المحراث وصفائح الخيول والركاب وأدوات الجر والتناوب الزراعي الثلاثي التي برزت في العصر الكارولنجي، والتي تراكمت تأثيراتها في الزمن. كذلك أدوات الجر التي تستعمل العجلات والعجلة والساعة الميكانيكية والسلاح الناري، وهي أدوات ظهرت ما بين نهاية القرن الثاني عشر ونهاية القرن الرابع عشر، فهل هي أقل تأثيراً في الحياة المادية للغرب الوسيط؟ أما بالنسبة إلى «الثورة الزراعية الجديدة»، فعلى رغم تطور الزراعات العلفية والتناوب الزراعي الرباعي وتحسين نوعية الحيوانات، الا أننا ما زلنا اليوم نتردّد في تحديد تاريخ نشأتها، وربما حتى في الاعتراف بذلك. إن الثورة الصناعية أكثر وضوحاً، ولكنها هي أيضاً منبثة في عشريات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

في الجملة، ما يبقى متأكداً هو وجود تطور، ولكنه تطور غير ثابت إلا بصورة إجمالية، وبالنسبة إلى الإنسانية في مجملها. ويعدّ وزن المجتمعات الغربية في هذا الإطار ضخماً، فهو ربما يحجب تطورات مختلفة وثقافات ثابتة، وحتى بعض التراجع. إن مفهوم التطور في حدّ ذاته ليس بالمفهوم الكوني، فقد تجاهلته بعض المجتمعات أو رفضته. لقد حافظت اليابان بانغلاقها أمام أي تأثيرات خارجية على الجمود لقرون من الزمن في الوقت نفسه. وتعتبر حالة الصين أكثر غرابة: بعد أن اكتشفت كل شيء في بداية عصرنا اكتفت بهذه المكتسبات من دون إبداع إلى الأمس القريب. وهنا يتدخل بعد آخر، وهو البعد الفضائي للثقافة المادية، والذي نادراً ما أخذه مؤرخو التقنيات بعين الاعتبار - باستثناء أندريه لوروا غورهان - وهنا تبرز أهمية مفهوم «المجال الثقافي»[34]، وهو مفهوم ضروري للتاريخ والإثنولوجيا، كما هو ضروري في الحقل المادي وحقل البنى الفوقية.

الثقافة المادية وعلم الآثار

ليس من باب الصدفة أن يهيمن علماء الآثار بإشكالياتهم وبأبحاثهم على معاهد تاريخ الثقافة المادية في الاتحاد السوفياتي وبولونيا. لقد كان كازيميارز مايفسكي (Kazimierz Majevski) أول مدير لمعهد تاريخ الثقافة المادية في بولونيا، وهو المختص في علم الآثار الكلاسيكية. ويضم المعهد أربعة أنواع من الباحثين: أثريون مختصون في بولونيا بعصور ما قبل التاريخ والوسيطة، ومختصون في الآثار المتوسطية، وإثنوغرافيون، ومختصون في التاريخ

(34) مجموعة ثقافية تهم جهة من الكون بأكملها، ويمكن تعريفها بحسب مجموعة من المواصفات التقنية والاجتماعية الاقتصادية والدينية واللغوية.

الاقتصادي[35]. يستجيب الجمع بين الأثريين والمؤرخين والإثنوغرافيين لضرورة الربط والمقارنة بين ثلاثة أنواع من المصادر لكتابة تاريخ الماضي المادي. وتبرز المسؤوليات المنوطة بعهدة هؤلاء الأثريين - إذ يسيّر المعهد دائماً مختص في علم الآثار، وهو ويتولد هنسل (Witold Hensel) - وكذلك منشوراتهم، أن المختصين في الآثار هم الذين يحتلون المكانة الأولى.

في البداية، أضاف الأثريون، وهم الوافدون من مجالات مختلفة، إلى تعريف الحقل الجديد اهتمامات خاصة. لقد تساءلوا كثيراً حول العلاقات بين الثقافة المادية والفن، وليس ذلك من دون الشعور ببعض الصعوبات عند طرح الإشكاليات. تساءلوا، بعد تعريف الثقافة المادية كعلم المصنوعات، عن المكانة التي يمكن أن تكون بالنسبة إلى التحف وأدوات العبادة، وهي أشياء تعوّدوا على أخذها بعين الاعتبار بحكم تكوينهم. وتسيطر هذه الصعوبة على التفكير النظري لجان غازيوروفسكي (Jan Gasiorowski) الذي ساهمت أعماله قبل الحرب أو مباشرة بعدها في التأسيس لعلم جديد سماه: «إرغولوجيا» (Ergologie). ويعرّف غازيوروفسكي الثقافة المادية على أنها «مجموع كل النشاطات الإنسانية التي تستجيب لغاية واعية وتتميز بخصائص ضرورية تتحقق عبر أشياء مادية». يبدو تعريف كهذا أنه يقصي كل ما له علاقة بالفن والثقافة، ولكنه ورد ضمن بحث مخصص لعلاقة الفن بالثقافة المادية. هل هو مجرد إشكال يتعلق بالفصل بين بحثين مختلفين؟ قد يكون الأمر كذلك، ولكنه ليس من السهل حله. إن التحف الفنية لها قاعدة مادية، وهي

---

(35) Teresa Wasowicz, «L'Histoire de la culture matérielle en Pologne,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 17 (janvier-février 1962).

منتجة في كثير من الأحيان بواسطة آلات وتقنيات ليست شديدة الاختلاف عما هو مستعمل في الأنشطة البشرية الأخرى. وحتى الأدوات الضرورية ليست معدومة الجمالية التي يمكن أن تشدّ إليها الإثنولوجيين عندما يتحدثون عن الفن الشعبي. يجب أن نذكّر بذلك قبل التأكيد على أن الأشياء المادية تمثل تمفصلاً بين موضوع بحث، هو الثقافة المادية، ومنهج بحث هو المنهج الأثري. ويبدو من ناحية أن علم الآثار هو الطريق المفضل لمقاربة الثقافة المادية في الماضي، ومن ناحية أخرى أن الثقافة المادية هي أفضل الأهداف التي يمكن رصدها للبحث الأثري.

الأثر والمكتوب

يمكن أن تصطدم الثقافة المادية بسرعة، نظراً إلى ارتباطها بالتاريخ بحاجز لا يمكن تجاوزه إذا اكتفت باستغلال المصادر التاريخية: أي الوثائق المكتوبة. وسرعان ما تنضب المصادر المكتوبة ـ بحسب ماضي البشرية ـ كلما توغلنا في الماضي إلى أن تفقد نهائياً، فلا تبقى إلا المخلفات المادية، وهي نفسها التي يمكن أن تخبر عن الثقافة المادية، وهي في الوقت نفسه وثائق علم الآثار. ويمكن أن نضيف أن حاجز المكتوب هو أقل ارتفاعاً بالنسبة إلى الحياة المادية مما هو عليه بالنسبة إلى أي حقل آخر من حقول التاريخ. وفي الوقت الذي كانت فيه الكتابة محدودة، أي حكراً على عدد قليل من الناس، فتمنحها هذه المحدودية قيمة كبرى وتضفي عليها طابعاً قدسياً، فالأحداث التي تسجلها ليست هي تلك التي تغذّي تاريخ الثقافة المادية. إن رجل الدين لا يتوقف عندما يمكن أن يرى فيه لغواً: من ذلك وصف ما يعرفه قراؤه بصورة جيدة بحكم المشاهدة العينية والعادة لأنه من المسائل اليومية.

هل يوجد أكثر عادية وأكثر يومية من تلك الحركات والأشياء والاستعمالات التي تمثل الثقافة المادية؟ وإذا صادف أن رجل الدين ذكر بعض هذه الأشياء، فهو يذكرها في كلمة، وهي كلمة تقدم للمؤرخ تساؤلات أكثر مما تقدمه من الأخبار.

ما هي الآلة التي كان يصفها محرر **بوليبتيك إرمينون** (*Polyptique d'irminon*) في القرن التاسع، وماذا كان يصف سوجيه (Suger) في القرن الثاني عشر؟ هل كانا يفكران في الشيء نفسه؟ يعني ذلك بلا شك أداة حرث مجهزة في مقدمتها بعجلات، ولكن هل يمكن أن نتصور أنها أداة حرث لها عجلات أم هو محراث حقيقي مجهز ببعض العناصر الأخرى؟ لا يزال النقاش متواصلاً. لنتصور أيضاً المركب الفيكيني (Viking)، فهو ليس غائباً عن المصادر المكتوبة. إنه يضفي حيوية على مجازات الأشعار السكلدية (scaldiques) التي تسميه: «سارية البحر الطويلة» أو «أداة التزلج الكاسرة». إنه كثير الذكر في الملاحم العائلية، ولكن هذه الوثائق لا تقدم إلا مزاياه، كما تقدم الوثائق الإيقونوغرافية ملامحه العامة.

كل ما نعرفه عن صناعة السفن عند الإسكندينافيين، نعرفه من خلال القبور ذات المراكب أو من خلال حطام المراكب الغارقة في البحر، وكل ذلك بفضل علم الآثار.

ومن ناحية أخرى، إذا كانت الثقافة المادية تعبّر عن ذاتها بالأشياء ومن خلالها، فعلم الآثار معني بذلك. إن علم الآثار أيضاً يمكن تعريفه على أنه علم المواد المصنوعة، ولكن على شرط أن تشمل عبارة «المواد المصنوعة» المباني وحتى التراب الذي وقع تحريكه، وأيضاً على شرط أن تستبعد المواد المفردة أو المجموعات الفنية الاعتباطية. ويكشف علم الآثار عن مخلفات أثرية لها علاقات في ما بينها، وعن أحداث مترابطة، وهي تلك التي تنظمها الثقافة

المادية. علاوة على ذلك، يبدو الإنسان هو المهني من خلال هذه الآثار، ويمكن أن يكون **الإنسان والأثر** أيضاً من برامج علم الآثار.

من المعلوم أنه ليس هناك تطابق كلي بين الثقافة المادية وعلم الآثار. إن المزهرية مثلاً ليست فقط تقنية ووظيفة استعمال. إنها تستجيب بشكلها، وربما بزخارفها، لاختيارات ليست من مجال البنية التحتية، وقد يكون لها أيضاً مدلول اجتماعي، ويمكن أن تكون شاهدة على نوع من العلاقات الاقتصادية. وليس هناك موجب لكي ترفض التحاليل الأثرية مثل هذه التجاوزات، ولكن بما أن علم الآثار يكشف عن مواد محسوسة، فهو يجد سهولة في التعامل مع ما هو مادي. إنه يشعر هنا بنوع من الطمأنينة، وهنا أيضاً يستطيع الحصول على بعض المسلّمات. وبعيداً عن الثقافة المادية تكثر التأويلات وترتفع معها نسبية النتائج.

التوجهات الجديدة لعلماء ما قبل التاريخ

اعتمدت دراسة مجتمعات ما قبل التاريخ وتطوراتها منذ بدايتها، أي منذ عهد بوشيه دو بيرث، على تحليل الأثاث والتقنيات. ومنذ عهد قريب أصبح علماء ما قبل التاريخ يستعملون مصطلح «الثقافة المادية»[36]. وعلى رغم أنهم يعرفون الثقافات من خلال ما هو مادي، فلم تسمُ طموحاتهم إلا منذ عهد قريب إلى إعادة تركيب مجموعات ثقافية لها أهميتها.

وإلى هذا الحدّ لم تؤخذ بعين الاعتبار إلا بعض العناصر التقنية المحدودة، والتي لها دلالتها وتمثيليتها الثقافية: مثل الأدوات ما قبل التاريخية، ثم الخزف، ثم الأسلحة المعدنية. وهذا الأثاث الذي

(36) Jean Guilaine, *Premiers bergers et paysans de l'occident méditerranéen*, civilisations et sociétés; 58 (Paris; La Haye: Mouton, 1976).

خضع لتحليلات تعتمد التفرقة النوعية يؤدي دور المحدّد الزمني والشاهد على الهجرات الإنسانية، وعلى تطور التقنيات، كل ذلك ضمن تمش تراتبي عمودي بصورة أساسية. واليوم هناك اختيار لتمش أفقي، وإلى أن نظرة المؤرخ وقعت إضافة إلى نظرة الإثنولوجي. كما وقع تعويض عبارة «منجم أثري»، وهو مفهوم غامض يشير إلى وجود آثار بشرية، بعبارة «السكن». لقد آل فريق أندريه لوروا ـ غورهان في موقع بانسيفين[37] (Pincevent) على نفسه إعادة هيكلة المجال المسكون، وتنظيم بناءاته ومنازله، ومجالات نشاطه وفضاءات الراحة فيه، ومسالك التنقل، وكذلك إعادة تركيب الأنشطة المنزلية والصناعية والتغذية. وفي هذا الموقع، كما هو الشأن في موقع تيرا أماتا (Terra Amata) أو في مغارة هورتوس (هنري دو لوملاي (Henry de Lumley))، بعثت من جديد كل الحياة المادية لمجموعة بشرية في مرحلة من مراحل هجرتها الدائمة، وذلك من خلال تحليل دقيق لمخلّفاتها وربطها في ما بينها، وليس فقط من خلال الأدوات، وإنما أيضاً من خلال فضلات الصناعات، ومن خلال بقايا الأكلات، وهي شواهد حية على الأنشطة والتنقلات.

الثقافة المادية، منتوج ثانوي للتعبيرات الفنية في الآثار الكلاسيكية

لا يمكن لعلم الآثار الكلاسيكي أن يتجاهل الثقافة المادية كلّياً، ولكنه لم يعرها اهتماماً إلا بصورة عرضية في إطار مشاريع لها أهداف أخرى، وحتى المفهوم ظل بعيداً عن اهتماماته. إن الفن حتى

---

(37) André Leroi-Gourhan et Michel Brezillon, *Fouilles de Pincevent: Essai d'analyse ethnographique d'un habitat magdalénien, la section 36*, supplément à «galia préhistorique»; 7e (Paris: Editions du centre national de la recherche scientifique, 1972).

في أبسط أشكاله ـ نشير هنا إلى الزخارف المنمّطة للخزف الأحمر ـ والمعتقدات التي تعبّر عنها معالم العبادة، وشواهد الطقوس الجنائزية، والتنظيم السياسي في تجلياته المادية، والعمران وشبكة المسالك، كانت ولا تزال أهدافاً جوهرية لبحوث تعرف الحضارة بمظاهرها الفوقية، وهو عكس ما يقوم به علم آثار ما قبل التاريخ. وقد انضم الاقتصاد إلى المواضيع الأخرى بصورة متأخرة من خلال التقنيات في تعبيرها عن المبادلات. وإذا كانت الحياة المادية غير غائبة على كل حال عن أعمال علم الآثار الكلاسيكية، فهي تمثل جزءاً هاماً نسبياً من مواضيع الفن القديم ـ لنستحضر زخارف القبور الإتروسكية أو اللوحات المصورة على الأقداح الإغريقية. إننا لا يمكن أن نهتم بالمعالم والآثار الفنية من دون الاهتمام بالأدوات التي أنتجتها. وأخيراً، حتى المصنوعات ذات الوظيفة الجمالية، مثل المزهريات، يمكن أن تكون لها وظيفة استعمالية.

ولكن أي فكرة غريبة تلك التي يحملها الإنسان عن الحياة المادية في العصور القديمة من خلال المتاحف الأثرية التي تضع جنباً إلى جنب شواهد عن البذخ الأرستقراطي ومنتجات فن صناعي ليست له أية جمالية، ولكنه اكتسب قيمة من خلال علم الآثار؟ وهذا خطأ، لأن نمط حياة الكتل الاجتماعية القديمة غائب، ولا يوجد إلا عرضاً من خلال ما تصوره الزخارف الفنية صدفة، وهو لا يبرز إلا باحتشام في ظل تفوق الطبقات المهيمنة التي تطمس حضوره.

الآثار السلافية نموذجاً

لم يشذّ علم الآثار الوسيطية عن هذه النظرة الانفصامية للحضارة التي يدرسها من خلال اهتمامه بالدرجة الأولى بالآثار الفاخرة. ويشهد على ذلك زخم الكتب والمتاحف الخاصة بالحضارة

الوسيطية، حيث تحتل الكنائس والقصور والعاج والطلاء وذهب المنمنمات وأدوات القرابين المكانة الأولى، وذلك على رغم أن الآثار الوسيطية هي التي توجد فيها التوجهات الأكثر وضوحاً والمشاريع العديدة التي تعنى بالثقافة المادية. كيف نفسر ذلك؟ ربما يرجع ذلك إلى اهتمام أكثر تركيزاً على البحوث التاريخية عند الذين يمارسون الحفريات، وهم في كثير من الأحيان من المؤرخين. واعتماداً على النموذج السلافي، وهو ليس الوحيد الذي أدى دوراً في توجيه الوسيطيين، وباستعارة المناهج الأكثر دقة من باحثي ما قبل التاريخ، استعار الوسيطيون أيضاً جزءاً كبيراً من إشكاليات هؤلاء.

وفي كل الحالات اقتنع علم الآثار السلافي بنجاحاته. لذلك قد يبدو من المبالغة القول إن البحث عما هو مدهش، مع بعض الاهتمامات الوطنية، لم يكن له أي تأثير في مشاريع البحث. وأخيراً لم يقع التغافل عن الأهداف المرصودة من خلال مشاريع مستمدة من الماركسية. لقد قام علم الآثار السلافي بتنظيمه المحكم وبإمكانياته الضخمة بحفريات في مواقع قرى ومدن، وخاصة المدن[38] أكثر من المعالم: لقد وقع الكشف عن أحياء كاملة بأنهجها وبيوت الضواحي المتواضعة ودكاكين الحرفيين، مثل دكان ذلك الإسكافي في مدينة نوفغورود (Novgorod) الذي عثر فيه على آلاف السيور الجلدية والكثير من الأحذية المستعملة، وكذلك على الحوض الذي رصفت فيه الجلود ليقع تجييرها، أو «بيت» كييف (Kiev) الذي هو بيت صائغي هجر عندما غزا المغول المدينة سنة 1240، حيث لا يزال القدر فوق الكانون، وقد وضعت فيه ملعقة خشبية مغطسة في عجين البرغل. كثير من أشباه مدينة بومباي (Pompei) إذاً وقعت مساءلتها بطريقة علمية بحسب منهج كلّي معتمد على طرق التحليل الأكثر

حداثة، وعلى عمل المخابر كتلك التي خصصت في بوزنان (Poznan) لدراسة النباتات المتحجرة، أو في لودز (Lodz) لدراسة الأقمشة القديمة.

وقد سمحت ظروف المحافظة التي توفرها تربة البلدان السلافية المبللة بإعادة تركيب حضارة خشب حقيقية لا تتكون منها الأواني المنزلية والأسلحة فقط، ولكن أيضاً المنازل التي شيّدت من سوارٍ متراصة، والأنهج التي قدت من دعائم خشبية أو من ألواح، والأسوار التي يبلغ ارتفاعها أكثر من عشرة أمتار تتراص فوقها قطع من الخشب السميك أو أكياس من خشب ملئت تراباً. كما يتتبع علم الآثار تطور التقنيات وصناعة التعدين التي استغلت مناجم الحديد مبكراً، والفلاحة التي تستعمل أدوات حراثة لها سكك حديدية منذ بداية عصرنا، والتي عرفت تعميم استعمال المحراث منذ القرنين الخامس والسادس. وقد وقع توليف هذه النتائج المبهرة بكمها، وبما جاءت به من جديد، في كتاب ويتولد هنسل: **الثقافة المادية للسلاف**[39] أو عبر منشورات ملتقيات الآثار السلافية في فرصوفيا (1965) وبرلين (1967).

من علم الآثار الوسيطي إلى علم الآثار الصناعي

لم يقتصر علم الآثار الحضري في الغرب على الحفريات في المعالم الدينية، وفي مواقع الموانئ الكبرى لبحر الشمال (بيركا

---

(38) Pierre Francastel, dir., *Les Origines des villes polonaises: Mémoires et exposés de Mme Deminska [et al.]*, congrès et collogues; 2, recueil de travaux publiés par Pierre Francastel (Paris; La Haye: Mouton, 1960).

(39) Witold Hensel, *Stowiańszczyzna wczesnośredniowieczna: Zarys kultury materialnej* (Warszawa: Pań對stwowe Wydawn Naukowe, 1956).

(Birka)، وإسكيرينغسال (Skiringsal)، وهيديباي (Hedeby)، ودورستاد (Dorstad)) أو في وينشستر (Winchester)، ويورك (York)، بل كشف عن المساكن، وعن شواهد النشاطات التجارية والحرفية، وعن آثار تنظيم المجال. ولكن علم الآثار القروي يعتبر أهم من يخدم تاريخ الثقافة المادية: كيف يمكن أن نتناسى أن القرويين كانوا يمثلون أكبر نسبة من سكان العصر الوسيط؟ إن علم الآثار القروي الذي لا يمكن أن نفصله عن علم الآثار الفلاحي - الذي يدرس الحقول المتكلّسة - هو قديم نسبياً في ألمانيا: لقد بدأ مع حفريات منازل العصر الوسيط المتقدم التي تتجاور فيها أكواخ ضيقة ومقوّرة مع بيوت كبيرة وطويلة بنيت بالخشب واللبن، وتطور علم الآثار بعد الحرب باهتمامه بقرى تعود إلى أواخر العصر الوسيط، وهي منازل ذات بناء أكثر إحكاماً، وفي بعض الأحيان بنيت بالحجارة المهندمة، وفي بعض الحالات الأخرى لها طابق علوي، وستكون في ما بعد هي المنازل التقليدية التي يصفها الإثنوغرافي[40]. لقد استفاد البحث في إنجلترا من كثرة الضيعات المسيّجة التي أخلت العديد من القرى من سكانها، وكلّست آثارهم تحت عشب حقول المراعي: لقد وقعت حفريات في أكثر من مئة موقع قرية، وهو ما يساعد على تتبع تطور السكن ودراسة العلاقة بين نوعية المنازل وأحجامها والمستوى الاجتماعي للسكان[41]. ولكن التقنيات والأدوات الفلاحية والتجهيز المنزلي، كل ذلك لم يحظ كثيراً بالنشريات التي عادة ما تكون منشورات أولية تنتظر بحوثاً

---

(40) «Archeologia e geografia del popolamento,» *Quaderni storici*, no. 24 (1973).

(41) Maurice Beresford et John Hurst, eds., *Deserted Medieval Villages: Studies* (London: Lutterworth Press, 1972).

متأنية، حتى وإن لم تكن قد بدأت بعد.

لم يقبل علم الآثار الوسيطي في البلدان اللاتينية من دون تردّد من طرف أوساط علمية لا تريد دائماً أن تقبل بأن لا تكون الوثائق التي تهم الضيعات الكبرى والجباية، وتعتني بالفئات المهيمنة، كافية لكتابة التاريخ المادي للفئات الشعبية الريفية أو الحضرية[42]. لقد عرفت البلدان الأنجلو ـ سكسونية، التي يتحالف فيها احترام التقليد مع حب المشاريع المثيرة، نشأة علم آثار ما بعد العصر الوسيط وعلم آثار صناعي وتطورهما. لا يهم فقر الوثائق العصر الوسيط فقط، إذ نلاحظ أن المنزل الريفي أصبح بفضل الحفريات أكثر وضوحاً في أواخر العصر الوسيط على الأقل في بعض الجهات، ولكننا نجهل كيف تطور في ما بعد. إن البيت التقليدي ليس إلا هراء في بعض الحالات، والتقاليد ليست في كل الحالات لا قديمة ولا جامدة.

يمكن أن نحسب لفائدة علم الآثار ما بعد العصر الوسيط في أمريكا الشمالية الحفريات التي تمت في المنشآت الأولى للاستعمار، والتي كانت عرفت تغييراً في نمط العيش المستورد من أوروبا نتيجة

---

(42) ولكن يمكن الإشارة إلى مجلة *Archéologie médiévale* ومنذ سنة 1974 إلى *Archeologia Medievale*. وقد نشرت حديثاً نتائج حفريات تمت في مواقع بعض القرى الوسيطة. انظر: Gabrielle Demians d'Archimbaud, *Les Fouilles de Rougiers (Var): Contribution à l'archéologie de l'habitat rural médiéval en pays méditerranéen*, publications de l'U. R. A.; no. 6. Archéologie médiévale méditerranénne. Mémoires; no. 2 (Paris: Editions du centre national de la recherche scientifique; Valbonne: Centre régional de publications de Sophia Antipolis, 1980), et Jean Marie Pesez, dir., *Brucato, histoire et archéologie d'un habitat médiéval en Sicile*, collection de l'école française de Rome, 0223-5099; 78, 2 vols. ([Rome]: Ecole française de Rome, 1984).

للظروف المختلفة ولصعوبات الوسط الجديد.

يسعى علم الآثار الصناعي[43]، الذي لا يحتاج إلى الحفريات، إلى الحفاظ على بقايا مصانع العصر الصناعي الأول أو المعامل الحديثة ودراستها: لا يمكن لتاريخ التقنيات ولظروف العمل إلا أن يستفيدا من الشواهد الملموسة التي تركتها منشآت رأس المال الصناعي وتجهيزاته. وفي فرنسا حيث يحتاج هذا الميدان إلى كثير من الجهد، وحيث تركت الصناعة مجموعات شاسعة من المعالم، مثل ملاحات آرك ـ أي ـ سينان (Arc-et-Senans) أو الحي الصناعي في فيلنوفيت (Villeneuvette) قريباً من كلارمون ـ ليرو (Clermont L'Herault) يخضع تحقيق متحف الكريزو (Creusot) إلى مثل هذه التأثيرات[44].

مشروع لتاريخ الثقافة المادية

على الرغم من الأعمال العديدة التي خصصت عن قصد أو عن غير قصد لتاريخ الثقافة المادية، وعلى الرغم من النفس الجديد الذي أعطاه له علم الآثار، فإنه لا يزال ميداناً حديثاً غير واضح المعالم وولادته لم تكتمل بعد. إنه لم يحدّد إلى الآن المقاربة التي تناسبه، ولا يزال غير قادر على التوليف. إن كتاب ويتولد هنسل: **الثقافة المادية للسلاف**، وإن كان كاملاً، يحتاج إلى فصل آخر، وهو فصل يحدّد معنى الثقافة المادية للشعوب السلافية في العصر الوسيط المتقدم: نتصور أنها ليست تجميعاً لجملة العناصر التي تكوّنها،

(43) Robert Angus Buchanan, *Industrial Archeology in Britain* (London: Allen Lane, 1972).

(44) «الملامح الأولى لعلم آثار صناعي في مجال المنطقة الحضرية كروزو ـ مونصو (Creusot-Monceau)».

فنحن ما زلنا في طور جمع مكوّناتها ووصفها. ولكي يكون تاريخ الثقافة المادية علمياً، عليه أن يصل إلى مرحلة التنظير، ويجب أن يكون قادراً على إبراز الأفكار المترابطة التي تنبني عليها ثقافة ما.

لقد حقق تاريخ الثقافة المادية بعض التقدم في هذا الاتجاه، ويشهد على ذلك كتاب فرناند بروديل أو كتاب جاك لوغوف الذي يبرز بعض العناصر القوية في الحياة المادية للغرب الوسيط: من ذلك تطور تقني ثم كمي أكثر منه كيفي أدت فيه الطاقة الحيوانية والطاقة المائية إلى التقليل من الطاقة البشرية التي بقيت مع ذلك جوهرية، وكذلك امتلاك عناصر الحركة الخمسة (المستوى التقني)، وهي: اللولب، والعجلة، والكامة (Came)، والسقاطة، والبكرة، وقد أضاف إليها العصر الوسيط المدوّرة (Manivelle) أيضاً، عالماً من الخشب أصبح فيه نقش الحجارة وتصنيع الحديد ذا قيمة، ولكنهما كانا يدمران مخزونه بالإحياء الزراعي، وكذلك فلاحة ظلت متنقلة (تبوير وإحياء مؤقت، ولم تضف جديداً إلى الزراعات المعاشية؛ وأخيراً عالماً لا تزال فيه الإنسانية هشّة أمام الكوارث الطبيعية والأوبئة، وذلك من جراء الجوع. ولكن هذه الملامح السائدة في الثقافة المادية لا يقدمها جاك لوغوف من دون ربطها بالمواقف الذهنية (فظاعة البدع) والظواهر الديمغرافية والبنى الاجتماعية ـ الاقتصادية. إن تاريخ الثقافة المادية يجد صعوبة في اكتشاف مثل هذه الأنساق في ذاته، لأن جملة العناصر الصغيرة التي تكوّنه في حاجة لكي تنتظم إلى استعارة العناصر التي تمكنه من البناء في حقول أخرى.

ولا يبدو أن تاريخ الثقافة المادية قد بنى حتى مشروعه الخاص. ويذكر كارنديني أن ماركس يعتبر بأن بقايا وسائل العمل ـ وهي تقريباً ما نسميه الثقافة المادية ـ لها قيمة المخلفات العظمية نفسها التي

تسمح بمعرفة تنظيم الأنواع الحيوانية المنقرضة في التعرّف على التشكيلات الاجتماعية المضمحلة. إنها مهمة جميلة متمثلة في اكتشاف العلاقات الاجتماعية وأنماط الإنتاج لدى مجتمعات الماضي من خلال الثقافة المادية.

ولكن المقارنة بين المقاربات الإحائية تبدو مغرية أكثر منها ملائمة. ومن الواضح أن الثقافة المادية لم تجد بعد باحثاً خاصاً بها مثل كوفييه (Cuvier)، على رغم أن علماء الآثار في البلدان الاشتراكية حاولوا الاستجابة لتوقعات ماركس، وإضافتهم إلى معرفة تاريخ جذور الدول تبدو أكثر وضوحاً من إضافتهم إلى تاريخ التنظيمات الاجتماعية.

ولا يمكن أن لا نرى أن العلاقات بين الفيودالية وهذا الاكتشاف الملموس أو ذاك مبالغ فيها، مثل القول بأن الأسوار الكبيرة للقرى البولونية قد بنيت دفعة واحدة باستعمال يد عاملة عديدة ومقسمة في شكل فرق، أو كأن نقول بأن التفقر النوعي للمخلفات الغذائية في هذا الحي أو ذاك من أحياء مدينة غدانسك (Gdansk) هو دليل على خضوع السكان لارستقراطية ما. وفي الجملة، لا يبلغ التحليل مدى بعيداً، واستنتاجه النهائي هو أن الفيودالية كانت دائماً مفترضة.

أما البعض الآخر، فهو يعطي تاريخ الثقافة المادية مهمة أسمى: إنها ليست شاهداً على التغيّرات الاجتماعية ـ الاقتصادية، وإنما تعبّر عنها، وهو حال المدرسة الأنثروبولوجية الأمريكية، ولكن تأويل العلاقات بين ما هو تقني، وما هو اقتصادي أو اجتماعي في مثل هذا الاتجاه، هو مسألة أيديولويجية قبل كل شيء. ويمكن أن يكون التأويل في الاتجاه المعاكس مقبولاً.

الثقافة المادية تبوّىء الإنسان المكانة الأولى

إذن ألا يمكن أن لا تكون الثقافة المادية سوى «صورة بلاغية لحب الاطلاع»؟ قد يكون ذلك، ولكنها لا تبدو أقل ضرورة لأنها تعبّر عن الاهتمام بإعادة الإنسان إلى التاريخ المادي عبر المعيش. هل يمكن للتاريخ أن يستجيب للرغبة في اكتشاف حركية العلاقات الاجتماعية والكشف عن الدواليب الاقتصادية؟ إنه يبدو مشروعاً كذلك أن نستكشف ظروف الناس المادية الناتجة من هذه العلاقات والمنخرطة في مثل هذه الدواليب. لم يكن نسيان الإنسان مدرجاً ضمن برنامج التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، بل العكس هو الصحيح، ولكن ذلك وقع إما نتيجة للوثائق أو لانغماس التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في لعبة الميكانيزمات والبحث عن القوانين والبنى. وقد انساق في بعض الأحيان وراء جاذبية التجريد، فحتى التاريخ الريفي أهمل في بعض الأحيان القرى وساكنيها، منصرفاً كلياً إلى العناية بدراسة الضيعة ومرابيح الأسياد وإنتاج الحبوب والخمور.

من كثرة الاهتمام بأسعار الحبوب وقع التغافل عن مستهلكيها. وحتى وإن افترضنا أن التاريخ هو تاريخ استغلال طويل للإنسان من طرف الإنسان، فألا يجوز أن نتساءل عن معنى ذلك بالنسبة إلى المستغل؟ هذا ما يضيفه تاريخ الثقافة المادية: ظروف العمل وظروف الحياة أو المسافة الفاصلة بين الحاجة وتلبيتها. وبما أنه تاريخ العدد الأوفر وأغلبية الناس، فهو يضع المستغل في «مقدمة الركح».

التـــاريـــخ الآنـــي

جان لاكوتور(*)

هل هو تاريخ آني حقيقة، أي بمعنى أنه يسجل لتوّه ويتزامن تسجيله مع حدوثه من دون وساطة؟ يمكن نفي ذلك عملياً بمجرد تخيله، أو تخصيصه بعض الحالات المحدودة. ولإنجاز التاريخ الآني يجب أن يكون المرء في وضعية جورج جاك دانتون (Georges Jacques Danton) يقاد إلى حبل المشنقة، وهو يخاطب الناس مبيّناً علاقته بالثورة وموضحا معنى موته. التاريخ الذي يسمعه طفل صغير يجلس على ركبتي أمه وهي تزرد الصوف هو التاريخ الآني. وتقل

(*) ولد سنة 1921، متحصل على الإجازة في القانون وفي الآداب، متخرج في مدرسة العلوم السياسية، وهو من كبار الصحافيين في جريدة **لوموند** (*Le Monde*). محرر في مجلة **لو نوفال أوبسرفاتور** (*Le Nouvel observateur*)، مكلف بدروس في معهد الدراسات السياسية في باريس، وفي جامعة فانسان (Vincennes)، أستاذ مشارك في جامعة هارفرد. صاحب سلسلة: التاريخ الآني (L'Histoire immédiate) في دار نشر سوي (Seuil)، وهو مؤلف للعديد من الكتب، منها: *François Mauriac* (Paris: Editions du seuil, 1980); *Pierre Mendès France* (Paris: Editions du seuil, 1981); *Charles de Gaulle*, 3 vols. (Paris: Editions du seuil, 1984-1986), et *Algérie, la guerre est finie: 1962*, avec la collaboration de Catherine Grünblatt, la mémoire du siècle; 37 (Bruxelles: Complexe; [diffusion presses universitaires de France], 1985).

تلك الآنية من خلال ذلك الدرس الذي أعطاه نيكيتا خروتشيف (Nikita Khrouchtchev)، وهو يقرأ التقرير الذي يحمل اسمه من فوق منصة المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي.

ولكي تكون هناك آنية كان يجب أن يكون ستالين (Staline) نفسه هو الذي قرأ الخطاب نفسه منذ عشر سنوات خلت. هذا النوع من التاريخ يجب أن يصدر عن المنتج «ليقدم مباشرة إلى المستهلك». ويمكن الاحتفاظ بهذه الفرضية، ولكن يجب أن نتفق على أنها ليست قابلة لأن تكون عادية بصورة قصوى. وفي نهاية المطاف، لا يمكن لردود فعل كليو، حتى ولو كانت سريعة جداً، أن تحل محل أفكارها.

مجالات التاريخ الآني

لنلاحظ منذ البداية أن صورة «التاريخ الآني» كما نراها ما فتئت تتغير، فهي غير قابلة لأي نوع من التأطير أو لأي نوع من الملاءمة المرضية. من الصحافة القليلة الدقة بعض الشيء، كما يمارسها أناس منغمسون في الحدث كأنهم مشاركون في صنعه وعاكسون له، إلى البحث التاريخي البحت الذي يهتم بفترة حديثة جداً، ويعتمد مناهج التحقيق ـ الاستجواب، أو لنقل من تحقيق لجريدة **لوموند** (*Le Monde*) حول أزمة الصحراء الغربية، إلى بحث تاريخي حول أحداث أيار/مايو 1968، إلى باحث جيد في «التاريخ المعاصر» في جامعة باريس الثامنة، فإننا ننزلق في كل الحالات على حافتي خط خاص، هو خط «التاريخ الآني». يتكوّن خط «التاريخ الآني»، بصورة أساسية وفي الوقت نفسه، من القرب الزمني لعملية التحرير من الموضوع المتطرق إليه، ومن القرب الميداني بين الباحث والأزمة موضوع الدرس. إن العملية التاريخية التي نريد مقاربتها هنا

هي عملية قريبة ومساهمة وسريعة الإنجاز من طرف فاعل أو شاهد قريب من الحدث ومن القرار المتخذ: نجد مثالاً لها في كتاب بعنوان: **توريز** (*Thorez*) الذي ألفه فيليب روبريو[1] (Philippe Robrieux)، ولو أن الأحداث المذكورة فيه تعود إلى أكثر من خمس عشرة سنة، ولكن التطور، موضوع الوصف، لا يزال متواصلاً في الحاضر، وأن المؤلف كان وثيق الارتباط بذلك الوصف، إذ لم يستطع وصف الحملة الانتخابية لسنة 1978 كما يمكن أن يفعله ملاحظ دقيق، ولكن يصعب تحديد مثل هذا المجال.

إن العرض الذي سيلي، سيكون بين الدفاع عن نوع من الصحافة، والدفاع عن نوع من التحقيق الاجتماعي التاريخي، ومن دون أن يكون «موضوع الجرم» محدّداً في وقت من الأوقات.

وإذا كانت الآنية في مثل هذا المجال تكاد تكون غير ممكنة، فذلك راجع إلى أن العملية التاريخية هي تمحيص وتفكيك ونفي وتجميع، وكل ذلك يفترض تدخل قليل من الوساطات التقنية، مثل القلم والورق واللصق ومحفظة الأوراق والملفات، فليس من باب الصدفة أن نطلق على أداة النقل وعلى المكان المفضل لـ «التاريخ الآني» تسمية شاملة هي وسائل الإعلام. إنها آنية غريبة تعتمد على وسائل الإعلام.

أعمال دونت في خضم الأحداث من طرف الفاعلين

إن اللحظة التي ينجز فيها هذا التاريخ المندمج تقترب أكثر من آنية زمنية ـ النقل «المباشر» للحدث المطلق: كحدث إطلاق النار

---

(1) Philippe Robrieux, *Maurice Thorez: Vie secrète et publique*, le monde sans frontières ([Paris]: Fayard, [1975]).

على نهج إسلي (Isly) في مدينة الجزائر في شهر آذار/ مارس 1962، أو بناء متراس في شارع سان ميشيل في باريس في شهر أيار/ مايو 1968، فقد كان صوت المعلّق أكثر من أن يكون صدى، بل هو بمثابة النسيج البصري الذي يعكس الحدث، أو هو استحضار للفاعلين (كان الصحافي جوليان بوزانسون (Julien Besançon) مثل الأوبرا رغماً عنه). إنه أيضاً المجال الذي تفرض فيه الأداة التقنية ذاتها بصورة متسلطة ومستبدة، فإذا انقطع الصوت لخلل ما أو لقرار القيادة الباريسية التي تحتاج إلى مسحة زمنية من أجل ومضة إشهارية، تتوقف عملية الولادة التاريخية بصورة مفاجئة.

يجب أن نذكّر بأن هذه الصيغة من «التاريخ الآني» مثيرة إلى حدّ ما. لقد وقع تبسيطها في بداية الستينات ودخلت القاموس العادي، وهي لا تهدف فقط إلى تقصير الآماد بين حياة المجتمعات ومحاولات تأويلها الأولى، وإنما إلى أن تعطي الكلمة أيضاً إلى أولئك الذين كانوا فاعلين في هذا التاريخ. إنها لا تتوق إلى ردود الفعل السريعة فقط، وإنما تريد أن تتبلور من خلال أرشيف حيّ يمثله الناس. لا يعني ذلك تمييزاً لما هو شفوي وتهميشاً للوثيقة المكتوبة، فلماذا على العكس نعطي مصداقية لمذكرات لاس كزاس (Las Casas) أكثر مما نعطيه لصوت دافوست (Davoust)، مع افتراض أننا استطعنا أن نستجوب الغالب في موقعة أوارستايدت (Auerstaedt) عشية الوداع في فونتينبلو (Fontainebleau)؟

ترتكز آنية نوع من التاريخ الذي يتبلور اليوم ـ من خلال أمثلة بارزة سنعود إليها، ولكن بالاعتماد على وسائل خاصة تقلل مما يمكن أن يحتويه المشروع من مغامرة ـ على لحظة وقوعها (ما يسميه الأمريكيون «تاريخ اللحظة» (Instant History))، وهو مفهوم يحدّ من المعنى)، كما ترتكز على العلاقة الحميمة بين الكاتب وموضوع

الكتابة. من خلال هذا المعنى يمكن أن نشهد نموذجاً لهذا النوع من التاريخ في **تاريخ الثورة الروسية** الذي كتبه ليون تروتسكي (Léon Trotsky). وهذا العمل، وإن كتب سنوات عديدة بعد وقوع الأحداث المدروسة، فهو يبيّن أهمية الحدث الخارقة للعادة، لا كما وقعت مشاهدته فقط، وإنما كيف وقعت معايشته وتم صنعه. وما عسى أن يكون تاريخ حرب البيلوبونيز (Péloponnèse) سوى نموذج لآنية تاريخية منبثقة عن استراتيجي، وهو، وإن حوكم من أجل أخطائه في المناورات، يظل معنياً بالصراع على الأقل إلى حدود سلم نيسياس (Nicias)؟

إن التذكير بتوسيديد[2] (Thucydide) ليس فقط تذكيراً بعمل كتب في خضم الأحداث، ولكن هو تذكير أيضاً بمسؤول بارز عن المسار الذي اتبعته الأحداث، وذلك هو ما تقصده العملية التاريخية بالبحث بالدرجة الأولى عن خيط رفيع، وعن العلاقة بين الأسباب والنتائج، والوسائل والغايات، والضجيج والمعنى. لم يقم أحد بذلك أحسن مما قام به ذلك القائد الأثيني بحسه المرهف في إدراك الأسباب.

وعلى نهج توسيديد، على كل مؤرخ يتناول حرب الغوليين (Guerre des Gaules)، أو نشأة الكتلة الثالثة (Tiers Etat) (في البرلمان الفرنسي قبل الثورة الفرنسية)، أو التعليم الابتدائي في منطقة فرانش كومتيه (Franche-Comté) ما بين الحربين، أو أول تفجير للقنبلة النووية، أو فترة شباب فاليري جيسكار ديستان (Valéry Giscard D'Estaing)، أن يتأكد قبل كل شيء من يقين العلاقات

(2) لقد حكم على الأثيني توسيديد (Thucydide) (حوالى 465 قبل الميلاد) بالنفي لأنه لم يستطع منع السبارتي برازيداس (Brasidas) من الاستيلاء على أمفيبوليس (Amphipolis) عندما كان مكلفاً بحراسة السواحل التراقية.

المنطقية والوسائل التي يتبيّنها ويوضحها بالنسبة إلى ما يحصل عليه من خلال التحقيق.

ماذا يفعل «الأنوي» أيضاً (متى نستنبط مصطلحاً جديداً إذا لم يكن الأمر يتعلق باختصاص جديد؟) أمام هذه العملية الرباعية المتمثلة في التعليم والتنظيم والتركيب والعقلنة؟ هذه العملية تجعله، من خلال معطى ثقافي، هو معطى الأنوي، وهو معطى محدّد في الوقت نفسه لاتجاه بحثه ومحور تأويله، ينجز عمله في حيّز وجيز من الزمن (أي ماذا يمكن للزمن الذي يتعامل معه المؤرخ، كمؤرخ منطقة **مونتايو**[3]، أن يحدّد نوعية عمل الأنوي والمكان الذي يدور فيه).

التاريخ والصحافة يتقاطعان ولا يندمجان

لا يعني هنا الخلط بين الصحافة والتاريخ من أجل مجد هذه وعار الآخر، فعندما وصف ألبير كامو (Albert Camus) الصحافة بأنها تاريخ اللحظة، وهو من كبار الصحافيين الذين يرجع إليهم كل مؤرخ مهتم ببدايات الجمهورية الرابعة، لم يكشف إلا عن جانب واحد من المسألة. إن المرجعية للزمن ليست خسارة. ولكن ما يعوق الصحافي ليس التسرع في البحث بقدر ما هو فقر وثائقه وقلة المقارنات التي يقوم بها .إن الصحافي ليس هو ذاك الذي يعمل في تسرع بقدر ما هو ذاك الذي يتصرف في قليل من المعطيات والملاحظات والحالات، فالفارق (بينه وبين المؤرخ) هو فارق في الكم أكثر منه في الكيف. وهذا يعني أن تطور التقنيات والاعتماد على الحاسوب الذي ضاعف إمكانيات التحليل لدى الصحافي يمكن

---

(3) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Montaillou: Village occiton de 1294 à 1324*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1975).

أن يغيّر طبيعة عمله، وهو ما سنراه لاحقاً.

اعتباراً للعلاقات التي كثيراً ما تكون صدامية بين التاريخ والصحافة، لا يمكن أن نتوانى في القول بأن هذين العلمين ما فتئا يتقاربان منذ العهد الذي كانت تسيطر عليه من ناحية ديانة الأمد الطويل و"نبذ» الوقائع، ومن ناحية أخرى عبادة المثير التي فرضتها صحيفة **باريس المساء** (*Paris-Soir*) مهما كان الثمن. رأينا خلال العشرية الأخيرة ما ينجز في التاريخ، وهو ما سماه بيار نورا «عودة الحدث»، في حين أن الصحافة كانت تتموقع تحت تأثير نشرية مثل صحيفة **لوموند** (*Le Monde*)، في مستوى البحث الجامعي من دون تبجح. وهو ما يؤكد أكثر نوعاً من التقارب، إذ إنه يؤكد تطابقاً بين التاريخ والصحافة في انتظار أن يكون ذلك بين صرامة التاريخ وعلم الصحافة، فإذا لم يكن نادراً أن نرى صحافيين يتحولون إلى مؤرخين ـ وفي هذه الحالة جاك كايزر (Jacques Kayser) ـ وينجحون في ذلك، فلم يحصل تقريباً أبداً أن شاهدنا مؤرخين تنطبق عليهم هذه التسمية مثل فرنسوا فوريه وجاك جوليار وهم يمارسون الصحافة باهتمام ثابت وشديد.

تقليد قديم

ليكن التاريخ علم الماضي، فهو لا يجد سبب وجوده ولا مجده ولا تبريره إلا في استخراج مادته من تحت جبال وثائق الأرشيف، فهذا اعتقاد حديث العهد. لم تضع الجامعة، وبتأثير من فيكتور دوروي (Victor Duruy) مبدأ[4]: التاريخ لا يمكنه أن يرتبط بالزائل فقط ولا بالفائت، إلا مع بداية سيطرة الفلسفة الوضعية مع

---

(4) شغل المؤرخ ف. دوروي (V. Duruy) (1811 ـ 1894) خطة وزير التربية ما بين 1863 و1869 في عهد نابليون الثالث والذي اعتمده في تأليفه: *La Vie de César*.

نهاية الإمبراطورية الثانية. يكفي أن يختار طالب موضوعاً لبحثه تحت عنوان: «فيكتور هيغو (Victor Hugo) في غورنيزي (Guernesey)» أو «الإدارة البروسية في عهد بيسمارك (Bismarck)» ليجد نفسه في شبكة «ألعاب الزهور» في عهد البلاياد (Pléiade) أو فالنشتاين (Wallenstein).

هل كان من الواجب أن نردّ الفعل بصورة دغمائية ضد مثال الدراسة الممركزة حول ما هو حي والتي أعدّها مؤلف **تاريخ القنصلية والإمبراطورية**؟ لقد اقترح أدولف تيير (Adolphe Thiers) في تقديمه أن الوقت المناسب نوعاً ما لكتابة التاريخ هو تقريباً الزمن الذي يكون فيه الشخوص، الذين أفرزتهم الحركة وتحرروا من العواطف التي كانت تحدوهم، قد حافظوا على ذكريات الأحداث التي كانوا قد أثروا في مجرياتها. يمكننا أن نعترض على اعتماد تيير مبدأ البحث هذا، ولكن يظل الاقتراح جذاباً.

تبدو العملية التاريخية، من خلال البعد الذي يفصلها عن الماضي، وفي علاقتها بالمادة التاريخية التي تصطفيها، وكأنها قد مرت بالعديد من المراحل المتناقضة. هل كان قيصر (César) وكومين (Commynes) يعتبران نفسيهما مؤرخين؟ كان كل ما تركاه من أعمال منغمساً في الحاضر في كل الحالات، وهو حاضر كانا قد عايشاه، ليس بوصفهما شاهدي عيان فقط، وإنما كفاعلين تاريخيين، وفي بعض الأحيان كأطراف فيه.

التاريخ يرفض دراسة الحاضر

لم يكن هناك ما يقوّض هذا النوع من العلاقات مع «الماضي» بصورة جذرية إلى حدود منتصف القرن التاسع عشر حتى ظهرت في الفترة نفسها كل من الرومانسية بوصفها نوعاً من الفكر، والوضعية

بوصفها علماً، فوجّهت الباحث التاريخي بصورة مفاجئة إلى دراسة سير شيوخ القرى وعلم النقائش[5].

إلا أن الكتابة التاريخية على عهد لافيس (Lavisse) ما تزال مغرمة بالحدث، فبعدما كانت محاولة لإبراز التعقيدات الحية والغائبة عبر تعرّجاتها المتحركة، أصبحت العملية التاريخية عبارة عن تجميع للحظات فريدة بشرط أن تكون قديمة. يجب أن تقدم التحية للأبطال، ولكن باللغة اللاتينية.

بعد أن نبذت الكتابة التاريخية تاريخ الحاضر في بداية القرن العشرين، نبذت الحدث، فأصبح المؤرخون برعاية ماركس ولوسيان فافر لا يهتمون إلا بالفترات الطويلة الأمد وبالتطورات الشمولية. ولم يبق إلا تحريم دراسة الثقافات التي تعجّ بالحركية الجماعية للانصراف إلى دراسة «المجتمعات الباردة» التي يحبها كلود ليفي شتراوس من أجل حبس التاريخ في أنبوب نهائي.

صحيح أنه كان الزمن ـ زمن إبداع مفهوم الأمة ـ الدولة وتأكيده ثم إشاعته ـ الذي كان فيه على التاريخ أن يأخذ أبعاده بما أننا أصبحنا نسميه بـ «استبطان الضمير الوطني». لذلك أصبح من الواجب التمييز، بعناية وبتمهل، ما بين أهل الخير وأهل الشر، فهل يجب عرض مثال فريديغوند (Frédégonde) أو جان دي لوران (Jeanne de Lorraine)، أو كونسيني (Concini) أو مازاران (Mazarin)، أو سياس (Sieyès) أو مارا (Marat)، كي يتخذهم تلاميذ فرنسا مثلاً أعلى أو يبتعدون عنهم؟ قد يبدو من المفيد أن نقول بأن مثل هذه الاهتمامات لم تعد مطروحة، لأن التاريخ يبدو

(5) من العلوم الرديفة للتاريخ الاهتمام بالنقائش المنقوشة على مواد دائمة مثل الحجارة أو المعادن.

أنه في حالة انقراض من التعليم الذي على ما يبدو أنه هو بدوره لم يجد في مخلاته ما يكفي من «الأبطال الإيجابيين» (فقد في طريقه دانتون (Danton)، ولكنه ربما سيكسب كوشون (Cauchon)) ليصنع من الشبان الفرنسيين الدواليب الهادئة لمجتمع إنتاجي.

أليس من المشرف للمؤرخ أن يبحث عما هو متواصل، في انتظار عمليات التقديس في سنة 1978 للحركة الطوباوية ذات الشعر الطويل التي اندلعت منذ عشر سنوات خلت في شهر أيار/مايو 1968، أو البحث عن أسباب ارتباط التطور المكثف للنقل ـ من خلال معاينة طرقات السيارات والقطارات السريعة والخطوط الجوية الداخلية ـ في فرنسا بازدياد الاستقلاليات، أو هل أن هذا التطور هو المتسبب فيها، أو أنه لا يقف عائقاً أمامها؟

نرى من خلال ذلك ظهور علم الاجتماع والعلوم السياسية وعلم الصحافة. ولكن هل أخذ المؤرخ على عاتقه استقراء هؤلاء العمالقة الثلاثة؟ أم هل أنه يجب علينا تحديد حقل المؤرخ بتقتير حتى أكثر مما فعل بول فاين[6] (Paul Veyne) في درسه الافتتاحي في معهد فرنسا؟ وإذا اعتقدنا أن مقاربته أكثر خصوصية، يمكن أن نحلم بأنه علم بلا حدود، أو أنه في حالة التحام بجيرانه النبلاء، مثل علم الإثنولوجيا، وعلم الألسنية، أو علم الجغرافيا البشرية، وهي علوم تحوم حولها بعض الشبهات كتلك التي تحوم حول علم الاجتماع والعلوم السياسية، أو حول شيء صغير وحقير مثل علم الصحافة.

مع هذا الخليط من الأنواع يجد المؤرخ أسلافاً لامعين ودروساً مهدئة. لقد سبق وأن ذكرنا توسيديد، فكيف لا نعود إليه خطياً كان

(6) Paul Veyne, *L'Inventaire des différences: Leçon inaugurable au collège de France* (Paris: Editions du seuil, 1976).

أو وقائعياً؟ نذكر ابن خلدون[7]، صاحب السيرة الذاتية، وهو أكثر شمولية وأكثر اجتماعية. وها هي نماذج مثيرة من ناحية الآنية التاريخية، سواء كان ذلك بواسطة الرابطة التي تربطهم بالقرارات المتخذة ونتائجها، أو بواسطة اهتمامهم بمنحهم رواية وترجمة وتأويل مستقبلي.

من الأكيد أننا لن نحتفظ لا بـ «شروح» قيصر ولا بمذكرات شارل ديغول الحربية[8] كمادة تاريخية حتى ولو كانت «آنية»، لأن الأولى تبدو تبريرات مسطحة، والثانية لأن التطور المتزامن مع البحث التاريخي «الآني» ينفي بدقة كثيراً من معطياتها. كيف يمكن أن نعتبر هذا الدفتر تاريخياً لمّا تبرز من هنا وهناك أعمال مهتمة بالعلاقات بين الحلفاء والمقاومة الفرنسية، أو حول نشأة المشاعر الوطنية في آسيا وأفريقيا، والتي تضع هذا الحوار الذاتي الضخم في مرتبة روايات الفروسية؟

المراسلة الحربية، نموذج للتاريخ الآني

يعدّ شارل ديغول، كاتب المذكرات، نفيساً ويسهل تعويضه في الوقت ذاته؛ أو لنقل إنه يبحث عن تقاطع في زمن تكون فيه عملية التقاطع سهلة. لكن يصعب تعويض أسلافه من كتّاب المراسلات الحربية، مثل جوانفيل (Joinville) أو فيلهاردوين (Villehardouin). إنهم شهود فاعلون ومحاربون ومفاوضون متألمون أو في قمة المجد، من بطانة الأمير وفي اتصال بالأعداء، يمارسون في شغف كتابة تاريخ الحاضر من دون أن تقلل ذاتيتهم من ثرائها.

---

(7) ابن خلدون (تونس، 1332 ـ القاهرة 1406) وهو أشهر المؤرخين العرب.

(8) Charles de Gaulle, *Mémoires de guerre*, 4 vols. (Paris: Plon, [1954-1959]).

من هو المؤرخ «الجدي» في محيط أكثر الملوك مسيحية في عصره، ويذهب بعيداً في استحضار تقدم الفكر النقدي، أحسن من جوانفيل[9]، وهو يروي أسره من طرف المسلمين في نهر النيل؟ إنه يذكر كيف كان أحد أعوانه يحرّضه ويحرّض رفاقه على الموت بسلاح الكفار «لأننا بهذه الطريقة سنذهب جميعاً إلى الجنة». ويلاحظ القاضي جوانفيل ببساطة: «إننا لم نصدقه». يستشف الكثير من هذا الكلام الصادر عن جوانفيل، وهو صديق حميم للويس التاسع. هل كان يمكن لميشليه أن يتجرأ على مثل هذه الملاحظة خمسة قرون بعد ذلك؟ إن المرور من انعدام كلفة المتهور إلى انعدام كلفة لويس الحادي عشر، ثم من أعلى الوظائف إلى قضبان قفص بلاسي ليز تور (Plessis-Lez-Tours) الحديدية، كل ذلك لا يصدّ فيليب دي كومين[10] (Philippe de Commynes) عن ممارسة العملية التاريخية مباشرة وبوضوح مدهش. يمكن أن نعترض على رواية فيليب دو كومين لقضية بيرون (Peronne) وعلى تأويلها؛ كما يمكن ذلك بالنسبة إلى رواية ميشليه أو «ترميدور» (Thermidor) في رواية ماتييز (Mathiez). وحتى تكون بعيدة كل البعد عن القرارات السياسية أو الأحداث، تغذّي رواية فرواسار[11] (Froissart) هي أيضاً الدفاع

---

(9) جان، سير دي جوانفيل (Jean, Sire de Joinville) (1224 ـ 1317) رافق القديس لويس في مصر، وقد كتب في آخر حياته (1305 ـ 1309) تاريخاً لسيرة القديس لويس عنوانه **مذكرات** (*Mémoire*).

(10) فيليب دي كومين، سيد أرجنتون (Philippe de Commynes, Sire d'Argenton) (1447 ـ 1511) كان في خدمة فيليب لوبون (Philippe Le Bon) وشارل لوتميرار (Charles Le Téméraire)، ولكنه اكتشف في شخص لويس الحادي عشر (Louis XI) السيد الذي يناسبه. كتب مذكراته (Mémoires) (ثمانية كتب) ما بين 1489 و1498.

(11) جان فرواسار (Jean Froissart) (حوالى 1333 ـ حوالى 1400) كان رجل دين مثقفاً وعاش بين النبلاء. وقد أصبح قساً في شيناي (Chinay)، فبدأ بكتابة مذكراته مستلهما من المواقف الإنجليزية ثم الفرنسية حول حرب المائة عام.

عن «المؤرخ الأنوي» ـ حتى وإن دحض فينيلون (Fénelon)، وهو يؤكد أن المؤرخ الثمين ليس من ينضد الأحداث وتواريخ وقوعها، ولا من يذكّر بفن وزينة خصائص العصر وانفراد أبطاله.

يمكن أن تدفعنا الرغبة، بين العديد من النماذج والسوابق، إلى عرض ما يراه ليساغاراي[12] (Lissagaray) على المتمسكين بهذا النوع من التاريخ. ونظراً إلى قربه من الحدث، وكذلك للدور النشيط والمتوسط الذي أداه، فهو يتجنب الخوف من القرب كما يفعل أغلب الفاعلين التاريخيين، نتيجة لسرعته في جمع المذكرات والشهادات والوثائق، وكذلك لحرصه على عدم تقديم «أغاني» خيالية للشعب، وأخيراً وبالدرجة نفسها صدق التزامه الذي لم يكن محرجاً بقدر ما كان معلناً، و**تاريخ الكومونة** (*La Commune*) الذي كتبه يعدّ نوعاً من المؤلفات الأساسية في التاريخ الآني.

من فينوك (Winock) وأزيما (Azéma) إلى روجري (Rougerie)، وهم من المختصين المعاصرين الذين استطاعوا اكتشاف وثائق أخرى، واستغلوا الأرشيف، ونقدوا بعض ما أدرجه ليساغاراي الذي كان يقف إلى جانب واحد من جوانب المتراس. ولكن من من هؤلاء ينزع عن هذا الثوري العجوز صفة المؤرخ؟ يقترح ليساغاراي نوعية العمل الذي يطمح له «الأنوي»: أول ما يكتب والتموضع الأولي وجمع الوثائق البائدة الذي لا يقارن ـ سير الأحياء والأصوات البشرية وألوان وروائح الحشود والشعوب وهي تعمل وتحارب ـ هي التي منها تتطور بقية العمليات التاريخية في العمق.

---

(12) بروسبار أوليفييه ليساغاراي (Prosper Olivier Lissagaray) (1839 ـ 1901) صحفي فرنسي كتب (*Histoire de la commune*) (**تاريخ كومونة باريس**) التي كان شارك فيها. ثم لجا إلى لندن.

قوة التاريخ الآني وضعفه

إن ما يمثل خصوصية التاريخ الآني وإعاقته في الوقت نفسه هو أن المؤرخ الآني، على عكس المؤرخ، يجهل نهاية الحدث. إنه لا يعرف مثلاً أن القيصر سيغتال، ولا أن ناسخي **الساعات الثرية** لدوق دي بري (Duc de Berry) سوف يتفوق عليهم غوتنبرغ (Gutenberg)، ولا أن الهند الغربية ستسمى أمريكا. وهو لا يدري ماذا ستكون شيخوخة السيد بار (M. Barre)، ولا استعمال أوروبا للطاقة الشمسية، ولا الدور الانتخابي للتلفزة في عصر البرامج الخاصة.

ولكن من هو مؤرخ المسيحية الناشئة الذي كان قادراً على أخذ ما تقدمه مخطوطات البحر الميت بعين الاعتبار عندما كان م. بويك (M. Puech) في مرحلة التكوين؟ ومن هو المؤرخ الوسيطي البسيط الذي يمكن أن يصدق أن طريق الحرير قد باحت بكل أسرارها؟ لم يكشف قصر ميرابو (Mirabeau) عن كل وثائقه. أين تتوقف أبحاث المؤرخ في حدودها النهائية، وتتحنط في ما لا يمكن إصلاحه، وتتثبت في الرخام؟ هل هذه نهاية التاريخ؟ ربما يكون ذلك. ولكن من الثابت أنها نهاية العملية التاريخية... سيتكاثر المؤرخون فوق جثة التاريخ المحنطة بحثاً عن مراسلات غير معروفة، وعن حفرية في درجات الحرارة، وعن كشف طبي يخفيه سر المهنة، وعن تصريح جبائي.

إن «المؤرخ الأنوي» ليس معزولاً، ولا أعزل بجهله «النهايات»، فإما أن عمله ذاته هو فصل من فصول الدراما، وهو واع بذلك ويتحمل مسؤوليته في التواصل الأعمى - عمل «المؤرخ الرسمي» لملك مثلاً - وإما أن المادة التي هو بصدد تفحصها تشكل

كتلة محددة، حتى إن التطورات اللاحقة لا تغيّر بصورة جذرية طبيعتها أو معناها.

لنأخذ بالنسبة إلى المثال الأول، وهو مثال إدغار موران (Edgar Morin) الذي نشر سلسلة من المقالات في صحيفة **لوموند** (Le Monde) في لبّ أحداث أيار/مايو 1968، وهو وصف تاريخي عميق من أساسه لم يقع تجاوزه منذ الأحداث نفسها، في حين أن عالم الاجتماع المحقق لا يكتفي بالتحول إلى مؤرخ، فهو إلى جانب ذلك يتحول أيضاً إلى تاريخ ويتماهى معه، إذ يصبح بذلك أقل ملاحظة للوقائع منه محركاً لها تقريباً. وهذا هو أيضاً حال ليون تروتسكي (Léon Trotski) عندما نشر **تاريخ الثورة الروسية** في وقت كان يأمل فيه تغيير مسارها، فلا يهمه أن يعرف إن كان ستالين سيموت قوياً، أو منفياً، أو مغتالاً. ما يهمه هو أن تكون روايته وتأويلها دعوة من أجل مسار ثوري مغاير لما يحدث.

مثال على صناع تاريخ: محققو واترغيت (Watergate)

ربما هذا هو حال صحافييْن من صحيفة **واشنطن بوست**: بوب ودوارد (Bob Woodward) وكارل برنشتاين[13] (Carl Bernstein) صاحبا تحقيق تاريخي رائع عنوانه: **مجانين الرئيس**، بيّنا فيه بدقة فائقة دواليب فضيحة واترغيت. إنه من الواضح بالنسبة إلى هذين الصحافييْن، كما هو الشأن بالنسبة إلى رئيس التحرير بنيامين برادلي (Benjamin Bradlee) الذي ساعدهما على إنجاز التحقيق قبل أن يتحول إلى كتاب، أن الأمر ليس فقط وصف جرح، وإنما أيضاً

(13) Bob Woodward et Carl Bernstein, *Les Derniers jours de Nixon = The Final Days*, notre époque, traduit de l'américain par Frank Straschitz, Guy Durand et Christian Bruyat (Paris: R. Laffont, 1976).

توسيعه لمداواته. وهنا يدخل المؤرخ الصحافي موضوعه لا لتحويله إلى حدث فقط ـ وهو الهدف الأول لمهنته ـ وإنما ليجعل منه نهاية قصة.

قدم واحد من ألمع المعلقين على الأخبار العالمية، وهو يلاحظ الدهشة التي أحدثتها بعض الأحداث الهامة سنة 1977 ـ ذهاباً من انقسام اتحاد اليسار، ووصولاً إلى زيارة السادات إلى القدس ـ بأن التكهن، أو بأكثر دقة عدم التكهن («لأن في ذلك الوقت لم تكن المفاوضات المباشرة بين العرب وإسرائيل ممكنة على المدى القصير») يؤدي إلى انعدام التعليق. ماذا يمكن أن ننتظر من معلّق صحافي لم يعرف كيف يكون نبياً؟ وإذا حذفت حظوظ الرئيس المصري في زيارة إسرائيل، ما هي قيمة التفسيرات التي أعطيها في ما بعد؟

إنها مبالغة في إبراز التواضع التاريخي. إن وظيفتي التكهن والنقد تبدوان منفصلتين، ففي حالة أنور السادات يستطيع عالم النفس (اعتباراً «أن هذا الرجل يعرف اللعب»)، وعالم الاقتصاد (إذا سلمنا بأن «مصر بلد منكوب») التنبؤ بأن «ريس» القاهرة قد يقوم بهذه المحاولة، في حين يقوم المؤرخ الأكثر جدية والأكثر حصافة بتعداد عوائق الماضي والمعوقات الثقافية الاجتماعية والفيتو الدبلوماسي الجهوي والكوني، لطرد هذه الفرضية، ولو أنه قد يستغل مفاجأته التاريخية ليجعل منها محركاً لبحثه النقدي. وما هو غير متوقع يمكن أن يكون له معنى ومعقولية، فمن كان يمكن أن يتكهن في فجر القرن السابع أن العرب سيكونون في بواتيي (Poitiers) بعد قرن من الزمن؟ لا مؤرخ بحجم كلود كاهين (Claude Cahen) في البلاط الكارولنجي، ولا مؤرخ أسبق من ابن خلدون، كانا قادرين على ذلك. ولكن من هذه الأعجوبة تكثر التفسيرات الصائبة.

لا تأتي «سلطة» المؤرخ (أنوي كان أو لم يكن) من القدرة على توقع الأعاجيب ـ مثل انتصار داود، أو المعاهدة الألمانية ـ السوفياتية في آب/ أغسطس 1939. وبعد كل هذا من قال بوضوح في صيف 1940 بأن ألمانيا ستهزم: ديغول أم مارك بلوخ؟ لقد جعلت صلابة اليقين من شارل ديغول رجل دولة، ولكن مؤلف كتاب: **الهزيمة الغريبة** هو المؤرخ. إن ما يؤكد السلطة النقدية هو عقلنة ما هو خرافي، وهي العملية التي تستخرج من الحدث ما يمكن أن يغيِّر معطيات اللعبة بحدة، أو يغيّر كذلك العوامل لتوزيع جديد للأوراق قصد مواصلة اللعبة إلى اللحظة التي تقع فيها زعزعة مسار اللعبة أو تغيّر فيها قواعدها بفعل توقف أحد اللاعبين أو نتيجة لاستنباط أوراق جديدة.

مؤرخ الحاضر يجهل خاتمة ما يدرس

إن العجز عن التكهن أو استحالة التعرّف هو الجهل الذي يوجد فيه دائماً المؤرخ «الآني» لمعرفة نهاية الفترة التي يدرسها، وذلك قد يكون نقطة قوته أو رمز فضيلته. ألا يمكن أن يكون المؤرخ الذي يدرس بداية الإصلاح الديني في أوروبا أكثر عمقا وأكثر دلالة اذا لم يكن يعرف شيئاً مسبقاً عن عيد القديس بارتيليمي (Saint Barthélémy)؟ ما هي القوة التي ترتبط بالسذاجة؟ أي معادلة يمكن تحقيقها بين مدّ ميزان القوى وجزره؟ إن معرفة نهاية معركة مفروضة قد تؤدي إلى سوء تقدير صلابة المغلوب وحيويته. كما أن التاريخ يكون أفضل في البحث عن التغييرات وقياسها، وذلك في تقدير مسار الأحداث بعيداً عما يمكن أن تؤول إليه. كيف يمكن أن نفصل هذا المسار عن نهايته بصورة جيدة وندققه ونرجع له «انفتاحه»، إذا لم نبق منفتحين أمام كل الفرضيات؟

هل يمكن اليوم لمؤرخ الاستعمار، بكل ما له من علم، وبكل ما يتمتع به من نزاهة، وبكل ما يحصل عليه من وثائق موثوق بها، أن يصوّر نضارة الأوهام الاستعمارية التي كانت سائدة قي بداية الثمانينات وصولاً إلى لانغسون (Langson) أو إلى خدوش كليمنصو (Clémenceau)؟ إنه يستطيع أن يحيل على نصوص العصر من غير شك، ولكن هل له القدرة على الحصول على بعض من روح ذلك العصر؟ لن ندفع هذا المدح الهشّ للجهل إلى ما هو أبعد. إن العملية التاريخية تتمثل من غير شك في مقارنة الأنماط واللقطات التي وقع تنظيمها أولاً. ويسلط سقوط المملكة الفرنجية الضوء على البدايات الأولى، وعلى المفاوضات مع دوق البندقية، وعلى سقوط بيت المقدس. ولكن يوجد لذلك فيلهاردوين وجوانفيل.

رجال التاريخ الآني

هناك رغبة في معارضة مريحة للمؤرخ الكلاسيكي والمؤرخ «الأنوي» باستعمال المعارضة الأفقية ـ العامودية: **الأول** ينتشر ضمن جو تاريخي وفضاء شاسع من الزمن والمجال حتى ولو كان حقل بحثه المعلن ضيقاً. وتستند دراسة العمليات المالية لرابطة تجار أنفار (Anvers) إلى أعمال مارك بلوخ، كما تستند أيضاً إلى أعمال مؤرخي الفن الفلامندي، وإلى وثائق الأرشيف الوسيطية لمدينة غاند (Gand)، ووثائق البنك الألماني، وأعمال المختصين في الصراعات الدينية لعصر النهضة، والرواة البحريين، وأصحاب **الحوليات** الرينانيين والمهتمين بإسبانيا. كل ذلك يتم عبر توالي قرون عديدة من الزمن.

أما **الثاني** فهو يطرح دراسته كسلّم إلى جانب حائط، وهذا الحائط هو الحدث. عليه أن يتسلق بسرعة، ويقوم بسبر عاجل،

ويكتشف بسرعة، ويعبر في نوع من الحماس والعجلة والحرارة. وذلك في الظاهر على الأقل، فقصر المهلة التي عادة ما يشتغل فيها «الأنوي» وقع تعويضها تدريجياً بتنوع المصادر المعروضة أمامه. لننظر اليوم مثلاً إلى محرر صحيفة كبرى يابانية أو أمريكية أو وكالة فرانس براس (France Presse)، فهو يتوفر على آلة الكترونية تجيب عن أسئلته عن كل ما كتب منذ سنوات عديدة حول الحدث زمن وقوعه في الوقت الذي يهتف إليه مراسلوه من بكين أو القاهرة أو موسكو أو مكسيكو.

من هو المؤرخ الذي لم يحلم باندفاع هذا العالم المتكلم نحوه كما تندفع العاصفة؟ إنها عاصفة في حاجة إلى تنظيم، وإلى السيطرة عليها وتفصيلها وتحويلها إلى طاقة خلاقة للمعرفة: إنها مسألة تقنية. هذا الإعصار يحمل في طياته آلاف الحقائق المغلوطة والأفكار الخاطئة التي تدخل ضمن الدعاية والتسميم. وهذا أمر ليس فيه شك. ولكن هل هي أكثر من أرشيف بابوية أفينيون (Avignon) أو أوكرانا (Okhrana)؟ إن الأنوي الذي يكون كذلك بالكامل، أي كما كتب هنري كيسنجر سيرة سيده القديم عشية وفاة ريتشارد نيكسون، سيتمتع في تلك اللحظة بقوة في الكتابة التاريخية لا يوجد لها مثيل، إذ بالإضافة إلى معلوماته الخاصة تضاف ردود فعل القارات الخمس، والأساتذة الألمان، وعلماء الاجتماع الفرنسيين، والصحافيين الإنجليز، والملاحظين العرب والإسرائيليين، والناطقين الرسميين الروس والصينيين، والمعلقين اليابانيين، ورجال الأعمال في سنغافورة، وغوستاف هوساك (Gustave Husak)، وأمين دادا (Amin Dada) وبينوشي (Pinochet). كل ذلك في لحظة تتميز بالتزامن الخانق أولاً، ثم المؤسف في ما بعد، والمزهر أخيراً. هذا هو الزخم العجيب من المعلومات الذي نطلب منه أن ينظمه في الوقت

المحدّد، وهو زمن التاريخ الآني، كما لو كان رباً، في حين يقضي مؤرخ الحفصيين أو الإنكا (Incas) سنوات عديدة في تجميع مائة نقيشة، واثني عشر نصّ رحلة، ونقدها وتوظيفها.

دخول مفاجئ للإلكترونيات في التاريخ الآني

لا يمكن دخول الإلكترونيات المفاجئ في مجال الكتابة التاريخية من تطور هائل لما هو كمي وكل «القياسات» التي يمكن تخيلها فقط، فهو يضاعف في الوقت نفسه حظوظ الآنية التأريخية ومخاطرها، أكثر مما أحدثته وسائل الإعلام منذ قرن من الزمن. ومما نلاحظه أن هذه الأخيرة قد تعاقبت على ثلاث مراحل: مرحلة الصحافة التي تطورت على هامش قضية درايفوس (Dreyfus)، والتي أعطتها دفعا متميزاً، ثم مرحلة المذياع، والذي كان من مستعمليه الناجحين كل من هتلر وروزفلت قبل هيئة الإذاعة البريطانية في لندن، وأخيراً مرحلة التلفزة التي كانت وراء فوز كيندي في الانتخابات وإشعاع ديغول. لا يمكن أن نحصر تطور التاريخ الآني في واحدة من هذه التطورات، فليساغاراي كان يكتب قبل أن تزدهر الصحف الإخبارية في فرنسا، ولم يعتمد تروتسكي وسائل الإعلام المنطوقة، ولم تكن مكبرات الصوت التي استعملها لينين مفتوحة إلا لجموع العمال، وكانت البيروقراطية الستالينية بلا صوت. ولم تؤدّ التلفزة إلا دوراً ثانوياً في تحقيق صحافيي **الواشنطن بوست** المؤرخين. ولكن هل يمكن لأحد أن يكتب كتاباً جدياً حول الظاهرة النازية من دون أن يكون قد استمع وأسمع صوت الفوهرر (Führer) وهو يقذف بكلامه في مضخمات صوت سبورتبلاست (Sportplast) أو في ملعب نورمبورغ (Nuremberg)، ذلك الصوت المتحجر بحجم قوة الغابات؟

يكون القرص هنا من الضروريات مثله مثل الفيلم: ربما يكون تاريخ الجمهورية الخامسة في فرنسا هو تاريخ التلفزة، فهي صورة للرؤساء الثلاثة وصراع التوجهات من أجل السيطرة الدائمة على الشاشة، والنقاشات من أجل تقسيم الوقت بين رجال السياسة والمحاولات من أجل «المرور عبر الشاشة» في حصص البرامج الكبرى التي تصنع مواقع الشخصيات في سلّم سبر الآراء وتغيّرها.

لا يمكن للتاريخ الآني أن يستعمل كل مصادره

يجب على الصحافي ـ المؤرخ، أينما وجد في وسائل الإعلام، أو في الصحف، أو في الإذاعة، أو في التلفزة، أن يواجه خطراً خاصاً جداً: وهو القضاء على مصادره، إلا إذا كان هو محور ما يرويه. إن «الأنوي» يقطع الغصن الذي يجلس عليه باستمرار ما دام هو عاكساً للأحداث وصانعها، هذا إذا لم يكن هو عاكس للديناميكية الاجتماعية وصانعها. ولا يشكل استعمال المذكرات الخاصة لأليونور داكيتان (Aliénor D'Aquitaine) خطراً بالنسبة إلى المؤرخ سوى التأثير في حياء القارئ، إلا أن الكشف عن بعض ما يبوح به رئيس حكومة من حكومات العالم الثالث في جلسات خاصة سنة 1978 يؤدي إلى غلق الأبواب أمام المبعوث الصحافي في بلد أو أكثر في هذه البلدان. وعلى كل من يروم كتابة تاريخ غينيا منذ 1958 أن ينسى نصف ما يعرفه، وإلا منع من استعمال أي مصدر من المصادر المحلية لسنوات عديدة. لذلك يوجد نوع من التحكيم بين ما هو معروف وما هو «قابل لأن يعرف». إن أي من المستشرقين أو المختصين في أفريقيا لم يعرف هذا النوع من الصراع الداخلي؟

هذه المسائل لا تطرح فقط خارج الحدود الأوروبية. إذا ألقينا جانباً بالتحقيقات والكتب كما نلقي قوارير معزولة الواحدة عن

الأخرى في البحر أو باعتماد استراتيجيا الأرض المحروقة، فكل «أنوي» يجد نفسه مجبراً على واجب التحفظ بالنسبة إلى مخبريه، وبالنسبة إلى مواضيعه. ليست هناك مجموعة أو شخص أو مؤسسة لا تملك بعض نقاط الظل التي لا تريد الكشف عنها، ولا ترد الفعل عن ذلك الكشف إلا بالتعتيم نهائياً على ذلك. إن أي مؤرخ من مؤرخي 13 أيار/مايو 1958 أو «اليسار الموحد» أو انتخابات 1978 لا يجد نفسه مجبراً على الموازنة بين تعطّشه للبوح بكل شيء والخطر بالنسبة إلى أبحاثه المستقبلية حول مواضيع قريبة من ذلك، أو حول ما يمكن أن يقوله بفظاظة حول دور النادل أرتيز هنا، أو حول هذا العرض أو ذاك مما تقدمت به مؤسسات الرعاية لهذه المنظمة أو تلك من منظمات اليسار؟

مؤرخ الحاضر يجمع الأحداث ويثير الأحاسيس

إن أي مختص في التاريخ الآني، سواء كان شارل تييون[14] (Charles Tillon)، وهو يكتب عن ظروف طرده من الحزب الشيوعي الفرنسي، أو جاك أوزوف، وهو يفسر في ليلة من شهر أيار/مايو 1974 تداعيات انتخابات الرئيس الثالث للجمهورية الخامسة الفرنسية، هو في الوقت نفسه جامع للأحداث ومثير للأحاسيس، وهي أحاسيس آنية. يصعب على الكثير من المختصين أن يبيّنوا تأثيرات ما كشفه زعيم القوى العمالية الشعبية السابق على المجتمع الشيوعي من خلال مرافعته. وكثر هم أولئك الذين يستطيعون تقييم انعكاسات التحاليل الآنية والمذهلة على موازين القوى داخل اليسار الفرنسي. في كل الحالات لا يستطيع هذان النوعان من «الأنويين» أن يكتبا

(14) Charles Tillon, *Un «Procès de Moscou» à Paris: Précédé de l'interrogations*, l'histoire immédiate (Paris: Editions du seuil, 1971).

بالعقلية نفسها مثل مؤلف: **حضارة الرن** (*La Civilisation du Renne*) أو **المحاربون والفلاحون**.

يجب على هذا النوع من الباحثين أن يحمي مصادره لضمان أعمال مستقبلية - لا يكفي أن ننقد نظام التصنيع في شركة بيجو (Peugeot)، فيكون القبول أحسن من طرف شركة سيتروين (Citroën) - والتكهن بتأثيرات ما يمكن أن يعكسه على هذا الجانب أو ذاك من جوانب المجتمع بصورة آنية: أي بالنسبة إلى الآني كما هو بالنسبة إلى ميدان بحوثه في المستقبل. هل يرى هذا المؤرخ المتلعثم أنه قادر على فتح كل مجالات الاستكشاف؟ يبدو عالم 1978 أقل نفاذاً بالنسبة إلى الباحث أكثر من عالم 1878: كم من بلد، من دون أن نتحدث عن الحالة الاستثنائية لكمبوديا، هي بلدان ليس من السهل الغوص في أرشيفاتها أو مساءلة حكامها ومحكوميها؟ هناك مليار من الآسيويين وتقريباً أغلب الأفارقة وغالبية سكان أمريكا الجنوبية، يعتبرون «مكتبات حية»، ولكنها ممنوعة على الباحثين. لقد كان من السهل أن نكتب تاريخ الإمبراطوريات الأفريقية وتاريخ الهجرات الماليزية منذ قرن مضى. وقد أحسن شارل أندريه جوليان[15] لما كتب تاريخ المغرب قبل أن يسدل ستار بوليسي على الأرشيف في الرباط.

في الحقيقة أصبحت المعلومات المتعددة حول العالم أكثر ثراء. لقد أكد ملاحظ جيد للحاضر أنه في الماضي كان أكثر الناس علماً بما يحدث هو الراعي الإنجليزي المعزول في المناطق المرتفعة، وله مذياع صغير ملتصق بأذنيه من الفجر إلى منتصف الليل، فيحكى له

(15) Charles André Julien, *L'Afrique du nord en marche*, 2 vols., 3ème éd. revue et mise à jour (Paris: R. Julliard, [1972]).

ما يحدث في الكون بأسره بواسطة أصوات عديدة ناطقة بالإنجليزية تأتيه تقريباً من كل عواصم الدنيا. يكلمه أمين دادا بصورة مباشرة، ويخاطبه تان سياو بينغ (Ten Siaou Ping) عن طريق ممثليه. وربما ـ ربما ـ عندما ينام يكون أكثر اطلاعاً من نظيره في جوميّاج (Jaumièges) لعشرة قرون خلت.

كثير هو العلف الذي يستمد منه «الأنوي» مادته. لقد عرضت التلفزة الفرنسية في الأيام الأخيرة من سنة 1977 مجموعة هائلة من الوثائق قد تكون جعلت البعض من المؤرخين، من المختصين في مصر القديمة، بما في ذلك المختصين في التاريخ الوسيط، يحلمون: مجموعة أفلام ألبير خان (Albert Khan)، هذا الصراف الذي كان حمل عدسته في بداية القرن إلى جميع أنحاء الدنيا، وبصورة خاصة على حافات الشوارع الباريسية الكبرى. لنتصور أنه منافس لخان الذي عمم هذا النوع من التحقيق بالقيام بالتصوير لمدة ساعة خلال عشريتين أو ثلاث على حافة مفترق ريشيليو ـ دروو (Richelieu-Drouot). كم هي ثرية هذه العملية بالمعلومات المتعلقة بتطور النقل واللباس، وطريقة تصفيف الشعر والبنية الجسدية للمرأة أو الرجل، ومستوى المعيشة والإشهار والصحافة والحب، ونوعية العروض الفنية وأمد الحياة؟... تكشف مجموعة من الخزف اليوناني بالنسبة إلى مختص في اليونانيات كثيراً من الأشياء. ماذا يمكن أن نقول حول هذه الطريقة في التحقيق؟

قد يقع الاعتراض بالقول إنه بقدر ما تكون التقنية الوثائقية مختلفة وذات مستوى عال ومرتفعة الكلفة، تكون حرية المؤرخ هشة. ما إن تطرح مسألة التمويل والمنتج ومصاريف المهمة، حتى تطرح أيضاً مسألة حرية المناورة والتعبير. ويمكن للمؤرخ المعاصر أن يستعمل آلات وأدوات لا تتطلب تمويلاً محدّاً لحريته، ولكن

التطور الذي تسير نحوه تجهيزات الباحث العصرية يمكن أن تذهب بعيداً، لذلك يتطلب الأمر بعضاً من الحذر.

مسألة الموضوعية

ليس أقل من هذا الخطر الواضح والمتعدد والملاحظ في كثير من الحالات، وهو يتربص بالباحث المعاصر أكثر من غيره، والذي يمكن أن نلخصه في كلمة «الذاتية». ماذا بقي من الكتابة التاريخية المعاصرة حول «الموضوع» المحمّل بحقيقة قدسية، ترى الفلسفة الوضعية نفسها متمسكة به بشدة؟ ليس هناك مخلوق يمكن أن يعتقد أن بحثاً ـ وأكثر من ذلك اكتشافاً، ثم علاقة سببية نوعاً ما ـ لا تقوده بعض المسبقات الفلسفية أو يقوده السياق الاجتماعي الثقافي للمؤرخ.

لقد كتب ميشيل دو سارتو أن «الأحداث التاريخية» تتكون من معنى تصبغه على «الموضوعية» [وضع مزدوجين حول كلمة «موضوعية» له دلالته]. إنها تعبّر في مستوى لغة التحليل عن «اختيارات» سابقة لها، وهي لا تترتب عن الملاحظة ـ وهي ليست قابلة لـ «التثبت»، ولكن قابلة لـ «التزوير» نتيجة للفحص النقدي(16). ولكن ألا يمكن لهذه الاختيارات التي كانت بداهية عند ماتييز أن تزداد وتحتد من خلال ممارسة «الأنوي»؟ إن علاقة توسيديد بألسيبياد، وإن بدت شديدة الإثارة، وعلاقة كاميل جوليان (Camille Julien) بالنسبة إلى التراتبية الفرنجية، وعلاقة ساينيوبوس (Seignobos) بالنسبة إلى اليسوعيين، والعلاقة التي يربطها اليوم باحث بفرنكو (Franco) أو مع الحزب الشيوعي الألباني أو مع

(16) Jacques Le Goff et Pierre Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, bibliothèque des histoires; 17, 3 vols. ([Paris]: Gallimard, [1974]), vol. 1, p. 5.

فرنسوا ميتران، قد تكون موجهة بحدة بحكم الالتزام السياسي أو الفلسفي.

ولكن هل يعني أن نتهم المواطن ـ الباحث بالقصور المنحاز إذا تساءل عن السياسة الجبائية لريمون بار أكثر مما لو كان يدرس السياسة الدينية لشارل العاشر؟ إنه، نظراً الى ارتباطه بعصره وبثقافته وبإطار إبداعه، يعبّر حتماً عن جملة التأثيرات التي توجه بحثه والتأويلات التي يقدمها.

في هذه الحالة سيكون له سلف مشهور هو جول ميشليه والصور المتفاوتة لكل من جان دارك ونابليون، والتي استطاع بنبوغه العنيف أن يفرضها على الأيديولوجيا الشعبية في فرنسا.

يظل مؤرخ الحاضر نزيهاً بإعلان اختياراته

يجد «الأنوي» وهو المتهم بالذاتية، النجاة في توضيح توجهاته. إنه يحيّد نفسه بإعلان توجهاته أو بانفتاحه على مسالك العدل. وبإعلانه عن انحرافات البوصلة يصبح غير منحاز. وبتقدمه متلثماً يكون الباحث عن الآني بعيداً عن العملية التاريخية. وما يصنع قيمة الأعمال الكبرى التي اهتمت بـ «الآني» مثل «أرخبيل الغولاغ»[17] هو وضوح الثوابت الأولية وشفافية العبارة. إن الرجل يعبّر عن تجربة فريدة، فهو يلقي على الطاولة بالوثائق التي تحصّل عليها بالمخاطرة بحياته. إنه يعلن ما يعرفه وما يعتقد فيه، ومن هنا فهو يكون مفهوماً.

هل كل هذا تاريخ؟ تكون المنقبة أو المرافعة مادة تاريخية أولية

---

(17) A. Soljénitsyne, *L'Archipel du Goulag, 1918-1956: Essai d'investigation littéraire = Arkhipelag Goulag*, [traduit par Jacqueline Lafond [et al.]] (Paris: Editions du seuil, 1974-).

في أحسن الحالات، هكذا يقول الأستاذ عندما لا يتحدث عن «الصحافة الفضائحية». هل يمكن أن نقدم الفكرة التالية: ليتوقف العمل الصحافي عندما يلغي عمل الباحث الصدفة أو عندما يقلل بدقة من مساهمتها غير القابلة للتصرف؟

إن هذه الصدفة التي تطبع العمل الصحافي بقوة ليست مرتبطة فقط بالمهنة ذاتها وبممارستها، وما في انجازها من ارتجال وتقطع وتقلب، وإنما هي مرتبطة أيضاً بصروف الحياة الاجتماعية. أن يكون الصحافي حاضراً عندما اندلع حريق بازار الرحمة (Bazar de la charité)، أو عندما تجاوزت الدبابات الأولى الحدود النمساوية، أو عندما غادر كاسترو (Castro) جبال سيارا مايسترا (Sierra Maestra) ليدخل مدينة هافانا (Havane)، أو عندما قال ديغول في خطابه: «لقد فهمتكم»، فهذا هو الذي يصنع الشهرة. أما أن يكون الصحافي غائباً عن القاهرة في رخصة مرض عندما اندلعت ثورة الضباط سنة 1952، أو عندما يقول السادات إنه مستعد للذهاب «إلى أقصى الدنيا» أو حتى إلى «الكنيست»، فهذا واحد من الذين تفتقدهم الصحافة. إن العمل الصحافي الذي هو شكل أولي ومتعثر للتاريخ الآني رهين «السبق الإعلامي»، والخبر غير المسبوق، واللافت للأنظار في الوقت ذاته، مثل تسريب اتفاق لافال ـ هوار (Laval-Hoare) حول إثيوبيا، وهو من مفاخر جنفياف طابوي (Geneviève Tabouis). ولكن ألا يبحث المؤرخ أيضاً عن «السبق الإعلامي»؟ إن مخطوطات البحر الميت أو تقرير فورنييه (Fournier) حول تحقيقه في قرية «مونتايو» تعدّ هي الأخرى من «السبق الإعلامي». إن الصحافي الذي تتقاذفه أهواء الخبر يبقى مرشحاً للعملية التاريخية ما دام شاهداً وفاعلاً ووسيطاً ومحركاً أو ناظراً، فهو يدخل في بحثه إرادة عقلانية لتحديد مشاهده وتنظيمها وربطها بمعنى إشكالي على الأقل. كما

توجد رغبة في التجميع أيضا. ومهما كان الزمن الذي يعمل فيه ملاحظ الحاضر، سواء لتسليط الضوء على الصراع الفييتنامي ـ الكمبودي أو حول إضراب عمالي في معامل ميشلان (Michelin)، فهو يبدأ العملية التاريخية بقدر ما يسمح له تنوع مصادره وحجم وثائقه من مقاطعة الأحداث بعضها ببعض وفحصها. لقد رأينا بأن الزمن هنا لا يؤدي دوراً أو يتناقص دوره شيئاً فشيئاً في كل الحالات. إن الصحافي ـ الفأر يلتهم بنادقه بشراهة والمؤرخ ـ السنجاب يجمعها، بينما «الأنوي» يجمّع بالقضم. وتكون مواصفات هذا العمل رهينة المكان أكثر مما هي رهينة الزمن. إنها محكومة بالنسق ـ التزامن والتباعد ـ أقل مما هي محكومة بالانفتاح على «بركار» نقدي.

عودة الحدث

على رغم أن «الحدث» ظل طيلة قرن من الزمن المادة الأولية للتاريخ الوضعي «الموضوعي» والماضوي قبل أن يقع تشذيبه من طرف «مدرسة الحوليات» وصهره في تواصل كبير، فهو يقوم اليوم باقتحام ميدان التاريخ في ارتباط وثيق بمحاولة الآنية التاريخية. إن الحدث يعرف في الوقت نفسه بالقطيعة وبالمعرفة. إنه يحتاج إلى الاختلاف والضجيج الذي يحدثه، فهو قد يكون ظاهرة عارضة، وفي النهاية ثانوية في مسار التغيير الاجتماعي. ما هي الأحداث من خلال قضية بولانجي (Boulanger) أو قنبلة فايان (Vaillant) أو محاكمة السيدة كايو (Mme Caillaux)؟ ولكن إذا كان من المفروض أن نقيّم ما الذي يحرك المجتمع أو يحدث تغييرات جماعية، نلاحظ أن «الحدث» لا ينتج إلا انفعالات عابرة. إن الحركة التي يجب وصفها توجد في كثير من الأحيان بعيداً عن ساحة الضجيج الكبرى: يمكن أن نميّز بين المؤرخ والصحافي بحسب اختلاف مستويات

الاستماع. الأول مثله مثل مراقب المسالك الهندي الذي يهتم بصدى الطريق أكثر منه بما يدور حوله. وبالنسبة إليه، فالتاريخ سلسلة من الأصوات الصماء تمتد في الخمسين سنة الأخيرة من اختراع البنيسيلين (Pénicilline) إلى حبوب منع الحمل (الأولى لم تصبح حدثاً إلا بعد اكتشاف فليمنغ (Fleming))، وتغيير ميزان القوى بين المنشفيك والبلشفيك سنة 1912، ومؤتمر براغ السري والاعتراف بتفوق دعاة الإصلاح الزراعي في هونان (Honan) على لينينيي شانغاي (Shanghai) في أثناء مؤتمر تسون يي (Tsun-Yi) سنة 1935: بعد ذلك وقع القرار بالهجوم على قصر الشتاء والغولاغ والسيطرة على بكين و«الثورة الثقافية».

حقاً، يحافظ الحدث على قيمته المتميزة وعلى ديناميكيته الخاصة. هل يجب أن نرى فيه نقطة التقاء أم نقطة مصالحة بين «الأنوي» والمؤرخ الحقيقي؟ إننا نحاول أن نكتشف للأول مجالاً آخر غير هذا، ولو أن مساهمته تهم حرب تشرين الأول/أكتوبر أكثر من نهاية الفرنسيسكانية منذ نهاية الفاشية. إن ما يفرق بين الصحافي و«الأنوي» قد يكون القدرة على توثيق الحدث وتحديده في الواقع.

أين يكمن الحدث؟ هل هو في محاكمة درايفوس؟ أو في نشر مصور عن كتابة إسترهازي (Esterhazy) من طرف صحيفة **الفيغارو** (*Le Figaro*)؟ أو في تأسيس بارّيس (Barrès) لـ «حزب المثقفين» الدرايفوسيين؟ أم في إعادة المحاكمة؟ وفي ما يتعلق بتقرير خروتشيف، هل يكمن الحدث في نصه الغريب حسبما كشفت عنه صحيفة **لومانيتي** (*L'Humanité*) بصورة جزئية مستندة إلى ما قامت به البعثة البولونية من خلال الصدى الذي أعطته له الصحافة العالمية؟ وفي ما يتعلق بإقصاء ماو تسي تونغ (Mao Tsé Toung) سنة 1959، يمكن أن نرى أين تبدأ الهوة التاريخية. ولكن أين الحدث؟ لقد

علقت الصحافة العالمية على تغيير وضعه، ولكن لتشير إلى الغموض الذي يكتنفه. لا أحد إذاً، ولا حتى إدغار سنو[18] (Edgar Snow)، أعطى للخبر أبعاده بوصفه حدثاً قريباً من أحداث الثورة الفرنسية. تتحالف في إطار الحدث الحقيقي ـ ديان بيان فو (Dien Bien Phu)، ودالاس (Dallas)، وباندونغ (Bandoung)، وعودة ديغول سنة 1958 ـ كل من قوى التغيير وقوة الإعلام. والتاريخ يتبع مسالك أخرى، فانخفاض الولادات في الصين ما بين 1960 و1970 له وزن أكثر من تغيير الألقاب الشرفية في قصر الإليزيه (L'Elysée) أو في البيت الأبيض. ولكن الحدث الحقيقي أليس هو حدث بلا حدود؟ تكمن العملية التاريخية في البحث عن تناسقه وعن صداه، ففي سنة 2200 قد لا يكون هناك اهتمام بمحنة جنرال فرنسي حوالى منتصف القرن العشرين. ولكن ما يمكن أن يظل مأخوذاً بعين الاعتبار هو مسار تحلل الديمقراطية التمثيلية في فرنسا كما عرفتها إنجلترا منذ ثلاثة قرون، وصعود نظام اجتماعي ـ سياسي مبني في الحين ذاته على المركزية والتصنيع والتكنوقراطية.

وسائل للإعلام تعيد للحدث نضارته

لا يؤرخ الحدث بداهة بظهور وسائل الإعلام الكبرى والمذياع والسينما ـ التلفزية. إن تحرير كراسات الشكاوي، والعودة من جزيرة إلب (Elbe) كانت أحداثاً بقدر ما كان الرأي العام معنياً بها مباشرة وبصورة درامية. ولكن من غير المستبعد أن يكون تزاحم وسائل الإعلام الكبرى الثلاث، والتي كانت منذ نهاية القرن التاسع عشر تتنبأ بالاكتساح الكبير الذي سيقوم به ما يسمى بـ «الحدث»، هو الذي كان وراء ردة فعل مدرسة **الحوليات** التي انبرت تدافع عن

---

(18) هو صحفي أمريكي مختص في الصين وصديق لماو (Mao).

نفسها أمام ديكتاتورية ما هو وقائعي. إن النقاش لا يزال مفتوحاً. ولكن في الوقت نفسه لم يؤد نبذ التاريخ التوّي لفائدة الماضي، الذي حصره الوضعيون بوصفه مجالاً علمياً، إلى نبذ الحدث ما دام هذا الأخير معطراً في كفن قديم، كما يمكن أن يتلاءم التاريخ الرافض الحدث مع مفهوم الآنية. قد تكون مذكرات سباك في دائرة باريس التاسعة عشرة، والدراسة الشاملة للتثقيف الصحي في أرياف فرنسا في ظل الجمهورية الخامسة، من مواضيع التاريخ الآني، وهي ليست أحداثاً.

في الوقت الحاضر على «الصغار» أن يصمتوا

في الحقيقة يميل «الأنوي» إلى الاعتناء بـ «النتوءات»، **أولاً** لأن العواصف تنطلق من هناك بصورة أجمل، **وثانياً** لأنه كثيراً ما يكون متأثراً بتكوينه الصحافي. إن الداء الذي حلّ بجورج بومبيدو يشدّ انتباهه، ومن المحبّذ أن يقارنه بما يعانيه عشرات الموظفين الصغار في الفترة نفسها. ويتضخم ملفه حول ردود فعل الشعب المصري أمام فرضية سلم مع إسرائيل بتصريحات نجوم البرلمان والصحافة قبل أن تنضاف إليهم تصريحات عمال الطرقات وفلاحي الدلتا أو فلاحي الصعيد، وذلك لأسباب عديدة: أولاً إذا كان الفرق الأساسي بين الجاسوس والمراسل الصحافي هو أن الأول مجبر على ذكر مصادره لمشغليه، في حين لا يقوم الثاني بذلك، لأن التحقيق الصحافي لا يمكن أن تكون له مصداقية إلا إذا كان منمقاً باستشهادات مشهورة إلى حد ما، ثم إنه أسهل بكثير أن نأخذ رأي «واحد من الكبار»، والذي عادة ما تكون تلك مهنته وفيها يجد ربحه من الشهرة والتأثير، أما «الصغير» فيكون دائماً خاسراً عندما يتكلم. لا أحد يعترف له بما قاله من الحقائق. ولن يهتم الناس بما قاله إلا إذا وجدوا فيه ما يعاب. ومن هنا تأتي

صعوبة التحقيق الميداني على الأقل بالنسبة إلى من هو مطالب بتقديم ملفه بسرعة. قد يتطلب جمع عناصر الرائعة: **شائعة أورليان**[19] (*La Rumeur d'Orléans*) لإدغار موران وفريقه أشهراً من التحقيق، فقد كانوا في فرنسا في منطقة عمل صغيرة، وفي مجتمع توجد فيه حرية الكلمة، ولكنها ليست غير مسؤولة. إن النتوءات التي يعاشرها مؤرخ الآني في كثير من الأحيان ليست دائماً ملآنة بـ «العظماء»، فتييون (Tillon) نفسه عندما كان يروي المحاكمة التي نصبتها له القيادة التوريزية (Thorézienne) للحزب الشيوعي الفرنسي، لا يتحدث أبداً إلا عن القيادات المنحرفة، في حين تظل «القاعدة» غائبة عن حديثه، فهي تنتصب دائما في ارتفاع متشنج فوق سطح المشهد المعتاد. إنها الاستثناء والمدهش، ومما لم يشاهد من قبل. أما الصحافي الجدّي والذي يتمتع بالثقافة التاريخية والاجتماعية الكاملة، فيستطيع ممارسة مهنته كما لو أن العالم يتكون حصراً بالنسبة إليه من هجومات مفاجئة ومجاعات وحروب وهجرات اضطرارية. إنه لا يمكنه النظر إلى مجتمع في يومه الأسود والحقيقي إلا نادراً. ويمثل سكان القبائل بالنسبة إليه شعباً من الثائرين، والإيرلنديون أمة إرهابية، وعمال المناجم في منطقة اللورين (La Lorraine) مجتمعاً من المضربين عن العمل.

من منا نحن الصحافيين والمحققين و«الأنويين» لم تدفعه الأحلام ليحلم بنوع من التحقيق الذي يعيد الحياة الجماعية إلى بساطتها وإلى وضعها الأفقي؟ من لم تحدُه الرغبة على التدحرج من المرتفعات ليمشي في الوادي الأوسط ليعرف في النهاية إنسانية

---

(19) Edgar Morin, *La Rumeur d'Orléans*, l'histoire immédiate, avec la collaboration de Bernard Paillard [et al.] (Paris: Editions du seuil, [1970]).

متحررة من تشنجها ومن غلوها، إنسانية تنعكس في المرآة البسيطة لأيامها التي تمرّ؟

تتحكم الإثارة في الراهن

بلا شك، يكون نشاط الباحث في الآني، وهو كثيراً ما يكون صحافياً، محكوماً بتصور للراهن مبني على الإثارة. يطلب مدير واحدة من الصحف الكبرى، التي يمكن أن تسمى كذلك في فرنسا مثله مثل مدير سلسلة تاريخية ستصدر قريباً عن إحدى دور النشر الكبرى، تحقيقاً ناطقاً عن الفلسطينيين أفضل من تحقيق صامت حول الإستونيين (Les Esthoniens) أو حول الأرجنتين التي تغلي عوضاً عن المكسيك المتلكئ. إن قاعدة المبارزة القديمة وقاعدة «الدم الأول» هي نفسها التي تعتمدها الصحافة اليوم. دعني أرى قطرة من دمك وأعطيك حق الكلمة.

يجب أن نقلب هذه القاعدة أو نهذبها. يجب أن يسمح للباحث في تاريخ الحاضر، بما أنه في وضع فكري أحسن مما مضى ومجهز تقنياً بصورة أفضل، أن يتمشى على سفوح البلاد المعتلة ويكتب تاريخها بصيغة المفرد، كالمقاطعات والأحياء تلك التي تتمثل حياتها في تعاقب للأيام. سنرى عند ذلك تلاحماً مدهشاً بين هؤلاء «الهواة» ومحترفي التحقيق المكمم والمعقلن والدائم. كما سنلاحظ أنه ما بين **تاريخ ثورة الطلاب** الذي كتبه آلان توران وتحقيق جوزات عالية (Josette Alia): **المسيحيون في الشرق**، وهو كتاب ضمن السلسلة: **أرض إنسانية** التي يشرف عليها جان مالوري[20] (Jean Malaurie)، وتحقيق حول إريتريا قام به جان كلود غيلبو (Jean-Claude

---

(20) Editions Plon.

(Guillebaud)، واليابان القوة الثالثة لروبير غيلان (Robert Guillain)، وأفضل ما نشرت سلسلة: **شواهد**[21]، أن هناك بين كل هذه الأعمال اختلافاً كبيراً في مناهج العمل والمادة الأولية المستعملة، وليس في ما أضيف إلى معرفة هذا العصر.

بعض النماذج

بالقدر الذي وقع فيه اعتماد الأمر المزدوج الذي يقضي بالسرعة في الإنجاز، ولكن أيضاً في مقارنة الوثائق وتنويع المصادر، أصبح العمل الفردي أكثر إشكالاً، وربما غير قابل للتصوّر. ربما نعيش عصر آخر محترفي المناجاة. لقد أصبحت المجموعات تتكون شيئاً فشيئاً، من أجل البحث عن الآني، وكذلك عن كل ما له علاقة بالعملية التاريخية. فعلى مستوى الصحافة يعتبر فريق أحسن المحققين والمحللين لجريدة **الصانداي تايمز** (*Sunday Times*) اللندنية واحداً من الأمثلة على ذلك.

لقد حقق هذا الفريق الصحافي البريطاني في فترة الحرب العربية ـ الإسرائيلية الرابعة في تشرين الأول/أكتوبر 1973، ونشر في بعض الأسابيع تحقيقاً يمكن أن يعتمد بوصفه نموذجاً من هذا النوع. ليكن الفرنسيون أنانيين يعتبرون أن البحث والاكتشاف هو من الأعمال «البطولية»، وهو ما اعتبره جاس بيت (Jess Pit) سبباً من أسباب الوجود عند الشعب الغالي (Gaulois)، حتى لا ترق أي من المنشورات الفرنسية إلى ما وصلته الصحافة الإنجليزية. صحيفة **لو نوفال أوبسيرفاتور** (*Le Nouvel observateur*) تحصر مثل هذا العمل في ما تسميه قضايا «اجتماعية». وإذا قامت بمثل هذه الأعمال

(21) Editions Gallimard.

الجماعية، فتكون حاملة لتوقيع وحيد هو توقيع «العرف»، كما يحدث عادة في الميدان الفيودالي للبحوث الطبية.

قبل أن ينظم ويعمم هذا النوع من البحوث المتعددة، يمكن للتاريخ الآني أن يحسب لفائدته العديد من الأعمال الجيدة. يمكن أن نتساءل عن بعض الأعمال مثل: **ثورة 1848** لتوكفيل، وهو نموذج رائع للوعي باللحظة التاريخية وللحيوية المنعشة. ولكن إلى أي مدى يمكن اعتبار **المذكّرات**، والتي تتميز بالانطواء على الذات، وبالمسافة بين التحرير والنشر التي يعد بها مؤلفوها، من ضمن أعمال التاريخ الآني؟ وهو ما ينطبق أيضاً على عمل فيكتور سيرج الذي يعدّ ضرورياً بالنسبة إلى تاريخ القرن العشرين.

لقد ذكرنا إلى أي حد يمكن أن نعتبر تاريخ تروتسكي عملاً مرجعياً. يجب أيضاً أن نذكر ماركس من الصحافي اللندني إلى مؤرخ **18 برومر للويس نابليون**، أو **الكمونة** (*La Commune*). كما كان سابقوه مدهشين مثل دافيد روسي (David Rousset) صاحب **بيت يضحك**، وأكثر من ذلك مارك بلوخ صاحب **الهزيمة الغريبة**. في كلتا الحالتين إن أي عقل متوقد يوضع أو يقف أمام ما لا يمكن تصوره، يجتهد في استعمال آلياته التحليلية وتجهيزاته الثقافية لفهم وتوضيح وتعيير وتصور واقتراح كل ما يراه مناسباً.

ولكن إذا كان يجب أن نبحث عن نموذج مهما كان الثمن، فإننا نجده في عمل المؤرخ أكثر من عمل الصحافي.

نجد ذلك في كتاب: **أفريقيا تسير** لشارل أندريه جوليان[22] مع كل ما فيه من النقائص، فهو كتب في ظل الأحداث التي قلبت

(22) Julien, *L'Afrique du Nord en marche*.

الأوضاع في بلاد المغرب منذ حوالى خمس وعشرين سنة، ونشر في الوقت الأكثر تراجيديا من تحرر أفريقيا البيضاء، أو على الأقل في وقت درامي غير واضح: صيف 1952 عندما اختلط التهديد بخلع باي تونس مع احتداد الخطر في الجزائر والتوافق في المملكة المغربية ما بين بطانة القصر والقوى الشعبية.

في هذا الجو من التوتر والحمى والمؤامرات وعمليات التشويه، يتحرك شارل أندريه جوليان بهدوء كبير معتمداً على معرفته العميقة بالماضي ليوضحه من خلال ثمار حيوية تحقيقه هذا. نقول بأنه تحقيق ناشط لأن المؤرخ هو أيضاً في تلك الفترة بطل دراما لا يخشى التدخل في النقاش بالمقال وبالنصيحة وبالتأنيب. ويجب أن نكون قد شاهدنا جوليان، وهو يجري إلى دار النشر، وحتى إلى المطبعة ليقوم بالإصلاحات الضرورية بحسب آخر المعلومات الواردة من تونس، وليعدل شيئاً فشيئاً من طبعة إلى أخرى كتابه المحرق، لنعرف إلى أي مدى يمكن أن يذهب الشغف الواعي لإنارة الماضي وهو ينصهر، بصورة مباشرة.

يمكن أن نقدم اعتراضات عن هذا العمل، منها التسرع في الكتابة، واستعجال التحقيق، ومسلمات الكاتب بما يقدمهِ الحدث في ما بعد من تصويبات. ويمكن أيضاً أن ندافع عن هذه البساطة، والأصح عن هذه الذاتية، وهذا الاستعجال الخلاق، وهي من الخصائص النبيلة لـ «الآنية» وتبريرات نجدها في هذا المقال بصورة غير مباشرة من فقرة إلى أخرى. يمكن أن نكتب كتباً أحسن مما كتبه شارل أندريه جوليان حول تحرر بلاد المغرب: ولكن من يستطيع أن يجد مثل هذا الحماس المتقد أو الغضب، أو هذه الحمى من الأوهام ومن التنديد، وهذه المشاعر الأخوية الهائلة التي كانت تربط آنذاك المناضلين المغاربيين وأصدقائهم من الفرنسيين، مثل ماسينيون ومورياك وجوليان؟

التاريخ الآني هو انعكاس لقرننا المتشنج

نرى عند ذلك كيف تتأكد الضرورة التي لا مفر منها لهذا التاريخ الآني. وهذا الميلاد ليس نتيجة، لا أدري، أية مجموعة من الناشرين أو الوزراء أو أية موضة، ولكنه نتيجة لظهور نوع من الحياة التي لم تكن فقط مهتزة ودرامية ـ كل الحياة مهتزة إلا لدى بعض المجتمعات «الباردة» ـ ولكنها حاملة، وبصورة مذهلة، لحرارة اجتماعية. إن التاريخ الآني ليس «لعبة» هذا القرن، إنه رحيقه وانعكاسه.

إن ما يميز هذا العالم المتشنج الموصل الذي نعيشه ليس فقط لأن أي أزمة تهزّنا سواء كانت نتيجة وضع «مراقب» في الجولان من طرف إسرائيل، أو حادث سيارة أمير من أمراء ساحل القراصنة، أو إضراب في كراكوفيا (Cracovie)، وليس لأن هذه الأزمة يمكن أن تقلب حياة بين اللحظة والأخرى، وتوقف مسار الإنتاج، أو تحكم بالصقيع على أمم بأسرها ـ كان هذا حال الوضع بعد حادثة سراييفو ـ بل لأن هذه الأحداث تصل إلى الناس بسرعة وتؤثر فيهم، وتدفع بهم إلى الخوف. إن هذه الآنية في الإعلام التي تفرض تطور التاريخ الآني، هي علامة عن ضبابية مجتمع مهووس بالأخبار ومن حقه أن يطلب تحويلها إلى تاريخ في المستقبل.

الصحافي والمؤرخ يقتربان بصورة تدريجية

إن العالم بأسره، وفي أي لحظة، هو أفريقيا الشمالية سنة 1952. وسواء كانت هناك مبالغة في الإعلام أم لا، يصلنا جميعاً وفي كل صباح عندما نستيقظ من النوم، ملف أرشيف. إن عالم اليوم يتطلب في أي لحظة واحداً كشارل أندريه جوليان، مندفعاً بقوة في قلب الالتحام، مسلحاً بزاد معرفي واسع، وبفطنة سريعة لينير وينظم

هذه المكتبة التي تسير. هل هناك تفكير في الحصول على الوسائل التي تسمح لنا بمشاهدة أنفسنا ونحن نموت حتى نعطي لأنفسنا فرصة الحياة، وهو ما تقوم به المجتمعات الغربية بالتقريب ما بين التاريخ المكتوب والتاريخ المنطوق. يفصل لافيس عن روشفور (Rochefort) قرن من الزمن، فما هو القاسم المشترك بينهما؟ وكذلك بين بيار رنوفان (Pierre Renouvin) وألبير لوندر (Albert Londres) اللذين يفصلهما نصف قرن؟ ولكن اليوم، وبغضّ النظر على الموضة المنتشرة في قراءة التاريخ المتعلق بـ «قضية السمك» أو بتغيّر سكة المحراث في منطقة اللانغدوك، هناك شغف موحد نابع من القاعدة أجبر التيارين على الالتقاء أو على الأقل على تبادل المعلومات والمناهج. لقد فتح كل من الصحافة والمحققين «الأنويين» أرشيفاتهم، إذ يعرف المؤرخون كيف يتعاملون مع الحاضر ويخضعون تشنجاته إلى صرامتهم المهنية.

هل أن التاريخ، وهو علم التغيير، يصف تحولات البنى انطلاقاً من تأثير الثقافة في الطبيعة؟ إن التذكير بذلك لا يعدّ إلغاء للبحث «الأنوي». إن تحقيقاً صارماً حول علاقات باريس بصناعة السيارات ما بين 1970 و1980، وعلاقة بومبيدو بجيسكار ديستان تعبّر بما فيه الكفاية عن التحولات الثقافية، وعن التحولات في المجتمع الفرنسي.

قد يكون «الأنوي»، وهو يبحث عن محاولة للتعريف، مدفوعاً إلى القول بأن العلم الذي يسعى لممارسته لا يهتم بهذه التحولات بصورة دقيقة، ولا بما «تغيّر»، ولكن بفعل «غيّر». وكما فتح مالرو (Malraux) الطريق أمام الوجودية التراجيدية والأدبية بتقويل بطل **المسلك الملكي** أن ما يهم هو ليس الموت، ولكن فعل «مات»، قد يهتم «الأنوي» بمثل هذا المقطع الوجودي.

إن هذا الهندي من قبائل الشربا (Sherpa) الذي يقتفي العملية

التاريخية ويسطّر المسلك بفظاظة بتحمل وزر الحدث، ألا يستحق أن نقترح عليه أن يرفع العلم على قمة الجبل؟ على سفحه يمكنه أن يتحقق من صلابة جوانبه، ويثبت الأوتاد ويرسم الحدود. هل نخلي له مكاناً تحت الخيمة عند الاستراحة؟

الماركسية والتاريخ الجديد

غي بوا(*)

يخترق الكتابة التاريخية المعاصرة تياران قويان: **الأول** ـ وهو الماركسية ـ يقدم نفسه على أساس أنه نظرية عامة لحركة المجتمعات التي سيعبّر عنها باستعمال عدد من الآليات الخاصة أو المفاهيم الأساسية، وأهمها مفهوم «نمط الإنتاج». وهو يطمح إلى نظرة شمولية ومتناسقة وديناميكية للمسارات الاجتماعية، ويصل تأثيره إلى أبعد من المؤرخين المسميين بـ «الماركسيين» أو يقدمون أنفسهم بهذه الصفة. لقد أثر في الإنتاج التاريخي عبر مسالك مختلفة، خاصة في فرنسا.

التيار **الثاني**، وهو الموصوف من طرف رواده بـ «التاريخ الجديد». يهدف المؤرخون الجدد، بعدما كبلوا التاريخ التقليدي، تاريخ ساينيوبوس، تهكماً على أنه تاريخ تجريبي ووضعي، إلى

(*) غي بوا (Guy Bois) من مواليد سنة 1934، متحصل على التبريز في التاريخ، وعلى دبلوم معهد الدراسات السياسية في باريس، وعلى الدكتوراه، وهو أستاذ التاريخ الوسيط في جامعة فرانش كوميته (Franche-Comté)، ورئيس جمعية تاريخ الفيودالية. كتب العديد من المقالات وكتاباً خصصه لدراسة ميكانزمات الاقتصاد الفيودالي.

تجديد المناهج التاريخية التي ستعطي لهذا الميدان صفة علمية ـ فيقول لنا جاك لوغوف وبيار نورا «التاريخ ينتظر سوسيره» (Son Saussure) ـ وهو ما سيمكن في النهاية من «صناعة التاريخ».

طبيعي أن لا يتجاهل هذان التياران أحدهما الآخر. يستمد كل منهما وجوده من رفض ممارسة التاريخ بطريقة متقادمة، فهما يتجانبان ويخلطان مياههما من دون تمييز، ولكنهما يتنافسان في الوقت نفسه بحدة واحتراز متبادلين. قد يكون التقاؤهما، الذي لا يزال جزئياً وغامضاً ومضطرباً، أهم الأحداث التي تهم الكتابة التاريخية في أواخر هذا القرن، فهو ظاهرة مبهرة على الأقل في مستوى تداخل علاقات التحالف والتصادم التي يحملها هذا الالتقاء في داخله. كما يمكن أن نؤكد أن مصير المادية التاريخية على المدى القصير مرتبط إلى حدّ بعيد بنتيجة تصادمها مع «التاريخ الجديد». لقد وضعت مفاهيمها على محك التجربة أمام هذا التجديد المنهجي، فتغيّرت النظرة إلى أنماط الإنتاج ما قبل الرأسمالية خلال العشرين سنة الماضية. وهذا يبرر فحصاً دقيقاً لمسألة الالتقاء بين الماركسية و«التاريخ الجديد».

أي ماركسية؟

قبل كل شيء، لا بد لنا من أن نحذر التبسيط أو سوء الفهم بالنسبة إلى هاتين التسميتين. في ما يتعلق بالماركسية أولاً، لا نستطيع أن نخفي لفترة طويلة أن التصنيف يشمل ممارسات تاريخية مختلفة الواحدة عن الأخرى، وربما غريبة بعضها عن بعض. لقد كانت انعكاسات السياسي محددة في هذا المضمار. ويعتبر من باب العبث أن نقلل من الانحرافات أو الجمود المنسوبيْن إلى السبات الدغمائي الطويل الذي تعتبر الستالينية الأكثر دلالة عنه. ومن العبث

أيضاً أن نتخيل أن بلدان أوروبا الشرقية قد احتكرت الجمود الأيديولوجي أو أن الماركسيين الغربيين قد تحرروا منه بما أنهم ندّدوا بعبادة الشخصية. بالنسبة إلى الكتابة التاريخية تعتبر الحصيلة المؤقتة كارثة. إن الخطب المنمطة وتعطل البحوث (إلا في بعض الميادين المستقلة عن الدوائر الأيديولوجية مثل علم الآثار) والمعالجة المدرسية والمصطنعة للمفاهيم، هي أبرز دلالاتها. كل من يلتقي اليوم ببعثة رسمية من المؤرخين السوفيات يستطيع أن يقوم بهذه الملاحظة المؤلمة.

والأسوأ هو أن هذا التحريف المضحك للماركسية يغذّي نقيضها، أي أنه يغذّي توجهاً نحو التخلي، المعلن نوعا ما، عن المادية التاريخية، وهو توجه يزداد وضوحاً في كثير من البلدان الشرقية، ويفتح الباب أمام غزو أيديولوجي للعلوم الاجتماعية الأمريكية. ومن الطبيعي أن لا يكون كل شيء أسود في لوحة الكتابة التاريخية في هذه البلدان، إذ يظل بعض الباحثين ذوي الموهبة العالية على الركام، وبعض الأعمال المشرفة لا تزال تكتب مثل: **تاريخ العصر الوسيط**، تأليف ن. أبرامسون (N. Abramson)، وأ. غوريفيتش (A. Gourévitch)، ون. كوليسنيتسكي (N. Kolesnitski) الذي مكنتنا منشورات التقدم من ترجمة حديثة له. وقد احتفظت المدارس التاريخية البولونية والمجرية بحيويتها البراقة، فمن فرصوفيا وصلتنا دفعات حاسمة مع أعمال و. كولا.

الممارسة الماركسية للتاريخ في أزمة

لا يخفي كل ما سبق تشخيص أزمة الممارسة التاريخية الماركسية التي تبدو تأثيراتها كما لو أنها ملطفة، واضحة في الغرب، وهي تضع داخل البحث الماركسي خطوط تمايز حقيقية. وتبدو

المسافة بعيدة بين ممارسة دقيقة ومتورعة للماركسية، وهي لا تزال أسيرة ما يعتقد أنه «مكسب» في الكتابة التاريخية، وممارسة أكثر نقداً تجاه هذا «المكسب»، وهي قبل كل شيء خاضعة إلى شرط العودة إلى الأصول الماركسية، وهي مسافة يبدو لي أنها لن تتوقف على الازدياد. ولا يمكن في الوقت الحاضر أن نهرب من دون مخادعة من هذا الاختيار. وهذا الاختيار لا يمكن أن يكون من دون انعكاسات على الموقف المتخذ من طرف صاحبه حيال «التاريخ الجديد». ستحمل العقلانية العميقة أولئك الذين يريدون تجديداً جذرياً للبحث التاريخي الماركسي على إدماج كل الإضافات المنهجية الحديثة التي يمكن أن تكون ثرية، في حين يكون التقوقع في ممارسة أكثر تقليدية مغذياً أكثر للاحتراز من هذه الإضافات، إلا في الحالة التي يكون فيها تصور الانفتاح على «التاريخ الجديد» بوصفه حاجزاً يغطي التمسك بالمواقف الأيديولوجية.

أي تاريخ جديد؟

ليس هناك أيضاً «تاريخ جديد». يمكن أن نعرّفه بصورة موجزة من خلال بعض مشاغله المهيمنة: من ذلك توسيع مجال الملاحظة عند المؤرخ باكتشاف «مواضيع جديدة»، والاعتماد على مجموعة من العلوم الإنسانية (أنثروبولوجيا وعلوم اقتصادية وعلم الاجتماع وعلم النفس...)، وبلورة مناهج كمية ما انفكت تزداد تعقيداً بالاعتماد على وثائق كمية. ولكن هل يكفي كل هذا لإعطائها وحدة ما؟ في الحقيقة يوجد وراء «التاريخ الجديد» تاريخه الذي يخترقه الغموض والتناقضات.

ولد «التاريخ الجديد» على مشارف سنة 1930، وقد حملته شهرة لوسيان فافر ومارك بلوخ. خاض، لفترة طويلة من الزمن،

معركة شجاعة ضد الوضعية التي كانت قد أشبعت الأيديولوجيا التاريخية واكتسبت بذلك شهرة شرعية رائدة. ثم حدث في الستينات الانفجار المنتصر والمعاصر لأهم التحولات الاجتماعية في بلادنا والدفع الذي عرفته البنيوية، فتقدم «التاريخ الجديد» في كل الاتجاهات داحراً «التاريخ التقليدي» على بعض المجالات المحمية (التاريخ القديم خاصة) محتلاً مواقع استراتيجية داخل المؤسسة الجامعية (المدرسة التطبيقية للدراسات العليا ومعهد فرنسا). لا يهم أن يحتفظ رواد التاريخ التقليدي داخل الجامعة بنفوذ مؤسسي (معتمد على هيئة بالية من حيث تصورها وتركيبتها: المجلس الاستشاري)، فمستقبلاً سيمارس «التاريخ الجديد» تأثيراً سائداً، وسينشأ الغموض بلا شك من هذا النجاح نفسه.

قد يصبح «التاريخ الجديد» ضحية الموضة

أولاً، إن ما كان في جوهره تجديداً خصباً لمناهج التاريخ وقع تشويهه بسرعة عبر ظاهرة الموضة الناتجة من النجاحات التي تم تحقيقها. وها هو «التاريخ الجديد» وقع عرضه بوصفه نوعاً من أنواع الصابون. هل سنظل متشبثين بتاريخ شبه تاريخي وخطي وملتصق بالحدث، وسينتسب الناس إلى «المدرسة الجديدة» حتى تكون البضاعة قابلة للتسويق. أحسن من ذلك، سنرى مؤرخين من التجريبيين يتحولون إلى مروّجين متحمسين للدقة الإحصائية، وعوضاً عن استنباط الآليات المفاهيمية وقع إعداد تقنيات بسيطة. وهنا وجدت الوضعية الفرصة للبقاء بلباسها لثوب جديد. وفي النهاية، كيف يمكن للاهتمامات الأيديولوجية أن تظل غائبة أمام اجتياح موجة التحديث التاريخي؟ إن الدور الأساسي الذي اكتسبه «التاريخ الجديد» يملي عليه جملة من المسؤوليات في هذا المجال. ولا يعني الأمر أن يقع الإلقاء أرضاً بتقليد منهجية بالية، ولكن يعني ذلك أيضاً وضع

خطة دفاعية في المعركة الفكرية للعالم المعاصر.

ويعتبر دخول **التاريخ الاقتصادي الجديد** من أمريكا وانتشاره مؤشراً على ذلك. وبسذاجة مضحكة قام جان هيفر (Jean Heffer) في التقديم الذي قام به لأعمال هذه المدرسة بالعديد من التصريحات[1]: التاريخ عبارة عن «مجال للحشو» يجب التخلص منه[2]، أما بالنسبة إلى «التاريخ الكلي» فيجب «التأكيد في الوقت الحاضر على أنه ليس علمياً بسبب طموحه الإنساني الشامل»، وهو ما يبرر في نظره طموحات محدودة، أي نوع من «الاقتصارية»، والخصم منعوت بتهكم: «المؤرخون الماركسيون» (هل هم كثر في واقع الأمر؟) والذين «يجب تركهم في تخريفهم»[3].

ها نحن بعيدون عن الإلهامات الأولية، بعيدون جداً عن لوسيان فافر ومارك بلوخ حتى لا نذكر إلا هؤلاء. ونقول بعد ذلك إنه يوجد تاريخ جديد...؟ في ظل هذه الظروف لن تكون مصادمته مع التاريخ الماركسي هينة. وفي كلا الجانبين لا يمكن الاستخفاف بالتمايزات الداخلية الواضحة. وهو ما يفسر في بعض الحالات تداخل آليات الهجوم لدى التيارين، والتي كثيراً ما تكون غامضة ومتناقضة. ولكن المشكلة تبقى بين ما يريد أن يكوّن نظرية عامة للتاريخ، ومن يريد أن يكون هناك تجديد لمناهج التاريخ. هل توجد نقاط التقاء؟

---

(1) Ralf Andreano, dir., *La Nouvelle histoire économique: Exposés de méthodologie = The New Economic History: Recent Papers on Methodology*, bibliothèque des histoires, traduit de l'anglais par Roger Gilles; dossier de la question par Jean Heffer ([Paris]: Gallimard, 1977).

(2) المصدر نفسه، ص 82.

(3) المصدر نفسه، ص 34.

تأثير الماركسية على التجديد المنهجي

نلاحظ قبل كل شيء أن الماركسية قد أدت مبكراً دوراً خصباً في هذا التجديد المنهجي. وبقدر ما كانت الماركسية تطمح إلى تاريخ «شمولي» أو «كلي»، عليه أن يلتقط في اللحظة نفسها المظاهر المختلفة للحياة الاجتماعية (أي الاقتصادي والذهني والاجتماعي والسياسي)، فعليها، بحكم أصولها، أن تكون منفتحة بلا حدود على مختلف علوم الإنسان. ونظراً إلى إيلائها الطبقات الاجتماعية وصراعاتها الدور الحاسم، فهي تهتم أكثر بالبنى من اهتمامها بالحدث السطحي، وتهتم بالجماعي أكثر من اهتمامها بالفردي، وباليومي أكثر من العرضي. أما بالنسبة إلى المناهج الكمية، فيجب أن نذكّر بأن ماركس كان يستعملها كثيراً؟ إذاً ليس من الغريب أن نلاحظ تأثير الماركسية في تمشي «التاريخ الجديد» وملاحظته حتى عند زعيم **التاريخ الاقتصادي الجديد**، روبير فوجل (Robert Fogel)، الذي استفاد في تكوينه من المادية التاريخية. إن التحليل المركز لهذا التأثير قد لا يكون عديم القيمة، لأنه يسمح بلا شك من ملاحظة ثلاثة مستويات متباينة.

تأثير غير مباشر

هناك أولاً التأثير غير المباشر والمنبث الذي مارسته الماركسية على مجموع الكتابة التاريخية الفرنسية، وقد تم ذلك في فترتين مختلفتين. إلى حدود الخمسينات «كان تأثير الماركسية في العلوم التاريخية في فرنسا بوصفها منهجاً تحليلياً يجمع بين الاقتصاد والتاريخ»، كما يقول ذلك جان بوفييه (Jean Bouvier) من خلال مساهمته: حول **التاريخ في يومنا هذا**[4]. «الكثيرون يستعملون

---

(4) Jean Bouvier, dans: *Aujourd'hui l'histoire: Enquête de la «nouvelle* =

الماركسية (أو قليلاً من الماركسية) بطريقة ما وبصورة متفاوتة من دون أن يعلموا». وكان الرجل الذي ساهم كثيراً في هذا الانبثاث، وهو معروف، هو إرنست لابروس الذي بقيت اهتماماته مركزة على مسألة العلاقات بين الطبقات الاجتماعية وتوزيع الثروة في ما بينها. لن أذهب إلى حد اقتفاء أثر جان بوفييه عندما يكتب في المقال نفسه أن إرنست لابروس قد حقق «نوعاً من الانصهار بين ماركس وسيميان»، لأن ذلك يعني حذف الفكرة التي تقول بأنه ظل دائماً رافضاً بتعنّت المفهوم المركزي للمادية التاريخية (أي مفهوم نمط الإنتاج)، ولهذا السبب يبقى عمله التاريخي، مهما كان، هاماً وموسوماً بمسحة «اقتصادوية» نصف ظرفوية ونصف مالثوسية. ولكن هذا لا يمنع من أن يظل أحسن مثال على هؤلاء المؤرخين الذين وجدوا على تخوم الماركسية، ومنها أخذوا بعض أدوات التحليل وساهموا في نشرها. ويمكن أن نقول الأمر نفسه بالنسبة إلى أعمال مارك بلوخ - بصورة خاصة حول عمله: **الخصائص المميزة للتاريخ الريفي الفرنسي** الذي أعطى دفعاً حاسماً للتاريخ الاقتصادي الوسيط لمدة سنوات.

تمّ هذا المسار للتأثير غير المباشر للماركسية (وفي الوقت نفسه مسار التجديد المنهجي) بفعل «رجال التخوم» (ولكن هذه العبارة كما سنرى ستصبح غير معبّرة نظراً للخطوات الجديدة التي تم قطعها)، وقد تواصل بأشكال أخرى خلال العشرين سنة الأخيرة. والعنصر **الجديد** هو أن هذا التأثير لم يعد محصوراً في مجال الاقتصادي والاجتماعي وحده: لقد شمل مختلف جوانب الحياة الاجتماعية.

---

critique», [1968-1973], avec la collaboration de Jacques Berque [et al.]; [préface = par A. Casanova et F. Hincker] (Paris: Editions sociales, 1974).

والذين يمكن أن نسميهم أعوانه يستعملون مفهوم نمط الإنتاج بوعي ولو بصورة ضمنية، وبهذه الصورة فهم يتجاوزون «التخوم» حتى ولو كان ذلك بصورة محدّدة ومؤقتة أو حذرة. وهذا هو شأن جاك لوغوف في عمله المميز: **حضارة الغرب الوسيط** عندما يقدم لنا نظاماً اقتصادياً واجتماعياً متناسقاً تحركه أيديولوجية اقتصادية طريفة[5]. وهو أيضاً شأن جورج دوبي الذي لا نرى ما يمكن أن يفصله عن الماركسية عندما نقرأ الصفحات الجميلة التي خصصها لتاريخ الأيديولوجيات ضمن كتاب: **صناعة التاريخ**[6]. ولم يكن تعريف الأيديولوجيا الدقيق مأخوذاً عن لويس ألتوسير فقط، بل إن مفهوم الأيديولوجيا وضع في إطار اجتماعي تكون فيه للبنى المادية (الإنتاج وتوزيعه) والعلاقات بين الطبقات المكانة التي تستحقها. إن نظرته إلى التاريخ هي نظرة شمولية بكل تأكيد، وهي أيضاً مادية وجدلية، كما يشهد على ذلك التنصيص على الخصائص الخمس للأيديولوجيات: «إنها شمولية وتحريفية ومنافسة ومهدئة وعملية»[7]. لا يهم إذا كانت المصطلحات العادية للمادية التاريخية غائبة في مثل هذا المقال، فالأساسي هو أن يتحقق الانصهار بين الماركسية و«التاريخ الجديد» من خلال ذلك بطريقة نموذجية. إن توسيع آفاق التاريخ واستنباط أدوات مفاهيمية جديدة، بعيداً عن تصورها كآلة حربية ضد الماركسية، كل ذلك يعتمد على الماركسية، وأحسن من ذلك تساهم المشاكل المطروحة وعناصر الجواب عنها في إثرائها. نحن الآن عند ملتقى هذين التيارين الكبيرين.

---

(5) Jacques Le Goff, *La Civilisation de l'occident médiéval*, collection les grandes civilisations; 3 ([Paris]: Arthaud, 1964).

(6) Jacques Le Goff et Pierre Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, bibliothèque des histoires; 17, 3 vols. ([Paris]: Gallimard, [1974]).

إضافات مباشرة

المستوى **الثاني** من التأثير، والشكل الثاني من الالتقاء، هو الإضافات المباشرة للمؤرخين الماركسيين لهذا الجانب أو ذاك من تجديد المناهج التاريخية. يعني ذلك أن باحثين يعتمدون صراحة المادية التاريخية، ويقومون ببحوثهم في إطار هذه الفرضيات العامة، ويكرسون جهدهم الرئيسي لمشكلة محددة: كالتمفصل بين التاريخ وعلم إنساني آخر، أو فتح مجالات تاريخية جديدة. وإليكم مثالين من أمثلة عديدة.

ماركسيون يكتبون التاريخ الجديد

تبرهن ريجين روبين (Régine Robin) من خلال **التاريخ والألسنية** على هذا التمشي[8]. إنه «تساؤل عن المفترقات المفاهيمية» للحقلين «لتوضح للمؤرخين أن قراءة نص ومجموعة من النصوص تطرح مشكلة مثل إنتاج المعنى، وأن بعض الجهات الألسنية يمكن أن تكون مفيدة لهم بشرط أن لا تكون عملية إلصاق مصطنعة وتطبيقاً من دون تفكير أو تمازجاً مكذوباً للعلوم»[9]. إن هدفها هو الوصول إلى نظرية الخطاب، وخاصة الخطاب السياسي مع اعتباره مساراً وفحصاً لأنماط التمفصل التي تربط الطرق الاستدلالية بمختلف مستويات النشاط الاجتماعي. إنه مشروع طموح ومعقد يتطلب تفريقاً واضحاً ما بين الخطاب والأيديولوجيا (ولو أن الخطاب هو جزء من الأيديولوجيا) واعتماد مجموعة من العلوم الدلالية (مثل الألسنية

---

(7) المصدر نفسه، ص 149 ـ 150.

(8) Régine Robin, *Histoire et linguistique*, linguistique (Paris: Armand Colin, 1973).

(9) المصدر نفسه، ص 7.

وعلم النفس والسيميائية. . .)، ولكنه مشروع ثري يمكن أن نتصور تعدّد تطبيقاته منذ شيشيرون (Cicéron) إلى الخطاب السياسي المعاصر.

تعتبر مساهمة ميشيل فوفيل أكثر حسماً في مجال «تاريخ الذهنيات»، فهو من أكثر المؤرخين الماركسيين المعاصرين نباهة وخيالاً، وهو أيضاً من أكثر الذين ساهموا في تقدم «التاريخ الجديد» بعدم اقتصاره (كما يحدث دائماً) على خطاب منهجي عام، ولكن بتحديد مناهجه من خلال بحوث ملموسة، وفي وحدة حميمية نادرة بين النظرية والتطبيق. يمكن أن نحكم مع ميشيل فوفيل على «التاريخ الجديد» من خلال ثماره.

إنه قبل كل شيء الاحتفال والموت. وأمام عدم إمكانية القيام بتحليل معمّق ليس هذا مجاله، لنتابع قليلاً ميشيل فوفيل أمام التساؤل الذي طرحه بقوة: كيف كان الناس يعيشون موتهم؟

لقد قام في كتاب: **التقوى الناشزة وتراجع المسيحية: مواقف البروفانس أمام الموت في قرن الأنوار من خلال الوصايا** بجملة من الخيارات المنهجية المعبّرة[10]: أولاً كان ضوء الباحث مسلطاً على مشكلة، وهو بذلك أحاط واستكشف الموقف أمام الموت. ثم بعد ذلك تنخرط الدراسة في الأمد الطويل الذي يعدّ ضرورياً لإدراك الالتواءات والقطيعة الممكنة بالنسبة إلى حساسية جماعية. وفي الأخير يعبّر اختيار المصادر عن الرغبة في العمل على مواد متناسقة قابلة للتكميم: لقد وقع ترك عناصر الوثائق غير المتناسقة جانباً لفائدة

---

(10) Michel Vovelle, *Piété baroque et déchristianisation en Provence au XVIIIe siècle: Attitudes devant la mort d'après les clauses des testaments*, civilisations et mentalités ([Paris]: Plon, 1973).

مصدر واحد وجداولي، وهو المتمثل في الوصايا. ينتظر الباحث من تطور الوصية، بعد إخضاعها إلى تحليل دقيق، جواباً عن السؤال المطروح. و«يبدو فن التوثيق لدى العدول، على عكس كل المظاهر، أبعد ما يكون عن الجمود، متحركاً وقادراً على التعبير عن الحركة، وقادراً في المناسبة نفسها على تصوير تحولات الأحاسيس الجماعية لحرفاء العدول». وبهذه الصورة كشف البحث عن وجود تحول عميق بداية من سنوات 1760: بدأت الوصية تتعلمن وأصبحت لها شخصية، كما «تغيّرت كذلك صورة الموت. وعرفت شبكة الحركات والطقوس التي ترافق هذا العبور تغيّراً عميقاً. ولا نعرف هل أن الإنسان أصبح يذهب وحيداً، غير متأكد مما ينتظره في الآخرة في سنة 1780 أكثر مما هو عليه في سنة 1710، ولكن ما نعرفه هو أنه قرر أن لا يبوح بذلك». ندخل من خلال تحليل هذه التحولات بثبات في حقل تراجع المسيحية الشاسع. إنه تمشٍ نموذجي.

وأخيراً سأبين مستوى ثالثاً للتداخل بين الماركسية و«التاريخ الجديد»، وهو مستوى تداخل في طور التبلور حالياً، ولكن ستكون نتائجه في مستقبل قريب على غاية من الأهمية. إنه من نتاج مؤرخين ماركسيين، ولكنهم في الوقت نفسه مقتنعين باعتماد مناهج جديدة، واهتمامهم الأساسي هو التعويل على هذه المناهج لضمان تقدم المنهجية الماركسية وإخراجها بصورة نهائية من الانكماش الذي لا تزال تعانيه إلى الآن. لقد تم التنسيق بين العنصرين في مثل الحالة السابقة، ولكن لم تكن الاهتمامات في المرتبة نفسها: كان اعتبار التجديد المنهجي في حدّ ذاته أقل أهمية من اعتباره وسيلة ضرورية لتفكير نظري أكثر جوهرية. لنتوقف مرة أخرى عند نموذجيْن معبّريْن عن هذا التمشي.

أتانا النموذج الأول من ألمانيا في شخص باحث شاب له خصال براقة، هو هانس ميديك (Hans Medick) اشترك في تأليف كتاب صدر حديثاً: **التصنيع قبل التصنيع**، وهو يبدو كأنه مساهمة فريدة لنظرية التحول من الفيودالية إلى الرأسمالية[11]. يصف لنا ظهور بنية (ما قبل الصناعة) وازدهارها، ثم ذبولها، وهي قد تكون مميزة لآخر مرحلة من الفيودالية أو لبداية الرأسمالية. وهي بنية ناتجة من التنسيق الضيق بين صناعة ريفية منصهرة في الإطار العائلي أو الخدمي، وتنظيم رأسمالي للسوق يضمن توزيع منتوجاتها في السوق العالمية الجديدة.

أدار هانس ميديك ظهره كلياً إلى التجريب الذي كان يمكن أن يحمله إلى وصف دقيق لكل أشكال ما قبل التصنيع في أوروبا، وكان يمكن أن يجبره في ما بعد، لكي يتمكن من المرور من الوصف إلى تفسير مغلوط، على أن يقحم، بصورة مصطنعة نوعاً ما، كل هذه المعطيات في قليل من الظرفية وكثير من الديمغرافيا؛ كل ذلك عبر أمد طويل. لم يكن ذلك، لأن ما يهم باحثنا هو الكشف عن سير البنية ومحدّداتها. وقد توصل إلى ذلك باعتماده مناهج تاريخية جديدة على مستويين منفصلين. اعتمد التحليل الكبير للظاهرة على مجموعة من البحوث الكمية (ديمغرافية أكانت أم اقتصادية) أثبتت بداهة العلاقة بين المرحلة ما قبل الصناعية و«تزعزع المجتمعات الفلاحية التقليدية وتفككها في أوروبا». واعتمد التحليل

---

(11) Hans Medick, Peter Kriedte und Jürgen Schlumbohm, *Industrialisierung vor der Industrialiasierung: gewerbliche Warenproduktion auf dem Land in der Formationsperiode de Kapitalismos*, Veröffentlichungen des Max-Planck-Instituts für Geschichte; 53, Mit Beiträgen von Herbert Kisch und Frankin F. Mendels (Göttingen: Vandenhoeck und Ruprecht, 1977).

الدقيق استعارات هامة من الأنثروبولوجيا: لقد انطلق من قواعد السلوك الاقتصادي للمنتجين، أي الفلاحين «الماقبل الصناعيين»، والذين كان هدفهم الموازنة بين العمل والاستهلاك (لا يعملون إلا عندما يكون العمل ضرورياً لتوفير الاستهلاك)، ثم بعد ذلك كشف التحليل عن الآليات الخاصة بالإنتاج («فارق الربح» الذي يمكن أن يتجاوز ما يمكن تحقيقه في النظام الرابطي أو النظام الحرفي) ليوصلنا إلى دراسة مسار إعادة الإنتاج. إنه عمل جيد من خلال النتائج وحدها.

البحث عن اقتصاد سياسي خاص بكل منظومة

لا بد لنا من الوقوف على الإضافات المنهجية التي أتى بها هذا المؤرخ للماركسية. يرفض هانس ميديك الموقف المدرسي الماركسي المغلوط، والذي قد يكون متمثلاً في وضع موضوع البحث من أول وهلة في إطار نمط إنتاج وقع تحديد خصائصه بصورة مسبقة، ولن يبقى للباحث إلا تحديد قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج. وتظل النظرة الشمولية، انطلاقاً من فهم نمط الإنتاج، بالنسبة إليه شرطاً رئيسياً، وهي منطلق منهجي وليست منطلقاً للبحث. وعلى العكس من ذلك، كان هانس ميديك واعياً بأنه لا يمكن استنباط نموذج شمولي لنظام اقتصادي ـ اجتماعي من دون الدخول في التنظير. ويمر البحث بالضرورة بإعداد نماذج جزئية أو وسطى، ثم يوسّعها في ما بعد. وقد اعتمد منهجية مبنية على التنظير التدرجي للخروج من التجريبية من دون السقوط في الدغمائية، وهي مقاربة سرعان ما أفزعت البعض (لقد أدت إلى نقض كلي لكل ما كنا نعتقد أننا نعرفه عن أنماط الإنتاج ما قبل الرأسمالية)، ولكن يجب الحكم عليها من خلال ما توصلت إليه من نتائج، سواء مارس هذا التمشي ويتولد كولا أو هانس ميديك أو آخرون، فقد ساهم في أنجاز بعض التقدم

وفك التعطيلات الأكثر دلالة. وما نلاحظه هو أنه يعكس ببساطة رجوعاً إلى مصادر الماركسية. أليست إعادة تركيب عمل منظومة اقتصادية ـ اجتماعية بإعطاء الأولوية لمسار «إعادة الإنتاج» المركزي هو ما قام به ماركس في دراسته للنظام الرأسمالي؟ أليس أيضاً هو ما وقع إخفاؤه بعده لفائدة نظرية تاريخانية للمسارات الاجتماعية؟ من هنا ينطلق تجاوز التاريخ الاقتصادي والاجتماعي خلال الثلاثين أو الأربعين سنة الماضية (سنعود إلى هذه المسألة لاحقاً) كما رفعها إلى القمة إرنست لابروس، ثم بيار فيلار. يكمن الحد الأقصى لهذا التجاوز في توفير خاصية عملية بصورة فعلية لمفهوم «نمط الإنتاج»، وهي البديل الواقعي الوحيد للتجريبية. ولكننا نرى أيضاً أنه من خلال تمشيه قد استفاد من التجديد المنهجي وساهم فيه.

في نقطة تقاطع الأنثروبولوجيا والتاريخ: عمل موريس غودلييه

نجد الاهتمامات النظرية نفسها في عمل موريس غودلييه (Maurice Godelier) الضخم والثمين. وما زلنا معه في نقطة التقاطع ما بين الأنثروبولوجيا والتاريخ، ولكن يجب أن ندقق أن الأنثروبولوجيا المقصودة هي أنثروبولوجيا ماركسية أساساً «وهي تهم واقعاً تاريخياً»، وتريد أن تكون «متحررة من علم النفس المبالغ فيه، ومن الوظيفية المحدودة والثقافية المعارضة للتاريخ، فهي علم يريد أن يكشف عن البنى من دون أن ينسى جذور نشأتها أو تطورها، وفي النهاية هي أنثروبولوجيا تسعى إلى تفسير البنى والأحداث المحسوسة باتباع نهج المقارنات الضرورية للكشف عن القوانين»[12].

إن موضوع الأنثروبولوجيا الاقتصادية بالنسبة إلى موريس

---

(12) Maurice Godelier, *Rationalité et irrationalité en économie*, petite collection maspero; 81-82, 2 vols. (Paris: F. Maspero, 1971), vol. 2, p. 127.

غودلييه هو تحليل نظري مقارن لمختلف الأنظمة الاقتصادية. لقد تعلقت همته منذ حوالىٰ عشر سنين بتعريف دقيق للمفاهيم الأساسية لهذا العلم، مثل مفهوم «منظومة» و«بنية» و«قاعدة» و«قانون»: «كل البحوث الأنثروبولوجية التي وقعت مقاربتها من خلال التاريخ والاقتصاد والإثنولوجيا.. تؤدي إلى الافتراض أنه لا يوجد مجتمع لا يقوم على تنظيم مختلف نشاطاته بحسب مبادئ منطق نظام معيّن يريده. إن مهمة العلوم الاجتماعية هي أن تقارع هذه القواعد بالوقائع للتمكن من إيجاد القوانين». وقد أدت به مقاربته إلى تفكير معمق ومجدد حول مفاهيم المادية التاريخية، وهو تفكير نجد أحدث تعبير عنه في «آفاق ومسارات ماركسية في الأنثروبولوجيا»[13]. ونحتفظ من بين التساؤلات الكبرى بتلك التي تهم علاقات الإنتاج، والتي من خلال النظرية الماركسية تحدد الوصول إلى أدوات الإنتاج، وإلى إنتاج العمل الاجتماعي، ولكنها بحسب ما لاحظه غودلييه «لا تحتل المكان نفسه، ولا تأخذ الأشكال نفسها، ولا تؤدي إلى التأثيرات نفسها بحسب المجتمعات والفترات». ومن هذا المنطلق، يمكن القول إن علاقات النسب في المجتمعات البدائية هي علاقات إنتاج. نتصور إذن الامتدادات الممكنة لهذا التفكير، سواء لتقييم دور السياسة في اليونان القديمة أو دور الديانات في الحضارة السومرية أو في آشور، وحتى داخل المجتمعات الوسيطة.

لا يمكن أن ننوّه بصدق كبير بموريس غودلييه أكثر من أن نؤكد على تأثيره في كثير من الأعمال التي تتعلق بالتاريخ القديم والوسيط والاعتراف له بالدين. ومن الأكيد أنه هو الذي دفع بالتفكير في

(13) Maurice Godelier, *Horizon, trajets marxistes en anthropologie*, bibliothèque d'anthropologie (Paris: F. Maspero, 1973).

الأدوات المفاهيمية للمؤرخ، بعيداً، من خلال الالتقاء بين الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية. لن يستغرب أحد أن يكون لمثل هذا التمشي انعكاسات أيديولوجية وسياسية متعددة، إذا أخذنا بعين الاعتبار خطوط التمايز (التي ذكرناها سابقاً) التي تخترق الفكر الماركسي. لما اتهمه لوسيان فافر بـ «البنيوية» باعتماد حجج بالية، رد موريس غودلييه بعبارات لا يمكن أن نضيف إليها شيئاً: «إنه صراع متأخر يستمد أساليبه من تلك الدغمائية التي عطلت تطور الماركسية لعشرات السنين، وضيّعت عليها فكرها وروحها العلمية في أكثر من مناسبة».

الماركسية أمام التجديد المنهجي

يبيّن ما قيل الآن حول مساهمة مؤرخين ماركسيين في تجديد المناهج التاريخية أن الالتقاء لم يكن حديثاً، فلم تتوقف الماركسية أبداً عن تأدية دور المحفز في هذا المجال. وهذا لا يعني أنها تدّعي احتكار التجديد، فقد ساهم فيه باحثون من مختلف التيارات الفلسفية. وهو ما يفسر العلاقات المعقدة في البداية بين الماركسية و«التاريخ الجديد». وإذا كانت نشأة «التاريخ الجديد» غير منفصلة عن الماركسية، فهي تحمل بصورة متناقضة خاصية رد الفعل (الذي يمكن أن يصل إلى التحدي)، إما ضد الماركسية نفسها أو ضد بعض تحريفاتها. لذلك إن انخراط المؤرخ الماركسي في المناهج والتقنيات التي تدعو إليها الماركسية، ولو أنه أمر ضروري، هذا إذا أردنا أن نحافظ على الروح العلمية للمادية التاريخية ونطورها، يقتضي الحذر الشديد أمام الفخاخ المنصوبة في طريقه.

الموقف من الكمي

يمكن أن تفتح كل هذه التمشيات كالبحث عن مناهج كمية أو

اكتشاف مواضيع تاريخية جديدة أو استعارة بعض مناهج العلوم الإنسانية، طريق تقدم المنهج التاريخي، كما يمكن أن تفتحه لتراجعه.

لقد خصص فرنسوا فوريه ضمن كتاب: **صناعة التاريخ**[14] مقالاً هاماً للكمي في التاريخ. لقد بيّن بوضوح الانعكاسات الإيبستيمولوجية، ونتفق معه عندما يكتب أن المؤرخ اليوم يجد نفسه أمام مشهد جديد من المعطيات، وأمام وعي جديد بمتطلبات مهنته[15]، وخاصة أن مجالات شاسعة من الوثائق التي لا تزال «نائمة» تبدو قابلة للمعالجة الكمية.

هل من المناسب أن نرى في ذلك «ثورة في ضمير الكتابة التاريخية»؟[16] تبدو العبارة مبالغ فيها، ولكن يبقى أن التاريخ الجداولي «قد فتّت إمبراطورية الكتابة التاريخية الكلاسيكية العجوز والمغلقة بعناية من خلال مطمحين منفصلين ومترابطين»: تفكيك الواقع على مستويات وصف عبر التحليل، وتسليط الضوء على مختلف انساق تطور هذه المستويات. أن تكون هذه العملية المزدوجة خصبة، وأن تكون معبّرة عن مشاكل (بإبراز التوافق بين مختلف الظواهر)، لا تبدو من خلال التحليل الكمي وحده، وهذا هو الأمر الذي لا يمكن لأحد أن يطعن فيه. يجب عدم التهرب أيضاً وبعد هذا القول من الحديث عن محدودية المنهج الكمي: قد تؤدي مطالبته بالكثير إلى إفراغه من محتواه. لا أريد هنا أن أتحدث عن الفخاخ المفضوحة (مصادر غير متناسقة وصعوبة تكميمها...) التي

---

(14) انظر الهامش رقم 6، ص 415 من هذا الكتاب.

(15) Le Goff et Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, p. 46.

(16) المصدر نفسه، ص 53.

كثيراً ما يقدمها أولئك الذين تمنعهم التقاليد أو الكسل الفكري عن هذه المناهج: إنها مصاعب حقيقية، ولكن يمكن تذليلها تدريجياً بتدقيق المناهج. لنأخذ نقيصتين، واحدة تقنية، والأخرى نظرية.

من الناحية التقنية، يؤدي التحليل الكمي إلى مفارقات كبيرة في مستوى المعرفة التي يمكن أن نحصل عليها حول جوانب مختلفة لصيرورة ما: إن البعض يستطيع الاستفادة من خلال وثائق مناسبة بضوء ساطع، والبعض الآخر يبقى في الظل أو ربما في الظلمة المطلقة بسبب غياب مصادر شبيهة. عند ذلك، تكون الرغبة في تفسير الصيرورة من خلال ما وقع تسليط الضوء عليه فقط، وهي رغبة كبيرة، حتى إن تشكيل المناهج يوهم بطابعها العلمي.

صعوبة المرور من الوصف إلى التفسير

لنعد مرة أخرى إلى المثال الذي اتخذه فرنسوا فوريه للتدليل على فعالية المنهج الكمي، وهو المتمثل في العمل حول: **فلاحو اللانغدوك** لإمانويل لو روا لادوري[17]. لقد كان هذا العمل دقيقاً، على الأقل من خلال ربطه بين مختلف الجداول الديمغرافية والاقتصادية التي يحتوي عليها، والتي تبرز من خلالها المواجهة الدرامية بين السكان والإمكانيات. بعد التنويه الواجب بهذا العمل، هناك سؤال لا بد من طرحه: بأي حق خرج المؤلف باستنتاجات مالثوسية (لنذكر بأن فرنسوا فوريه موافق عليها[18]؟ (بأي حق يمكنه أن يميز العامل الديمغرافي في صيرورة النمو؟ وفي ما يخص هذه الصيرورة لا يمكن لأي تفسير أن يكون مقنعاً لفترة طويلة ما دمنا لا

---

(17) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Les Paysans du Languedoc*, science de l'histoire (Paris: Flammarion, 1969).

(18) المصدر نفسه، ص 56.

نرى آليات «التزايد» (في مستوييها الاقتصادي والديمغرافي) ضمن وحدة الإنتاج الأساسية، أي الخلية العائلية.

يتطلب ذلك فهم بعض الظواهر (صعبة المنال من خلال المصادر): تطور إنتاجية العمل، وتطور توجهات مختلف الضرائب التي يجبيها الأسياد، أو المؤسسة العمومية. إن هذا الاكتشاف وحده هو الذي يمكننا من فهم أسباب تكاثر الاستغلاليات الفلاحية في فترة، وتقلصها في فترة أخرى. ذلك راجع إلى أن إجحافاً جبائياً مفاجئاً يمكن أن يؤثر في توازن الاستغلاليات الفلاحية أكثر من أي تفاوت «مالثوسي» (بين السكان والإمكانيات) على مستوى سلم اقتصادي كبير.

المقلق، ويفهم ذلك كل واحد، أننا لا نملك سجلات لحسابات الفلاحين، في حين تنيرنا الأعشار والضرائب بصورة مكثفة عن الإنتاج والسكان. يبقى أن الانزلاق السريع من المستوى الوصفي (وقع توضيحه نسبياً) إلى المستوى التفسيري غير مقبول منهجياً، وأن المنهج الكمي يمكن أن يؤدي بالمؤرخ إلى الانسياق وراء مصادره، وهو ما قد يؤدي به إلى خطر اضطراب البحث. أما الخطر النظري فهو أكبر. وهو يتمثل في معرفة ما إذا كان «تفكك تحليل الواقع إلى مستويات مختلفة من «الوصف» يضرّ أم لا يضر بطموحات تاريخ شمولي أو كلي، وذلك بـ «تفتيت الواقع التاريخي». وإذا كان الجواب بـ «نعم»، فإن ذلك يعني أن استعمال المناهج الكمية يندرج ضمن تصور لوضعية جديدة (Néo-positivisme) أو وضعية شكلانية (Positivisme formalisé) تؤدي بنا، من تحت غشاء بريق الحداثة المدوّي، إلى حدود سنة 1900، هذا من دون أن نتحدث عن الترسانة الحربية التي توجهها ضد الماركسية. أما بقراءة الكتب الصادرة حديثاً في مجال التاريخ الاقتصادي الوسيط والحديث

خاصة، فإنه يتجلى بوضوح أن الاستنتاج بالنسبة إلى كثير من المؤلفين هو استنتاج إيجابي. أما بالنسبة إلى فرنسوا فوريه، فإنه يعطينا جواباً شبه مقنع بالنسبة إلى هذه المسألة الجوهرية: «أجيب أنه ربما يجب الاحتفاظ به (المطمح إلى الشمولي) بوصفه أفقاً للتاريخ، ولكن إذا أردنا أن نتقدم علينا أن نتخلى عن أخذه منطلقاً للبحث، إلا إذا أردنا أن نسقط في الوهم الثيولوجي الذي سبق وصفه». إنه محق في التخلي عن أخذه بوصفه «منطلقاً»، وهذا هو معنى القطيعة الإيبستيمولوجية التي من المفروض، بل من الواجب، أن تحمي الممارسة التاريخية الماركسية من الدغمائية. لا أفهم جيداً تردّده في الإبقاء على هذا المطمح بوصفه «أفقاً للتاريخ». هناك أمر محيّر في استعماله لعبارة «ربما»، وخاصة أنه لا يقول شيئاً عن الموضوع التاريخي الذي يمكن أن يهيكل شمولية التاريخ: أي نمط الإنتاج.

بعد أن قدمنا هذه الاحترازات، نقول إن المؤرخ الماركسي قد يثبت قصر نظر مخيف، إذا تخلى، نتيجة لاحتياط مبدئي، عن استغلال أكثر ما يمكن لما هو كمي. إنه يقلل من شأن الخطر التقني الذي وقع عرضه سابقاً بمضاعفة الملاحظات الكمية في كل الاتجاهات. وليس عليه أن يخاف من الاضطراب التحليلي للمادة التاريخية إذا ما اعتبرها مرحلة ضرورية من مراحل البحث تهيىء لمرحلة من الهيكلة التدريجية من أجل الوصول إلى هدف محدد: وهو استجلاء نمط الإنتاج.

في وجه الاهتمامات التاريخية الجديدة

يستدعي اكتشاف حقول تاريخية جديدة ملاحظات مماثلة. لنتوقف عند الجانب الأكثر شيوعاً في الوقت الراهن، وهو حقل الذهنيات والأيديولوجيات التي يقول عنها جاك لوغوف: «إنها

تتموقع في نقاط الالتقاء بين ما هو فردي وما هو جماعي، وبين الزمن الطويل واليومي، وبين اللاواعي والمقصود، وبين ما هو بنيوي وما هو ظرفي، وبين ما هو هامشي وما هو عام». وبما أن الذهنيات، تحافظ، نتيجة لطبيعتها الثابتة، على «علاقات معقدة مع البنى الاجتماعية»، فذلك ليس من طبيعته أن يحوّل وجهة الماركسيين عن دراساتهم. يجب أن نعتمد مفهوماً فظاً للمادية لكي لا نرى فيها سوى انعكاس البنى التحتية الاقتصادية والاجتماعية.

ما يمكن أن نعيبه، في أقصى الحالات، على الكتابة التاريخية الماركسية التي كانت متحمسة للتأكيد على البنى المادية، أنها لم تعر الظواهر الذهنية التي يمكن أن تكون حاسمة في بعض الأحيان ما يكفي من الاهتمام.

إلا أن هذا النقد في حدّ ذاته، يعتبر أنه قد وقع تجاوزه، ما إن نأخذ بعين الاعتبار النقاش النظري الكبير الذي يدور حول مسألة العلاقات بين مختلف مستويات المجتمع. وهو يطرح نفسه على النحو التالي: كيف يمكن التوفيق بين الدور المهيمن في الظاهر لهذا العنصر أو ذاك من عناصر البنية الفوقية (الدين والسياسة) في هذا المجتمع أو ذاك مع اعتبار مسألة السببية آخر مراحل نمط الإنتاج واعتبار أولوية البنى التحتية؟

المؤرخون الماركسيون لا يجهلون دور الذهنيات

من دون أن نتعمق في هذا النقاش، لنذكّر بأن أجوبة عديدة قد قدمت في هذا المضمار. بالنسبة إلى لويس ألتوسير، إذا كانت السياسة تسيطر على تطور مجتمع ما أو الدين هو المسيطر، فذلك لأن نمط الإنتاج قد اختار أحد هذين الجانبين ووضعه في موقع المهيمن. والجواب الثاني هو جواب موريس غودلييه: «إن أي نشاط

اجتماعي والعلاقات الاجتماعية التي تنظمه صراحة لا يهيمنان على المجتمع (أي على الضمير، وعلى تمثلات عناصر المجتمع) إلا إذا كان هذا النشاط وعلاقاته الاجتماعية تقوم بدور علاقات الإنتاج. وليس لأن هذا النشاط يهيمن على الضمير، فهو يهيمن على المجتمع ويقوم بدور علاقة إنتاج، بل لأنه يقوم بدور علاقة الإنتاج، فهو يحتل موقعاً مهيمناً قي المجتمع وفي ضمير أفراده»[19]. يقود منطق هذا الموقف موريس غودلييه نفسه إلى رفض مفهومي «هيئة» و«مستوى»: «إن أي مجتمع لا يحتوي لا على أسفل ولا على أعلى، وهو ليس منظومة للهيئات والمستويات، ولكنه نظام علاقات اجتماعية متراتبة بحسب طبيعتها ووظيفتها». وهو رفض أيضاً لمصطلحات «بنية تحتية» و«بنية فوقية»، ورفض لرؤية الأيديولوجيا بوصفها «هيئة» منتصبة في أعلى هرم «البنية الفوقية» من أجل تبرير علاقات الإنتاج فقط.

إن النقاش لا يزال قائماً، وهو يشهد على الاهتمام الجديد الذي يبديه الباحثون الماركسيون للتصنيفات الذهنية، مع اهتمام باكتشاف الروابط المتعددة بينها وبين مجموع العلاقات الاجتماعية، وإلا لسقطنا في فخ من «الروحانية البالية»، كما عبّر عن ذلك جاك لوغوف، إذا أهملنا هذه الروابط.

وكما أن الجاذبية نحو الكمي تحمل في طياتها بعض الغموض، فإن الجاذبية نحو ما هو ذهني هي أيضاً غير منفصلة، عند البعض، عن رفض خفي لتحليل البنى المادية. إن العقبة الكبرى بالنسبة إلى المؤرخ (وبالنسبة إلى المؤرخ الماركسي بصورة خاصّة) هي إثراء نظرته بالاقتحام المتواصل لحقول جديدة مع اجتناب تفتت المادة

(19) Godelier, *Horizon, trajets marxistes en anthropologie*, I, p. 15.

التاريخية. إنه لا يصل إلى ذلك إلا في صورة ما إذا أصبحت العلاقات الاجتماعية بالنسبة إليه هي الحقل المفضل لأي بحث تاريخي.

في وجه العلوم الإنسانية

تطرح مسألة العلاقات بين التاريخ والعلوم الإنسانية هي الأخرى بصورة متناقضة. إنه لمن العقم أن نترك إضافات هذه الأخيرة أو أن نتبناها بصورة عمياء في مجال التاريخ، ويكون تبنيها بلا نقد مزدوج الخطورة. إنها تؤدي أولاً إلى ذوبان التاريخ في مختلف العلوم الأخرى وإلى تخليه عن مناهجه الخاصة. والبعض لا يتوانى، من منظور العلوم الإنسانية، عن نقد صفة التاريخ وإعلان موته. لذلك لا بد من الحذر وعدم الإذعان لجاذبية حداثة من سقط المتاع يمكن أن تصبح هروباً إلى الأمام بالنسبة إلى أولئك المنغلقين في التجريبية أو في ممارسة دغمائية للماركسية. يقدم بيار فيلار جواباً قوياً في هذا الاتجاه: «لم أتوقف يوماً عن التفكير في أن التاريخ يجب أن يعترف به بوصفه علم المجتمعات الوحيد والشمولي والديناميكي، إذن فهو التوليف الوحيد الممكن للعلوم الإنسانية الأخرى»[20]. أما الخطر الثاني فهو أكثر تحديداً: الاعتماد على بعض العلوم الإنسانية يمكن أن يؤدي إلى تقويض مقصود لمفاهيم المادية التاريخية. وقد حدث ذلك مع الإثنولوجيا عندما وقع تقديم علاقات النسب بوصفه مصطلحاً عملياً جوهرياً مقابل لعلاقات الإنتاج.

ولكن على العكس من ذلك، قد تفقد المادية التاريخية بسرعة بعضاً من روحها العلمية إذا ما أدارت ظهرها لهذه العلوم الجديدة

---

(20) Pierre Vilar, dans: *Aujourd'hui l'histoire: Enquête de la «nouvelle critique», [1968-1973]*, p. 122.

المزدهرة، وهي ضرورية لتوسيع آفاقها. وكما بيّن بيار لوفاك أن التجديد الحالي في التاريخ القديم مدين كثيراً لتقنيات التدقيق التي جاءت بها العلوم الإنسانية[21]: من ذلك اعتماد الألسنية لتحليل الخطاب القديم، واعتماد الإثنولوجيا لمعرفة الوسائل المادية للعمل والإنتاج (خاصة في ما يتعلق بمشاكل الماء في البلدان المتوسطية)، وضرورة اعتماد مناهج الاقتصاد السياسي إلخ. . . إلا أنه وبعيداً عن التبني البسيط للتقنيات، يجب أن تؤدي المواجهة بين التاريخ والعلوم الإنسانية إلى تفكير معمق أكثر فأكثر حول المصطلحات وأدوات العمل التي تم التوصل إليها من كلا الطرفين. وقد تطور هذا التفكير بطرق مختلفة من خلال أعمال إمانويل تراي وكلود مياسو وموريس غودلييه. وهو يهدف إلى تطهير الأنتروبولوجيا من بعض النزعات الأيديولوجية ووضعها في أطر المادية التاريخية.

التحدّي

إن الالتقاء بين الماركسية و«التاريخ الجديد» ليس بالأمر البسيط. إنه يصطدم باستمرار بعقبات جديدة، إلا أنه ضروري أكثر من أي وقت مضى، فهو مسألة اتحاد وصراع في الوقت نفسه. إن الوحدة بلا صراع والصراع بلا وحدة مضران بالمادية التاريخية. وتأخذ هذه المواجهة بالنسبة إلى الماركسيين شكل تحدٍ. إنهم لا يستطيعون تجاهل حجم الرهان، ولا ما هو مندس تحت غطاء التجديد التقني والانبهار بالعلوم الإنسانية الذي يطوّر نقضاً جزئياً أو كلياً للماركسية، ورفضاً للتاريخ الكلي وادعاء مقاربة علمية. لذا عليهم أن يقدموا جواباً في مستوى الرهان.

---

(21) P. Lévêque, «Problèmes théorique de l'histoire et sociétés,» dans: *Aujourd'hui l'histoire: Enquête de la «nouvelle critique»*, [1968-1973], pp. 71-105.

يمكن البحث عن هذا الجواب في ممارسة تاريخية تجمع بين أكبر انفتاح على المناهج الجديدة (مع اعتبار التحفظات السابقة الذكر)، والتأسيس بصورة فعلية لا شكلية لمصطلحات أساسية للمادية التاريخية. «ليس أصعب وأندر من أن تكون مؤرخاً، هذا إذا لم تكن مؤرخاً ماركسياً»، كما أكد ذلك بقوة بيار فيلار في التاريخ الماركسي، **تاريخ في طور البناء**[22]. لقد فحص في صفحات مؤثرة «الصعوبات التي لا تزال قائمة» و«المسالك المفتوحة». وعن طيب خاطر، سأقتفي أثره في مجموعة من النقاط: **أولاً** عندما يصف المسلك الضيق بين التجريبية والمثالية النظرية («لا يفصل هوة التجريبية عن هوة المثالية إلا حد الموسى»): نحن مهدّدون دائماً بالانزلاق على أحد جانبي هذا المسلك، وذلك إما بتفوق الجانب النظري «على الدخول المباشر في المادة التاريخية»، أو إنه يستنفد فيه، أو عندما يؤكد، بعد ماركس، على شروط علم المجتمعات الذي يجب أن يكون «واضحاً» باعتماد نموذج نظري وصلب وعام، كما يجب أن يكون «كلياً»، أي له القدرة على ألا يترك شيئاً خارج دائرته، ولا أي أرضية لتحليل مفيد، وأخيراً يجب أن يكون «ديناميكياً» لأنه لا يوجد استقرار أبدي: «ليس أكثر فائدة من أن نكتشف مبدأ التغيير»، وفي النهاية عندما يلتقي مع ألتوسير ليؤكد (في مستوى المبدأ على الأقل) «أن المصطلح المركزي والكل الواضح والمحتوى النظري لماركس هو نمط الإنتاج بوصفه بنيةً محدِّدة ومحدَّدة».

يظل نمط الإنتاج هو المصطلح المفتاح بالنسبة إلى المقاربة الماركسية

سأتوقف عند هذه النقطة الأخيرة، لأنه هنا على ما يبدو لي

(22) Paul Vilar, dans: Le Goff et Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, pp. 169-209.

تفترق التمشيات المنهجية. هل أعطى بيار فيلار مصطلح نمط الإنتاج «فعلياً» قيمته العملية بصورة كاملة؟ هل يقبل أن معرفة السير النظري لأنماط الإنتاج ما قبل الرأسمالية هي أيضاً ضرورية لفهم الصيرورة التاريخية، مثلها مثل نموذج رأس المال، كما حدّده ماركس، لفهم التاريخ المعاصر؟ هل يرى في نمط الإنتاج (أبعد من المزاوجة بين القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج) نظاماً يسير بحسب قواعد (ظاهرة) وقوانين (غير مرئية) لا يكلف المؤرخ نفسه عناء كبيراً في البحث عنها، ونظاماً يرشح أسراراً تتعلق بتطوره وتحولاته ونهايته المقبلة؟ إن التأكيد على الدور الموحد والمحدّد لنمط الإنتاج هو ردّ إيجابي على هذه التساؤلات.

إن الإنجاز التاريخي لبيار فيلار هو بالتأكيد إنجاز ضخم، ولكنني لا أرى أنه في فترة ما قد أولى أهمية خاصة في بحوثه لبلورة نظرية للنظام الإقطاعي، وهي مفتاح الفترة التي يتناولها بالدرس. وعلى عكس المؤرخ البولوني ويتولد كولا الذي كان من أول الذين سلكوا هذه الطريق الصعبة، ولكنها أساسية، حافظ بيار فيلار على مقاربة «تأريخية»، كما يعترف هو نفسه بذلك. ما كان يهمه قبل كل شيء هو دراسة مجتمع ملموس وليس بلورة نموذج مجرد، كما لو أن المقاربة الأولى يمكن أن تتم من دون شرط الثانية، كما لو أنه (لنأخذ مثال المجتمعات الرأسمالية) يمكننا أن ندرس الأزمات الاقتصادية من دون نظرية لهذا النظام. إن الأمور تسير في الواقع كما لو أن نمط الإنتاج لم يكن بالنسبة إليه موضوع بحث، ولكنه إطار عام مفترض، أي إطار تكون محدّداته في النهاية ضعيفة جداً.

من الطبيعي، عندما نقدّر، على عكس بيار فيلار، أن عدم معرفتنا بالنظام الفيودالي لا تزال كاملة تقريباً، وأن ذلك لا يمكّننا من نظرة واضحة للتحول نحو الرأسمالية وظروف نشأتها، أن لا نستطيع

مقاسمته «تفاؤله» في ما يتعلق بوضع الكتابة التاريخية الماركسية، بل نلاحظ على عكس ذلك أنها تقف عند حاجز معين يصعب تخطيه، لأن كل القوى الأيديولوجية والسياسية، وحتى المهنية، تعمل على الإبقاء عليه أينما هو. مثلاً، يعدّ وضع مصطلح «نمط الإنتاج» في المرتبة الأولى هو تأخير للمرتبة الثانية لمصطلح «تشكيلة اقتصادية واجتماعية» التي يعبّر استعمالها الذي يتكرر باستمرار عن ظاهرة تعويض، وهو أيضاً نقض لـ «المكتسبات» (بدءاً بتعريف نمط الإنتاج نفسه)، وهو أيضاً مراجعة لنظرة التاريخ الاقتصادي للقرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، وبالمناسبة نفسها لمجموعة من جوانب «الموروث اللبروسي»، وعوضاً عن الإبقاء على نظرة حنين إلى الطريق الطويل الذي وقع قطعه منذ سيميان، فهو إرادة السير في طريق جديدة.

المادية التاريخية والتاريخ الجديد

سيجيبني بلا شك بيار فيلار أن ذلك هو «لهفة نظرية»، متخيلاً لحظة الانعكاسات العديدة للهنات الحالية للكتابة التاريخية الماركسية. ولكي نبقى في مثال التاريخ الاقتصادي لأوروبا من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر أمام غياب تأويل كاف للأمد الطويل (يربط اتجاه التطور بآليات نمط الإنتاج)، فالمجال الذي بقي حراً استولى عليه اليوم، بصورة تكاد تكون منفردة، التيار المالثوسي الجديد (الممثل في مدرسة كامبريدج) وإ. لوروا لادوري الذي أخذ شكل «أرثوذكسية» حقيقية، على حدّ تعبير المؤرخ الأمريكي ر. برنار. ونلاحظ بصورة عابرة أن هذه الأرثوذكسية، وبغض النظر عن توجهها الأيديولوجي، تستمد قوتها من الاعتماد الكلي على الإبداع التقني، وكان التيار المالثوسي الجديد قد أدى دوراً هاماً في وضع أسس التقنيات الكمية: وهذا مثال آخر عن غموض «التاريخ الجديد».

ومهما يكن من أمر، فإن أهمية الرهان تبرر هذه اللهفة.

إن مصير المادية التاريخية يشترك مع بقية المسارات التاريخية في كونه ليس بالتيار المتواصل، بل تخترقه قفزات متتالية. هذا يعني أن مواجهته/ التقاؤه (بالإضافة إلى عوامل أخرى) مع «التاريخ الجديد» من طبيعتها أن تحدث مثل هذه القفزات. إن التحدي القاسي الذي فرض عليها يجبرها على ذلك. ولكن في الوقت نفسه يعطي الإبداع التقني للماركسية أدوات ثمينة لتطوير طاقتها العلمية، فما عليها إلا استعمالها من دون التخلي عن ذاتها. إن التجديد في هذا الميدان كما في ميادين أخرى يمر عبر العودة إلى الأصول.



تـاريـخ الـهامـشـيـين

جان كلود شميت(*)

كان التاريخ قبل كل شيء عملاً تبريرياً للتطورات التي شهدتها العقيدة أو العقل، والتطورات التي عرفها النفوذ الملكي أو النفوذ البورجوازي. لذلك ظل التاريخ يكتب، لفترة طويلة من الزمن، انطلاقاً من «المركز»، لأنه يبدو أن الأدوار التي تقوم بها نخب السلطة والثروة أو الثقافة هي التي كانت وحدها تحتسب. وتتلخص تواريخ الشعوب في تاريخ السلالات الحاكمة، والتاريخ الديني في تاريخ الكنيسة ورجالها. وليس ثمة أدب خارج ما يكتبه كبار الكتّاب وخارج الآداب العالمة. انطلاقاً من المركز تشع الحقيقة التي تعتبر معياراً للأخطاء والانحرافات، وبكل بساطة حتى الاختلافات: لهذا يمكن أن نتساءل: هل يمكن للمؤرخ أن يؤسس لطموحه في كتابة تاريخ «أصيل» و«كلي» بصورة مشروعة في المركز؟ وما غاب عن

(*) جان كلود شميت (Jean-Claude Schmitt) من مواليد سنة 1946 مختص بالأرشيف والباليوغرافيا، وهو مبرز في التاريخ ومدير دراسات في مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية. كتب العديد من المقالات والكتب، تهتم بحوثه في الأنثروبولوجيا التاريخية بالعلاقات بين الثقافة الشعبية والثقافة العالمة في العصر الوسيط، وحول وضع الصورة وممارستها، والطقوس الحركية في المجتمع الفيودالي.

نظره، فهو ليس سوى «بقايا» غير مجدية و«مخلفات» تجاوزها الزمن و«صمت» يقع تعهده بعناية أو هو مجرد «صوت» مكتوم (ميشيل دو سارتو)[1].

وجه جديد للتاريخ

يهزّ الكتابة التاريخية اليوم ما يشبه الثورة الكوبرنيكية. وقد بدأت هذه الثورة منذ حوالى خمس عشرة سنة، ولو أن الأسباب كانت مهيأة لها منذ زمن بعيد. وتبدو النظرة التقليدية غير كافية، ولو أنها لم تكن متروكة كلياً، وهي مقتصرة على موقعها: لا يمكن انطلاقاً من المركز أن ننظر إلى مجتمع بأكمله، ولا أن نكتب تاريخه بطريقة أخرى إلا بإعادة الخطاب الإجماعي للماسكين بالسلطة. إن الفهم ينبع من الاختلاف: لأجل ذلك يجب أن تتقاطع زوايا نظر متعددة، فتكشف عن جوانب مختلفة من الموضوع ـ ينظر إلى الموضوع في هذه الحالة انطلاقاً من هوامشه أو من الخارج ـ وهي جوانب خفية الواحدة عن الأخرى.

إن الوعي بنسبية المواقف العلمية ليس خاصاً بالتاريخ بما أنه يؤثر في الوقت نفسه ـ وبالدرجة الأولى ـ في العلوم الفيزيائية والرياضيات بعد أينشتاين أو الأنثروبولوجيا التي تسعى لتجنب مطعن «الذات المركزية الإثنية»، وتعرف العلوم الإنسانية بطريقتها نوعاً من «التحرر» الداخلي، وهو بكل تأكيد لا يمكن فصله عن جهود التحرر في العالم الثالث.

من وراء هذا التاريخ المقلوب والمتفجر في الوقت نفسه ـ بما

---

(1) Michel de Certeau: *L'Absent de l'histoire*, repères. Sciences humaines et idéologies; 4 ([Tours]: Mame, [1973]), et *L'Ecriture de l'histoire*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, [1975]).

أنه ينجز بحسب علامات فهو يعدد نقاط الملاحظة ـ تلوح المشاكل المادية وأزمة ضمير المجتمع الذي يكتب فيه. ويفسر، في الحقيقة، هذا «التاريخ الجديد» بالتطور التدريجي للحقل ذاته، والذي أصبح يتوجه شيئاً فشيئاً منذ ما بين الحربين نحو «تاريخ اجتماعي» واع بتحليل تنوع سلوكيات عامة الناس بالاعتماد في كثير من الأحيان على مناهج كمية. إن مجرد نقد الوثائق «الجداولية» التي يستعملها «التاريخ الجديد» يدفع إلى طرح التساؤل عن المنبوذين والصامتين في التاريخ التقليدي: كيف يمكن أن نعتمد دفتراً جبائياً لإعادة تركيب سكان مدينة، عندما لا يشمل إلا أسماء من دفعوا الضرائب فعلاً؟ ماذا كانت نسبة الذين لا يملكون شيئاً، وماذا كان وزنهم في المدينة؟ ومن غير شك، يعدّ اهتمام المؤرخين بالهوامش ناتجاً أكثر من تطور مجتمعاتهم هم. لقد اهتم بعض المؤرخين في القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين بالمتشردين وبالمجرمين في الماضي: تأثروا ازدواجياً بتقليد أدبي مدفوع نحو الغرائبية الاجتماعية ـ وهو تقليد يعود إلى عصر النهضة ومنحه الرومانسيون نفساً جديداً ـ وبدراسات قانونية وإحصائية تتعلق بالإجرام المعاصر، ولكن أيضاً تحت ضغط جموع المجذورين نتيجة للثورة الصناعية، والذين تمدّنوا حديثاً، وهو ما يسهل الحط من قيمتهم. وطرحت المسألة أيضاً في تواصل مع عامة المدن في ظل النظام القديم والطبقة العاملة في العالم الرأسمالي. ويمكن تحسس العلاقة نفسها بين مصاعب الاقتصاد الغربي في فترة ما بين الحربين والمضاعفات السياسية والاجتماعية لأزمة 1929 ـ يكفي بأن نفكر في كتاب: **أعناب الغضب** (*Les Raisins de la colère*)، وفي مسرح بريشت (Brecht) ـ من ناحية، وفي تطور الدراسات الاجتماعية حول «الهامشية الاجتماعية»، بصورة خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية. ومما لا شك فيه أن التاريخ الاجتماعي الجديد، وهو لا يزال يافعاً، قد استوعب إضافات

هذه البحوث الاجتماعية. كما يمكن أن نضيف، علامةً تأريخية، نشأة **الحوليات**، وهي مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي التي ستؤدي دوراً كبيراً في تطوير إشكاليات جديدة، وقد أنشئت هي أيضاً سنة 1929. ولكن بعد الحرب العالمية الثانية، وبصورة أدق منذ 1968، فرض على الدراسات التاريخية أن تغيّر توجهاتها، كما تحدثنا عن ذلك سابقاً في الوقت نفسه الذي وجدت فيه كلمة هي كلمة «الهامشيين» بالتزامن مع استعمالها في الصحافة وأعمال المؤرخين بوصفها اسماً مجرداً. إن مثل هذه الصدفة لا تحدث كل يوم، لذا فهي تحتاج إلى تفسير.

ما معنى «هامشي»؟

يذكّر استعمال هذه الكلمة وحده بالحركة الاحتجاجية القوية في الولايات المتحدة أولاً، ثم في أوروبا الغربية في ما بعد، والتي زعزعت القيم الحضارية المسيحية ـ اليهودية الأكثر استقراراً في العالم الرأسمالي، وبصورة أوسع المجتمعات الصناعية البيروقراطية: بصورة دورية، هاجم «البيتنيكس» (Beatnicks)، و«الهيبيز» (Hippies)، و«الجماعات»، و«المدافعون عن الطبيعة»، في خطاباتهم ومن خلال سلوكهم، الأخلاق الجنسية التقليدية ومؤسسة العائلة وأخلاقيات العمل وأيديولوجيا التقدم وقانون الربح وتبذير مجتمعات الاستهلاك والتلوث الصناعي الزاحف. إن هذه الهامشية الواعية والاحتجاجية التي تتعدد أشكالها من عدم الموافقة البسيطة أو لاعنف محبي السلام إلى «أحداث» أيار/مايو 1968، لم تفعل سوى التعبير والإفصاح عن أشكال من الهامشية أو الإقصاء المستترة، والتي يعانيها الناس يومياً بصورة لاإرادية، ولكنها أكثر أهمية من حيث عدد الأشخاص الذين تشملهم، ومن حيث جسامة الظلم الاجتماعي الملازم لسير المجتمعات، وهؤلاء هم شهادة حية

عن ذلك: من الأحياء القسرية للسود في أمريكا وأفريقيا الجنوبية إلى الأحياء القصديرية في البرازيل أو أحياء الصفيح المعدة لـ «العمال المهاجرين» في أوروبا، فالظاهرتان منفصلتان، وعلى صعيدين مختلفين، ولكن في نهاية التحليل النظام المسؤول عن ذلك واحد.

من جهة أخرى شمل «بروز الوعي» و«أخذ الكلمة» فئات جديدة: «النفوذ الأسود» الأمريكي والحركات النسوية ولجان الدفاع عن المساجين تعبّر يوما بعد يوم عن أشكال مختلفة من الاستغلال والهيمنة والإقصاء، التي هي أساساً إعادة إنتاج النظام الاجتماعي.

توجد مستويات مختلفة في مفهوم الهامشية

لا تهدف هذه الملاحظات التي قدمت من دون تمييز إلا إلى التذكير بأن المؤرخ قبل كل شيء، بوعي أو بغير وعي، يسائل الماضي من خلال ما يطرحه عليه مجتمعه من تساؤلات. وهي تبيّن أيضاً صعوبة تقديم تعريف مجرد لظواهر الهامشية. إلا أنه يمكن وبصورة أولية تحديد بعض المفاهيم: مفهوم «الهامشية» الذي يعكس موقعاً شكلياً إلى حدّ ما داخل المجتمع، ويعكس وضعية قد تكون مؤقتة من الناحية النظرية على الأقل. وأقل من الهامشية هناك مفهوم «الإدماج» (أو «إعادة الإدماج») التي تشير إلى غياب (أو فقدان) وضع هامشي داخل المجتمع، وعلى عكس ذلك، ومن وراء الهامشية، هناك مفهوم «الإقصاء» الذي يعبّر عن قطيعة - في بعض الأحيان مطقسة - مع الجسم الاجتماعي.

يصعب تحديد محتوى هذه المفاهيم في حدّ ذاتها. ولكن يمكن أن نلاحظ مع برونيسلاف غيريميك أن هذه المفاهيم تعني مستويين من الواقع الاجتماعي لا يتناسبان بالضرورة: مستوى القيم الاجتماعية

ـ الثقافية، ومستوى العلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية[2]. يمكن لفرد أو لمجموعة أن تساهم في علاقات الإنتاج مع رفضها نماذج المجتمع الأخلاقية أو يمكن أن تكون مقصاة من تراتبية قيم ذلك المجتمع.

يستطيع أي مجتمع أن يقنّن المرور من وضعية الهامشية إلى وضعية الإقصاء وإعطائه شكل الطقس: لننتبه كي لا ننسى الأهمية المعطاة لمفهوم «الهامش» في تحليل «طقوس العبور» التي تحتوي، بحسب أ. فان غوناب (A. Van Guennep)، على ثلاث مراحل متتالية: الفصل والهامش والدمج.

يجب التفكير أيضاً في طريقة تقبّل هذه الظروف: هل هي ظروف مفروضة ـ وفي هذه الحالة ما هي درجة الوعي بذلك ـ أم هي مختارة بصورة إرادية؟ ألا يجب التفريق بين إمكانية وجود هامشية فردية إلى جانب مجموعات هامشية؟ وفي النهاية، هل أن كل هامشية ينظر إليها على أساس الخسّة ودحرها إلى أسفل سلّم القيم من طرف المحدّدين لتلك القيم؟ ألا توجد أيضاً أشكال من الهامشية «الإيجابية»؟

من الواضح أن بعض هذه التساؤلات مجردة من أي معنى إذا لم يقع وضعها على محك الواقع في مجتمع تاريخي معيّن. ويفرض اختيار أوروبا الغربية ما بين القرن الحادي عشر والقرن الثامن عشر نفسه علينا لأسباب تخصصية شخصية من ناحية، ومن ناحية أخرى

---

(2) Bronislaw Geremek, *Les Marginaux parisiens aux XIVe et XVe siècles* = *Ludzie marginesu w średniowiecznym Paryzū, XIV-XV wiek*, traduit du polonais par Daniel Beauvois, révoltes et protestations. Collection l'histoire vivante; 0335-3249 ([Paris]: Flammarion, 1976).

لأنه خلال السنوات الأخيرة أدت دراسات هامة في هذا الإطار إلى تقدّم تاريخ الهامشية بصورة معتبرة.

هوامش العالم

لم تعد هناك ضرورة أبداً لمناقشة الوحدة التاريخية للمجتمع الأوروبي خلال فترة طويلة من الزمن. نكتفي بملاحظة تواصل وتطور مجموعة من الخطوط البنيوية: تفوق الفلاحة على مختلف الأنشطة الاقتصادية الأخرى، وتواصل علاقات إنتاج مميزة بصورة خاصة وعدم انقطاع روابط التبعية بين الناس، وتطور بطيء للمدن والاقتصاد التجاري والحرفي منذ القرن الحادي عشر، والأهمية الكبرى للدين وللسلطة الأيديولوجية للكنيسة، وتطور الدولة منذ نهاية العصر الوسيط. وفي النهاية، تتميز هذه الوحدة التاريخية بجملة من «الأزمات» المتتالية، وهي في الوقت نفسه عبارة عن إعادة ترتيب للبنى وأنماط إنتاج جديدة ـ رأسمالية ـ ستنشأ من هذا المجتمع وتتأكد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

الأراضي المجهولة تغذّي الخيال الجماعي

إنه من المهم أن نذكّر بأن هذا العالم ظل لفترة طويلة محصوراً في فضائه. ولكي نستعمل عبارة «هامش» في معناها الأول، هذا الفضاء هو فضاء محدّد. إنه محاط بأراض وبحار مجهولة، تتضاءل معرفتها شيئاً فشيئاً كلما ابتعدنا عن المركز: تخوم شاسعة مجهولة وخزانات لـ «العجائب» والغرائب، كما هو الشأن في الجهة الغربية في أيسلندا، حيث يحدد بعض كتّاب القرن الثاني عشر أحد أفواه مطهرة الذنوب في الدنيا قبل الآخرة أو أيرلندا وبلاد الغال التي تدور فيها قصص الحب العذري التي تحدّد بها مملكة الملك آرثور (Arthur) والبحث عن «كأس المسيح» (Graal). هذه الضبابية التي

تحيط بالأراضي المعروفة كـ «الهامش» ـ وهي عبارة النساخ في العصر الوسيط ـ الذي يحيط بالنص ويحدد الصفحة، تغذي خيالاً جماعياً لم يستطع الاكتشاف التدريجي للأرض أن يحدّ بسرعة من فيضه: إنه يملأ ضفاف المحيط الهندي (وهو محيط منغلق غير مفتوح) وبلاد الأحباش، وحديثاً «الهند الغربية» ـ ما نسميه أمريكا ـ بمخلوقات عجيبة تتجاوز العقل (مع أنها هي أيضاً تعتبر من المخلوقات الإلهية)، أو بمتوحشين طيبين يبدو أنهم لا يعرفون الخطيئة. هذه هي في الواقع تخيلاتهم التي يعكسها الأوروبيون على «أفق الأحلام» هذا (جاك لوغوف)، فهو عالم معكوس يسيطر فيه الذهب والوفرة والحرية الجنسية: في هذا الفردوس الضائع، العراء واستباحة المحارم والغزل كلها أشياء «طبيعية»[3]. ولكن لعبة المرايا هذه ليست بريئة: إنها ترسل انطلاقاً من هوامش العالم صوراً في قلب صراعات دينية واجتماعية، وهذه الصور لو قلبت على وجهها لتحوّلت إلى فصول من الدناءة في الاتهامات الموجّهة إلى الهراطقة.

ألا يختلط الإخوة بالأخوات والأبناء بالأمهات جنسياً في عتمة «مغاورهم» وسر «نحلهم»؟ من دون أن نذهب بعيداً إلى هذه الحدود الخيالية، لا يزال الفضاء يعرف حدوداً داخلية: كما كانت «الرومانية» قديماً تعرّف نفسها بالتعارض مع البرابرة والمسيحية الغربية، كانت محاطة بحسب الفترات بـ «الوثنيين» (الإسكندينافيين والمجريين في العصر الوسيط المتقدم) وبـ «المارقين» (الروم)، وخاصة بـ «الكفار» (المسلمون). ليست هناك اتصالات دائمة مع هؤلاء الأخيرين إلا على الهوامش الجغرافية والثقافية التي كانت تمثلها الأندلس وصقلية

---

(3) Jacques Le Goff, *Pour un autre moyen âge: Temps, travail et culture en occident: 18 essais*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, [1977]).

والأرض المقدسة. ولكن الهامشية ستنقلب سريعاً إلى إقصاء: إنهاء عملية الاسترجاع الإسبانية في الغرب، وانهيار الممالك اللاتينية في المشرق، والتقدم التركي في الشرق، ستزيح في العصر الحديث ضبابية الحدود الوسيطية: لم يعد هناك حوار ممكن مع القرصان المغاربي الذي يمخر البحر ويغير على السواحل إلا حوار السلاح.

حدود داخلية

يضم الغرب داخل مجاله خاصة عدداً لا يحصى من الهوامش أو بالأحرى التخوم والمناطق الحدودية، كي نستعمل عبارة العصر. وهذا الفضاء هو أكثر الفضاءات تجزئة: ليس هناك «اقتصاد سوق» قادر على توحيد كل العالم المعروف على الرغم من وجود تجارة بعيدة المدى، ولكنها لا تتضمن إلا بعض المواد المعينة، وعلى رأسها التوابل. وكذلك كلمة «تخوم» لها معان عديدة تبيّن مدى تداخل الفضاءات والتصاق بعضها ببعض: للمملكة تخومها (في العصر الكارولنجي هي عبارة عن فضاءات وسيطة وقع افتكاكها من الوثنيين، وتم منحها لكونت أو «مركيز»)، وللضيعة السيادية البسيطة تخومها، وهو ما يشهد عليه هذا الفصل من فصول وثيقة هبة منحت في القرن الرابع عشر: «وكذلك ما يعادل ثلاثة مائة وأربعين آراً من الغابات والأسيجة والأحراش والبور والتخوم...»، سواء تتقدم حدود هذه الأحراش والغابات أو تتراجع بحسب التقدم المتغيّر للزراعات، فهي تفصل عالم الناس ـ المدن والقرى ـ عن العالم المتوحش: مثل «الغابات المهجورة» في قصص الحب العذري، والفضاء الذي لم يدجن، ومرصد الفرائس والكائنات الشيطانية وقطاع الطرق. ولكن تتخلل هذه الغابات أيضاً مساحات جرداء يعمل فيها الفحّامون ويتعبد الزهاد المنعزلون في «المناطق المقفرة»، فهم «هامشيو» المسيحية الوسيطية على أحسن ما يكون: في وصفه بلاد

الغال في نهاية القرن الثاني عشر يقول جيرو دي باري (Giraud de Bari) صراحة إن الذين يعيشون في تلك المساحات الجرداء مثل العبّاد المنفردين يعيشون «على هامش الغابات».

تترك الغابات مكانها في جهات أخرى للأدغال والجبال، وهنا أيضاً تنشط حياة بأكملها على الهامش: وهي حياة الرعاة الذين يرعون قطعان القرويين، ولكن عزلتهم التي تدوم طويلاً، ومرافقتهم لحيواناتهم، وتمكنهم من معرفة أقصي منها الآخرون، كل ذلك أحاطهم بهالة من الغموض ودفعهم نحو تصرفات غير عادية[4]: نقل الرعاة في بداية القرن الرابع عشر الهرطقة الكتارية (Cathares) ما بين قطلونيا (Catalogne) والأرياج العليا (Haute Ariège) ومنطقة الروسيون (Roussillon) بحسب نسق نواقيس شياههم وخطاها. ويكيف الرجال حياتهم الجنسية مع وحدتهم: إلى عهد «بادري ـ بادروني»[5] (Padri Padroni) كانت «الحيوانية» (أي العلاقة الجنسية الشاذة بين إنسان وحيوان) في جزيرة سردينيا المعاصرة من أكبر مآثمهم.

وقريباً من المناطق المسكونة، وعلى هامش المدن والقرى، تدور الطواحين مدفوعة بتيار النهر أو برياح الهضاب. إن الطحان، وهو صاحب معرفة تقنية، مالك أو مؤجر لأضخم آلات المجتمع التقليدي وأكثرها ضرورة، هو أيضاً هامشي[6]. ليس من باب الصدفة

---

(4) Marie-Thérèse Kaiser-Guyot, *Le Berger en France aux XIVe et XVe siècles*, publications de l'université de Paris X-Nanterre. Sér. A. Thèses et travaux; 26 (Paris: Klincksieck, 1974).

(5) «بادري ـ بادروني» (Padre Padrone) هو عنوان فيلم إيطالي حديث.

(6) Claude Rivals, *Le Moulin à vent et le meunier dans la société traditionnelle française*, avec, pour la Bretagne et l'Anjou, la collaboration de Chris Gibbings; illustrations de l'auteur (sauf mention particulière) (Ivry: SERG, [1976]).

أن يقرن في بعض الحالات بحركات الهرطقة، وقد استطاع كارلو غينزبورغ (Carlo Ginsburg) مؤخراً من خلال أرشيف محاكم التفتيش الإيطالية في القرن السادس عشر أن يعيد تركيب المعرفة الكونية التي صنعها أحدهم لنفسه بالجمع في الوقت نفسه بين تمثلات الثقافة الشعبية وبعض المقتطفات من الثقافة العالمة التي بلغت إليه(7).

رفض الهامشيين وصدّهم

عرفت أوروبا من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر تحولات اقتصادية وديمغرافية واجتماعية وفكرية ذات أهمية قصوى. وأدت التعديلات العنيفة نسبياً للبنية الاجتماعية إلى بروز ظواهر تهميش جديدة، ولكنها تسمح بإدماج مختلف أنواع الهامشيات التي لها دور أساسي في تكوين هذا المجتمع الجديد.

المدن معاقل الهامشية في المجتمع الفيودالي

في عالم استعاد فيه الريف والمجالات الغابية كل قواها منذ نهاية العصر القديم والغزوات البربرية، تعتبر نهضة المدن مظهراً أساسياً من مظاهر هذه التحولات. إن المدن بنشاطاتها وبمظهرها وبسكانها وقوانينها هي قبل كل شيء جسم هامشي في المجتمع الفيودالي. حقاً إن مثل هذا التصريح يحتاج إلى تنسيب، ولكن من المعتبر أن يكون المؤرخون قد تناقشوا طويلاً حول الدور الذي أداه الهامشيون في نشأة المدن، ومن بينهم نذكر أصحاب «الأرجل المغبارة» ـ وهم تجار ليست لهم روابط ويتنقلون مع ما يعترضهم من

---

(7) Carlo Ginzburg, *Il formaggio e i vermi: Il cosmo di un mugnaio del' 500*, Einaudi paperbacks; 65 (Torino: G. Einaudi, 1976).

الثنايا ـ وغرباء وأقنان وهاربون، كلهم وضعوا آمالهم في الانعتاق عبر «أنفاس المدينة». ويمكن القول إن تطور المدينة يدفع ويفترض دائماً نشاط المجموعات الاجتماعية الجديدة التي تكون في البداية موضع احتراز كبير، ولكنها تنتهي بتغيير التراتبية الاجتماعية وسلّم القيم بفعل الضغط.

كان للمحرمات في العصر الوسيط المتقدم وزنها على العديد من الأنشطة، وهي محرمات بقيت ما بعد سنة ألف مع تضمينها محتويات اجتماعية جديدة. وفي معرض المهن الحضرية المفتوح، كان محكوم على بعض الأنشطة انعدام النزاهة، حتى ولو كانت تؤدي دوراً أساسياً في الاقتصاد الحضري بصورة ملموسة. وهذا حال الجزار والقصاب والجلاد، وهي مهن مرتبطة بالدم؛ حتى إنه في بعض المدن، من المعتبر أن يبنى بيت الجلاد ملاصقاً لسور المدينة، ولكن من خارجها. وعرفت كل المهن المرتبطة بالنجاسة الحطة نفسها، من ذلك: العمال الذين يفرغون بيوت الراحة، وكذلك عمال النسيج من عفاسين وصباغين، وأصحاب «الأظافر الزرقاء» والذين دنسهم عملهم إلى درجة أن كلمة «نساج» في حد ذاتها أصبحت مرادفة لـ «المارق عن الدين». إنها مهن يتطلبها ازدهار المبادلات، ولكنها تفترض الغش الناتج من التعامل المالي، وتتسبب أيضاً في الريبة والاستنكار: تطلق على التجار، وخاصة على المقرضين منهم، صفة «المرابي»، وتوجّه إليهم تهمة أخرى، وهي التلاعب بالوقت، كما لو أنهم يبيعونه، في حين أن الوقت هو ملك لله. وقد طورت المدينة أنواعاً أخرى من التجارة: كمهنة المومس التي تجسد في نظر الكنيسة رذيلة الشبق وبيع مفاتن الجسد الذي هو من خلق الله. هناك أيضاً من لا يبيعون إلا الكلام والعلم: أولاً هم رجال القانون والمحامون الذين يوجد في شأنهم دفتر من الأحاجي يعود إلى القرن

الخامس عشر ويندّد بهذه التجارة المغشوشة:

السؤال:

من في هذا العالم يبيع بثمن باهظ ما يستعيره كل يوم؟

الجواب:

إنهم المحامون والقضاة.

ولكن التهمة موجهة خاصة إلى «المثقفين» الذين، وهم أجانب عن المدارس الديرانية ولا يتمتعون بأجر قانوني، ليس لهم مصدر رزق إلا ما يدفعه لهم تلاميذهم. إن العلم ملك لله، ولا يمكن بيعه.

تندرج هامشية هؤلاء المعلمين ليس في محتوى أفكارهم - نعرف الثمن الذي دفعه أبيلار (Abélard) - ولكن أيضاً في الفضاء الذي يمارسون فيه تعليمهم: في باريس وبعد أن غادر هؤلاء جزيرة الحاضرة (Ile de la cité) ومدرسة كنيسة نوتردام (Notre Dame)، وقبل أن يقوموا بغزو هضبة سانت جنفياف (Sainte Geneviève)، أصبحوا ينتشرون فوق الجسور أساتذة وتلامذة [8].

الإدماج الكبير عن طريق العمل

لم تتأخر غالبية هذه الأنشطة، سواء نشأت من المدينة أو المدينة هي التي طورتها، في الاندماج بصورة فعلية في نظام قيمها.

كان ذلك قبل كل شيء نتيجة لازدهار أيديولوجية للعمل. لكن إذا كانت هذه الأيديولوجيا تسمح بـ «احتواء» مجموعة كاملة من الأصناف الاجتماعية الأساسية لسير المجتمع الحضري، فستذهب

---

(8) يدعى أحدهم باسم آدم صاحب الجسر الصغير (Adam du Petit-Pont) وهو اسم يستحق الإشارة.

إلى حدّ تبرير تهميش، وحتى إقصاء، بعض الأصناف التي تعتبر مستقبلاً «غير صالحة».

لم يكن للعمل، كما نراه اليوم، ومنذ تلك الفترة إلى حدّ ذلك الوقت، اسماً. إن العبارتين اللتين تقتربان منه أكثر من غيرهما هما «لابور» و«أبوس» اللتان تركّزان خاصة على الجهد البدني والمعنوي الناتج من الخطيئة الأولى أو في الأفضل على هبة، أي جهد لله («الجهد من أجل الله»). ولكن أصبحت للعمل قيمة مادية نتيجة لعودة المبادلات التجارية ولتقسيم متزايد للعمل، خاصة في المدينة، ولضغط الأصناف المهنية الجديدة. ومن هنا جاءت إمكانية بيع العمل وشرائه من الآخرين بمقابل. ومن هنا أيضاً جاءت ضرورة إعادة قراءة الكتابات المقدسة للعثور عند القديس بولس (Saint Paul) على تشريع للعمل والعمال من ذلك: «من لا يشتغل لا يأكل».

أوكل إذن لـ «المثقفين» الجدد، أي معلّمي المدارس الحضرية، ثم الجامعات، أن يبلوروا أيديولوجية للعمل تمنح موقعاً لكل الذين لا يزالون، بسبب مهنهم، محرومين من ذلك في سلم القيم والمجتمع: التاجر والمثقف نفسه يقومون بعمل يستحقون عنه أجراً[(9)]، فالمومس بحسب الدومينيكاني توماس دو شوبام (Thomas de Chobahm) يمكن أن تأمل بصورة مشروعة في الحصول على «السعر المناسب» لمفاتنها، هذا إذا لم تحاول أن تغش الحريف بالتزويق لتبدو سناً أصغر من سنها. وبسرعة ستصبح المومس جزءاً من المشهد الحضري تماماً: في منتصف القرن الرابع عشر كتب الطالب البالي (Bâlois) توماس بلاتر (Thomas Platter) في وصف رحلته: «إنه لا يمكن أن نمر على جسر أفينيون من دون أن نلتقي

(9) Jacques Le Goff, *Les Intellectuels au moyen âge*, le temps qui court; 3. Collection microsome ([Paris: Editions du seuil, 1976]).

براهبين أو حمارين أو مومسين». كان يوجد في كل مدن الجنوب الشرقي الفرنسي في القرن الخامس عشر، كما بيّن ذلك جاك روسيو[10] (Jacques Rossiaud)، «بيت جماعي» عمومي تحت رقابة السلطة، وكثير من المواخير والحمامات هي في أغلب الأحيان ملك نبلاء وحتى رجال دين مثل أسقف ليون، وأخيرا هناك العديد من «البنيّات» اللائي يشتغلن في غرف خاصة. تنحصر الممنوعات الأخلاقية والدينية في نهاية الأمر في قليل من الأشياء: الإمساك عن «الاستحمام» خلال الأسبوع المقدس وفي عيد الميلاد.

وجد هذا المجهود صعوبة لإضفاء شرعية أكثر عندما تعلق الأمر بحالة المرابين، إلا أن التطور الاقتصادي ساعد على فصل أنواع القروض بعضها عن بعض: من ناحية يسهل التستر على القرض المرتبط بالمبادلات التجارية في ظل التعامل بالسفتجة، وكان من بين نتائجه استثراء رجال الأعمال الإيطاليين الذين يقترض منهم البابا بلا خجل، ومن ناحية أخرى نجد قروض الاستهلاك التي تسند بفوائض مرتفعة، وهي غير مسموح بها، فتركت لليهود.

لقد عملت بعض العوامل الدينية في الوقت نفسه لصالح المهن غير الشريفة: سمح تطور فقه الأخلاق، مدفوعاً جزئياً بكل هذه «الحالات» الجديدة التي يجب حلها بسرعة، للقساوسة الذين يتقبلون الاعترافات أن يكونوا أكثر تسامحاً. وعندما تحدّد الاعتقاد في مطهرة الذنوب في القرن الثاني عشر انفتح طريق لا شك في أنه كان ملتوياً، ولكنه متأكداً نحو الغفران بالنسبة إلى المرابين أنفسهم. إلا أنه كانت توجد بعض «البقايا» الجميلة التي يصعب قبولها، مثل المثقفين

---

(10) Jacques Rossiaud, «Prostitution, jeunesse et société dans les villes du sud-est au XVe siècle,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 31, no. 2 (1976).

الرحل الذين ينتمون إلى عالم في حالة غليان، هو عالم فقراء الطلبة الهائمين اللائكيين المطعّمين بالتديّن، والذين ليس لهم وضع ثابت. لقد كانوا يتغنّون بأفراح الحانات ومتعة الجنس، ولو أدى بهم ذلك إلى موت الروح فيهم: «متلهف للشهوة أكثر من أن أسعى إلى المغفرة الأبدية، ماتت روحي فلا أفكر إلا في اللذة».

عندما لم يكن الازدهار في الغرب قد عرف حدوده بعد في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، تغلب إدماج كل الهامشيات على رفض البعض وصدهم وتهميشهم، وكذلك على انغلاق البعض الآخر على ذاته: إنه زمن الحروب الصليبية وغزو الأرض المقدسة، وهو العصر الذي كان فيه المثقفون، مثل جيوفروي دو مونماوث (Geoffroy de Monmouth)، وجرفيه دو تيلبوري (Gervais de Tilbury)، أو جيرو دي باري، يجمعون روايات رائعة من الثقافة الشعبية، وهو كذلك العصر الذي كانت فيه الحركة الزهدية وتأسيس تنظيمات دينية جديدة تبتلع التوجّهات البدعية، وهو كذلك العصر الذي كانت تفضل فيه الكنيسة إقناع اليهود ـ الذين كانت الحركة الفكرية عندهم ليس لها ما يفوقها على فلسفة المسيحية في ذلك العصر ـ على أن تنصّرهم بالقوة. وهنا أيضاً ينتصر الإقناع على القمع.

تحالف الكنيسة والدولة

شمل هذا التوسع كل المجالات في أثناء القرن الثالث عشر: الصليبيون والحجاج يتوافدون على الأرض المقدسة، وفي الوقت نفسه تم إقصاء الهراطقة والمجذومين واليهود بصفة نهائية.

ابتداع المعاداة للسامية

لم يكن اليهود، إلى حدّ هذا التاريخ، يختلفون أبداً عن بقية الناس: يتكلمون لغة القوم بما أن العبرية ليست سوى لغة عالمة

وطقوسية دينية، ولا يلبسون زيّاً مميزاً ويعملون في الفلاحة والحرف والتجارة والطب، ويستطيعون في فرنسا حتى تولي خطط رسمية إلى حدود 1229[11]. صحيح أنهم هامشيون من حيث الوضعية، بما أنهم لا ينتمون إلى «الأمة المسيحية» (وبالتالي لا يمكن حرمانهم من دينهم)، فسيصبحون مقصيين تدريجياً.

يمكن أن نرى العلامات الأولى لهذا الإقصاء في الاتهام بالقتل الطقوسي للأطفال المسيحيين الذي سيتهم به اليهود باطلاً منذ نهاية القرن الحادي عشر في منطقة رينانيا (Rhénanie) بمناسبة الحملة الصليبية الأولى، وفي ألمانيا في القرن الثاني عشر، وبصورة أكثر احتشاماً في فرنسا الشمالية وإنجلترا، وفي القرن الثالث عشر حتى منطقة اللانغدوك[12]. تكرر هذا الاتهام ومعه الاتهام بتدنيس خبز القربان بتواتر متزايد إلى أن أدى إلى مقاتل اليهود.

وقد فرضت الكنيسة في الوقت نفسه ـ من خلال مجمع لاتران (Latran) الرابع سنة 1215 ـ على اليهود لبس الغيار الذي كانوا يلبسونه من غير شك في منطقة رينانيا: يبدو اليهود من خلال منمنمات «حدائق اللذة» (Hortus deliciarum) لهراد دو لاندسبارغ (Herrad de Landsberg) (توفي سنة 1195)، وقد عتقت لحاهم، وتدلت شعورهم، وذببت قبعاتهم. وفي سنة 1269 أجبرهم القديس لويس على لبس الدائرة[13] ـ وهي دائرة صغيرة حمراء اللون خيطت

---

(11) Bernard Blumenkranz, dir., *Histoire des juifs de France*, collection franco-judaca; 1 (Toulouse: E. Privat, 1972).

(12) *Juifs et judaïsme de Languedoc*, cahiers de Fanjeaux; 12 (Toulouse: E. Privat, 1977).

(13) Ulysse Robert, «Les Signes d'infamie au moyen âge: Juifs, sarrasins, hérétiques, lépreux, cagots et filles publiques,» *Mémoires de la société nationale des antiquaires de France*, t. 49 (1888).

على كمّ الثوب ـ والتي سيجبرهم فيليب لو بيل (Philippe Le Bel) على شرائها: هكذا أصبح اليهود مورداً جبائياً.

في الوقت نفسه، أخذ اليهود يسعون للتجمع بالقوة في أحياء معينة تسمى بـ «أحياء اليهود» (Ghettos) في ما بعد، وهو ما سيحدث في بربينيان (Perpignan) منذ 1243، وفي مملكة فرنسا سنة 1294. لقد كانت توجد في هذه الأحياء الخاصة حوانيت جزاريهم وحماماتهم وبيعتهم، وفي الوقت نفسه أصبحوا يختصون ببعض الأنشطة مثل الإقراض برهن، فكل من يريد أن يقترض لا يتردّد في الذهاب إليهم، إلا أنه يتجنب الدخول معهم في علاقات حميمية خوفاً من نوع من العدوى: إذا مسّ أحد اليهود بضاعة في السوق، وخاصة إذا كانت مادة غذائية عليه شراؤها.

وفي واقع الأمر، كان المال الذي يحصّلونه يأخذه الملك أو الأمير، غيرة من «رعاياه اليهود» ولاعتصارهم بصورة أكثر، ثمناً لحمايتهم. وإذا كان الإقصاء في فرنسا القرن الرابع عشر قد أخذ شكلاً ملموساً للطرد، فإن من أسباب ذلك هو بلا شك أن اليهود قد أفلسوا نتيجة لمختلف الضرائب التي تؤخذ منهم، فلم يعودوا يمثلون مصدراً مالياً بالنسبة إلى الملك، إلا أن «دعوة اليهود إلى العودة» باستمرار كانت تؤمن مصدر أموال جديدة. وبعد أن طردهم فيليب لو بيل سمح لهم بالعودة من جديد ما بين 1315 و1322. وفي هذا التاريخ الأخير اتهموا مع المجذومين بتسميم الآبار، ففتك بهم الرعاة، وطرد من نجا منهم. ثم أعيد السماح لهم بالعودة بداية من سنة 1358، وطردوا نهائياً من المملكة سنة 1394، فلجأوا إلى البلدان المجاورة: لوران (Loraine)، والدوفينيه (Dauphiné)، والكونتا (Comtat)، والسافوا (Savoie)، حيث تعرضوا للمطاردة من جديد في نهاية القرن الخامس عشر. وقد أدى ضم هذه المناطق في الفترة

الحديثة إلى إرجاعهم إلى داخل حدود المملكة، ولكن كان عليهم أن ينتظروا الثورة الفرنسية والإمبراطورية في عهد نابليون ليصبحوا مواطنين كاملي الحقوق. إلا أن الدولة تحت غطاء التحرر والمساواة تجاهلت خصوصياتهم: إذا كانت قد تخلت عن إقصاء اليهود، فهي تريد إدماجهم.

لم يكن وضع المجذومين شبيهاً بوضع اليهود الذين طردوا معهم سنة 1321[14]. وبما أنهم كانوا مسيحيين لم يقع إقصاؤهم من أمة الكنيسة، ولكن وقع إقصاؤهم من المجتمع قبل اليهود وبصورة أكثر تجذراً. وقد تزايد عدد الدمن (Maladreries) خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر على مفترقات الطرقات وفي أطراف المزارع، حيث يقع حشر المجذومين بعيداً عن الناس. ولم يكن هناك أي علاج يقدم إلى هؤلاء المرضى، بل كان الخوف من العدوى وصدقات المتصدقين الآملين في الثواب وراء تأسيس هذه الدمن. يعتبر المجذوم «فقير المسيح» بامتياز، كما يعتبر تضميد جراحه أو تقبيله كما فعل لويس التاسع من خصال القديسين، إلا أن الجذام كان الدليل البدني على الخطيئة، وتعفن الجسم يكشف فساد الروح. لقد كان حبس المجذومين شكلاً من أشكال معاقبتهم على ذنوبهم المفترضة أو على الذنوب التي ارتكبوها، ووحدهم يجب أن يكفّروا عنها. واللغة المستعملة لإقصائهم هي لغة قانونية: يخضع «المتهم» بالجذام إلى تحقيق حقيقي من قبل «حارس الدمنة»

(14) Albert Bourgeois, *Lépreux et maladreries du Pas-de-Calais (Xe-XVIIIe siècles), psychologie collective et institutions charitables*, mémoires de la commission départementale des monuments historiques du Pas-de-Calais; xiv, 2, préf. de Marcel Baudot et de Marcel Candille (Arras: [Commission départementale des monuments historiques du Pas-de-Calais], 1972).

(Esward des Ladres)، كما يسمى في منطقة با ـ دو ـ كاليه (Pas-de-Calais)، وإذا ثبت أنه يستحق العقاب يعزل عن عالم الناس بطقس «الفصل» الذي يشبه طقس الميت، وذلك بأن يعلمه شخص مكلف بالإعلام بالطرد، فيقاد إلى دمنة حيث تقام له طقوس أخرى لإدماجه في مجموعة المجذومين. وفي الحقيقة، لم يكن كل المجذومين محبوسين في دمن، فبعضهم كان يمكنه بمناسبة بعض الأعياد أن يذهب للتسول في المدينة. ولكن لباسهم الخاص (الطربوش وربطة العنق البيضاء) وحقائبهم و«نواقيسهم» كانت تعلن عن قدومهم من بعيد وتسمح بتمييزهم. وكانت الدمن تبدو غنية في العصر الوسيط المتأخر نظراً إلى تراجع مرض الجذام الذي ساهم في التقليل من متساكنيها. وقد حرك هذا الثراء الأطماع: لقد اتهم المجذومون ما بين 1231 و1322 بتسميم الآبار، فانتزع ملك فرنسا ممتلكات الدمن. وقد تراجع مرض الجذام في القرنين السادس عشر والسابع عشر في أوروبا تدريجياً، ولكن ظلت على أطراف المدن ذاكرته والفضاء الذي بقي خالياً من المحبوسين.

الخروج من الهامشية، انتشار الهرطقة

لقد كان الهراطقة أيضاً في الخارج: «أجبروهم على الدخول»، هكذا قال القديس أوغسطين (Saint Augustin)، ولكن اندلعت الهرطقات في النصف الأول من القرن الحادي عشر (الباتران (Patarins) في ميلانو، والفوديون (Vaudois) في ليون، والكتار (Cathares) الإيطاليون واللانغدوسيون (Languedociens)، وإلى القرن الخامس عشر (إخوة الفكر الحر في رينانيا (Rhénanie)، والهوسيون (Hussites) في البوام (Bohème)). والجديد في ذلك أنها هرطقات «شعبية»: إنها تعني قبل كل شيء اللائكيين، وفي أغلب الحالات الشرائح الدنيا من المجتمع. وقد ركزت الكنيسة في القرن

الثالث عشر محاكم التفتيش التي أرسلت الهراطقة إلى المحرقة بمساعدة من السلطة الزمنية. وهو ما كان مآل المرتدّين و«المتعنتين»، لأن الكنيسة اشترطت على البقية تكفيراً طويلاً: إما بين «الجدران» بالسجن المؤبد، أو بلباس التوبة المميز بصليبين من اللون الأصفر: أحدهما يتضمن خيطاً على الصدر، والآخر خيطاً على الظهر تعريفاً لمن كان مهرطقاً.

لم تستطع أية حركة هرطقة في العصر الوسيط أن تصمد في وجه تحالف الكنيسة والدولة: يجب انتظار الإصلاح البروتستانتي لمشاهدة انتصار الهرطقة. ولكن هذه الهرطقة غيّرت من طبيعتها: خرجت من هامشيتها ولم تنتصر إلا بدعم القوى الزمنية المعارضة للبابا. والهرطقة نفسها تطوّرت إلى كنيسة لها هي أيضاً هراطقتها، مثل ميشيل سيرفيه[15] (Michel Servet) الذي أدانه كالفين (Calvin). وفي الواقع، ولى زمن الهرطقة وحل زمن الفرقة. وهذه المجموعات الحديثة التعميد (الكواكرز (Les Quakers) والمورمون (Les Mormons) كانت لا تبحث مثل هراطقة العصر الوسيط عن إصلاح الكنيسة، وإنما تدّعي وجوب تأسيس كنائس جديدة أكثر مما أسس من قبل. وقد ظلوا هامشيين لأنهم كانوا يتّبعون مثلاً دينية في عالم لم يعد يعطي لها القيمة التي تحظى بها.

الانحراف والجريمة والفقر

أصبح الإقصاء كثيفاً في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

---

(15) ميشيل سيرفيه (Michel Servet) (1511 ـ 1553)، طبيب ورجل دين إسباني أثار غضب البروتستانتيين بكتاباته مثل كتاب *De trinitatis* (1531) وخاصة كتاب *Christianitis restitutio* (1553) حيث هاجم بشدة مؤسسة كالفين (Calvin). وقد اتهمه هذا الأخير أمام المجلس الكبير عندما كان ماراً بمدينة جينيف فحكم عليه بالإعدام حرقاً.

وقد أدت أزمة القرن الرابع عشر، منذ بداية الطاعون الأسود إلى نهاية الفترة الحديثة، إلى بروز أشكال جديدة من الهامشية كان لها وزن كبير على تطور المجتمع: أصبح المتسولون والمشردون والمجرمون يراودون الأذهان ويحدثون مواقف دفاع وصدود. لم يكن الفقر جديداً على الغرب، بل كان يتحكم فيه بصورة أفضل وأقل بروزاً بلا شك، وهو يبدو في العصر الوسيط المتقدم بوصفه هبة ربانية، فقد كان فرصة لإنقاذ الأرواح بالنسبة إلى الضعفاء في محنتهم، وبالنسبة إلى الأقوياء بما يتصدقون به تعبداً، وهو يفترض أن عدد الفقراء لا يتزايد: يوجد في سجلات الأديرة عدد مضبوط من المتسولين الذين يمكنهم الحصول على صدقات الرهبان في بعض الأعياد.

كما أن التشرد لم يكن هو الآخر ظاهرة جديدة منذ «الغزوات الكبرى» وهجرات العصر الوسيط المتقدم، وكانت حركية الناس كبيرة، وتزايدت من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر نتيجة للازدهار الاقتصادي في الأرياف وفي المدن. غير أن التنقلات كثيراً ما كانت مؤطرة في مؤسسات تضمن إلى حد ما مراقبتها: من ذلك الحج على المستوى الديني، والتكوين المتنقل لـ «الخدم» و«الرفاق» الذين كانوا يقومون بـ «رحلتهم الخاصة إلى فرنسا».

هناك فقراء حقيقيون وفقراء مزيفون

جعلت الصعوبات المادية في العصر الوسيط المتأخر من البؤس ظاهرة كثيفة لم يسبقها مثيل، في الأرياف أولاً، ثم في المدن التي تضخم فيها عدد المتسولين بفعل النزوح من الأرياف. ولم تستطع المؤسسات الخيرية التقليدية أن تواجهه: فرض التفريق بين الفقراء الحقيقيين (المعاقون، والعميان. . .) الذين كانوا يستحقون المساعدة،

والذين يحملون شارة بوصفها علامة تمييز لهم، و«المتسولين سليمي البدن» القادرين على العمل، والذين يسرقون الصدقات المخصصة لمحتاجيها. وكانت مساعدة الفقراء الحقيقيين ـ وقد أصبحت شيئاً فشيئاً من مشمولات السلط الزمنية ـ تسير بالتوازي مع مطاردة الآخرين. وقد نصت المراسيم الرسمية غداة الطاعون الأسود في أغلب البلدان الأوروبية ـ مثل مرسوم جان لوبون (Jean le Bon) سنة 1351 في فرنسا أو «قوانين العمال» في إنجلترا ـ على طرد المتسولين سليمي البدن والمتشردين من المدن. وكانت هذه القرارات تهدف إلى التأثير على سوق الشغل، خاصةً في الأرياف التي عرفت فيها الأجور ارتفاعاً جوهرياً بسبب الأزمة الديمغرافية. وسريعاً ما حاولت السلط دفع العاطلين إلى العمل بالقوة، كإجبارهم مثلاً على تطهير خنادق المدن مقابل أجور زهيدة[16]. وارتبط عالم البؤس ـ عن حق أو عن باطل ـ بعالم الجريمة: لقد أصبح التعذيب في نظر عدالة أصبحت ممركزة أكثر فأكثر (تراجعت العدالة السيادية أمام العدالة الملكية، الوسيلة الطبيعية للحصول على اعترافات، خاصة تجاه الناس الذين ليست لهم «شهرة» كبيرة)، كما أن الفقير أصبح سارقاً بالقوة. وتدعمت هذه التدابير العملية بجملة من الأدبيات الخيالية حول الفقراء: أوستاش ديشان (Eustache Deschamps) في فرنسا، المؤلف المجهول لكتاب: **المشردين** في ألمانيا حوالى سنة 1500، وفي إيطاليا قام تيزيو بيني (Teseo Pini) في كتاب: **مرآة المجانين** بجرد لمختلف فئات المتسولين المزيّفين الذين يحاولون استعطاف الناس على أبواب الكنائس بمختلف الوسائل. لقد كتب المؤلفون تحت تأثير

---

(16) Jean Pierre Gutton, *La Société et les pauvres: L'Example de la généralité de Lyon, 1534-1789*, bibliothèque de la France des lettres et sciences humaines de Lyon; 26 (Paris: Les Belles lettres, [1971]).

جاذبية ما هو غريب، وتحت تأثير الخوف الذي يشعر به الملاكون، قواميس للغة المتشردين وللمصطلحات المهنية الخاصة بالتسول والجريمة: منذ هذه الفترة، وبالنسبة إلى الطبقات الحاكمة والناطقين باسمهم، كان «البرابرة في المدينة»، ولكنهم يوجدون خارجها أيضاً: مثل مجموعات الصعاليك، وقطاع الطرق الذين يسلبون المسافرين، وأبطال قصص المغامرات الإسبانية، والمغامرون تحت العباءات، ومحور صور جاك كالو (Jacques Callo) (1622). لقد ساهمت الحرب في إثراء هؤلاء الرجال المتعودين على السلاح والعنف، ولكنهم كانوا ينتشرون في الطرقات كلما وقعت هدنة بين المتحاربين. ويعبّر وجود هؤلاء المرتزقة الوقتيين عن تطور الفن العسكري: لم يعد الزمن زمن المعارك السيادية[17]، ولكنه لم يصبح بعد زمن الجيوش النظامية.

المثل الأعلى للفقر الاختياري

حاولت مراسيم السلطة والأدبيات المتعلقة بالمتسولين والمتشردين أن تفرض القيمة الأخلاقية للعمل. ويعتبر من المفيد من هذه الناحية أن نتتبع تطور المواقف حيال المجموعات الصغيرة من المتشبهات بالراهبات والفقراء الاختياريين (Béguines et Beghards) الرينانيين أو الفلامنديين. لقد نشأت هذه المجموعات الصغيرة من اللائكيين في ظل الحركة الاجتماعية والدينية التي ارتبطت بالمثل الأعلى الذي يمثله الفقر الاختياري في القرن الثالث عشر، والذي أدى كذلك إلى نشأة تنظيم المتسولين. ولكن متساكني هذه المؤسسات كانوا من اللائكيين، ولم يكن نمط عيشهم الموازي للدين ليقبله البابا: لم

---

(17) المعارك السيادية هي عبارة عن خدمة عسكرية يقدمها التابعون لسيدهم، وتسمى الأوست (L'Ost).

يكونوا رجال دين حقيقيين، ولا لائكيين بأتم معنى الكلمة، بل كانوا «هامشيين في منزلة بين المنزلتين». لقد كانوا خلال القرن الخامس عشر متهمين بالهرطقة بصورة مستمرة، وهي في أغلب الأحيان تهم باطلة. وفي القرن الخامس عشر كان رجال الدين أنفسهم يعيبون عليهم التسول، وهم قادرون على العمل. وحوالى سنة 1500 كان توماس مورنر (Thomas Murner) يقول عنهم: «إنهم لا يصلحون لا لله ولا للدنيا»، كما لو أنه يماثلهم بالصعاليك الذين كانوا في الفترة نفسها في باريس يوصفون بأنهم «لا يصلحون للدنيا». وفي قصيدة هزلية يريد الكاتب نفسه نفي المتشبهين بالرهبان إلى «البرتغال». ولكن ليس هذا إلا من باب الخيال القصصي: لقد انقرض هذا التيار بصورة تكاد تكون كلية في بداية القرن السادس عشر، وقد بدأت أزمة هذا التيار منذ بداية القرن الخامس عشر، لأن نمط العيش الهامشي لم يعد يتناسب والقيم الأخلاقية السائدة آنذاك.

ولكن برز في هذه الفترة هامشيون آخرون: وهم الغجر. عندما وصلت إلى أوروبا الغربية في بداية القرن الخامس عشر (ورد ذكرهم لأول مرة قرب مدينة ليون سنة 1419) فرق «البهيميين» الأولى أو «المصريين» ـ القادمة في الواقع من منطقة البيلوبونيز (Péloponnèse) أو «مصر الصغيرة»، ومن رومانيا ـ كان الميل للغرائبي ولفعل الخير تجاه هؤلاء الذين ينظر إليهم بوصفهم حجيجاً يفوق الاحتراز منهم. وقد سجل بورجوازي باريس في مذكراته سنة 1427 أن نساءهم «لهن شعور سوداء كذيول الجياد» وحلق كبيرة تتدلى من آذانهن. ولكن إذا كانت البلديات تمنحهم الأقوات، فقد كانت تمنعهم من تجاوز أسوار المدن واعتادت على إبعادهم بدفع المال[18].

---

(18) François Vaux de Foletier, «Les Tsiganes dans l'ancienne France,» *Connaissance du monde* (1961).

وبداية من القرن السادس عشر، قرنتهم السلطة بـ «الصعاليك» وبـ «المتشردين»، لأنه لم يكن لهم «لا وظيفة ولا سكن». ويقول أمين مدينة بيارن (Béarn): «ليس النسب هو الذي يصنع البهيمي، وإنما مهنة التشرد». وبحسب المرسوم الملكي لسنة 1682 يجب إرسال الرجال إلى العمل على متن السفن، وحلق رؤوس النساء ونفيهن، وحبس الأطفال في المستشفيات.

عصر «الانغلاق»

استتب النظام في الفترة الحديثة أكثر من أي وقت مضى من خلال التعارض بين قوى متباينة. وقد عمّت مطاردة السحر منذ نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن السابع عشر. وهي حالة قصوى إذا أردنا ذلك: لأن الساحرات لم يكن لهن وجود إلا في المتخيل الجماعي، ولكن كل الإجراءات التي اتخذها حكام التفتيش والقضاة كانت تهدف إلى عزل شخصية الساحرة بعد صنعها لإحراقها في النهاية باسم الأرثوذكسية (وقد اعتبر السحر في البداية هرطقة)، ودفاعاً عن النظام الاجتماعي (يبدو عالم الساحرة كمجتمع مضاد)، ونتيجة لوجود عقلانية حضرية يقل استعدادها شيئاً فشيئاً لقبول الثقافة الريفية. لذلك ترك السحر في مخاوف النخبة، خلال القرن السابع عشر، مكانه للانجذاب. ولكن أصبح الخروج عن المعقول هذه المرة في المدينة، وهو أمر غير مكثف، ولكنه يهم مجموعات صغيرة مثل الأرسوليين (Les Ursulines) في لودان[19] (Loudun). وبذلك تقلصت المسافة الاجتماعية والثقافية بين القضاة والمتهمين، وهو ما أدى إلى تغيّر في موقف القضاة: صار الانجذاب فرجة

(19) Michel de Certeau, *La Possession de Loudun*, collection archives; 37 ([Paris: Julliard, 1970]).

منغلقة على ذاتها وموضوع خطاب، والحرب المفتوحة في أرض مكشوفة ضد حشود الساحرات قد تنتهي عندها[20].

المستشفى ـ السجن يعزل ولا يعالج

العصر القديم هو في الواقع عصر «الانغلاق». لا يكفي إقصاء المتسولين لانتزاع الخوف من الجريمة، ولا لتلبية الرغبة في «نظافة» اجتماعية: من الآن هم سجناء[21]. لقد تم إحداث المستشفى العام في باريس سنة 1657، ثم وقع تقليده في مختلف أنحاء المملكة. وقد كان الاستحواذ على ممتلكات الدمن، وتعميم هذا النمط القديم للعزل من طرف السلطة الملكية وراء هذا الإصلاح. كان لا يوجد علاج في هذه المستشفيات ـ السجون، وإنما إقامة جبرية. إن العاطل عن العمل يمكن تقويته، ولكنه يصبح فاقداً للحرية. لقد تم حبس ما بين خمسة وستة آلاف شخص في بعض الأسابيع في باريس وحدها. وكان التطور هو نفسه في مختلف جهات أوروبا: «الإصلاحيات» في ألمانيا، «وبيوت العمل» في إنجلترا ليست إلا تعبيراً عن سياسة واحدة. ولم يكن هذا العزل فقط يهدف إلى ضمان السلم الاجتماعي، فهو يهدف أيضاً إلى إصلاح الفقراء أخلاقياً بالعمل الإجباري. والفضاء المغلق للحجز حدّد المجال المتنوع للامعقول وعدم الصلاحية الاجتماعية: كان يلتقي في المستشفى العام كل من الصعاليك والمتسولين والمشوّهين والمجانين. كان المجانين ـ إلا المختلين الخطرين الذين يقع «ربطهم» ـ في العصر الوسيط أكثر

(20) Robert Mandrou, *Magistrats et sorciers en France au XVIIe siècle: Une Analyse de psychologie historique*, civilisations et mentalités ([Paris]: Plon, [1968]).

(21) Michel Foucault, *Surveiller et punir: Naissance de la prison*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, [1975]).

اندماجاً في المجتمع، على رغم أنهم هم أيضاً كانوا «معلمين» مثلهم مثل غيرهم من الهامشيين[22]: كما نستنتج ذلك من خلال ظاهرة «الجنون في تريستان» في القرن الثاني عشر، فالمجانين عندهم كانوا محلوقي الرؤوس. ولكن الجنون وعلاماته عندهم يكتنفه غموض: إن «جنون المسيح» - وهو موضوع أساسي كان يحرج الكنيسة المؤسسية طيلة تاريخها - وأنموذج القديس «مجنون الله» الذي بدأ ينتشر نوعاً ما خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر في الأدبيات الدينية؛ كلاهما كان يعمل على تقييم إيجابي للجنون. وفي عصر النهضة لم تعد سوى شخصية «مجنون الملك» هي التي يخوّل لها أن تدلي بالحقائق التي يكتمها الغير، وذلك نتيجة لوضعها الخاص بها. وفي هذا العصر أيضاً كتب إيراسم (Erasme): **مدح الجنون** (*Eloge de la folie*). كما تعبّر في الفترة نفسها «سفينة المجانين»[23] (Nel des fous) التي ألفها سيبستيان برانت (Sébastien Brant) بطريقته الخاصة عن إجراء إقصائي، ومثلها مثل الجثة الملعونة للمنتحر التي توضع في برميل يحمله النهر نحو الأسفل، تنحصر «سفينة المجانين» على سطح الماء، وتتخلص منها المدينة. وفي القرن السابع عشر يقع حجز المجنون، وهو أمر جديد. لم يكن المجانين يتسببون في العار لأهاليهم في العصر الوسيط، ولم يكونوا مخفيين. وفي العصر الحديث عندما كان عقاب المجرمين علنياً (يجب أن يكون العقاب نموذجياً، وهو في الوقت نفسه فرجة سياسية تستعرض من خلالها

(22) Michel Foucault, *Folie et déraison: Histoire de la folie à l'âge classique*, civilisations d'hier et d'aujourd'hui (Paris: Plon, [1961]).

(23) «سفينة المجانين» هي قصيدة هزلية (1494) مؤلفها من منطقة الألزاس س. برانت (S. Brant) يسخر فيها من الحواس الخمس. وقد تأثر بها جيروم بوش (Gérôme Bosch) في لوحته التي تحمل العنوان نفسه: متحف اللوفر.

السلطة عضلاتها)، كان المجنون تعبيراً عن لاإنسانية غير مقبولة ومنزوعة عنها أية قيمة نموذجية، لذا يجب إخفاؤه. إنه لم يعد معترفاً به بوصفه فاعلاً، وإنما كشيء تمارس عليه سلطة ما، حتى ولو كانت طبية: وبهذا المعنى أصبح مستشفى الأمراض النفسية وريثاً للمستشفى العام.

عوامل الاندماج

ما هو التوجه العام الذي يبرز من خلال تعقد المواقف المتخذة وتنوع الفئات الهامشية المأخوذة بعين الاعتبار من القرن الحادي عشر إلى القرن الثامن عشر؟ فرضيتان شكليتان ومبسطتان بالضرورة، تفرضان نفسهما: فرضية مجتمع ما انفكت «إقصائيته» تتزايد، عرف مرحلة أولى للإدماج الكلي، وهي فترة توافق نشأة المجتمع الجديد بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر، تتبعها مرحلة طويلة من الإقصاء الذي ما انفك يزداد شدة، وأخيراً مرحلة من «الانغلاق» المعمّم؛ وفرضية أخرى هي فرضية تراكم تدريجي لأنواع من الهامشيين المتزايدين والمختلفين، بما أنه يلاحظ بشكل عام بروز أنواع جديدة من الهامشية عبر الزمن مع تراجع ضعيف لمجموعات الهامشيين القدامى (الحالة الوحيدة هنا هي حالة المتشبهات بالراهبات والفقراء الاختياريين في القرن الخامس عشر والساحرات والمجذومين في القرن السابع عشر). لكن علينا أن لا نحتفظ من هذا التطور إلا بالرفض والصدّ، إذ لا نستطيع أن نفصل عنهما قوى الإدماج التي تعمل في الوقت نفسه وتتطور بالتوازي مع قوى الإقصاء. هناك مثال العائلة قبل كل شيء، فقد ساهم مؤرخو الهامشية في السنوات الخيرة في تسليط الضوء على وظائفها المتعددة الجوانب، وعلى أهميتها الكبرى. وفي سير الهامشيين، تكون القطيعة مع العائلة بداية احتراف التشرد أو الإجرام. كما يؤدي الابتعاد عن العائلة إلى هامشية مبدئياً

تكون مؤقتة: هامشية «المدرسين غير المستقرين» و«الطلبة الفقراء» ورجال الدين المتنقلين بحثاً عن الربح، والحرفيين رفاق دورة فرنسا. ولكن هنا تستعيد العائلة سلطتها: الصانع والرفيق الحرفي يندمجون في عائلة سيدهم، ويعيشون تحت سقفه ويخضعون لأوامره. وتوجد بالإضافة إلى العائلة هياكل إدماج أخرى تقي من الهامشية، وتبعد عنها في بعض الحالات: في القرى أو في أحياء المدن، تقلل مجموعات الشباب أو المؤسسات الدينية الشبابية من العنف ومن التسيّب الشبابي، فمثلا في الاحتفالات الطقوسية الجماعية الصاخبة والعبثية، يتعلم الشباب، والذين عادة ما يكونون هم الفاعلون الأساسيون، القواعد الاجتماعية، وهم يمارسون نوعاً من العدالة ضد الذين تجاوزوا نواميس المجموعة. يجب أن نذكر في النهاية هياكل الإدماج الأكثر مؤسسية، والتي أنشئت بصورة واعية من طرف السلطة، وفي كثير من الأحيان على النمط العائلي: نوع من «النسب المزيف» الذي يعوّض فقدان الأواصر العائلية أو يدعم تأثيراتها ضمن مشروع تأطير اجتماعي واحد، وهكذا يعطي التنظيم الفرنسيسكاني الثالث أو الدومينيكاني ضمانات أرثوذكسية لم تكن التنظيمات شبه الدينية وغير الرسمية قادرة على منحها. لقد تمكّنت شبكة الطرق الخورنيات والأحياء أو الحرف طيلة هذه المدة من الاحتفاظ بعدد متزايد من السكان داخلها. ولا بد من الإشارة في الأخير (بالموازاة لتطور الرفقة التي سبق أن وقعت إليها الإشارة) إلى دور المؤسسات الجامعية بوصفها وسيلة مراقبة لجموع «الطلبة» الهائجين. إن الهامشيين هم بحق أولئك الذين لا يخضعون لكل هذه الهياكل الإدماجية الكثيرة والمتكاملة. إنهم كذلك ليسوا اجتماعيين، بالنسبة إلى المجتمع المهيمن. هل يعني ذلك أنه ليست لهم قواعد اجتماعية خاصة بـ «وسطهم»؟ أو بالعكس يجب أن نقول بأنهم يمثلون «مجتمعاً ضدياً»؟

عالم موازٍ

يتم تعريف الهامشيين بالنسبة إلى المجتمع المهيمن بصورة سلبية: إنهم ممن «ليس له مقر دائم»، وهم «يوجدون في كل مكان»، وهم «ممن ليس له اعتراف»، و «وهم ممن لا يصلح للدنيا». إلا أن فحصاً بسيطاً لمجال الهامشية يكشف عن وجود نسيج «مواز» من العلاقات التي يصعب على الآخرين اقتحامها: في العصر الوسيط المتأخر، وفي ستراسبورغ كانت البيوت الصغيرة للمتشبهات بالراهبات تتجمع حول أديرة الرهبان المتسولين. هناك مثال آخر أكثر وضوحاً، وهو مثال حارة اليهود. لقد كان فضاء التسول والدعارة والسرقة منتشراً في المدينة، ولكن هذه الجموع التي كانت توجد في المناطق الخلفية، وفي الأزقة السيئة الشهرة ـ التي يتخيل المبحرون في العلم في القرن السابع عشر أن فيها «قصر العجائب» ـ تلفت الانتباه قبل كل شيء باستقرارها الكبير. ومنذ القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر، وحتى في ما بعد، كان الهامشيون في باريس يلازمون الأنهج نفسها في الضفة اليمنى بالخصوص. وكانت توجد في هذا المجال غير الواضح المعالم نقاط قوة: الحانة قبل كل شيء، وهي المكان الذي تقع فيه اللقاءات، وتتم فيه «الاتصالات»، وتحكى فيه المغامرات، ويخطط فيه لـ «عمليات» جديدة، ولا ينفصل عنها الماخور، وكذلك سجن شاتليه (Châtelet) لا يبعد عنها، وهو «مدرسة أخرى للإجرام»، حيث كان القدماء يدرّبون من كانوا مبتدئين، وفيه تنشأ علاقات جديدة يستطيع الناجون من حبل المشنقة توظيفها في ما بعد.

ثقافة الهامشيين؟

تتحرك في فضاء الهامشية مجموعات هامشية متعددة، بعضها غير منظم، والبعض الآخر أكثر تنظيماً. وتطلق على القدماء في

حركات الهرطقة تسمية «الكامل»، وهو ما يميّزهم عند الكاتار (Les Cathares) عن بقية المنخرطين، وهم «المؤمنون». وتنشأ جمعيات السراق الصغيرة ـ وهي جمعيات فيها تقسيم للعمل بين من يسرق ومن يروّج المسروق تذكّر بتنظيم رابطات التجار ـ وتنحل بحسب الظروف. ولكن المجموعات الكبرى لقطاع الطرق التي تجول في ما انبسط من الأرض هي أكثر استقراراً، وأكثر وزناً، وهي تحمل السلاح في وجه رجال الدرك: مثال «الحلزونيون» (Coquillards) في القرن الخامس عشر ما بين منطقة بورغوني (Bourgogne) وباريس، أو مجموعة ماندران (Mandrin) في القرن الثامن عشر في منطقة لا سافوا (La Savoie).

في هذه الأماكن تزدهر ثقافة لها علاماتها الخاصة (الوشم أو تقليد حلاقة الرأس عند رجال الدين الذين يطمحون إلى الانتفاع من العدالة الكنسية المشهورة بأنها أكثر حلماً)، ولها قواعد شرفها (من هنا كانت أهمية العهد والسر)، ولها تقنياتها (فبرعوا في فن تزوير أوراق اللعب، وحذق صنع الكلاليب لخلع الأبواب)، ولها لغتها التي تستعمل كلمات صماء بالنسبة إلى من ليسوا من هذا الوسط: لم تكن عامية الطبقات الشعبية في باريس في القرنين التاسع عشر والعشرين، ولكنها كانت مصطلحات خاصة بمحترفي السرقة والتسول والإجرام والسجن والصعلكة والهروب[24].

في الواقع، إن قواعد استعمال هذه الكلمات وهذه العبارات (التي وصلتنا عبر مؤلفات عالمة) والحدود الاجتماعية لاستعمالاتها، ليست معروفة جيداً. لقد تعارض خاصة المبحرون في العلم في جدل

---

(24) Pierre Guiraud, *Le Jargon de Villon ou le gai savoir de la coquille*, bibliothèque des idées ([Paris]: Gallimard, 1968).

كبير حول «مصطلحات فيون» (Villon): بالنسبة إلى البعض تكلم الشاعر على طريقة الحلزونيين الذين كانت تربطه بهم علاقات قبل أن يقاد إلى المقصلة، وبالنسبة إلى البعض الآخر فإن فرنسوا فيون يتحدر من «البرلمان»، ومن عالم الحقوقيين الصغار الذين يعجّ بهم البرلمان والمحاكم الباريسية، والذين لهم «فولكلورهم»، وكذلك لهم لغتهم المشفّرة التي منها يستمدون هويتهم الجماعية[25]. ومن دون أن نقلل من شأن هذا النقاش، نستطيع أن نسلّم أيضاً بأن المسافة بين فريسة المقصلة وأعوان النظام هي أحياناً قصيرة.

يبقى أن نعرف إذا كانت تلوح من لغة الهامشيين ـ عندما تكون قد وصلتنا ـ أو في مستوى مبادئ تنظيم مجموعاتهم، ثقافة (أو كما يقول ب. غيريميك «شبه ثقافة») هامشية لها خصوصيتها، وفي ماذا تتمثل خصوصيتها وقوة احتجاجها المحتملة؟ لقد وقع التأكيد على «فوضوية» الطلبة الرحل[26]. ولكن هؤلاء كانوا يثيرون الناس من أجل أن يسمعوا أصواتهم لأنهم يحلمون بالأجور وبالحماية: بعضهم، مثل شاعر كولونيا الكبير، تحصّلوا على ذلك من الملوك والأساقفة.

الاحتجاج الهرطقي

يذهب احتجاج الهراطقة إلى أبعد من ذلك: إنهم يرفضون تقسيم الكنيسة ما بين لائكيين ورجال دين، ويطالبون للائكيين، وكذلك للنساء في بعض الحالات (عند الفودوا (Les Vaudois) خاصة) بحق ممارسة الوعظ، كما يرفضون قداسة الزواج، إما لأن

---

(25) Pierre Guiraud, *Le Testament de Villon ou le gai savoir de Basoche*, les essais; 152 ([Paris]: Gallimard, [1970]).

(26) الطلبة الرحل (Goliards) هم رجال دين غير منضبطين كانوا في العصر الوسيط يعاشرون النساء ويكتبون قصائد ساخرة ضد البابوية وغزلية.

الممارسة الجنسية سيئة (عند الكاتار)، أو لأنه يكرس التفرقة بين نظام اللائكيين ونظام رجال الدين: بلغ ببعض الهراطقة، خاصة هراطقة القرن الحادي عشر، فرض الامتناع عن ممارسة الجنس على جميع الناس بما في ذلك اللائكيين ونبذ الإنجاب، والبعض الآخر، مثل «إخوة الفكر الحر» في القرن الرابع عشر، كان يطالب بحرية جنس مطلقة ويزعم حتى تشريع استباحة المحارم.

ولكن إذا كانت الفرقة الدينية محل تنديد، فهي لم تصل إلى بلورة «مشروع مجتمع» كما تلاحظه بصدق هوغيت تافياني[27] (Huguette Taviani). حتى في منطقة البوام في العصر الوسيط المتأخر حيث تلتقي حركة الهوسيين[28] (Les Hussites) مع الحركة الألفية الشعبية في تطبيق جماعية الممتلكات في انتظار المسيح الدجال وسيطرة العقل، كان الاحتجاج الديني عاجزاً عن التحول إلى ثورة اجتماعية. ويبقى أنه لم تذهب أية مجموعة هامشية أبعد مما بلغته بعض الهرطقات في نقدها المثير للنظام القائم. وعندما ارتكب إخوة الفكر الحر وغيرهم من الهراطقة أسوأ الذنوب لإثبات أن تأثير العقل يضعهم فوق القوانين الأخلاقية التي تمليها الكنيسة - وهو على الأقل ما يقوله رؤساء محاكم التفتيش - فهم ربما كانوا يعبّرون، بتواصل عبر تاريخ الغرب، عن رغبة في الاختراق وفي «توحش الحياة» (سيرج موسكوفيتشي (Serge Moscovici) وعن تقاليد طبيعية

(27) Huguette Taviani, «Le Mariage dans l'hérésie de l'an mil,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 32, no. 6 (novembre-décembre 1977).

(28) انتشرت الهرطقة الهوسية (من اسم زعيمها جان هوس (Jan Huss)) في القرن الخامس عشر بمنطقة البوام (La Bohème)، وهي تطالب بحرية التعزير والفقر الكنسي ومعاقبة الذنوب القاتلة من طرف السلطة المدنية. وقد وقع الهوسيون معاهدات مع الكنيسة الكاثوليكية في بال (Bâle) وبراغ. أما غلاتهم فقد هزموا في موقعة ليباني (Lipany) سنة 1434.

ظلت مكتومة، ولكنها تعود اليوم إلى الظهور لتندّد بنظام «الثقافة».

قاطع الطريق المحبوب، بطل شعبي

ماذا في النهاية عن «الهامشية الاجتماعية»، وقبل كل شيء «عن قاطع الطريق الاجتماعي»، وعن «قاطع الطريق صاحب القلب الكبير»، والذي يعتبر نموذجه، بحسب إ. هوبزباوم (E. Hobsbawm)، روبن هود (Robin Hood)، أو روبن دي بوا (Robin des Bois) عندنا، الذي يثأر للضعفاء والمقموعين، والذي لا يأخذ إلا متاع الأغنياء ويترك محاصيل الفلاحين الصغار؟

يميّز هذا النوع من الصعلكة نهاية فترتنا التي عرفت اندحار بنى المجتمع الفيودالي أمام دخول علاقات رأسمالية، خاصة في الأرياف. لقد أدى مثلاً الاستحواذ على الأراضي في إيطاليا الجنوبية، وفي صقلية، وفي سردينيا، وامتداد نفوذ الدولة، إلى تدمير النظام الزراعي الرعوي التقليدي، وأصبح يهدد أشكال التضامن المحلي. عند ذلك برز من بين صفوف الفلاحين بعض «المفتخرين بقوتهم في القرى»، والذين يعرفون كيف «يكسبون الاحترام»، وسرعان ما أحاطت بهذه الهامشية هالة أسطورية في «أغاني قطاع الطرق» وأصبح يتغنى بها الفلاحون. ولكن هؤلاء المتمردين هم وحدهم الذين يملكون المال والسطوة من بين بقية الفلاحين، وهو ما حملهم بالضرورة على التعاهد مع التجار والملاكين العقاريين والمالكين الذين مكنتهم تنظيماتهم السرية من «احتوائهم» بسرعة. لقد أصبح من كان يثأر للفقراء أداة في أيدي المافيا، مثل سلفاتوري جوليانو (Salvatore Juliano) منذ ثلاثين سنة خلت، إذ كان عليه أن يطلق النار على الفلاحين قبل أن يقتل بالرصاص من طرف مستعمليه. ويكرر ممثلو السلطة والطبقات المهيمنة عند وصفهم ثورات المدن التي كانت

تندلع بصورة منتظمة من القرن الرابع عشر حتى الثورة الفرنسية أن جموع الثائرين تخرج من أعماق المدينة، وأنه لا فرق بين المجرم والثائر(29). كان لا بد من تجلب حرية القتل والنهب التي ترافق الفتنة كثيراً من الهامشيين الذين ربما يجهلون كل شيء عن أسباب الانتفاضة. لقد خلدت الثورات الباريسية في بداية القرن الخامس عشر بعض الوجوه الثائرة المدهشة والمرعبة في الحين ذاته والمتحدرة من هوامش العنف و«المهن المحرمة»: ويعدّ سيمون كابوش (Simon Caboche) «سالخ البقر» وكوكوليش (Coqueluche) الجلاد من أبرز رموزها. ولكن هذه الثورات لم تكن من إنجاز الهامشيين حتى ولو شارك فيها هؤلاء واستفادوا منها: الخلافات السياسية داخل الطبقات الحاكمة (ما بين النبلاء والبطارقة وما بين البطارقة والبورجوازية. . .)، والصراعات المهنية ما بين أصحاب الحرف والصناع، ومعارضة المالكين لتزايد الضرائب الملكية؛ تلك هي الأسباب المباشرة لأغلب هذه الثورات. وهذه الاهتمامات ليست اهتمامات الفقراء والمتسولين والسراق والمومسات. لقد عبّرت طبقات اجتماعية جديدة من خلال هذه الثورات عن وعي سياسي بمصالحها: من الحرفيين الصغار «الشيومبيين» (Ciompi) الفلورنتيين في القرن الرابع عشر مثلاً إلى «اللامتسرولين» (Les Sans Culottes) الباريسيين سنة 1789، والذين لا يمكن اعتبارهم أبداً من الهامشيين. وهو ما سيكون كذلك في القرن التاسع عشر بالنسبة إلى عمال الكمونة (La Commune) الثائرين: في الوقت الذي أصبحت فيه البروليتاريا واعية بذاتها، كان عليها، وهي في طور النشأة، أن تتمايز

---

(29) Eric Hobsbawm, *Les Primitifs de la révolte dans l'europe moderne* = *Primitive Rebels*, l'histoire sans frontières, traduit de l'anglais par Reginald Laars (Paris: Fayard, 1966).

عن «البروليتاريا الرثة» التي يريد خصومها أن يشبهّوها بها. وإلى تاريخ قريب لم يكن رفض الهامشيين مقتصراً على الطبقات المسيّرة. وفي هذه النقطة، وعلى الرغم من تخوف قوى المعارضة السياسية أو النقابية التقليدية، يمكن ملاحظة بوادر تغيير. ونعتقد أنه ليس بغريب بروز «تاريخ للهامشيين».

قيمة الهامشيين ودورهم

بدأ مؤرخو الهامشية بسد ثغرات التاريخ التقليدي، وذلك بإعادة المنسيين في التاريخ إلى الذاكرة: متشردون بسطاء، ومجرمون مغمورون، وسحرة القرى أو مومسات[30]. ومباشرة تطرح هنا مسألة الوثائق التي يمكن استعمالها أو تمييزها. وفي كل مرة يتوجه فيها التاريخ نحو «حقول» جديدة يطرح السؤال نفسه: هل توجد وثائق خاصة تسمح بحل الإشكاليات الجديدة؟ وفي مثل الحالة الراهنة يكون السؤال أكثر صعوبة: كيف يمكن أن نسمع أصوات الهامشيين في الماضي، وهي أصوات ظلت مكتومة بصورة كلية من طرف أصحاب السلطة الذين يتكلمون عن الهامشيين، ولكنهم لا يسمحون لهم بالكلام.

يعتبر الوصول مباشرة إلى ما كان يقوله الهامشيون من دون المرور بشكل أو بآخر بواسطة خطاب رسمي أو عالم، مشروعاً يكاد يكون ميؤوساً منه، إلا أن فيليب جوتار بيّن أن تجديد المناهج يعطي في بعض الأحيان أحسن النتائج: جمع في منطقة السيفان (Les Cévennes) الروايات الشعبية التي تتعلق بثورة الكاميزار في بداية

(30) «Marginalité et criminalité à l'époque moderne,» *Revue d'histoire moderne et contemporaine* (1976).

القرن الثامن عشر، فقدم من خلالها صورة لهؤلاء الفلاحين المتشنجين مختلفة كثيراً عن تلك التي تقدمها الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية والمبحرون في العلم[31].

إشكالية المصادر

يستعمل مؤرخ الهامشيين في أغلب الحالات الأرشيف ووثائق مختلفة تصدر عن «المركز» وليس عن الهامش: مثل دفاتر محاكم التفتيش وأرشيف المحاكم أو السجون وكتب الجدل الموجهة ضد الهامشيين على اختلاف أنواعهم. وهي أيضاً إشكالية الهامشية التي كانت وراء اهتمام جديد بهذا النوع من الوثائق وسمحت بإخضاعه إلى استغلال غير مسبوق: كان مؤرخ الهامشيين من الأوائل ـ بعد المؤرخ الاقتصادي والمؤرخ الديمغرافي، ولحسن الحظ أن هذه الاختصاصات بدأت تسقط الحواجز بينها ـ الذين اكتشفوا أهمية «الجداول» التوثيقية. ومن خلال دراسة الآلاف من القضايا برزت مثلاً جسامة العنف في الحياة اليومية في عهد النظام القديم وغالبية السرقة بالنسبة إلى أنواع الجنح الأخرى، وكذلك أيضاً شدة القسوة في العقوبات المسلطة على اللصوص.

ومن خلال الأرشيف أيضاً يمكن للمؤرخ أن يستمع إلى أصوات الهامشيين. والسبب في ذلك، حتى وإن بدا ذلك عكسياً، هو أن هذه الأرشيفات نتجت من جراء القمع: هنا سجل محقق التفتيش بعناية، وفي بعض الأحيان بلغة عامية، ما قاله أحد الهراطقة، وذلك إما احتراماً للإجراءات القانونية أو من أجل البحث

---

(31) Philippe Joutard, *La Légende des Camisards: Une Sensibilité au passé*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1977).

عن تصريحات مورطة. وهناك دوّن كاتب سجن الشاتيلي اعتراضات البراءة الصادرة عن مشبوه أو وشاية أحد المجرمين المعروفين بشركائه في الجريمة. كم هي خفية هذه الآثار، ولكن كم هي حية؟ ولكن لنكن حذرين، فهذه الكلمات التي أفلتت من حجب الصمت وقدمت من مواطن القمع (غرف التعذيب أو المحاكم) تشهد قبل كل شيء عن السير المنظم للمؤسسة القضائية، حتى وإن كانت تسمح للمؤرخ بإعادة رسم ملامح الهامشيين الذين عاشوا في زمن مضى والاطلاع على لغتهم.

هذه الوثائق وغيرها (رسائل الجدل والمؤلفات الأدبية والرسوم . . .) يعتبرها مؤرخ الهامشيين شهادات حول «المركز» نفسه، وعن المكان الذي أنتجت فيه، لأنه من الإضافات الأساسية لتاريخ الهامشية ليس فقط أنها ملأت حواشي التاريخ، ولكنها سمحت أيضاً بإعادة قراءته.

معيار «المصلحة» الاجتماعية

الفرضية الأولى هو أن أي مجتمع يكشف ذاته بأكملها من خلال تعامله مع أطرافه. وهنا توجد إمكانيتان من الناحية النظرية: إمكانية إدماج الهامشيين، أو إمكانية إقصائهم. وعملياً لاحظنا بعض الفئات الهامشية تتحمل، إما النقلة الأولى، مثل التجار الذين كانوا في البداية محل شبهة، ولكن سمعتهم التحقت شيئاً فشيئاً بوزنهم الاقتصادي والاجتماعي، وأدى ممثلوهم دوراً أساسياً في تحديد قيم كل المجتمع، وإما أنهم يقاسون من نقلة معاكسة، مثل المجانين الذين عزلوا شيئاً فشيئاً، ثم رفضوا ووقع إخفاؤهم، وفي النهاية حبسهم، وإما نقلات معقدة، مثل اليهود الذين وقع إقصاؤهم أكثر فأكثر في البداية، ثم وقع إدماجهم تدريجياً، وحتى صهرهم في

القرن التاسع عشر في فرنسا إلى أن اندلعت قضية درايفوس وانتشار المعاداة للسامية، الأمر الذي أدى إلى تحيين أسوأ حالات الإقصاء.

يوجد إذن، في كل الفترات، خط فاصل، إما يقرر إدماج الهامشيين، وإما يقرر إقصاءهم، ويبيّن أين يتمركز معيار «المصلحة» الاجتماعية (نستعمل مصطلحاً من العصر لأنه يبدو لنا أنه يتناسب مع الحالات المدروسة).

لنفهم هذه الكلمة في مختلف معانيها: هي تفيد أولاً نوعية الفائدة المادية التي تنتظرها المجموعة من الأعوان الاجتماعيين، ومن هذا المنطلق تؤمن الفائدة التي تنجر عنها إدماجهم، مثل التجار والمرابين والنساجين، في الوقت الذي تسمح فيه بإقصاء العاطلين الذين يمكنهم بدنياً أن يعملوا بأيديهم. وتحدّد هذه الكلمة أيضاً الحدّ الذي ما بعده يصبح أمن الممتلكات والأشخاص والنظام القائم مهدّداً بحق أو بغير حق.

تقر «المصلحة» الاجتماعية، في النهاية، بحد ممكن يلتقي عنده كل الذين يفشلون التصنيفات الاجتماعية، أولئك الذين ليس لهم «وضع قانوني»: نرى ذلك جيداً مع قدوم الغجر إلى أوروبا. ليس هناك مكان لهؤلاء الرحل الداكني اللون في التمثلات المعاصرة. لقد كانوا في البداية يقدمون على أنهم حجيج، وهم أيضاً يعرضون وثائق أمان الإمبراطور أو الملك أو حتى البابا، ويزعمون أنهم ذاهبون إلى روما لزيارة قبر القديس بول (Saint Paul). إلا أن ضمير الاستقرار المتمكن من الشعوب الأوروبية سيتحالف مع الخوف لإفشال هذه المحاولة الاندماجية. لقد تم دحرهم إلى ما وراء خط الفصل، فالتحقوا بالصعاليك أو بالمستشفى العام، إلا أنه، وفي كلتا الحالتين، سواء اعتبروا حجيجاً أو قطاع طرق، لم يعترف لهم

بمكان خاص في تمثلات المجتمع التقليدية، ولا يمكن أن يكون الأمر كذلك.

في المجتمع كما في الكتاب، الهامش فارغ، والصورة غير المنتظرة للهامشي التي ترتسم فيه هي غالباً ما تكون لاجئة ومستعدة للذوبان في جانب أو السقوط على الجانب الآخر، لأنها تتحدى الأطر الجاهزة لـ «داعي المصلحة» الاجتماعية.

والأهم هو أن هذا الخط الفاصل هو خط غير ثابت عبر التاريخ، ويبدو أنه غالباً ما كان يشق المجتمع في العصر الوسيط. وهنا تبدو الحالة الخاصة للمتشبهات بالراهبات والفقراء الذين سميتهم «هامشيين في منزلة بين المنزلتين»، أكثر دلالة على أية هامشية في تلك الفترة[32].

هناك هامش من عدم الوضوح يفصل بين اللائكيين ورجال الدين: نجد فيه المتشبهات بالراهبات والفقراء الاختياريين، ونجد فيه أيضاً «الطلبة» الذين لهم امتياز الوصول إلى رتبة دينية، ولكنهم لا يبحثون من خلال التنظيمات السفلى إلا عن وسيلة للصعود الاجتماعي. يوجد الهامش الغامض نفسه بين الله والشيطان: نجد هنا التجار الذين غالباً ما تؤول الثروات التي جمعوها إلى هبات للمؤسسات الدينية عند وفاة أصحابها، كما نجد أيضاً المجذومين الذين هم أداة حية للصدقة والتكفير عن ذنوب الآخرين، ولكن جراحاتهم المنفرة تترجم ذنوبهم، واليهود هم تعبير عن العهد القديم

---

(32) Jean Claude Schmitt, *Mort d'une hérésie: L'Eglise et les clercs face aux béguines et aux béghards du Rhin supérieur du XIVe au XVe siècle*, préface de Jacques Le Goff (Paris; La Haye; New York: Mouton; écoles des hautes études en sciences sociales, 1978).

والشعب المختار، ولكنهم هم جلادو المسيح، والفقير هو الوحيد الذي يعيش متناسقاً مع الإنجيل، ولكن وجوده كاف ليكون تحد للكنيسة القائمة.

ليس من باب الصدفة أن أكرر الرجوع إلى الأيديولوجيا المسيحية، لأن المسيحية بتأكيدها على وظيفتها القصوى وعلى رغبتها في إنقاذ البشرية، «تلحق» بكل الهامشيين بشكل أو بآخر وتوجد في مختلف أنحاء الأطراف الداخلية للمجتمع مع مجهود غريب لتشريعها: تبدو المهمة سهلة نسبياً في ما يتعلق بالتجار وبالمثقفين. إنها أكثر صعوبة بالنسبة إلى اليهود، ولكنها لم تكن أبداً يائسة، وحتى في حالة المهرطق يتمنى حاكم التفتيش دائما على الأقل في الآخرة أن «يلحق» ولو بروحه، وإذا لم يكن تجنب العقاب البدني ممكناً، فالكنيسة لا تشارك فيه، بل تتكفل به السلطة المدنية.

لم يلق بالهامش حقاً في الأطراف إلا في آخر العصر الوسيط، وفي الفترة الحديثة بحسب رأيي أنا. ولم يعد هناك مكان ضمن الجسم الاجتماعي لهذا الهامش الغامض الذي عرفه العصر الوسيط، إذ أصبح الآن الملك الذي يستمد شرعيته من الله يتربع في قلب المجتمع الذي ينبع منه «داعي مصلحة الدولة»، وهو ليس فقط سياسياً، ولكنه أيضاً زهدي. وهو يعتمد على «آلة الدولة» التي ظل سيرها يدقق، ونفوذها يتزايد، ولم تعد فيها الكنيسة سوى دولاب من دواليبها إلى جانب مؤسسات أخرى (مثل العدالة، والشرطة...). لقد بنى المجتمع الوسيط نفسه بالإدماج. إنه يعرف نفسه من خلال معارضة نفسه بنفسه: وضع ختم كيّاً على جلود الهامشيين، فحكم على المتشرد والمجرم بالنفي، وأرسلا إلى العمل الشاق على متن السفن.

مؤشر على تحولات مجتمع

إن هذه المقاربة المعتمدة في تناول تاريخ غير مسبوق للهوامش أو تاريخ متجدد للمركز تقدم مساهمة أساسية لتاريخ كلي في طور البناء، لأنها ترسل باستمرار بمؤرخ المركز إلى الأطراف، ومن الأطراف إلى قلب موضوعه. لكن تبرز أيضاً من خلال الخطابات والممارسات المتعلقة بالهامشية وبالإقصاء، خاصة تحولات البنى الاقتصادية والاجتماعية والأيديولوجية الأكثر جوهرية. ويعود الفضل الكبير إلى برونيسلاف غيريميك الذي كان أول من ربط بين تعدد المجموعات الهامشية في أوروبا الغربية في أواخر العصر الوسيط و«أزمة النظام الفيودالي» التي شملت كل شيء في الوقت نفسه: الاقتصاد الريفي وسوق الشغل الحضرية والطموح الإنجيلي إلى الفقر الاختياري، وله الفضل أيضاً لأنه رأى في ردّ أصحاب السلطة تباشير «التراكم البدائي لرأس المال»: إن مطاردة المتسولين القادرين على العمل، ثم حبسهم، كان يهدف إلى الضغط على الأجور عندما تقل اليد العاملة من أجل الحفاظ على أرباح الأسياد وتخليص الشارع من كل العاطلين في فترات انخفاض الأجور من أجل صيانة النظام الاجتماعي. إن الأسباب نفسها تؤدي إلى النتائج نفسها: عندما خرجت أوروبا الشرقية من عصر «القنانة الثاني»، وعرفت بدورها تطور علاقات الإنتاج الرأسمالية، كانت التدابير المتبعة مطابقة لتلك التي عرفتها أوروبا الغربية منذ زمن بعيد. وكان المجتمع الغربي الذي نراه في الفترة الحديثة أكثر إقصاء من أي وقت كان، في تحول عميق: أصبحت قيمة العمل المعيار الأساسي في تحديد «عدم الصلوحية» الاجتماعية في عالم كانت فيه «بيوت العمل» نواة المصانع الأولى.

سيكون للفترة المعاصرة مرفوضوها الخاصين بها، ولكنهم لن

يكونوا جميعاً جداً: إن الخاصية الأكثر أهمية تقريباً بالنسبة إلى تاريخ الهامشية والإقصاء هي أنها أيضاً «حفر في معرفتنا» وقيم ورفض في مجتمعنا نحن.

تـــاريـــخ الـمـتـخـيَّـل

إفلين باتلاجين(*)

يتكون مجال المتخيّل من جملة التمثلات التي تفيض على الحدّ الذي وضعته الملاحظات الناتجة من التجارب، ومن تسلسل الاستنباطات التي تسمح له هذه الملاحظات بالوجود. وهذا يعني أن كل ثقافة لها متخيلها ومن خلالها كل مجتمع، وربما كل مستوى من مستويات مجتمع مركب، له متخيله. وبلغة أخرى، يبدو الحدّ الفاصل بين الواقع والمتخيّل متغيّراً، ولكن يظل الفضاء الذي يمر عبره هذا الحد الفاصل دائماً هو نفسه، ما دام يمثل حقل التجربة الإنسانية بأكملها، انطلاقاً مما هو جماعي على المستوى الاجتماعي

(*) إفلين باتلاجين (Evelyne Patlagean) من مواليد سنة 1932. أستاذة تعليم عال في جامعة باريس العاشرة ـ نانتار (Nanterre). نشرت بالخصوص: Evelyne Patlagean: *Pauvreté économique et pauvreté sociale à Byzance, 4e-7e siècles*, civilisations et sociétés; 48 (Paris: E. H. E. S. S.; La Haye: Mouton, 1977), et *Structure sociale, famille, chrétienté à Byzance, IVe-XIe siècle*, Variorum Reprints. Collected Studies Series; 134 (London: Variorum Reprints, 1981).

تعاونت كثيراً مع **الحوليات**. تهتم بحوثها الحالية بالتاريخ الاجتماعي والسياسي والديني في بيزنطة بين القرنين العاشر والثاني عشر بهدف دمجه في تاريخ المسيحي العام في تلك الفترة.

إلى ما هو شخصي بصورة عميقة: التطلع نحو آفاق قصيّة، في المكان والزمان، من مجالات غير قابلة للتعرّف، والأصول الأولى للناس والأمم، والخوف الذي تحدثه المجاهل المقلقة للمستقبل وللحاضر، والوعي بالجسد المعيش، والاهتمام المتعلق بحركات النفس العفوية، كالأحلام مثلاً، والتساؤل حول الموت، والتناسق بين الرغبة وكبحها، والقهر الاجتماعي الذي يؤدي إلى الهروب أو إلى الرفض عبر الروايات المثالية التي تقرأ أو تسمع، وبالصورة، كما باللعب وبالفنون والاحتفالات والفرجة.

ويتبع ذلك، إذا أردنا أن نعرف متخيّل المجتمعات البعيدة عنا في الزمان، أو كذلك في المجال، من خلال هذه المواضيع، أن لا نحيد عن الخط الذي يفصل الواقع عن المتخيّل بصورة مضبوطة، لأنه يمر في ثقافتنا الخاصة بنا.

المتخيل بوصفه موضوعاً تاريخياً

إنه تناقض يعسر حله، ولكن علينا أن نكون على الأقل واعين به. لم يصبح متخيل المجتمعات الأوروبية الماضي بوصفه موضوعاً تاريخياً إلا حديثاً. لقد اعتبرته الفترات الوسيطة والحديثة تواصلاً حياً ودائماً وخاماً ومكتوماً في الوقت نفسه ضمن ثقافة تلك الفترات، وذلك بحسب المواضيع وبحسب الأوساط. لقد اتسع التباعد التاريخي مع عصر الأنوار الذي سلب الإرث العتيق، ومع ظهور الرومانسية التي استقامت تلبية للذوق الجمالي والتقوى الوطنية، ومع العلوم التي أنهت القرن التاسع عشر وافتتحت القرن العشرين، وقد كانت على الغالب وضعية أو على الأقل مبنية بصورة ضمنية على تراتب الثقافات ارتباطاً بفكرة التقدم. وكانت الثورة الكوبرنيكية قد بدأت تتشكل، وكان عليها أن تدفع طيلة العقود اللاحقة نحو ازدهار

هائل ومقترن بالعلوم الإنسانية والتاريخ. وكل هذه العلوم قبلت بترتيب الثقافات الماضية والحاضرة بصفة كلّية، ولكن من دون تفاضل، وحدّدت لنفسها هدف الإدراك الكلي للإنسان بوصفه كائناً اجتماعي وبوصفه فرداً. وبهذه الطريقة، فتح حقل المتخيّل الماضي على مصراعيه أمام الدراسات التاريخية، وهي التي تستمع إلى كل العلوم الإنسانية، مثل الأنثروبولوجيا والتحليل النفسي من دون أن تتخلى عن طرح أسئلتها المميزة: كيف تعتمد مقاربات هذه العلوم بالنسبة إلى مادة بعيدة في الزمان وفي المكان؟ وكيف تفسّر أن هذا المجتمع أو ذاك راكم ما أمكن من المادة المتخيّلة، وكيف يمكن التعبير في ما بعد عن التغيّرات التي عرفتها هذه المادة؟ إنها أسئلة شاسعة وليست قابلة للمعالجة هنا، بما أنها ببساطة تمسّ في الوقت نفسه تلك الحقول التي تجاور التاريخ تقليدياً، مثل «تاريخ الأديان» و«تاريخ الأدب» و«تاريخ الفن». إننا لا نتحاشى تجاوز حدودها، والتي هي تقريبا في طور المراجعة، ولكن يكون ذلك من دون توغل في بحوثها المميزة.

البحوث الأولى

فتحت أعمال ميشليه الطريق في هذا الميدان، كما في غيره من الميادين الأخرى، بوضوح خاص. لقد كان منتبهاً للحركات التي تعتمل في أعماق «الشعب العجوز في فرنسا» وهو بطل أعماله[1]. كان يشعر (وربما أكثر مما كان يتفهم) بالتحمس الذي دفع بجموع البسطاء على دروب الحروب الصليبية، أو بالآمال التي علقت على

---

(1) Jules Michelet, *Oeuvres complètes de Michelet. 4.1, histoire de France. Livres I-IV*, éditées par Paul Viallaneix; préface par Jacques Le Goff; examen des remaniaments du texte de 1833 à travers les rééditions par Robert Casanova (Paris: Flammarion, 1974),

انظر: «Michelet,» *L'Arc*, no. 52 (1973).

الألفية. لقد ألمّ بنظرته الثاقبة للطبيعة بشخصية الساحرة وأنوثتها وحياتها التي خصها بكتاب (سنة 1862)[2]. ونشير بعده إلى التطابق الذي بينه عمل جايمس فرايزر (James Frazer) في منعطف القرن بين الأسطورة والطقوس في الفترة القديمة الكلاسيكية وعند الشعوب التي تنعت بالتوحش. إن كتابه الذي جاء تحت عنوان: **غصن الذهب**[3] لا يحتوي على تاريخ بالمعنى الزمني للكلمة، وهذا واحد من عيوبه، ولكنه يحتوي على جهد في التحليل المقارن بصفة كلية، وهو ما جعل منه عملاً رائداً وأعطاه صدى كبيراً. لقد كانت الفترة الزاهية في «تاريخ الديانات»، فنذكر مثلاً البحوث المتفوقة للبلجيكي فرانتز كومون (Franz Cumont) حول الطريقة التي كان الناس يتصورون بها الخلود السعيد والمسالك التي تؤدي إليه في العهد الروماني، تحت تأثير الحكمة والطقوس الآتية من الشرق[4].

تعتبر الفترة الخصبة لما بين الحربين هي البداية الحقيقية للبحوث التي نراها اليوم بصدد الإنجاز، إذ يجد المتخيّل مكانه فيها ضمن تاريخ الذهنيات، ويتجلّى من خلال هذه البحوث عالم الآخرة بالنسبة

---

(2) يمكن الرجوع إلى الدراسة النفسية التي قام بها: Besançon, Alain, «Le Premier livre de la sorcière,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 26, no. 1 (janvier-février 1971), pp. 186-204.

(3) James Frazer: *The Golden Bough: A Study in Magic and Religion*, 13 vols. (London: Macmillan, 1911-1915), et *Le Rameau d'or*, éd. abrégée, nouvelle traduction par Lady Frazer (Paris: P. Geuthner, [1924]).

(4) Franz Cumont: *Les Réligions orientales dans le paganisme romain: Conférences faites au collège de France en 1905*, annales du musée Guimet. Bibliothèque de vulgarisation; t. 24 (Paris: Ed. Leroux, 1906), 4ème éd. revue, illustrée et annotée (Paris: P. Geuthner, 1929); *Recherches sur le symbolisme funéraire des Romains*, bibliothèque archéologique et historique; 35 (Paris: P. Geuthner, 1942), et *Lux Perpetua* (Paris: P. Geuthner, 1949).

إلى إنسان العصر الوسيط عند مارك بلوخ،[5] وتمثل عالم المعاصرين لرابليه عند لوسيان فافر[6]. ويصبح بالخصوص متخيّل عصر، في إطاره الذهني والثقافي والاجتماعي، موضوعاً أساسياً في تاريخ الفن الذي تنفرد به البحوث التي سنذكرها في ما سيلي، مثل بحوث إميل مال (Emile Mâle) وهنري فوسيون (Henri Focillon) العظيم.

شهادات عديدة عن متخيل المجتمعات الماضية

تبدو الإيقونوغرافيا أهم الشواهد الواضحة عن متخيل المجتمعات الماضية. ولكن لهذا المتخيل شواهد أخرى: المكتوب الذي ينتج مباشرة كما هو، وأقصد بذلك المؤلف كما دوّنه صاحبه، وكذلك المكتوب بوصفه دليلاً على خطاب ماض، أو تحقيق أمام محكمة تفتيش، أو حيثيات وصية كتبت أمام العدول، وحصاد قديم أو حديث متبلور إلى حد ما لتقاليد شعب أو جهة أو وسط اجتماعي، أو على الأقل الخطاب الذي لا يزال حياً لتقاليد شفوية ولممارسات معاصرة. إن مثل هذه المادة تقدم للمؤرخين كثيراً من الخيارات: اختيار نوع من الوثائق وجرد محتوياتها أو محتويات البعض منها: رسوم الحيوانات العجيبة من خلال المنحوتات الوسيطية، الموت والآخرة في الكنائس المزخرفة في منطقة البروفانس، أو التوقف عند موضوع ما وتتبعه من

(5) Marc Bloch, *La Société féodale: La Formation des liens de dépendance*, l'évolution de l'humanité. Synthèse collective; 34, [avant-propos de Henri Berr. 2e mille] (Paris: Albin Michel, 1939), rééd. 1968, et «La Vie d'outre-tombe du roi Salomon,» (1925), dans: *Mélanges historiques* (Paris: [s. n.], 1903), t. II, pp. 920-938.

(6) Lucien Febvre, *Le Problème de l'incroyance au XVIe siècle: La Réligion de Rabelais*, l'évolution de l'humanité, synthèse collective; 53 (Paris: Albin Michel, 1942).

خلال مختلف الوثائق في الفترة المحددة له: مثل الموت في أواخر العصر الوسيط أو القيام بجرد للمواضيع المختلفة في فترة معينة مثل «خريف العصر الوسيط»، وأخيراً ترك مجال لمتخيل المجتمع ضمن دراسة شمولية، مثل عالم سكان قرية في منطقة الأرياج العليا (Haute Ariège) وكيف يحدد هؤلاء قريتهم ويتصورون أنفسهم في أواخر القرن الرابع عشر. في كل الحالات تطرح مسألة التحقيب: يجب التأكد من أن الانقطاعات المعتادة تؤطر الموضوع جيداً أو يجب اقتراح تحقيب خاص في ضوء البحث ونتائجه.

إن تحديد بداية ونهاية الإطار الزمني المفروضين على التطور التاريخي هو أمر أساسي، فهو سيكون الخط الذي يقود تقديمنا للبحث. سنرى عند ذلك أن بحوث تاريخ المتخيّل لا تزال إلى هذا اليوم غير متكافئة، وخاصة مختلفة، وذلك بالنسبة إلى الفترات الأربع التي تنكل بتاريخ القارة العجوز من خلال التقسيم البيداغوجي للتاريخ. وهذا ناتج، من غير شك، من اختلاف في نوعية الوثائق وفي عادات الفكر واختلاف المدارس، وحتى اختلاف شخصية الباحثين أنفسهم. إلا أنه وأعمق من ذلك، يكشف لنا توجهنا، وهو توجه تاريخي في عمقه، من ناحية عن الأمد الطويل لمواضيع أوروبية، مثل الساحرة أو الإنسانية الغرائبية، ومن ناحية أخرى يكشف لنا عن تسلسل لحقول عديدة داخل الموضوع الواحد، وعن أدوات نقل المتخيل عبر الأزمنة والأمكنة، ويكشف في النهاية عن الأهمية الحاسمة التي كان يمثلها حدّ وحيد هو انتشار المسيحية داخل المجتمعات الأوروبية.

العصر القديم الإغريقي والروماني

إن تاريخنا القديم هو تاريخ مزدوج، وله وجهان: وجه

إغريقي، ووجه روماني. تقدم بلاد الإغريق تعبيراً أسطورياً كثير الثراء، وهو تفسير للمجتمع ولطقوسه، وذلك ضمن تاريخ يعتبر ميلاد المدينة وتنظيماتها وثقافتها وانتشارها في شكل مستعمرات، هو أرقى فتراته. لقد شعر بعض الباحثين مثل هـ. هوبار (H. Hubert) بوضوح أن دراسة هذه المجموعة الثقافية يمكن أن تسحب بعض الأعمال من عالم الأنثروبولوجيا المعاصرة التي كانت جزءاً من علم الاجتماع، والتي كان رائدها مارسيل موص[7]. ولكن يرجع الفضل إلى جان بيار فرنان (Jean-Pierre Vernant) وبيار فيدال ناكيه (Pierre Vidal-Naquet) ومارسيل ديتيان (Marcel Detienne) في الحصول على نتائج من خلال هذا التقارب المنهجي مع علم يقترح من خلاله كلود ليفي شتراوس نموذجاً للتحليل المتزامن للأساطير وممارسة الطقوس[8]. وتطلق على هذا التحليل صفة البنيوي، لأنه محدّد لمحاولة الفهم الكلي والتوافق بين أدوار الأساطير وأوقات طقوسها وممارساتها، وبين المواقع والعلاقات التي توجد بين شخوص الأساطير والمعطيات الثقافية أو الاجتماعية التي هي في واقع الأمر الأرضية الأولى للبناء بأكمله.

دخل مارسيل ديتيان بصورة جذرية في تحليل من هذا النوع[9]، انتظمت في ضوئه معطيات أسطورية وطقوسية «كما لو أنها كانت

---

(7) انظر على سبيل المثال: Henri Hubert et Marcel Mauss, *Mélanges d'histoire des réligions*, bibliothèque de philosophie contemporaine (Paris: F. Alcan, 1909), notamment l'essai «sur la nature des fonctions du sacrifice».

(8) Claude Lévi-Strauss: «La Structure des mythes,» dans: *Anthropologie structurale deux* (Paris: Plon, 1973), pp. 227-255 et la série des «mythologiques» commencée par: *Le Cru et le cuit* ([Paris]: Plon, [1964]).

(9) انظر في آخر الأمر إعلانه المنهجي: Marcel Detienne, *Dionysos mis à mort*, les essais; 195 ([Paris]: Gallimard, 1977),

(«لم يكن الإغريقيون كغيرهم من الناس»).

منظمة في أقاصيص عجيبة وروايات غريبة يبدو من خلالها بوضوح أن الإغريق اكتشفوا الحروف التي اعتمدوها للحديث عن العالم».
ومثل هذا التمشي هو الذي يعطي مثلاً معنى **حدائق أدونيس**[10].
هكذا نسمي النباتات الهشّة المزروعة في المحابس، والتي تعرضها النسوة غضة للفح الشمس فوق السطوح كلما تمتعن بالحرية لتخليد ذكرى وفاة الصياد الجميل الذي تحبه أفروديت (Aphrodite). لكن أدونيس مرتبط من خلال ولادته بنبتة الصبار التي لها مكان في منظومة نباتية رمزية، حيث الروائح العطرة والجافة والحبوب ونضارة العشب الرطبة موضوعة فوق سلم من القيم يوافق سلم المنظومة الاجتماعية (التعفف/ الزواج/ الاختلاط بين الجنسين) والدينية (الإمساك عن أكل اللحوم/ التضحية/ الاستهلاك المتوحش). لقد سمحت قراءة هذا التقنين الثلاثي لنظام واحد من القيم لمارسيل ديتيان أن يجد من الناحية التاريخية أن بلاد الإغريق وجدت الجواب لمشكلة أي مجتمع يتساءل عن موقعه ما بين الطبيعة وما فوق الطبيعة.

ساهم جان بيار فرنان بدوره في تاريخ الفكر الإغريقي بأن بيّن أنه إذا مرّ الفكر الإغريقي فعلياً، مع نهاية القرن السادس، من الأسطورة إلى العقل المفكّر، فإن ذلك تم في مستوى الفيزياء الأيونية مثلاً، فهي تمش محدّد تاريخياً، تتمثل في علمنة الفكر الأسطوري السابق، وليس في نشأة عقل لازمني مزعوم ونفع لا رجعة فيه لـ «معجزة إغريقية» مزعومة. وفي الوقت نفسه، وهو زمن بدايات المدينة، حلّ الفيلسوف محل الحكيم الملهم الذي له القدرة

(10) Marcel Detienne, *Les Jardins d'Adonis*, bibliothèque des histoires, introd. de J.- P. Vernant ([Paris]: Gallimard, [1972]).

على علم الغيب[11]. لقد اهتم فرنان مثل بيار فيدال ناكيه بنشأة المدينة الإغريقية وسيرها وبالمثال الأثيني الذي لا يضاهي ثراءه أي ثراء. لقد كشفت تحاليلهما للأساطير عن عناصر من التاريخ السياسي: الظروف الملزمة للمرأة[12]، أو طقوس العبور من سن الشباب إلى سنّ الكهولة[13]، ونشأة التراجيديا، وميلاد الكاتب التراجيدي الذي يعتمد الخرافات القديمة ليقدّم من خلالها إلى جمهور المدينة نقاشات قانونية أو أخلاقية يظل أبطالها خارج المجموعة المدنية أو سابقين لها، في حين تعبّر هي عن رأيها من خلال الجوقة المصاحبة[14]، وحتى التعبير الجميل عن الفلسفة الأفلاطونية يكون ضمن هذه التراجيديا[15].

---

(11) Jean Pierre Vernant, *Mythe et pensée chez les grecs: Etudes de psychologie historique*, les textes à l'appui; 13 (Paris: F. Maspero, 1965).

(12) «Hestia-Hermès sur l'expression réligieuse de l'espace et du mouvement chez les grecs,» dans: Vernant, Ibid., et Pierre Vidal-Naquet, «Esclavage et gynécocratie dans la tradition, le mythe, l'utopie,» dans: *Recherches sur les structures sociales de l'antiquité classique: Caen, 25-26 avril 1969*, colloques internationaux du centre national de la recherche scientifique. Sciences humaines (Paris: Editions du centre national de la recherche scientifique, 1970).

(13) Pierre Vidal-Naquet, «Le Chasseur noir et l'origine de l'éphébie athénienne,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 23, no. 5 (1968), pp. 947-964.

(14) Jean Pierre Vernant et Pierre Vidal Naquet, *Mythe et tragédie en Grèce ancienne*, textes à l'appui. Histoire classique (Paris: F. Maspero, 1972), notamment Vernant, «Le Moment historique de la tragédie en Grèce: Quelques conditions sociales et psychologiques,» pp. 11-17.

(15) Pierre Vidal-Naquet, «Athènes et l'atlantide. Structure et signification d'un mythe platonicien,» *Revue des études grecques*, t. 77 (1964), pp. 420-444.

أما من جهة روما، فتدور الأعمال الضخمة لجورج دوميزيل منذ سنوات حول أساطير التأصيل، وذلك قبل بروز أعمال ليفي شتراوس[16]. وبصورة أصح وأوسع، فقد استكشف دوميزيل الكنز الأسطوري الضخم الذي هو الإرث المشترك للشعوب المسماة بالهند ـ أوروبية من إسكنديناڤيا إلى الهند، ومن إيرلندا إلى روما، ومن جرمانيا إلى بلاد الإغريق. ترى قراءته الأولى أن أساطير المجتمعات الهند ـ أوروبية تحيل على بنية تعبّر من خلالها هذه المجتمعات عن ذاتها بتراتبية الوظائف الثلاثة: الوساطة المقدسة، والحماس الحربي، والخصوبة الفاعلة، وأن آلهة وأبطال الهند ـ أوروبيين ومغامراتهم ليست إلا تجسيداً لذلك التقسيم الثلاثي الأساسي. ولكن هذا التجسيدات، وإن كانت متطابقة في العمق، قد تكتسي أشكالاً مختلفة بحسب المجتمعات وبحسب الفترات: الملحمة في الهند (Mahabharata)، وتاريخ الأصول الأولى في روما القديمة، والتي بقيت منها رواية «تيت ـ لايف». وفي إسكنديناڤيا في العصر الوسيط كتب ساكسو غراماتيكوس (Saxo Grammaticus) تاريخ الملوك الأوائل[17]، وفي النهاية رواية جزئية

---

(16) انظر حول العلاقة بين المقاربين: Pierre Smith et Dan Sperber, «Mythologiques de Georges Dumézil,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 26, nos. 3-4 (1971), pp. 559-586.

(17) يمكن أن نورد، من بين التعابير الحديثة: Georges Dumézil, *Mythe et épopée*, bibliothèque des sciences humaines, 3 vols. ([Paris]: Gallimard, 1968-1973), vol. 1: *L'Idéologie des trois fonctions dans les épopées des peuples indo-européens*, vol. 2: *Types épiques indo-européens: Un Héros, un sorcier, un roi*, vol. 3: *Histoires romaines*.

من مبينوجيون بلاد الغال (Mabinogion gallois) ما دامت الرواية أصبحت هدفاً في حدّ ذاتها أو ربما فولكلوراً أيضاً[18].

اعتناق المسيحية يفتح عصراً جديداً

فتح دخول المسيحية في الثقافة الأوروبية ميداناً مختلفاً في تاريخ المتخيّل، حتى وإن ظل الاهتمام بالبحث عن تواصل عميق تحت الدين الجديد، وهذا ما نجده في أعمال دي مارتينو (Dimartino) وكارو باروجا (Caro Baroja) وميخائيل باختين أو لوغوف التي سنذكرها في ما سيأتي. إن ضرورة القيام بمثل هذه البحوث الصعبة من حيث التبحر العلمي الذي تتطلبه لا يشعر بها الباحث دائماً، على رغم أن تاريخ الديانات[19] والفولكلور[20] يهتمان بها منذ بداية القرن في إطار المشاريع النقدية والجدلية في تلك الفترة. وهي تبقى اليوم، وهو أقل ما يمكن أن يقال، توجّهاً مفتوحاً، ومن أكثر التوجّهات وعوداً.

---

(18) Ajouter Georges Dumézil, *Du Mythe au roman: La Saga de Hadingus (Saxo Grammaticus, I, v-viii) et autres essais*, collection hier (Paris: Presses universitaires de France, 1970).

(19) Arturo Graf, *Miti, leggende e superstizioni del Medio eve*, 2 vols. (Torino: E. Loesches, 1892-1893); réimpr. (Bologna: Faini, 1964), et Burt Franklin Research and Source Works Series; 858 (New York: B. Franklin, 1971). Autour du culte des Saints, Pierre Saintyves, *Les Saints, successeurs des dieux: Essais de mythologie chrétienne* (Paris: E. Naurry, 1907); et surtout, Ernst Lucius, *Die anfange des heiligenkults in der christlichen kirche*, Herausgegeben von Gustav Anrich (Tübingen: Mohr, 1904),

الترجمة الفرنسية: *Les Origines du culte des saints dans l'église chrétienne*, traduit par Emile Jeanmaire; préface de P. Lobstein (Paris: Fischbacher, 1908).

(20) انظر: Nicole Belmont, *Mythe et croyances dans l'ancienne France*, questions d'histoire; 35 (Paris: Flammarion, [1973]).

صحيح أيضاً أنه إذا كانت مواضيع كموضوع الساحرة أو روزنامة الأعياد تعبِّر عن تواصل بديهي، فإن المسيحية تفتتح على الأقل عصراً جديداً للتمثلات الاجتماعية الكبرى في النظام الأوروبي، إذ تتأسس علاقات خاصة بين آخرة الأموات ومجهول الأحياء، وكذلك الإنسان بجسده. وتعبِّر الثقافات المسيحية، زيادة على ذلك، عن تواصل داخلي بديهي في ميدان المتخيّل، أو في غيره، عبر فترات توجد فيها كتلة وثائقية ثرية منقطعة النظير. في الأخير، وهذا أمر أساسي، وجد المؤرخون المعنيون بذلك أنفسهم آنذاك أمام مصادر مغمورة بعيداً عن ثقافتهم.

دراسة العصر الوسيط

لقد أثبتت أهم الأعمال في العقود الأخيرة، سواء تعلق الأمر بمحتوى التمثلات أو بوسائل نقلها، وكذلك بالملفات الخاصة، في فترات الذروة أو في الأمد الطويل، إلى أي حدّ يكشف تطور تاريخ منظومة المتخيّل عن التاريخ الاجتماعي في حدّ ذاته، والذي أصبحت نماذجه وتمثلاته أسباباً هي بدورها. ويظل العصر الوسيط المهد بما يسمح بمشاهدته قبل كل شيء. هناك ثلاثة مؤرخين أرادوا أن يتابعوا مسيرته الكاملة: لقد انطلق إميل مال وهنري فوسيون من التعابير المرئية، بينما انطلق جورج دوبي من النصوص.

وقد وضع هنري فوسيون، منذ أربعين سنة، المبادئ التي هي اليوم مبادئ التحليل البنيوي من خلال «كتاب التاريخ الذي خصصه لفن الغرب الوسيط، وهو دراسة في العلاقات بين الأحداث والأفكار والأشكال، التي هي علاقات مختلفة من عصر إلى عصر ومن مصر إلى مصر»[21]. وهو بذلك يقف ضد الترتيب التقليدي لعناصر

(21) Henri Focillon, *Art d'occident: Le Moyen âge roman et gothique* (Paris: Armand Colin, 1938).

التاريخ، مبيّناً أنه «لا يمكن أن ينظر إلى الأشكال بوصفها مجرد زينة»، وأن «فن العصر الوسيط ليس تعقيداً طبيعياً ولا تعبيراً سلبياً للمجتمع، فهو بذلك قد صنع العصر الوسيط ذاته إلى حدّ بعيد». ثم أدرك «الشكل السائد» من خلال نظام الأشكال، والمحبذ في عصر من العصور، والمحدّد إذن لأن تكون كل الأشكال الأخرى وكل الصور مجبرة على التناسق مع الفضاء الذي يحتله الشكل السائد. ومن الفضاءات الضخمة للعمارة الرومانية والقوطية إلى المساحات المرسومة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، تكوّن الأشكال والصور خطاباً مرئياً لفترات متتالية من تاريخ المجتمع الوسيطي. وقد قاد جورج دوبي تمشياً بنيوياً في اتجاه معاكس في دراسته: **الفن والمجتمع من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر**[22]، فتناول الموضوع في ثلاثة مستويات: عالم اجتماعي لأشكال سياسية موحية للأشكال الثقافية، وعالم متخيل يعكس المجتمع من خلاله واقعه وعدم رضاه، وبينهما وساطة الفن بأشكاله ومواضيعه.

ثقافة عالمة وثقافة شعبية

شدّت بعض الأقطاب الانتباه داخل هذا المجال الوسيطي، وأولها مسار انتشار المسيحية نفسه. لقد ركّز جاك لوغوف من خلال مجمل أعماله على البديل بين الثقافة العالمة وثقافة العامة، والجدلية الثقافية بين رجال الدين والعامة طيلة العصر الوسيط المتقدم، متخذاً ذلك غربالاً لموروث أزلي[23]، كما بيّنه جورج دوبي حول سنة

(22) Georges Duby, *Le Temps des cathédrales: L'Art et la société, 980-1420*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1976).

(23) Jacques Le Goff: «Culture cléricale et traditions folkloriques dans la civilisation mérovingienne,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 22 (1967); «Culture ecclésiastique et culture folklorique au moyen âge,» dans: *Pour un* =

ألف[24]، وهو يعتمل في العلاقات التي ربطها الناس في ذلك العصر بين ما يرى وما لا يرى: من ذلك «حضور الأموات»، وقرب المسافة بين القديس والشيطان، وقدرة الملوك على صنع المعجزات، وفعالية الآثار المقدسة، ولكن أيضاً الإسقاط الكنسي للمجتمع في العالم السفلي في الأنظمة الثلاثة للقدس السماوية، والاندهاش الحالك لنهاية العالم ويوم الحساب. والتبادل نفسه يوجد في سير القديسين، وهي حظيرة شاسعة مفتوحة حالياً للعديد من البحوث، وهي تمثل أدبيات، لا حصر لها، تجمّعت فيها، وفي الوقت نفسه في كل جهات العالم، لمّا كان هذا العالم مسيحياً خلال الألفية الأولى، وهي أيضاً مجموعة من الشهادات المتعلقة بمعيش المجتمعات ومستوياتها الاجتماعية، وكنز لمتخيّلهم الذي توجد فيه، جنباً إلى جنب، حكايات قديمة وحلقات كراماتية وعجيبة أو نموذجية تهدف إلى شحذ العقيدة وتهدئة مخاوف الناس[25].

إن ثقافة العامة والثقافة العالمة تتحكّمان أيضاً، وبصورة أخرى، عند منعطف القرنين الرابع عشر والخامس عشر، في اعتقادات سكان

= *autre moyen âge: Temps, travail et culture en occident: 18 essais*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, [1977]), pp. 223-235 et 236-279, et *La Civilisation de l'occident médiéval*, collection les grandes civilisations; 3 ([Paris]: Arthaud, 1964).

(24) *L'An mil*, coll. «archives»; 30, présenté par Georges Duby ([Paris]: Julliard, 1967).

(25) انظر المصدر نفسه، و: Evelyne Patlagean, «A Byzance: Ancienne hagiographie et histoire sociale,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 23 (1968), pp. 106-126, et la très utile introduction de Sofia Boesch Gajano à son recueil: *Agiografia altomedioevale*, serie de storia (Bologne: Il Mulino, [1976]), pp. 7-48.

قرية مونتايو في منطقة الأرياج العليا التي درسها إمانويل لو روا لادوري انطلاقاً من ملف من ملفات محاكم التفتيش، وهو ملف ثري بصورة استثنائية[26]. إن حضور الشيطان الذي ما زالت الساحرة لم ترتبط به بعد، وحضور الجنّ وقرب الأموات الذين ينطقهم الناس وطوافهم بالأحياء من دون جحيم ومن دون مطهرة للذنوب حتى مثواهم الأخير، هي شهادة على وجود حالة قديمة من معتقدات العامة مآلها التجاوز في المستقبل، في حين تعبّر أفكار أهل مونتايو حول مسألة التقمّص والأساطير المنقولة عن الحيوانات كالحصان أو العظاية، عن التحول الريفي المتأخر للحركة الكثرية.

مهارب المتخيّل المختلفة في العصر الوسيط

تمثل المسيحية التي يتواصل انتشارها في الأطراف غير المرئية للعالم منذ البداية إلى بداية الحداثة، ويشمل ذلك السلم الاجتماعي - الثقافي من أعلاه إلى أدناه، في جملتها اتجاهاً رئيسياً في تاريخ المتخيّل الوسيطي. ولكن هذا الأخير يعطي كثيراً من التواصلات والإثراءات الأخرى.

يجب عدم الظن، من خلال صورة الشعوب الغريبة والبعيدة، ومن نظرة أولى، أن الغرب منطو على ذاته، فهو قد أطال رحلاته الحقيقية بما أوتي إليه من قصص خيالية: رسوم الحيوانات الغريبة على العمارة التي وضح يورغيس بالتروزايتيس[27] (J. Baltruzaitis) مصادرها الشرقية؛ إنه أفق حالم بالمحيط الهندي فكّ جاك لوغوف

---

(26) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Montaillou: Village occiton de 1294 à 1324*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1975).

(27) Jurgis Baltrušaitis, *Le Moyen âge fantastique: Antiquités et exotismes dans l'art gothique*, collection Henri Focillon; 3 (Paris: Armand Colin, 1955).

من خلال «عجائبه»، أحلام وتصورات وقراءات أجيال من الناس[28]، فهو أفق قريب، ولكنه أيضاً مشوب بالتوحش[29]. وعلى العكس من ذلك، فهو أفق أخروي، وهو أفق يوم الحساب[30] والأرض المقدسة الموعودة[31]، والجنة المفقودة أو التي أعيد اكتشافها[32]، وهو أيضاً عالم بناء رحب وأسطوري لهرطقات العصر الوسيط[33].

هناك أيضاً الهروب الداخلي عبر الأدب إلى ما هو مرغوب فيه، وإلى ما هو مفقود، وهو ما يعتبر شهادة بلغة الصور عن حقيقة الوضعيات التاريخية وتطوراتها. كتب إيريك كوهلر (Eric Köhler) في هذا الاتجاه كتاباً نموذجياً خاصاً بأقاصيص الملك آرثور. لقد بيّن

---

(28) Jacques Le Goff, «L'Occident médiéval et l'océan indien, un horizon onirique» (1970) dans: *Pour un autre moyen âge: Temps, travail et culture en occident: 18 essais*, pp. 280-298.

(29) Jacques Le Goff et Pierre Vidal-Naquet, «Lévi-Strauss en Brocéliande: Esquisse pour une analyse d'un roman courtois (Yvain de Chétien de Troyes),» *Critique*, no. 325 (juin 1974), pp. 541-571.

(30) انظر: Henri Focillon, «Le Problème des terreurs,» dans: *L'An mil*, collection Henri Focillon; 2 (Paris: Armand Colin, 1952), pp. 39-64.

(31) Paul Alphandéry, *La Chrétienté et l'idée de croisade. Cours professé à l'école pratique des hautes études*, l'évolution de l'humanité, synthèse collective, 2. sect.; 38, texte établi par Alphonse Dupront, 3 vols. (Paris: Albin Michel, 1954-1959).

(32) انظر: Arturo Graf, «Il mito del Paradiso terrestre,» dans: *Miti, leggende e superstizioni del Medio eve*, 1964, et 1971, pp. 1-238.

(33) انظر: *Hérésies et sociétés dans l'europe pré-indusrielle, 11e-18e siècles: Comunications et débats du colloque de Royaumont, [27-30 mai 1962]*, civilisations et sociétés; 10, présentées par Jacques Le Goff (Paris; La Haye: Mouton, 1968), avec une imporbibliographie élaborée par H. Grundmann.

من خلاله كيف أن الأقاصيص التي كتبها كريتيان دو تروي (Chrétien de Troyes) تحدّد موقع الفرسانية الفرنسية في التاريخ السياسي، وتعبّر عن عدم رضاها وعن تساميها. وتخضع ملكية آرثور لمثل فيودالي يتعارض مع الملكية الفرنسية، ويتعالى على الاختلافات الاجتماعية العميقة التي تشق طبقة النبلاء وتنتهي في مهمة أخروية. تبدّل «المغامرة» مجموعة النبلاء الصغار، غير الواضحة في الواقع، إلى قيمة فرسانية بامتياز ينخرط فيها كبار الفيوداليين لمجابهة تهديد الملكية والبورجوازية. ويرى كوهلر في النهاية أن الحب العذري يثبت قطيعة تحدد القرن الثاني عشر بدايةً للحداثة، لأنها أخرجت الفرد من الاستقرار التراتبي القديم[34].

فيض المتخيّل في أواخر العصر الوسيط

لاحظنا عند نهاية الفترة مختلف المسالك التي فتحتها حداثة العصر الوسيط المنتهي، المعبّرة والمعقدة، أمام متخيل ساطع الثراء. لقد اعتبر فوسيون وفاء لمنهجه قبل كل شيء، أن المجال الذي يقدمه الرسم ويتعامل معه بحرية جديدة لم يكن ممكناً بالنسبة إلى الفضاء المعماري في الفترات السابقة، وبيّن أن الفنانين يستطيعون

(34) Erich Köhler: *Ideal und wirklichkeit in der höfischen Epik, Studien zur Form der frühen Artus - und Graldichtung*, Beihefte zur Zeitschrift für romanische Philosophie; 97. Heft (Tübingen: M. Niemeyer Verlag, 1956), 2. Aufl. (Tübingen: M. Niemeyer Verlag, 1970),

الترجمة الفرنسية: *L'Aventure chevaleresque: Idéal et réalité dans le roman courtois: Etudes sur la forme des plus anciens poèmes d'Arthur et du Graal*, bibliothèque des idées, traduit de la [2ème éd. allemande] par Eliane Kaufholz; préface de Jacques Le Goff ([Paris]: Gallimard, 1974),

انظر أيضاً: Jacques Le Goff, «Naissance du roman historique au XIIe siècle?,» *Nouvelle revue française*, no. 238 (oct. 1972).

ترك المتخيل في ما وراء الحياة اليومية من خلال ما يرسمون: إنه فضاء مخادع ومسرحي يملأ خلفية الصورة: تجسد «المشاهد الحالمة في **ساعات دوق بري**، إلى جانب المشهد الفيودالي والمشهد القروي، أعاجيب الخيال المسيحي»، وتبرز من جديد الأقاصيص البشعة القديمة، وقد تحررت من ضغوطات الاندماج الهندسي القديم في **نهاية سعيدة للعالم** لجيروم بوش.

وقد أخذ البعض الآخر على عاتقه تقديماً أكثر شمولية، فقد خصص الهولندي يوهان هويزنغا منذ 1919، كتاباً لـ **خريف العصر الوسيط**، وقد أكدت إعادة نشره على أهميته الدائمة. وقد بيّن جاك لوغوف في مقدمته بوصفه إضافة رائدة أنه «بيّن أنه يجب البحث عن معنى المجتمع من خلال منظومة تمثلاته، ومن خلال المكانة التي تحتلها هذه التمثلات داخل البنى الاجتماعية وفي «الواقع»[35]. لقد عكف هويزنغا على المجال الفرنسي البورغوني (Bourguignon) والفلامندي (Flamand)، واستفاد مما توفر من المعلومات كقصص الفرسان والشعر الاحتفالي أو الرعوي وإيقونوغرافيا اللوحات الفنية الخاصة للحرفاء النبلاء أو الرسوم الشعبية على الخشب، ومن وصف كل ما لا يمكن أن نراه، كالاحتفالات التي تصاحب الزيارات الأميرية والأعياد ومواكب الأعراس والدفن. ومن دون أن يكرر الاستكشاف الوثائقي، سلّط جورج دوبي[36] ضوءاً ساطعاً على الدوافع النفسية.

(35) Johan Huizinga, *L'Automne du moyen Age*, le regard de l'histoire, traduit du hollandais par J. Bastin, nouvelle éd. précédée d'un entretien avec Jacques Le Goff (Paris: Payot, 1975).

(36) Georges Duby, *Le Temps des cathédrales: L'Art et la société, 980-1420*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1976).

تكشف كل هذه الأعمال عن المواضيع الكبرى التي تكوِّن المتخيّل منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر: تزاحم المخلوقات البشعة الأمارة بالسوء والاستبشار الفظيع بمحفل السبت، وهي تقوم كلها في الوقت نفسه بأنسنة المسيح المصلوب وأمه التي لم تنفك الرسوم والمسرح والطرق الدينية تعبِّر عن حزنها، وتكرره الأدعية وتستعيده الحركة الزهدية، وكذلك تمركز مسألة مطهرة الذنوب والملاك الحارس، واستحواذ فكرة الموت الفردي على الأذهان من خلال التصوير الجنائزي للجثة التي تتحلل أمام سعادة الأحياء، وكذلك الرقص الجنائزي. ولكن يوجد أيضاً فرط شهواني لم يستطع تحريم الكنيسة منعه، وفي النهاية، بحسب تعبير هويزنغا، «مشهد الأحلام» الذي تستأثر به أرستقراطية العصر عندما تقدم من خلال خطبها وسيرها الروايات الفرسانية والروايات الرعوية.

كل ذلك وقع تجميعه خلال مرحلة تاريخية انتقالية تغيب فيها الفيودالية الهرمة، وتولد فيها مواقف حسية ودينية خاصة بالإنسان الحديث. إن مثل هذا الملف الذي وقع استكشافه جيداً، وربما بطريقة مثلى، يطرح بصورة واضحة مشكلة العلاقة بين الواقع الاجتماعي ومنظومة التمثلات التي يجب بناء تاريخ المتخيّل من خلالها.

استشراف الحداثة

ترتبط نظرة الآخرة التي تبنّتها الحداثة مباشرة بسوابق الضمائر المعاصرة. لقد رأينا من خلال أعمال هويزنغا ودوبي كيف ينتقل التركيز من الآخرة في حدّ ذاتها إلى الموت المادي. وقد خصص ألبيرتو تينينتي كتاباً يعالج هذه النقلة مبيّناً من خلاله أن إيقونوغرافيا انتصار الموت في إيطاليا والرقص الجنائزي في مختلف الجهات

توضحها النصوص. كما بيّن أيضاً كيف كانت الطباعة في بداياتها تنشر تجديداً قصيراً، ولكنه قوي، لتمثلات العصر الوسيط من خلال كتب «كيف تموت بطريقة مرضية»، وذلك بتصوير المحتضر، وهو ممدّد بين القوى السماوية والمخلوقات البشعة، وهو موضوع استحوذ على خيال كل الصور(37).

أعطت بحوث أخرى للآخرة الحديثة مكانها في التاريخ الاجتماعي في شكل بنيوي يمكن مقارنته بالذي كان وراء بحوث شبيهة تعلقت بالعصر الوسيط المنتهي. وكان برنار غروتويزن(38) (B. Groethuysen) من أكبر رواد ذلك منذ خمسين سنة خلت، ببحثه الواعد حول نشأة العقل البورجوازي في فرنسا في القرن الثامن عشر، والذي بقي للأسف غير مكتمل. يقول بأن البورجوازية تحررت من الكنيسة لأن ضرورة الاحتياط البورجوازية للمستقبل ولدت فكرة نظام للكون يقبلها الإنسان النزيه بعقله، وأن الله ليس إلا محركاً مجرداً، والإنجيل كتاب وعظ، والنار «وهم أدبي» لم يعد يخيف الناس.

صحيح أننا اليوم نعرف أكثر مما في ذلك الكتاب الذي لا يخلو من خبث جدالي، حول التغيّرات الفكرية والثقافية التي تشكلت في أفق الأبحاث التي سنوردها في ما بعد، كأعمال فوكو وماندرو أو سارتو. إلا أن صورة البورجوازي الذي أصبح غير مؤمن، لم تفقد الدقة التي تعطيها قراءة متسعة ومتطلعة لنصوص العصر، كالمواعظ

---

(37) Alberto Tenenti, *La Vie et la mort à travers l'art du XVe siècle*, cahiers des annales; 8 (Paris: Armand Colin, 1952).

(38) Bernard Groethuysen, *Origines de l'esprit bourgeois en France. 1. L'Eglise et la bourgeoisie*, bibliothèque des idées; 1 (Paris: Gallimard, 1927), rééd. 1977.

بصورة خاصة، في حين أن التقسيم الكلي لمختلف المواقف الثقافية أمام الموت والآخرة قدم ماندرو فيه البورجوازي من جانب، والشعب الدائم الإيمان من الجانب الآخر. ويجب أن يظل الأمر كذلك من أجل السير الطبيعي للمجتمع، وبالقرب من ذلك تعبِّر الكنيسة من خلال اللوحات الفنية المروّعة عن عذاب النار، وهو ما يسطّره الدعاة من خلال وعظهم. وهنا أيضاً نجد بروز العقل البورجوازي نفسه الذي يحلّ الطوباوية الحديثة محل نهاية العالم الوسيطية ضمن تصوّر ضروري لمجتمع مثالي[39].

مواقف أمام الموت في منطقتي أنجو والبروفانس

قدمت بحوث حديثة نظرتين جهويتين لتطور المعتقدات الحديثة الخاصة بالآخرة: منطقة البروفانس لغبريال وميشيل فوفيل[40]، ومنطقة أنجو لفرنسوا لوبران[41].

درس لوبران المواقف أمام المرض والموت بعد الظروف الديمغرافية لهذه الأخيرة. إن الموت يفسر عنف الطلبات التي يوجّهها الناس إلى القديسين الشافين والاهتمام المستراب من السحرة،

(39) انظر: Pierre Francastel, ed., *Utopie et institutions au XVIIIe siècle: Le Pragmatisme des lumières*, congrès et collogues; 4, textes recueillis par Pierre Francastel et suivis d'un essai sur l'esthétique des lumières (Paris: Mouton, 1963), et Frank Edward Manuel, ed., *Utopias and Utopian Thought*, The Daedalus Library; 5 (Boston: Houghton Mifflin, 1966).

(40) Gaby et Michel Vovelle, *Vision de la mort et de l'au-delà en Provence d'après les autels des âmes du purgatoire, XVe-XXe siècles*, cahiers des annales; 29 (Paris: Armand Colin, 1970).

(41) François Lebrun, *Les Hommes et la mort en Anjou aux 17e et 18e siècles: Essai de démographie et de psychologie historiques*, civilisations et sociétés (Paris: Mouton, [1971]).

وبالعلامات التي تسبق الساعة، وخاصة التمثلات المخيفة للآخرة التي تزرع منذ الصغر عن طريق التربية الدينية، والأبجديات التي يتناقلها التصور الشعبي مثل: **يوميات الرعاة** التي اقتفى لوبران آثارها من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر، وأخيراً من خلال وصف المواعظ لها. وقد لاحظ لوبران سيطرة وصف النار على وصف الجنّة التي تميز الفصاحة الكاثوليكية من الفصاحة البروتستانتية، وفي النهاية عبادة أموات الجنّة ومطهرة الذنوب هي التي تبقيهم على ارتباط بعالم الأحياء. والدراسة النموذجية التي خصصها غبريال وميشيل فوفيل لأرواح مذابح مطهرة الذنوب التي تمّت تهيئتها في كنائس منطقة البروفانس بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر تعتمد على ملف إيقونوغرافي وقع تقديمه بالاستعانة بعلم الخرائط والإحصائيات. لقد تأكدت إيقونوغرافية مطهرة الذنوب بداية من القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ولكنها ظلت حتى في أثناء القرن السادس عشر في منافسة مع إيقونوغرافية النار ويوم الحساب: إن أول انتشار واضح لعبادة أرواح مطهرة الذنوب حدث في الفترة ما بين 1600 و1670. ولم يجد المؤلفان صعوبة في توضيح أن هذا التحوّل يوافق الفكرة الحديثة للمحاسبة الفردية، ولكنهما وجدا أيضاً الانشطار الاجتماعي ـ الثقافي للقرن الثامن عشر ما بين العبادة الشعبية التي ما فتئت تزداد، والجدل المفتوح في صلب الأوساط الاجتماعية التي توجد في أعلى السلّم.

تنويع اجتماعي للمتخيّل

تسلّط الدراسات المتعلقة بالفترة الحديثة ـ من القرن الخامس عشر إلى نهاية عصر النظام القديم ـ الضوء قبل كل شيء على تواصل التناوب القديم ما بين الثقافة العالمة والثقافة الشعبية، وهو تواصل أكبر مما رفضت بورجوازية عصر الأنوار وبورجوازية القرن

العشرين أن تبوح به. وقد رأينا ذلك من خلال تمثّل الآخرة. ولكن ينسحب هذا على كامل الحقل الثقافي الذي يترجم فيه صعود البورجوازية عن ذاته بثنائيات مختلفة وجديدة. ويبدو التنويع الاجتماعي متأثراً من خلاله بصورة مباشرة. ونجد دليلاً على ذلك من خلال المكتبة الزرقاء التي درسها روبير ماندرو[42] وجنفياف بلام[43]. هذه الكتيّبات المحتوية على الأقاصيص كانت تنتج خاصة في مدينة تروي (Troyes)، وانتشرت في كامل فرنسا الشمالية، وقد كانت تقرأ من غير شك بصوت مرتفع في السهرات الريفية من طرف من كان يحسن القراءة. وفي عصر الأنوار كانت سير القديسين وقصص الفرسان التي نشأت من رحم العصر الوسيط الطويل، تنهي مسيرتها الأدبية التي بدأت في إطار موقف اجتماعي آخر، في هذه الكتيّبات المتواضعة المجهولة المؤلف.

كما تعدّ أيضاً قراءة ميخائيل باختين[44] الرائعة لرابليه، اكتشافاً

---

(42) Robert Mandrou, *De La Culture populaire aux 17e et 18e siècles: La Bibliothèque bleue de Troyes*, 2ème éd. nouv. éd. rev. et corrigée ([Paris]: Stock, 1975).

(43) Genviève Bollème: *La Bibliothèque bleue: Littérature populaire en France du XVIIe siècle au XIXe siècle*, collection archives; 44 ([Paris: Julliard, 1971]), et *La Bible bleue: Anthologie d'une littérature «populaire»*, appendice et index établis par Nora Scott (Paris: Flammarion, 1975).

(44) Mikhail Mikhailovich Bakhtin, *L'Oeuvre de François Rabelais et la culture populaire du moyen âge et sous la renaissance*, bibliothèque des idées, traduit du russe par Andrée Robel (Paris: Gallimard, 1970).

ويمكن أن نضيف إليه مساهمتين في مجلة *L'Arc* عدد 65 (1976) خصصتا لروا لادوري (Le Roy Ladurie): R. Chartier et D. Julia, «Le Monde à l'envers,» pp. 43-53,

وكذلك تدقيقات د. فابر (D. Fabre): «La Fête éclatée,» pp. 68-75,

لنصل إلى ي. هويزنغا: Johan Huizinga, *Homo ludens: versuch einer bestimmung des spielelementest der kultur* ([Amsterdam; Leipzig]: Pantheon akademische verlagsanstalt, [1939]), =

في هذا المعنى، وهو عمل حرّر على ما يبدو في بداية الستينات، وكذلك دراسته الروسية أساساً، للهزل الشعبي الذي يمزج بين الجسد الحي وفتحاته وتتابع الولادات والفصول والعالم بأسره في احتفال منتصر على الموت والخوف والسلطة، وهو هزل سيحجب شيئاً فشيئاً إلى أن يموت. إن البطن الذي يلد ويفرز، والاحتفال الذي يحلّ فيه الجديد محل العتيق، وبلاد الكوكاني (Le Pays de Cocagne)، والإبحار نحو عالم آخر، تلك هي التمثّلات المفاتيح التي تعبّر من خلالها ثقافة شعبية لا عمر لها عن ذاتها، وربما يمكن اعتبار مؤلف رابليه هو آخر تجلياتها الأدبية. وبعد ذلك سيصبح الجسد متستراً كما لو أنه غير معلن، وإذا ما وجد فإنه متروك وعار ضمن صنف الفحش الذي خلقته الحداثة البورجوازية.

الجنون، هاجس المتخيّل

تبرز الفترة الحديثة، من بين ما تبرز به، بواسطة حقل وثائقي ما فتئ يزداد بما هو مطبوع، وخاصة أنه حامل لإشكالية أخرى، لأن الأمر يتعلق في كلمة واحدة بتفسير كيف جاء الحدّ الفاصل الذي يقال له حدّ موضوعي بين الواقع والمتخيل، لكي يستقر شيئاً فشيئاً في مستوى الخط الذي نسطّره اليوم.

لقد بيّن ميشيل فوكو كيف وضع النسق الثقافي الغربي هذا الحدّ الفاصل داخله، وذلك بتدقيق الأطراف المرسومة للجنون من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر[45]. ويصرح المتخيل التصويري

= الترجمة الفرنسية: *Homo ludens: Essai sur la fonction sociale du jeu*, traduit du néerlandais par Cécile Seresia; [préface par Johannes Tielrooy] (Paris: Gallimard, 1951).

(45) Michel Foucault, *Folie et déraison: Histoire de la folie à l'âge classique*, civilisations d'hier et d'aujourd'hui (Paris: Plon, [1961]).

من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر، مع بوش وبروغال خاصة، بالأهمية الكبرى التي ستصبح للجنون في «خيال الإنسان الغربي»: سفينة المجانين التي تثبت فوق قماش الرسم ممارسة تاريخية ومجموعة المخلوقات البشعة والانمساخ الأخير لشطحات القوطية التي ترمز إلى المخاوف والغياهب، وأيضاً إلى حدس الظروف الإنسانية. وتواصل شخوص، مثل شخصية دول غريّي (Dulle Griet) لبروغال مسيرتها بين الكوارث. كما أن إيقونوغرافيا بأكملها توجد داخل الجنون، مثل الأفق لكل ضمير والتعبير التراجيدي المباشر والكلّي عن الحياة.

يتشكل العقل الكلاسيكي، في شكل خط فاصل، بتحديد النماذج، وبالتالي تحديد الانحرافات الدينية والاجتماعية والأخلاقية أو الجنسية، وحصرها جميعاً وراء جدار واحد إلى أن يتحول المستشفى ومجانينه وحدهم إلى أداة ربط وموضوع لهذه الممارسة الاجتماعية. زيادة على ذلك، سيرى قارئ فوكو ما هي حركة الذهاب والإياب الدؤوبة التي يواصل المتخيّل نسجها خلال هذه الفترة بين العقل ونقائضه منذ أن تمّت ملاحظة «اكتئاب» نساء مونتايليمار، على أثر مشاهدة لوحة فنية حيّة للنار، إلى أن يصل إلى الأعمال المنعزلة لساد (Sade) وغويا (Goya) ونيتشه (Nietsche) وأرتو (Artaud).

موضوع بحث معبّر: الساحرة

شكل الاعتقاد في الساحرات للكثيرين مجالاً معبّراً عن التطور التاريخي الذي كوَّن شيئاً فشيئاً الحدّ الحالي بين المتخيّل والواقع. لقد اجتهد جوليو كارو باروجا (Julio Caro Baroja) في تتبع أطول فترة في التاريخ الأوروبي منذ الفترة الإغريقية ـ الرومانية أو

الجرمانية، إلى أن وصل إلى «نزوات» غويا والفترة الرومانسية واستمرارية بلاده الحالكة، بلاد الباسك، في خضم القرن العشرين[46]. وقد اقتصر روبير ماندرو على فرنسا الكلاسيكية، ومنها على الفصل الحاسم، وهو ذروة المحاكمات ونهايتها بسبب السحر في القرن السابع عشر[47].

لقد تم ربط الساحرة الحديثة بالشيطان، وبمحفل السبت الذي يقوده، والذي يجمع التجاوزات الجنسية بعشق الدنس. بدأت تتحدّد معالم هذه المجموعة بإثرائها بداية من منتصف القرن الرابع عشر، وتطورت إلى أن جاءت موجة المحاكمات الكبرى في أوروبا مضخّمة ومغلقة في النصف الأول من القرن السابع عشر ـ اندلع ختامها الأمريكي في ماساشوستس سنة 1663، ثم تحللت في ما بعد في شكل مواقف ثقافية متباينة اجتماعياً، وقد بيّنها ماندرو: بقي التواصل خاصاً بالأوساط القديمة، كالأرياف ورجال الدين المبحرين في العلم والفقهاء والوعاظ، في حين اكتشفت البورجوازية المتنوّرة التي يكوّنها القضاة والأطباء إمكانية حصر ذلك في التحايل أو في الحالات المرضية. وهكذا نمرّ من «نسق تجاوزي» إلى آخر، بحسب تعبير ميشيل فوكو، ومن التلبس الشيطاني الذي لا يزال معترفاً به في القرن السادس عشر، إلى معارضتنا التي تكوّنت بداية من القرن

---

(46) Julio Caro Baroja: *Las brujas y su mondo; con varia ilus* (Madrid: Revista de Occidente, [1961]),

الترجمة الفرنسية: *Les Sorcières et leur monde = Las brujas y su mondo,* bibliothèque des histoires, traduit de l'espagnol par [Marie-Amélie] Sarvailh ([Paris]: Gallimard, 1972).

(47) Robert Mandrou, *Magistrats et sorciers en France au XVIIe siècle: Une Analyse de psychologie historique*, civilisations et mentalités ([Paris]: Plon, [1968]).

الثامن عشر لما هو طبيعي بما هو مرضي. ويتمّ تحديد مآل هذا المرور في التقويم الذي يقام للمتخيّل.

لقد اكتشف ميشيل فوكو اللحظة الانتقالية التي يفسر فيها الانحراف بخيال المنحرف، ولكن بطريقة تبدو تصوراتها في حدّ ذاتها نوعاً من التجاوز لأن التحديد الطبي لذلك ما زال لم يكتمل بعد[48].

مجاذيب لودان

وضح ميشيل دو سارتو الانتقال نفسه في دراسته الرائعة: **انجذاب لودان**، والتمشي الذي اتبعه يقرّبه من فوكو أكثر مما يقرّبه من ماندرو، لكنه يتموقع في إطار نظرة أخرى مختلفة، وهي تاريخ الروحانيات[49]. لقد أوّل دو سارتو ملف لودان (شهادات المجذوبين، وشهادات عين عن التعزيم العمومي، وتقارير رسمية بما فيها تقارير العزّامين والأطباء) في هذا الاتجاه، على أنه تعبير عن «الانكسار» الذي يخترق «حضارة دينية» قريبة من نهايتها، وفي طور فقدان ثوابتها.

من ناحية، أصبحت العلاقة بين الأفراد والآخرة، وهي علاقة لم تعد آنية، إما علاقة شيطانية أو علاقة زهدية: إما مجذوبون أو «روحانيون»، كالأم جان دي آنج، فهي وحدها عرفت الحالتين في

---

(48) Michel Foucault, «Les Déviations réligieuses et le savoir médical,» dans: *Hérésies et sociétés dans l'europe pré-indusrielle, 11e-18e siècles: Comunications et débats du colloque de Royaumont, [27-30 mai 1962]*, civilisations et sociétés; 10, présentées par Jacques Le Goff (Paris; La Haye: Mouton, 1968).

(49) Michel de Certeau, *La Possession de Loudun*, collection archives; 37 ([Paris: Julliard, 1970]).

حياتها. ومن ناحية أخرى، يتخلص المجتمع من تخوّفاته على «مسرح» المجذومين وعزّاميهم. ولمّا أحرق أوربان غرانديي بتهمة السحر ومسؤولية إفساد المتديّنات، فقد صنع منحرفاً وضحّى به، وهو بذلك يستعيد ذاته بإقصائه، ويعدّ قتله احتفالاً وإعادة ترتيب للنظام تساهم فيها السلطة الملكية. والسلطة الملكية تتدخل هي الأولى، لأن عصر لودان يجمع منطقياً «المرور من مواصفات دينية إلى مواصفات سياسية»، والتشخيص الطبي الذي ما زال في طور الإنجاز سيكون محوره الأساسي النقاش حول «الخيال».

لم يقتصر دو سارتو على الجرد والتعليق الثقافي على التخيلات التي شكلها المجذوبون وعزّاميهم في تعاون علني وفرجوي. لقد بيّن الأهمية الجديدة للملاحظات الطبية ودقتها والاختلاف البيّن في مستوى الاستنتاجات: من يعتقد في الانجذاب الشيطاني ينفي عن الخيال قدرته على إحداث تلك النتائج، ومن لا يعتقد، فهو يدفع بتأثيرات الخيال إلى الأمام. وبصورة بطيئة بدأ مفهوم «الطبيعة» يتغيّر، وأصبح يبحث عن ذاته، ونتيجة لذلك حلّ المتخيّل في المكان الذي نعطيه له في ما سيصبح النظام الطبيعي.

القرنان التاسع عشر والعشرون

كيف يكون تاريخ المتخيّل عندما نتحدث عن القرنين التاسع عشر والعشرين؟ إننا ندخل المرحلة التي تصل إلى تجربتنا التاريخية المعيشة التي يميّزها من ناحية فجر المجتمعات الصناعية وأوجها وأزماتها مع كل ما رافقها من استعباد ثقافي، ومن ناحية أخرى يميّزها إنتاج أدب وفن، هما في كل الحالات أكثر عادية وأكثر قرباً من ضميرنا وأحاسيسنا. وتفسّر صعوبة التأقلم قبل كل شيء مهمة المؤرخ التي تبدو في بعض الأحيان منغمسة في توجّه العلوم

الاجتماعية المجاورة التي يعطيها التاريخ بدوره عمقها الضروري. إن التاريخ ضرورة لـ **الأنثروبولوجيا الدينية** لألفونس ديبرون(50) الذي لم يتخذ الممارسات الدينية فقط موضوعاً لبحثه، وإنما المعتقدات أيضاً. ولكن يفتح التقارب بين التاريخ وعلم الاجتماع والإثنولوجيا مع دراسة مجدّدة للفولكلور اتجاهاً من اتجاهات البحث الحالية الأكثر وعوداً، والأكثر ضرورة، خاصة في دراسة المجتمعات الأوروبية، وهي الإثنو ـ تاريخ حيث يحتل المتخيل مكانة، مثله مثل الهياكل العائلية والجماعوية. وقد ولد إثنو ـ تاريخ أوروبا، كما يبنى اليوم، في نهاية المطاف من رماد الانتصارية التي وضعت في منعطف القرنين التاسع عشر والعشرين تراتبية ثقافية للمجتمعات المنقرضة أو التي ما زالت حية، والتي عرضناها سابقا.

استمرار المواضيع القديمة وتطورها

أصبح التاريخ والعلوم الاجتماعية، وهما يحملان ذلك التخلي الذي يوجد في طيّات الثقافة الأوروبية ذاتها، يشعران بصورة تدريجية بالوعي بالاستمرارية العميقة التي لم تستطع التطورات البارزة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين إلغاءها. وهي استمرارية تخترق عالم الفلاحين والأرياف، كما هو الشأن في القرن الثامن عشر أو حتى قبله. بصورة أخرى، يمكن القول بأن الإشكالية الأبدية لعلاقات الانشطار أو التقبّل بين ثقافة عالمة وثقافة شعبية، والتي ذكرناها سابقا بالنسبة إلى الفترتين الوسيطة والحديثة، تتواصل إلى ما بعد سنة 1800، مع تعبير يكاد يكون هو نفسه الذي كان سائداً في عصر غوتنبرغ. تبيّن ذلك

---

(50) انظر مثلاً: Alphonse Dupront, «Pélérinages et lieux sacrés,» dans: *Méthologie de l'histoire et des sciences humaines*, mélanges en l'honneur de Fernand Braudel ([Toulouse]: Privat, [1973]), t. 2, pp. 189-206.

بعض الأعمال التي ذكرناها بجلاء: دفع غ. وم. فوفيل ببحثهما عن تمثل مطهرة الذنوب في كنائس منطقة البروفانس حتى القرن العشرين، وبالتالي كانت استنتاجاتهما التاريخية حول تفقّر الموضوع.

لقد توقفت المكتبة الزرقاء عن الصدور حوالى سنة 1800، ولكن تؤكد ج. بلام على تطور المواضيع المهيمنة حيثما تترك التقوى والروايات الملحمية ذات الطابع الوسيطي في عهد النظام القديم مكانها بصورة تدريجية لكل نوع من أنواع «الوصفات»، من العلاج المنزلي إلى أسرار النجاح في الحياة الدنيا.

انطلق بعض المؤلفين الآخرين من ملف معاصر وتناولوه بالطريقة التراجعية العزيزة على مارك بلوخ. لقد أنتجت العديد من المونوغرافيات منذ خمس عشرة سنة أو عشرين سنة، والأكثر اكتمالاً منها هي بلا شك الدراسة التي خصصها عالم الاجتماع لويس ديمون للحفل السنوي الذي يقع إحياؤه إلى اليوم في تراسكون (Tarascon) تخليداً لذكرى الهزيمة التي مني بها الشبح المخيف الذي أدخل الرعب على سكان المدينة في ماض خيالي في موقعة تراسك[51] (Tarasque). كما يمكن أن نشير إلى الكتاب الذي كتبه إرنستو دي مارتينو عندما كان أستاذاً لتاريخ الديانات في جامعة نابلي (Naples) من خلال بحث متعدد الاختصاصات في منطقة البوي (Pouilles) في جهة سالنتو (Salento)[52]، نظراً إلى طريقة إعداده، ولو أن

---

(51) Louis Dumont, *La Tarasque: Essai de description d'un fait local d'un point de vue ethnographique*, l'espèce humaine; 8 ([Paris]: Gallimard, [1951]).

(52) Ernesto de Martino: *La Terra del rimorso: Contributo a una storia religiosa del Sud*, la cultura; 42. Storia, critica, testi ([Milano]: Il Saggiatore, [1961]),

الترجمة الفرنسية: *La Terre du remords*, bibliothèque des sciences humaines, traduit de l'italien par Claude Poncet ([Paris]: Gallimard, 1966).

التتابع التاريخي لم يكن مقنعاً بصورة كلية. والموضوع هو الاعتقاد المحلي في أن لدغة الرتيلاء، إذا ما أصيب بها أحد، فإنها تظل تشعره في اليوم الذي يعتقد أنه عيد ميلادها ببعض الآلام. والناس يعالجون ذلك الألم بعلاج طقوسي يتكون من حج صيفي، وخاصة من الرقص على إيقاع أوركسترا صغيرة يتم كراؤها من طرف المرضى الذين هم اليوم في أغلبهم من النساء الفقيرات. ويتعمّق الخيار الثقافي نفسه أكثر من خلال هذه الأمثلة الإيطالية وبصورة متزامنة.

من ذلك، نذكر سوابق قديمة ممكنة، ولكنها غامضة، وجذور وسيطية واضحة لمجموعة تتقارب مع أعياد صيفية أوروبية أخرى، مثل الاحتفال بالقديس يوحنا أو القديس غي، وكذلك مع توزيع اجتماعي ما انفك يضغط على الناس الأكثر فقراً، ونذكر أيضاً ذلك الانفكاك المزدوج في عصر الأنوار من خلال محاولات التطبيب التي تستحسنها الكنيسة، ومن خلال العلاقة المتينة التي ارتبطت بعبادة القديس بولس في القرن الثامن عشر. وبعيداً عن أوروبا، ولكن بالطريقة نفسها المبنية على تاريخ العالم القديم، ثم تاريخ العالم الجديد يمكن أن نقرأ أعمال عالم الاجتماع روجيه باستيد[53] حول الديانات الأفريقية ـ البرازيلية، وأعمال الإثنولوجي ألفريد ميترو حول الفودية الهاييتية[54] (Vaudou haïtien).

الخرافات والحكايات: حقل جديد للتاريخ

يطرح اللقاء بين تاريخ المتخيل الجماعي ودراسات الفولكلور

(53) Roger Bastide, *Les Réligions africaines du Brésil: Vers une sociologie des interpénétrations de civilisations* (Paris: Presses universitaires de France, 1960).

(54) Alfred Métraux, *Le Vaudou haïtien*, 6ème éd. (Paris: Gallimard, [1958]).

من أعياد وطقوس من ناحية، والحكايات والخرافات من ناحية أخرى، مشكلة خاصة، ذلك لأن هذه الدراسات تتأثر خاصة منذ عقود بالتحولات العميقة في مناهجها، وحتى في طريقة إنجازها. وليس ذلك لأن الانتباه للعلاقات بين فولكلور شعب ما وتاريخه هو من باب الاكتشافات الحديثة. لقد تم التساؤل حول «ميثولوجيا فرنسية» في بداية القرن قد يكون جوهرها القديم المحلي بارزاً من خلال المسيحية، وخاصة من خلال خرافات مندمجة في المسيحية، وهي بلا تاريخ في شكل روايات منقبية[55]. وقد وقف شيخ الدراسات الفولكلورية أرنولد فان غنّيب (Arnold van Gennep) (1873 ـ 1957)، على رغم كل شيء، من التاريخ موقفاً محترزاً، يختلف عن موقفه من العلوم الإنسانية الحديثة، مثل الإثنوغرافيا، والألسنية بالأخص. يخصّ هذا الاحتراز، في الواقع، كما بيّنت ذلك نيكول بالمونت، في «التاريخ التاريخاني» المعاصر لفترة تكوينه[56]. ولكن المواقف بدأت تتغير. لقد أصبح اليوم اعتبار الطقوس والمعتقدات التي ننعتها بالشعبية، وحدودها الاجتماعية ومدلولها الأول وتطورها وحتى نهايتها، من مشمولات التاريخ وحقله الوثائقي. ويبيّن في الوقت نفسه كتيّب نيكول بلمونت[57] (Nicole Belmont)

(55) انظر مثلاً: Graf, *Miti, leggende e superstizioni del Medio eve*, 1892-1893, et 1971.

وحول عبادة القديسين، انظر: P. Saintyves, *Les Saints, successeurs des dieux: Essais de mythologie chrétienne* (Paris: E. Naurry 1907) et surtout Lucius, *Die anfange des heiligenkults in der christlichen kirche*,

الترجمة الفرنسية: *Les Origines du culte des saints dans l'église chrétienne.*

(56) Nicole Belmont, *Arnold van Gennep: Créateur de l'ethnographie française*, collection science de l'homme. Petite bibliothèque de payot; 232 (Paris: [Payot, 1974]).

(57) انظر الهامش رقم 20، ص 491 من هذا الكتاب.

الذي سبق ذكره وعود المشروع والثمار التي يحملها، وكذلك الصعوبات التي قد لا يمكن تجاوزها للعودة في الزمن إلى ما قبل الفترة الحديثة والسيطرة على الأمد الطويل. نتمنى في هذا الاتجاه أن تقع ترجمة بحث ف. إ. بروب (V. I. Propp) (1895 ـ 1970) الثري جداً، والذي يتناول الأعياد الفلاحية الروسية، وهو بحث تم انجازه بحسب المنهج التراجعي، وفي توجّه شبيه بتوجّه باختين. ينطلق الكتاب من ملاحظات معاصرة، أو على الأقل حديثة، ليبيّن من خلال الدورات الروزنامية في الأرياف الروسية استمرار الثقافة الشعبية وأعمال الكنيسة وما ترتب على ذلك من منتوج ثقافي.

هل سيهتم التاريخ بمتخيل المدن؟

يبدو زخم الحكايات الشعبية الشاسع والجذاب مثبطاً لعزائم التاريخ للوهلة الأولى، ويبدو أنه من مشمولات تحليل ساكن كان قد اقترح له ف. إ. بروب لغة خاصة[58]، ما زال النقاش حولها مفتوحاً[59]. صحيح أنه يمكن أن نعرف أنواع التواصل الشفوي ووظائفه في عصور مختلفة، وأن ندرس علاقاته بما هو مكتوب، كما فعل ذلك مارك سوريانو (Marc Soriano) لـ «حكاية»

---

(58) Vladimir Propp, *Morphologie du conte = Morfologiia skazki,* bibliothèque des sciences humaines, traduit du russe par Claude Ligny ([Paris]: Gallimard, [1970]), suivi de: *Les Transformations du conte merveilleux.* [s. l.: s. n., 1928], et de: Eleazar Moiseevich Mélétinski, *L'Etude structurale et typologique*, traduit du russe par Marguerite Derrida, Tzveton Todorov et Claude Khan (Paris: Editions du seuil, 1970).

(59) l'essai de Mélétinski, en partie réponse à Claude Lévi-Strauss, «La Structure et la forme. Réflexions sur un ouvrage de Vladimir Propp,» (1960), dans: Claude Lévi-Strauss, *Anthropologie structurale deux* (Paris: Plon, 1973), pp. 139-173.

برو[60] (Contes de Perrault)، أو يمكن حتى أن نحدّد فترة زمنية لروايات مختلفة بأكثر قدر ممكن من الدقة. ولكن هل يمكن حقيقة أن نكتشف قصة حكاية؟ نجد محاولة في هذا الاتجاه في البحث المزدوج الوسيطي والحديث الذي قام به جاك لوغوف وإمانويل لو روا لادوري لخرافة «مالوزين»[61] (Mélusine). ولكن يبقى السؤال مطروحاً.

لا يزال تاريخ المتخيّل الجماعي المعاصر في أكبر جزء منه منحصراً في الاستمرارية التي هي أسهل وأوضح ما يمكن ولوجه، وهي استمرارية المجتمعات أو المستويات الاجتماعية التي لا تزال تقليدية، أي في الأرياف. من غير شك أن هذا التحديد يعيش لحظاته الأخيرة، ويمكن أن نتوقع توضيحاً مثرياً للإشكالية باتجاه المجتمعات الجديدة، نتاج التحضر الصناعي وازدهار وسائل الإعلام. ومن الآن بالفعل أصبحت للبحوث الثقافية التي أنجزت في هذا المضمار، والتي قام بها شخص كإدغار موران أو رولان بارث، قيمة تاريخ للمستقبل[62].

تاريخ المتخيّل اليوم هو أيضاً تاريخ متخيّل كما كان في الماضي. يتم ذلك بهدوء من خلال الأدب والقصص[63]، وبخطورة من خلال السياسة المعاصرة حيثما وجدت، كما هو الشأن دائما في المجتمعات

---

(60) Marc Soriano, *Les «Contes» de Perrault, culture savante et traditions populaires*, bibliothèque des histoires (Paris: Gallimard, 1968).

(61) Jacques Le Goff et Emmanuel Le Roy Ladurie, «Mélusine maternelle et défricheuse,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 26 (1971), pp. 587-622.

(62) Edgar Morin, *Le Cinéma, ou l'homme imaginaire: Essai d'anthropologique*, collection l'homme et la machine; 8 (Paris: Editions de minuit, [1956]), et Roland Barthes, *Mythologiques* (Paris: Editions du seuil, 1957).

(63) Le Goff, «Naissance du roman historique au XIIe siècle?.»

الأوروبية ذات العمق التاريخي، والتي هي تحريض وإسقاط في الوقت نفسه. وتمثل الاشتراكية القومية الألمانية في هذه النقطة، كما في غيرها، أو ربما أكثر من غيرها، معيناً لا ينضب وصعوبة حاسمة، لأنها بلا شك أهم وأقل براءة في الوقت نفسه، وهي يمكن أن تؤثر في ضمائر المؤرخين الأوروبيين الأحياء اليوم. ويعدّ عمل الألسني جان بيار فايي الأكثر نموذجية، وقد خصصه لدراسة جذور هذه الأيديولوجيا، وبصورة مفردة للتخيلات الجرمانية والوسيطة التي قرأها هتلر في شبابه. والمشكل المحرك للكتاب بدقة، هو المرور من هذا التاريخ الذي هو في حدّ ذاته متخيّل للماضي الألماني والأوروبي، إلى صنيع فعّال بشكل مرعب وواقعي، وهو الإبادة[64].

يخرج عن نطاق حديثنا ما نسميه عادة تاريخ الأدب وتاريخ الفن، على الرغم من الالتقاء وفي بعض الأحيان الاختلافات التي توجد بين هذه التواريخ ذات المنتوج الخاص والتاريخ في حد ذاته: **الأولى** ليس لها دائماً الكلية البنيوية التي لهنري فوسيون (Henri Focillon) أو لبيار فرانكستيل (Pierre Francastel). لقد وقع تثمين عمل الوسيطي في أعلى المستويات. **والثانية** قد علمتنا أن الفضاء المثلث الأبعاد الذي يسيطر على فن التزويق الأوروبي منذ القرن الرابع عشر الإيطالي إلى الفن التكعيبي، لا يعدّ تمثلاً موضوعياً تمّ التحكم فيه، فهو اختيار فني مناسب لحضارة خاصة ظهر بظهورها وانقرض بانقراضها[65]. ولكن أعمال كثيرة تقدم نفسها على أنها حوار

---

(64) Jean Pierre Faye, *Langages totalitaires: Critique de la raison narrative, [critique de] l'économie [narrative]* ([Paris]: Hermann, [1972]).

من بين الدراسات غير المتكافئة التي خصصت إلى المعاداة المعاصرة ونشأتها تاريخياً يمكن أن نذكر: Norman Cohn, *Histoire d'un mythe: La Conspiration juive et les protocoles des sages de Sion = Warrant for Genocide*, la suite des temps, traduit de l'anglais par Léon Poliakov ([Paris]: Gallimard, 1967).

شخصي بين الناقد وإبداعات هي أيضاً شخصية، حتى ولو كانت معتبرة من بين إبداعات مجموعة ثقافية محددة تاريخياً، كـ «الرومانسية» مثلاً. وليس الحوار الهادف، مهما كان مؤثراً بالضرورة، حواراً تاريخياً.

خاتمة: ثلاث مسائل

بقيت في نهاية هذا العرض الذي اتبع خطاً زمنياً ثلاث مسائل تهم كل الفترات التي قطعت. قبل كل شيء هناك مسألة المنهجية: ينكفئ المتخيل بوصفه موضوع بحث تاريخي على ذاته، وتتمفصل تمثلات مجتمع وتمثلات عصر منظومة بدورها مع مختلف المنظومات الأخرى كالترتيب الاجتماعي والدين بلا شك، وكذلك طرق الاتصال. إن المطلوب هو التعرف على مرتبة المتخيل داخل الانزلاق المتواصل لمختلف هذه المنظومات الواحدة فوق الأخرى، فقد يكون ذلك هو التعريف البنيوي للتاريخ. وفي الحقيقة، تبيّن دراسة الثقافة الأوروبية منذ العصر الوسيط المتقدم أن الجواب ليس سهلاً بما أن المتخيل كان دائماً متنوعاً اجتماعياً. وتتميز الثقافة الشعبية باتجاهه بمسار بطيء، كما لو أنه لا يتحرك، فهي تبدو ببطء قابلة لمواضيع آتية من شرائح اجتماعية مهيمنة، وقد تحتفظ بها وحدها في ما بعد من ناحية، ومن ناحية أخرى فهي تنتج وتحافظ على ما تنتجه بحسب متطلباتها الخاصة.

(65) Pierre Francastel: *Peinture et société: Naissance et destruction d'un espace plastique: De La Renaissance au cubisme* (Lyon: Audin, 1951), rééd. (Paris: Denoel; Gonthier, 1977).

انظر أيضاً كتابه: *La Figure et le lieu: L'Ordre visuel du Quattrocento*, bibliothèque des sciences humaines ([Paris]: Gallimard, 1967).

إيروس وتاناتوس، مواضيع صعبة بالنسبة إلى المؤرخ

ثم بعد ذلك تأتي حقول المتخيّل. لن نعود للتأكيد على ضرورة توسيع دائرة البحث مع تحويلها من غير شك خارج المجتمعات والمستويات الاجتماعية التقليدية. ولكن سنذكّر بأن بعض المواضيع قد تؤدي إلى تورّط المؤرخين أنفسهم، وهذا علاوة على أنهم يعتبرونها مواضيع قريبة منهم في الزمن. ومن بين هذه المواضيع، وبالدرجة الأولى إيروس (Eros) وربطه على الأقل الحديث بثاناتوس (Thanatos)، أي الموت. لقد بدا ميشيل فوكو بفتح هذا التمشي حول «ساد» من خلال **تاريخ الجنون**. لقد كتب أن الصادية «ليست ممارسة قديمة مثل إيروس»، ولكنها عودة مفاجئة لـ «اللاعقل» الذي يحدّده العقل الكلاسيكي ويحبسه، وهي انبعاث المتخيل الاحتجاجي المكتوم. هكذا تكون نهاية القرن الثامن عشر، بحسب فوكو، بداية تحول في الخيال الغربي، فيبرز «اللاعقل» المقموع والمجبر في صورة إيجابية بوصفه خطاباً وبوصفه رغبةً. إنها فكرة مقنعة جداً، ولو أنه يجب دمجها بصورة كلية أكثر مما فعله فوكو في كامل تاريخ العصر.

ومع ذلك تظل التناغمات الخيالية لإيروس مخيّبة للآمال. حقيقة إنه لا يجد أصعب من فك النظام الرمزي لثقافات الماضي، على رغم أنه موجود في كل مكان في الآداب وفي الإيقونوغرافيا.

لقد توصلت البحوث الغربية حول تاريخ العصر الوسيط بدفع من جورج دوبي إلى تقديم مقترحات منهجية حول هذه النقطة. ومع ذلك، ليس هذا إلا حاجزاً أولياً، لأن الأخطر هو أنه لا يمكن لأي تجربة إنسانية ماضية أن تورّط أكثر من غيرها مؤرخاً حياً، وليس هناك من قدّم تفسيراً لذلك في الجوهر[66]. إنه لم يقع تجاوز

---

(66) انظر ملاحظات: J. Revel, J.-P. Peter, «Le Corps. L'Homme malade et = son histoire,» dans: Jacques Le Goff et Pierre Nora, dir., *Faire de l'histoire*,

السطحي من نظام الرموز والسلوكيات والتبريرات، وذلك في أحسن الحالات، مثل الكتاب الذي خصصه روبير فان غوليك للصين القديمة[67]. وقد يعترض على ذلك البعض بالقول بأن ذلك قد يوجد في حقل جغرافي وثقافي يجد فيه المؤرخ الغربي نفسه مجرداً من أية مرجعية شخصية، كما هو الشأن بالنسبة إلى حقل الفترة القديمة الكلاسيكية. ولكن كتاب ماريو براتز[68] مثلاً الذي ترجم حديثاً حول الممارسة الجنسية الصادية في القرن التاسع عشر، الرومانسي والمتدهور، هو كتاب هزيل من حيث القراءة التاريخية، ولكنه ثري وجيد في ما يتعلق بجرد النصوص وتحليلها.

إغراءات التاريخ النفسي

هذا الإقرار بالفشل المؤقت على الأقل، يقدم لآخر الأسئلة التي يليق بنا أن نختمها، وهو يتعلق بالمقاربة النفسية للمتخيّل الماضي الذي يجد فيه المؤرخون أنفسهم جيراناً لـ «مؤرخي الآداب» والذين تبقى أعمالهم خارج اهتمامنا في هذا العرض. لقد أغرت المحاولة التاريخية قديماً فرويد نفسه، ويبدو كتابه: **موسى** (1939)

---

bibliothèque des histoires; 17, 3 vols. ([Paris]: Gallimard, [1974]), vol. 3: *Nouveaux = objets*, pp. 169-191.

(67) Robert van Gulik, *La Vie sexuelle dans la Chine ancienne = Sexual Life in Ancient China: A Preliminary Survey of Chinese Sex and Society*, bibliothèque des histoires; 3, traduit de l'anglais [et du latin] par Louis Evrard ([Paris]: Gallimard, 1971).

(68) Mario Praz: *La Carne, la morte e il diavolo nella letteratura romantica* (Milano: Soc. Editrice «la cultura», [1930]), et Saggi; 40 (Torino: Einaudi, 1942), الترجمة الفرنسية: *La Chair, la mort et le diable dans la littérature du 19e siècle: Le Romantisme noir*, traduit de [la 2ème éd. italienne] par Constance Thompson Pasquali (Paris: Denoël, 1977).

أقل من عمل تاريخي بقدر ما هو تحليل للإنسان اليهودي. وفرويد نفسه يهودي، وذلك من خلال تعبير أسطوري أولي، وهو في كل الحالات من أقدم التعابير لليهودية التي ما تزال حية. إنه محاولة تبدو مقترحاتها النفسية جاهزة ومعتمدة على أرضية من الإثنولوجيا و**تاريخ الديانات** معاصرة لتأليف الكتاب. أذكر عن قصد ملاحظاته عن العصبية الشيطانية في القرن السابع عشر. وقد علّق ميشيل دو سارتو أخيراً على هاتين الدراستين[69]، وهو يثير بعد هذا، ومنذ محاولة فرويد انجاز مشروع تاريخ نفسي، تساؤلين داخل السؤال.

أولاً كيف يمكن أن نبحث؟ هل يجب أن نتوقف عند دراسة حالات فردية، وهي بالضرورة محدودة العدد ومشتتة حيثما يبدو المكتوب شاملاً بما فيه الكفاية حتى يكون بمثابة المقياس للاستجواب المباشر؟ أو هل يمكن أن نسلّم بأنه ممكن ومفيد أن نستنتج، دائماً من خلال ما هو مكتوب، استنتاجات تتعلق بمجموعات تاريخية محدّدة، بقدر ما يمر لاوعي الأفراد الذين يكوّنونها بالضرورة عبر الأشكال الثقافية المميزة لهذه المجموعات؟ ثم بعد ذلك، وربما خاصة، عن ماذا نبحث وماذا ننتظر؟

تنضم حيرة المؤرخين - وزملائهم المختصين في الآداب - إلى النقاش الحالي للتحليل النفسي ذاته ما بين قراءة فرويد النصّية والتأويل الأكثر رمزية من طرف مدرسة لاكان، وحول كونية المثلث الأوديبي الكلاسيكي واختلاف الطفولة الذكورية والأنثوية. تتداخل

(69) Michel de Certeau, *L'Ecriture de l'histoire*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, [1975]), «Ce que Freud fait de l'histoire. Une Névrose démoniaque au XVII^e siècle,» pp. 291-311; «La Fiction de l'histoire. L'Ecriture de Moïse et le monothéisme,» pp. 312-358.

مسألتي الوثائق ومحتواها، كما بيّن ذلك النقد العنيف الذي وجّهه جان بيار فرنان إلى القراءات الأوديبية حتماً، والتي يفرضها التحليل النفسي على الميثولوجيا الإغريقية بدءاً بقصة أوديب نفسها، من دون جرد مفصّل للمعطيات الأسطورية، ومن دون أخذ الإطار التاريخي للمؤلفات بعين الاعتبار[70].

تاريخ للأحلام

في الواقع، يبدو الاهتمام بمنهج تحليلي نفساني مطبّق على المتخيل بوصفه موضوع بحث تاريخي، موضوع إلى حدّ الآن، وغالباً في مستوى الأطراف الثقافية للاوعي، وهذا أمر ضروري أن نشير إليه. هكذا فعلت بعض الدراسات حول الحلم الذي بشأنه تكون المقاربة ضرورية، بما أن المستويين، مستوى حدوثه ومستوى روايته، يختلطان في إخبار المؤرخ كما يختلطان أيضاً في رواية الفاعل الحي. لقد قدم أ. ر. دودس (E. R. Dodds) ملاحظات قيمة حول العناصر الثقافية للحلم في العصور القديمة[71]، ولكنه توقف سريعاً في ما بعد، في الحقيقة قبل أي محاولة للتحليل النفسي، لأنه قبل بالحدود البالية للعقلانية. وقد وضع جاك لوغوف خطة عمل ضافية تتعلق بالحلم في العصر الوسيط[72]. وفي النهاية، يأخذ

(70) «Oedipe sans complexe,», dans: Vernant et Naquet, *Mythe et tragédie en grèce ancienne*, pp. 77-98.

(71) Eric Robertson Dodds: *Les Grecs et l'irrationnel = The Greeks and the Irrational*, champs (Paris: Flammarion, 1959), traduit de l'anglais par Michael Gibson (Paris: Editions montaigne, 1965), chap. 2: «Structure onirique et structure culturelle».

(72) Jacques Le Goff, «Les Rêves dans la culture et la psychologie collective de l'occident médiéval,» *Scolis*, vol. 1 (1971), pp. 123-130.

التاريخ نصيبه من كتاب جماعي وقع فيه تناول الحلم البشري من وجهة نظر علوم مختلفة[73]. إنه موضوع جديد يهدى إلى البحث التاريخي في العلاقات بين اللاوعي والثقافات بواسطة الروايات التأسيسية أو المكررة لهذه أو تلك من الروايات ـ وهنا نلتقي بالتوجه الذي سطّره فرويد في كتاب: **موسى**. وقد اعتبر آلان بزنسون في روسيا موضوع الابن المقتول من طرف أبيه من المناقب الملكية في البدايات المسيحية، وصولاً إلى الحركات القاتلة لإيفان الرابع (Ivan IV) وبطرس الكبير (Pierre Le Grand)، ومنها أعدّ مفتاحاً لتأويل المسيحية الروسية[74].

تعدُّ الدراسات التاريخية حول المتخيّل، في الجملة، مثالاً طيباً لإعادة توزيع الأوراق التي تحدث حالياً بين التاريخ والعلوم الاجتماعية من ناحية، وبين التاريخ والتواريخ الأدبية أو الجميلة من ناحية أخرى. هل هو إرهاب المؤرخ اليوم؟ من غير شك، لا، بل اقتضاء معاصر يتطلبه الزمن بوصفه بعداً رئيسياً لأي بحث يهتم بالإنسان وبالمجتمعات البشرية.

تكملة ببليوغرافية

لقد وضح لوغوف مسألة تاريخ المتخيل، التي تدين له بالكثير، وفي تقديمه لمجموع المقالات التي بذل فيها جهداً توضيحياً:

Jacques Le Goff, *L'Imaginaire médiéval*, bibliothèque des histoires (Paris: Gallimard, 1985).

(73) Roger Caillois et Gustave von Grunebaum, dirs., *Le Rêve et les sociétés humaines – The Dream and Human Societies*, bibliothèque des sciences humaines, avec la collaboration de R. Bastide [et al.] (Paris: Gallimard, 1967).

(74) Alain Besançon, *Le Tsarévitch immolé, la symbolique de la roi dans la culture russe*, recherches en sciences humaines; 23 (Paris: Plon, 1967).

كما وقع عرض الإشكاليات السابقة وتحليلها من طرف م. ديتيان:

Marcel Detienne, *L'Invention de la mythologie*, bibliothèque des sciences humaines ([Paris]: Gallimard, 1981), et Girolamo de Liguori, *I «baratri della ragione»: Arturo Graf e la cultura del secondo Ottocento*, biblioteca di studi moderni; 25, Presentazione di Eugenio Garin (Manduria: P. Lacaita, 1986).

أما ملف الأحلام الذي فتح منذ عشر سنوات، فقد بلغ النضج، انظر:

Tullio Gregory, ed., *I sogni bel Medioevo: Seminario internationale, Roma 2-4 ottobre, 1983*, Lessio intellecttuale europeo; 35 (Roma: Edizioni dell'Ateneo, 1985).

أما موضوع تعدد الآلهة فقد تجدد، انظر على سبيل المثال:

Charles Malamoud et Jean Pierre Vernant, dirs., *Le Corps des dieux*, le temps de la réflexion; 7 ([Paris]: Gallimard, 1986).

تواصل سبر الاعتقاد في المسيحية الغربية وتمثلاتها، وكذلك البحث في ما سبقها وفي أعماقها، والبحث في الحقل الوسيطي والمرور إلى الحداثة. لنذكر:

Jacques Le Goff, *La Naissance du purgatoire*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1981); *Faire croire: Modalités de la diffusion et de la réception des messages réligieux du XIIe au XVe siècle: Table ronde, Rome, 22-23 juin 1979*, collection de l'école française de Rome, 0223-5099; 51, organisée par l'école française de Rome, en collaboration avec l'institut d'histoire médiévale de l'université de Padoue (Rome: Ecole française de Rome; Torino: Bottega d'Erasmo [distributor], 1981); Carlo Ginzburg, ed., «Religioni delle classi populari,» *Quaderni storici*, vol. 14, no. 40 (1979); Michel de Certeau, *La Fable mystique: XVIe-XVIIe siècle*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1982), et Jean Delumeau, *La Peur en occident, XIVe-XVIIIe siècles: Une Cité assiégée* (Paris: Fayard, 1978),

وهي دراسة تتموقع على تخوم تاريخ الذهنيات.

L. Cracco Ruggini, «Il miracolo nella cultura del tardo impero: concetto e funzione,»

الذي يقدم دراسة عن التحول الثقافي:

Evelyne Patlagean et P. Riché, éds., *Hagiographie, cultures et sociétés: IVe-XIIe siècles: Actes du colloque organisé à Nanterre et à Paris, 2-5 mai 1979 par l'université de Paris X, centre de recherches sur l'antiquité tardive et le haut moyen âge* (Paris: Etudes augustiniennes, 1981), pp. 161-204.

قرب ك. غينزبورغ (C. Ginzburg) المستويات العتيقة لأوروبا الفلاحية:

Carlo Ginzburg, *Les Batailles nocturnes: Sorcellerie et rituels agraires en Frioul, XVIe-XVIIe siècle = I Benandanti-stregoneria e culti agrari tra Cinquecento e Seicento* (Lagrasse: Verdier, 1980),

ترجمة فرنسية مدعومة بحوار مع مؤلف *I benandanti* (1966).

Carlo Ginzburg, «Présomptions sur le Sabbat,» *Annales économies, sociétés, civilisations*, vol. 39, no. 2 (1984), pp. 341-354.

انظر: G. Klaniczay, «Shamanistic Elements in Central European Witchcraft,» dans: Mihály Hoppál, ed., *Shamanism in Eurasia*, Forum (Edition Heredot); 5, 2 vols. (Göttingen: Edition Herodot, 1984), pp. 404-422.

وبالعمق نفسه يمكن أن نضيف: Roberto Zapperi, *L'Homme enceint: L'Homme, la femme et le pouvoir = L'Uomo incinto: La Donna, l'uomo e il potere*, les chemins de l'histoire, traduit de l'italien par Marie-Ange Maire Vigueur (Paris: Presses universitaires de France, 1983).

كما كان المخيال محور لـ: *Les Miracles, miroirs des corps,*

introduction Jacques Gélis, Olide Redon; études monographiques par Michel Bouvier [et al.] (St. Denis: Presses et publications de Paris VIII-Vincennes à Saint-Denis, 1983); Evelyne Patlagean, «L'Histoire de la femme déguisée en moine et l'évolution de la sainteté féminine à Byzance,» *Studi Medievali*, 3ème série, vol. 17, no. 2 (1976), pp. 597-623.

ويجد مكاناً أيضاً في: André Vauchez, *La Sainteté en occident aux derniers siècles du moyen âge d'après les procès de canonisation et les documents hagiographiques*, bibliothèque des écoles françaises d'Athènes et de Rome (Paris: Ecole française de Rome; diffusion de Boccard, 1981).

وازدهر من خلال الأبحاث الجارية في تاريخ الطب والنظافة في القرنين التاسع عشر والعشرين. وأخيراً الخطاب الإيقونوغرافي يمثل محور أبحاث:

Ch. Frugoni (p. ex. «La mistica femminile nell' iconografia delle visioni,» dans: *Temi e problemi nella mistica femminile trecentesca: 14-17 ottobre 1979*, convegni del centro di studi sulla spiritualità mediavale; 20 (Todi: Presso l'accademia tudertina, 1983), pp. 137-180), et de D. Arasse («Entre dévotion et culture: Fonctions de l'image réligieuse au XVe siècle,» dans: *Faire croire: Modalités de la diffusion et de la réception des messages réligieux du XIIe au XVe siècle: Table ronde, Rome, 22-23 juin 1979*, pp. 131-146).

يتركز الاهتمام في الوقت الحاضر على لعبة المخيال مع الذاكرة التاريخية والمخيال السياسي: Georges Duby, *Les Trois ordres: Ou l'imaginaire du féodalisme*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1978),

وهو عمل يوضح التوجه الثاني: Colette Beaune, *Naissance de la nation France*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1985).

انظر الطبعة الجديدة لكتاب مارك بلوخ حول الملوك صناع المعجزات والمقدمة الهامة التي وضعها لها جاك لوغوف وهو ما يدرجها في هذه الظرفية: Marc Bloch, *Les Rois thaumaturges: Etudes sur le caractère surnaturel attribué à la puissance royale particulièrement en France et en Angleterre*, bibliothèque des histoires, préface de Jacques Le Goff, nouv. éd. ([Paris]: Gallimard, 1983).

كما توجد ضمن هذا التوجه بيزنطة من خلال أعمال جيلبار داغرون Gilbert Dagron, *Constantinople imaginaire: Etudes sur le recueil des Patria*, bibliothèque byzantine. Etudes; 8 (Paris: Presses universitaires de France, 1984).

وكتاب أ. أرجيرو الجميل: Astérios Argyriou, *Les Exégèses grecques de l'apocalypse à l'époque turque, 1453-1821: Esquisse d'une histoire des courants idéologiques au sein du peuple grec asservi*, Epistēmonikai pragmateiai. Seira philologikē kai theologikē; 15 (Thessalonikē: Hestaireia Makedonikān Spoudōn, 1982).

الثبت التعريفي

آر (Arpent): وحدة لقياس المساحات الزراعية معتمدة في أوروبا، وهي تختلف من جهة إلى جهة، وهي تعادل ما بين 9 و14 آراً في العهد الكارولنجي (751ـ887)، ثم تطورت في الفترات اللاحقة لتعادل ما بين 30 و51 آراً. وتعادل هذه الوحدة في باريس 19,34 آر.

أذكار التوقيت (Les Chants des heures): هي لحظات مخصصة لتلاوة الكتاب المقدس أو الأذكار تقسم يوم الرهبان على فترات تساوي كل واحدة ثلاث ساعات تقريباً. وبذلك أصبحت هذه الأذكار تقسيماً للزمن في المجتمع المسيحي الغربي الذي تسير وفقه حياة الناس عموماً:

الأذكار الليلية (Vigiles, office de la nuit)

تسابيح الفجر (Laudes, louanges de l'Aurore)

صلاة السحر (حوالى الساعة السادسة صباحاً) (Matines)

الثالثة (التاسعة صباحاً): (Tierce)

السادسة (منتصف النهار): (Texte)

الزوال (الساعة الثالثة بعد الزوال) (None)

صلاة الستار (الساعة الخامسة مساءً) (Vêpre)

المساء أو صلاة الختام (Complies)

الإذن بجمع العنب (Bans de Vendange)

الأميرية (الزيارات) (Entrée princière): تطلق هذه التسمية على الزيارة التي يقوم بها أمير أو ملك إلى مدينة من مدن مملكته بعدما يتم تتويجه، وتطلق عليها أيضاً تسمية «الدخول السعيد» (Joyeuse entrée). وهي مناسبة احتفالية تتكرر كلما قام الأمير أو الملك بزيارة أية مدينة. وتعدّ هذه الاحتفالات من مظاهر الاحتفاء بصاحب السلطة، وهي وإن كانت باهظة التكاليف تعبر عن ولاء الطبقات المتنفذة بما أنها هي التي تتحمل تلك المصاريف.

أوك (Oc): تعني كلمة «أوك» «نعم» في العصر الوسيط في المنطقة الواقعة جنوب نهر اللوار (La Loire) تقريباً. وتضم العديد من اللهجات التي تنطق فيها «نعم» بـ «أوك» مثل اللهجة الأكسيتانية والبروفانسية. وهي المنطقة التي تتعارض مع المنطقة الناطقة بالأويل **(Oïl)**.

الأويل (Oïl): تعني كلمة «أويل» «نعم» في العصر الوسيط في المنطقة الواقعة شمال نهر اللوار تقريباً. وهي لغة هذه المناطق التي تحتوي على عدة لهجات، مثل اللهجات البيكارية (Dialecte picard)، والبورغوندية (Dialecte bourguignon)، والأنجلونورمنديا (Dialecte anglo-normand)، والفرنجية (Dialecte francien). وتعتبر لغتا الأوك والأويل من مميزات الهوية في فرنسا في العصر الوسيط.

إيثولوجيا (Ethologie): كلمة مركبة من عبارتين يونانيتين: «إيتوس» (Ethos) بمعنى الخلق أو الغاية الأخلاقية، وكلمة

«لوغوس» (Logos) بمعنى «علم». وهو علم يهتم بالسلوك الإنساني وبعلم النفس. وهو يتكون من وحدات سلوك لها أسس وراثية، ولكنها تطورت بحكم الانتخاب الطبيعي إلى إشارات من أجل توصيل الحالات الانفعالية[1].

بوفين (معركة يوم الأحد في بوفين) (Dimanche de Bouvines): بوفين هو اسم معركة وقعت يوم الأحد 27 تموز/ يوليو 1214 في سهل بوفين في منطقة الفلاندر في المنطقة الحدودية بين مملكة الكابيسيين (Capétiens) والإمبراطورية الجرمانية. وقعت هذه المعركة بين ملك فرنسا فيليب أوغست (Philippe Auguste) يعاضده فرسان مملكته والبعض من رعاياه من جهة، الإمبراطور والملك الألماني أوتو دو برنشفيك (Otto de Brunswick) وفي الجهة المقابلة ومعه مونت الفلاندر وكونت بولونيا اللذين يدعمهما مادياً ملك إنجلترا جان الملقب «بلا أرض» (Jean Sans Terre). وقد وقعت الحرب رغماً عن ملك فرنسا الذي كان يتهرب منها بسبب عدم رغبته في «خرق السلم الربانية» التي كانت الكنيسة تفرضها. وتقول المصادر بأن الله قد منَّ عليه بالنصر. لقد هرب الإمبراطور الألماني ووقع الكونتان في الأسر، حتى إن هذه المعركة بقيت عبرة «للذين يتمردون على القرارات البابوية»، وهو ما جعلها تأخذ بعداً رمزياً في التاريخ والذهنية الفرنسيين في الدرجة الأولى.

الجنسينية (Le Jansénisme): تعليم مسيحي من وضع الأسقف كرنيليوس جانسانيون (1585 ـ 1638؟) يدور على الفساد التام للطبيعة البشرية بسبب الخطيئة الأصلية وإنكار حرية الإرادة، إذ يظل الإنسان

---

(1) انظر: مراد وهبة، **المعجم الفلسفي، معجم المصطلحات الفلسفية**، ط 4 (القاهرة: [دار القباء للطباعة والنشر]، 1998)، ص 22 ـ 23.

من هذا المنظور رهن الإرادة الإلهية، فهو يعتبر إقرار الاختيار المسبق بدعة في نظر الكنيسة. وقد ازدهرت هذه النظرية المتشددة في فرنسا، وخصوصا في الأوساط البورجوازية. وكانت الجنسينية، علاوة على طابعها العقائدي، موقفاً ذهنياً معادياً لليسوعيين الذين تتهمهم بالانحلال والخضوع للملكية المطلقة.

الحلزونيون (Coquillards): تطلق هذه التسمية على المسيحيين الذين يحجون على القديس جان دي كومبستال (Saint Jean de Compostelle) لأنهم يخملون معهم أصداف الحلزون التي جمعوها كرمز لأدائهم مناسك هذا الحج. كما تطلق هذه التسمية على مجموعة من المتشبهين بالحجيج من بين المتسولين والصعاليك.

الرابطة الفيودالية (Ligue féodale): هي تحالف فيودالي ضد الملك لويس الحادي عشر وضد توسع نفوذه. وهي رابطة تكونت للوقوف أمام ازدياد النفوذ الإداري الذي يقلص من نفوذ الأسياد ويخضعهم للجباية. وقد تزعم هذا التحالف شارل دو فرانس (Charles de France) أخ الملك الذي يدعمه بعض الأمراء والكونتات. وقد أدى هذا التحالف على الثورة على سلطة الملك في شهر آذار/ مارس من سنة 1465، وهي ثورة أوشكت أن تعصف بملكه لولا الانشقاقات التي حصلت في صفوف المتحالفين والمناورات التي قام بها الملك من أجل كسب بعض الثائرين. وقد انتهت هذه الثورة بتوقيع معاهدة مع الثائرين في تشرين الأول/ أكتوبر 1465، منح بمقتضاها منطقة نورمنديا لأخيه، وبعض الضيعات إلى شارل لو تيميرار (Charles le Téméraire) كما زوجه ابنته آن (Anne). ولم يحصل الآخرون على شيء.

الدائرة ((Rouelle (Roue, Rota, Rotella)): تعني الدائرة الصغيرة، وتعني في العصر الوسيط علامة مميزة يخيطها اليهودي

على صدر ثيابه (منذ سن السابعة من عمره تقريباً)، ثم في ما بعد المسلم الذي يعيش في أوروبا المسيحية. فرضها مجمع لاتران الرابع سنة 1215، بعدما كانت ممارسة غير معممة بحسب الجهات. وهي تتسع وتضيق من جهة إلى جهة أخرى. ويبدو أن شكلها الدائري يرمز إلى النقود كدلالة على بخل اليهود، أما لونها فهو غير قار، فقد كان في البداية يغلب عليه اللون الأصفر كدلالة على شر اليهود، ثم أصبح يعتمد فيه الأحمر والأبيض بحسب الجهات. والهدف من استعماله هو تمييز غير المسيحيين من يهود ومسلمين (بعد الاستيلاء على صقلية وعلى أجزاء هامة من الأندلس) حتى لا يحصل إدماجهم في المجتمع المسيحي الغربي، وهو مجتمع الأغلبية. وتوافق هذه الدائرة في الحضارة العربية الإسلامية ما يسمى بالغيار والزنار والشكلة.

دلائل الاعتراف (Pénitentiels): كتابات ظهرت في القرنين السادس والسابع ميلاديين في الأديرة الإيرلندية وفي بلاد الغال (Pays de Galle)، وقع فيها تعداد الخطايا التي تستحق العقاب ونوعية العقاب ونوعية الاستتابة التي على المؤمن أداؤها. وهي عبارة عن دلائل للاعتراف من خلالها يمكن لرجل الدين الذي يتقبل الاعتراف بالخطايا القيام بالوعظ المناسب والاستتابة المطلوبة بحسب كل خطيئة مرتكبة.

الكاميزار (Camisards): أطلقت هذه التسمية في فرنسا في عهد لويس السادس عشر على أنصار المذهب الكلفيني في منطقة السيفين (Les Cévennes) الذين ثاروا على الاضطهاد الديني الذي تواصل بعد إصدار مرسوم نانت (Edit de Nantes) (1685). وقد أطلقت عليهم هذه التسمية لأنهم كانوا يرتدون قمصاناً بيضاء فوق ثيابهم الخارجية للتعارف في ما بينهم في أثناء المعارك الليلية. وقد نجحت ثورة

هؤلاء الناس التي يؤطرها حرفيون صغار ورعاة في الصمود أمام الجيوش الملكية لمدة ثلاث سنوات (1702 ـ 1705).

مبينوجيون بلاد الغال (Mabinogion gallois): تطلق هذه التسمية على نوع من الأدب القصصي الذي نشأ في أوروبا في العصر الوسيط. وهي أقاصيص تروي بطولات الفرسان، متأثرة بالإرث السلتي في إنجلترا حيث تختلط فيها الروايات النورمانية والسلتية. توجد مجموعة هامة من هذه النصوص مخطوطة في المكتبة اليسوعية في أكسفورد، وقد نشر بعضها منذ القرن التاسع عشر. وقد كتبت باللغة الإنجليزية واللغة القائيلية (Gaélique).

المجدولي (Magdalénien): تطلق هذه التسمية على الرسوم الصخرية التي تعود إلى ما قبل التاريخ، والتي عثر عليها في مغارة مادلان (Madeleine) في منطقة دردوني (Dordogne) في فرنسا.

المكتبة الزرقاء (Bibliothèque bleue): تستمد اسمها من لون الورق الذي تغلف به كتبها. وهي مجموعة من الأقاصيص الشعبية في أوروبا الحديثة. وقد انتشرت هذه الأقاصيص منذ العصر الوسيط ومرت بمراحل مختلفة من الزيادات والتغييرات بحسب متطلبات الجهات والعصور. وهي قصص يمتزج فيها الخيال بالحقيقة، وتلبس فيها قصص الشمال بواقع الجنوب، وتدمج فيها مغامرات الفرسان في أحداث الحروب الصليبية، وهي تشبه في بعض جوانبها **ألف ليلة وليلة** أو **سيرة عنترة العبسي**. وقد كان التجار المتنقلون يبيعون من ضمن بضاعتهم هذه القصص التي تقرأ بصوت مرتفع في السهرات العائلية الريفية عندما يتوفر من يحسن القراءة من خارج الإطار الكنسي نظراً إلى عدم خضوع محتوياتها لأخلاقيات الكنيسة في أغلب الأحيان.

نيسياس (Nicias): هو اسم لقائد عسكري ورجل سياسية أثيني (ولد حوالى سنة 470 قبل الميلاد، وتوفي في سراقوسة في صقلية سنة 413 قبل الميلاد. لمع نجمه في حرب البيلوبوناز، وهو الذي وقّع معاهدة سلم نيسياس سنة 421 ق. م. مع مدينة سبارطة (Sparte).

الوسيط (العصر) (Moyen âge): يقسم الزمن التاريخي إلى عدة عصور:

ـ العصر القديم يمتد من اكتشاف الكتابة حوالى عام 3600 قبل الميلاد إلى تاريخ سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة 476 بعد الميلاد.

ـ العصر الوسيط، وهو يمتد على فترة تبلغ 1000 سنة تقريباً من 476 بعد الميلاد إلى سقوط القسطنطينية (1453) بالنسبة إلى البعض أو إلى سنة 1492 (تاريخ سقوط غرناطة). وينقسم العصر الوسيط بدوره إلى العصر الوسيط المتقدم الذي يبدأ مع بداية العصر الوسيط وينتهي بنشأة الإمبراطورية الكارولنجية (كانون الأول/ ديسمبر 800). ومن هذا التاريخ يبدأ العصر الوسيط الذي ينتهي مع بداية القرن الثالث عشر، ثم العصر الوسيط المتأخر الذي ينتهي بنهاية العصور الوسطى. وهذه التسمية هي تسمية مشحونة بنوع من التحقير لهذه الفترة التي كانت على فترة قريبة تعني فترة سبات الحضارة. كانت فترة مظلمة جاءت بين عصري ازدهار، وهو ما يبرر استعمال عبارة «عصر النهضة» للتعبير عن الفترة اللاحقة. ومن الملاحظ أن هذه التسمية التحقيبية لا تعني تاريخ العالم غير الأوروبي، ولكنها فرضت على غير أوروبا. من ذلك ما نسميه بـ «التاريخ الوسيط» وفي الحضارة العربية الإسلامية لا أساس له من الدقة العلمية. وفي العصر الذي اعتبر فيه الأوروبيون حضارتهم في سبات، كان العالم

الإسلامي والعالم السلافي الروسي بالخصوص في أوج الازدهار بالنسبة إلى ذلك الوقت. لذلك يحتاج التاريخ العربي الإسلامي إلى مراجعة في مستوى التحقيب، وهو ما لا يريده مؤرخوه ممن انضوى تحت الراية الاصطلاحية الأوروبية الغربية (التحقيب اليوناني لا يخضع للتحقيب الأوروبي الغربي)، حتى ولو كانت مضللة أو ليست مظللة.

ـ الفترة الحديثة: تبدأ هذه الفترة مع نهاية العصر الوسيط، وتنتهي بالثورة الفرنسية 1789. وتعتبر هذه الفترة فترة تحديث للحضارة الأوروبية، وقد ارتبطت بها كل اصطلاحات الحداثة والتحديث والتعصير والتقدم، إلى غير ذلك من المصطلحات المشحونة بكل ما هو إيجابي.

ـ التاريخ المعاصر من الثورة الفرنسية إلى يوم الناس هذا. ويندس فيه ما يسمى بـ «التاريخ الآني».

ثبت المصطلحات

Erudition	إبحار علمي
Ethnologie	إثنولوجيا
Ether	أثير
Sociabilité	اجتماعوية
Eschatologique	أخروية
Archipel du Goulag	أرخبيل الغولاغ
Inceste	استباحة محارم
Intérioriser	استبطن
Mythe	أسطورة
Problématique	إشكالية
Réforme	إصلاح ديني
Hauts de chausse	أعلى الجوارب
Econométrie	اقتصاد عددي
Longue durée	أمد طويل
Possibilisme	إمكانوية
Anthropologie	أنثروبولوجيا

Humaniste	إنسانوي
Humanisme	إنسانوية
Clivage	انشطار
Immédiatiste	أنوي
(Langue d') Oc	أوك (لغة)
(Langue d') Oïl	أويل (لغة)
Epistémologie	إيبستيمولوجيا
Ethologie	إيثولوجيا
Icône	أيقونة
Iconographie	إيقونوغرافيا
Ecologie	إيكولوجية
Beffroi	برج مدينة أو برج كنيسة
Démonstration	برهنة
Structure	بنية
Structural	بنيوي
Structuralisme	بنيوية
Grenier	بيت فوق سطوح
Histoire	تاريخ
Histoire immédiate	تاريخ آني
Histoire sociale	تاريخ اجتماعي
Histoire socio-économique	تاريخ اجتماعي ـ اقتصادي
Histoire problématique	تاريخ إشكالي

Histoire économique	تاريخ اقتصادي
Histoire structurale	تاريخ بنيوي
Histoire historisante	تاريخ تاريخاني
Histoire traditionnelle, vielle histoire	تاريخ تقليدي
Histoire sérielle	تاريخ جداولي أو سلاسلي
Nouvelle histoire	تاريخ جديد
Histoire récit	تاريخ سردي
Histoire globale	تاريخ شمولي
Histoire en miettes	تاريخ فتاتي
Histoire quantitative	تاريخ كمي
Histoire érudite	تاريخ متبحر
Micro histoire	تاريخ مجهري
Histoire positiviste	تاريخ وضعي
Histoire évènementielle	تاريخ وقائعي
Infrastructurel	تحتبنيوي
Modernisation	تحديث
Baptême	تعميد
Quantification	تكميم
Représentation	تمثل
Représentations	تمثلات
Démarche	تمشي
Culture	ثقافة

Culture populaire	ثقافة شعبية أو ثقافة عامة (بحسب الحالات)
Culture savante	ثقافة عالمة
Culture matérielle	ثقافة مادية
Séries	جداول أو سلاسل
Sarcophage	جرن
Charnel	جسدي
Communauté	جماعة
Communautaire	جماعوية
Crânienne	جمجمية
Jansénisme	جنسينية
Esward des Ladres	حارس دمنة
Modernité	حداثة
Sensibilité	حساسية
Civilisation	حضارة
Office de Chœur	حفل قداس
Coquillards	حلزونيون
Les Annales (Revue et Ecole)	الحوليات (مجلة ومدرسة)
Vitaliste	حيوتي
Paroisse	خورنية
Rouelle	دائرة
Tubercule	درنة
Registres paroissiaux	دفاتر أسقفيات

Pénitentiels	دلائل اعتراف
Léproserie et maladrerie	دمنة
Sécularisation	دنيوة
Cave	دهليز
Cycle	دورة
Tour de France	دورة فرنسا
Etat	دولة (بالمعنى الحديث للكلمة في الغرب)
Durées	ديمومات
Durée	ديمومة
Mémoire	ذاكرة
Mémoire collective	ذاكرة جماعية
Mentalités	ذهنيات/ عقليات
Ligue féodale	رابطة فيودالية
Suette (maladie)	رحضاء (نوع من الأمراض)
Compagnonnage	رفقة
Etrier	ركاب
Romanie	رومانية
Temps	زمن
Temps très long	زمن بالغ الطول
Temps cyclique	زمن دوري
Temps long	زمن طويل
Temps court	زمن قصير

Temps passé	زمن ماض
Ascétisme	زهد
Entrée princière	زيارات أميرية
Lettre de change	سفتجة
Goitre	سلعة
Seigneurial	سيادي
Seigneur	سيد
Seigneur féodal	سيد فيودالي
Biographies	سير
Sémiologues	سيميائيين وسيميولوجيين
Thaumaturge	صانع معجزات
Rupestre	صخري
Faire de l'histoire	صناعة التاريخ (مصطلح خلدوني)
Image	صورة
Processus	صيرورة
Inventaire après décès	ضبط مخلف
Domaine seigneurial	ضيعة سيادية
Moeurs	طباع
Rite	طقس
Rituel	طقسي
Rites	طقوس
Collier d'attelage	طوق جر

Phénomène	ظاهرة
Conjoncture	ظرفية
Habitudes	عادات
Rationalisation	عقلنة
Paléontologie	علم إحاثة
Laïcisation	علمنة
Scientisme	علموية
Famille nucléaire	عائلة نووية
Manuels de confession	كتب توبة
Cahiers de doléance	كراسات شكاوي
Chevalerie	فرسانية
Hypothèse	فرضية
Beghards	فقراء اختياريون
Philosophie de l'histoire	فلسفة التاريخ
Immédiat	فوري
Immédiaté	فورية
Féodal	فيودالي
Féodalisme	فيودالي (نظام)
Féodalité	فيودالية
Norme	قاعدة
Rupture	قطيعة
Gothique	قوطية

Valeur chevaleresque	قيمة فرسانية
Non croyance	لااعتقاد
Non histoire	لاتاريخ
Sans Culottes	لامتسرولون
Inconscient	لاوعي
Baux de Dîmes	لزمة العشر
Mercuriales	لوائح أسعار
Imaginaire	متخيل
Béguines	متشبهات بالراهبات
Goliards	مثقفون رحل (غوليار)
Espace	مجال
Sociétés froides	مجتمعات باردة
Magdalénien	مجدولون
Travée	مجرى
Globalisant (e)	مجمع (ة)
Circonscrits	مجندون
Ecole positiviste	مدرسة وضعية
Scolastique	مدرسي
Chas (Trou d'une Aiguille)	مديد
Anthropocentrisme	مركزية أنثروبية (ذات)
Européocentrisme	مركزية أوروبية (ذات)

Mezzadria, Métayage	مزارعة أو مغاللة
	(عقد بين عامل فلاحي يتقاسم غلة الأرض مع المالك ويسمى كذلك الخماسة في بلاد المغرب)
Terroir	مزدرع
Purgatoire	مطهرة ذنوب
Trajectoire	مسار
Hôpital général	مستشفى عام (في باريس مثلا)
Cadastre	مسح عقاري
Hexagone	مسدس (تطلق هذه الصفة على فرنسا)
Source	مصدر
Croyances	معتقدات
Rationalisé	معقلن
Conceptuel	مفاهيمي
Concept	مفهوم
Approche	مقاربة
Normatif	منمذج
Méthode	منهجية
Les Grandes mortalités	الموتان الكبيران
Héritage	موروث
Monographie	مونوغرافيا
Institutionnel	مؤسسي
Indice	مؤشر

Attitude	موقف
Ex-voto	نذر
Rythme	نسق
Evolutionnisme	نشوء وارتقاء أو تطور
Ancien régime	نظام قديم
Mode social	نمط اجتماعي
Mode de production	نمط إنتاج
Modèle	نموذج
Renaissance	نهضة
Hérésie	هرطقة
Structurel	هيكلي
Fait historique	واقعة تاريخية
Médiéval	وسيطي
Positivisme	وضعية
Jacobine	يعقوبية

المراجع

I ـ العربية

الكتب

ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. **مقدمة ابن خلدون.** بيروت: دار إحياء التراث العربي، [1988].

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. **كتاب عيون الأخبار.** القاهرة: دار الكتب المصرية، 1925 ـ 1930.

التاريخ الإسلامي في تفسير جديد. تعريب عبد المجيد القيسي. [د. م.]: دار الوفاق، [د. ت.].

التيمومي، الهادي. **مفهوم التاريخ وتاريخ المفهوم في العالم الغربي من «النهضة» إلى «العولمة».** صفاقس: دار محمد علي الحامي للنشر، 2003.

جعيط، هشام. **الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر.** ترجمة خليل أحمد خليل. بيروت: دار الطليعة، 1992.

ــــــ. **الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية.** الكويت: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، 1986.

ــــــ. ــــــ. [ط 2]. بيروت: دار الطليعة، 1993.

حبيدة، محمد. **من أجل تاريخ إشكالي.** الدار البيضاء: ترجمات مختارة، 2004.

شعبان، محمد عبد الحي. **الثورة العباسية.** ترجمة عبد المجيد القيسي. [أبو ظبي]: دار الدراسات الخليجية، [1977].

الطالبي، محمد. **دراسات في تاريخ إفريقية في الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط.** تونس: منشورات الجامعة التونسية، 1982.

ـــــ. **الدولة الأغلبية، التاريخ السياسي، 184-296، 800-909 =** *L'Emirate aghlabide histoire politique, 184-296, 800-909.* نقله إلى العربية المنجي الصيادي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985.

العروي، عبد الله. **أصول الوطنية المغربية.** 1977.

ـــــ. **مجمل تاريخ المغرب.** بيروت: المركز الثقافي العربي، [1994].

ـــــ. **مفهوم التاريخ.** بيروت: المركز الثقافي العربي، 1992. 2 ج.

ج 1: **الألفاظ والمذاهب.**

ج 2: **المفاهيم والأصول.**

العلي، صالح أحمد. **التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري.** بيروت: دار الطليعة، [1969].

ميتشل، دينكن. **معجم علم الاجتماع.** تعريب إحسان محمد الحسن. ط 2. بيروت: دار الطليعة، 1986.

وهبة، مراد. **المعجم الفلسفي، معجم المصطلحات الفلسفية.** ط 4. القاهرة: [دار القباء للطباعة والنشر]، 1998.

المجلات

العلي، صالح أحمد. «الألوان في الحضارة العربية في العهود الإسلامية

الأولى.» مجلة المجمع العلمي العراقي: ع 26، 1975.
ــــــ. ــــــ. ــــــ: ع 27، 1976.

II ـ الأجنبية

Books

Abd ar-Raziq, Ahmad. *La Femme au temps des Mamlouks en Egypte.* [Le Caire]: Institut français d'archéologie orientale du Caire, 1973. (Textes arabes et études islamiques; t. 5)

Abel, Wilhelm. *Die Wüstungen des ausgehenden Mittelalters.* 3. neubearb. Aufl. Stuttgart: G. Verlag, 1976.

———. ———. Jena: G. Fischer, 1943. (Quellen und Forschungen zur Agrargeschichte; Bd. 1)

Agulhon, Maurice. *Le Cercle dans la France bourgeoise: 1810-1848, étude d'une mutation de sociabilité.* Paris: Armand Colin; écoles des hautes études en sciences sociales, 1977. (Cahiers des annales; 36)

———. *Pénitents et francs-maçons de l'ancienne Provence.* Paris: Fayard, 1968. (L'Histoire sans frontières)

———. *La République au village: Les Populations du Var de la révolution à la seconde république.* [Paris]: Plon, [1970]. (Civilisations et mentalités)

———. *Vie sociale en Provence intérieure au lendemain de la révolution.* Paris: Société des études robespierristes, 1970. (Bibliothèque d'histoire révolutionnaire. 3e série; 12)

Allegra, Luciano et Angelo Torre. *La nascità della storia sociale in Francia: Dalla Comune alle Annales.* Torino: Fondazione Luigi Einaudi, 1977. (Studi - Fondazione Luigi Einaudi; 22)

Alphandéry, Paul. *La Chrétienté et l'idée de croisade. Cours professé à l'école pratique des hautes études.* Texte établi par Alphonse Dupront. Paris: Albin Michel, 1954-1959. 3 vols. (L'Evolution de l'humanité, synthèse collective, 2. sect.; 38)
Vol. 1: *Les Premières croisades.* Avant-propos par Henri Berr.
Vol. 2: *Recommencements nécessaires, XIIe-XIIIe siècles.* Avant-propos par Paul Chalus

L'An mil. Présenté par Georges Duby. [Paris]: Julliard, 1967. (Coll. «archives»; 30)

Andreano, Ralf (dir.). *La Nouvelle histoire économique: Exposés de méthodologie = The New Economic History: Recent Papers on Methodology*. Traduit de l'anglais par Roger Gilles; dossier de la question par Jean Heffer. [Paris]: Gallimard, 1977. (Bibliothèque des histoires)

Antaki, Yehya ibn Sa'id. *Histoire de Yehya ibn Sa'id d'Antioche*. Ed. crit. du texte arabe préparée par Ignace Kratchlovsky; trad. française annotée par Françoise Micheau et Gérard Troupeau. Turnbout (Belgique): Brepols, 1977. (Patrologia orientalis; 47, 4)

Argyriou, Astérios. *Les Exégèses grecques de l'apocalypse à l'époque turque, 1453-1821: Esquisse d'une histoire des courants idéologiques au sein du peuple grec asservi*. Thessalonikē: Hestaireia Makedonikān Spoudōn, 1982. (Epistēmonikai pragmateiai. Seira philologikē kai theologikē; 15)

Ariès, Philippe. *L'Enfant et la vie familiale sous l'ancien régime*. [Edition abrégée]. Paris: Editions du seuil, 1975. (Points. Série histoire; 20)

———. ———. [Nouv. éd.]. Paris: Editions du seuil, [1973]. (L'Univers historique)

———. ———. Paris: Plon, [1960]. (Civilisations d'hier et d'aujourd'hui)

———. *L'Histoire des populations françaises et de leurs attitudes devant la vie depuis le XVIIIe siècle*. Paris: Editions du seuil, [1971].

———. ———. Paris: SELF, 1948.

———. *L'Homme devant la mort*. Paris: Editions du seuil, 1977. (L'Univers historique)

———. *Le Temps de l'histoire*. Préface de Roger Chartier. Paris: Editions du seuil, 1986. (L'Univers historique)

———. ———. Monaco: Editions du rocher, 1954.

——— et Georges Duby (dirs.). *Histoire de la vie privée*. Paris: Editions du seuil, 1985-1987. 5 vols. (L'Univers historique)

Arnold, Odile. *Le Corps et l'âme: La Vie des réligieuses au XIXe siècle*. Préface de Jean-Pierre Peter. Paris: Editions du seuil, 1984. (L'Univers historique)

Aron, Jean Paul. *Essai sur la sensibilité alimentaire à Paris au XIXe siècle*. Paris: Armand Colin, 1967. (Cahiers des annales; 25)

———. *Le Mangeur du XIXe siècle*. Paris: Denoël-Gonthier, 1976.

(Bibliothèque médiations; 142)
———. ———. Paris: R. Laffont, [1973].
———, Paul Dumont et Emmanuel Le Roy Ladurie. *L'Anthropologie du conscrit français d'après les comptes numériques et sommaires du recrutement de l'armée (1819-1826), présentation cartographique.* Paris; La Haye: Mouton, 1972. (Civilisations et sociétés)
Atiya, Aziz Suryal. *Crusade, Commerce and Culture.* Bloomington: Indiana University Press; London: Oxford University Press, 1962.
Augé, Marc. *Pouvoirs de vie, pouvoirs de mort: Introduction à une anthropologie de la repression.* Paris: Flammarion, 1977. (Science)
Aujourd'hui l'histoire: Enquête de la «nouvelle critique», [1968-1973]. Avec la collaboration de Jacques Berque [et al.]; [préface par A. Casanova et F. Hincker]. Paris: Editions sociales, 1974.
Aurigemma, Luigi. *Le Signe zodiacal du scorpion dans les traditions occidentales: De L'Antiquité gréco-latine à la renaissance.* Paris; La Haye: Mouton, 1976. (Civilisations et sociétés; 54)
Baczko, Bronislav. *Lumières de l'utopie.* Paris: Payot, 1978. (Critique de la politique)
Baehrel, René. *Une Croissance: La Basse-Provence fin XVIe siècle - 1789, essai d'économie historique statistique.* [Paris]: S. E. V. P. E. N., 1961. (Démographie et sociétés)
Bakhtin, Mikhail Mikhailovich. *L'Oeuvre de François Rabelais et la culture populaire du moyen âge et sous la renaissance.* Traduit du russe par André Robel. Paris: Gallimard, 1970. (Bibliothèque des idées)
Balandier, Georges. *Anthropologie politique.* 3ème éd. Paris: Presses universitaires de France, 1978. (Le Sociologue; 12)
Ballard, Martin (ed.). *New Movements in the Study and Teaching of History.* London: Maurice Temple Smith, 1970.
Baltrušaitis, Jurgis. *Le Moyen âge fantastique: Antiquités et exotismes dans l'art gothique.* Paris: Armand Colin, 1955. (Collection Henri Focillon; 3)
Barnes, Harry Elmer. *The New History and the Social Studies.* New York: The Century, 1925.
Barraclough, Geoffry. *Tendances actuelles de l'histoire = Main*

Trends in History. Paris: Flammarion, 1980. (Champs)
Barthes, Roland. *Mythologiques*. Paris: Editions du seuil, 1957.
Bastide, Roger. *Les Réligions africaines du Brésil: Vers une sociologie des interpénetrations de civilisations*. Paris: Presses universitaires de France, 1960.
—— (ed.). *Sens et usage du terme structure dans les sciences humaines et sociales*. Paris; La Haye: Mouton, [1963].
Le Bâtiment: Enquête d'histoire économique XVIe-XIXe siècles. Paris; La Haye: Mouton, 1971-. (Industrie et artisanat; 6)
Beaune, Colette. *Naissance de la nation France*. [Paris]: Gallimard, 1985. (Bibliothèque des histoires)
Belmont, Nicole. *Arnold van Gennep: Créateur de l'ethnographie française*. Paris: [Payot, 1974]. (Collection science de l'homme. Petite bibliothèque de payot; 232)
———. *Mythe et croyances dans l'ancienne France*. Paris: Flammarion, [1973]. (Questions d'histoire; 35)
Beresford, Maurice et John Hurst (eds.). *Deserted Medieval Villages: Studies*. London: Lutterworth Press, 1972.
Bernestein, Carl et Bob Woodward. *Les Fous du président = All the President's Men*. Traduit de l'américain par Claudine Cowen. Paris: Laffont, 1974. (Notre époque)
Berr, Henri. *L'Histoire traditionnelle et la synthèse historique*. Paris: F. Alcan, 1921. (Bibliothèque de philosophie contemporaine)
———. *La Synthèse en histoire: Essai critique et théorique*. Paris: F. Alcan, 1911. ([Bibliothèque de philosophie contemporaine])
———. *La Synthèse en histoire: Son rapport avec la synthèse générale*. nouv. éd. rév. et mise à jour. Paris: Albin Michel, 1953. (L'Evolution de l'humanité, synthèse collective. Série complémentaire)
Bertin, Jacques. *La Graphique et le traitement graphique de l'information*. Avec la collaboration de Serge Bonon [et al.]. Paris: Flammarion, 1977. (Nouvelle bibliothèque scientifique)
Besançon, Alain. *L'Histoire psychanalytique: Une Anthologie, recueil de textes présentés et commentés*. Paris; La Haye: Mouton, [1974]. (Le Savoir historique; 7)
———. *Le Tsarévitch immolé, la symbolique de la roi dans la culture russe*. Paris: Plon, 1967. (Recherches en sciences humaines; 23)
Biraben, Jean Noël. *Les Hommes et la peste en France et dans les pays européens et méditeranéens*. Paris; La Haye: Mouton,

1975. 2 vols. (Civilisations et sociétés; 35-36)
Vol. 1: *La Peste dans l'histoire.*
Vol. 2: *Les Hommes face à la peste.*

Bloch, Marc. *Apologie pour l'histoire, ou, métier d'historien.* 5ème édition. Paris: Armand Colin, 1964. (Cahiers des annales; 3)

———. ———. Paris: Armand Colin, 1949. (Cahiers des annales; 3)

———. *Les Caractères originaux de l'histoire rurale française.* Oslo: H. Aschehoug; Leipzig: O. Harrassowitz; Paris: Les Belles lettres; London: Williams and Norgate; Cambridge: Harvard University Press, 1931.

———. *Les Rois thaumaturges: Etudes sur le caractère surnaturel attribué à la puissance royale particulièrement en France et en Angleterre.* Préface de Jacques Le Goff. Nouv. éd. [Paris]: Gallimard, 1983. (Bibliothèque des histoires)

———. ———. Paris: Armand Colin, 1961.

———. *La Société féodale.* Paris: Albin Michel, 1968. (L'Evolution de l'humanité. Synthèse collective; 8)

———. *La Société féodale: La Formation des liens de dépendance.* [Avant-propos de Henri Berr. 2e mille]. Paris: Albin Michel, 1939. (L'Evolution de l'humanité. Synthèse collective; 34)

Blondel, Charles. *Introduction à la psychologie collective.* Paris: Armand Colin, 1928. (Collection Armand Colin; 102)

Blumenkranz, Bernard (dir.). *Histoire des juifs de France.* Toulouse: E. Privat, 1972. (Collection franco-judaca; 1)

Boesch Gajano, Sofia. *Agiografia altomedioevale.* Bologne: Il Mulino, [1976]. (Serie de storia)

Bois, Guy. *Crise du féodalisme: Economie rurale et démographique en Normandie orientale du début du 14e siècle au milieu du 16e siècle.* Paris: Presses de la fondation nationale des sciences politiques, 1976. (Cahiers de la fondation nationale des sciences politiques; 202)

Bois, Paul. *Paysans de l'ouest: Des Structures économiques et sociales aux options politiques depuis l'époque révolutionnaire, dans la Sarthe.* [Paris]: Flammarion, [1971]. (Science)

Bollème, Genviève (ed.). *La Bible bleue: Anthologie d'une littérature «populaire».* Appendice et index établis par Nora Scott. Paris: Flammarion, 1975.

———. *La Bibliothèque bleue: Littérature populaire en France du*

XVIIe siècle au XIXe siècle. [Paris: Julliard, 1971]. (Collection archives; 44)

Bonin, Serge et Claude Langlois (dirs.). *Atlas de la révolution française*. Paris: Editions de l'école des hautes études en sciences sociales, 1987. 11 vols. (Librairie du bicentenaire de la révolution française)

Vol. 1: *Routes et communications*. Direction scientifique Guy Arbellot et Bernard Lepetit; conception graphique Jacques Bertrand.

Bonnet, Serge (ed.). *Prières secrètes des français d'aujourd'hui*. Paris: Editions du cerf, 1976. (Epiphanie)

Bouchard, Gérard. *Le Village immobile: Sennely en Sologne au XVIIIe siècle*. [Paris]: Plon, [1972]. (Civilisations et mentalités)

Bourdé, Guy et Hervé Martin. *Les Ecoles historiques*. Paris: Editions du seuil, 1983. (Points. Histoire; H67)

Bourgeois, Albert. *Lépreux et maladreries du Pas-de-Calais (Xe-XVIIIe siècles), psychologie collective et institutions charitables*. Préf. de Marcel Baudot et de Marcel Candille. Arras: [Commission départementale des monuments historiques du Pas-de-Calais], 1972. (Mémoires de la commission départementale des monuments historiques du Pas-de-Calais; xiv, 2)

Bouvier, Jean. *Initiation au vocabulaire et aux mécanismes économiques contemporaines (XIXe-XXe siècles)*. Paris: S. E. D. E. S., 1969. (Regards sur l'histoire; 7)

Braudel, Fernand. *Civilisation matérielle, économie et capitalisme, XVe-XVIIIe siècles*. Paris: Armand Colin, 1979-.

———. *Civilisation matérielle et capitalisme, XVe-XVIIIe siècle*. Paris: Armand Colin, 1967-. (Destins du monde)

———. *Ecrits sur l'histoire*. [Paris]: Flammarion, [1969-]. (Science de l'histoire)

———. *L'Identité de la France*. Paris: Arthaud; Flammarion, 1986. 2 vols.

Vol. 1: *Espace et histoire*.

Vol. 2: *Les Hommes et les choses*. 2 vols.

———. *Une Leçon d'histoire de Fernand Braudel: Châteauvallon, Journées Fernand Braudel, 18, 19 et 20 octobre 1985*. Paris: Arthaud; Flammarion, 1986.

———. *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de*

Philippe II. 3ème éd. Paris: Armand Colin, 1976. 2 vols.
———. ———. Paris: Armand Colin, 1949.
———. *Vie matérielle et capitalisme*. Paris: Armand Colin, 1967.
Bresc, Henri. *Arabes de langue, juifs de réligion: L'Evolution du judasme sicilien dans l'environnement latin, XIIe-XVe siècles*. Paris: Bouchène, 2001.
Buchanan, Robert Angus. *Industrial Archeology in Britain*. London: Allen Lane, 1972.
Burguière, André. *Bretons de Plozévet*. Nouvelle éd. Paris: Flammarion, 1978. (Champs, ISSN 0151-8089; 38)
———. ———. Préface de Robert Gessain. [Paris]: Flammarion, 1975. (Bibliothèque d'ethnologie historique)
——— (dir.). *Dictionnaire des sciences historiques*. Paris: Presses universitaires de France, 1986.
——— [et al.] (dirs.). *Histoire de la famille*. Paris: Armand Colin, 1986. 2 vols.
Vol. 1: *Mondes lointains, mondes anciens*. [Préf. par Claude Lévi-Strauss et Georges Duby].
Vol. 2: *Le Choc des modernités*. [Préf. par Jack Goody].
Caillois, Roger et Gustave von Grunebaum (dirs.). *Le Rêve et les sociétés humaines = The Dream and Human Societies*. Avec la collaboration de R. Bastide [et al.]. Paris: Gallimard, 1967. (Bibliothèque des sciences humaines)
Carandini, Andrea. *Archeologia e cultura materiale: lavori senza Gloria nell'anticità classica*. Bari: De Donato, [1975].
Carbonell, Charles Olivier. *L'Historiographie*. Paris: Presses universitaires de France, 1981. (Que sais-je?; 1966)
Caro Baroja, Julio. *Las brujas y su mondo; con varia ilus*. Madrid: Revista de occidente, [1961].
———. *Les Sorcières et leur monde = Las brujas y su mondo*. Traduit de l'espagnol par [Marie-Amélie] Sarvailh. [Paris]: Gallimard, 1972. (Bibliothèque des histoires)
Castan, Yves. *Honnêteté et relations sociales en Langhedoc, 1715-1780*. Paris: Plon, [1974]. (Civilisations et mentalités)
Certeau, Michel de. *L'Absent de l'histoire*. [Tours]: Mame, [1973]. (Repères. Sciences humaines et idéologies; 4)
———. *L'Ecriture de l'histoire*. [Paris]: Gallimard, [1975]. (Bibliothèque des histoires)

———. *La Fable mystique: XVIe-XVIIe siècle.* [Paris]: Gallimard, 1982. (Bibliothèque des histoires)

———. *La Possession de Loudun.* [Paris: Julliard, 1970]. (Collection archives; 37)

Chaunu, Pierre. *Histoire quantitative, histoire sérielle.* Paris: Armand Colin, 1978. (Cahiers des annales; 37)

———. *Histoire, science sociale: La Durée, l'espace et l'homme à l'époque moderne.* 2ème éd. Paris: Société d'édition d'enseignement supérieur, 1983. (Regards sur les sciences humaines)

———. ———. Paris: Société d'édition d'enseignement supérieur, 1974-.

———. *La Mort à Paris: XVIe, XVIIe et XVIIIe siècles.* Paris: Fayard, 1978.

——— et Huguette Chaunu. *Séville et l'atlantique, 1504-1650.* Préface de Lucien Febvre. Paris: Armand Colin; S. E. V. P. E. M., 1955-1959. 8 vols. (Ecole pratique des hautes études. 6. section. Centre de recherches historiques. Ports, routes, traffics; 6)

Chesneaux, Jean. *Du Passé faisons table?: A Propos de l'histoire et des historiens.* Paris: F. Maspero, 1976. (Petite collection maspero; 164)

Chevalier, Louis. *Classes labourieuses et classes dangereuses à Paris pendant la première moitié du XIXe siècle.* [Paris]: Plon, [1958]. (Civilisations et mentalités)

Cohn, Norman. *Histoire d'un mythe: La Conspiration juive et les protocoles des sages de Sion = Warrant for Genocide.* Traduit de l'anglais par Léon Poliakov. [Paris]: Gallimard, 1967. (La Suite des temps)

Contamine, Philippe. *Guerre, état et société à la fin du moyen âge: Etudes sur les armées des rois de France, 1337-1494.* Paris; La Haye: Mouton, [1972]. (Civilisations et sociétés)

———. *La Vie quotidienne pendant la guerre de cent ans: France et Angleterre, XIVe siècle.* [Paris]: Hachette, 1976. (La Vie quotidienne)

Corbin, Alain. *Le Miasme et la jonquille: L'Odorat et l'imaginaire social XVIIIe-XIXe siècles.* Paris: Aubier - Montaigne, 1982. (Collection historique)

Coutau-Bégarie, Hervé. *Le Phénomène «nouvelle histoire»: Stratégie et idéologie des nouveaux historiens*. Paris: Economica, 1983.

Croce, Benedetto. *La Philosophie comme histoire de la liberté: Contre le positivisme*. [Traduit par Sophie Gherardi]. Textes choisis et présentés par Sergio Romano. Paris: Editions du seuil, 1983.

Cumont, Franz. *Lux Perpetua*. Paris: P. Geuthner, 1949.

———. *Recherches sur le symbolisme funéraire des Romains*. Paris: P. Geuthner, 1942. (Bibliothèque archéologique et historique; 35)

Dagron, Gilbert. *Constantinople imaginaire: Etudes sur le recueil des Patria*. Paris: Presses universitaires de France, 1984. (Bibliothèque byzantine. Etudes; 8)

Davis, Natalie Zemon. *Society and Culture in Early Modern France: Eight Essays*. Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1975.

De Liguori, Girolamo. *I «baratri della ragione»: Arturo Graf e la cultura del secondo Ottocento*. Presentazione di Eugenio Garin. Manduria: P. Lacaita, 1986. (Biblioteca di studi moderni; 25)

Delumeau, Jean. *Le Péché et la peur: La Culpabilisation en occident, XIIIe-XVIIIe siècles*. Paris: Fayard, 1983.

———. *La Peur en occident, XIVe-XVIIIe siècles: Une Cité assiégée*. Paris: Fayard, 1978.

De Martino, Ernesto. *La Terra del rimorso: Contributo a una storia religiosa del Sud*. [Milano]: Il Saggiatore, [1961]. (La Cultura; 42. Storia, critica, testi)

———. *La Terre du remords = La Terra del rimorso*. Traduit de l'italien par Claude Poncet. [Paris]: Gallimard, 1966. (Bibliothèque des sciences humaines)

Demians d'Archimbaud, Gabrielle. *Les Fouilles de Rougiers (Var): Contribution à l'archéologie de l'habitat rural médiéval en pays méditerranéen*. Paris: Editions du centre national de la recherche scientifique; Valbonne: Centre régional de publications de Sophia Antipolis, 1980. (Publications de l'U. R. A.; no. 6. Archéologie médiévale méditerranéenne. Mémoires; no. 2)

Des Repères pour l'homme. [Paris]: Association des professeurs d'histoire et géographie, bibliothèque publique d'information, centre Georges Pompidou, 1982.

Deslandres, Yvonne. *Le Costume, image de l'homme*. Paris: Albin Michel, 1976. (L'Aventure humaine)

Detienne, Marcel. *Dionysos mis à mort*. [Paris]: Gallimard, 1977. (Les Essais; 195)

——. *L'Invention de la mythologie*. [Paris]: Gallimard, 1981. (Bibliothèque des sciences humaines)

———. *Les Jardins d'Adonis*. Introd. de J. - P. Vernant. [Paris]: Gallimard, [1972]. (Bibliothèque des histoires)

Deyon, Pierre. *Amiens, capitale provinciale: Etude sur la société urbaine au 17e siècle*. Paris; La Haye: Mouton, 1967. (Civilisations et sociétés)

Dezobry, Charles et Théodore Bachelet. *Dictionnaire général de biographie et d'histoire, (de mythologie, de géographie ancienne et moderne comparée, des antiquités et des institutions grecques romaines, françaises et étrangères)*. 10ème éd. entièrement refondue par M. E. Darsy. Paris: C. Delagrave, 1889. 2 vols.

Dion, Roger. *Histoire de la vigne et du vin en France: Des Origines au XIXe siècle*. Paris: [L'Auteur], 1959.

Djaït, Hichem. *La Grande discorde: Réligion et politique dans l'islam des origines*. [Paris]: Gallimard, 1989. (Bibliothèque des histoires)

———. *Al-Kūfá, naissance de la ville islamique*. Paris: G. - P. Maisonneuve et larose, 1986. (Islam d'hier et d'aujourd'hui; 29)

Dodds, Eric Robertson. *Les Grecs et l'irrationnel = The Greeks and the Irrational*. Traduit de l'anglais par Michael Gibson. Paris: Editions montaigne, 1965.

———. ———. Paris: Flammarion, 1959. (Champs)

Dosse, François. *L'Histoire en miettes: Des «Annales» à la «nouvelle histoire»*. Paris: La Découverte, 1987. (Armillaire)

Duby, Georges. *Des Sociétés médiévales: Leçon inaugurale au collège de France prononcée le 4 décembre 1970*. [Paris]: Gallimard, [1971].

———. *Le Dimanche de Bouvines: 27 juillet 1214*. [Paris]:

Gallimard, 1973. (Trente journées qui ont fait la France; 5)
———. *L'Economie rurale et la vie des campagnes dans l'occident médiéval.* Paris: Editions montaigne, 1962. 2 vols. (Collection historique)
———. *Guerriers et paysans: VII-XIIe siècle, premier essor de l'économie européenne.* [Paris]: Gallimard, [1973]. (Bibliothèque des histoires)
———. *Guillaume le Maréchal, ou, le meilleur chevalier du monde.* [Paris]: Fayard, 1984. (Les Inconnus de l'histoire)
———. *Le Moyen âge: De Hugues Capet à Jeanne d'Arc, 987-1460.* [Paris]: Hachette, 1987. (Histoire de France hachette)
———. *Saint Bernard: L'Art cistercien.* Paris: Arts et métiers graphiques, 1976. (Les Grands bâtisseurs; 1)
———. *La Société aux XIe et XIIe siècles dans la région mâconnaise.* Paris: Armand Colin, 1953. (Bibliothèque générale de l'école pratique des hautes études, 6. section)
———. *Le Temps des cathédrales: L'Art et la société, 980-1420.* [Paris]: Gallimard, 1976. (Bibliothèque des histoires)
———. *Les Trois ordres: Ou l'imaginaire du féodalisme.* [Paris]: Gallimard, 1978. (Bibliothèque des histoires)
——— et Armand Wallon (dirs.). *Histoire de la France rurale.* [Paris]: Editions du seuil, 1975. 4 vols. (Collection l'univers historique)
Dumas, Maurice. *L'Histoire des techniques, son objet, ses limites, ses méthodes.* [s. l.: s. n.], 1969.
——— (ed.). *Histoire générale des techniques.* Préf. générale par Maurice Dumas. Paris: Presses universitaires de France, 1962-1979. 5 vols.
Dumézil, Georges. *Du Mythe au roman: La Saga de Hadingus (Saxo Grammaticus, I, v-viii) et autres essais.* Paris: Presses universitaires de France, 1970. (Collection hier)
———. *Mythe et épopée.* [Paris]: Gallimard, 1968-1973. 3 vols. (Bibliothèque des sciences humaines)
Vol. 1: *L'Idéologie des trois fonctions dans les épopées des peuples indo-européens.*
Vol. 2: *Types épiques indo-européens: Un Héros, un sorcier, un roi.*
Vol. 3: *Histoires romaines.*
———. *La Réligion romaine archaique avec un appendice sur la*

réligion des étrusques. 2ème éd. revue et corr. Paris: Payot, 1974. (Bibliothèque historique)

Dumont, Louis. *La Tarasque: Essai de description d'un fait local d'un point de vue ethnographique.* [Paris]: Gallimard, [1951]. (L'Espèce humaine; 8)

Dupaquier, Jacques. *Introduction à la démographie historique.* Paris: Gamma, [1974]. (Bibliothèque d'humanités contemporaines; 3)

Ehrard, Jean et Guy Palmade. *L'Histoire.* Paris: Armand Colin, [1964]. (Collection U. Série «lettres françaises»)

Elias, Norbert. *La Civilisation des mœurs = Über Prozess der Zivilisation.* [Paris: Calmann-Lévy, 1976].

———. ———. [Traduit de la 2ème éd. allemande par Pierre Kamnitzer]. [Paris]: Calmann-Lévy, [1973]. (Archives des sciences sociales)

———. *La Dynamique de l'occident.* Traduit de l'allemand par Pierre Kamnitzer. Paris: Calmann-Lévy, 1976. (Archives des sciences sociales)

———. *La Société de cour = Die höfische Gesellschaft.* Paris: Calmann-Lévy, 1977.

———. ———. [Traduit de l'allemand par Pierre Kamnitzer]. Paris: Calmann-Lévy, [1974].

———. *Über den Prozess der Zivilisation: soziogenetische und psychogenetische Untersuchungen.* Basel: Haus zum Falken, 1939. 2 vols.

Vol. 1: *Wandlungen des Verhaltens in den weltlichen Oberschichten des Abendlandes.*

Vol. 2: *Wandlungen der Gesellschaft; Entwurf zu einer Theorie der Zivilisation.*

Enciclopedia Einaudi. Torino: Einaudi, 1977-1984.

Encyclopaedia universalis. Paris: Encyclopaedia universalis France, 1968, 1974-1975. 20 vols.

Ethnologie et histoire: Forces productives et problèmes de transition. [Hommage à Charles Parain]. Avec la collaboration de Maurice Agulhon [et al.]. Paris: Editions sociales, 1975.

Evans-Pritchard, Edward. *Les Anthropologues face à l'histoire et à la réligion = Essays in Social Anthropology.* Traduction de l'anglais par Anne et Claude Rivière. Paris: Presses universitaires de France, 1974. (Sociologie d'aujourd'hui)

———. *Anthropologie sociale = Social Anthropology*. [Traduit de l'anglais par Monique Manin]; postface de Michel Panoff. Paris: Payot, 1969. (Petite bibliothèque payot; 132)
———. *Anthropology and History: A Lecture Delivered in the University of Manchester with the Support of the Simon Fund for the Social Sciences*. Manchester [Eng.]: University Press, [1961].
Faye, Jean Pierre. *Langages totalitaires: Critique de la raison narrative, [critique de] l'économie [narrative]*. [Paris]: Hermann, [1972].
Febvre, Lucien. *Combats pour l'histoire*. Paris: Armand Colin, 1953. (Collection économies, sociétés, civilisations)
———. *Encyclopédie française*. Paris: Société de gestion de l'encyclopédie française, [1935-1958]. 13 vols.
———. *Martin Luther: Un Destin*. Paris: Reider, 1928. (Christianisme; 27)
———. *Philippe II et la Franche-Comté: Etude d'histoire politique, réligieuse et sociale*. Paris: Flammarion, 1970. (Science de l'histoire; 24)
———. ———. Paris: H. Champion, [1911].
———. *Pour une histoire à part entière*. [Paris]: S. E. V. P. E. N., 1962. (Bibliothèque générale de l'école pratique des hautes études. 6e section)
———. *Le Problème de l'incroyance au XVIe siècle: La Réligion de Rabelais*. Paris: Albin Michel, 1962.
———. ———. éd. revue. Paris: Albin Michel, 1947.
———. ———. Paris: Albin Michel, 1942. (L'Evolution de l'humanité, synthèse collective; 53)
———. *Souvenirs d'une grande histoire: Marc Bloch et Strasbourg, mémorial des années 1939-1945*. Strasbourg: Faculté des lettres, [s. d.].
———. *La Terre et l'évolution humaine: Introduction géographique à l'histoire*. Avec le concours de Lionel Bataillon. Paris: Albin Michel, 1922.
Focillon, Henri. *L'An mil*. Paris: Armand Colin, 1952. (Collection Henri Focillon; 2)
———. *Art d'occident: Le Moyen âge roman et gothique*. Paris: Armand Colin, 1938.
Fossier, Robert. *Enfance de l'europe, Xe-XIIe siècles: Aspects*

économiques et sociaux. Paris: Presses universitaires de France, 1982. 2 vols. (Nouvelle clio; 17)
Vol. 1: *L'Homme et son espace.*
Vol. 2: *Structures et problèmes.*
———. *Paysans d'occident: XIe-XIVe siècles.* Paris: Presses universitaires de France, 1984. (L'Historien; 48)
Foucault, Michel. *L'Archéologie du savoir*. Paris: Gallimard, 1969. (Bibliothèque des sciences humaines)
———. *Folie et déraison: Histoire de la folie à l'âge classique*. Paris: Plon, [1961]. (Civilisations d'hier et d'aujourd'hui)
———. *Histoire de la sexualité.* Paris: Gallimard, 1976-. 3 vols. (Bibliothèque des histoires)
Vol. 1: *La Volonté de savoir.*
Vol. 2: *L'Usage des plaisirs.*
Vol. 3: *Le Souci de soi.*
———. *Les Mots et les choses: Une Archéologie des sciences humaines.* [Paris]: Gallimard, [1966]. (Bibliothèque des sciences humaines)
———. *Naissance de la clinique: Une Archéologie du regard médical.* Paris: Presses universitaires de France, 1963. (Galien; 1)
———. *Surveiller et punir: Naissance de la prison.* [Paris]: Gallimard, [1975]. (Bibliothèque des histoires)
———. *La Volonté de savoir*. Paris: Gallimard, 1976. (Bibliothèque des histoires)
Francastel, Pierre. *La Figure et le lieu: L'Ordre visuel du Quattrocento.* [Paris]: Gallimard, 1967. (Bibliothèque des sciences humaines)
——— (dir.). *Les Origines des villes polonaises: Mémoires et exposés de Mme Deminska [et al.].* Recueil de travaux publiés par Pierre Francastel. Paris; La Haye: Mouton, 1960. (Congrès et collogues; 2)
———. *Peinture et société: Naissance et destruction d'un espace plastique: De La Renaissance au cubisme*. Lyon: Audin, 1951.
———. ———. Paris: Denöel; Gonthier, 1977.
——— (ed.). *Utopie et institutions au XVIIIe siècle: Le Pragmatisme des lumières.* Textes recueillis par Pierre Francastel et suivis d'un essai sur l'esthétique des lumières. Paris: Mouton, 1963. (Congrès et collogues; 4)

Franklin, Alfred. *La Vie privée d'autrefois: Arts et métiers, modes, moeurs, usages des parisiens du XIIe au XVIIIe siècle d'après des documents originaux ou inédits.* Paris: E. Plon, nourrit et cie, 1887-1901. 23 vols.

Frazer, James. *The Golden Bough: A Study in Magic and Religion.* London: Macmillan, 1911-1915. 13 vols.

———. *Le Rameau d'or.* Ed. abrégée. Nouvelle traduction par Lady Frazer. Paris: P. Geuthner, [1924].

Friedmann, Georges. *La Crise du progrès: Esquisse d'histoire des idées. 1895-1935.* 2ème éd. Paris: Gallimard, [1936].

———. *De La Sainte Russie à l'U. R. S. S. six cartes hors texte.* Préface de Francis Jourdain. 5ème éd. Paris: Gallimard [1938]. (Problèmes et documents)

Furet, François. *L'Atelier de l'histoire.* Paris: Flammarion, 1982. (Science)

———. *Penser la révolution française.* [Paris]: Gallimard, 1978. (Bibliothèque des histoires)

——— et Denis Richet. *La Révolution.* [Paris]: Hachette, [1965-1966]. 2 vols. (Collection les grandes heures de l'histoire de France; 1-2)

Vol. 1: *Des Etats généraux au 9 thermidor.*

Vol. 2: *Du 9 thermidor au 18 brumaire.*

——— et Jacques Ozouf (dirs.). *Lire et écrire: L'Alphabétisation des français de Calvin à Jules Ferry.* [Paris]: Editions de minuit, 1977-. 2 vols. (Le Sens commun)

Furia, Daniel et Pierre Charles Serre. *Techniques et sociétés: Liaisons et évolutions.* Paris: Armand Colin, 1970. (Collection U)

Gaignebet, Claude et Marie-Claude Florentin. *Le Carnaval: Essais de mythologie populaire.* Préf. de Claude Mettra. Paris: Payot, 1974. (Le Regard de l'histoire)

Galasso, Guiseppe. *L'Italia come problema storiografico.* Torino: UTET, [1981]. (Storia d'Italia)

Gandillac, Maurice de, Lucien Goldmann [et] Jean Piaget (dirs.). *Entretiens sur les notions de genèse et de structure.* Paris: Mouton, 1965. (Congrès et colloques, 9)

Garden, Maurice. *Lyon et les lyonnais au XVIIIe siècle.* Paris: Les Belles lettres, 1970. (Bibliothèque de la faculté des lettres de Lyon; 18)

Gaulle, Charles de. *Mémoires de guerre*. Paris: Plon, [1954-1959]. 4 vols.

Geremek, Bronislaw. *Les Marginaux parisiens aux XIVe et XVe siècles = Ludzie marginesu w średniowiecznym Paryzu, XIV-XV wiek*. Traduit du polonais par Daniel Beauvois. [Paris]: Flammarion, 1976. (Révoltes et protestations. Collection l'histoire vivante; 0335-3249)

———. *La Potence ou la pitié: L'Europe et les pauvres du moyen âge à nos jours*. Trad. du [ms.] polonaise par Joanna Arnold-Moricet. [Paris]: Gallimard, 1987. (Bibliothèque des histoires)

Giesey, Ralph E. *Le Roi ne meurt jamais: Les Obsèques royales dans la France de la renaissance = The Royal Funeral Ceremony in Renaissance France*. Trad. de l'anglais par Dominique Ebnöther; préf. de François Furet. [Paris]: Flammarion, 1987. (Nouvelle bibliothèque scientifique)

Gilbert, Felix and Stephen R. Graubard (eds.). *Historical Studies Today*. New York: W. W. Norton, [1972].

Gillet, Marcel. *Technique de l'histoire économique: Exécution et commentaire de graphiques*. Paris: Centre de documentation universitaire, 1962.

Ginzburg, Carlo. *Les Batailles nocturnes: Sorcellerie et rituels agraires en Frioul, XVIe-XVIIe siècle = I Benandanti-stregoneria e culti agrari tra Cinquecento e Seicento*. Lagrasse: Verdier, 1980.

———. *I Benandanti: Recerche sulla stregoneria e sui culti agrari tra Cinquecento e Seicento*. Torino: G. Einaudi, 1966. (Biblioteca di cultura storica; 89)

———. *Il formaggio e i vermi: Il cosmo di un mugnaio del' 500*. Torino: G. Einaudi, 1976. (Einaudi Paperbacks; 65)

Girardet, Raoul. *L'Idée coloniale en France de 1871 à 1962*. Paris: La Table ronde, [1972]. (Mouvements d'idées)

Glénisson, Jean. *Vingt cinq ans de recherche historique en France (1940-1965)*. Paris: [s. n.], 1965. 2 vols.

Godelier, Maurice. *Horizon, trajets marxistes en anthropologie*. Paris: F. Maspero, 1973. (Bibliothèque d'anthropologie)

———. *Rationalité et irrationalité en économie*. Paris: F. Maspero, 1971. 2 vols. (Petite collection maspero; 81-82)

Goubert, Pierre. *Beauvais et le beauvaisis de 1600 à 1730: Contribution à l'histoire sociale de la France du XVIIe siècle.*

[Paris] S. E. V. P. E. N., 1960. (Démographie et sociétés; 3)
———. *Cent mille provinciaux au XVIIe siècle, Beauvais et le beauvaisis de 1600 à 1730*. Paris: Flammarion, 1968.
———. *Louis XIV et vingt millions de français*. [Paris]: Fayard, [1966]. (L'Histoire sans frontières)
Graf, Arturo. *Miti, leggende e superstizioni del Medio eve*. New York: B. Franklin, 1971. (Burt Franklin Research and Source Works Series; 858)
———. ———. Bologne: Faini, 1964.
———. ———. Torino: E. Loesches, 1892-1893. 2 vols.
Grmek, Mirko D. *Les Maladies à l'aube de la civilisation occidentale: Recherches sur la réalité pathologique dans le monde grec préhistorique, archaïque et classique*. Paris: Payot, 1983. (Médecine et sociétés)
Groethuysen, Bernard. *Origines de l'esprit bourgeois en France. 1. L'Eglise et la bourgeoisie*. Paris: Gallimard, 1977.
———. ———. Paris: Gallimard, 1927. (Bibliothèque des idées; 1)
Gruzinski, Serge. *La Colonisation de l'imaginaire: Sociétés indigènes et occidentalisation dans le Mexique espagnol, XVIe-XVIIIe siècles*. [Paris]: Gallimard, 1988. (Bibliothèque de l'histoire)
Guénée, Bernard. *Entre l'église et l'état: Quatre vies de prélats français à la fin du moyen âge*. [Paris]: Gallimard, 1987. (Bibliothèque des histoires; ISSN 0768-0724)
——— (dir.). *Le Métier d'historien au moyen âge: Etudes sur l'historiographie médiévale*. Paris: Université de Paris I Panthéon-Sorbonne, centre de recherche sur l'histoire de l'occident médiéval, 1977. (Publications de la Sorbonne. Série études; 13)
Guilaine, Jean. *Premiers bergers et paysans de l'occident méditerranéen*. Paris; La Haye: Mouton, 1976. (Civilisations et sociétés; 58)
Guiraud, Pierre. *Le Jargon de Villon ou le gai savoir de la coquille*. [Paris]: Gallimard, 1968. (Bibliothèque des idées)
———. *Le Testament de Villon ou le gai savoir de Basoche*. [Paris]: Gallimard, [1970]. (Les Essais; 152)
Gulik, Robert van. *La Vie sexuelle dans la Chine ancienne = Sexual Life in Ancient China: A Preliminary Survey of Chinese Sex and Society*. Traduit de l'anglais [et du latin] par Louis Evrard.

[Paris]: Gallimard, 1971. (Bibliothèque des histoires; 3)

Gurvitch, Georges. *La Multiplicité de temps sociaux*. Paris: Centre de documentation universitaire, 1958. (Les Cours de Sorbonne)

Gutton, Jean Pierre. *La Société et les pauvres: L'Example de la généralité de Lyon, 1534-1789*. Paris: Les Belles lettres, [1971]. (Bibliothèque de la France des lettres et sciences humaines de Lyon; 26)

Halbawchs, Maurice. *Les Cadres sociaux de la mémoire*. Paris: F. Alcan, 1925. (Travaux de l'année sociologique)

Hartog, François. *Le Miroir d'Hérodote: Essai sur la représentation de l'autre*. [Paris]: Gallimard, 1980. (Bibliothèque des histoires)

Hauser, Henri. *Recherches et documents sur l'histoire des prix en France de 1500 à 1800*. Paris: Les Presses modernes, 1936.

Helias, Pierre Jakez. *Le Cheval d'orgueil: Mémoires d'un Breton du pays bigouden = March al Lorh*. Traduit du Breton par l'auteur. Paris: Plon, 1975. (Terre humaine)

Hémardinquer, Jean Jacques (ed.). *Pour une histoire de l'alimentation: Recueil de travaux*. Paris: Armand Colin, 1970. (Cahiers des annales; 28)

———, M. Keul et W. G. L. Randles. *Atlas des plantes vivrières*. [Paris: s. n., 1975].

Henry, Louis. *Anciennes familles genevoises: Etude démographique: XVIe-XXe siècle*. [Préface par Alfred Sauvy]. Paris: Presses universitaires de France, 1956.

Hensel, Witold. *Stowiańszczyzna wczesnośredniowieczna: Zarys kultury materialnej*. Warszawa: Państwowe Wydawn Naukowe, 1956.

Himly, François J. *Atlas des villes médiévales d'Alsace*. [Strasbourg]: Fédération des sociétés d'histoire et d'archéologie d'Alsace, 1970.

L'Histoire. Paris: Ellipses, 1980. 2 vols. (Analyses et réflexions sur...; 13-14)

Vol. 1: *Les Philosophies de l'histoire*.

Vol. 2: *L'Ecriture de l'histoire*.

Histoire sociale, sensibilités collectives et mentalités: Mélanges Robert Mandrou. Paris: Presses universitaires de France, 1985.

Hobsbawm, Eric. *Les Primitifs de la révolte dans l'europe moderne = Primitive Rebels.* Traduit de l'anglais par Reginald Laars. Paris: Fayard, 1966. (L'Histoire sans frontières)

———. *Primitive Rebels: Studies in Archaic Forms of Social Movements in the 19th and 20th Centuries.* Manchester: Manchester University Press, 1959.

Hoppál, Mihály (ed.). *Shamanism in Eurasia.* Göttingen: Edition Herodot, 1984. 2 vols. (Forum (Edition Heredot); 5)

Hubert, Henri et Marcel Mauss. *Mélanges d'histoire des réligions.* Paris: F. Alcan, 1909. (Bibliothèque de philosophie contemporaine)

Huizinga, Johan. *L'Automne du moyen âge.* Traduit du hollandais par J. Bastin. Nouvelle éd. précédée d'un entretien avec Jacques Le Goff. Paris: Payot, 1975. (Le Regard de l'histoire)

———. *Homo ludens: Essai sur la fonction sociale du jeu.* Traduit du néerlandais par Cécile Seresia; [préface par Johannes Tielrooy]. Paris: Gallimard, 1951.

———. *Homo ludens: versuch einer bestimmung des spielelementest der kultur.* [Amsterdam; Leipzig]: Pantheon akademische verlagsanstalt, [1939].

Iconographie et histoire des mentalités. Paris: Centre national de la recherche scientifique, 1979.

Iggers, Georg G. *Neue Geschichtswissenschaft. Vom Historismus zur historischen Sozialwissenschaft.* München: Deutscher Taschenbuch, 1978.

——— and Harold T. Parker (eds.). *International Handbook of Historical Studies: Contemporary Research and Theory.* London: Methuen, 1980.

Imbert, Gaston. *Des Mouvements de langue durée Kondratieff.* Aix-en-Provence: La Pensée universitaire, 1959. (Bibliothèque de la faculté de droit et des sciences économiques d'Aix-en-Provence)

Jacob, François. *La Logique du vivant: Une Histoire de l'hérédité.* [Paris]: Gallimard, [1970]. (Bibliothèque des sciences humaines)

Jacquart, Danielle et Claude Thomasset. *Sexualité et savoir médical au moyen âge.* Paris: Presses universitaires de France, 1985. (Les Chemins de l'histoire)

Jöckel, Sabrine. *«Nouvelle histoire» und Literaturwissenschaft*. Rheinfelden: Schâuble Verlag, 1985. (Romanistik Neue Folge; 1)

Joutard, Philippe. *La Légende des camisards: Une Sensibilité au passé*. [Paris]: Gallimard, 1977. (Bibliothèque des histoires)

Juifs et judaïsme de Languedoc. Toulouse: E. Privat, 1977. (Cahiers de Fanjeaux; 12)

Julien, Charles André. *L'Afrique du nord en marche*. 3ème éd. revue et mise à jour. Paris: R. Julliard, [1972]. 2 vols.

Kaiser-Guyot, Marie-Thérèse. *Le Berger en France aux XIVe et XVe siècles*. Paris: Klincksieck, 1974. (Publications de l'université de Paris X-Nanterre. Sér. A. Thèses et travaux; 26)

Kantorowitz, Ernst. *L'Empereur Frédéric II*. Paris: Gallimard, 1987. (Bibliothèque des histoires)

———. *Kaiser Friedrich der Zweite*. [With «Erganzungsband»]. Berlin: [G. Bondi], 1927-1931. 2 vols.

Köhler, Erich. *L'Aventure chevaleresque: Idéal et réalité dans le roman courtois: Etudes sur la forme des plus anciens poèmes d'Arthur et du Graal*. Traduit de la [2ème éd. allemande] par Eliane Kaufholz; préface de Jacques Le Goff. [Paris]: Gallimard, 1974. (Bibliothèque des idées)

———. *Ideal und wirklichkeit in der höfischen Epik, Studien zur Form der frühen Artus - und Graldichtung*. 2. Aufl. Tübingen: M. Niemeyer Verlag, 1970.

———. ———. Tübingen: M. Niemeyer Verlag, 1956. (Beihefte zur Zeitschrift für romanische Philosophie; 97. Heft)

Kula, Witold. *Reflexiones sobre la hisoria*. Mexico: Ediciones de Cultura Popular, 1984.

———. *Théorie économique du système féodal: Pour un modèle de l'économie polonaise, 16e-18e siècles = Teoria ekonomiczna ustroju feudalnego*. Traduit du polonais; préface de Fernand Braudel. Ed. revue et augmentée. Paris; La Haye: Mouton, 1970. (Civilisations et sociétés; 15)

Labrousse, Ernest. *La Crise de l'économie française à la fin de l'ancien régime et au début de la révolution*. Paris: Presses universitaires de France, 1943.

———. *Esquisse du movement des prix et des revenus en France au XVIIIe siècle*. Préface de Henri Sée et de Roger Picard. Paris:

Dalloz, 1933. 2 vols. (Collection scientifique d'économie politique; III)
Vol. 1: *Les Prix.*
Vol. 2: *Les Prix (fin), les revenus.*

Lacouture, Jean. *Algérie, la guerre est finie: 1962.* Avec la collaboration de Catherine Grünblatt. Bruxelles: Complexe, [diffusion presses universitaires de France], 1985. (La Mémoire du siècle; 37)

———. *Charles de Gaulle.* Paris: Editions du seuil, 1984-1986. 3 vols.
Vol. 1: *Le Rebelle, 1890-1944.*
Vol. 2: *Le Politique, 1944-1959.*
Vol. 3: *Le Savoir, 1959-1970.*

———. *François Maurice.* Paris: Editions du seuil, 1980.

———. *Pierre Mendès France.* Paris: Editions du seuil, 1981.

Langlois, Charles Victor et Charles Seignobos. *Introduction aux études historiques.* Paris: Hachette, 1898.

Laslett, Peter. *Un Monde que nous avons perdu, famille communauté et structure sociale dans l'Angleterre préindustrielle.* Traduit de l'anglais par Christophe Campos. Paris: Flammarion, 1969. (Nouvelle bibliothèque scientifique)

Le Goff, Jacques. *La Civilisation de l'occident médiéval.* [Paris]: Arthaud, 1964. (Collection les grandes civilisations; 3)

———. *Histoire et mémoire.* [Paris]: Gallimard, 1988. (Coll. «folio». Histoire; 20)

———. *L'Imaginaire médiéval: Essais.* [Paris]: Gallimard, 1985. (Bibliothèque des histoires)

———. *Les Intellectuels au moyen âge.* [Paris: Editions du seuil, 1976]. (Le Temps qui court; 3. Collection microsome)

———. *Intervista sulla storia.* Curarto da Francesco Maiello. Roma; Bari: Laterza, 1982. (Saggi tascabili Laterza)

———. *La Naissance du purgatoire.* [Paris]: Gallimard, 1981. (Bibliothèque des histoires)

———. *Pour un autre moyen âge: Temps, travail et culture en occident: 18 essais.* [Paris]: Gallimard, [1977]. (Bibliothèque des histoires)

———. *Storia e memoria.* Torino: Einaudi, 1986.

——— et Jean Charles Sournia (eds.). *Les Maladies ont une histoire.* Paris: L'Histoire; éditions du seuil, 1985.

——— et Pierre Nora (dirs.). *Faire de l'histoire*. [Paris]: Gallimard, [1974]. 3 vols. (Bibliothèque des histoires; 17)

Vol. 1: *Nouveaux problèmes.*

Vol. 2: *Nouvelles approches.*

Vol. 3: *Nouveaux objets.*

———, Jacques Chartier et Jacques Revel (dirs.). *La Nouvelle histoire*. Paris: Retz, 1978. (Les Encyclopédies du savoir moderne. La Bibliothèque du CEPL)

Le Roy Ladurie, Emmanuel. *L'Etat royale: De Louis XI à Henri IV, 1460-1610*. [Paris]: Hachette, 1987. (Histoire de France Hachette)

———. *Histoire du climat depuis l'an mil*. Paris: Flammarion, 1967. (Nouvelle bibliothèque scientifique)

———. *Montaillou: Village occiton de 1294 à 1324*. [Paris]: Gallimard, 1975. (Bibliothèque des histoires)

———. *Les Paysans du Languedoc*. Paris: Flammarion, 1969. (Science de l'histoire)

———. ———. Paris: S. E. V. P. E. N., 1966.

———. *Le Territoire de l'historien*. [Paris]: Gallimard, [1973-1978]. 2 vols. (Bibliothèque des histoires)

Lebrun, François. *Les Hommes et la mort en Anjou aux 17e et 18e siècles: Essai de démographie et de psychologie historiques*. Paris: Mouton, [1971]. (Civilisations et sociétés)

Lefebvre des Noettes, Richard. *L'Attelage: Le Cheval de selle à travers les ages: Contribution à l'histoire de l'esclavage*. Préface de Jérôme Carcopino. Paris: Picard, 1931. 2 vols.

Leroi-Gourhan, André. *Evolution et techniques*. Paris: Albin Michel, [1943-1945]. 2 vols. (Sciences d'aujourd'hui)

Vol. 1: *L'Homme et la matière.*

Vol. 2: *Milieu et techniques.*

——— et Michel Brezillon. *Fouilles de Pincevent: Essai d'analyse ethnographique d'un habitat magdalénien, la section 36*. Paris: Editions du centre national de la recherche scientifique, 1972. (Supplément à «galia préhistorique»; 7e)

Lévi-Strauss, Claude. *Anthropologie structurale*. Paris: Plon, [1958].

———. *Anthropologie structurale deux*. Paris: Plon, 1973.

———. *Le Cru et le cuit*. [Paris]: Plon, [1964]. (His mythologiques; 1)

Lhomme, Jean. *Economie et histoire*. Genève: Droz, 1967. (Travaux de droit, d'économie, de sociologie et de sciences politiques; 55)

Lombard, Maurice. *L'Islam dans sa première grandeur: (VIIIe-XIe siècle)*. Paris: Flammarion, 1971. (Nouvelle bibliothèque scientifique)

Lucius, Ernst. *Die anfange des heiligenkults in der christlichen kirche*. Herausgegeben von Gustav Anrich. Tübingen: Mohr, 1904.

———. *Les Origines du culte des saints dans l'église chrétienne*. Traduit par Emile Jeanmaire; préface de P. Lobstein. Paris: Fischbacher, 1908.

Malamoud, Charles et Jean Pierre Vernant (dirs.). *Le Corps des dieux*. [Paris]: Gallimard, 1986. (Le Temps de la réflexion; 7)

Mandrou, Robert. *De La Culture populaire aux 17e et 18e siècles: La Bibliothèque bleue de Troyes*. 2ème éd. nouv. éd. rev. et corrigée. [Paris]: Stock, 1975.

———. *Magistrats et sorciers en France au XVIIe siècle: Une Analyse de psychologie historique*. [Paris]: Plon, [1968]. (Civilisations et mentalités)

Manuel, Frank Edward (ed.). *Utopias and Utopian Thought*. Boston: Houghton Mifflin, 1966. (The Daedalus Library; 5)

Les Marginaux et les exclus dans l'histoire. Paris: Union générale d'éditions, 1979. (Cahiers Jussieu; 5. 10/18; 1290)

Martin, H. J. *Livre, pouvoirs et société à Paris au 17e siècle, (1598-1701)*. Genève: Droz, 1969. 2 vols. (Histoire et civilisation du livre; 3)

Mauss, Marcel. *Sociologie et anthropologie*. Précédé d'une introduction à l'oeuvre de Marcel Mauss par Claude Lévi-Strauss. Paris: Presses universitaires de France, 1950. (Bibliothèque de sociologie contemporaine)

Medick, Hans, Peter Kriedte und Jürgen Schlumbohm. *Industrialisierung vor der Industrialiasierung: gewerbliche Warenproduktion auf dem Land in der Formationsperiode de Kapitalismos*. Mit Beiträgen von Herbert Kisch und Frankin F. Mendels. Göttingen: Vandenhoeck und Ruprecht, 1977. (Veröffentlichungen des Max-Planck-Instituts für Geschichte; 53)

Meillet, Antoine. *Introduction à l'étude comparative des langues*

indoeuropéennes. Préf. de George C. Buck. Alabama: University of Atlanta Press, [1964]. (Alabama Linguistic and Philosophical Series; 3)

Meiss, Millard. *Painting in Florence and Siena after the Black Death: The Arts, Religion and Society in the Mid-Fourteenth Century*. New York: Harper and Row, 1964.

Mélanges historiques. Paris: [s. n.], 1903.

Mélanges René van Santbergen. Bruxelles: Centre de la pédagogie, de l'histoire et des sciences de l'homme, 1984. (Cahiers de clio)

Mélétinski, Eleazar Moiseevich. *L'Etude structurale et typologique*. Traduit du russe par Marguerite Derrida, Tzveton Todorov et Claude Khan. Paris: Editions du seuil, 1970.

Méthologie de l'histoire et des sciences humaines. [Toulouse]: Privat, [1973]. (Mélanges en l'honneur de Fernand Braudel)

Métraux, Alfred. *Le Vaudou haïtien*. 6ème éd. Paris: Gallimard, [1958].

Meuvret, Jean. *Etudes d'histoire économique: Recueil d'articles*. Paris: Armand Colin, 1971. (Cahiers des annales; 32)

Meyerson, Mark D. and Edward D. English (eds.). *Christians, Muslims, and Jews in Medieval and Early Modern Spain: Interaction and Cultural Change*. Notre Dame, Indiana: University of Notre Dame Press, 1999. (Notre Dame Conference in Medieval Studies; 8)

Michelet, Jules. *Oeuvres complètes de Michelet. 4.1, histoire de France. Livres I-IV*. Editées par Paul Viallaneix; préface par Jacques Le Goff; examen des remaniaments du texte de 1833 à travers les rééditions par Robert Casanova. Paris: Flammarion, 1974.

Les Miracles, miroirs des corps. Introduction Jacques Gélis, Olide Redon; études monographiques par Michel Bouvier [et al.]. St. Denis: Presses et publications de Paris VIII-Vincennes à Saint-Denis, 1983.

Morazé, Charles. *Les Bourgeois conquérants: XIXe siècle*. [Préface par Fernand Braudel]. Bruxelles: Complexe; [Paris]: Diffusion presses universitaires de France, 1985. (Coll. «historiques»; 21-22)

———. ———. Paris: Armand Colin, 1957. (Destins du monde)

Moreau, Thérèse. *Le Sang de l'histoire: Michelet, l'histoire et l'idée*

de la femme au XIXe siècle. Paris: Flammarion, 1982. (Nouvelle bibliothèque scientifique)

Morin, Edgar. *Le Cinéma, ou l'homme imaginaire: Essai d'anthropologique.* Paris: Editions de minuit, [1956]. (Collection l'homme et la machine; 8)

———. *La Rumeur d'Orléans.* Avec la collaboration de Bernard Paillard [et al.]. Paris: Editions du seuil, [1970]. (L'Histoire immédiate)

Mousnier, Roland. *Fureurs paysannes: Les Paysans dans les révoltes du XVIIe siècle (France, Russie, Chine).* Paris: Calmann-Lévy, 1967.

Nirenberg, David. *Communities of Violence: Persecution of Minorities in the Middle Ages.* Princeton, NJ: Princeton University Press, [1996].

Nitschke, August. *Historische Verhaltensforschung: Analysen gesellschaftlicher Verhaltensweissen: ein Arbeitsbuch.* Stuttgart: Ulmer, 1981. (Uni-Taschenbücher; 1153)

Nora, Pierre (dir.). *Les Lieux de mémoire.* Paris: Gallimard, 1986. 3 vols. (Bibliothèque illustrée des histoires)
Vol. 1: *La République.*
Vol. 2: *La Nation.*
Vol. 3: *Les France.*

La Nouvelle histoire économique: Exposées de méthodologie = The New Economic History: Recent Papers on Methodology. Sous la direction de Ralph Andreano; traduit de l'anglais par Roger Gilles; dossier de la question par Jean Heffer. [Paris]: Gallimard, 1977. (Bibliothèque des histoires)

Ozouf, Mona. *La Fête révolutionnaire, 1789-1799.* [Paris]: Gallimard, 1976. (Bibliothèque des histoires)

Patlagean, Evelyne. *Pauvreté économique et pauvreté sociale à Byzance, 4e-7e siècles.* Paris: E. H. E. S. S.; La Haye: Mouton, 1977. (Civilisations et sociétés; 48)

———. *Structure sociale, famille, chrétienté à Byzance, IVe-XIe siècle.* London: Variorum Reprints, 1981. (Variorum Reprints. Collected Studies Series; 134)

Perrot, Jean Claude. *Genèse d'une ville moderne: Caen au XVIIIe siècle.* Paris; La Haye: Mouton, 1975. (Civilisations et sociétés; 44)

Pesez, Jean Marie (dir.). *Brucato, histoire et archéologie d'un*

habitat médiéval en Sicile. [Rome]: Ecole française de Rome, 1984. 2 vols. (Collection de l'école française de Rome, 0223-5099; 78)

Pirenne, Henri. *Histoire de l'europe: Des Invasions au XVIe siècle*. [Préface de Jacques Pirenne]. 5ème édition. Paris: F. Alcan; Bruxelles: Nouvelle société d'éditions, 1936.

Pomian, Krzysztof. *Collectionneurs, amateurs et curieux: Paris, Venise XVIe-XVIIIe siècle*. [Paris]: Gallimard, 1987. (Bibliothèque des histoires)

———. *L'Ordre du temps*. [Paris]: Gallimard, 1984. (Bibliothèque des histoires)

———. *Pologne, défi à l'impossible?: De La Révolte de Poznan à solidarité*. Préface de Jean Kulakowski. Paris: Editions ouvrières, 1982. (Collection «enjeux internationaux»)

Porchnev, Boris. *Narodnye vosstani voia Franntsii pered Frondo*. [s. l.: s. n.], 1948.

———. *Les Soulèvements populaires en France au XVIIIe siècle*. Paris: Flammarion, 1972. (Science)

———. *Les Soulèvements populaires en France de 1623 à 1648*. Traduit par Mme Ranieta et Robert Mandrou. Paris: S. E. V. P. E. N., 1963. (Ecole pratique des hautes études. Centre de recherches historiques. Oeuvres étrangères; 4)

Pouchelle, Marie-Christine. *Corps et chirurgie à l'apogée du moyen âge: Savoir et imaginaire du corps chez Henri de Mondeville, chirurgien de Philippe Le Bell*. Paris: Flammarion, 1983. (Nouvelle bibliothèque scientifique)

Praz, Mario. *La Carne, la morte e il diavolo nella letteratura romantica*. Torino: Einaudi, 1942. (Saggi; 40)

———. ———. Milano: Soc. Editrice «la cultura», [1930].

———. *La Chair, la mort et le diable dans la littérature du 19e siècle: Le Romantisme noir*. Traduit de [la 2ème éd. italienne] par Constance Thompson Pasquali. Paris: Denoël, 1977.

Propp, Vladimir. *Morphologie du conte = Morfologiia skazki*. Traduit du russe par Claude Ligny. [Paris]: Gallimard, [1970]. (Bibliothèque des sciences humaines)

———. *Morfologiia skazki*. Leningrad: Academia, 1928. (Voprosy poetiki; vyp. 12)

———. *Les Transformations du conte merveilleux*. [s. l.: s. n., 1928].

Quenedey, Raymond. *L'Habitation rouennaise: Etude d'histoire, de géographie et d'archéologie urbaines.* Rouen: Lestringant, 1926.

Rabb, Theodore K. et Robert I. Rotberg (eds.). *The New History, the 1980's and beyond: Studies in Interdisciplinary History.* Contributors Peter H. Smith [et al.]. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1982.

Rapoport, Amos. *Pour une anthropologie de la maison = House Form and Culture.* Traduit par Anne M. Meistersheim et Maurin Schlumberger. Paris: Dunod, 1972. (Aspects de l'urbanisme; 11)

Rivals, Claude. *Le Moulin à vent et le meunier dans la société traditionnelle française.* Avec, pour la Bretagne et l'Anjou, la collaboration de Chris Gibbings; illustrations de l'auteur (sauf mention particulière). Ivry: SERG, [1976].

Robin, Régine. *Histoire et linguistique.* Paris: Armand Colin, 1973. (Linguistique)

Robrieux, Philippe. *Maurice Thorez: Vie secrète et publique.* [Paris]: Fayard, [1975]. (Le Monde sans frontières)

Rosanvallon, Pierre. *Le Moment Guizot.* [Paris]: Gallimard, 1985. (Bibliothèque des sciences humaines)

Rossi, Pietro (ed.). *La teoria della Storiografia oggi.* Milano: Il Saggiatore, 1983.

Roupnel, Gaston. *La Ville et la campagne au XVIIe siècle: Etude sur les populations du pays dijonnais.* Nouvelle édition. Paris: Armand Colin, 1955. (Bibliothèque générale de l'école pratique des hautes études; 6. section)

———. ———. Paris: Editions Ernest Leroux, 1922.

Rousselle, Aline. *Porneia: De La Maîtrise du corps à la privation sensorielle, IIe-IVe siècles de l'ère chrétienne.* Paris: Presses universitaires de France, 1983. (Les Chemins de l'histoire)

Roux, Simone. *La Maison dans l'histoire.* Paris: Albin Michel, 1976. (L'Aventure humaine)

Ruffié, Jacques. *De La Biologie à la culture.* Paris: Flammarion, 1976. (Nouvelle bibliothèque scientifique)

Saintyves, Pierre. *Les Saints, successeurs des dieux: Essais de mythologie chrétienne.* Paris: E. Naurry, 1907.

Samaran, Charles (ed.). *L'Histoire et ses méthodes.* [Paris: Gallimard, 1961]. (Encyclopédie de la pléiade; 11)

Schmitt, Jean Claude. *Mort d'une hérésie: L'Eglise et les clercs face aux béguines et aux béghards du Rhin supérieur du XIVe au XVe siècle.* Préface de Jacques Le Goff. Paris; La Haye; New York: Mouton; écoles des hautes études en sciences sociales, 1978.

Segalen, Maurice. *Nuptialité et alliance: Le Choix du conjoint dans une commune de l'Eure.* Paris: Maisonneuve et larose, 1972. (Mémoires d'anthropologie française; 1)

Seignobos, Charles. *Méthode historique appliquée aux sciences sociales.* 2ème éd. revue et corr. Paris: F. Alcan, 1909. (Bibliothèque générale des sciences sociales; 12)

———. ———. Paris: F. Alcan, 1901. (Bibliothèque générale des sciences sociales)

Shaban, Muhammad Abd al Hayy. *The Abbasid Revolution.* Cambridge, [Eng.]: Cambridge University Press, 1970.

Siegfried, André. *Tableau politique de la France de l'ouest sous la troisième république.* Paris: Armand Colin, 1913.

Simmel, Georg. *Les Problèmes de la philosophie de l'histoire: Une Etude d'épistémologie = Die Probleme der Geschichtsphilosophie: Eine erkenntnistheoretische studie.* Introd. et trad. de l'allemand par Raymond Boudon. Paris: Presses universitaires de France, 1984. (Sociologie)

Singer, Charles Joseph [et al.] (eds.). *A History of Technology.* Oxford: Clarendon Press, 1954-1984. 8 vols.

Sissa, Giulia. *Le Corps virginal: La Virginité feminine en grèce ancienne.* Préface de Nicole Loraux; dessins de François Lissarrague. Paris: Vrin, 1987. (Etudes de psychologie et de philosophie; 22)

Soljénitsyne, A. *L'Archipel du Goulag, 1918-1956: Essai d'investigation littéraire = Arkhipelag Goulag.* [Traduit par Jacqueline Lafond [et al.]]. Paris: Editions du seuil, 1974-.

Soriano, Marc. *Les «Contes» de Perrault, culture savante et traditions populaires.* Paris: Gallimard, 1968. (Bibliothèque des histoires)

Stoianovich, Traian. *French Historical Method: The Annales Paradigm.* With a Foreword by Fernand Braudel. Ithaca, NY; London: Cornell University Press, 1976.

Stone, Lawrence. *The Past and the Present.* Boston; London: Routledge and Kegan Paul, 1981.

Stouff, Louis. *Ravitaillement et alimentation en Provence aux XIVe et XVe siècles*. Paris; La Haye: Mouton, 1970. (Civilisations et sociétés; 20)

Temi e problemi nella mistica femminile trecentesca: 14-17 ottobre 1979. Todi: Presso l'accademia tudertina, 1983. (Convegni del centro di studi sulla spiritualità mediavale; 20)

Tenenti, Alberto. *La Vie et la mort à travers l'art du XVe siècle*. Paris: Armand Colin, 1952. (Cahiers des annales; 8)

Thomson, Paul. *The Voice of the Past: Oral History*. Oxford; New York: Oxford University Press, 1978.

Thuillier, Guy. *Pour une histoire du quotidien au XIXe siècle en Nivernais*. Préface de Paul Leuilliot. Paris; La Haye: Mouton, 1977. (Civilisations et sociétés; 55)

——— et Jean Tulard. *La Méthode en histoire*. Paris: Presses universitaires de France, 1986. (Que sais-je?; 2323)

Tillon, Charles. *Un «Procès de Moscou» à Paris: Précédé de l'interrogations*. Paris: Editions du seuil, 1971. (L'Histoire immédiate)

Tolan, John Victor. *Les Sarrasins: L'Islam dans l'imagination européenne au moyen âge*. Trad. de l'anglais par Pierre Emmanuel Dauzat. Paris: Aubier, 2003. (Collection historique)

Touati, F. O. *Vocabulaire historique du moyen âge*. Paris: [s. n.], 1997.

Toubert, Pierre. *Les Structures du Latium médiéval: Le Latium méridional et la Sabrine du IXe siècle à la fin du XIIe siècle*. Préface d'Ottorino Bertolini. Rome: Ecole française de Rome, 1973. (Bibliothèque des écoles françaises d'Athènes et de Rome; 221)

Toynbee, Arnold. *L'Histoire: Un Essai d'interprétation*. Abrégé par D. C. Somervell des volumes I à VI de «A History of Study»; [index par V. M. Boulter]; traduit de l'anglais par Elizabeth Julia. Paris: Gallimard, 1951. (Bibliothèque des idées)

——. *L'Histoire = A Study of History*. Avec la collaboration de Jane Caplan; préface de Raymond Aron; [traduit par Jacques Potin, Pierre Buisseret et une équipe de collaborateurs sous la direction de Hervé Douxchamps]. Paris; Bruxelles: Elsevier Séquoia, 1978.

———. *A Study of History*. New ed. Revised and Abridged by the Author and Jane Caplan. London: Oxford University Press; Thames and Hudson, 1972.

———. ———. London: Oxford University Press, 1934-1939. 6 vols.

L'Unité de l'homme: Invariants biologiques et universeaux culturels: Essais et discussions. Présentés et commentés par Edgar Morin et Massimo Píattelli-Palmarini. Paris: Editions du seuil, [1974].

Vallaud, Dominique. *Dictionnaire historique*. [Paris]: Fayard, 1995.

Vauchez, André. *La Sainteté en occident aux derniers siècles du moyen âge d'après les procès de canonisation et les documents hagiographiques*. Paris: Ecole française de Rome; diffusion de Boccard, 1981. (Bibliothèque des écoles françaises d'Athènes et de Rome)

Vernant, Jean Pierre. *Mythe et pensée chez les grecs: Etudes de psychologie historique*. Paris: F. Maspero, 1965. (Les Textes à l'appui; 13)

——— et Pierre-Vidal Naquet. *Mythe et tragédie en grèce ancienne*. Paris: F. Maspero, 1972. (Textes à l'appui. Histoire classique)

Veyne, Paul. *Comment on écrit l'histoire: Essai d'épistémologie*. Paris: Editions du seuil, 1971. (L'Univers historique)

———. *L'Inventaire des différences: Leçon inaugurable au collège de France*. Paris: Editions du seuil, 1976.

———. *Le Pain et le cirque: Sociologie d'un pluralisme politique*. Paris: Editions du seuil, 1976. (L'Univers historique)

Vial, Paul. *Lexique d'antiquités grecques*. Paris: Armand Colin, [1972]. (Collection U2; 199. Série histoire ancienne)

Vigarello, Georges. *Le Propre et le sale: L'Hygiène du corps depuis le moyen âge*. Paris: Editions du seuil, 1985. (L'Univers historique)

Vilar, Pierre. *La Catalogne dans l'Espagne moderne: Recherches sur les fondements économiques des structures nationales*. Paris: Flammarion, 1977. (Science)

———. ———. Paris: S. E. V. P. E. N., 1962. 3 vols. (Bibliothèque générale de l'école pratique des hautes études; 6ème section)

———. *Une Histoire en construction: Approche marxiste et problématiques conjoncturelles*. [Paris]: Gallimard, 1982. (Hautes études)

Villages désertés et histoire économique, XIe-XVIIIe siècle. Paris: S. E. V. P. E. N., 1965. (Les Hommes et la terre; 11)

Vincenot, Henri. *La Vie quotidienne des paysans bourguignons au temps de Lamartine.* [Paris]: Hachette, 1976. (La Vie quotidienne)

Vocabulaire historique de Byzance. Tunis: [s. n.], 2003.

Vovelle, Gaby et Michel Vovelle. *Vision de la mort et de l'au-delà en Provence d'après les autels des âmes du purgatoire, XVe-XXe siècles.* Paris: Armand Colin, 1970. (Cahiers des annales; 29)

Vovelle, Michel. *Idéologie et mentalités.* Paris: F. Maspero, 1982. (Fondations)

———. *Les Métamorphoses de la fête en Provence de 1750 à 1820.* Avec la collaboration de Mireille Meyer et Danielle Rua. [Paris]: Flammarion; Aubier, 1976. (Bibliothèque d'éthnologie historique)

———. *Mourir autrefois: Attitudes collectives devant la mort aux XVIIe-XVIIIe siècles.* [Paris]: Gallimard; Julliard, 1974. (Collection archives; 53)

———. *Piété baroque et déchristianisation en Provence au XVIIIe siècle: Attitudes devant la mort d'après les clauses des testaments.* Paris: Editions du seuil, 1978. (Points. Histoire; 34)

———. ———. [Paris]: Plon, 1973. (Civilisations et mentalités)

———. *Réligion et révolution: La Déchristianisation de l'an II.* [Paris]: Hachette, 1976. (Le Temps et les hommes)

Wachtel, Nathan. *La Vision des vaincus: Les Indiens du Péru devant la conquête espagnole, 1530-1570.* [Paris]: Gallimard, 1971. (Bibliothèque des histoires)

Wallon, Henri. *Principes de psychologie appliquée.* Paris: Armand Colin, 1930. (Collection Armand Colin (section de philosophie); 127)

White, Lynn. *Technologie médiévale et transformations sociales.* Traduit de l'anglais par Maurice Lejeune. Paris; La Haye: Mouton et cie, 1969. (Civilisations et sociétés; 13)

Wolff, Philippe (dir.). *Histoire de Toulouse.* Toulouse: Privat, [1974]. (Univers de la France et des pays francophones: Série histoire des villes)

Woodward, Bob et Carl Bernstein. *Les Derniers jours de Nixon = The Final Days.* Traduit de l'américain par Frank Straschitz,

Guy Durand et Christian Bruyat. Paris: R. Laffont, 1976. (Notre époque)

Zapperi, Roberto. *L'Homme enceint: L'Homme, la femme et le pouvoir = L'Uomo incinto: la donna, l'uomo e il potere.* Traduit de l'italien par Marie-Ange Maire Vigueur. Paris: Presses universitaires de France, 1983. (Les Chemins de l'histoire)

Periodicals

«L'Acte historique et son sujet.» *Mit-Dit, Cahiers méridionaux de psychanalyse*: nos. 10-11, 1985.

Annales économies, sociétés, civilisations: 1958.

L'Arc: no. 65, 1976.

L'Arc: no. 52, 1973.

«Archeologia e geografia del popolamento.» *Quaderni storici*: no. 24, 1973.

«Archives orales: Une Autre histoire?.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 35, no. 1, 1980.

Aymard, Maurice. «The Annales and French Historiography (1929-1972).» *European Economic History*: vol. 1, 1972.

Barnes, Harry Elmer. «Psychology and History: Some Reasons for Predicting Their More Active Cooperation in the Future.» *American Journal of Psychology*: vol. 30, 1919.

Berr, Henri. *Revue de synthèse historique*: t. 50, [1937].

Besançon, Alain. «Le Premier livre de la sorcière.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 26, no. 1, janvier-février 1971.

Bloch, Marc. «Avènement et conquête du moulin à eau.» *Annales d'histoire économique et sociale*: vol. 7, no. 36, 1935.

———. «Les Inventions médiévales.» *Annales d'histoire économique et sociale*: vol. 7, no. 36, 1935.

«Braudel dans tous ses états: La Vie quotidienne des sciences sociales sous l'empire de l'histoire.» *Espaces temps*: nos. 34/35, 1986.

Braudel, Fernand. «Histoire et sciences sociales: La Longue durée.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: no. 4, octobre-décembre 1958.

Burguière, André. «De Malthus à Weber: Le Mariage tardif et l'esprit d'entreprise.» *Annales économies, sociétés, civilisa-*

tions: no. 27, 1972.

———. «Endogamia e communita contadine sulla pratica matrimoniale a Romainville nel XVIIIe secolo.» *Quaderni storici*: Sep.-dec. 1976.

———. «Histoire d'une histoire: La Naissance des annales.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 34, no. 6, nov.-dec. 1979.

———. «La Notion des mentalités chez Marc Bloch et Lucien Febvre: Deux conceptions, deux filiations.» *Revue de synthèse*: nos. 111-112, [1983].

Chartier, Roger. «Norbert Elias, interprète de l'histoire occidentale.» *Le Début*: octobre 1980.

Chaunu, Pierre. «L'Histoire géographique.» *Revue de l'enseignement supérieur*: nos. 44-45, 1969.

Depauw, Jacques. «Amour illégitime et société à Nantes au XVIIIe siècle.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 27, nos. 4-5, juillet-octobre 1972.

Duby, Georges (ed.). «L'Amour et la sexualité.» *L'Histoire*: numéro spécial, no. 63, janvier 1984.

Dupront, Alphonse. «Problèmes et méthodes d'une histoire de la psychologie collective.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 16, 1961.

Febvre, Lucien. «Deux amis géographes: Jules Sion, Albert Demangeon.» *Annales d'histoire sociale*: vol. 3, 1941.

———. «Folklore et folkloriste: Notes critiques.» *Annales d'histoire sociale*: vol. 1, 1939.

———. «Manifeste des annales nouvelles.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 1, 1946.

———. «La Sensibilité et l'histoire: Comment reconstituer la vie d'histoire d'autrefois?.» *Annales d'histoire sociale*: vol. 3, 1941.

———. «Vers une autre histoire.» *Revue de métaphysique et de morale*: 1949.

Flandrin, Jean Louis. «Contraception, mariage et relations amoureuses dans l'occident chrétien.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 24, no. 6, 1969.

Food and Foodways, Explorations in the History and Culture of Human Nourishment: 1986.

Forster, Robert. «Achievements of the Annals School.» *The Journal of Economic History*: vol. 38, no. 1, Mars 1978.

Ginzburg, Carlo. «Présomptions sur le Sabbat.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 39, no. 2, 1984.
——— (ed.). «Religioni delle classi populari.» *Quaderni storici*: vol. 14, no. 40, 1979.
____ et Carlo Poni. «La Micro-histoire.» *Le Débat*: no. 17, décembre 1981.
Gouesse, Jean Marie. «Parenté, famille et mariage en Normandie aux XVIIe et XVIIIe siècles: Presentation d'une source et d'une enquête.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 27, 1972.
Grmek, Mirko Dražen. «Préliminaires d'une étude historique des maladies.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 24, no. 6, nov.-déc. 1969.
Henry, Louis et C. Lévy. «Ducs et pairs sous l'ancien régime: Caractéristiques démographiques d'une caste.» *Population*: vol. 15, 1960.
Histoire et mesure: vol. 1, no. 1, 1986.
History and Anthropology: vol. 1, no. 1, 1984.
History and Technology: numéro spécial hors série, vol. 4, nos. 1-4, 1987.
———: vol. 1, no. 1, 1983.
Hobsbawm, Eric John. «The Revival of Narrative: Some Comments.» *Past and Present*: no. 86, 1980.
Iggers, Georg G. «Die 'Annales' und ihre kritiker. Probleme moderner franzôsischer Sozialgeschichte.» *Historiche Zeitschrift*: vol. 219, Heft 3, 1974.
Le Goff, Jacques. «Au Moyen âge: Temps de l'église et temps du marchand.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 15, no. 3, mai-juin 1960.
———. «Culture cléricale et traditions folkloriques dans la civilisation mérovingienne.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 22, 1967.
———. «Is Politics Still Backbone of History?.» *Daedalus*: vol. 100, Winter 1971.
———. «Naissance du roman historique au XIIe siècle?.» *Nouvelle revue française*: no. 238, oct. 1972.
———. «Les Rêves dans la culture et la psychologie collective de l'occident médiéval.» *Scolis*: vol. 1, 1971.
———. «Le Temps du travail dans la crise du XIVe siècle: Du

Temps médiéval au temps moderne.» *Le Moyen âge*: vol. 64, 1963.
——— et Emmanuel Le Roy Ladurie. «Mélusine maternelle et défricheuse.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 26, 1971.
——— et Pierre Vidal-Naquet. «Lévi-Strauss en Brocéliande: Esquisse pour une analyse d'un roman courtois (Yvain de Chétien de Troyes).» *Critique*: no. 325, juin 1974.
Le Roy Ladurie, Emmanuel. «L'Unification microbienne du monde (XIVe-XVIIe siècles).» *Revue Suisse d'histoire*: vol. 23, 1973.
———, Paul Dumont et Michel Demont. «Anthropologie de la jeunesse masculine en France au niveau d'une cartographie cantonale (1819-1830).» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 31, no. 4, 1976.
Mansouri, Mohammed Tahar. «La Politique musulmane de Frédéric II.» *Mésogeios*: no. 1, 1998.
«Marginalité et criminalité à l'époque moderne.» *Revue d'histoire moderne et contemporaine*: 1976.
Mauss, Marcel. «Les Techniques du corps.» *Journal de psychologie*: vol. 32, nos. 3-4, mars-avril 1936.
Meuvret, Jean. «Les Crises de subsistances et la démographie de la France d'ancien régime.» *Population*: vol. 1, no. 4, 1946.
———. «Récoltes et populations.» *Population*: vol. 1, 1946.
Moreno, Diego et Massimo Quaini. «Per una storia della cultura materiale.» *Quaderni storici*: vol. 31, 1976.
Orsi, Pier Luigi. «La Storia della mentalità in Bloche e Febvre.» *Rivista di storica contemporanea*: vol. 12, no. 3, 1983.
Patlagean, Evelyne. «A Byzance: Ancienne hagiographie et histoire sociale.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 23, 1968.
———. «L'Histoire de la femme déguisée en moine et l'évolution de la sainteté féminine à Byzance.» *Studi Medievali*: 3ème série, vol. 17, no. 2, 1976.
Perrenoud, Alfred. «Malthusianisme et protestantime: Un Monde démographique wébérien.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 29, no. 4, juillet-août 1974.
Pomian, Krzysztof. «L'Histoire de la science et l'histoire de l'histoire.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 30,

no. 5, septembre-octobre 1975.
Quaderni storici: vol. 40, janvier-avril 1979.
«Questions d'histoire intellectuelle.» *Revue de synthèse*: numéro spécial, quatrième série, nos. 1-2, janvier-février 1986.
Revel, Jacques. «Histoire et sciences sociales: Les Paradigmes des annales.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 34, no. 6, novembre-décembre 1979.
Revue trimestrielle d'histoire sociale et économique: 1903.
Robert, Ulysse. «Les Signes d'infamie au moyen âge: Juifs, sarrasins, hérétiques, lépreux, cagots et filles publiques.» *Mémoires de la société nationale des antiquaires de France*: t. 49, 1888.
Rossiaud, Jacques. «Prostitution, jeunesse et société dans les villes du sud-est au XVe siècle.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 31, no. 2, 1976.
Schmitt, Jean Claude. *History and Anthropology*: vol. 1, no. 1, nov. 1984.
Serejski, Marian. «Les Origines et le sort des mots: Civilisation et culture en Pologne.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 17, no. 6, nov.-déc. 1962.
Simiand, François. «Méthode historique et science sociale.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 15, no. 1, 1960.
———. ———. *Revue de synthèse historique*: 1903.
Smith, Pierre et Dan Sperber. «Mythologiques de Georges Dumézil.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 26, nos. 3-4, 1971.
«Sous l'histoire la mémoire.» *Dialectiques*: numéro spécial, no. 30, 1980.
Stone, Lawrence. «The Revival of Narrative: Reflections on a New Old History.» *Past and Present*: no. 85, Nov. 1979.
Storia della Storiografia: 1982.
Taviani, Huguette. «Le Mariage dans l'hérésie de l'an mil.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 32, no. 6, novembre-décembre 1977.
Tilly, Charles. «The Old New Social History and the New Old Social History.» *Review*: vol. 7, no. 3, Winter 1984.
Toynbee, Arnold. *Revue de métaphysique et de morale*: 1936.
Vaux de Foletier, François. «Les Tsiganes dans l'ancienne France.» *Connaissance du monde*: 1961.

Verdier, Yvonne, Tina Jolas et Françoise Zonabend. «Parler famille.» *L'Homme*: vol. 10, no. 3, 1970.

Vidal-Naquet, Pierre. «Athènes et l'atlantide. Structure et signification d'un mythe platonicien.» *Revue des études grecques*: t. 77, 1964.

———. «Le Chasseur noir et l'origine de l'éphébie athénienne.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 23, no. 5, 1968.

Wasowicz, Teresa. «L'Histoire de la culture matérielle en Pologne.» *Annales économies, sociétés, civilisations*: vol. 17, janvier-février 1962.

Conferences

Actes du congrès historique du centenaire de la révolution de 1848. Paris: Presses universitaires de France, 1948.

Actes du 100e congrès national des sociétés savantes, Paris, 1975, section de philosophie et d'histoire jusqu'à 1610. [Publié par le] secrétariat d'état aux universités, comités des travaux historiques et scientifiques. Paris: Bibliothèque nationale, 1977.

Adelige Sachkultur des Spätmittelalters: Internationaler kongress, krems an der Donau, 22. bis 25. september 1980. [mit Beiträgen von Roger Sablonier [et al.]. Wien: Verl. der Österreichischen Akademie der Wissenschaften, 1982.

Carbonell, Charles Olivier et Georges Livet (dirs.). *Au Berceau des annales: Le Milieu strasbourgeois, l'histoire en France au début du XXe siècle: Actes du colloque de Strasbourg, 11-13 octobre 1979.* [Organisé par l'université de Strasbourg et le groupe d'études historiographiques]. Toulouse: Presses de l'institut d'études politiques de Toulouse, [1983]. (Recherches et documents/ société savante d'Alsace et des régions de l'est; 31. Publications de l'institut d'études politiques de Toulouse; 6)

Chapelot, Odette et Paul Benot (eds.). *Pierre et métal dans le bâtiment au moyen âge [colloque].* Paris: Editions de l'école des hautes études en sciences sociales, 1985. (Recherches d'histoire et de sciences sociales; 11)

La Construction au moyen âge: Histoire et archéologie: Actes du congrès de la société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, Besançon, 2-4 juin 1972. Paris: Les

Belles lettres, 1973. (Annales littéraires de l'université de Besançon; 145)

Cumont, Franz. *Les Réligions orientales dans le paganisme romain: Conférences faites au collège de France en 1905*. 4ème éd. revue, illustrée et annotée. Paris: P. Geuthner, 1929.

———. ———. Paris: Ed. Leroux, 1906. (Annales du musée Guimet. Bibliothèque de vulgarisation; t. 24)

Delzell, Charles (ed.). *The Feature of History: Essays in the Vanderbit University Centennial Symposium*. Nashville: Vanderbit University Press, 1977.

Faire croire: Modalités de la diffusion et de la réception des messages réligieux du XIIe au XVe siècle: Table ronde, Rome, 22-23 juin 1979. Organisée par l'école française de Rome, en collaboration avec l'institut d'histoire médiévale de l'université de Padoue. Rome: Ecole française Rome; Torino: Bottega d'Erasmo [distributor], 1981. (Collection de l'école française de Rome, 0223-5099; 51)

Gadoffre, Gilbert (dir.). *Certitudes et incertitudes de l'histoire: Trois colloques de l'institut collégial européen*. Avec les contributions de Philippe Ariès [et al.]; préface de Pierre Chaunu. Paris: Presses universitaires de France, 1987. (Histoires; 0246-6120)

Gregory, Tullio (ed.). *I sogni bel Medioevo: Seminario internationale, Roma 2-4 ottobre, 1983*. Roma: Edizioni dell'Ateneo, 1985. (Lessio intellecttuale europeo; 35)

Hagiographie, cultures et sociétés: IVe-XIIe siècles: Actes du colloque organisé à Nanterre et à Paris, 2-5 mai 1979 par l'université de Paris X, centre de recherches sur l'antiquité tardive et le haut moyen âge. Paris: Etudes augustiniennes, 1981.

Hérésies et sociétés dans l'europe pré-indusrielle, 11e-18e siècles: Comunications et débats du colloque de Royaumont, [27-30 mai 1962]. Présentées par Jacques Le Goff. Paris; La Haye: Mouton, 1968. (Civilisations et sociétés; 10)

L'Histoire sociale. Sources et méthodes. Colloque de l'école normale supérieure de Saint-Cloud, 15-16 mai 1965. Paris: Presses universitaires de France, 1967.

L'Historien entre l'ethnologue et le futurologue: Actes du séminaire international organisé sous les auspices de l'association inter-

nationale pour la liberté de la culture, la fondation Giovanni Agnelli et la fondation Giorgio Cini, Venise, 2-8 avril 1971. Paris; La Haye: Mouton, [1972]. (Le Savoir historique; 4)

Image et histoire: Actes du colloque Paris-Censier, mai 1986. [Organisé par l'association histoire au présent]. Paris: Publisud, 1987. (Collection histoire au présent)

Johan Huizinga, 1877-1972. Papers Delivered to the Johan Huizinga Conference, Groningen 11-15 December 1972. Edited by W. R. H. Koops, E. H. Kossmann and Gees van der Plaat. The Hague: Nijhof, 1973.

Lasfargues, Jacques (dir.). *Architectures de terre et de bois: L'Habitat privé des provinces occidentales du monde romain, antécédents et prolongements, protohistoire, moyen âge, et quelques expériences contemporaines: Actes du 2e congrès archéologique de Gaule méridionale, Lyon, 2-6 novembre 1983.* Paris: Editions de la maison de sciences de l'homme: Diffusion, CID, 1985. (Documents d'archéologie française; 2)

New Trends in History (Colloque de Princeton, Etats-Unis, 1968)

Problèmes et méthodes de la biographie: Actes du colloque, Sorbonne, 3-4 mai 1985. [Organisé par l'association histoire au présent]. Paris: Publications de la Sorbonne: Histoire au présent, [1985].

Recherches sur les structures sociales de l'antiquité classique: Caen, 25-26 avril 1969. Paris: Editions du centre national de la recherche scientifique, 1970. (Colloques internationaux du centre national de la recherche scientifique. Sciences humaines)

Redondi, Pietro (ed.). *Science: The Renaissance of a History: Proceedings of the International Conference Alexandre Koyré. Paris, collège de France, 10-14 June 1986.* London: Harwood Academic Publ., 1987.



الفهرس

- ب -

ـ ت ـ

- ث -

- د -

- ذ -

- ر -

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

- ط -

- ظ -

- ع -

- غ -

- ل -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

